

علمية محكمة تصدر عن مركز التاريخ العربي

العدد (٥) - السنة الرابعة ٢٠٢٣م

عدد مجاني - غير مخصص للبيع

عيسى بن طريف واستراتيجية توحيد المجتمع القطري خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر

أ.د. يوسف العبدالله

الإخوان النجديون والكويت

أ. د. جمال محمود حجر

انهيار وتفكك الاتحاد السوفيتي بين عامي (١٩٨٥ - ١٩٩١م)

د. منصور عبدالله صالح منصور

الكوارث الطبيعية وأثرُها في التحَقيب التاريخي.. رؤيةٌ تاريخيةٌ جديدة

د.إسماعيل حامد إسماعيل علي

المترجمون ودورهم السياسي والاقتصادي والاجتماعي في العصر العباسي (١٣٢ - ٣٣٤هـ/ ٧٤٩ - ٩٤٥م)

د. يحيى أبو المعاطي محمد العباسي

جوانب من المجاعات والأوبئة خلال العصر المرابطي ٤٤٨ - ٥٤١هـ / ١٠٥٦ - ١١٤٦م

جمال رداحي





شروط وأحكام النشر

١- تنشر المجلّة العربية للدراسات التاريخية الأبحاث الأصيلة ذات المنهجيّة العلميّة الرّصينة والتي تلتزم بالموضوعيّة، وتتوافر فيها الدّقة والجديّة. في التاريخ ، وكافة العلوم الإنسانيّة والعلوم الاجتماعيّة ذات الصلة بالتاريخ.

٢- كلّ بحث لا يحترم شروط النّشر لا يؤخذ بعين الاعتبار.

٣- تخضع كلّ الأبحاث إلى التّحكيم من قبل هيئة مختصّة، ويلقى البحث القبول النّهائي بعد أن يقوم الباحث بالتّعديلات المقترحة.

٤- للمجلّة كلّ الحق في أن تطلب من الباحث أن يحذف أو يعيد صياغة بحثه، أو أي جزء منه بما يتناسب مع طبيعة المجلّة.

٥- لا يجب أن يكون البحث قد سبق نشره أو كان جزءا من كتاب منشور.

٦- يتعهّد الباحث بعدم تقديم البحث للنشّر في جهة أخرى، بعد إقرار نشره في المجلّة العربية للدراسات التاريخية، إلاّ بعد الحصول على إذن كتابيّ بذلك من مدير المجلّة.

٧- لا تتجاوز صفحات البحث المقدّم ٢٥ صفحة.

٨- على الباحث احترام شروط الكتابة التّالية:

- تحتوي الصّفحة الأولى من البحث على؛ عنوان البحث، الاسم الكامل للباحث ودرجته العلمية، والجامعة التي ينتمي اليها باللّغة العربيّة واللّغة الانجليزيّة، البريد الالكتروني للباحث، ملخّص للدّراسة في حدود ١٥٠ كلمة حجم ١٢ بلغة المقال وبلغة أجنبيّة (لإنجليزية)، الكلمات المفتاحيّة بعد الملخّص.

- تقدّم الأبحاث مكتوبة ببرنامج Word بخط Traditionnel Arabic حجم ١٤، تكتب العناوين الرئيسيّة والفرعيّة للفقرات بحجم ١٤ مثلها مثل النصّ الرئيسيّ لكن مع تضخيم الخط. أما الأبحاث المكتوبة باللّغة اللاتينيّة فتكتب بخط Time new Roman، بحجم ١٢ وتكون الحواشي ٤ سم على جوانب الصّفحة الأربعة، كما تدرج الرّسوم البيانيّة والأشكال التوضيحيّة في المقال، وتكتب عناوينها والملاحظات التوضيحيّة أسفلها، أما الجداول ترقم ترقيماً متسلسلاً وتكتب عناوينها أعلاها والملاحظات التوضيحيّة أسفلها.
- يلتزم الباحث بتهميش المعلومات على طريقة APA American Psychological Association
- بالنّسبة لعلامات الترقيم، توضع النّقطة (.) بعد الكلمة مباشرة دون وجود فراغ بينهما، ويوضع فراغ واحد بين النّقطة وبداية الجملة التّالية. كما لا توضع النّقطة (.) أبدا في العناوين، أمّا إذا كان العنوان يضمّ عنوانين أحدهما فرعيّ والآخر رئيسيّ فيفصل بينهما بنقطتين.
- يجب إدراك الفرق بين الفاصلة بالعربية (،) والفاصلة بالأجنبية (,) واستغلالهما في الكتابة المناسبة، كما تكتب الفاصلة بعد الكلمة مباشرة ولا يوجد فراغ بينهما.
- تكتب واو العطف ملتصقة بالكلمة التي تليها ولا يترك فراغ بينهما.
- عدم تزيين النصّ بالألوان والخطوط العريضة وتكبير الحجم، يجب احترام الشروط المعروضة سابقا.
- ضبط اتّجاه النصّ بالعربيّة من اليمين الى اليسار، والنصّ بالأجنبيّة من اليسار الى اليمين، وضبط اتجاه الجمل في النّصوص إذا كانت باللّغة العربيّة او بالأجنبيّة.
- عدم الإكثار من الفقرات وجمعها في نصّ سياقي واحد، واللّجوء الى الفقرات عند الضرورة النصية.

٩- الأفكار والآراء التي يتضمّنها البحث لا تعبّر عن رأي المجلّة وإنما هي وجهة نظر أصحابها. كما أنّ هيئة تحرير المجلّة غير مسؤولة عن أيّ سرقة علميّة تتم في البحوث المقدّمة لها.

١٠- يرفق صاحب البحث تعريفا مختصرا بنفسه ونشاطه العلميّ والثقافيّ.

١١- ترسل الأبحاث الى إيميل المجلة

c.a.h.p.e.j@gmail.com

المحتويات

الإخوان النجديون والكويت

أ.د. جمال محمود حجر

عميد كلية الآداب جامعة الإسكندرية الأسبق

أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر

كان الإخوان النجديون يمثلون قوة عبد العزيز آل سعود العسكرية الضاربة في توسعاته خارج نجد، وكان تشددهم الديني هو العنصر الأساس في ترابطهم، وكان ولاؤهم لعبد العزيز غير مشكوك فيه إلى أن لاحظوا أنه قد بدأ يتعامل مع "المشركين" (في إشارة إلى البريطانيين) الذين أخذوا يمسكون بزمام الأمور في منطقة الشرق الأوسط في أعقاب الحرب العالمية الأولى، وهو ما لم ينسجم مع ميولهم الدينية والسياسية، فحاولوا الضغط على عبد العزيز ليتجنب التعامل معهم، ولكن عبد العزيز رجل السياسة كان يعرف أهمية وضرورة التعامل مع بريطانيا التي تحيط به شمالا في مناطق الانتداب في العراق وشرق الأردن، وتحيط به شرقا في الخليج العربي، وغربا في البحر الأحمر، وجنوبا في اليمن، ما جعلها جارا مباشرا يستلزم الأمر التعامل معها.

وعلى غير رؤية عبد العزيز كان للإخوان رأي آخر، فقد كانوا يرون أن بلادهم تمتد إلى خارج نجد حيث يوجد الإنجليز الذين يجب أن يرحلوا عنها. هذا فضلا عن استقدام عبد العزيز واستخدامه لوسائل التواصل والاتصال الغربية الحديثة كالتليفون والبرق والسيارات، التي عدُّوها من عمل الشيطان. من هنا حصل الصدام الفكري بين عبد العزيز آل سعود ورجاله الذين شكلوا القوة الأساسية في توسعاته وخاصة في عمليات ضم الحجاز. وهو الأمر الذي عقَّد علاقاته ببريطانيا التي تجاوره على أطراف الحدود، والتي تملك قوة بحرية ضاربة من حوله في الخليج العربي من ناحية والبحر الأحمر من ناحية أخرى بعد ضم مملكة الحجاز إلى نجد، فصار عبد العزيز بعدها سلطانا على نجد وملكا على الحجاز.

كان هذا الخلاف في الرأي والرؤية سببا رئيسا في الأزمة التي وقعت بين عبد العزيز ورجاله،

وهـي الأزمـة التـي تطـورت إلـى حـد الصدام المباشر، ما دفـع الإخوان إلـى السعي للجوء إلى المناطق المجاورة. ومن سوء حظهم أن تلك المناطق كانت تقـع فـي دائرة الاهتمام والمسـؤولية البريطانيـة، ومـن تلـك المنـاطق كانت الكويت هدفهم في عام ١٩٢٩.

وفـي هـذه الورقـة نستعرض مواقـف خمسـة أطـراف: أولهـا عبـد العزيـز آل سـعود سـلطان نجـد، وبريطانيـا الدولـة الكبـرى صـاحبة الكلمـة فـي الشـرق الأوسـط، والشـيخ أحمـد الجـابر الصباح أمير الكويت، وزعماء الإخـوان (فيصل الدويش وفرحان بن مشهور)، وقبيلـة العـوزم التي كان تسعى لإنقاذ نفسها من هجمات الإخـوان بحكـم وجودها علـى أطـراف الحـدود بين نجد والكويت.

حين طلب الإخـوان اللجـوء إلـى الكويت فـي عام ١٩٢٩هروبا من عبد العزيز آل سعود، لم يلق طلبهم هذا آذانا صاغية في الكويت ولا تأييـدا مـن لنـدن[1]. عندئـذ أفصـح الإخـوان للكولنيـل هارولـد ريتشـارد ديكسـون Dickson المعتمد البريطاني في الكويت (١٩٢٩- ١٩٣٤) عن رغبتهم فـي عقـد معاهدة صداقة مع بريطانيا. ويعد هذا المطلب تحولا جوهريا فـي مواقف الإخوان الأساسية. لكـن نقـص الغذاء ومتطلبـات الحيـاة الضـرورية الأخـرى فـرض عليهم هذا الواقع الجديد؛ فقد فضل الإخوان بـذلك أن يتعـاونوا مـع المشـركين (الإنجليـز) على أن يسلموا أمرهم لعبد العزيز آل سعود. وباختيـارهم لهـذا الطريـق، فـإنهم يكونـون قـد سـلكوا الطريـق نفسـه الـذي سـبق لهـم أن اعترضوا على عبد العزيز السير فيه، وانتقدوه فـي البدايـة مـا دفعهـم إلـى الاصـطدام بـه. وفـي مقابـل هـذه المعاهـدة المقترحـة، قـدم الإخـوان لبريطانيـا عرضـا بعـدم الإغـارة علـى الأراضـي الواقعـة تحـت مسـؤوليتهم، وأكـدوا على دورهم في التعاون للحفاظ علـى الأمـن في الأطراف الجنوبية للمناطق الواقعة تحت الانتداب البريطاني.

كانت الحكومة البريطانية غير راغبة فـي السير علـى طريـق الوفـاق أو الهدنـة التـي تفرضـها المعاهـدة المقترحـة مـع الإخـوان، وكـان ديكسـون يرغـب فـي أن يظـل علـى اتصـال بهـم للوقـوف علـى حقيقـة نواياهم. و كـان يؤكد في كل لقاء يتم بينه وبينهم على أن حكومة بلاده ليست على استعداد أن تتعامل مـع عناصـر متمـردة علـى حـاكم صـديق، فـي إشارة إلـى عبد العزيز آل سعود، ولذلك فإنه

(1) Bond to F. O., 5 July 1929, E 3817/2322/91, C. O. to F. O. 13 July 1929, E 3850/2322/91, F. O. 371/13737.

لن يمكّنهم من الحصول على أية إمدادات من الكويت، وإنهم لو حاولوا اجتياز الحدود إلى الكويت، ستضربهم الطائرات البريطانية بالقنابل. وفي مواجهة هذا التهديد الخطير، حاول الإخوان تبرير معاداتهم لبريطانيا في السابق، موجهين اللوم إلى عبد العزيز نفسه، لأنهم كانوا من قبل مجرد جنود مطيعين لأوامره منفذين لتعليماته، وإنهم لم يتقبلوا في الماضي أية أوامر من غيره، وإن تعليماته كانت تصدر إليهم بشكل مباشر لمواصلة الغزو والإغارة مقابل الحصول على خمس الغنائم[1].

لقد كان الإخوان مقتنعين بضرورة تنفيذ تعليمات عبد العزيز، ولكنهم رأوا أنه "خدعهم"، وأنه خرَقَ دين الله، وأصبح وطيد العلاقة مع الإنجليز، وقد أثارهم ذلك وهيَّجَهم، بمن في ذلك المعتدلين منهم، وبالتالي كانت النتيجة الطبيعية هي أن يتمردوا عليه. وخرج ديكسون من حواراته معهم بانطباع مؤداه "إن الجميع قد أقسم على التخلص من نير سيطرة عبد العزيز آل سعود".[2]

لقد أوضح الإخوان أن تمردهم هذا يهدف إلى تأمين عقيدتهم وحياتهم وضمان سلامتهما، وإن هذا الهدف يمكن أن يتحقق بإقامة دولة صغيرة لهم في حال موافقة بريطانيا على عقد المعاهدة المقترحة معهم، أو في حال دخولهم تحت السيادة الكويتية، خاصة وأنهم "يعتبرون أنفسهم قبائل كويتية، ويرغبون في العودة إلى موطنهم الأصلي".

الواقع أن هذين الخيارين كانا متناقضين، إذ كيف يسعون إلى إنشاء دولة مستقلة، وفي الوقت نفسه يرضون بالتبعية للحكومة الكويتية، وما الفرق حينئذ بين تبعيتهم لعبد العزيز في نجد وتبعيتهم لأمير الكويت. الحقيقة أن الدولة الصغيرة التي تطلعوا إلى إنشائها كان من المفترض أن تقوم على أرض نجد، وفي هذه الحالة ليس من المتوقع أن يقحم الإنجليز أنفسهم في أمر كهذا، لأنه لم يكن يوما يدخل في أصول سياستهم في الجزيرة العربية. ومن جهة أخرى فإن ذلك

(١) بنى الإخوان حجتهم على أن الشريعة الإسلامية تقضي بأن يحصل الجنود المسلمون على خمس الغنايم التي يحققها جيشهم على جيوش غير المسلمين، باعتبار أن القوات البريطانية في العراق قوات غير مسلمة.

(2) Dickson (Kuwait) to the Resident (Bushire), visit of the Ikhwan leaders to Kuwait in July 1929, E 2322/2322/91, F. O. 371/13737; Jeddah Report, July 1929, F. O. 371/13728.

يتعارض مع التزامات بريطانيا السابقة تجاه عبد العزيز نفسه.

أما الخيار الثاني، الذي يعتبر الإخوان بمقتضاه عناصر كويتية، فإنه يثير مشاكل مشابهة لتلك التي كان يتجنبها البريطانيون، فلو أن الإخوان نجحوا في تأسيس موطئ قدم لهم في الكويت فإن ذلك سيؤدي إلى إثارة ادعاءات جديدة، ربما تكون هذه المرة من جانب عبد العزيز نفسه. إن مثل هذا الخلط في إظهار الولاءات والانتماءات الوطنية حير المسئولين البريطانيين وجعلهم يشكون في حسن نوايا الإخوان وفي قوة حجتهم. وتبين في هذه المرحلة أن قضيتهم الأصلية التي كانت قضية دينية قد تحولت إلى قضية سياسية، وهذا ما حاول ديكسون أن يتفادى الخوض فيه معهم. بل دفعهم إلى أن يعودوا إلى عبد العزيز قبل أن تضيع الفرصة. وفي ردهم على ذلك أكدوا في تواضع شديد وهدوء أن نواياهم طيبة، وأنهم يرجون ديكسون أن ينقل رغبتهم هذه إلى لندن وأن يُطَمئن حكومته ألا تخافهم في أي أمر يتعلق بالعراق أو الكويت.

كان ديكسون يعلم حقيقة الدوافع وراء موقف الإخوان، ولذلك راح يكتب إلى لندن قائلا: "إن الإخوان بدأوا يستشعرون آلام الجوع". ثم عاد وأكد تعاطفه معهم حين قال: "إذا كان للبريطانيين الحق في وقف عمليات تهريب الإخوان للسلاح والذخيرة عبر الحدود، فليس لنا أن نمنع الطعام عن نسائهم وأطفالهم"[1].

لقد حاول ديكسون أن يفصل بين المبادئ الإنسانية والسياسة، أو بعبارة أخرى أن يجد لنفسه طريقا بين التعليمات المتشددة الصادرة له عن لندن وما يراه هو نفسه على أرض الواقع. خلال هذه الفترة ازدادت الشكوك حول موقف الإخوان، وأصدرت لندن في ٢٥ يوليو ١٩٢٩ تعليمات إلى المقيم السياسي في الخليج (في بوشهر على الجانب الفارسي) تؤكد على أن موقف شيخ الكويت لا يزال على حاله تجاه هذه الأزمة، وأن يَعِد الشيخ بأنه "إن ظل متعاونا في هذه الظروف، فإن الحكومة البريطانية سوف تحاول أن تضمن له تسوية مشرفة للخلاف بينه وبين عبد العزيز"[2].

---

(1) Dickson to the Resident (Bushire), Visit of the Ikhwan leaders to Kuwait in July 1929, E 2322/2322/91. Also: C. O. to F. O., 22 July 1929, E 3678/2322/91, F. O. 371/ 13737.

(2) C. O. to the Resident (Bushire) 25 July 1929, E 3836/2322/91, F. O. 371/137/37.

لم يكن الإخوان بالطبع يعلمون بما كان يجري في أروقة الحكومة البريطانية، ولذلك أعادوا وضع رجاءهم بين يدي ديكسون، مؤكدين على حسن نواياهم من خلال أحد رجالهم، فرحان بن مشهور، في ٢٤ يوليو ١٩٢٩. وفي الوقت نفسه، دفع زعيمهم فيصل الدويش بعدد من النساء والأطفال والعجزة عبر الحدود إلى الكويت تحت تأثير الجوع الذي فرضه النقص الشديد في الطعام والماء في مناطقهم في شمالي نجد. وربما كانت هذه محاولة للضغط على شيخ الكويت أو على بريطانيا لمساعدتهم في حل مشاكلهم. وفي ٣٠ يوليو ١٩٢٩ عبر الدويش نفسه الحدود إلى الكويت والتقى بديكسون هناك[1]. وفي أعقاب ذلك مباشرة صدرت الأوامر لزعماء الإخوان بمغادرتها فورا.

لقد كان لقاء ديكسون بالدويش مُهِما للغاية. وبعده ذهب فرحان بن مشهور ليراه "نيابة عن جميع الإخوان" للتأكيد على الرغبة في تحقيق تسوية سياسية وهم في وضع قتالي أفضل، أي إنهم سيتفاوضون وهم في وضع أفضل، ولكنهم قد لا يكونون قادرين على الاستمرار في القتال بلا ماء أو طعام، أو كما قال ابن مشهور نفسه: "إننا اليوم منتصرون (على ابن سعود) وإن هذا الوقت يُعد مناسبا لتأكيد نوايانا الحسنة تجاه الإنجليز وطمأنتهم على أننا لن نهاجم القبائل المجاورة في أي من العراق أو الكويت (وهي قبائل تقع في دائرة النفوذ البريطاني)"[2].

وحرصا منهم على عدم التخلي عن رغبتهم في السلام، هدد الإخوان على لسان ابن مشهور بأنهم إذا لم يحصلوا من الإنجليز على الأمان في الكويت أو العراق، فإنهم سيتحولون للحصول على ذلك من الفرنسيين في سورية. ومن جهته اقترح فيصل الدويش أن يكون الشيخ أحمد الصباح إماما للإخوان بدلا من عبد العزيز آل سعود، وأن يكون وسيطا بينهم وبين الحكومة البريطانية[3]. وقعت توسلات الإخوان السابقة على آذان البريطانيين الصماء.

وهكذا كان موقف الإخوان يزداد تعقيدا وحرجا، فقد أذاعت وكالة رويتر مع نهاية أغسطس "إن قوات الحجاز عزلت قوات

(1) Jeddah Report, Aug. 1929, F. O. 371/13728.

(2) Dickson to the Resident (Bushire) 26 Aug. 1929, E 4939/2322/91, F. O. 371/13737.

(3) C. O. to F. O., 29 Aug. 1929, E 4330/2322/91, F. O. 371/13737.

الإخوان تماما وإنها حاصرت فيصل الدويش وأتباعه"[1]. هذا الموقف الحرج كشف عنه فيصل الدويش نفسه عند لقائه بكل من ديكسون والشيخ أحمد الصباح الذي أظهر تعاطفه مع الإخوان، ولكنه كان يخشى من تورطه في مشاكل نجد الداخلية، وأبدى دهشة كبيرة حينما علم أن بعض الأفراد من الإخوان يقيمون داخل الكويت بالفعل. وبالرغم من هذه المخاوف وما قد يترتب عليها، فقد أعلن الشيخ أحمد أنه "مهما كان الثمن فلا بد أن نحفظ لهؤلاء الناس (الإخوان) حياتهم من الأذى". وتوجه الشيخ أحمد إلى ديكسون قائلا "سيكون من المؤسف جدا لكم أيها الإنجليز ولي شخصيا أن يقتل هؤلاء الناس قتلا جماعيا". ومع ذلك فقد عبر الدويش عن عدم اكتراثه بمحاولات القتل الجماعي هذه قائلا "إن ذلك في حال حدوثه سيكشف لنا عن عدو جديد، وإذا قُتِل نساؤنا وأطفالنا سنتجه شمالا، ونتقدم عبر وادي الفرات إلى سورية بالرغم من أنف الإنجليز".[2] وهدد الدويش، كما هدد ابن مشهور من قبل، بأن يعمل ضد الإنجليز وأن يتحالف مع الفرنسيين. ومهما يكن من أمر فقد باءت جميع محاولات الدويش لكسب تأييد ديكسون بالفشل.

هذا الموقف السلبي من ديكسون تجاه الإخوان، وتلك الرغبة القوية من الشيخ أحمد لمناصرتهم، وتقديم العون لهم تحت تأثير الجوع والعطش، قد تدفع الإخوان إلى الانقلاب ضد بعض قبائل نجد التي رفضت الانضمام إليهم ضد عبد العزيز. أو كما أعلن الدويش أنه سوف يحيل كل قبائل نجد لتقف ضد عبد العزيز آل سعود. لقد كان الدويش حريصا على مصالحة الإنجليز ومحاولا إقناعهم أنهم ملتزمون تجاهه، واضعا قائمة بما قدم لهم من قبل من خدمات، قائلا:

"لقد خلَّصنا شمالي نجد من قوات ابن سعود، وهيأنا للجيش البريطاني فرصة طيبة حين دفعنا بقبائل مثل شمر والظفير إلى داخل العراق، والآن سوف نتعامل مع العوازم[3] الذين سنفصلهم عن ابن سعود"[4]. وحين وجه حديثه إلى الشيخ أحمد الصباح أصر

(1) The Resident (Bushire) to Dickson, 30 Aug. 1929, E 5009/2322/91, F. O. 371/ 13737.

(2) Dickson to the Resident (Bushire) 31 Aug. 1929, *ibid.*

(٣) حول قبيلة العوازم التي سيرد ذكرها تفصيلا فيما بعد، انظر: أحمد العبيد، *قبيلة العوازم: دراسة عن أصلها ومجتمعها وديارها* (بيروت، ١٩٧١).

(4) *Ibid.*

الدويش على أن الكويت كانت "الموطن الأصلي لقبائل المطير، وإن المطير والعجمان هي قبائلك المقاتلة، كانوا كذلك منذ نشأ الكون، لقد أُخذنا بعيدا عن موطننا باسم الدين على أيدي ابن سعود، ولكننا لم نعد في حاجة إليه، إننا نرغب في العودة إلى موطننا الأصلي وأن نكون تحت حكامنا القدامى، إننا نتحدث حديث المسالمين ولا نكذب، إننا لا نريد أكثر من الماء والكلأ"[1].

وبينما يحاول الإخوان التأكيد على رغبتهم في تحقيق السلام مع أعدائهم القدامى (الإنجليز) كانوا يستعدون لمحاربة أصدقائهم القدامى (من قبائل نجد) وتتلخص خطة الدويش في أن يترك الإخوان إبلهم ونساءهم في الكويت وأن يتوجهوا نحو نجد مرة أخرى ليقاتلوا أنصار عبد العزيز آل سعود[2]. ولكن ديكسون ذكّر الدويش أن بريطانيا على علاقة صداقة مع ابن سعود، ولذلك فإنها لن تنقلب عليه، وطلب إلى الدويش أن يغادر الإخوان الكويت على الفور. وهكذا بعد أن وضع الإخوان كل أوراقهم مكشوفة أمام ديكسون لم يعد أمامهم ما يتفاوضوا عليه. واضطر الدويش أن يغادر الكويت في الليل، معلنا أنه ذاهب إلى حيث مراعي العوازم وأنه يتكلم كلمة شرف، وأنه لن يستسلم لابن سعود.

عمل الإنجليز على الاستفادة من هذين اللقاءين مع الإخوان، وتأكد لديكسون أن من الصعب أن يكون هناك سلام بين الإنجليز والإخوان، الذين يصرون على القتال، والذين يفتقرون إلى الاستقرار التام. ولهذا قرر البريطانيون مواصلة تقديم المساعدة لابن سعود، كي يضعوا حدا لحركة تمرد الإخوان، ولتحقيق هذا الهدف تقرر إرسال طائرات وأفراد إلى ابن سعود بحلول شهر أغسطس ١٩٢٩. وتقديرا من لندن للضائقة المالية التي يواجهها ابن سعود بسبب الأزمة المالية العالمية وبسبب استمرار الفوضى في بلاده، قررت لندن إرسال السلاح على أن يقوم ابن سعود بسداد قيمته بالتقسيط، وعلى أن يعتبر خمس القيمة منحة لا ترد. وكان ذلك أول بادرة أمل في تعاون بريطاني - سعودي خلال هذه الأزمة[3].

ومع أنه غادر الكويت خالي الوفاض من أية وعود بريطانية، فقد وفّى فيصل الدويش

---

(1) *Ibid.*

(2) *Ibid.*; see also, Dickson, *Kuwait and Her Neighbours*, pp. 311-13.

(3) Jeddah Report, Aug. 1929, F. O. 371/ 13728.

بكلام الشرف الذي وعد به ديكسون؛ إذ غادر الإخوان الكويت تماما مع ٥ سبتمبر ١٩٢٩. وتوجه القسم الأكبر منهم جنوبا إلى الحسا حيث تقع مراعي قبيلة العوازم، بينما راح قسم آخر يغزو شمالي نجد. وقد جرى ذلك حينما كان عبد العزيز آل سعود مشغولا مع قواته في قمع حركة تمرد قبيلة عتيبة في جنوبي نجد فضلا عن مشاكل أخرى في الحجاز[1].

أدت غارات الإخوان على القبائل النجدية إلى اضطراب الموقف في نجد من جديد، وانفجرت حركة التمرد في مناطق مختلفة من نجد. وانتقد عبد العزيز آل سعود ديكسون نظرا لموقفه "اللين" تجاه الإخوان عندما كانوا في الكويت، وأدان قراره بالسماح لهم بالرحيل دون القبض عليهم أو إعدامهم نظرا لما ارتكبوه من جرائم سابقة. وقال وزير خارجيته فؤاد حمزة إن فشل دبكسون في إيقاع الأذى بالإخوان سوف يسفر عن صدور إشاعات عن تحول في موقف بريطانيا، الذي يبدو مواليا للإخوان، والذي يعتبر مخالفا للتعهدات التي قطعتها بريطانيا على نفسها تجاه عبد العزيز آل سعود في ٢١ يونيو ١٩٢٩.[2]

وفي ٢٢ سبتمبر تلقى فؤاد حمزة مذكرة تضم كامل التفاصيل حول الادعاءات الموجهة لبريطانيا بالسماح للإخوان باستخدام الكويت قاعدة آمنة. وأكدت المذكرة أن بريطانيا التزمت فقط بعدم السماح باستخدام أراضي الكويت من جانب الإخوان متمردي نجد. وحرص ديكسون على تفسير الالتزام البريطاني تجاه عبد العزيز كما وضعه المسؤولون في حكومة لندن. ولكن حمزة كشف عن أن المذكرة تضمنت نصا يقول إن الدويش "سيهاجم (قوات عبد العزيز) فورا حال تمكنه من دخول أراضي الكويت".[3]

وبينما كان الإنجليز حريصين على إبعاد الكويت عن التورط في أحداث وسط نجد، كان حمزة يشكك في نواياهم، وكان يعتقد في أن الإنجليز يتحدثون فقط عن حياد الكويت لكي يخفوا حقيقة تعاملهم مع الإخوان. ولكي تتفادى حكومة لندن أي سوء فهم بعد ذلك، بعثت برد رسمي إلى فؤاد حمزة في ٢٨

(1) *Ibid*, Sept. 1929; Bond to Hamza, 5 Sept. 1929, E 5409/2322/91, F. O. 371/13738.

(2) Fuad Hamza to Bond, 3 Sept. 1929, E 5013/2322/91, Bond to F. O. 9 Sept. 1929, E 5015/2322/91, F. O. 371/13737.

(3) Jeddah Report, Sept. 1929, F. O. 371/13728.

سبتمبر يؤكد على وجهة نظرها، ويطمئنه على أن الجملة موضع الجدل قد صيغت لكي تمكن المسئولين البريطانيين في المنطقة "من اتخاذ موقف متشدد عندما يكون ذلك ضروريا دون الرجوع إلى لندن".[1] لقد كانت حكومة لندن حذرة، فقد حاولت الظهور أمام العالم الخارجي كعاصمة لدولة كبرى محايدة في الصراع القائم بين ابن سعود والمتمردين من شعبه، وكانوا يخشون أي رد فعل سلبي تجاههم قد يأتي من أماكن متفرقة من العالم الإسلامي، وخاصة من الهند بعدما تلقوا عدة تحذيرات بهذا الشأن. وفي مواجهة صعوبات صناعة القرار من على البعد في لندن، وتوفيرا للوقت، قررت لندن إصدار التعليمات إلى رجالها في الموقع في كل من بغداد والكويت وبوشهر أن يظلوا على اتصال مباشر كي يتخذوا القرار المناسب في الوقت المناسب ليضيقوا الخناق على المتمردين[2]. وقدانتهز ابن سعود هذه الفرصة واقترح أن يرسل مبعوثا إلى بغداد ليكون ممثلا دبلوماسيا له هناك، ولكن لندن رفضت الفكرة، ربما لأنها قد تفهم على أنها اعتراف مبكر من الملك فيصل بن الحسين بعبد العزيز ملكا على الحجاز.[3]

كان هدف بريطانيا الذي نجحت في تحقيقه بحذر شديد هو أن تنكر على الدويش أي فرصة لإقصاء ابن سعود عن الحكم. ويتضح ذلك جليا في تقرير أعده نائب القنصل الأمريكي في بغداد في أول أكتوبر ١٩٢٩ بناء على معلومات تلقاها من ضابط بسلاح الجو البريطاني RAF. يفيد التقرير أن نشاطات الدويش تعتبر "خطرا حقيقيا على ابن سعود ... وإنه لو نجح في ذلك فإنه سيتزعم قضية العرب في فلسطين"[4]. وتكشف هذه الإشارة الأمريكية عن عين الأمريكيين الساهرة لتأمين اليهود في فلسطين.

لقد كان علاج مسألة تمرد الإخوان النجديين صعبا للغاية، وبدت مراجعة السياسة البريطانية في الشرق الأوسط بصفة عامة أمرا ضروريا. ووضع جورج رندل في أجندة وزارة الخارجية

(1) Bond to Hamza, 28 Sept. 1929, No. 2042/1464/38, F. O. 371/13738.

(2) The Resident (Bushire) to the High Commissioner (Iraq) 7 Sept. 1929, E 5010/2322/91, F. O.371/13737.

(3) Jeddah Report, Oct. 1929, F. O. 371/13728.

(4) American Vice consul (Baghdad) to the Sec. of State (Washington) 5 Oct. 1929, al-Rashid, *D.H.S.A.*, iii, pp. 39-41.

مذكرة في أول أكتوبر توضح كل الصعوبات التي واجهت كلا من بريطانيا وابن سعود. وبدا منها أن ابن سعود كان غير راض عن عدم اتخاذ موقف حاسم ضد الإخوان وعدم تأكيد وصول مساعدات له من بريطانيا. وهنا أوضح رندل إن موقف حكومة بلاده "صعب للغاية". ولذا رفض اقتراح ابن سعود بالضغط على الإخوان الذين رحلوا إلى العراق أو الكويت، وأضاف:

"إنني لا أعتقد أننا يمكن أن نعطي ابن سعود التزاما غير مشروط بأن نهاجم المتمردين الهاربين في حال وجودهم في أراضي العراق أو الكويت ... وإنه لمن الصعب حتى تسليمهم إلى ابن سعود الذي ... سيعاقبهم عقابا عنيفا ... كما أنه لمن الصعب جدا أن نحتفظ بأعداد كبيرة من الإخوان في أراضي العراق لمدة غير محددة ... إن مخاوف ابن سعود فيما يتصل بهذه المسألة ... لها أساسياتها، ولكننا في نفس الوقت ملتزمون تجاهه بتقديم كل أنواع المساعدات الممكنة، ولذلك فمن المرغوب فيه أن نعمل أقصى ما في وسعنا لمهادنتهم".[1]

وطبقا لما ذكره المسؤولون البريطانيون في لندن، اقترح رندل تقوية الوجود العسكري البريطاني في العراق والكويت، ولكنه تحفظ أن ذلك لن ييسر الأمر تماما، ولذلك اقترح أن يناقش الأمر بين الوزارات المعنية، وأشار إلى أن القضايا التي أثارها ابن سعود تحتاج إلى تناول حذر.[2]

وجريا على هذا النهج، بدأت بين الوزارات البريطانية المعنية مناقشات مبدئية لمناقشة الموضوع الذي أثاره ابن سعود مؤخرا، والذي يفيد أن الإخوان سيهاجمون بلاده من جديد في حال نجاحهم في اتخاذ العراق أو الكويت أو حتى سوريا ملجأ لهم. وطرح استخدم الطيران في مثل هذه الحالة وتأكد أنه وسيلة غير مناسبة خاصة في حال اصطحاب الإخوان لأسرهم من الأطفال والنساء. ووصل الاجتماع إلى نتيجة مؤداها أنه من المستحيل الالتزام تجاه ابن سعود بالمطلب الذي أراده. ومع ذلك وجد المؤتمرون أن من الممكن تلبية بعض مطالب ابن سعود عن طريق

---

(1) Minute by Rendel, 1 Oct. 1929, E 5002/2322/91, F. O. 371/13737. For Ibn Saud's attitude see: Ibn Saud to H. M. G. =

= 26 Sept. 1929, E 5418/2322/91, F. O. 371/13738.

(2) Minute by Monteagle, 1 Oct. 1929, Minute by Oliphant, 2 Oct. 1929, E 5002/2322/91, F. O. 371/13737.

وضع قوات بريطانية على الحدود مباشرة في كل من العراق والكويت، وعمل ترتيبات للاتصال بين العناصر الموالية والمسئولين عن الحدود في العراق والكويت[١]. ولكن لو حدث ودخل أطفال أو نساء لأي من هذه المناطق فإن موقف بريطانيا سيكون حرجا لأسباب إنسانية. ولذلك اقترح الاجتماع إطلاع ابن سعود على هذا الاحتمال طالما أنه يمكن أن يتهم الإنجليز بعدم الوفاء بالوعد. وبعد ذلك اتُّفِق على أن يُطلب إلى ابن سعود بأن يرسل مبعوثين إلى المسئولين على الحدود ما يفيد تحركات العناصر الموالية له، مع التأكيد على أن العناصر الموالية له ممنوعة كذلك من دخول أي من العراق أو الكويت[٢].

ظلت لندن قلقة على مركز ابن سعود، وتمنت لو أنه استطاع أن يعالج مشاكله بنفسه دون تدخل بريطانيا. وأكدت كل التقارير المحلية والرسمية على أن عبد العزيز يواجه تحديا خطيرا لم يواجهه منذ بداية حركة تمرد الإخوان. وكان الحجازيون في ذلك الوقت يعتقدون أن مصير الحجاز وباقي شبه الجزيرة العربية يتوقف على المعركة الحاسمة الفاصلة بين عبد العزيز والمتمردين،[٣] وأن عبد العزيز لن يعيش أكثر من شهر واحد.[٤]

لقد أصبح موقف عبد العزيز حرجا للغاية، فهو لم يفقد مقاتليه من الإخوان الذين تمردوا عليه فقط، بل إنهم أنفسهم أصبحوا أشد أعدائه، وخاصة أن محاولات وضع قوات أخرى نظامية[٥] في مكانهم واجهت صعوبات اجتماعية ومالية. وحتى حينما نجح في النهاية في أن يفعل ذلك، فإن قواته الجديدة لم تكن تتمتع بالحماس الذي كان يتمتع به الإخوان. وقد شبههم ديكسون بقوات كرومويل الحديدية Cromwell's ironsides أو بقوات العاصفة الألمانية German storm troops. هكذا بقي مركز ابن سعود ضعيفا حتى إن بوند Bond قال "إن معظم القبائل ستثور ضد ابن سعود في الحال إذا ما ظهرت بادرة واحدة لإمكان التخلص منه".[٦]

لا شك أن ابن سعود عانى كثيرا من الإهانة حينما وجد نفسه عاجزا عن حماية أنصاره من

(1) Minute by Rendel, 3 Oct. 1929, *op. cit.*

(2) Jeddah Report, Oct. 1929, F. O. 371/13728.

(3) Bond to Henderson, 22 Sept. 1929, E 5410/2322/91, F. O. 371/13738.

(٤) المنار، العدد ٣٠ (١٩٢٩- ١٩٣٠) ص ٣٩٧

(٥) حول جيش ابن سعود انظر: أم القرى، ٦ يونيو، ٤ يوليو، ١١ يوليو، ١٨ يوليو ١٩٢٩.

(6) Bond to Henderson, 22 Sept. 1929, E 5410/2322/91, F. O. 371/13738.

العوازم، الذين هزموا في أكتوبر على أيدي القوى المشتركة لكل من المطير والعجمان تحت قيادة فيصل الدويش زعيم الإخوان. وحينما وجد العوازم أنفسهم بغير حماية في أرضهم، طلبوا من شيخ الكويت أن يوفر لهم حماية دائمة، خاصة وأنه والوكيل السياسي البريطاني كانا مستعدين لتقديم هذه الخدمة، لأن البديل الوحيد المطروح حينئذأمام العوازم هو أن يلقوا بأنفسهم في صفوف الإخوان ضد ابن سعود. عندئذ وافقت لندن على السماح للعوازم بدخول الكويت بحجة أن ذلك لا يتعارض بأي حال مع المواقف التي سبق أن تبنتها حكومة لندن من قبل، باعتبار أن العوازم من أصل كويتي.(1)

وبانضمام العوازم إلى قوات شيخ الكويت، رأى بعض المسؤولين البريطانيين أن الشيخ "ربما يكون قادرا على حماية الكويت ضد غارات الإخوان". ولكن وزارة الخارجية البريطانية كانت ترى أن ابن سعود "لا يمكن أن يتخلى عن إحدى القبائل طواعية إلى دولة أخرى"(2)، لأن ذلك يؤدي إلى تقلص عدد المقاتلين من رجاله، كما أنه ربما يؤدي إلى تقليص أراضيه، إذا أضيفت مراعي العوازم إلى أراضي الكويت. وقد يغرى شيخ الكويت ألا يضيع مثل هذه الفرصة، وأن يستثمر العوازم كورقة للمساومة في إنجاز أي تسوية بينه وبين ابن سعود. ومهما يكن من أمر، فإن هزيمة العوازم ولجوئهم إلى الحدود الكويتية كان ذا فائدة للدويش. وأول ما استفاده المتمردون هو استخدام مراعي العوازم الواسعة في إقليم الأحساء. وفي ٣٠ أكتوبر تلقى العوازم تأكيدات بحماية الكويت لهم. وبالفعل أرسل شيخ الكويت بعض رجاله إلى العوازم في ١٦ نوفمبر ١٩٢٩ ليدعوهم للرعي داخل أراضيه(3).

احتج ابن سعود بقوة على الإجراء الذي اتخذته الكويت بشأن استقبال العوازم وبعض عناصر الإخوان، وطالب كلا من الشيخ أحمد الصباح والبريطانيين بضرورة طردهم من

(1) See: Bond to F. O. 15 Oct. 1929, E 5308/2322/91; C. O. to F. O. 18 Oct. 1929, E 5376/2322/91; C. O. to F. O. 21 Oct. 1929, E 5434/2322/91; I. O. to F. O. 28 Oct. 1929, E 5556/2322/91, F. O. 371/13738; *Oriente Moderno*, ix (1929), p. 481.

(2) F. O. Minutes, 17 Oct. 1929, E 5127/4032/91, F. O. 371/13740.

(3) Jeddah Report, Nov. 1929, F. O. 371/13728; The Resident (Bushire) to C. O., 31 Oct. and 1 Nov. 1929, E 5651/2322/91, F. O. 371/13738.

الكويت.[1] وقال ابن سعود إن الادعاء بهزيمة العوازم كان "خدعة من جانب الدويش كي يحتفظ بعض أصدقائه في الكويت ثم يستخدمهم عند اللزوم في تحقيق أغراضه الخاصة"[2]، كما أدان ابن سعود تصرف الشيخ أحمد تجاه العوازم الذي يستثمر مشاكل نجد لصالحه.

لم يتلق ابن سعود أي رد على شكواه ضد الكويت قبل ٥ ديسمبر. بل دافعت بريطانيا عن قرارها في مساندة قرار الشيخ أحمد الصباح بالسماح للعوازم باللجوء إلى بلاده. وكان من المتفق عليه بين آل الصباح والبريطانيين "أن العوازم في حال استسلامهم لفيصل الدويش لا يمكن اعتبارهم جزءا من قوات الملك عبد العزيز. وتبقى القاعدة الثابتة أنه لا يمكن اعتبارهم متمردين". وبناء عليه، فإن موقف بريطانيا لا يعتبر "متناقضا مع قرارها بعدم السماح لقوات عبد العزيز بعبور الحدود (إلى الكويت)، ولا مع التزامها بعدم السماح للمتمردين في أن يجدوا لأنفسهم ملجأ في الكويت". في الواقع إن الخيار أمام العوازم كان محدودا للغاية، ولم يزد عن "أن يُلقوا بأنفسهم إلى جانب المتمردين وأن يقاتلوا الملك (عبد العزيز)"[3]، وهو خيار حاولت بريطانيا أن تتفاداه. في هذه الظروف، لقد كان من صالح الملك عبد العزيز أن يحيّد العوازم، وأن يسمح لهم بدخول الكويت كي لا يكونوا في دائرة الإخوان على أطراف الحدود، والحق أن بريطانيا زكت هذا الاتجاه.

وحقيقة الأمر إن قبيلة العوازم لم تدخل الكويت، وإنما بقيت في المنطقة المحايدة. وهذا ما جعل الشيخ أحمد غير سعيد بهذا الوضع، مما دفعه إلى أن يأمرهم في ٨ ديسمبر أن يختاروا بين دخول الكويت في خلال عشرة أيام أو لا يسمح لهم بالعبور إلى أراضيه على الإطلاق، وأن تمنع عنهم الإمدادات. لقد كان الشيخ يسعى إلى أن يضيف القبيلة إلى قبائله، فإن نجح في ذلك فإنه سينقلهم من منطقة أطراف الحدود المضطربة إلى الداخل. ولكن العوازم الذين كانوا متغيري الولاء، أصروا على موقفهم بشأن الإقامة على أطراف الحدود لأن إبلهم

(1) Bond to F. O., 24 Nov. 1929, E 6069/2322/91, F. O. 371/13738.

(2) Jeddah Report, Nov. 1929, F. O. 371/13728.

(3) Jeddah Report, Dec. 1929, F. O. 371/14460. See also: F. O. to Bond, 4 Dec. 1929, E 5651/2322/91, F. O. 371/13738.

كانت في حالة سيئة، وإن هذا الموقع المؤقت قدم لهم الحماية التي احتاجوا إليها. ولكن هذه الحجة كانت مرفوضة من شيخ الكويت، وبعد ذلك "عوملت قبيلة العوازم كجزء من العناصر المتمردة، ثم منعت عنها الإمدادات من الكويت". ونتج عن ذلك أن أغارت العوازم على الكويت ثلاث مرات. وأدى ذلك إلى اقتناع البريطانيين بعدم الركون إلى وعودهم[1].

لقد وضعت السياسة البريطانية العوازم في مركز غير مستقر، أو على حد تعبير رندل الذي قال إن ذلك "ربما يثير مخاوف ابن سعود الشديدة"[2]. على كل حال، فإن قرار طرد العوازم كان صعبا كذلك، وفي كل الأحوال فإن التزام بريطانيا تجاه ابن سعود، لم يكن يلزمها في الواقع بأن تتخذ مثل هذه الخطوات القاسية كما اقترحها ابن سعود نفسه. وبناء على ما سبق بقيت مسألة تأمين الحدود الاصطناعية التي وضعتها بريطانيا في شبه الجزيرة العربية غير مستقرة في مجتمعات أغلب سكانها من البدو الرحل.

---

(1) Jeddah Report, Dec. 1929, F. O. 371/ 14460.

(2) Minute by Rendel, 6 Dec. 1929, E 6374/2322/91, F. O. 371/13739.

انهيار وتفكك الاتحاد السوفيتي بين عامي (١٩٨٥ـ ١٩٩١م)

دراسة قدمها:

د. منصور عبدالله صالح منصور

أستاذ مساعد / بكلية التربية زنجبار- جامعة أبين

ملخص البحث:

يستعرض هذا البحث انهيار وتفكك الاتحاد السوفيتي بين عامي (١٩٨٥-١٩٩١م)، وتنبع أهميته بانتهاء احد ابرز القطبين الذين ضل يتقسما دول العالم مع الولايات المتحدة الأمريكية فيما بينهما منذ (١٩٤٥- ١٩٩١م).

أختص بما قدّم ميخائيل جورباتشوف آخر زعيم للاتّحاد السوفييتي، والذي تولّى السلطة عام ١٩٨٥م، خطة لمستقبل البلاد بناء على فكرتين هما: البريسترويكا تعني إعادة الهيكلة؛ حيث كان الاتّحاد السوفييتي سيبدأ في التحرك على أساسها نحو نظام شيوعيّ رأسماليّ هجين، وسيبقى المكتب السياسيّ واللجنة المركزيّة للتّخطيط بالتّأثير على اتّجاه الاقتصاد، ولكن ستسمح الحكومة لقوى السوق بإملاء بعض قرارات الإنتاج والتطوير، وتناولت الفكرة الثّانية (الجلاسنوست) وتعني له رفع القيود الشخصيّة للشعب السوفييتي؛ فأعطت هذه الخطة صوتاً حرّاً للشعب السوفييتي في التعبير عن نفسه، وسرّعت إصلاحات جورباتشوف في سقوط الاتّحاد السوفييتي، وأدى تخفيف القيود على الشعب، وإجراء إصلاحات على النخب السياسية والاقتصاديّة إلى إظهار ضعف الحكومة السوفييتية، والتي أصبحت معرّضة لهجوم السوفيتيينّ الآخرين، الذين استخدموا سلطاتهم الجديدة لتنظيم وانتقاد الحكومة.

تناول الضغوط الداخلية والخارجية السياسية والاقتصادية، والدور الامريكي

الغربـي (الحـرب البـاردة)، وكـذا اسـتعراض الأسـباب الأخـرى منهـا الخيانـة والعمالـة (الخيانـــة العظمـــى)، والفســـاد فـــي الســـلطة العليـــا للمكتـــب السياســـي الســـوفيتي، كـــل ذلـــك كـــان وراء انهيـــار وتفكك الاتحاد السـوفياتي ونجحـوا فـي ذلـــك عـــام ١٩٩١م فـــي إنهـــاء الحكـــم السوفييتي، الذي مكث (٦٩) عاما.

على الصعيد الدولي مَثّل تفكك الاتحاد الســوفيتي نهايــة الحــرب البــاردة، حيــث ساعدت ثـورات عـام ١٩٨٩م، إضافة إلـى تفكك الاتحاد على نهاية العداء المستمر منـذ عقـود بـين منظمـة حلـف شـمال الأطلسـي (الناتو) وحلف وارسـو، والذي كان السمة المميزة للحرب الباردة (١٩٤٧-١٩٩١م).

Research Summary.

This research reviewed the collapse and disintegration of the Soviet Union between the years (19٨٥ - 1991). Its importance stems from the end of one of the most prominent poles that kept dividing the countries of the world with the United States of America between them since (1945 - 1991). In particular, Mikhail Gorbachev, the last leader of the Soviet Union, who took power in 1985, presented a plan for the country's future based on two ideas: perestroika means restructuring, where the Soviet Union would begin to move on its basis towards a communist-capitalist hybrid system, and the Politburo and the Central Committee for Planning would continue to influence the direction of the economy, but the government would allow market forces to dictate some production and development decisions, and dealt with the second idea (glasnost). It meant for him the lifting of the personal restraints of

the Soviet people. This plan gave the Soviet people a free voice to express themselves, Gorbachev's reforms hastened the fall of the Soviet Union, the easing of restrictions on the people, and reforms to the political and economic elites showed the weakness of the Soviet government, which became vulnerable to attack by other Soviets, who used their new powers to organize and criticize the government.

The research also dealt with internal and external political and economic pressures, and the American-Western role (the Cold War), as well as highlighted other reasons, including disloyalty (high treason) and corruption in the supreme authority of the Soviet Politburo. Soviet rule, which lasted (69) years.

On the international level, the dissolution of the Soviet Union marked the end of the Cold War, as the revolutions of 1989, in addition to the dissolution of the Union, helped to end the decades-long hostility between the North Atlantic Treaty Organization (NATO) and the Warsaw Pact, which was the hallmark of the Cold War (1947-1991).

المقدمة:

يعدّ موضوع انهيار وتفكك الاتحاد السوفيتي بين عامي (١٩٨٥- ١٩٩١م)، ذا أهمية؛ لأنه الاتحاد السوفييتي منذ تأسيسه عام ١٩٢٢م، وضمَّ "خمس عشرة" دولة من أوروبا الشرقية وآسيا الوسطى، ومن وقت تأسيسه أخذ يهتف لشعارات ثورية، وكان هدفه إنهاء الرأسمالية من العالم ووضع النموذج الاشتراكي بدلاً منه؛ إلا أن تضخم هذه القوة لم يُعجب الولايات المتحدة الأمريكية، والتي دخلت حينها فيما أُطلق عليه الحرب الباردة مع الاتحاد السوفيتي من منتصف القرن العشرين، وكان من مظاهر هذه الحرب الباردة انقسام العالم إلى جهتين هما الشيوعية والليبرالية، وسائل الإعلام، والوسائل المخفية مثل الجواسيس والعملاء السريين. بدءا انهياره وتفككه بعد مرور (٧) عقود، عندما توفي تشيرنينكو في ١٠/ ٣/ ١٩٨٥م، إذ انتخب المكتب السياسي في اليوم التالي جورباتشوف- أميناً عامّاً للحزب الشيوعي، وكان الهاجس الأكبر لجورباتشوف في مستهلّ قيادته للاتحاد السوفيتي، هو إنعاش الاقتصاد السوفيتي الراكد منذ حكم ليونيد بريجنيف (١٩٦٤-١٩٨٢م)، انتقد فيه علناً "النظام الاقتصادي غير الفعال للاتحاد السوفيتي"، القائمة على تحكُّم الدولة في الاقتصاد، وإدارته مركزيا، وأطلق في عام ١٩٨٧م إصلاحاتِ على النظام الاقتصادي والسياسي في الاتحاد السوفيتي؛ غير أن هناك عوامل داخلية وخارجية اعاقت تنفيذ تلك الإصلاحات، كما أن إصلاحاته جاءت بنتائج عكسية، ولهذا كانت سنة ١٩٨٨م هي بداية انهيار الاتحاد السوفيتي بسبب ضغط الولايات المتحدة الأمريكية السياسي والاقتصادي والعسكري على الاتحاد السوفيتي الذي كان على حافة الهاوية.

فقد اختير هذا البحث لعدة أسباب، من أهمها: مفاجئة القرن الواحد والعشرين، تمثل في انهيار وتفكك دولة عظمى، أحدثت تغييرات سياسية جذرية في الخارطة السياسية، وطبوغرافية، بذلك فتحت افاق جديدة أمام الباحثين الدراسات الأكاديمية للغوص في

مجريات الأحداث التاريخية للبحث ولكن برؤية متجددة.

استخدم المنهج النقدي التحليلي للأحوال السياسية والاقتصادية للوصول إلى الاستنتاجات المطلوبة.

وهي رغبة ذاتية في متابعة الأحداث التاريخية والسياسية لقوى عظمى وتفككها في هذه المدة القصيرة؛ لكون تفكك الاتحاد السوفيتي نهاية الحرب الباردة، حيث اغفل الستار عن العداء المستمر منذ عقود مع أمريكا والغرب.

وقد قسم البحث على تمهيد، و ثلاثة مباحث:

تمهيد:

الخلفية التاريخية لنشأة اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفيتية" الاتحاد السوفياتي.

يتناول الخلفية التاريخية لنشأة الاتحاد السوفياتي منذ بداية تكوينه، ومساحته، ونسبة سكانه، إضافة إلى ذلك القوة الاقتصادية له.

١- نظام الحكم للحزب الشيوعي وتمدده في تنظيم الدولة العظمى" الاتحاد السوفياتي:

اختص بتعريف نظام الحكم للحزب الشيوعي وتمدده في تنظيم اتحاد الجمهوريات السوفيتية، وفي السلطة السياسية، وبين قواته المسلحة بمختلف تشكيلاتها، وكذا توسعه منذ تأسيسه عام ١٩٢٢م، وتحوله مع نهاية الحرب العالمية الثانية إلى دولة عظمى، جانب دوره وهيمنته على الساحة الدولية حتى عام ١٩٨٥م.

٢- تدهور قوة الاتحاد السوفيتي:

تناول تدهور قوة الاتحاد السوفياتي، بدءا من ضعف الدولة المركزية "الاتحادية"، ومدى القوة التي مارسها النظام المركزي، مما أدى إلى وجود نوع من الكبت، والنزعة القومية، خاصة بين الشعوب التي تم ضمها بالقوة إلى الاتحاد السوفيتي؛ كذلك فشلت الإصلاحات التي وضعها ميخائيل جورباتشوف، التي جاءت بنتائج سلبية على شعوبه أدت إلى ايقاظ النزعة القومية والعرقية، بين شعبه، مما عجل في انهيار وتفكك الاتحاد.

٣- الأسباب التي أدت إلى انهيار وتفكك الاتحاد السوفياتي:

يتناول الاسباب التي أدت إلى انهيار وتفكك الاتحاد السوفيتي ومنها

الضغوط الداخلية والخارجية إضافة إلى الاســـباب الاقتصـــادية، والسياســـية، والايدلوجيـة، إضافة إلـى اسـباب أخـرى منهـا المـؤامرة الداخليـة، والماسـونية العالمية، والولايات المتحدة وحلفائها من الغـرب والشـرق، مثـل الحـرب البـاردة والمسـتنقع الأفغـاني، كّـل أدت إلـى انهيار وتفكك الاتحاد السوفيتي وازاحته من المشهد السياسي إلى الإبد.

واجهـت الباحـث بعـض الصعوبات فـي أثنـاء جمـع مـادة البحـث؛ وعـدم تـوفر الوثائق في اليمن، وقلة الكتب وترجمتها؛ مـن جانـب آخـر كتـب كثيـر مـن البـاحثين والمؤرخين والسياسيين عـن فترات زمنية مختلفة لمراحل تاريخ الاتحاد السوفياتي، لـم تركـز هـذا الموضـوعات باسـتقلالية وبأسلوب أكاديمي علمي على موضوع بحثنا، وإنما كان تناولها لجانب معين من تاريخ الاتحاد السوفياتي.

يأمل الباحث أن يكون هذا البحث حلقة مكملة للأبحاث والدراسات السابقة التي تناولت تـاريخ الاتحـاد السـوفياتي، حاولت في هذا البحـث استعراض اسباب (انهيار وتفكـــك الاتحـــاد الســـوفيتي بـــين عـــامي"١٩٨٥- ١٩٩١م")، تغطيــة فتــرة " ســت ســنوات"، منــذ تــولى ميخائيــل جورباتشوف السلطة للاتحاد، ومشروعه الإصــلاحي، وفشـــله فـــي تحقيقـــه وانعكاســـه علـــى تفكـــك الاتحـــاد السوفيتي.

وإننـــي أتوجـــه بالـــدعاء للـــه-ﷻ- أن يـــوفقني فـــي عملـــي هـــذا، وأرجـــو أن يكون حائزًا، على الرضا، فإن أصبت فهذا توفيق من الله، وإن قصرت فذلك يعود على، ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾، ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾.

انهيار وتفكك الاتحاد السوفيتي بين عامي (١٩٨٥ـ ١٩٩١م)

تمهيد:

الخلفية التاريخية لنشأة اتحاد الجمهوريات الاشـــتراكية الســـوفيتية" الاتحـــاد السوفياتي:

هـــو اتحـــاد الجمهوريـــات الســـوفيتية الاشتراكية، ويرمز له اختصاراً ب (CCCP)، ويختصـر اسـمه باللغـة العربيـة بمُسـمى الاتحـــاد الســـوفييتي، وتشـــير كلمـــة ســـوفييت*، فـــي اللغـــة الروسـية إلـــى الكيان.

١- بداية تكوين الاتحاد السوفياتي:

الاتحـاد السـوفيتي عبـارة عـن دولـةٍ دستوريةٍ شـيوعية، تأسّسـت فـي ثلاثين ديسـمبر مـن عـام ١٩٢٢م، وجاءت فكـرة تكوينـه ونشـأته لِمجموعـةٍ مـن الأحـداث السياسـيّة التـي ألحقتْ الضعف والـوَهن فـي الإمبراطوريـة الروسـية، ومـن أهـمّ هـذه الأحـداث: الثّورة البلشـفية الروسـية، والتـي انـدلعت شـرارتُها فـي عـام ألـف وتسـعمائة وسـبعة عشـر ميلاديـة ضـد حكـم القيصـر (نيكـولاي الثـاني) الـذي اضطر إلى التنحي عن العرش وتم عزله وعائلتـه، وتشـكلت حكومـة مؤقتـة تحـت زعامة فلاديمير لينين الذي قاد الاحزاب الليبراليـة والاشـتراكية، والجـيش الاحمـر بقيـادة ليـون تروتسـكى، ضـد الحكـم القيصـري فـي روسـيا، وتحـول مسـارة الثورة الجديدة إلى حربٍ أهليةٍ استمرّت لمدةِ أربع سنوات كاملة، أي منذ (١٩١٨ - ١٩٢١م)، مـات مئـات الألـف وتـم اعـدام القيصر وعائلته على يد الثوار البلشفين، وتبين بأن الاشتباكات الأهلية ما هي الا الفصل الأخير إلى نشأة الشيوعية في العالم وقد تبنت أفكار كارل ماركس.

وفـي ٣٠/ ديسـمبر١٩٢٢م تـم الإعـلان عـــن تأســـيس الاتحـــاد الجمهوريـــات الاشتراكية السوفيتية وضمت أربع دول هي (روسيا، وبيلاروسيا، وأوكرانيا، ما وراء القوقـــاز)، علـــى أنقـــاذ الإمبراطوريـــة الروسية القيصرية، تحت رئاسة أبو الدولة السوفيتية فلاديمير لينين، وبعد وفاته عـام ١٩٢٤م، تـولى الأمـين العـام للحـزب

الشيوعي جوزيف ستالين مقاليد الحكم وتحقيق إنجازات كبيرة داخلية وخارجية، ولكنه كان عرضة للاتهامات بممارسة القبضة الصارمة على البلاد.(١)

بعد أنتهى الحرب العالمية الثانية بقي الاتحاد السوفيتي يتوسع في الساحة من سنة إلى سنة إلى درجة أن أصبحت مساحته أكبر من روسيا القيصرية باستثناء "لأسكا" التي باعتها روسيا القيصرية للولايات المتحدة الأمريكية بمبلغ (٧،٠٠٠،٠٠٠) مليون دولار، عام١٨٦٧م؛ خرج دولة ذات قوة عسكرية عظمى، وقف مقابل الولايات المتحدة الأمريكية.

في عام ١٩٥٦م اصبح الاتحاد السوفيتي وليد اتحاد خمس عشرة دولة، وهي: (روسيا، وأوكرانيا، وجورجيا، وأذربيجان، وأوزباكستان، وتركمانستان، وقيرغيزستان، وطاجيكستان، ولاتفيا، وليتوانيا، واستونيا، ومولدافيا، وروسيا البيضاء، وأرمينيا)، وكانت روسيا أكبر هذه الدّول، وتُعتبر المُؤسسة لهذا الاتحاد؛ أي إنّها الوريث الشرعي لها.(٢)

الاتحاد السوفياتي دولة شيوعية بين عامي (١٩١٧- ١٩٩١م)، تأسست بثورة اشتراكية في روسيا القيصرية، وتوسعت بضم "١٥" جمهورية فصارت أكبر دولة في القرن العشرين؛ قادت المعسكر الشيوعي العالمي سبعة عقود (٦٩) عاما، وتقاسمت الهيمنة الدولية مع الولايات المتحدة ما بين (١٩٤٥- ١٩٩١م) بما يعرف بالحرب الباردة.(٣)

٢- مساحة وسكان الاتحاد السوفيتي:

تمتد مساحة الاتحاد السوفيتي لِتصل إلى (اثنين وعشرين مليون وأربعمائة واثنين ألف) كيلومتراً مربّعاً، وتُعتبر هذه المساحة بمثابة سُدس المساحة الكلية للكرة الأرضية، وشملت حدودها أغلب

(١) عمارة، سامي: انهيار الاتحاد السوفياتي بين المقدمات والنتائج (١٩١٧- ١٩٩١م)، مجلة أندبندنت عربي بودكاست، لندن، سبتمبر٢٠٢٠م، ص٨.
تعني النصيحة وهي التي تكون بها أول مجلس محلي للعمال عام١٩٠٥م.

(2) Richard Sakwa *The Rise and Fall of the Soviet Union, 1917-1991.* Routledge, 1999. pp. 140–143.

(٣) إمبراطورية موسكو- الصعود والسقوط- الجزء الأول: فلم وثائقي، قناة D8 W.B0camentary، وثائقية دي دبليو، You Tube.

مساحة منطقة أور آسيا (أوروبا وآسيا)، وأمّا فيما يتعلق بالجزء الأوروبي فقد كان يحتل رُبع مساحة الاتحاد السوفييتي، ويُعتبر الجزء الأوروبي من هذا الاتحاد هو العنصر الأساسي في نمو اقتصاده ومركز الثقل به، كما يلعب دوراً مهماً في المجال الثقافي؛ بلغ طول حدود الاتحاد السوفيتي حوالي ستين (٦٠،٠٠٠) ألف كيلومتر مربع، وتعتبر أطول حدود في العالم، كما يضم ضمن حدوده بحيرة "بايكال" وهي أكبر بحيرة من المياه العذبة، وتقع حالياً ضمن حدود روسيا.

يبلغ عدد سكان الاتحاد السوفييتي بين عامي (١٩٢٢- ١٩٩١م)، قدر بنحو (٢٩٣،٠٠٠،٠٠٠) مليون نسمة، يتوزعون على (١٢٠) قومية عرقية ولغوية، وتقدر مصادر عدد المسلمين ب (٦٠- ٧٠) مليون نسمة، على مساحة قدرت ب (٥٣٨,٦٠٠) كلم منها بلاد إسلامية، وبلغ طول الاتحاد (١٠،٠٠٠) آلاف كلم، وعرضه تراوح بين (٣٠٠٠-٤٥٠٠) كلم، وكانت تحده (١٢) دولة، وتحيط به ثلاثة محيطات وبحارها المتفرعة منها.[1]

٣- اقتصاد الاتحاد السوفيتي:

اقتصاد الاتحاد السوفيتي اعتمد الاتحاد السوفيتي في اقتصاده على اتباع أسلوبِ التخطيط المُمَركز؛ وذلك برسم خططٍ خُماسية، تَختص كل خطةٍ بفترةٍ مُعينة، وتَهتم بإيجاد الأولويات الاقتصادية، وضمّت هذه الخُطط كلّاً من القطاعات الخاصة التي شهدتها فترة الحكم الستالينية، فبلغ اقتصاد الاتحاد السوفيتي أوج ازدهاره، وتحوّل من دولةٍ زراعيةٍ إلى دولةٍ صناعية، تعتمد على التّنقيب عن النّفط والكشف عنه، وتمّ خلالها الكشف عن الثروات المعدنية؛ كان الأول عالميا في قطاع الطاقة بإنتاجه ما يعادل ٣٠% من النفط العالمي، واحتل المرتبة الثالثة في إنتاج الفحم، وقفز نصيب الصناعة في الإنتاج الوطني إلى مستويات فوق ٧٠%، ووصلت حصة الصناعة الثقيلة ٧٤% من قطاع الصناعة الكلي.

بلغ إجمالي الناتج المحلي للاتحاد السوفياتي (٢٦٦٠) بليون دولار تقريبا،

(1) Watch, https;// www.you tube.com.

ومتوسط دخل الفرد (٩١٣٠) دولارا[١]، وكان الاتحاد متطورا أكثر من الولايات المتحدة في بعض جوانب التقنية العسكرية لا سيما في حقل الأسلحة النووية.

حدث ضعف في الاقتصاد السوفيتي، وذلك إثر ضعفِ الحكومة المركزية في العاصمة موسكو، وذلك بسبب المجهود الحربي وتدفق الأسلحة في الحرب السوفياتية الأفغانية النّصيب الأكبر من النّفقات؛ فَلَحِق الضَّرر بالاقتصاد السوفييتي.

كان الاقتصاد السوفييتي يدور حول نشاط النفط واستغلال المعادن، انخفضت أسعار النفط بشكل حاد خلال عامي (١٩٨٥/ ١٩٨٦م)، وهو الوضع الذي أدى إلى نقص حاد في العملات الأجنبية، ولد أزمة أزمة نظامية نجمت جزئياً عن تكامله مع أسواق النفط والحبوب العالمية لشراء الحبوب اللازمة، أثرت على وضع الاقتصاد السوفيتي في ذلك الوقت بشكل عميق على القرارات التي سيتخذها جورباتشوف بعد فترة وجيزة من توليها لسلطة، وأظهر انهيار الاتحاد السوفياتي بوضوح كيف يؤدي التعرّض لقوى السوق الدولية إلى تحمّل مخاطر على الأمن الاقتصادي.[٢]

(١) الإحصائيات السوفياتية الرسمية لعام ١٩٩٠م.

(٢) مجموعة من المؤلفين الروس: الاقتصاد السياسي للاشتراكية، دار التقدم، موسكو، مارس٢٠١٨م. ص٨٤.

المبحث الأول

نظام الحكم للحزب الشيوعي وتمدده في تنظيم الدولة العظمى " الاتحاد السوفياتي "

١- مؤسسات الحكم:

تكون الاتحاد أساسا من (١٥) جمهورية يشكل المسلمون أغلبية سكان ست منها، وكان "مجلس السوفيات الأعلى" هو الجهاز الأعلى في السلطة، ويُنتخب بالاقتراع العام لمأمورية مدتها أربع سنوات، يعين المجلس "مجلس رئاسة الدولة" الذي يمارس جماعيا مهام رئيس الدولة ويعين مجلس الوزراء، وتنتخب اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفياتي كان الحزب الوحيد المسموح به، وانتسب إليه نحو (١٩) مليون عضو المكتب السياسي برئاسة الأمين العام للحزب، وهي التي تتولى عمليا قيادة الحزب.

٢- القوات العسكرية:

يقدر عدد القوات العاملة في الاتحاد السوفياتي بنحو (٣,٤) ملايين فرد، وقوات الاحتياط ب (٥,٢) ملايين، إضافة إلى (٥٧٠) ألف عنصر، تابعين لجهاز الاستخبارات (KGB) ووزارة الداخلية.[1]

٣- التأسيس والتوسع (١٩١٧- ١٩٤١م):

تأسس الاتحاد السوفياتي إثر نجاح ثورة فريق البلاشفة*، في "حزب العمال الاشتراكي الديمقراطي" بقيادة فلاديمير لينين ليلة ٢٥ أكتوبر/تشرين الأول عام ١٩١٧م على الحكم القيصري في روسيا الذي أدخل البلاد في أزمات طاحنة بسبب انخراطه في الحرب العالمية الأولى.

طبق البلاشفة إصلاحات أبرزها الفصل بين الكنيسة والدولة وتأميم المصانع، ورقابة العمال على المنشآت الصناعية، وهو ما أثار معارضة قوية في البلاد حتى من زملائهم الاشتراكيين "المناشفة"**، (فدخلت البلاد في حرب

---

(١) غارودي، روجية: موجز تاريخ الاتحاد السوفيتي، موسكو، ١٩٩٨م، ص١٢٢.

أهليــة دامــت خمــس ســنوات (١٩١٧-١٩٢٢م)، حســمها البلاشــفة لصــالحهم بقــوة الحديـد والنـار عبـر أجهـزة الأمـن السياسي وكتائب "الجيش الأحمر.[١]

وفــي ٣٠ ديســمبر/كانون الأول ١٩٢٢م أعلِن قيام "اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية" بقرار من مجلس السـوفيات فــي كــل مــن: جمهوريــة روسـيا الاتحاديـة الاشـتراكية السـوفياتية، وجمهورية أوكرانيا، وجمهورية بيلاروسيا (روسيا البيضاء)، وجمهوريـة ما وراء القوقاز.

وفــي ١٩٢٢م اختيـرت موسـكو عاصـمة للاتحاد بدلا من مدينـة "بتر وغـراد" التي سميت لاحقا "لينينغراد"، ثم أصبحت منذ عـام ١٩٩١م تـدعى "سـان بطرسـبورغ". وتبنت الجمهوريات الأربع دستورا موحدا عام ١٩٢٤م.

وفي العام نفسه بدأ الاعتراف الدولي بالاتحــاد الســوفياتي، فكانــت بريطانيــا سباقة إلى ذلك وتبعتها إيطاليا وفرنسا، بينما لم تعترف به أميركا إلا عام ١٩٣٣م، وفي سبتمبر/أيلول ١٩٣٤م انضم الاتحاد إلـى هيئـة "عصـبة الأمـم" التـي حلـت محلهــا فــي ١٩٤٥م منظمــة الأمــم المتحـدة، وأصـبح الاتحـاد إحـدى الـدول الخمـس الدائمـة العضـوية فـي مجلـس الأمن التابع للمنظمة، مع امتلاك الاتحاد لحق النقض" الفيتو".[٢]

وخــلال الفتـرة مــا بــين عــامي (١٩٢٤-١٩٤٠م) انضـمت أو ضُـمت إلــى الاتحـاد الســوفياتي جمهوريــات أوزبكســتان وتركمانســتان (١٩٢٤م)، وطاجكســتان (١٩٢٩م)، وأذربيجــان وكازاخســتان وقرغيزسـتان (١٩٣٦م)، وإسـتونيا ولاتفيـا وليتوانيا ومولدافيا (١٩٤٠م).

حـاول لينـين إحـداث هيكلـة كبـرى فـي اقتصـاد الـبلاد، فوضـع منهجيـة الخطـط الاقتصـادية الخمسـية التــي أصــبحت سياسـة متبعـة فـي كافـة مراحـل تطـور الدولة السوفياتية.

توفي لينين عام ١٩٢٤م، فأصبح جوزيف سـتالين - الـذي صـار أمينـا عامـا للحـزب الشـيوعي فــي ١٩٢٢م- خليفتــه فــي

(١) إمبراطورية موسكو- الصعود والسقوط- الجزء الأول: مرجع سابق.
الأولى* البلاشفة تعني بالروسية الأغلبية.
الثانية ** المناشفة تعني الأقلية،

(٢) قره، سيرغي: الاتحاد السوفيتي من النشؤ إلى السقوط، ترجمة: شوكت يوسف، دار النشر دمشق، ٢٠١٨م، ص٢٤.

السلطة، ودخل في صراع شرس للتفرد بها مع مناوييه من الرفقاء بقيادة ليون تروتسكي، واستطاع حسم الصراع لصالحه بدءا من ١٩٢٧م بالقضاء على خصومه عبر ما عُرف ب" المحاكمات الكبرى".

أصدر ستالين دستورا جديدا مارس بواسطته دكتاتورية مطلقة في الحكم، واتسمت سياسته في هذه المرحلة بترسيخ منهج الخطط الخمسية، والتركيز أكثر على "التخطيط الاقتصادي"، وإلغاء القطاع الخاص بالكامل، وفرض الشيوعية في مختلف أقاليم الاتحاد.[١]

كما شهدت هذه الفترة تطهيرا عرقيا عانت منه شعوب الجمهوريات والمناطق الإسلامية في القوقاز وتركستان وتركمانستان، وذلك بقتل مئات الآلاف منهم لأسباب مختلفة، وتهجير خمسة (٥) ملايين نسمة، من المسلمين بصورة إجبارية من بلدانهم، وإحلال المواطنين الروس محلهم حوالي (١٢) مليون نسمة، روسي.[٢] هذا إضافة إلى الحرب الثقافية التي منعوا بسببها من ممارسة دينهم غلق وهدم (١٠،٠٠٠) آلاف مسجد بدءا من ١٩٢٩م، وتعلم ثقافتهم الإسلامية إغلاق (١٤) ألف مدرسة إسلامية، وألغيت المحاكم الشرعية في المناطق الإسلامية الخاضعة للاتحاد سنة ١٩٢٦م، ومُنعت الكتابة بالحرف العربي بدءا من ١٩٢٩م، وفُرضت على المسلمين اللغة الروسية والأيديولوجيا الشيوعية.[٣]

٤- الهيمنة والأفول (١٩٤١-١٩٨٥م):

رغم أن الاتحاد السوفياتي سعى عمليا لتطوير علاقاته السياسية والاقتصادية مع ألمانيا بقيادة أدولف هتلر فوقعت معه معاهدة عدم اعتداء في أغسطس/آب ١٩٣٩م، فإن ذلك لم يمنع الزعيم الألماني من غزو الاتحاد السوفياتي مساء ٢١ يونيو/حزيران ١٩٤١، في إطار سعيه لكسب الحرب العالمية الثانية التي كان نظام الاتحاد السوفياتي يسميها " الحرب الوطنية العظمى".

ألحق الغزو الألماني خسائر كارثية بالاتحاد خاصة أنه تحمل عبء الجبهة

(١) إمبراطورية موسكو- الصعود والسقوط- الجزء الأول: فلم وثائقي، مرجع سابق.

(٢) بيبغست، ألكسندر: المسلمون المنسيون في الاتحاد السوفيتي، ترجمة: عبدالقادر =

= نسمي، دار الفكر المعاصر، بيروت، لبنان، (د-ت)، ص٣٣.

(٣) بيبغست، ألكسندر: مرجع سابق، ص٣٤.

الشرقية من الحرب طوال أربع سنوات، لكن ميزان القوة بدأ يميل لصالحه بدءا من انتصاره على الجيش الألماني في معركة ستالينغراد الحاسمة في فبراير/شباط ١٩٤٣م، ومرورا بتحرير جميع أراضي الاتحاد المحتلة في صيف ١٩٤٤م، وانتهاء باحتلال الجيش الأحمر السوفياتي برلين يوم ٢ مايو/أيار ١٩٤٥م.

ومع انتصار الاتحاد السوفياتي في هذه الحرب فإن خسائره المادية والبشرية كانت ضخمة بكل المقاييس، إذ فقد أكثر من (١٠%) من سكانه، و (٧٠٪) من منشآته الصناعية، و (٥٠٪) من ممتلكاته العقارية.(١)

لكنه استفاد من تحالفه خلال الحرب مع الولايات المتحدة وبريطانيا في تعميق روابطه بهما، وتجلى ذلك في عقد رؤساء البلدان الثلاثة "مؤتمر يالطا " فبراير/شباط ١٩٤٥م، واتفاقهم على تنظيم سياسة العالم بعد انتهاء الحرب العالمية .

إلا أن هذا التقارب سرعان ماحلت مكانه هواجس الريبة ثم التنافس والصراع، وباجتياح الجيش الأحمر لبراغ -عاصمة تشيكوسلوفاكيا سابقا يوم ٢٨ فبراير١٩٤٨م، وبقية دول أوروبا الشرقية وتأسيس أنظمة شيوعية تابعة له فيها، أنهى الاتحاد السوفياتي بالكامل تحالفه مع الغرب ودشن مرحلة "الحرب الباردة" معه.(٢)

وفي ١٩٤٩م صنع الاتحاد أول قنبلة ذرية وأنشأ منظمة "الكوميكون" *، الاقتصادية لتوطيد سيطرته على الدول الاشتراكية، ردا على مشروع مارشال الأميركي لدعم اقتصادات دول أوروبا الغربية التي دمرتها الحرب.

بعد وفاة ستالين عام ١٩٥٣م، تولى السلطة نيكيتا خروتشوف فكشف الفظائع التي ارتكبت طوال حكم ستالين وأقصى كل المحسوبين عليه، لكنه حافظ على مكانة الاتحاد السوفياتي الدولية، فعزز هيمنته العالمية حتى صار قطبا موازيا لأميركا في إطار حربهما الباردة، خاصة بعد إنشائه حلف وارسو

---

(١) غروشيف، ايفان: المسالة القومية في الاتحاد السوفياتي، دار الفارابي، بيروت، ١٩٧٣م، ص٢٠٦.

(2) Michael C. Kaser, Comecon: Integration problems of the planned economies (Oxford University Press, 1967). p.134.

العسكري الاشتراكي ١٩٥٥م ليماثل حلف الناتو، وغزوه الفضاء لأول مرة عام ١٩٥٧م.[١]

لكن ذلك لم يمنع خروتشوف من إعلان تبنيه سياسة التعايش السلمي الدولي ١٩٥٤م، رغم أن العلاقات مع الغرب وخاصة زعيمته واشنطن ظلت تتوتر بين الفينة والأخرى، مراوحة بين الانفراج وحافة الهاوية التي وصل إليها البلدان مطلع الستينيات باندلاع أزمة نصب الاتحاد السوفياتي صواريخ بالستية في كوبا قبالة الحدود الأميركية في أكتوبر/تشرين الأول ١٩٦٢م.

اتخذ أعضاء مجلس الرئاسة السوفياتي قرارا في أكتوبر/تشرين الأول ١٩٦٤م بعزل خروتشوف عن الرئاسة، وعينوا مكانه ليونيد بريجنيف الذي شهد عهده تحسنا في العلاقات مع أميركا أدى إلى توقيع البلدين "معاهدة سالت ١" عام ١٩٧٢م للحد من الأسلحة النووية، كما عرف تزايدا للنفوذ السوفياتي بأفريقيا وأميركا اللاتينية، وتم خلاله الغزو السوفياتي لأفغانستان نهاية عام ١٩٧٩م.

(١) قره، سيرغى: مرجع سابق، ص٣٣.

توفي بريجنيف في أكتوبر/تشرين الأول ١٩٨٢م، فخلفه الرئيس السابق لجهاز المخابرات السوفياتية(KGB) يوري أندروبوف الذي حاول وضع خطة للإصلاح الاقتصادي، لكنه لم يعمر طويلا في السلطة إذ توفي في فبراير/شباط ١٩٨٤م، وحل محله قسطنطين تشيرنينكو لكنه أيضا توفي سريعا في مارس/آذار ١٩٨٥م.[٢]

بعد تشيرنينكو جاء ميخائيل غورباتشوف إلى سدة الحكم، فوجد البلاد تئن تحت وطأة عقود من الركود الاقتصادي، بسبب التراجع المستمر لمعدلات النمو والفاعلية الإنتاجية، وتكاليف الحرب الباردة،

(٢) ويكيبيديا الموسوعة الحرة: تفكك الاتحاد السوفيتي، https//ar.wikipedia.org

* الكوميكون: ومن المنظمات التي أعلن الاتحاد السوفيتي عن قيامها منظمة عالمية عام ١٩٤٧ بهدف إنشاء منظمات وجمعيات علنية تهدف إلى نشر مبادئ الشيوعية، ومن أهم منظماتها: مجلس السلام العالمي، والاتحاد العالمي لنقابات العمال، والاتحاد الدولي للنساء، والاتحاد الدولي للعلماء، والاتحاد الدولي للأطباء.وفي عام ١٩٥٦ أُلغي الكومنفورم، وحلّت محّله سياسة التعايش السلمي مع البلاد التي تختلف أنظمتها مع النظام الشيوعي.

وبرامج سباق التسلح مع الأميركيين، وخسائر الاستنزاف الحربي جراء التورط في المستنقع الأفغاني، وأزمة الحريات المستعصية في داخل الاتحاد .

أعلن غورباتشوف انتهاجه سياسة "الغلاسنوس" أي العلانية والشفافية في إدارة البلاد، وقدم خطة لإصلاح الأوضاع سماها "البريسترويكا" (إعادة البناء)، وتتضمن خطوطُها العريضة الاهتمامَ بالديمقراطية وحقوق الإنسان، والتحول إلى اقتصاد السوق، وإلغاء احتكار الحزب الشيوعي للسلطة وحظر التعددية الحزبية، وزيادة استقلالية المؤسسات المحلية، وإبعاد العلاقات الدولية عن العسكرة.[1]

لم يستطع غورباتشوف تطبيق خطته كما ينبغي، بل واجهته بدءا من عام ١٩٨٩م مشكلات اقتصادية كبيرة في الإنتاج والتوزيع، واضطرابات قومية في مختلف الجمهوريات السوفياتية، وأحداث عالمية حاسمة مثل انهيار جدار برلين وخروج دول أوروبا الشرقية من عباءة الشيوعية.

فاقمت هذه ال قضايا وغيرها النقمة على سياسات غورباتشوف من أوساط داخلية عديدة، وهو ما تجسد في انقلاب عسكري عليه نفذه يوم ١٩ أغسطس/آب ١٩٩١م، رفاق له عُرفوا ب" لجنة الدولة للطوارئ " بحجة إنقاذ البلاد من الانهيار بعد "فقدان غورباتشوف الأهلية لقيادة البلاد"، لكن رئيس جمهورية روسيا الاتحادية بوريس يلتسن تصدى للانقلابين وفشل مخططهم واعتقلوا جميعا بعد ثلاثة أيام من الانقلاب[٢].

عاد غورباتشوف يوم ٢٢ أغسطس/آب ١٩٩١م إلى رئاسة البلاد، وفي اليوم الثاني قدم استقالته من رئاسة الحزب الشيوعي مما جعل البرلمان السوفياتي يصوت في ٢٩ أغسطس/آب ١٩٩١م على إيقاف عمل الحزب وإغلاق مقاره.

أدت هذه الأحداث إلى تحريك النزوع القومي في الجمهوريات السوفياتية إلى الاستقلال، فلم يمر شهران حتى اكتمل استقلالها جميعا عن الاتحاد السوفياتي، وفي ٢٥ ديسمبر/كانون

---

(١) الهويدي، أمين: البيروسترويكا وحرب الخليج الأولى، دار الشروق، ، ١٩٩٧م، ٢٣١.

(٢) معلم، رائيفة: دور ميخائيل جورباتشوف في سقوط الاتحاد السوفيتي (١٩٨٥- ١٩٩١م)، رسالة ماجستير، جامعة محمد، المغرب، ٢٠١٥م، ص٧٥.

الأول ١٩٩١م أعلن انتهاء هذا الاتحاد بالكامل ودخوله في ذمة التاريخ، لتنتهي بذلك حقبة الحرب الباردة في السياسة الدولية، وتزول الثنائية القطبية في الهيمنة العالمية.[1]

---

(١) جورباتشوف، ميخائيل: جورباتشوف وحكاية الانقلاب ثلاثة أيام هزت العالم، ترجمة: فواد حطيط، دار عام الفين، باريس، ١٩٩٢م، ص٢١.

المبحث الثاني

تدهور قوة الاتحاد السوفيتي

١- بداية انهيار قوة الاتحاد السوفيتي.

خلال السبعينيات، تمكن الاتحاد السوفيتي من تحقيق التوازن العسكري مع الولايات المتحدة الأمريكية، وانتصرت حركات التحرر والاشتراكية التي ساندها الاتحاد السوفيتي ضد الولايات المتحدة الأمريكية في جنوب آسيا، وأفريقيا جنوب الصحراء وأحدث التدخل العسكري السوفيتي في أفغانستان تطوراً نوعياً جديداً للسلوك السوفيتي في الحرب الباردة، بيد أنه ما كاد ينتهي عقد السبعينيات، حتى قادت إدارة الرئيس الأمريكي رونالد ريجان تصعيداً غير مسبوق للحرب الباردة ضد الاتحاد السوفيتي، استهدف وأد الاشتراكية ذاتها، وحشد القدرات الشاملة، الأمريكية والغربية، لتحقيق هذا الهدف، من خلال إجبار الاتحاد السوفيتي على دخول سباق جديد للتسلح، يقوده إلى الانهيار والاستسلام.[١]

وفي بداية الثمانينيات قاد يوري أندروبوف، خط التشدد الأيديولوجي العسكري في مواجهة ما اسماه "نزعة الهيمنة الأمريكية على العالم"، والتصعيد الأمريكي لسباق التسلح وتحول صراع الأفكار إلى صراع عسكري، في محاولة لتقويض التوازن العسكري الإستراتيجي القائم.

بيد أن وصول اندروبوف إلى زعامة الحزب والدولة في الاتحاد السوفيتي سجّل في الوقت ذاته بداية ثورة الجلاسنوست*، التي أطلق لها العنان خليفته ميخائيل جورباتشوف، ولعل أخطر ما أتت به ثورة المصارحة أو المكاشفة، هو النقد الذاتي الذي كشف عن أسباب تردي قوة الدولة السوفيتية، وإذا كان يوري أندروبوف قد واصل خط التشدد في إدارة الصراع " السوفيتي- الأمريكي"، مستنداً إلى قبول تحدي

---

(١) موسوعة "مقاتل من الصحراء" هوية سياسية عسكرية وثائقية، وثقافية متنوعة، = الإصدار الخامس في ٢٧/ فبراير ٢٠٠٤م، ص٤٢٢.

=

سباق التسلح، فإن خط المهادنة تبناه ميخائيل جورباتشوف وإقدامه على تقديم التنازلات العسكرية والسياسية من جانب واحد، ويؤكد انهيار القوة العظمى السوفيتية، وكان يوري اندروبوف قد طالب بالتروي في التغيير في إطار النظام ذاته، فإن جورباتشوف قادت إلى تفكيك البناء الإمبراطوري وانهيار النظام الشيوعي، بإضعاف التلاحم الشمولي.(١)

٢- مؤشرات ضعف الدولة الاتحادية:

رغم امتلاك الاتحاد السوفيتي السابق إحدى أعظم ترسانتين للأسلحة التقليدية، فضلاً عن الأسلحة النووية وغيرها من أسلحة الدمار الشامل، فإن احتفاظه بالتفوق في مجال القوة العسكرية بدا مستحيلاً، بالنظر إلى تكاليف ومخاطر هذا التوجه، والأهم هو تدهور القدرة الاقتصادية السوفيتية نتيجة عجز آليات اقتصاد الأوامر*، عن توفير الأساليب التكنولوجية والتنظيمية والإدارية الحديثة، التي تؤمن تسريع التنمية ورفع الإنتاجية، وقد تفاقم مأزق الاقتصاد السوفيتي بسبب الحصار التكنولوجي، واستخدام سلاح الغذاء، وتصعيد سباق التسلح، من جانب الدول الغربية؛ هذا بالإضافة إلى تخصيص الاتحاد السوفيتي لموارده العلمية والتكنولوجية والمالية والبشرية وغيرها للأغراض العسكرية على حساب حاجات الاقتصاد، وهو ما أدى إلى تدهور القدرة الاقتصادية النسبية للاتحاد السوفيتي على الصعيد العالمي؛ وقد انعكس هذا في أن حصة الآلات والمعدات في إجمالي الصادرات إلى الدول الصناعية لم تتعد نحو (٢%)، وأن المواد الأولية ونصف المصنعة مثلت أكثر من (٧٠%) من صادراته إلى العالم في منتصف الثمانينيات.(٢)

---

(١) عمارة، سامي: وقائع الأيام الأخيرة في تاريخ الاتحاد السوفياتي، مجلة اندبندنت عربية بودكاست، واشنطن، ٢٦/ ديسمبر ٢٠٢٠م، ص٢١.

* لفظ يطلق على سياسة الانفتاح والشفافية في أنشطة جميع المؤسسات الحكومية في الاتحاد السوفيتي، بالإضافة إلى منح المواطنين السوفييت حرية الحصول على المعلومات، أطلق هذه الدعوة بواسطة الرئيس السوفيتي ميخائيل جورباتشوف في النصف الثاني من ثمانينيات القرن العشرين الميلادي.

(٢) كينيدي، بول: صعود وسقوط القوى العظمى، التغير الاقتصادي والنزاع العسكري من (١٥٠٠- ٢٠٠٠م)، دار النشر =

وكما أوضح يوري أندروبوف، فإنه مع ثورة الاتصالات العالمية، أضحى الاتحاد السوفيتي، عاجزاً عن إخفاء حقيقة تدني مستويات الرفاهية ونوعية الحياة لسكانه مقارنة بالدول الصناعية الرأسمالية؛ ومع الجلاسنوست أدى البعث القومي إلى تفكك ما يسمى بالأمة السوفيتية، وتدهورت هيبة الدولة الشمولية، وتفكك الجهازان السياسي والأمني للدولة، أضف إلى هذا، تراجع النفوذ السوفيتي السيادي والأيديولوجي عالمياً، وعجزه عن رفع مستويات الرفاهية الجماهيرية، وتورطه في حرب أفغانستان التي أدت إلى تقويض مصداقية الاتحاد السوفيتي لدى الرأي العام العالمي.[1]

٣- حول الأيديولوجية من رسالة تحرير إلى رمز للكبت:

من الواضح أن الأيديولوجية التي قام عليها النظام الشيوعي في الاتحاد السوفيتي، قد تحولت إلى مؤسسات تنسب لنفسها صفة تجسيد الأيديولوجية، بينما أصبحت هذه المؤسسات في نظر الجماهير، مجرد بناء مؤسسي ينطوي على قدر كبير من الكبت، ولم تعد لها جاذبية،

وفي الوقت نفسه تفشي الفساد نتيجة هذا الكبت، ونشأت طبقة جديدة، هي طبقة المنتفعين بالمؤسسات الاشتراكية، فقد كان واضحاً أن المؤسسات الوحيدة التي استمرت تحرص على وحدة كيان الاتحاد السوفيتي، هي الحزب والمخابرات والجيش فقط، وكلها مؤسسات منظور لها على أنها أدوات كبت، بينما تعددت صور التفكك لأسباب قومية ودينية؛ كما أن الجيش والمخابرات أصبحت تطرح على قدم المساواة مع الحزب وتباشر الوظائف نفسها أدوات قمع صريحة.[2]

وقد ترتب على غياب الأيديولوجية القائمة على البعد الطبقي انتعاش لأيديولوجيات أخرى بديلة، مثل الأيديولوجية الدينية، والأيديولوجية القومية والأيديولوجية العرقية، وكل هذه عوامل تفكيك، بدلاً من أن تكون عوامل تماسك وبناء، إذ إن جميع الذين

=

راندوم هاوس، واشنطن، ١٩٨٧م، ٧٤.

(١) الهويدي، أمين: مرجع سابق، ص٢٣٤.

(٢) موسوعة "مقاتل من الصحراء"، مرجع سابق، ص٤٧٧.

ينسبون أنفسهم إلى دين معين أو إلى قومية معينة على نطاق المجتمع بأسره إنما يشكلون مواجهة للذين ينتسبون إلى دين آخر أو قومية أخرى، وهذا معناه تقسيم المجتمع رأسياً.[١]

ومع التحول الذي حدث في الاتحاد السوفيتي عندما أطلق ميخائيل جورباتشوف عملية البريسترويكا*، وعندما بدأ يمارس التغيير بدأ يدرك أن الخلل بدأ يتجاوز كل التكهنات، وأن القضية لم تعد قضية تصحيح، بقدر ما أصبحت قضية سيطرة على عملية أفلتت من كل سيطرة.[٢]

٤- فشل عملية الإصلاح:

فشلت إدارة ميخائيل جورباتشوف في الانتقال إلى طراز جديد متحرر من تشوهات المجتمع السوفيتي القديم وأمراضه، وسوف نوضح فيما يلي تحليلاً للدراسات الأكاديمية حول فشل الإدارة الجورباتشوفية للانتقال السلمي، وبالتالي حدوث الانهيار للاتحاد السوفيتي، يكمن ذلك من خلال الآتي:

أ. نظرية الإحباط الذاتي للإصلاح المتأخر:

ربما تكون أكثر النظريات شمولاً وعمومية هي أن تجربة ميخائيل جورباتشوف الإصلاحية جاءت متأخرة جداً، بحيث لم تعد مجدية في تحقيق مهمة إنقاذ النظام وإصلاحه من داخله وعلى نحو سلمي، هذه التناقضات، ظهرت الفجوة الكبيرة بين حجم المشكلات المتراكمة والقدرة، وبمجرد أن رُفع غطاء العنف الشمولي انفجرت التناقضات السياسية والاجتماعية بقوة أكبر من القدرة المتاحة على السيطرة عليها، ولم يتمكن جورباتشوف بالتالي من تحقيق إعادة البناء في ظل الجلاسنوست؛ لأنه لم تتوفر لديه الوسائل الضرورية للسيطرة على الخريطة الجديدة للقوى السياسية والاقتصادية.[٣]

---

(١) ماندل أرنست، بولاخوري، ت. و: الاتحاد السوفيتي في ظل ميخائيل جورباتشوف، دار الواحة، لبنان، ١٩٨٩م، ص٧٨.

* بالروسية (NepocpoNka)، وتعني " إعادة الهيكلة "، هي برنامج للإصلاح الاقتصادي أطلقه ميخائيل جورباتشوف، ويشير إلى إعادة بنا الاقتصاد الاتحاد السوفيتي، صاحبت سياسة غلاسنوست التي تعني الشفافية.

(٢) ماندل أرنست، بولاخوري، ت. و: مرجع سابق، ص٨١.

(٣) دراسة تاريخية لأسباب انهيار الاتحاد السوفيتي، https;//www.politics.dz.com.

ب. نظريــــة عـــدم تـــوازن مدرســـة جورباتشوف في الإصلاح:

فشلت إستراتيجية جورباتشوف في نقل المـوارد الماديـة والمعنويـة مـن النطـاق الدفاعي والخارجي إلى النطاق الإنمائي والداخلي بالرغم مما حدث بالفعل من تحرير لجانب كبير من الموارد التي أنفقت على الدفاع والالتزامات الخارجية للاتحاد السوفيتي بوصفه دولة عظمى.

وواقـع الأمـر أن إسـتراتيجية جورباتشـوف للانتقــال قــد اتســمت بعــدم التــوازن الــداخلي، حيــث ركــزت علــى الإصــلاح السياســي وأهملت الإصلاح الاقتصادي؛ كما أنها تورطت في نمط من الإصلاحات السياســـية كـــان ضـــاراً بالإصـــلاحات الاقتصـادية؛ وقـد ألحـق هـذا الإصـلاح السياســي ضــرراً شــديداً بقــدرات الدولــة الوظيفية والاقتصادية الأمر الذي أسفر بـدوره عـن انهيـار اقتصـادي لا تنقصـه القدرات والإمكانات والموارد التي تتمتع ب ها البلاد، كما كـان السـبب الرئيسـي وراء التفكـك والانحسـار لإمكانيـة الرقابـة على التطور السياسي العام للبلاد.

ج. نظريــة اســتحالة إصــلاح نظــام إمبراطوري شمولي:

هنـاك نظريــة غربيــة، تقــول باســتحالة إصـلاح دولـة شـمولية إمبراطوريـة مـن النمط السوفيتي القديم، والمآل الوحيد لمثل هـذا النمـط مـن الدولـة هـو حتميـة انهياره وسـقوطه أو هدمـه مـن البدايـة، وبهـذا المعنـى فـإن جورباتشـوف كـان يسـعى عبثاً لإصلاح دولـة شـمولية مـن داخلهـا، لا بسـبب أن إصـلاحاته جـاءت متأخرة عـن موعـدها مع الزمن فحسـب، بل لاستحالتها منطقياً كذلك.(١)

د. إطــار نظــري بــديل لشــرح إخفــاق المدخل الإصلاحي لجورباتشوف:

فـي واقـع الأمـر إن الثـورات والحركـات الإصــلاحية والتصــحيحية داخــل الاتحــاد السـوفيتي وأوروبـا الشـرقية، تبـدو نتاجـاً متراكمـاً وهـائلاً مـن السـخط، جمـع بـين ثـلاث نزعـات كبـرى غيـر متبلـورة وهـي: النزعــة الديمقراطيــة، والنزعــة القوميــة، والنزعـة للتحـول إلـى الرأسـمالية القائمـة على الانهيار الثقافي والارتباط السياسي بالغرب.

إن أول مـا يلفـت الانتبـاه فـي المـدخل الجورباتشـوفي للإصـلاح، هـو أنـه انطلـق

---

(١) ميدفيديف، روى، وآخرون: الإصلاح والدولة البيروقراطيـة (مناقشـة اليسـار الـديمقراطي فـي الاتحـاد السـوفيتي السـابق)، مركـز الغـد العربي للدراسات، --، يناير٢٠٠٦م، ص٩٤.

من نقد شامل للنظام القديم دون أن يملك تصوراً مبدئياً بسيطاً عن النظام الجديد، أي أنه كان هناك وعي بعيوب ونواقص النظام الذي يجب الانتقال منه دون أن يتوافر قدر معقول من الوعي الواضح بالنظام الذي يجب الانتقال إليه، بل لم يكن هناك نموذج للمجتمع السياسي والاقتصادي الذي يريد أن ينقل إليه.(١)

٥. تغير النظرة السوفيتية الجديدة للصراع والتوازن في العالم المعاصر:

منذ وصول ميخائيل جورباتشوف للسلطة أعلن صراحة أن مخرجات التنافس التاريخي بين النظامين العالميين "الاشتراكي والرأسمالي"، لا يمكن أن تحدد بالوسائل العسكرية، بل أن معدل التقدم العلمي والتكنولوجي والمنافسة الاقتصادية الدولية يقرران معا نتائج هذا الصراع التاريخي بدرجة حاسمة، ومن ثم يمكننا استخلاص أهم أركان النظرة السوفيتية الجديدة للصراع والتوازن العالميين في الآتي:

١- أن الحرب النووية وبصفة عامة استخدام القوة العسكرية حتى التقليدية منها، لا يمكن أن تحقق الأهداف العليا للدولة أيا كانت.

٢- ضرورة تأسيس السياسات الدولية على المبادئ والقيم الإنسانية الاجتماعية.

٣- إن تكدس السلاح النووي وزيادة حجم نوعيته وتطورها، لم يؤد إلى توفير المناخ الأمني الدولي بين أطراف الصراع، ومن ثم برزت الحاجة إلى تخفيض هذا السلاح أو إزالته.

٤- التنمية الاقتصادية الدولية العالمية، رهن بإيقاف سباق التسلح النووي والتقليدي، أي نزع السلاح من أجل التنمية المجتمعية العالمية.

٥- ضرورة بناء السياسة الخارجية لأي دولة بعيداً عن الامتيازات الأيديولوجية الخلافية التصادمية عقائدياً.

٦- حق كل دولة وكل أمة في اختيار طريقها الخاص للتنمية الاجتماعية الداخلية.

٧- الأسبقية المطلقة والأولوية الدائمة للحفاظ على الجنس البشري وعلى الكون بصرف النظر عن اعتبارات الثوابت الأيديولوجية للتحليل الماركسي، مما يقتضي الائتلاف العالمي الرأسمالي.

---

(١) ميدفيديف، فلاديمير: حكام العواجيز اللحظات الأخيرة من حياة الاتحاد السوفيتي، دار الثقافة الجديدة، بيروت، ٢٠١٣م، ص٦٣.

الاشتراكي لتحقيق السلام الكوني.

٨- المراجعة العقيدية لمبدأ ماركسي أرثوذكسي أحيل عن السببية والتفاعلية ما بين ظاهرتي الحرب والثورة.

٩- اتباع الحوار الدبلوماسي المفتوح بين كل الاتجاهات والرؤى السياسية لدى الدول كافة بلا تعصب ذاتي أو تحيزات مسبقة.[١]

و- الإصلاح الاقتصادي ونهاية الشيوعية:

جرت محاولات للإصلاح الاقتصادي، من عهد نيكيتا خروشوف إلى ليونيد بريجنيف وحتى يوري أندروبوف، ولكنها تمت في ظل النظام السياسي الشمولي وفي إطار الدولة المركزية السوفيتية على أسس " الاشتراكية الستالينية ومبادئ الماركسية اللينينية " قبل جورباتشوف.[٢]

والواقع أن الدعوة إلى الإصلاح الاقتصادي، قد استمرت ضمن نطاق توحيد، واستمرت محاولات الإصلاح الاقتصادي قبل ثورة البريسترويكا، لا تتجاوز نظام إدارة الاقتصاد بالأوامر، واحتكار الدولة لوسائل الإنتاج، وعدم الربط بين إنتاجية العمل ودخل المشتغل.[٣]

في السنوات الأولى للبريسترويكا، أدى فضح النظام القديم إلى إضعاف نفوذه، وقاد إضعاف الجهاز الحزبي إلى تصفية سطوته، وقبيل انقلاب ١٩/ أغسطس ١٩٩١م، طرح برنامج الليبراليين للتحول إلى اقتصاد السوق خلال خمسمائة يوم، وفي مواجهته طرح برنامج ديمتري ريجكوف وزير الاقتصاد السوفيتي والمحافظين للتحول المتدرج إلى اشتراكية السوق، طرح ميخائيل جورباتشوف في أكتوبر ١٩٩٠م، برنامجاً للتحول إلى اشتراكية السوق، ونجح في الحصول على موافقة مجلس السوفييت الأعلى عليه.

ومن أجل تجنب كارثة الانهيار الاقتصادي، قبلت الأطراف الرئيسة للصراع، بهذا الحل الوسط، وفي إطار هذه المساومة السياسية وافق " ديمتري ريجكوف " على البقاء في منصبه لتنفيذ البرنامج الذي ارتكز أساساً إلى خطة الأيام " الخمسمائة "، رغم معارضته السابقة.

---

(١) ماندل أرنست، بولاخوري، ت. و: مرجع سابق، ص٨٧.

(٢)غارودي، روجية: مرجع سابق، ص٩٦.

(٣) عمارة، سامي: وقائع الأيام الأخيرة في تاريخ الاتحاد السوفياتي، مرجع سابق، ص٢٤.

وعشية الانقلاب الفاشل في ١٩/ أغسطس ١٩٩١م، بدا واضحاً إفلات سيطرة الحزب الشيوعي السوفيتي، ولم يعد جورباتشوف قادراً على المطالبة بإعادة بناء الاشتراكية، مكتفياً بالتأكيد على المهام الاقتصادية الملحة لتجنب الكارثة الاقتصادية.

وخلال الدورة الأخيرة لمجلس السوفييت الأعلى في أكتوبر١٩٩١م بتكوينه الجديد بعد الانقلاب، لخص جورباتشوف المهام الاقتصادية الملحة أمام الاتحاد السوفيتي السابق؛ ويجدر أن نشير هنا إلى أنه لم يأت في هذا الخطاب أي ذكر للبريسترويكا أو الاشتراكية، ويبدو أنه بدا من الواجب تجنب هاتين الكلمتين أو غيرهما حتى على لسان زعيم البريسترويكا في الدولة الاشتراكية الأولى.[1]

وعشية إعلان نهاية الاتحاد السوفيتي رسمياً، وأمام المؤتمر" الخامس " غير العادي لنواب الشعب في جمهورية روسيا الاتحادية البرلمان الروسي، أعلن بوريس يلتسين انتهاء عهد التقدم بخطوات صغيرة، وأكد أنه لابد من قفزة كبيرة في مجال الإصلاح الاقتصادي، كما طرح برنامجه للإصلاح الاقتصادي، والذي تلخص في الآتي:

١- تحقيق الاستقرار الاقتصادي ودعم الروبل بتنفيذ سياسة مالية ونقدية وانتمائية انكماشية صارمة للغاية، مؤكداً على أنه بغير هذه الخطوة الصعبة، فإن الحديث عن الإصلاح والسوق لن يعدو أن يكون لغواً.

٢- تنفيذ برامج التخصصية وتقليص قطاع الدولة لإقامة اقتصاد مختلط يضم قطاعاً خاصاً قوياً، وتسريع برنامج الإصلاح الزراعي وتشجيع نشاط الأعمال الخاصة.

٣-تحرير الأسعار، وذلك استناداً إلى خبرة ما أسماء بوريس يلتسين " الحضارة العالمية".[2]

٤- خفض الإنفاق الحكومي بتقليص مخصصات دعم الإنتاج غير الكفء ونفقات الدفاع ومصروفات الجهاز الإداري، وأكد بوريس يلتسين على أن عجز الموازنة لابد من تقليصه إلى الحد الأدنى.

٥- إصلاح النظام الضريبي المشوه،

---

(1) https://www.politics.dz.com.

(٢) ميدفيديف، روى، وآخرون: مرجع سابق، ص١٠١.

الذي لا يتوافق مع اقتصاد السوق ولا يتسم بالانضباط.

٦- إصلاح الجهاز المصرفي، وذلك باتخاذ إجراءات صارمة ضد الإصدار غير المقيد للنقود وضد تقديم القروض بغير ضوابط.

٧- إقامة نظام للضمان الاجتماعي، مع رفع القيود على سقف الأجور لمواجهة ارتفاع الأسعار.[١]

---

(١) منى حداد، فتحي يكن: البيروسترويكا من منظور إسلامي، دار الهدى، الجزائر، ١٩٩١م، ص٦٦.

المبحث الثالث

الأسباب التي أدت إلى انهيار وتفكك الاتحاد السوفياتي

تعرض الاتحاد السوفيتي لضغوط قوى داخليـــــة، اقتصـــــادية، وسياســــية والإيديولوجية وأخرى خارجية كانت من أسـباب انهيـاره وتفككـه وتمثلـت فـي الآتي:

أولاً- الضغوط الداخلية تمثلت في الآتي:

أ- القـــوى المحافظـــة المناهضـــة لجورباتشوف:

حيث أكد جورباتشوف على أن توقف عملية الإصلاح سيؤدي إلى كارثة محققة، وأن الإصلاحات ستجعل من الاتحاد السوفيتي أكثر دول العالم ديمقراطية.

ب- مشكلات القوميات:

التي نجحت أجهزة الإعلام الغربية في استثارتها، مثل دول البلطيق أو مشكلة عودة التتار إلى القرم، أو مشكلات القومية الدينية في مولدافيا وغيرها.

ج- المشكلة اليهودية:

التي ترتبط بقضية حقوق الإنسان، وقد اتخذ السوفييت موقفاً مرناً بالإفراج عن المنشـقين وتخفيف قيود الهجرة أو الحصول على الجنسية المزدوجة.

د- دول أوروبا الشرقية:

وتمثلت ضغوطها في الرغبة على الانفتاح تجاه الغرب، وهو ما أدى إلى صحوة التيار القومي، ودور الكنيسة بصفتها مركزاً للمقاومة الإيديولوجية والمبادئ التي تقوم عليها الموقف السوفيتي إزاء أوروبا، وكان إقرار استقلال الأحزاب الشيوعية الأوروبية وحقها السيادي ومسؤوليتها نحو معالجة مشاكلها.[1]

ه- معاهدة جورباتشوف:

طرح جورباتشوف معاهدته التي أجرى عليها الاستفتاء في مارس ١٩٩١م، والتي كانت بداية للتفكك وقد نصت على الآتي:

١- إقامة فيدرالية ديمقراطية ذات سيادة

(١) معوض، نازلي أحمد: إصلاحات غورباتشوف الداخلية والتغيير في السياسة الخارجية، المجلة السياسية الدولية، مركز الاهرام، القاهرة، ١٩٨٧م، ص١٤.

تتكون نتيجة للاتحاد الطوعي الاختياري بين جمهوريات المعاهدة.

٢- يحق لكل جمهورية أن تحفظ لنفسها الحق في أن تحل بذاتها كافة مسائل تطورها.

٣- تتعهد الجمهوريات بإعطاء الأولوية لحقوق الإنسان وفقاً لقواعد القانون الدولي المتعارف عليه.

٤- حق لكل جمهورية أن تقيم علاقات قنصلية وتجارية مباشرة، وغيرها من الصلات، مع دول أجنبية.

٥- عضوية الجمهورية في اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفيتية هي عضوية طوعية اختيارية.

٦- من حق الجمهورية أو الجمهوريات الأطراف في المعاهدة، الخروج بصورة حرة من الاتحاد.

وقد تم إجراء استفتاء شعبي لأول مرة في مارس١٩٩١م، لتحديد مصير الاتحاد، وطرح الاستفتاء سؤلاً واحداً: "هل توافق على اقامة الاتحاد السوفيتي في نمط جديد للاتحاد، واشترك أكثر من (٨٠%)، من المقيدين في جميع أنحاء البلاد، وافق منهم (٧٧%)، على الاحتفاظ بكيان الاتحاد السوفيتي الحالي.[١]

ثانيا- الأسباب الاقتصادية والسياسية والأيديولوجية:

أ- الأسباب الاقتصادية والتي كانت على النحو التالي:

١- غياب عنصر القدرة التنافسية للاقتصاد السوفيتي وفقدانها.

٢- تدهور القوة الاقتصادية نتيجة عجز آليات "اقتصاد الأوامر"*، عن توفير الأساليب التكنولوجية الحديثة.

٣- تأخر التحديث التكنولوجي للاقتصاد السوفيتي نتيجة الاعتماد على إمكانية الاستيراد من الغرب.

٤- تراجع حجم صادراته من السلاح والبترول والغاز الطبيعي في مطلع التسعينيات، مع تراجع قدرته على تقديم العون الاقتصادي للبلدان النامية.

٥- الانخراط في دائرة الإنفاق العسكري الضخم الذي استنزف الموارد المادية والمعنوية.

٦- عدم الاهتمام للإنفاق على البحث العلمي، ومشاريع تطوير التكنولوجيا في القطاعات الغير عسكرية، وعدم العناية

---

(١) عبدالبديع، أحمد عباس: الاتحاد السوفيتي من القمة إلى التفكك، المجلة السياسة الدولية، مركز الاهرام، القاهرة، ١٩٩٥م، ص١١.

بالصناعات المتوسطة والاستهلاكية؛ لتلبية رغبات وحاجات المواطنين.(1)

٧- الإعلان رسمياً في ٥/ يناير١٩٩١م، بواسطة أعضاء مجلس المساعدة الاقتصادية التسع الكوميكون**، وهي: "رومانيا، والمجر، وبولندا، وتشيكوسلوفاكيا، وبلغاريا، والاتحاد السوفيتي، وكوبا، وفيتنام، ومنغوليا"، عن حل المجلس، مع تكوين منظمة جديدة لها مهام مختلفة عن الكيان القديم.

٨- ثورة الجلاسنوست والبروسترايكا التي أحدثت انقلاباً داخلياً أدى إلى تصعيد الأحداث وانهيار الدولة.

ب - الأسباب السياسية وتتلخص في الآتي:

١- أزمة شرعية السلطة المركزية:

فقدت السلطة المركزية قدرتها على القيام بدور الحكم في الصراعات السيادة والخلافات بين شعوب الاتحاد السوفيتي، بل لم تستطيع الإشراف على تشكيل مجتمع جديد من المصالح بين الجمهوريات السوفيتية، وفي سبتمبر١٩٩٠م لم يحظ جورباتشوف بتأييد الرأي العام في الاستفتاء الذي أجرى حول الموقف السياسي؛ فقد حصل على (٢٨٫٥%) في حين حصل بوريس يلتسين رئيس جمهورية روسيا الاتحادية على (٦١٫٥%)، وهذه النتائج لا تترجم القوة السياسية لكل منهما فحسب، ولكنها تّعبر كذلك عن انتقال الثقة من أجهزة الدولة الاتحادية إلى أجهزة السلطة السياسية

---

(1) السلاوي، حازم: النظام الاقتصادي المعاصر من نهاية الحرب العالمية الثانية إلى نهاية الحرب الباردة، عالم المعرفة، الكويت، ١٩٩٠م، ص٩٦.

الأولى* اقتصاديات الأوامر: وهي تعني السيطرة المركزية للدولة على كافة الجواني الاقتصادية تخطيطاً وتنفيذاً، بمعنى أن السياسة الاقتصادية بكافة آلياتها تحت سيطرة الدولة بما فيها عناصر الإنتاج.

الثانية **منظمة عالمية أعلن الاتحاد السوفيتي عن قيامها في ١٩٤٩/١/٢٥م، بهدف إنشاء منظمات وجمعيات علنية تهدف الى نشر مبادئ الشيوعية، ومن أهم منظماتها: مجلس السلام العالمي، والاتحاد العالمي لنقابات العمال، والاتحاد الدولي للنساء، والاتحاد الدولي للعلماء، والاتحاد الدولي للأطباء في عام ١٩٥٦ أُلغي الكومنفورم، وحلت محّله سياسة التعايش السلمي مع البلاد التي تختلف أنظمتها مع النظام الشيوعي، على أن نشر الشيوعية استمر عن طريق المنظمات الشيوعية العالمية العلنية، وتعدّ توصياتها تعليمات لكل الأحزاب الشيوعية في العالم.

الإقليمية والمحلية.[1]

رفض زعماء جورجيا وليتوانيا وارمينيا تطبيق القرار الصادر في ٢٥/ يوليو١٩٩٠م الذي بموجبه يصبح من حق رئيس الدولة السوفيتية مصادرة الأسلحة، يعني رفضاً للاعتراف بحق السلطة المركزية في حفظ النظام ويعبر كذلك عن عجز هذه السلطة عن ممارسة حقوقها في هذا المجال.[2]

٢- أزمة الاتحاد وعدم الثقة في الانتماء للدولة:

يرى المحللون السياسيون، أن سياسة جورباتشوف هي التي فجرت الأزمة القومية، لأنها سمحت بالتعبير عن المطالب القومية، ونتيجة لتفاقم الأزمة الاقتصادية نمأ تصاعد الإحساس بأن الانتماء للاتحاد السوفيتي لم يعد ميزة بل أصبح عائقاً، وقد كان الاعتقاد السائد في الماضي أنه كلما عبر حجم الدولة وتنوعت مواردها وعظم حجم جيشها، كان ذلك أدعى على الإحساس بالأمن،

(١) رغم مرور (٣٠) عاما على انهياره الاتحاد السوفياتي الحاضر، https;/www.aljazeera.net

(٢) معوض، نازلي أحمد: مرجع سابق، ص٢١.

ولكن الحال بالاتحاد السوفيتي مختلفاً؛ فقد تفاقمت المشاعر القومية وتطرفها قد أنتشرت بسرعة، إلى أن ما حدثت من مواجهة بين أذربيجان، أرمينيا، وعجز السلطة المركزية وقواتها المسلحة التدخل بينهما.[3]

ويمكن الاستنتاج للوضع السياسي على النحو الآتي:

١- تدهور قدرة الدولة وعجز النظام الشيوعي عن تحقيق التفوق، مع تآكل مكانة الاتحاد السوفيتي بصفته قوة عظمى، حيث تراجعت قدرته بشدة على ممارسة الدور الذي نهض به بعد الحرب العالمية الثانية.

٢- إن الغاء النص الدستوري على الدور القيادي للحزب الشيوعي، عندما انعقاد المؤتمر الحزبي (الكونجرس) ال ١٩ العام ١٩٨٨م وإصراره على إلغاء "المادة السادسة*" من الدستور السوفياتي؛ كان يمثل إعلاناً ببدء تقويض مجمل جهاز الدولة القديم، والتمهيد للإطاحة بجورباتشوف نفسه، تعميق انشقاق النخبة الحزبية.

(١) عبدالبديع، أحمد عباس: مرجع سابق، ص١٣

٣- ارتبط التدهور بمسألة الضغوط والقيود التي فرضها التصعيد والتوتر الدائم الذ فرضه سباق التسلح الضاري في المجالات النووية وغير التقليدية مع الولايات المتحدة الأمريكية والدول الغربية.

٤- فرض الحصار على الاتحاد السوفيتي من جانب الولايات المتحدة الأمريكية، لإجباره على الدخول في سباق التسلح الذي استهدف استنزاف الخزانة العامة للدولة.(١)

٥- الانقلاب الفاشل في ١٩/ أغسطس ١٩٩١م، ساهم في الإجهاز على الاتحاد السوفيتي وانقسام المؤسسة العسكرية وحل الحزب الشيوعي، ومن ثم فقدت النخبة الحاكمة التمسك بالمحافظة على نظامها.

ج- الأسباب الأيديولوجية تكمن في الآتي:

١- كانت الأيديولوجية الشيوعية، والمؤسسة التي التزمت بهذه الأيديولوجية وجسدتها ونسبت إلى نفسها صفة تمثيلها الحزب الشيوعي، كانت لها الهيمنة على الدولة وعلى أجهزتها القمعية لضمان تماسك الاتحاد السوفيتي والحيلولة دون تفككه، ولكن مع تصاعد الأحداث لم يعد الحزب الشيوعي أو يدافع عن نفسه.

٢- تبني الاتحاد السوفيتي فلسفة جديدة تقوم على وحدة العالم وضرورة إنهاء الحرب الباردة، ومن ثم توقفت عن تحقيق مبدأ مهم وهو تحقيق التوازن أو التفوق العسكري على الغرب، ومن ثم تبنت أربعة مواقف هي:

- وقف سباق التسلح النووي وامتداد التخفيض إلى التسلح التقليدي والكيميائي.
- فض الاشتباكات في العالم الثالث وتحقيق تسويات في مناطق النزاع، وفي مقدمتها أفغانستان، وأنجولا.
- تعزيز مركز الأمم المتحدة بصفتها المرشحة لشغل الفراغ خلال المرحلة الانتقالية القادمة.
- تعديل العقيدة الإستراتيجية، لتصبح العمليات الدفاعية هي الأفضل، وتتناسب مع التهديد العسكري.

٣- إخفاق الاتحاد السوفيتي في إحداث التغيير الاجتماعي بالقوة خلال فترة

---

(١) السلاوي، حازم: مرجع سابق، ص٩٢.

* كانت تنص على احتكار الحزب الشيوعي السلطة، وتم الغائها في المؤتمر ال (٢٨ العام ١٩٩٠م).

زمنية محددة، عبر منظور إيديولوجي محدد، وقد أكدت التجارب التاريخية ذلك.[1]

ثالثا- الضغوط الخارجية تمثلت في الآتي:

١- الولايات المتحدة الأمريكية:

هي الدولة التي تصدرت القوة الضاغطة على الاتحاد السوفيتي، عبر الضغط الدبلوماسي والعسكري وليس نتيجة تنازلات سياسية من جانب أمريكا أو وعود للتعاون الاقتصادي، فأمريكا كانت تملك ثلثي ذهب العالم واقوى دولة النووية، ومع استمرار التنافس مع الاتحاد السوفيتي حدث نوع من التعادل في التسلح النووي.[2]

ومع ذلك استمرت الولايات المتحدة الأمريكية بضغط السياسي والاقتصادي والعسكري على الاتحاد السوفيتي

الذي كان على حافة الهاوية من منطق القوة وبنوع من الغطرسة، مع الاستعداد للتصعيد والتحدي للاتحاد السوفيتي في جميع مواقعه بالعالم الثالث؛ ولكن نتيجة المتطلبات الاقتصادية والتكلفة، والعبء الاقتصادي، أصبح أكثر مرونة فيما يخص مساندة حلفائه التقليديين، ومن ثم أصبح وصف الاتحاد السوفييت بأنه قوة توازن لصالح دول العالم الثالث أمراً مشكوكاً فيه.[3]

٢- أوروبا:

كانت أوروبا هدفاً سوفيتياً بغرض تحييدها في الصراع الدائر بين القوتين العظمتين، ولكن أوروبا استطاعت في المرحلة الأخيرة قبيل التفكك، تصعيد النزعة الديمقراطية والقومية داخل دول أوروبا الشرقية، خاصة الأوضاع السيئة في برلين عام ١٩٥٣م عندما خاض عمال شرق برلين إضراباً عاماً؛ نتيجة أوضاع البلاد، وسُرعان ما انتشر الإضراب إلى بقية البلاد، وتصدّت القوات العسكريّة والألمانية الشرقيّة والسوفيتيّة لهذا الإضراب، وعلى الرغم من ذلك إلّا أنّ الاضطرابات استمرت في الانتشار إلى جميع أنحاء أوروبا الشرقيّة.[4]

---

(١) معوض، نازلي أحمد: مرجع سابق، ص٥٦.

(٢) أبو سكين، حنان: بين الصراع والتعاون، والتنافس الدولي في آسيا الوسطى، المركز العربي، لبنان، ٢٠١٤م، ص٣٩.

(٣) عبدالبديع، أحمد عباس: مرجع سابق، ص١٧.

(٤) كسنجر، هنري: السياسة والدبلوماسية من الحرب الباردة إلى يومنا هذا، الدار الأهلية الأردن، ١٩٩٥م، ص٤٧٧.

٣- الصين:

تتحدد علاقاتها وفقاً لسياسه الهادفة إلى أيجاد جو من الوفاق بين الطرفين، فهناك من القضايا بينهما ما يمكن تسويته مثل المشكلات الإقليمية الأسيوية والقوات على الحدود بين الجانبين، علاوة على إمكانية قبول الصين أيديولوجيا، حيث مازال الهيكل الأساسي في الصين (ماويا) والحزب مصدر السلطة.[١]

٤- المؤامرة الماسونية العالمية على الاتحاد السوفييتي:

الخيانة والعمالة من داخل السلطة الحاكمة، " الخيانة العظمى"؛ وهم عملاء للإمبريالية ممن وصفهم صراحة بأنهم "يهوذا"، في إشارة إلى ألكسندر ياكوفليف "فيلسوف البيريسترويكا" الذي كشف عدد من رؤساء لجنة أمن الدولة "كي جي بي"، عن سقوطه في شرك العمالة الأميركية.[٢]

رابعاً- سقوط وتفكك الاتحاد السوفيتي:

أ- سقوط الاتحاد السوفيتي:

عوامل سقوط الاتحاد السوفيتي إصلاحات غورباتشوف تُعدّ تغييرات غورباتشوف، من أكثر العوامل التي أدّت إلى تسريع سقوط الاتحاد؛ حيث غيّرت هذه الإصلاحات الأنظمة والقوانين التي اعتاد عليها الشعب، وأثرت التغييرات أيضاً على النخب الاقتصادية والسياسية، وتكدس الفساد في المؤسسات الحكومية، وبالتالي أصبحت الحكومة ضعيفة، وبدأت الانتقادات توجّه ضدها؛ ويمكن أن نوضح أهم الأسباب التي أدت إلى سقوط الاتحاد السوفيتي في الآتي:

١- فساد المكتب السياسي:

يعتبر فساد المكتب السياسي السوفيتي سبباً من أسباب سقوطه؛ حيث كان الاتحاد السوفيتي في العشرينات من القرن العشرين بقيادة فلاديمير لينين، وليون تروسكي، وجوزيف

---

(١) اعترافات ميخائيل جورباتشوف: في العديد من مقالاته ولقاءاته وتصريحاته في مقالة له نشرت في كتابه "الانقلاب" الذي تولى ترجمته: سامي عمارة ، كاتب وصحافي، ونشرته صحيفة "الشرق الأوسط" في نهاية العام ١٩٩١م، ص١٩.

(٢) بلاتو نوف، اوليغ: الماسونية العالمية والمؤامرة على الاتحاد السوفيتي، ترجمة: يوسف سليمان و نجم عبدالمحسن تقديم- هادي العلون، (د- ت)، ص٢٠١.

ستألين، وكانت لديهم العديد من السلبيات والعيوب في قياداتهم، ولكنهم كانوا مُندفعين بالنقاء الأيديولوجي المرتبط بالماركسية، ومنذ عام ١٩٦٣م بدأ المكتب السياسي (البوليتبورو the Politburo) السوفيتي بالانحراف عن سياسات لينين مع اتباع منهجٍ متحفّظ نوعاً ما؛ حيث شهدت الستينيات والسبعينيات زيادة ثروات نخبة الحزب.

٢- الحرب الباردة والعدوان الغربي:

تسبّبت الحرب الباردة بسقوط الاتحاد السوفيتي؛ حيث كانت هذه الحرب بين الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفيتي، وكانت مصدر قلق كبير على الصعيد الدولي، وبدأت استعدادات الولايات المتّحدة لحرب من خلال تطوير أسلحة للانتقام، وكانت تُسمّى هذه الأسلحة بالثالوث الاستراتيجي Strategic Triad، والتي شملت قاذفات قنابل بعيدة المدى، وغواصات حربية، وصواريخ أرضية، وأدّى هذا إلى نشوء ما يُدعى بـ"سباق التسلح النووي".(١)

ومنذ الستينيات، زادت الولايات المتحدة وتيرة الحرب الباردة إلى أعلى مستوياتها، ووصف رونالد ريغان الاتحاد بالإمبراطورية الشريرة، كما عزل الاتحاد السوفيتي عن بقية الاقتصاد العالمي، وخفض أسعار النفط إلى أدنى مستوى، وهذه الأعمال كانت سبباً في انهيار الاتحاد السوفيتي.(٢)

٣- الحركات القومية:

يمكن ربط سقوط الاتحاد السوفيتي ببنية الاتحاد وقوميته؛ حيث كان الاتحاد السوفيتي يتألّف من (١٥) جمهوريّة اشتراكية سوفيتية، شمل الاتحاد على العشرات من اللغات والثقافات المختلفة، وكثيرٌ من هذه الاختلافات لم تتّفق مع بعضها البعض، وقد قاد هذا الاختلاف إلى تشكّل الأقليات العرقية من قبل الأغلبية الروسية، الأمر الذي نتج عنه توتّر في مختلف المقاطعات وخاصّة في القارة الأوروبية الشرقية، وانتشرت الحركات القومية بسرعة رهيبة إلى تشيكوسلوفاكيا، ويوغسلافيا، الاتحاد السوفيتي، وبالتالي ضعفت القوة

---

(١) عمارة، سامي: انهيار الاتحاد السوفيتي بين المقدمات والنتائج (١٩١٧- ١٩٩١م)، مرجع سابق، ص١٤.

(2) Sakwa, Richard. Soviet Politics in Perspective. 2nd ed. London – N.Y.: Routledge,1998.p.178.

المركزية للاتحاد السوفيتي، وبحلول عام ١٩٩١م كانت نهاية الاتحاد السوفيتي.[١]

٤- حـرب افغانسـتان ومهمـة أجهـزة الاسـتخبارات (الأمريكيـة، السـعودية، الباكستانية):

افغانسـتان كانـت مسـتنقع واسـتنزاف لقوة البشرية والمادية والمعنوية، ومكان لتصفية الحسابات الدولية للثأر والانتقام من الاتحاد السوفياتي، من خلال الادوار التـي مارسـتها الاسـتخبارات الثلاثـة والتنسـيق بيـنهم فـي تنظـيم ودعـم المجاهـدين الافغـان، والعـرب لمحاربـة الـروس، منـذ دخـول الاتحـاد السـوفياتي كـابول (١٩٧٩ حتـى سـبتمبر ٢٠٠١م)؛ كانـت لـه خلـيط مـن الاعتبـارات والـدوافع، منهـا مـا قالـه مستشـار كـارتر الشهير: "إنها فرصة تاريخية لمنح الاتحاد السـوفياتي فيتنامـه"، إلا أن "معظمهـا متعلـق بـأجواء الحـرب البـاردة" فـي ذلـك الوقـت، التـي كانـت مسـتعرة بـين المعسـكرين الشـرقي والغربـي وحلفائهما.[٢]

٥- أخطاء جورباتشوف:

أخطـاء غورباتشـوف كثيـرة، وقـد اعتـرف ببعضها في العديد من مقالاته ولقاءاته وتصريحاته، منها:

- عنـدما بـدأ سياسـة البيريسـترويكا مـن دون تصور واضح ومن دون نظرية يمكن أن تكـون بـديلاً للماركسـية اللينينيـة، كـان يريـد التغييـر وتحقيـق الجديـد مـن خـلال الاعتماد على " التجربة، والخطأ".[٣]

- تصـور جورباتشـوف إمكـان إجـراء تغيـر علـى الهيكـل القـائم علـى اقتصاد دولـة مترامية الأطراف، ومتعددة القوميات.

- عندما اتخذ تصفية المواجهة مع الغرب البالغة الخطـورة والباهظـة التكاليف، كانـه قـدم إلـى الإمبرياليـة علـى طبـق مـن فضة، ما لم تستطيع تحقيقه عن طريق القوة.

- التفرّيط فـي المكتسبات التـي حققنها في الحرب الوطنية ألحقنا الإهانة بذكرى

---

(١) عزوشيف، ايفان: مرجع سابق، ص٣١٢.

(٢) الفيصـل، تركـي: الملـف الأفغـاني، مـن دخـول الاتحـاد السـوفياتي كـابول (١٩٧٩-سبتمبر ٢٠٠١م)، طبع باللغة الإنجليزية، ترجمه: =

= مصطفى الأنصاري، معرض رياض الدولي للكتاب، السعودية، ٢٠٠٢م، ص٢٣٥.

(٣) ألكسـندر يـاكوفليف- عضـو المكتـب السياسـي، كـان يحظـى بكنيـة "فيلسـوف البيريسترويكا"، والمسؤول عن جهاز إعلامها، مقابلة قناة عربي BBC NEWS ، ١٢/١٢/ ٢٠٢٠م.

الملايين من ضحاياها، وأقدمنا على خيانة الأصدقاء والحلفاء، وحطمنا النظام الاشتراكي.[1]

- ارتباك النسق الأعلى للسلطة وضبابية الرؤية في ما يمكن أن تعنيه هذه الشعارات بإصلاحاته، وأية مهام استهدف تحقيقها في المستقبل كانت مجرد ثرثرة كلامية من قبل جورباتشوف لم يستطيع ترجمته عملياً.[2]

- فقد أكد أن "التحولات التي بدأت ١٩٨٥م كانت بلا خطة، بل ومن دون أفكار تحكم إطارها، أما عن الخطة فلم تكن موجودة.

- ما أعلن عنه من على منصة الجمعية العامة للأمم المتحدة حول إسقاط "مذهب بريجينيف"*، قد ساهم في سرعة انهيار بلدان المعسكر الاشتراكي، وحلّ "حلف وارسو" والموافقة على توحيد الألمانيتين.

- بداية بمباركة بوريس يلتسين للتوجهات الانفصالية لبلدان البلطيق، إستونيا ولاتفيا وليتوانيا عام١٩٩١م، ثم انقلاب ١٩/ أغسطس في العام ذاته.

س- توقيع ثلاث من الدول المؤسسة للاتحاد السوفياتي، روسيا وأوكرانيا وبيلاروسيا وثيقة "بياوفيجا" الخروج من الاتحاد السوفياتي في ٨/ ديسمبر ١٩٩١م، وتأسيس "رابطة الدول المستقلة" في٢٠/ ديسمبر١٩٩١م.

ب - تفكك الاتحاد السوفيتي:

كان تفكك الاتحاد السوفيتي إشارة لانتهاء الوجود القانوني لدولة اتحاد الجمهوريات السوفيتية الاشتراكية، وقد حدث ذلك التفكك في ٢٦/ ديسمبر ١٩٩١م؛ عقب إصدار مجلس السوفييت الأعلى للاتحاد السوفييتي الإعلان رقم (H-142) والذي أُعلِن فيه الاعتراف باستقلال الجمهوريات السوفيتية السابقة، وإنشاء رابطة الدول المستقلة لتحل محل الاتحاد السوفيتي.

---

(١) فلاديمير كريوتشكوف عضو المكتب السياسي ورئيس لجنة الدولة "كي جي بي: مقابلة قناة BBC NEWS عربي، السبت٢١/٨/٢٠٢٠م.

(٢) فلاديمير كريوتشكوف- عضو المكتب السياسي ورئيس لجنة الدولة "كي جي بي، مرجع سابق.

(٣) بيوتر كرافتشينكو: وزير خارجية بيلاروسيا في مؤتمر"بياوفيجا"،٨/ديسمبر١٩٩١م، وثائق حصرية (WINTER SONaTa)

* كان يؤكد أحقية الاتحاد السوفياتي في التدخل في الشؤون الداخلية للبلدان الأجنبية.

قبل يوم من ذلك الإعلان، وفي ٢٥/ ديسمبر ١٩٩١م قام الرئيس الأخير للاتحاد السوفيتي والحاكم الثامن له منذ إنشائه، ميخائيل غورباتشوف بإعلان استقالته في خطاب وجهه إلى الشعب السوفيتي عبر التلفزيون الرسمي للاتحاد السوفيتي، وأشار في الخطاب إلى أن مكتب رئيس اتحاد الجمهوريات السوفيتية الاشتراكية قد تم إلغائه؛ وأعلن تسليم كافة سلطاته الدستورية بما فيها السلطة على الأسلحة النووية الروسية، إلى الرئيس الروسي بوريس يلتسن.

عقب خطابه ذاك غادر غورباتشوف مبنى الكرملين تحت جنح الظلام، وفي تمام الساعة (٠٧:٣٢) مساء بتوقيت موسكو، تم إنزال علم الاتحاد السوفيتي الأحمر عن مبنى الكرملين للمرة الأخيرة في التاريخ، ورُفِع محله علم روسيا ثلاثي الألوان.[١]

قبل الحل الرسمي للاتحاد، وخلال الفترة من شهر (أغسطس- ديسمبر عام ١٩٩١م)، جميع الجمهوريات المكونة للاتحاد، بما فيها روسيا نفسها، أعلنت انفصالها عن الاتحاد بشكل فردي، وقبل أسبوع من الحل الرسمي للاتحاد، اجتمع ممثلو (١١) دولة مكونة للاتحاد السوفيتي -باستثناء دول البلطيق وجورجيا- ووقعوا بروتوكول (ألما آتا) الذي تم فيه إنشاء رابطة الدول المستقلة؛ وأعلن البروتوكول صراحة حل اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفيتية وأشار إلى أن الاتحاد السوفيتي لم يعد موجوداً قانونياً كدولة.

وتفكك الاتحاد السوفييتي إلى (خمس عشرة) دولة مستقلة وهي:

١-جمهوريات السلاف: (بيلاروسيا، روسيا الاتحادية، أوكرانيا).

٢-جمهوريات البلطيق: (إستوانيا، لاتفيا، ليتوانيا).

٣- جمهوريات الأتراك: (كازاخستان، تركمانستان، قيرغيزستان، أذربيجان، أوزبكستان).

٤- جمهوريات القوقاز: (أرمينيا، أذربيجان، جورجيا).

٥- جمهوريات آخري: (مولدوفيا، طاجيكستان).[٢]

---

(١) ميخائيل جورباتشوف: قناة SKY Newsعربية، مقابلة برنامج بصراحة، تقديم- زينة يازجي، الشارقة، الامارات العربية،١٢/ مارس ١٩٩٦م.

(٢) جورباتشوف، ميخائيل: جورباتشوف وحكاية الانقلاب ثلاثة أيام هزت العالم، مرجع سابق، ص٢٦.

على الصعيد الدولي مَثّل تفكك الاتحاد السوفيتي نهاية الحرب الباردة، حيث ساعدت ثورات عام ١٩٨٩ إضافة إلى تفكك الاتحاد على نهاية العداء المستمر منذ عقود بين منظمة حلف شمال الأطلسي (الناتو) وحلف وارسو، والذي كان السمة المميزة للحرب الباردة (١٩٤٧-١٩٩١م).

أمّا على الصعيد الداخلي للدول السوفيتية السابقة فقد احتفظت الجمهوريات السوفيتية السابقة بعلاقات وثيقة مع الاتحاد الروسي الذي يمثل الخليفة السياسية للاتحاد؛ وشكّلت روسيا والجمهوريات السوفيتية السابقة العديد من المنظمات التعاونية مثل المجموعة الاقتصادية (الأوروآسيوية)، الدولة الاتحادية بين روسيا وبيلاروسيا، والاتحاد الجمركي (الأوراسى)، والمجموعة الاقتصادية الأور وآسيوية لتعزيز التعاون الاقتصادي والأمني؛ كما تحاول بعض دول الاتحاد السوفيتي السابقة الانضمام إلى حلف شمال الأطلسي، لتعزيز الاستقلال العسكري والاقتصادي من روسيا.[1]

الخاتمة:

هكذا استمر الاتحاد السوفيتي رسمياً منذ عام (١٩١٧- ١٩٩١م)، وكان الإعلان الرسمي عن نهايته بصفته اتحاداً ودولة عظمى قد سبقها إرهاصات مباشرة وغير مباشرة، بدأت، بوادرها منذ وفاة الرئيس ليونيد بريجنيف عام ١٩٨٢م، وتصاعد الأحداث سريعاً بعد تولى الرئيس ميخائيل جورباتشوف حكم البلاد عام ١٩٨٥م.

كان الاتحاد السوفيتي، في معظم فتراته، حليفاً سياسياً للعالم العربي ومصدراً من المصادر الأساسية لتمويله بمختلف السلع الاستراتيجية خاصة الأسلحة، كذلك كانت المعادلة الدولية على قدر كبير من التوازن، حيث كان النظام الدولي يتميز بالثنائية القطبية، ومن ثم يمكن القول: إن العالم العربي قد خسر حليفاً سياسياً واقتصادياً وعسكرياً قوياً بعد انهيار الاتحاد السوفيتي، ومن الواضح أن هذا الانهيار قد قضى على النظام الدولي القديم، الذي قام على التوازن بين قوتين

(١) الزنتاني، عبدالوهاب محمد: انهيار الاتحاد السوفييتي ونهوض روسيا الاتحادية، دار =

= غريب للطباعة والنشر، القاهرة، ٢٠٠٩م. ص١٥٢.

عظميين تتزعمان معسكرين متضادين، حكمته قواعد الحرب الباردة وضوابطها. وقد قضى هذا الانهيار على الشكل السابق للقارة الأوروبية، وخرجت أوروبا الشرقية تنفض عن كاهلها غبار الانهيار، وتعيد صياغة مجتمعاتها واقتصاداتها، للحاق بأوروبا الغربية الأكثر تقدماً، بدلاً من الصراع والعداء معها، فضلاً عن إعادة توحيد ألمانيا وما تحمله من فرص واحتمالات عديدة، والتفكك السلمي لتشيكوسلوفاكيا، ثم انتقال عدوى التفكك تجاه الاتحاد اليوغسلافي وتصاعد الصراعات العسكرية نتيجة هذا التفكك.

غير أن أكثر مشاهد الانهيار إثارة وخطورة كان، انهيار الدولة السوفيتية ذاتها وتفككها، فقد فاق هذا الانهيار في حجمه وعمقه وسرعته، كافة توقعات الباحثين وتحليلات المحللين، بمن فيهم من كان أكثرهم رفضاً للاتحاد السوفيتي؛ ولا تكمن خطورة هذا الحدث في تفكك قوة عظمى إلى عدد من الدول المستقلة ذات السيادة فقط، وإنما تكمن في انهيار الإيديولوجية الماركسية اللينينية.

والواقع أن سقوط الاتحاد السوفيتي وانهياره، بوصفه انهيار الإمبراطورية، ليس ظاهرة فريدة في التاريخ الحديث أو الوسيط أو القديم، فليس تهاوى الشيوعية السوفيتية جديداً في دورات التاريخ، فقد حكم التاريخ بالموت على النظم التي أضحت عائقاً أمام التقدم، وانهيار الشمولية السوفيتية قد سبقه تداعى الشمولية النازية والفاشية، والهزيمة في الحرب الباردة تبدو نتيجة منطقية بأن استخدام القوة غير العسكرية بمقدوره تحقيق أهداف الحرب بوسائل أخرى، إن هدم دعائم النظام القديم وخاصة الجهاز الدولي الشمولي في عهد ميخائيل جورباتشوف، قد عجّل بانهيار القوة العظمى السوفيتية.

إن سرعة انهيار الإمبراطورية والشيوعية والشمولية في الاتحاد السوفيتي، تم على نحو لم تتوقعه أكثر التنبؤات الأيديولوجية تفاؤلاً، كما أن تداعيات الانهيار لا سابق لها من حيث شمولها للجوانب الاقتصادية والسياسية والأيديولوجية وغيرها، مما يبرز التأريخ به بداية لتشكيل نظام عالمي جديد.

المصادر والمراجع

أولاً: الوثائق:

١- الوثائق الأجنبية المنشورة:

ا- مؤتمر (بياوفيجا): وثائقيات حصرية (WINTER SONATA)، ٨/ديسمبر ١٩٩١م.

٢- إمبراطورية موسكو- الصعود والسقوط- الجزء الأول: فلم وثائقي، DW–Bocame ntary، قناة دي دبليو الوثائقية.

٣- فلاديمير كريوتشكوف: عضو المكتب السياسي ورئيس لجنة" كي جي بي"، مقابلة، قناة BBC Nyws عربي، ٢١/٨/٢٠٢٠م.

٤- ميخائيل جورباتشوف: مقابلة، قناة SKY News عربية، تقديم- زينة يازجي، الشارقة، الامارات،١٩٩٦م.

ثانيا: الكتب:العربية والأجنبية:

٢- الكتب العربية:

١- أبو سكين، حنان: بين الصراع والتعاون، والتنافس الدولي في آسيا الوسطى، المركز العربي للبحوث، لبنان، ٢٠١٤م.

٢- الفيصل، تركي: الملف الأفغاني، من دخول الاتحاد السوفياتي كابول١٩٧٩- سبتمبر ٢٠٠١م)، طبع باللغة الإنجليزية، ترجمه: مصطفى الأنصاري، معرض رياض الدولي للكتاب، السعودية، ٢٠٠٢م.

٣- الزنتاني، عبدالوهاب محمد: انهيار الاتحاد السوفييتي ونهوض روسيا الاتحادية، دار غريب للطباعة والنشر، القاهرة، ٢٠٠٩م.

٤- السلاوي، حازم: النظام الاقتصادي العالمي المعاصر من نهاية الحرب العالمية الثانية إلى نهاية الحرب الباردة، عالم المعرفة، الكويت، ١٩٩٠م.

٥- الهويدي، أمين: البيروسترويكا وحرب الخليج الأولى، دار الشروق، الشارقة، الأمارات العربية، ١٩٩٧م.

٦- عبد البديع، أحمد عباس: الاتحاد السوفييتي من القمة إلى التفكك، مجلة السياسة الدولية، مصر، يوليو١٩٩٥م.

٧- عمارة، سامي: انهيار الاتحاد السوفياتي بين المقدمات والنتائج (١٩١٧- ١٩٩١م)، مجلة أندبندنت عربي بودكاست، لندن، سبتمبر٢٠٢٠م.

٨- عمارة، سامي: وقائع الأيام الأخيرة في تاريخ الاتحاد السوفياتي، مجلة اندبندنت عربية بودكاست،

واشنطن، ٢٦/ ديسمبر٢٠٢٠م.
٩- معوض، نازلي أحمد: إصلاحات جورباتشوف الداخلية والتغيير في السياسة الخارجية، المجلة السياسية الدولية، مركز الاهرام، القاهرة، ١٩٨٧م.
١٠- منى حداد، فتحي يكن: البيروسترويكا من منظور إسلامي، دار الهدى، الجزائر، ١٩٩١م.
١١- موسوعة "مقاتل من الصحراء" هوية سياسية عسكرية وثائقية، وثقافية متنوعة، الإصدار الخامس في ٢٧/ فبراير ٢٠٠٤م.

٣- الكتب الأجنبية:

١- بلاتونوف، أوليغ: الماسونية العالمية والمؤامرة على الاتحاد السوفيتي، ترجمة: يوسف سليمان، ونجم عبدالمحسن، تقديم: هادي العلوي، الطليعة الجديدة، دمشق، يناير١٩٩٧م.
٢- جورباتشوف، ميخائيل: جورباتشوف وحكاية الانقلاب ثلاثة أيام هزت العالم، ترجمة: فؤاد حطيط، دار عام ألفين، باريس، ١٩٩٢م، ص١١- ١٢.
٣- غارودي، روجية: موجز تاريخ الاتحاد السوفيتي، موسكو، ١٩٩٨م، ص١٢٢.
٤- غروشيف، أيفان: المسألة القومية في الاتحاد السوفياتي (تجارب وحلول)، دار الفارابي، بيروت، يناير١٩٧٣م.
٥- قره، سيرغى: الاتحاد السوفيتي من النشؤ إلى السقوط، ترجمة: شوكت يوسف، دار النشر دمشق، ٢٠١٨م.
٦- كينيدي، بول: صعود وسقوط القوة العظمى، التغير الاقتصادي والنزاع العسكري من (١٥٠٠- ٢٠٠٠م)، دار النشر راندوم هاوس، واشنطن، الولايات المتحدة الأمريكية، ١٩٨٧م.
٧- كسنجر، هنري: السياسة والدبلوماسية من الحرب الباردة إلى يومنا هذا، ترجمة: البديري، مالك فاضل، الدار الأهلية، الأردن، ١٩٩٥م.
٨- ماندل أرنست، بولا خوري ت و: الاتحاد السوفيتي في ظل ميخائيل جورباتشوف، دار الواحة، لبنان، ٢٠٠٩م.
٩- ميدفيديف، فلاديمير: حكم العواجيز اللحظات الأخيرة من حياة الاتحاد السوفييتي، ترجمة: نبيل رشوان، دار الثقافة الجديدة، نوفمبر٢٠١٣م..
١٠- ميدفيديف، روى، وآخرون: الإصلاح

والدولة البيروقراطية (مناقشة اليسار الديمقراطي في الاتحاد السوفيتي السابق)، مركز الغد العربي للدراسات، ---، يناير٢٠٠٦م.

١١- مجموعة من المؤلفين: سنوات على انهيار الاتحاد السوفييتي، مجلة الثقافة العالمية (٧٣)، (د- م)، يناير١٩٩٥م.

١٢-مجموعة من المؤلفين الروس: الاقتصاد السياسي للاشتراكية، دار التقدم، موسكو، مارس٢٠١٨م.

١٣- ماكماهون، روبرت.ج: الحرب الباردة، ترجمة: محمد فتحي خضر، دار النشر مؤسسة هنداوي، ---.

ثالثآ: الرسائل العلمية:

١- رئيفة، معلم: دور ميخائيل جورباتشوف في سقوط الاتحاد السوفيتي (١٩٨٥- ١٩٩١م)، رسالة ماجستير، جامعة محمد السادس، المغرب، ٢٠١٥م.

رابعاً: المراجع الأجنبية:

(1) Sakwa, Richard. Soviet Politics in Perspective. 2nd ed. London – N.Y.: Routledge,1998.

(2) Michael C. Kaser, Comecon: Integration problems of the planned economies (Oxford University Press, 1967).

(3) Michael C. Kaser, Comecon: Integration problems of the planned economies (Oxford University Press, 1967). (4) Richard Sakwa The Rise and Fall of the Soviet Union, 1917-1991. Routledge, 1999.

خامسًا: الإنترنت:

(1).رغم مرور (٣٠) عاما على انهياره الاتحاد السوفياتي الحاضر، https;//www.aljazeera.net

(2) https://www.britannica.com

(٣). دراسة تاريخية لأسباب انهيار الاتحاد السوفيتي، https;//www.politics.dz.com.

(٤) ويكيبيديا الموسوعة الحرة: تفكك الاتحاد السوفيتي، https//ar.wikipedia.org

(5) Watch, https;// www.you tube.com.

الرابطة اليهودية العالمية مرتكزات تحديث التعليم اليهودي بالمغرب

عبد الإلاه لعرج

باحث في التاريخ المعاصر

جامعة سيدي محمد بن عبد الله- فاس

University of Sidi Mohamed Ben Abdallah – Fez

ملخص

أيقنت الرابطة اليهودية العالمية[1] أن مستوى التعليم العبراني في الشرق عامة والمغرب خاصة، لا يرقى إلى المأمول، ولا يساير التطور في العلوم والمعارف والمستجدات، وبخلاف ذلك فهو يعمل على تكريس حالة الجمود والتقليد، كما أنه ليس بالتعليم الذي يحتاج إلى عدد من التعديلات حتى يستعيد عافيته وبريقه، بل اعتبرت هذا النوع من التعليم المسؤول الأول عن تكريس التخلف، وحالة الدونية التي يعيشها اليهود داخل البلدان التي يقطنون بها، لأنه لا يرتقي بعقول

(1) تأسست هذه المنظمة المعروفة ب "L'alliance Israélite Universelle" سنة ١٨٦٠ بفرنسا، وأخذت على عاتقها العمل على عتق يهود الشرق) بما في ذلك يهود أوربا الشرقية والشرق الأوسط وشمال إفريقيا (وتحريرهم من أسلوب الحياة التقليدية، ومن التخلف والجهل، والدفاع عنهم سياسيا وحقوقيا، وتأهيلهم ليصبحوا مواطنين فاعلين ومندمجين داخل البلدان التي يستوطنونها، واتخذت من التعليم العلماني العصري على النموذج الفرنسي منطلقا لتحقيق ذلك، وعليه كانت مدينة تطوان أولى المدن التي أسست فيها الرابطة سنة ١٨٦٢ النواة الأولى لشبكتها المدرسية، التي ستمتد من طنجة إلى طهران. ينظر:

-Narcisse Leven, **Cinquante ans d'histoire: L'Alliance israélite universelle (1860-1910)**, Tom 1 et 2, Félix Alcan, Paris, =

= 1911/1920.

- André Chouraqui, **L'Alliance Israélite Universelle et la renaissance juive contemporaine 1860–1960: Cent ans d'histoire**, Presses Universitaires de France, Paris 1965.

المتعلمين ولا يمنحهم الأدوات والآليات اللازمة لكي يتطوروا في تجاه كسر قيود الرجعية، للتحرر من قيود الماضي والأسلاف، والانفتاح على كل ما هو عصري وحداثي على جميع الأصعدة سواء اجتماعيا أم اقتصاديا وسياسيا. وهو الأمر الذي يبعث لدى الرابطة تحديا يكمن في خلق مدارس نموذجية على شاكلة المدارس الفرنسية تتوفر فيها شروط ومقومات المدرسة الحديثة شكلا ومضمونا.

الكلمات المفاتيح:

الرابطة اليهودية العالمية، التعليم العبراني، المدارس، التحديث.

Summary

The Alliance Israélite Universelle is convinced that the level of Hebrew education in the East in general and in Morocco in particular, does not live up to the hoped-for, and does not keep pace with the development in sciences, knowledge and recent developments. Rather, it considered this type of education primarily responsible for perpetuating the backwardness and the inferiority of the Jews in the countries in which they reside, because it does not advance the minds of the educated and does not give them the tools and mechanisms necessary to develop towards breaking the chains of reaction, liberation from the shackles of the past and ancestors, and openness On all that is modern and modernistic at all levels, whether socially, economically and politically. Which gives the association a challenge in creating model schools similar to French ones that meet the conditions and elements of a modern school in form and content.

Keywords: Alliance Israélite Universelle, Hebrew Education, Schools, Modernization.

مقدمة

اعتمدت الرابطة اليهودية العالمية عددا من الآليات بغرض تحديث التعليم المقدم لليهود، واتخذت لأجل ذلك تدابير خاصة، منها التغلغل وسط الجماعات المغربية اليهودية بغية رصد مكامن القوة والضعف لديها، من خلال تسخير معلميها كمراقبين داخل الجماعة، يعملون على إعداد تقارير ومراسلات دورية للكشف والاضطلاع على الحياة اليهودية بالمغرب بكل ما تكتنفه على المستويات الاجتماعية والاقتصادية والأخلاقية... حتى تتمكن فيما بعد من وضع مرتكزات ورسم مسارات التحديث المزمع تنفيذه.

ا) اللغة الفرنسية: مرتكز التحديث

ارتكزت أدبيات التحديث لدى قادة الرابطة اليهودية العالمية بباريس على قدرة المنظمة على منح الشباب اليهودي الوسائل الأساس، وتهيئة الظروف المواتية ليهود الشرق لتحقيق المساواة المدنية والعيش في وئام مع المواطنين ومع رعايا الدول الأخرى التي يستوطنون بها.

شكلت اللغة الفرنسية أولى الركائز التي ينبني عليها مسلسل التحديث بالمغرب، باعتباره أول دولة حاضنة لأول مؤسسة تعليمية تابعة للرابطة، تماشيا مع السياسة الخارجية الفرنسية لما وراء البحار، وعلى الرغم من أن الصورة الحقيقية لهذا التماهي أكثر تعقيدا، ولا يمكن فهمه إلا في سياق السياسة الخارجية للثقافية الفرنسية، فإنها ربطت التعبير عن القيم الفرنسية الحضارية، بمدى معرفة اللغة الفرنسية واتقانها على النحو الذي تقدمه المدرسة الفرنسية. فعلى حد تعبير ألفونس أولارد Alphonse Aulard، فإن هذه المدارس تدرس «**لغتنا وعبقريتنا وروح فرنسا نفسها وأفكار العدالة والأخوة بين الأفراد والشعوب**»[1]، فضلا عن الإيمان السائد لدى الدوائر الرسمية والفكرية في باريس أن «**توسيع حدود اللغة الفرنسية إلى خارج الحدود السياسية الفرنسية**»[2]، أصبح أمرا وطنيا واجبا، لتهيئ الأرضية الملاءمة لتوسع النفوذ

---

(1) Aron Rodrigue, **French Jews, Turkish Jews: The Alliance Israelite Universelle and the Politics of Jewish Schooling in Turkey 1860-1925**, Indiana University Press, 1990,. p. 145.

(2) Ibid.

الاقتصادي الفرنسي لكون «**اللغة الفرنسية تنشر العادات الفرنسية، والعادات الفرنسية تؤدي إلى شراء المنتجات الفرنسية، والذي يتقن الفرنسية يصبح زبونا لفرنسا**»(١). وتظهر أولى النصوص التي تدل على رغبة الرابطة في فرنسة وتغريب التعليم المقدم في المدارس المزمع إنشاؤها، في ما جاء في رسالة لويس.ج كونيغزفيغتر Louis J. Kœnigswarter أحد الأعضاء الأوائل للجنة المركزية والهيئة الإدارية للرابطة، بحيث أعرب في كلمته المقدمة خلال اجتماع الجمعية العمومية للمنظمة في ١٨ يونيو ١٨٦٣ عن أهمية التعليم ودوره في نشر أنوار الحضارة الغربية قائلا: «**هنا، كما في باقي الأماكن (في الشرق)، تحسن الأوضاع الاجتماعية لا يمكن أن يتحقق إلا بعد التطور المعنوي. لذلك، وقبل كل شيء، ينبغي نشر التعليم وأنوار الحضارة الغربية بين هؤلاء السكان**»(٢). وعليه اعتمدت الرابطة ما أوصى به كونيغزفيغتر، إذ إن شباب الجاليات اليهودية كي يمتلكوا القدرة وروح المبادرة للتفاوض على التحرر والمساواة المدنية بأنفسهم، ينبغي على الرابطة أن تقدم لهم تعليما حديثا، وهذا يعني، وفقا لمعايير تلك الفترة، تعليما على وفق النمط الغربي سواء من حيث اللغة أم المناهج والكتب المدرسية(٣). وكانت اللغة الفرنسية إحدى هذه الرهانات، لأنه وفقا لنارسيس ليفين Narcisse Leven، «**... الفرنسية هي لغة التعليم لأنها هي الأكثر انتشارا في الشرق، وبالتالي هي ضرورية أكثر من جميع اللغات الأجنبية الأخرى...**»(٤). واتخذ إيزيدور لوب Isidore Loeb التوجه نفسه عندما اقترح عليه مستشار القنصلية الفرنسية ببغداد سنة ١٨٨٢، إمكانية التعليم باللغة العربية ضمانا لسير المدرسة بشكل سلس. حيث قال:

(1) Ibidem.

(2) **B.A.I.U.**, Juillet 1863,. p. 3.

(3) Danielle Omer, **"Une langue sans territoire? Le judéo-espagnol dans le discours des instituteurs de L'Alliance Israélite Universelle (1860-1913)"**, Ali Reguigui et Julie Boissonneault, Langue et territoire Etudes en ménagement linguistique, Série monographique en sciences humaines 14, Université Laurentienne, 2014,. p. 376.

(4) N. Leven, Op. cit, T 2,. p. 34.

«على العكس، نريد أن تكون هذه اللغة (لغة التدريس) لغة غربية، ويفضل أن تكون الفرنسية، أو إذا لزم الأمر الإنجليزية، لأن غرض مدارسنا هو إقامة علاقة فكرية بين الشرق والغرب»[1].

إلا أن اللهجات الأكثر تداولا لدى المغاربة اليهود كانت هي اليهودية الإسبانية والدارجة، وهو ما راعته الرابطة منذ بداية اشتغالها، بحيث لم تقطع نهائيا مع هذه اللهجات داخل أقسام الدرس، لكنها لم تكن لهجات متخذة بشكل رسمي في التدريس، فقد ظل استخدامها محدودا جدا، وبخاصة في تدريس التاريخ المقدس أو شرح آيات من الكتاب المقدس الذي تتم ترجمته من اللغة العبرية إلى اللهجة الأم للأطفال (اليهودية الإسبانية والدارجة والأمازيغية) وبخاصة لتلاميذ السنوات الأولى ابتدائي[2]. ولأن اللغة العبرية في هذه المرحلة كانت تدخل في إطار اللغات الميتة (أي غير المتداولة) أو على الأقل في نطاق اللغات الليتورجية (أي اللغة المرتبطة بالممارسة الدينية فقط)، هو ما جعل الرابطة تنحو نحو منحى توحيد اللغة بالنسبة للإخوة في الدين بحوض البحر الأبيض المتوسط، من خلال اتخاذ اللغة الفرنسية لغة للتعليم، تبعا لعدة أسباب: منها كونها لغة البلد الذي منح اليهود المساواة والحقوق المدنية بشكل رسمي، وبكونها الأكثر انتشارا في هذا المجال الجغرافي الذي يضم الكتلة الأضخم لليهود في العالم، بالإضافة إلى ارتباط حوض البحر المتوسط ببرنامج التوسع الاستعماري الفرنسي، وهو الأمر الذي ازدادت معه قناعة الرابطة بالتخلي عن اللغة العبرية[3]، وما تفرع عنها من

---

(1) Georges Weill, **Emancipation et humanisme: Le discours ideologique de L'Alliance Israélite Universelle**, Les Nouveaux Cahiers, N° 52, Année 1978,. pp. 16-17.

(2) Danielle Omer, **"Le français, l'allemand, l'anglais: l'impossible** =

= **alliance?: L'exemple du réseau scolaire de l'AIU** (1860-1913)" **,** Documents pour l'histoire du français langue étrangère et seconde, SIHFLES, 2014, Français, anglais, allemand: trois langues rivales entre 1850 et 1945,. pp. 173-194.

(3) **B.A.I.U.**, Deuxième série N° 10, 2e Semestre 1885 – 1er Semestre 1886,. p. 69.

يهودية إسبانية ويهودية عربية وغيرها[1]، وهو ما أكده موسى فريسكو Moïse Fresco نفسه في تقريره السنوي لسنة ١٩٠٨ الخاص بمدرسة غلطة Galata التركية بقوله: «**يتفق الجميع على أن الأمر يحتاج إلى أكثر من اليهودية الإسبانية، وأنه ليس من الضروري الإبقاء على لغة المضطهدين السابقين**»[٢]. وعلى الرغم من أن تصريح فريسكو هذا جاء في مرحلة تصاعدت فيها نداءات الصهيونية بضرورة إعادة إحياء اللغة العبرية سواء من حيث التداول أو الكتابة والتدريس، إلا أن الرابطة كانت تعادي كل مظاهر الثقافة اليهودية الشعبية، وبشكل خاص اللغات اليهودية المحلية التي تمثل صورة سلبية للغات والثقافات المحلية في أواخر القرن الثامن عشر بفرنسا[٣].

لقد شكل حاجز اللغة المتعددة (اليهودية العربية "judéo-arabe" واليهودية الأمازيغية "judéo-berbère" واليهودية الإسبانية "judéo-espagnol") بالنسبة للمغاربة اليهود عائقا أمام وحدة الجماعة اليهودية بالمغرب، والدليل على ذلك هو انقسامهم إلى وحدتين (التوشابيم "Tochabims": اليهود الأهالي وينعتون بالبلديين) و (الميغوراشيم "Mégorachims": اليهود القادمون من الأندلس وينعتون بالمهجرين)[٤] بسبب اختلاف الأصول والجذور، مع أنهم ينتمون إلى الديانة نفسها، ويؤدون الطقوس ذاتها تقريبا، إلا أنهم يؤدونها بألسن مختلفة، ما صعب عملية الاندماج فيما بينهم بسبب فقدانهم لرابط مشترك، على الرغم من أن موسى ناحون Moïse Nahon يرجع كلا الوحدتين إلى والجذور نفسها[٥]، وقد نبه إلى أن مدارس الرابطة هي الفضاء الذي يمكن أن تذوب فيه

---

(1) André Kaspi, **Histoire de L'Alliance Israélite Universelle de 1860 à nos jours**, Armand Colin, Paris, 2010,. pp. 246-247.

(2) Danielle Omer, **"Une langue sans territoire?"**, Op. cit,. p. 382.

(3) A. Kaspi, Op. cit,. pp. 246-247.

(٤) حاييم الزعفراني، **ألف سنة من حياة اليهود بالمغرب: تاريخ. ثقافة. دين**، ترجمة أحمد شحلان وعبد الغني أبو العزم، ط ا، الدار البيضاء، ١٩٨٧،. ص. ١٢٣.

(5) Moïse Nahon, **"Roumis et forasteros"**, Revue des Ecoles de L'Alliance Israélite, N° 1, Avril-Juin 1901,. pp. 51-52.

الاختلافات وأن اللغة الفرنسية هي بمثابة أداة ممتازة لتوحيد اليهود[1]، ولو جزئيا عن طريق استخدام اللغة الفرنسية التي تعد لغة مشتركة في حوض البحر المتوسط.

٢) تدريس لغة بلد الاستقرار

استمرت الرابطة في الكشف عن مكامن الخلل التي تعيق عملية اندماج اليهود، وتوحيدهم على الأقل داخل الدولة التي يقيمون بها؛ ففي عام ١٨٨٦ تعهدت الرابطة بتكثيف وتحسين تدريس لغة البلاد ((La Langue du Pays في مدارسها الخاصة، (العربية، التركية، البلغارية، اليونانية...) وذلك باستخدام المعلمين الأهالي، كما أوصت العائلات اليهودية باتخاذ كافة التدابير التي يمكن أن تمكن أبناءهم من تعلم لغة البلاد التي يقطنون بها، بحيث نصحتهم في حالة عدم وجود مدرسة للرابطة، ببعث أطفالهم للمدارس العمومية إن وجدت، والتي ستمكن أطفالهم من تعلم لغة تمكنهم من تحقيق التواصل والاتصال مع بقية السكان[2]، لكن مساعي الرابطة في هذا الاتجاه كان المراد منها القضاء على اللهجات المنبثقة عن اللغة العبرية «الميتة»، لأن إصرار اليهود على تداول هذه اللهجات يجعل منهم غرباء داخل دول عاشوا فيها لقرون، لكن هذا المسعى لم يتخذ الجدية اللازمة داخل مؤسسات الرابطة، لأنها ألقت بتكلفة تدريس هذه اللغات على كاهل مجلس الجماعة الملزم بدفع رواتب المدرسين الأهالي لهذه اللغات، وهو الأمر الذي لم تستجب له معظم الجماعات لأنها ترى أن هذا التعليم لا يدخل ضمن مسؤوليتهم المالية أو التربوية[3].

كان على الرابطة أن تتماهى مع أهدافها وخطها الإيديولوجي الكامن في عملية التحرر، التي كانت تقوم على تحويل اليهود إلى مواطنين صالحين أينما وجدوا، وهذا ما دفعها إلى تبني لغة البلد كلغة تدريس في المؤسسات التعليمية[4]، وهو ما حصل سنة ١٩٠٣ بعد أن أدرجت تدريس لغة البلاد ضمن لائحة المواد الإجبارية[5]، لكنها لا تعدو أن

---

(1) Ibid,. pp. 55-56.

(2) **B.A.I.U.**, Deuxième série N° 10, Op. cit,. pp. 30-31.

(3) Danielle Omer, **Une langue sans territoire**?", Op. cit,. p. 389.

(4) A. Kaspi, Op. cit,. p. 249.

(٥) المواد الإجبارية: هي المواد الملزم توفرها =

تكـون مجـرد لغـة مسـاعدة[1] فاقـدة للمكانة والوزن أمام اللغة الفرنسية التي أولاها معلمو الرابطة المكانة الأرفع في عملية التدريس[٢].

٣)تحجيم دور التعليم الديني

بـالموازاة مـع محـاولات الرابطـة لترسـيخ اللغــة الفرنسـية بصـفتها لغـة رئيسـة للتعليـم، نهجـت سياسـة أخـرى تقضـي بتحجيم عدد الساعات المخصصة للتعليم الديني الذي يشكل في حد ذاته حجر عثـرة فــي إتمـام المنـاهج الدراسـية المتوافقـة مـع السياسـة التعليميـة للرابطـة، لكنهـا اصـطدمت فـي المغـرب بأعضـاء اللجـان المحليـة المكونـة مـن أعضـاء بالجماعـة اليهوديـة المحتضـنة للمدرسة، والتي تقوم بتمويل جزء مهم مـن ميزانيـة المدرسـة، باعتبارهـا مسـاهما غيـر مباشـر فـي ميزانيـة الرابطـة. هـذه اللجان ترغب، بناء على تاريخها التعليمي، فـي أن تقـدم مـدارس الرابطـة تعليمـا دينيـا يرتكـز علـى التلمـود والتـوراة، فـي حـين تسـعى الرابطـة اليهوديـة العالميـة إلـى خلق مدرسـة ابتدائيـة علـى شـاكلة المـدارس الفرنسـية تقـدم تعليمـا دينيـا بسـيطا جـدا، جعـل المتنفـذين داخـل الجماعات اليهودية يتعاملون بشيء من الحذر والريبة مع مدراء ومعلمي الرابطة بفعل غيرتهم وتعصبهم تجاه كل ما هو رومي (أوروبي)، يعكس مظاهر الفشل والـنقص فــي سياســتهم التعليميــة، وبسـبب منافسـة هذه المؤسسات التي تتـوفر علـى مسـاحة شاسـعة، وتهويـة أفضـل مغريـة عـددا أكبـر مـن التلاميـذ للالتحاق بها[٣]، وقد برزت المنافسـة بهذا الخصوص بين كلا الجانبين بمدينة طنجة

=

في برنامج التعليم، والتي لا يجب تحت أي ظرف من الظروف أن تسقط منه. ينظر:

- **Instructions Générales pour les professeurs**, Paris, 1903,. p. 26.

(1) Ibid,. p. 27

(٢) خلال الخمسين سنة الأولى من وجودها، أرسلت الرابطـة اليهوديـة بـدون أي صعوبة المعلمين المدربين من قبلها حيثما رغبت، لكـن بعـد عـام ١٩١٤، ظهـرت مشـاكل جديـدة تكمن في أن يكون لدى المعلمين جنسية الدولـة التـي يدرسـون بهـا، كمـا يجـب أن يكونوا قادرين على التدريس باللغة الوطنية للدولة. ينظر:

- A. Chouraqui, Op. cit,. p. 186.

(3) C.A.D.N., **Carton 675**,**PO**,**B1**,**519**, Ministère des Affaires étrangères, Tanger: Légation et Consulat, Rapport " Les Ecoles du Maroc: Oeuvre de L'alliance Israilite Universelle ", Tanger 15 Mars 1908,. p. 4.

فـي تقـارير موسـى فريسـكو[1] خـلال السـنتين الدراسـيتين ١٨٨٥-١٨٨٦ و١٨٨٦-١٨٨٧، ومـن بـين مـا جـاء فـي تقـاريره أن أعضـاء اللجنـة المحليـة (وأكثـرهم تصـلبا الحاخـام بنـزاكين (Benzaquen) يعتبـرون أن مدرسـة الرابطـة بطنجـة تُدرس الكفـر للتلاميـذ الـذين يتشـربون الإلحـاد داخلهـا، وهو ما نفاه فريسكو وعمل على دحضه علميا بقوله: «**لقـد علمنا أطفالنا علـى سبيل المثال، أن المطر يرسل من قبل اللـه، لكنـي أشـرح لهـم أنـه (يتساقط) بفعل التبخر الذي يشكل الغيوم وعن طريـق التكثيـف... وهـذا التفسـير لا يزعـزع الإيمـان باللـه**»[2]، وعليـه عقـد فريسـكو العـزم علـى تقلـيص عـدد السـاعات المخصصـة للتعلـيم الـديني واللغـة العبريـة لصـالح اللغـة الفرنسـية والعلوم، عن طريق الاستغناء عن ثمانية حاخامات كـانوا يشـكلون جـزءا مـن هيئـة التـدريس يتقاضـون أجـورهم مـن قبـل اللجنـة المحليـة، وإعـادة ترتيـب الفصـول الدراسية بما يتلاءم والمستوى المعرفي للتلاميذ وأعمارهم[٣].

ولم يقف موسى فريسكو عند هذا الحد بـل تعـداه إلـى تقـديم توصـيات، يقتـرح فيها وجوب اقتحام عـالم الأطفـال الـذين تتـراوح أعمـارهم مـا بـين خمـس وسـبع سـنوات الـذي يسـيطر عليـه الحاخامـات فيمـا يسـمى التلمـود تـوراة، وقـال: «... **بدلا من التكرار المقزز ل (د د د) سوف يـرددون (ba, be,bi) إن كـان الإصلاح يقتضـي ذلـك... والقليـل مـن هـذا الترديـد كـاف لإيقـاظهم مـن السـبات**

(1) Moïse Fresco (١٨٥٩-١٩١٢)، شـغل مهمـة مدير مدرسة البنين بطنجة من نوفمبر ١٨٨٥ إلى أبريل ١٨٨٨. وبعد ذلك عين مديرا في القسطنطينية وغلطة بتركيا، وهو واحد من القلائل الذين ألفوا الكتب المدرسية لمدارس الرابطة اليهودية العالمية، ومن بينها:

- Moïse Fresco, **Méthode pratique pour enseignement de la langue 'l française: à l'usage des écoles d'Orient et du Nord de l'Afrique**, Éditions Fresco, Paris et Istanbul, 8° Édition.

(2) A.A.I.U., **LIII E 874**, Rapport de Moïse Fresco, au Président du Comité Central de L'Alliance Israélite =

= Universelle à Paris, Tanger, 30 Novembre 1885.

(3) A.A.I.U., **LIII E 874**, Letrre de Moïse Fresco, au Président du Comité Central de L'Alliance Israélite Universelle à Paris, Tanger, 03 et 06 Décembre 1885.

ومــنحهم الكثيــر مــن المفــاهيم»[1]. ولتحقيق ذلك كان قد سبق لفريسكو في ٤ يناير ١٨٨٦ أن اقترح على اللجنة المركزية للرابطة بأن تمده بأحد خريجي مدرســة تكــوين المعلمــين بــاريس (E.N.I.O.) متمكنٌ من اللغة العبرية ليتكلف بهذه المهمة عوض الحاخامات، على أن تتكفل اللجنة المحلية (أي مجلس الجماعة اليهودية بالمدينة) بدفع راتب المعلم[2]، وقد وافقت اللجنة المركزية على ذلك لكن اللجنة المحلية قابلته بالرفض.

استمر فريسكو في البحث عن الطرق والوسائل التي من شأنها تغييب اللغة العبرية (ومشتقاتها: العبرية الإسبانية) والدين اليهودي، دون أن يلاقي في مسعاه هذا تقدما ملحوظا جعله يخلص إلى أن إمكانية تفعيل التدريس بمدرسة الرابطة على الطريقة الفرنسية ممكن، ولكن ذلك لن يتحقق دون تحجيم دور اللغة العبرية والدين اللذين يعتبران العقبة الكأداء أمام أي تغيير، إذ إنه لا يمكن تحقيق أي إصلاح أو تقدم دون المساس باللغة العبرية أو المكانة التي تحتلها[3]، وهو ما جعله يقتنع بأن فصل مدرسة الرابطة عن مدرسة التلمود توراة هو الحل الوحيد المتبقي، وترك كافة الحاخامات بها والاكتفاء بحاخام واحد ووحيد لكافة الفصول والأقسام، يقدم دورسا بمعدل ساعة ونصف لكل قسم في اليوم تحت إشراف المدير نفسه، ومن المهم أن يكون الحاخام شابا وأعزب لأنه سيكون سعيدا ومكتفيا براتب شهري يصل إلى ٥٠ فرنكا، مع إعطاء اللغة الإسبانية حيزا في البرنامج التعليمي للمدرسة يتراوح بين ٣ و٦ ساعات في الأسبوع، لأجل الإبقاء على تأثير الرابطة على السكان، وبهذه الطريقة سيزداد عدد التلاميذ الملتحقين

(1) A.A.I.U., **LIII E 874**, Lettre de Moïse Fresco, au Président du Comité Central de L'Alliance Israélite Universelle à Paris, Tanger, 09 Mars 1886.

(2) A.A.I.U., **LIII E 874**, Lettre de Moïse Fresco, au Président du Comité Central de L'Alliance Israélite Universelle à Paris, Tanger, ·4 Janvier 1886.

(3) A.A.I.U., **LIII E 874**, Lettre de Moïse Fresco, au Président du Comité Central de L'Alliance Israélite Universelle à Paris, Tanger, 06 Octobre 1886.

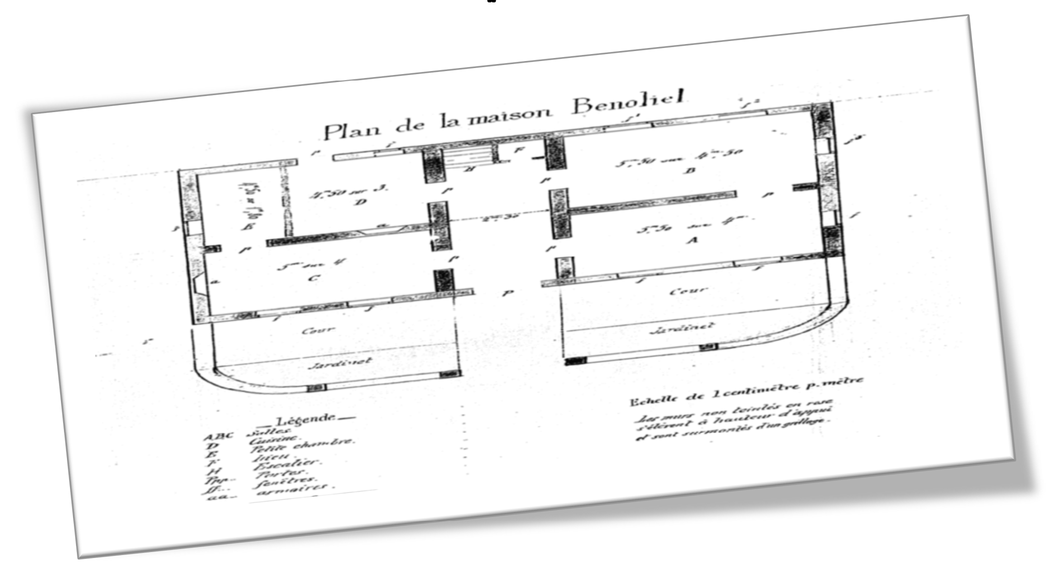
بالمدرسة، وهو ما سيرفع أيضا من حصة التعليم الحديث الملقن باللغة الفرنسية الذي تقدمه الرابطة إلى ٤ أو ٥ ساعات يوميا. وبخصوص تمويل المدرسة فقد أكد فريسكو على أن المبلغ (٤ فرنكات) الذي سيؤديها أولياء التلاميذ شهريا ستكون كافية لتسديد أجره وأجر الحاخام، ولن تتكفل الرابطة سوى بسومة إيجار المدرسة في بداياتها فقط، لأنه يتوقع ارتفاعا في نسبة الأطفال الملتحقين بالمدرسة الشيء الذي سيغطي جميع النفقات بما في ذلك الإيجار[1].

في ٢٩ ديسمبر ١٨٨٦ كتب فريسكو للجنة المركزية بباريس بأنه عثر على مقر مناسب لمدرسة الرابطة التي ألح على وجوب انفصالها عن مدرسة التلمود توراة، وهو عبارة عن منزل يرجع في ملكيته لسليمان بنوليل[2]، وقد وافقت اللجنة المركزية على اكتراء المنزل، وعليه بعث فريسكو رسما توضيحيا (رسم توضيحي رقم ١) للمنزل في ٢٤ يناير ١٨٨٧، ثم في ١٧ فبراير ١٨٨٧ رسما توضيحيا آخر (رسم توضيحي رقم ٢) يوضح فيه الهيئة التي ستصبح عليها المدرسة.

(1) A.A.I.U., **LIII E 874**, Lettre de Moïse Fresco, au Président du Comité Central de L'Alliance Israélite Universelle à Paris, Tanger, 21 Novembre 1886.

(2) A.A.I.U., **LIII E 874**, Lettre de Moïse Fresco, au Président du Comité Central de L'Alliance Israélite Universelle à Paris, Tanger, 29 Décembre 1886.

<u>رسم توضيحي رقم ١.</u>

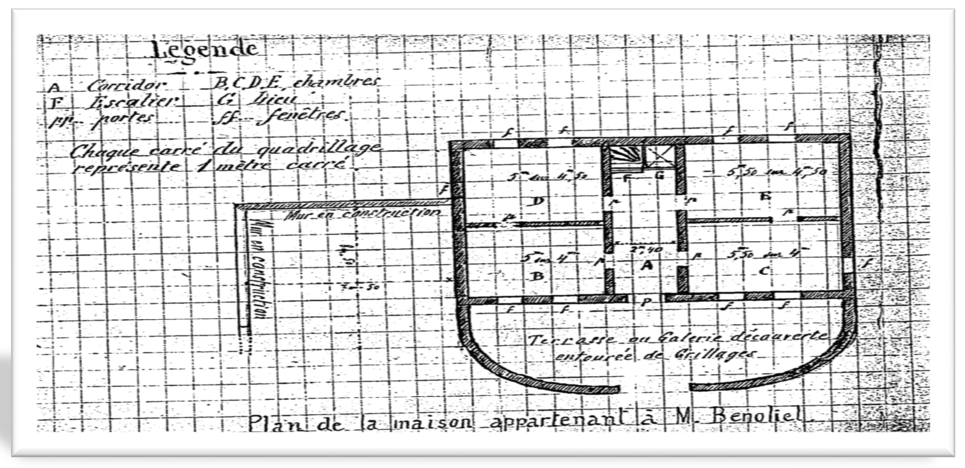


<u>المصدر:</u>

- A.A.I.U., **LIII E 874**, Lettre de Moïse Fresco, au Président du Comité Central de L'Alliance Israélite Universelle à Paris, Tanger, 24 Janvier 1887.



<u>رسم توضيحي رقم ٢.</u>



<u>المصدر:</u>

- A.A.I.U., **LIII E 874**, Lettre de Moïse Fresco, au Président du Comité Central de L'Alliance Israélite Universelle à Paris, Tanger, 17 Février 1887.

في ٠٧ مارس ١٨٨٧ قرر فريسكو بمعية اللجنة المركزية افتتاح المدرسة في مقرها الجديد بعد تجهيزه. وبالفعل افتتحت المدرسة أبوابها في ١٥ من الشهر نفسه بأربعة عشر تلميذا فقط، وسبب ذلك هو أن الحاخام الأكبر بالمدينة بنزاكين عمل على منع الأطفال بالقوة من الالتحاق بالمقر الجديد للمدرسة بحجة أنه يقع خارج أسوار المدينة، وعمل على إعادة توجيه التلاميذ من جديد إلى مقر المدرسة القديمة[1]. وبهذه العراقيل التي وضعت في وجه فريسكو، عاد ليستأجر مقرا آخر داخل أسوار المدينة[2]، لتستعيد المدرسة عافيتها شيئا فشيئا مع وضعه حلا لمسألة اللغة العبرية وذلك بقيامه بترجمة النصوص العبرية إلى اللغة الفرنسية، وهو ما مكن التلاميذ من سماع وتكلم اللغة الفرنسية طوال اليوم، واستقدامه لحاخام جيد هو جاكوب ليفي Jacob Levy[3]. وبالرغم من الأحداث التي عاشتها مدرسة الرابطة بمدينة طنجة مع موسى فريسكو فقد اختتمت سنتها الدراسية ١٨٨٦- ١٨٨٧ بما يناهز ٦٣ تلميذا، مع إمكانية ارتفاع العدد مع بداية السنة الدراسية الموالية، لكن فريسكو التمس من اللجنة المركزية بباريس في ١٢ غشت ١٨٨٧ أن تقوم بتنقيله إلى مدينة القسطنطينية[4]، وهو ما تم فعلا بعد تعيين مدير جديد هو دافيد حاييم David Haym وعلى عهده سيتم إغلاق مدرسة الرابطة للبنين في شتنبر ١٨٨٨ ليعاد فتحها سنة ١٨٨٩.

إن التجربة التي خاضتها الرابطة خلال سنواتها الأولى بالمغرب، أثبتت بما لا يدع أي مجال للشك، أن أي نجاح يمكن

(1) A.A.I.U., **LIII E 874**, Lettre de Moïse Fresco, au Président du Comité Central de L'Alliance Israélite Universelle à Paris, Tanger, 07 et 15 et 17 Mars 1887.

(2) A.A.I.U., **LIII E 874**, Lettre de Moïse Fresco, au Président du Comité Central de L'Alliance Israélite Universelle à Paris, Tanger, 02 Mai 1887.

(3) A.A.I.U., **LIII E 874**, Lettre de Moïse Fresco, au Président t du Comité Central de L'Alliance Israélite Universelle à Paris, Tanger, 2٤ Juin 1887.

(4) A.A.I.U., **LIII E 874**, Lettre de Moïse Fresco, au Président du Comité Central de L'Alliance Israélite Universelle à Paris, Tanger, 12 Août 1887.

أن تلاقيه المدرسة سواء على مستوى التقبل لدى الجماعات اليهودية المحلية، أم على مستوى فرض اللغة الفرنسية لغة أساسية في التعليم، يكمن في تحجيم وتقليص تدريس اللغة العبرية والدين لصالح علوم أخرى مثل الرياضيات والفيزياء والجغرافيا والتاريخ... لكن ذلك أكسبها قناعة بصعوبة تحقيق ذلك، بسبب سيطرة الحاخامات المحافظين على المكون اليهودي الذي يأبى التغيير وينهج التقوقع على ذاته والتحصن داخل أسوار الملاح، وخير دليل على ذلك تجربة موسى فريسكو التي أوصلته إلى قناعة مفادها أن استمرار مدرسة الرابطة في طنجة لن يتحقق إلا إذا أرسلت الرابطة مديرا كفؤا ومقتدرا، ملمحا إلى أنه يجب أن يكون ذا أصول محلية بما يمكنه من تجنب العداوات الشخصية[1]، وهو الشيء الذي تفطنت له الرابطة منذ ١٨٦٧ عندما سارعت إلى إنشاء مدرسة تكوين المعلمين بباريس (E.N.I.O.) لأجل تدريب وخلق كفاءات تعليمية قادمة من الدول المحتضنة لمدارسها، بحيث دأبت الرابطة على استقدام أنجب التلاميذ من خريجي مدارسها الابتدائية (ذكورا وإناثا) قصد تكوينهم في مدرسة تكوين المعلمين بباريس، وإعادة توجيههم إلى مدارسها بمسقط رأسهم[2] بعد سنتين من التكوين تتوج بالحصول على الشهادة الابتدائية "Brevet élémentaire"، ويمكن أن يمتد التكوين إلى سنتين إضافيتين تنتهي بالحصول على الشهادة العليا "Brevet supérieur"[3]. وقد حرصت الرابطة على تنويع برنامج التكوين الذي تمحور حول: الأخلاق، علم النفس، علم الاجتماع، البيداغوجيا (Pédagogie) أو علم أصول التدريس، واللغة والأدب الفرنسي والأجنبي، التاريخ العالمي والجغرافيا، والرياضيات والفيزياء، اللغة الإنجليزية أو الإسبانية، مبادئ النظافة، الرسم، الموسيقى، الأعمال اليدوية، التربية البدنية[4]، لأجل خلق نخبة تعليمية متمكنة، وذات قدرات معرفية مهمة، قادرة على تقديم الحلول والنقد

(1) Ibid.

(2) Albert H. Navon, **Les 70 ans de L'École normale israélite orientale (1865- 1935)**, Durlacher, Paris, 1935,. p. 19.

(3) Ibid,. p 30.

(4) Ibdem.

الإيجـابي الفعــال، لكنهــا أغفلــت فــي بعض الأحيان حقيقة أن التعليم يجب أن يقترن بالانضباط الأخلاقي، الذي يحققه التعليم الديني[1].

خاتمة

تبنت الرابطـة برنامجا تعليميا يقـوم علـى فلسفة تعليمية استيعابية، تقصي التربية والتعلـيم الـديني اليهـودي، الأمـر الـذي كان من شأنه أن يفقد اليهود هويتهم الروحية بعد سنة ١٩١٢. وهذا ما تفطن له أولياء أمـور التلاميـذ الـذين حرصـوا علـى إبقاء أطفالهم مرتبطين بتقاليدهم رغـم خضوعهم للتعليم العلماني، حيث حرصوا علــى توجيــه أبنــاءهم إلــى المــدارس الحاخاميـة بعد انتهاء حصصهم الدراسية بمـدارس الرابطــة لضــمان عــدم إهمـال تعلــيمهم الــديني. علــى الــرغم مــن تشـبثهم بـالتعليم العلمـاني فـإن هـؤلاء الآباء كانوا يعتقدون أن التعليم الديني لا يقل أهمية عن غيره أملا فـي تعميق ثقــافتهم الدينيــة، لــذا قــاموا بتســجيل أطفالهم في كلا النوعين من المدارس، كمـا أن دوافـع أسـباب الإقصـاء هـذه لا ترجع إلـى رغبـة الرابطـة فـي تحجيم دور التعليم الديني لأسباب إيديولوجية فقط، بــل إن ضــعف جــودة التعلــيم الــديني المقـدم مـن طـرف المعلمين الحاخامات كــان مــن بــين محفــزات هــذا التحجــيم، والأمر نفسه عرفته مسألة تعليم اللغة العربية قبل سنة ١٩٥٥.

---

(1) A. Kaspi, Op. cit,. p. 244.

- حاييم الزعفراني، **ألف سنة من حياة اليهود بالمغرب: تاريخ. ثقافة. دين،** ترجمة أحمد شحلان وعبد الغني أبو العزم، ط ١، الدار البيضاء، ١٩٨٧.

- A.A.I.U., **LIII E 874**, Lettre de Moïse Fresco, au Président du Comité Central de L'Alliance Israélite Universelle à Paris, Tanger, 03 et 06 Décembre 1885.

- A.A.I.U., **LIII E 874**, Lettre de Moïse Fresco, au Président du Comité Central de L'Alliance Israélite Universelle à Paris, Tanger, 09 Mars 1886.

- A.A.I.U., **LIII E 874**, Lettre de Moïse Fresco, au Président du Comité Central de L'Alliance Israélite Universelle à Paris, Tanger, ·4 Janvier 1886.

- A.A.I.U., **LIII E 874**, Lettre de Moïse Fresco, au Président du Comité Central de L'Alliance Israélite Universelle à Paris, Tanger, 06 Octobre 1886.

- A.A.I.U., **LIII E 874**, Lettre de Moïse Fresco, au Président du Comité Central de L'Alliance Israélite Universelle à Paris, Tanger, 21 Novembre 1886.

- A.A.I.U., **LIII E 874**, Lettre de Moïse Fresco, au Président du Comité Central de L'Alliance Israélite Universelle à Paris, Tanger, 29 Décembre 1886.

- A.A.I.U., **LIII E 874**, Lettre de Moïse Fresco, au Président du Comité Central de L'Alliance Israélite Universelle à Paris, Tanger, 07 et 15 et 17 Mars 1887.

- A.A.I.U., **LIII E 874**, Lettre de Moïse Fresco, au Président du Comité Central de L'Alliance Israélite Universelle à Paris, Tanger, 02 Mai 1887.

- A.A.I.U., **LIII E 874**, Lettre de Moïse Fresco, au Président du Comité Central de L'Alliance Israélite Universelle à Paris, Tanger, 12 Août 1887.

- A.A.I.U., **LIII E 874**, Lettre de Moïse Fresco, au Président du Comité

- A.A.I.U., **LIII E 874**, Lettre de

- Aron Rodrigue, **French Jews, Turkish Jews: The Alliance Israelite Universelle and the Politics of Jewish Schooling in Turkey 1860-1925**, Indiana University Press, 1990.

- **B.A.I.U.**, Deuxième série N° 10, 2e Semestre 1885 – 1er Semestre 1886.

- **B.A.I.U.**, Juillet 1863.

- C.A.D.N., **Carton 675,PO,B1,519**, Ministère des Affaires étrangères, Tanger: Légation et Consulat, Rapport " Les Ecoles du Maroc: Oeuvre de L'alliance Israilite Universelle ", Tanger 15 Mars 1908.

- Danielle Omer, **"Le français, l'allemand, l'anglais: l'impossible alliance?: L'exemple du réseau scolaire de l'AIU (1860-1913)"** , Documents pour l'histoire du français langue étrangère et seconde, SIHFLES, 2014, Français, anglais, allemand: trois langues rivales entre 1850 et 1945.

- Danielle Omer, **"Une langue sans territoire? Le judéo-espagnol dans**

Central de L'Alliance Israélite Universelle à Paris, Tanger, 17 Février 1887.

- A.A.I.U., **LIII E 874**, Lettre de Moïse Fresco, au Président t du Comité Central de L'Alliance Israélite Universelle à Paris, Tanger, 2ε Juin 1887.

- A.A.I.U., **LIII E 874**, Rapport de Moïse Fresco, au Président du Comité Central de L'Alliance Israélite Universelle à Paris, Tanger, 30 Novembre 1885.

- Albert H. Navon, **Les 70 ans de L'École normale israélite orientale (1865-1935)**, Durlacher, Paris, 1935.

- André Chouraqui, **L'Alliance Israélite Universelle et la renaissance juive contemporaine 1860-1960: Cent ans d'histoire**, Presses Universitaires de France, Paris 1965.

- André Kaspi, **Histoire de L'Alliance Israélite Universelle de 1860 à nos jours**, Armand Colin, Paris, 2010.

- Moïse Fresco, **Méthode pratique pour l'enseignement de la langue française: à l'usage des écoles d'Orient et du Nord de l'Afrique**, Éditions Fresco, Paris et Istanbul, 8° Édition.

- Moïse Nahon, **"Roumis et forasteros"**, Revue des Ecoles de L'Alliance Israélite, N° 1, Avril-Juin 1901.

-Narcisse Leven, **Cinquante ans d'histoire: L'Alliance israélite universelle (1860-1910)**, Tom 1 et 2, Félix Alcan, Paris, 1911/1920.

le discours des instituteurs de L'Alliance Israélite Universelle (1860-1913)", Ali Reguigui et Julie Boissonneault, Langue et territoire Etudes en ménagement linguistique, Série monographique en sciences humaines 14, Université Laurentienne, 2014.

- Georges Weill, **Emancipation et humanisme: Le discours ideologique de L'Alliance Israélite Universelle**, Les Nouveaux Cahiers, N° 52, Année 1978.

- **Instructions Générales pour les professeurs**, Paris, 1903.

التنظيمات المالية في عهد الخلفاء الراشدين

إعداد:

حنان محمد العمري

جامعة اليرموك - كليه الآداب- قسم التاريخ

إشراف:

د.عبد المعز بني عيسى

إربد

المقدمة

يُعتبر النظام المالي الإسلامي من أكثر الأنظمة استقلالاً، وأنبلها غاية في حضارتنا، وقد قرر القرآن الكريم هذا في قوله تعالى: ﴿كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنكُمْ﴾ [الحشر: ٧]. فهدفت الحضارة الإسلامية إلى وجوب تداول الأموال بين الناس جميعًا، وعدم اقتصار ذلك على فئة الأغنياء؛ لأن ذلك مما يُسبب حرجًا في المجتمع الإسلامي، وإعلاء لطبقة بعينها دون وجه حق حيث بيت المال هو المؤسسة التي تُشرف على ما يَرِدُ من الأموال وما يخرج منها في أوجه النفقات المختلفة؛ لتكون تحت يد الخليفة أو الوالي، يضعها فيما أمر الله به أن تُوضع بما يُصلح شئون الأمة في السلم والحرب كما يعد النظام الاقتصادي الدقيق الذي ابتكرته الحضارة الإسلامية في خطواتها الأولى، ومبكرًا جدًّا قبل أي حضارة أخرى سابقة؛ فهي صاحبة السبق في تنظيم الموارد والمصارف المالية الخاصة بالدولة، ويبقى بعد هذه الموارد والمصارف كلها أنه قد تفاجأ الدولة بكارثة أو مجاعة، أو قحط شديد، أو وباء قاتل، وهنا يكون ندب الأغنياء من المسلمين من غير إكراه للصدقة والعطاء لإنقاذ جمهور المسلمين، كما فعل عثمان بن عفان t مع المجاعة في عهد أبي بكر الصديق t عندما تصدق بأموال طائلة لنجدة

المسلمين، وكما فعل عبد الرحمن بن عوف t أيام عمر بن الخطاب t، وأمثال ذلك كثير عبر التاريخ الإسلامي؛ مما يضمن استمرارية تدفق الأموال على خزينة الدولة، دون إكراه أو مصادرة أو إجبار الخليفة أبي بكر لم يصدر تشريعات مالية في فترة حكمه، وربما يعود السبب في ذلك إلى قصر مدة رئاسته للدولة، والتي لم تمتد غير سنتين وثلاثة أشهر وعشرة أيام ولكن التشريعات المالية التي أصدرها النبي ال استمرت في عهد الخليفة أبي بكر، بل وامتد العمل بها في العصور التالية له أيضا، ولكن ما حدث في خلافة أبي بكر، هو اتساع واردات تلك التشريعات المالية، وربما رافقها شيء من التغيير البسيط في التطبيق، ولكن ثارت مشكلة في بداية خلافته، كان ثمنها أن سالت دماء المسلمين، وهي مسألة منع الزكاة حيث امتنع عن الزكاه المسلمون والمرتدون[1]، والمرتدون هم الذين دخلوا حديثا في اواخر حياه النبي ﷺ الى الدين الاسلامي وبعد وفاه النبي ﷺ ارتدوا عن الاسلام بعد وفاه النبي ﷺ وحاولوا مفاوضه ابو بكر الصديق في الرجوع الى الاسلام ولكن في اقامه الصلاه بدون اداء فرض الزكاه ولكن رفض ابو بكر الصديق وعزم على قتالهم[2].

أما المسلمون فقد توقف بعضهم عن دفع الزكاة بعد أيلولة الخلافة إلى أبي بكر، وهم تحديدا بنو يربوع من تميم، بقيادة مالك بن نويرة، وكان النبي ﷺ قد كلف مالك بإحدى المهام المالية، فكان احد عمال النبيعلى الصدقات، حيث الله لي على صدقات بني تميم أموال الزكاة، ولما سمع بوفاة النبي ل وتولي أبو بكر الخلافة بعده، فتحير في أمره، وماذا يفعل بأموال الزكاة، فتوقف عن إرسالها إلى المدينة وعندها أرسل الخليفة خالدا بن الوليد لقتال المرتدين، أمره أن يتجه القتال مالك بن نويرة بعد فراغه من المرتدين[3]. (٣)

وقد ازدادت عائدات الزكاة في هذا

(١) عبد الوهاب خلاف، السلطات الثلاث في الاسلام التشريع والقضاء والتنفيذ، ط٢، دار القلم للنشر والتوزيع (الكويت ، ١٩٨٥) ص ٣٥.

(٢) احمد بن ابي يعقوب بن جعفر اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ت: عبد الأمير مهنا، ج ٢، ، ط ا، دار صادر بيروت، (بيروت، ٢٠١٠)، ص ١٣١

(٣) محمد صادق النجمي، اضواء على الصحيحين، ط١، مؤسسه المعارف الاسلاميه، (بيروت، ١٤١٩ هـ)، ص ٣٧٥.

العهد، قياسا إلى ما كانت عليه في عهد النبي، وذلك بفعل عودة المرتدين إلى الإسلام، وأدائهم لالتزاماتهم المالية ودفعهم الزكاة، كما كان من نتائج الغزوات على البلدان العراق أثرها في هذه الزيادة، فقد اعتنقت بعض شعوب البلدان التي غزيت الإسلام، والتزموا بدفع الزكاة. ويلاحظ أن التنظيم المالي في عهد الخليفة أبي بكر لم يستقر، ولم يأخذ شكله النهائي، كما لم تكن في عهده تشريعات مالية جديدة تنظم مالية الدولة ومواردها، ولم يطرأ تجديد في مجالات إنفاق الدولة سوى التي حددت في الأصناف التي تحدثنا عنها فيما تقدم، وقد يعود السبب في كل ذلك إلى كون الدولة لا زالت وليدة وفي طور تشكيل مؤسساتها، هذا من جهة، ومن أخرى فان الدولة لا زالت في دور التوسع الجغرافي، وما يرافقه من حروب ومعارك، مما أثر في استقرارها المالي[1].

اما في عهد الخليفة عمر بن الخطاب توالت الغزوات وفتوح البلدان واتسعت رقعة الدولة كثيرا، وقد رافقتها زيادة في إيرادات الدولة، ووصلت إلى المدينة مبالغ مالية لم يكونوا قد رأوا مثلها، فتدفقت الأموال على المسلمين في المدينة، وأذهلتهم "وجعلت عمر بن الخطاب يبكي وهو يشاهد قوافل الغنائم تتوارد إلى المدينة محملة بكنوز الذهب والفضة والحجارة الكريمة وملايين الدراهم والعبيد - والإماء ممن تم سبيهم من البلدان التي فتحت - والأقمشة الفاخرة والفرو، وغيرها من الثروات" وعندما توافدت المبالغ المالية على الدوله الاسلاميه بدأ عمر بن الخطاب ﵁ سياسه جديده في العطاء مختلفة عن سياسه ابو بكر الصديق حيث أعطى بناء على اساس التقسيم الفئوي للمجتمع وعدم المساواة في التوزيع[2].

وفي عهد الخليفة عثمان بن عفان كانت التشريعات المالية التي كانت سائدة قبل تولي عثمان بن عفان الخلافة، بقيت سائدة في عهده، سواء تلك التي شرعها النبي، والتي تمثلت

(١) ابو القاسم علي بن الحسن بن هبه الله بن عبد الله الشافعي ابن عساكر، تاريخ مدينه دمشق، ج ١٦، دار الفكر للطباعه والنشر، (بيروت، ١٤١٥ هـ)، ص ٢٥٦.

(٢) محمد ضياء الدين الريس، الخراج والنظم الماليه للدوله الاسلاميه، ط ٢، مكتبه الانجلو المصريه، (القاهرة، ١٩٦١)، ص ٩.

بالزكـــاة، والجزيـــة، وخمـــس الغنـــائم، والفيء، واستمرت في عهد أبي بكر، أو تلك التشريعات التي وضعها عمر بن الخطاب في خلافته، وهي الخراج، والعشور[1]، بالإضافة إلى التشريعات المالية التي وضعت في عهد النبي وكذلك التنظيم المالي والمؤسسات المالية التي أقامها كبيت المال، واتبع نفس السياسة المالية في العطاء التي أنشأها عمر)[2].

وهناك أمران اتبعهما عثمان في سياسته المالية كان لهما الأثر العميق لا في التنظيم المالي للدولة فحسب، بل امتد أثرهما إلى الجانب السياسي أيضا، وربما كانت انعكاسات احدهما على الأقل (مع أسباب أخرى) هي التي أدت إلى مقتله في نهاية المطاف[3].

وهما ما سنتعرض إليه فيما يأتي:

أولا: الزكاة

كانت الزكاة في العهود التي سبقت عهد الخليفة عثمان بن عفان، شأنا من شؤون الدولة، ومورداً من مواردها، بل عاقبت الدولة مانعي الزكاة بالقتل، وكان للزكاة عمال تعينهم الدولة لجبايتها وتحصيلها، ويأخذون أجورهم منها، كصنف من الأصناف التي تنفق عليها الزكاة[4]، وربما أعطتهم الدولة صلاحيات توزيع الزكاة على مستحقيها في بلدان جبايتها، فإن الزكاة ذات طابع محلي، ثم يرسلون ما يفضل منها إلى العاصمة التدخل بيت المال، ومن ثم تصرف على المصالح العامة، بناء على أنها من سهم سبيل الله، وربما كان موضوع صلاحية توزيع الزكاة محل خلاف، إذ عندما قامت خلافة أبي بكر "أرادت بعض القبائل أن تستقل بأمر الزكاة، ولا تدفع شيئا منها لبيت المال في المدينة، وامتنعت بعضها فعلا عن دفعها لأبي بكر، وكان امتناعها مقارنا للارتداد من ارتد من قبائل العرب عن الإسلام[5]، فاختلف الصحابة في أمر مانعي الزكاة، "وكان رأي أبي بكر أن يقاتلهم، وكان رأي وأكثر الصحابة إلا

---

(١) محمد بن الحسين الحمدلي ابو يعلى، الاحكام السلطانيه، دار الفكر، (بيروت ١٩٩٤)، ص ٣٣٣

(٢) عبد الوهاب خلاف، مرجع سابق، ص ٣٩

(٣) النجمي، مصدر سابق، ص ٣٧٧

(٤) اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، مصدر سابق، ص ١٣٨

(٥) علي محمد الصلابي، سيره عثمان بن عفان شخصيته وعصره، ط ١، دار الفكر، (بيروت، ٢٠٠٦) ص٩٦

يقـاتلوهم، وربمـا كانـت النظريـة التـي يتبناها الذين رفضوا مقاتلة مانعي الزكاة، أو القبائـل التـي أرادت الاسـتقلال بهـا، هي ترك "شؤون الزكاة للقبائل والأفراد ليكـون شـأنها فـي هـذا شـأن غيرها مـن العبادات، وتكـون حقـا دينيا بينهم وبـين الله، يثيبهم على تأديتها ويعاقبهم على تركهـا، ولا يكـون للدولـة حـق إكـراههم على تأديتها بالسيف ونحوه عمر[١].

ثانيا: التصرف بالأموال العامة

اتخـذ الخليفـة عثمـان بـن عفـان سياسـة جديـدة تختلـف عـن سياسـة سـلفية فـي التصرفات المالية[٢]، لمس المجتمع فيها جانبا مـن الحبـوة لـبعض فئاتـه وطبقاتـه دون الأخـرى، ويمكـن أن نجمـع هـذه السياســة فــي أمــرين، الأول إقطــاع الأراضـي الـبعض النـاس، والثـاني مـنح الأمـوال، أو مـا يعبـر عنـه بـالجوائز ففـي إقطاع الأراضـي سمح للمسلمين باقتناء الثــروات وتشـــييد القصـــور وامـــتلاك المساحات الكبيرة من الأراضي، فقد كان

عهـده عهـد رخـاء علـى المسـلمين ولـم تقتصـر سياسـه عثمـان بـن عفـان علـى اقطاع الاراضي بالاضافه اليها ما يسمى بالحمى وهي عباره عـن اراضـي خصصت لرعي الابل والخيل التي تمتلكها الدوله فلا يحق لاحد ان يستعملها الا هو وهذا النظام كان موجود فـي عهد النبـي ﷺ وابـو بكـر الصـديق[٣] ولكـن اختلـف فـي عهده انه حماها ايضا للافراد حيث حمى بعض الاراضي للحكم ابن العاص وبعض مـن افـراد بنـي اميـه امـا فـي مـا يخـص نظام الاعطيات فقـد كـان نظام عطايا الامـوال سـائر فـي عهـد عمـر وابـو بكـر الصديق ولكن مما اخذ عليه انه بالغ فـي الاعطيات للاقاربه من بنو اميه وقـد ادت هذه السياسه الماليه إلى مشاكل جمه التي كان لها الاثر الواضح في سواء في عهده اوفي العهد التالي له[٤].

أمـا عـن نظـام الاقطـاع الاراضـي التغيـر الذي قام به عثمان بن عفان عندما قام بالتوسع بالاقطاع وخاصه فـي المناطق المفتوحـه حيث تـرك عـده مـن المـلاك

(١) علـي محمـد الصـلابي، المرجـع نفسـه، ص ٢٣٣

(٢) علـي محمـد الصـلابي، المرجـع نفسـه، ص ١٩٢

(٣) اليعقـوبي، تـاريخ اليعقـوبي، مصـدر سـابق، ص ١٤١

(٤) عبد الوهاب خلاف، مرجع سابق، ص ٤٢

اراضيهم فارين فصارت صوافي تقوم الدوله باستثمارها فاقطع عثمان رضي الله عنه منها خوفا من بوارها

وساهمت السياسه عثمان في قطاع الاراضي في زياده موارد بيت مال المسلمين بما يؤذيه الجميع من زكاه على اموالهم فاذا توافرت شروط ها وقد نجح مشروع عثمان بن عفان في قطاع الارض بدليل زياده ايرادات الدوله من أملاكها الخاصه

اما عن نظام الخراج في عهده فقد ادت فتوحات الاسلام في عهد عثمان بن عفان الى زياده رقعه الدوله الاسلاميه وازدياد الذين دخلوا في الدوله الاسلاميه ولم يدخلوا في دينها، حيث بقوا يؤيدون الخراج لبيت مال المسلمين وساهم هذا في زياده ايرادات بيت المال في عهد عثمان[1].

اما عن عشور التجارة استقر نظام العشور في عهد الفاروق على الأسس والقواعد التي وضعها عمر، رضي الله عنه وفي عهد عفان يبدو بصفة عامة: أن إيرادات بيت المال زادت من عشور التجارة ؛ ونتيجة لزيادة رقعة الدولة الإسلامية بسبب الفتوحات التي تمت في عهده، ونتيجة لزيادة الثروات لدى البعض، مما زاد القوة الشرائية بصفة عامة خصوصا في السنوات الأولى في عهد عثمان بن عفان ؛ التي اتسمت بالاستقرار، وزيادة القوة الشرائية تزيد الطلب على السلع، وزيادة الطلب على السلع تدعو إلى تنشيط استيرادها، وخضوعها لعشور التجارة متى توفرت شروط الإخضاع، ومن العوامل التي أدت إلى زيادة حصيلة عشور التجارة في عهد عثمان ابن عفان ارتفاع الأسعار، وارتفاع أسعار السلع يؤدي بالتالي إلى زيادة حصيلة عشور التجارة منها ؛ لأنها ضريبة قيمية، تؤخذ بنسبة معينة على قيمة السلعة، وليست نوعية تؤخذ من نوع السلعة[2].

أما عن المبادئ للسياسة المالية في عهد عثمان بالنسبة لغير المسلمين كانت تقر بما يلي أن أهل الذمة يساهمون في بيت مال المسلمين بما يؤدونه من جزية، فهم خزانة لبيت المال، يحصل منها بيت المال على نصيبه في

---

(1) علي محمد الصلابي، سيره عثمان بن عفان شخصيته وعصره، ط ا، دار الفكر، (بيروت، ٢٠٠٦) ص١٢٣

(٢) علي محمد الصلابي، المرجع نفسه، ص ١٣٤

أموالهم على هيئة جزية.

و أن هذا النصيب في أموال أهل الأمة يتحدد في ظل الأعباء الملقاة على الدولة، فإن كبر هذا العبء ؛ ارتفعت قيمة الجزية، وإن خف هذا العبء، خفت قيمة الجزية بالإضافة الى هذا التحول في قيمة الجزية ارتفاعا، وانخفاض مع أعباء الحكم ينبثق من مبدأ المشاركة المالية من مواطني الدولة في الأعباء، بحيث يساهم كل على قدر طاقته وبما يحقق العدالة في توزيع الأعباء، وفي ظل الوصايا التي أوصى بها الرسول الكريم لا بحسن معاملة أهل الذمة عامة ومن النفقات الإضافية التي تغيرت عن الخلفاء السابقين كان من أبرز النفقات و التطورات و التغييرات التي حدثت في عهد عثمان بن عفان في ما يخص النفقات الماليه هي الانفاق على تمويل انشاء اول اسطول بحري، وايضا تمويل اعاده بناء المسجد النبوي حيث ان اول امر طالبه الناس بعد تولي عثمان بن عفان الخلافه هو ان يتم الزياده على مساحه مسجد الرسول ﷺ وذلك لان الناس يضيق في بهم في صلاه الجمعه بسبب انسداد الفتح وزياده سكان المدينه زياده عظيمه فاشار عثمان اهل الراي فاجتمعوا على هدم المسجد وبناء وتوسيعه فصلي عثمان الظهر واخبرهم على اجماع اهل الراي على هدم واعاده بناء وتوسيع مسجد الرسول ﷺ وباشره ذلك بنفسه، ومن ثم الانفاق على تحويل الساحل من الشعبيه الى جده ومن ثم حفر الابار من بيت مال المسلمين للشرب بالمدينه، ويتضح من دراسة النفقات العامة السابقة من بيت المال: أنها ساهمت في تمويل الأهداف العليا للدولة الإسلامية، فضلا عن الإنفاق العام على إدارة الدولة، ومصالح الرعية، ثم الإنفاق على نشر الإسلام كي تكون كلمة الله العليا. وتم تمويل إنشاء أول أسطول بحري للدولة الإسلامية، كما تم تعمير بيوت الله بالإنفاق على إقامة المساجد، وتجديدها، ورزق هي المؤ"نين، والولاة، والقضاة، والجند، وعمال الدولة، كما تم الصرف على رحلات الحج إلى بيت الله الحرام، وكسوة الكعبة، وهي قبلة الإسلام والمسلمين، كما أن بيت مال المسلمين قدم أمواله لحفر الآبار ؛ ليشرب منها الغادي، والرائح من مواطني الدولة الإسلامية ومن مصادر الدولة كالكاة، وخمس الغنائم، تم تمويل شرائح

المجتمع الضعيفة في الدولة الإسلامية، وهـم الفقـراء، والمسـاكين، واليتـامى، ومسـاندة الغربـاء، وأبنـاء السـبيل، وفـك الرقاب[١].

وفي عهد الخليفة علي بن أبي طالب بـالرغم مـن أن خلافـة الإمـام علـي بـن أبي طالب دامت أكثر من أربع سنوات، إلا أنـه لـم يقـم بتشـريعات ماليـة تضـاف إلـى تلـك التـي كانـت موجـودة سـابقا، وربما يعـود السبب إلى انشغاله بالفتن التـي حـدثت فـي عهـده، والتـي شـغلت أجهـزة الدولـة بـالحروب[٢]، كمـا يمكـن أن يكون الأمر راجعا إلى تكامل التشريعات الماليـة بحسـب نظـر الإمـام، ومـع ذلـك فقد شارك الإمام علي بن أبي طالب في التشريعات المالية التي وضعت فـي عهـد عمـر بـن الخطـاب، كـالخراج، وعطـاء الخليفة من بيت المال، حيث استشار عمر الصحابة فيما يفرض لـه من بيت المال، فأشـاروا عليـه، والإمـام علـي بـن أبـي طالب ساكت، فقال له عمر "ما تقول يا علي؟ فقال ما أصلحك وعيالك ليس لك غيره، فقـال القـوم القـول مـا قـال علـي، فاقتصـر عمـر علـى اخـذ قوتـه وقـوت عياله"[٣]، وقد تقدمت الإشارة إلـى ذلـك عند الحديث عن التشريعات الماليـة التـي قـام بهـا عمـر وقـد تكـون أهـم الإجـراءات المالية التي جاء بها الإمام علي بن أبـي طالـب فـي عهـده، تتمحـور حـول مجـالين اثنـين، الأول الإصـلاحات الماليـة فــي الدولــة، والثــاني وضــع مبــدأ أســاس الضريبة في المالية العامـة، وذلـك نتيجـة حدوث أمران كان لهما التأثير الشديد في تقسـيم المجتمـع إلـى طبقتـين، ثريـة، وفقيـرة، وهـذان الأمـران همـا، سياسـة عدم المساواة فـي توزيع العطـاء، التـي انتهجهـا الخليفتـان عمـر بـن الخطـاب، وعثمـان بـن عفـان، وسياسـة اقتطـاع الأراضـي وتوزيـع الأمـوال علـى بعـض المسـتفيدين التـي انتهجهـا عثمـان بـن عفـان وقـد أدى كـل ذلـك إلـى اهتـزاز التــوازن الاجتمــاعي، ومــا رافقــه مــن انعكاسـات سـلبية[٤]، ولـذا عنـدما اسـتلم الإمام علي بن أبي طالب دفـة الحكـم، عزم على إجراء إصلاحات مالية واسعة، شــملت المجــالين معــا، وهمــا عــدم المساواة في العطاء، واقتطاع الأراضـي

(١) النجمي، مصدر سابق، ص ٣٧٩

(٢) النجمي، مصدر سابق، ص ٣٨٩

(٣) اليعقـوبي، تـاريخ اليعقـوبي، مصـدر سـابق، ص ١٥٥

(٤) عبد الوهاب خلاف، مرجع سابق، ص ٣٩

ومنح الأموال، ولذا عاد بالعطاء إلى سياسة المساواة، التي كانت سائدة في عصر النبي، وأبي بكر، وقد كلمه في ذلك قوم، وطلبوا منه الاستمرار بسياسة التفضيل في العطاء، لئلا تنقلب عليه الأمور، سيما وان معاوية بن أبي سفيان كان يفعل ذلك، ويفضل بعض الناس على بعض في العطاء لاستمالتهم إليه[1]، وجلب تأييدهم له، ولكنه رفض ذلك وقال "أتأمروني أن اطلب النصر بالجور، فيمن وليت عليهم، والله لا أطور به ما مر سمير، وما أم نجم في السماء نجما، ولو كان المال لي لسويت بينهم، فكيف وإنما المال مال الله وفيئه"[2].

وفيما يخص اقتطاع الأراضي وتوزيع الأموال فقد تبنى الإمام علي بن أبي طالب سياسة المصادرة لكل ارض أو مال أعطي بغير القواعد الشرعية، ورده إلى بيت المال، ولم يكتف بمصادرتها من عامة الناس، بل صادر الأراضي والأموال التي اقتطعها عثمان لنفسه، (الواقع أن. هذه ليست مصادرة لأنها إعادة أملاك الدولة إليها) وقد خطب في المدينة في اليوم الثاني من بيعته فقال "ألا أن كل قطيعة اقطعها عثمان، وكل مال أعطاه من مال الله، فهو مردود في بيت المال - ثم قال لبيان قاعدة قانونية وربما تأسيسها)[3] في عدم سقوط الحق بالتقادم - فإن الحق القديم لا يبطله شيء - ثم قال - ولو وجدته قد تزوج به النساء - أي أعطي كمهر لهن وفرقه في البلدان لرددته الى حاله فان في العدل سعه ومن ضاق عليه العدل، فالجور عليه أضيق، وتنفيذا لهذه السياسة المالية التي انتهجها، اتخذ قرار مصادرة أموال بيت المال التي أخذها الناس، بل أصدر قرار مصادرة تلك الأموال من بيت عثمان نفسه، حيث أمر "بكل سلاح وجد لعثمان في داره، مما تقوى به على المسلمين، فقبض - أي صودر منه - وأمر بقبض نجائب كانت في داره من ابل الصدقة... وأمر أن ترتجع الأموال التي أجاز بها عثمان، حيث أصيبت أو أصيب أصحابها -

---

(١) تقي الدين ابو العباس بن علي المقريزي، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والاثار، ج١، ط ١، دار الكتب العلميه، (بيروت، ١٩٨٩) ص ١٧٣

(٢) المقريزي، المصدر نفسه، ص ١٧٩

(٣) علي محمد الصلابي، سيره علي بن أبي طالب شخصيته وعصره، ط ١، مؤسسه اقرا للتوزيع والنشر والترجمه، (القاهره، ٢٠٠٥ م) ص ٣٣٣

أي أينما وجدت أو وجد أصحابها"[1]، وقد ترك عثمان نفسه الكثير من الأموال، فقد ذكر أنه ترك من الأموال عندما قتل "ثلاثون ألف ألف، درهم، وخمسمائة ألف درهم، وخمسون ومائة ألف دينار - كما ترك بالربذة، وترك صدقات كان تصدق بها ببراديس، وخيبر، ووادي - ألف بعير القرى، قيمتها مائتي ألف دينار"[2].

وأما فيما يخص أداره موارد الخراج فقد اتبع علي بن أبي طالب ﵁ سياسة مالية مميزة في الخراج حيث قام بالحض على الحفاظ على القوة والهيبة أمام الرعية، مع الاحتفاظ بالرحمة في باطن العمال. وعدم التعدي على حاجات الناس الأساسية، والعفو عنهم ولا يجوز استعمال العنف من أجل تحصيل موارد بيت المال واعتبر هذا منهج عام لكل الخلفاء الراشدين رضوان الله عليهم وان الضبط الإداري يكون بالتفويض والصلاحية بحسب كل حالة على حده فأمر بعض الولاة بطاعة صاحب بيت المال فيما يتعلق به وذلك كنوع من الاستقلال، لأمره لابن عباس ﵁ بطاعة زياد بن أبيه في شؤون بيت المال والخراج، بينما أعطى ولاة آخرين مسؤولية عامة عن الخراج كالأشتر النخعي في مصر وقام بمحاسبة العمال على سياستهم عند المخالفة[3].

وحضه ﵁ ولاته على أخذ الحق في الخراج كما قال لقيس بن سعد: (فأقبل على خراجك بالحق..) واتباع سياسة التحذير لمن يؤخر الخراج من العمال، وسياسة التحفيز لمن يوفيه، وكان قد كتب إلى يزيد بن قيس الأرحبي: (أما بعد، فإنك أبطأت بحمل خراجك، وما أدري ما الذي حملك على ذلك. غير أني أوصيك بتقوى الله وأحذرك أن تحبط أجرك وتبطل جهادك بخيانة المسلمين، فاتق الله ونزه نفسك عن الحرام، ولا تجعل لي عليك سبيلا، فلا أجد بدا من الإيقاع بك) وكتب إلى سعد بن مسعود وهو على المدائن): أما، فإنك قد أديت خراجك، وأطعت ربك وأرضيت إمامك، فعل المبر التقي النجيب، فغفر الله ذنبك، وتقبل سعيك وحسن مآبك)[4].

بالإضافة إلى اهتمامه في مسألة الحفاظ على إعمار الأراضي أكثر من أمر الخراج واعتبار الخراج موردا رئيسا بل

(١) علي الصلابي، المصدر نفسه، ص ٣٤٠

(٢) عبد العزيز الدوري، مرجع سابق، ص ١٣٢

(٣) محمد الريس، مرجع سابق، ص ٣١٦

(٤) عبد العزيز الدوري، مرجع سابق، ص ١٣٩

ومصدرا أساسا لبيت المال الذي تعتمد عليه الدولة في تمويل حاجاتها الاقتصادية، وإن الإضرار به يؤثر على حياة الناس، وربما يؤدي إلى هلاكهم من حيث ذهاب مورده الغذائي وريعه المالي.

ووضع للطوارئ (الأزمات) أحكامها الخاصة بما ينسجم مع واقعها أو بعبارة أخرى للضرورات أحكامه وهي تقدر بقدرها، وذلك من أجل العدالة وعدم العسف في الجباية[1].

الخاتمة

رأينا أن بيت المال كان موجودًا منذ عهد النبي والصديق، ولكن المشهور أن عمر هو أول من نظم بيت المال، ولا ريب في أن الأموال التي تقاطرت إلى المدينة في العهد العمري كانت جد كثيرة امتلأ بها بيت المال، من زكاة المسلمين، وجزية أهل الذمة، وخُمس الغنائم، ومواريث من لا وارث لهم، وقد عُني الخليفة الراشد الثاني بتنظيم مصارف هذه الأموال تنظيمًا صحيحًا لا يتطرق إليه الاضطراب أو الفساد وادى اتساع الدولة العربية وتزايد مواردها في عهد عمر بن الخطاب الى انشاء نظام مالي مهمته ضبط دخل الدولة ونفقاتها وقد تطور نظام بيت المال وتعددت موارده بعد ان كانت تلك الموارد مقتصرة اساسا على الزكاة اي الصدقات التي تفرض على المسلمين ويجري انفاقها على الفقراء والمساكين وابناء السبيل وفي الرقاب وفي سبيل الله واصبحت موارد بيت المال من الفائض تتألف من الخراج والجزية والعشور واراضي الصوافي والجزية والفئ والغنيمة وقد كان لكل خليفه من الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم وأرضاهم دور في تطور التنظيم المالي للدوله الاسلاميه ولكن التطور الأبرز كان في عهد الخليفه عثمان بن عفان وعلي بن ابي طالب بناء على ما تم شرحه سابقا ويعتبر النظام الذي وضعه الخلفاء الراشدين هو النظام الاساسي الذي بنيت عليه جميع الأنظمة المالية للدول

---

(1) محمد الريس، مرجع سابق، ص ٣٢٢

قائمة المصادر والمراجع

١. -القرآن الكريم

٢. ابـن عسـاكر، ابـو القاسـم علـي بـن الحسـن بـن هبـه اللـه بـن عبـد اللـه الشافعي، تاريخ مدينه دمشق، ج ١٦، دار الفكـر للطباعـه والنشـر، (بيـروت، ١٤١٥ ه)

٣. ابــو يعلــى، محمــد بــن الحســين الحمــدلي، الاحكــام الســلطانيه، دار الفكر، (بيروت ١٩٩٤)

٤. الحموي، ياقوت، معجم البلدان، ج ٥، دار احياء التراث العربي، (بيروت ١٩٧٩)

٥. خلاف، عبد الوهاب، السلطات الثلاث فــي الاســلام التشــريع والقضــاء والتنفيذ، ط٢، دار القلم للنشر والتوزيع (الكويت ، ١٩٨٥)

٦. -الدوري، عبد العزيز، النظم الاسلاميه، ط١، (بغداد، ١٩٥٠)

٧. الـريس، محمـد ضـياء الـدين، الخـراج والـنظم الماليـه للدولـه الاسـلاميه، ط ٢، مكتبـه الانجلـو المصـريه، (القـاهرة، ١٩٦١)

٨. الصـلابي، علـي محمـد، سـيره عثمـان بـن عفـان شخصـيته وعصـره، ط ١، دار الفكر، (بيروت، ٢٠٠٦)

٩. الصلابي، علي محمد، سيره علـي بـن أبــي طالــب شخصــيته وعصــره، ط ١، مؤسسه اقرا للتوزيع والنشر والترجمه، (القاهره، ٢٠٠٥ م)

١٠. المقريزي، تقي الدين ابو العباس بـن علي، المواعظ والاعتبار بذكر الخطـط والاثــار، ج١، ط ١، دار الكتــب العلميــه، (بيروت، ١٩٨٩)

١١. النجمـي، محمـد صادق، اضـواء علـى الصــحيحين، ط١، مؤسســه المعــارف الاسلاميه، (بيروت، ١٤١٩ ه)

١٢. -اليعقوبي، احمد بن ابي يعقوب بـن جعفــر، تــاريخ اليعقــوبي، ت: عبــد الأميــر مهنــا، ج ٢، ، ط ١، دار صــادر بيروت، (بيروت، ٢٠١٠).

عيسى بن طريف

واستراتيجية توحيد المجتمع القطري

خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر

أ.د. يوسف العبدالله

جامعة قطر

ملخص:

في هذه الدراسة سنحاول مناقشة تاريخ عيسى بن طريف أحد أبرز الشخصيات القطرية خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر. سنحاول فى هذه الدراسة الوقوف على دوره فى تاريخ قطر الحديث، والاستراتيجات والسبل التى مكنته فى توحيد الداخل القطري، فى محاولة منه لتأسيس مجتمع متماسك تمكن لاحقا من تحقيق الاستقلال، والوقوف فى وجه الأطماع الإقليمية والدولية.

Abstract:

In this study, we will try to discuss the history of Isa bin Tarif, one of the most prominent Qatari personalities during the first half of the nineteenth century. In this study, we will try to identify his role in the modern history of Qatar, and the strategies and ways that enabled him to unify the Qatari interior, in an attempt to establish a cohesive society that later managed to achieve independence and stand up to regional and international ambitions.

كان عيسى بن حمد بن طريف البنعلي (آل بن علي) من شيوخ الخليج البارزين خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر. ولد عيسى بن طريف في قطر في الزبارة في ١٧٩٠ على وجه التقدير، ويصفه الشيخ راشد البنعلي بأنه: "القائد الكبير المشهور بشجاعته وبأسه ودهائه ومعرفته بالحروب، وممارسته لها"[١]. بينما وصفه المؤرخ فورومرز Fromherz عيسى بن طريف بأنه: "زعيم قطري كان بارعًا خصوصًا في حشد وتنظيم القطريين"[٢].

ينتمي عيسى بن طريف إلي عائلة البنعلي، من المعاضيد الذين ينتسبون إلي قبيلة سليم. وكان من عادة البنعلي أن تكون الكُبارة (رئاسة القبيلة) لرجلين واحدًا من المعاضيد والآخر من سُليم، وخلال عشرينيات القرن التاسع عشر أصبحت رئاسة البنعلي فى عيسى بن طريف وسلطان بن سلامة الكبير[٣].

كانت قبائل قطر تمتلك عددًا قليلاً من القوارب التي استخدمتها في صيد الأسماك وكانت تبيع المنتجات في البحرين حيث حصلوا على جميع احتياجاتهم. بينما كانت البحرين مقر إقامة التجار، حين كانت تحت الحكم الفارسى[٤]. كانت عشيرة البنعلي من بين عشائر القبائل العربية التى هاجرت من إقليم نجد، وامتهنت الملاحة البحرية، وكان أفرادها يعملون فى البحر فى مهنة الغوص بحثًا عن اللؤلؤ والتجارة[٥].

شكلت عشيرة البنعلي جزءا من الهجرة العتبية (العتوب)، من إقليم نجد إلي ساحل قطر. ومن أشهر تلك القبائل العتبية التى هاجرت إلي قطر وهم قبائل آل الصباح، آل الجلاهمة، وآل خليفة، والمعاضيد (الذين ينتسب آل ثاني إليهم)، وذلك خلال فترة حكم بني خالد لإقليم الإحساء، وكانت هجرتهم بسبب القحط الشديد، والصراعات

---

(١) راشد بن فاضل آل بن علي، مجموع الفضائل فى فن النسب وتاريخ القبائل، تحقيق الدكتور حسن بن محمد آل ثاني، الطبعة الثانية، الدوحة ٢٠٠٧، ص ٨٩.

(2) Fromherz, Allen James QATAR a Modern History, Georgetown University Press, 2012, 45.

(٣) راشد بن فاضل آل بن علي، مجموع النسب والفضائل، المرجع السابق، ص ٤٤.

(4) Mss/Eur/F/126/50, Memo: by Abol Cassim Moonshee concerning the district of Guttur, PP.27-30.

(5) Ibid.

القبلية. وخلال النصف الأول من القرن السابع عشر اضطر العتوب إلي الهجرة من قطر إلي الكويت بسبب تضييق آل مسلم (ولاة بني خالد على قطر) عليهم. إلا أن الخلافات بين آل خليفة وآل صباح فى الكويت أدت إلي عودة آل خليفة من الكويت إلي قطر، وانتقلوا إلي الزبارة عام ١٧٦٦، ثم تبعهم الجلاهمة، وبذلك تفكك حلف العتوب إلي قسمين، **عتوب الشمال** الذين استقروا بالكويت وهم آل الصباح، **وعتوب الجنوب** الذين استقروا فى الزبارة بقطر وهم آل خليفة[١]، ثم تبعهم بعد فترة الجلاهمة والمعاضيد (من البنعلى) حيث ارتحلوا من الكويت إلي قطر[٢].

وبعد أن استقر آل خليفة فى الزبارة بعد رجوعهم من الكويت، اتخذ الشيخ خليفة بن محمد مجموعة من الإجراءات بهدف تقوية نفوذه، فنزل عند قبيلة البنعلي وتزوج منهم، وبعد مصاهرته لتلك القبيلة قويت صلاته ونفوذه لدي القبائل الأخري[٣]. وكان قد تزوج من آل سنان من البنعلي من أخت عمرو بن سنان ومحمد بن سنان، وأنجب الشيخ أحمد الفاتح وهو حاكم البحرين الأول، والشيخ مقرن[٤].

كانت قبيلة السودان (آل سودان) هي أول من سكنت البدع[٥]، بينما سكنت الوكرة قبيلة البوعينين (آل بوعينين)، وسكن خور الشجيج (الشقيق) قبيلة المهانده[٦]، وكانت الزبارة ملجأ لقبائل

(١) أحمد مصطفي أبو حاكمة، تاريخ الكويت الحديث، ١٧٥٠ - ١٩٥٦، الطبعة الأولي ١٩٨٤، ص٥٩.

(٢) راشد بن فاضل آل بن علي، مجموع النسب والفضائل، المرجع السابق، ص ٣٨.

(٣) جمال زكريا قاسم، تاريخ الخليج العربي الحديث والمعاصر، المجلد الأول، دار الفكر العربي ١٩٩٧، ص٣٦٧.

(٤) محمد سليمان الطيب، موسوعة القبائل العربية، ج٢، دار الفكر العربي، القاهرة ٢٠٠٢، ص٦١٥.

(٥) يوسف إبراهيم العبد الله، العلاقات البريطانية - القطرية: ١٩١٤-١٩٤٥، الدوحة ١٩٩٩، ص٢٧.

(٦) قبيلة المهاندة، هي قبيلة من أشباه الرعاة، وتقول بعض المصادر أنها قدمت إلي قطر من إيران، ويرون أنهم ينتمون إلي الهولة الإيرانية، ومن فروعهم أل حسن وآل ابراهيم، وهم يعملون فى صيد اللؤلؤ وتربية الماشية والجمال. راجع، محمد حسن العيدروسى، دراسات فى الجزيرة والخليج، الكتاب الأول، دار الكتاب الحديث، القاهرة ٢٠٠٨، ص١٦٩.

الجلاهمة العائدون من الكويت وشيخهم رحمه بن جابر. وجاء سلمان بن علي بن خليفة وأخيه أحمد - تجار من قبيلة عنيزة إلى الزبارة، حيث أسسوا بها أول مدينة لقبائل العتوب، وبها التقى آل خليفة برحمة بن جابر، واستقروا في عين مرير حيث بنوا حصنًا وانضم إليهم بعض البدو. وبعد ذلك هاجموا البدع (الدوحة) وأخذوها من أيدي شيوخ آل مسلم(1).

وبعد استقرارهم في الزبارة، فكر العتوب بقيادة آل خليفة في فتح البحرين التي كانت تحت الحكم الفارسي. وتمكن آل خليفة بمساعدة القبائل العتبية والقطرية من فتح البحرين عام ١٧٨٣، خلال عهد الشيخ أحمد بن خليفة الذي لقب بالفاتح، ومن بين القبائل التي شاركتهم في فتح البحرين واستخلاصها من يد الفرس، الجلاهمة وآل صباح، بالإضافة إلي القبائل القطرية وأبرزها آل مسلم من الحويلة، والبنعلي من الفويرط، وآل سودان من البدع، وآلبوعنيين من الوكرة، والكبيسات من خور حسان، وآل سليط من الدوحة، والسادة والدواسر من داخل شبه الجزيرة القطرية(٢).

عقب فتح البحرين بثلاث سنوات انتقل آل خليفة من الزبارة إلي مكانهم الجديد في البحرين وذلك في عام ١٧٩٧(٣). وبذلك حل آل خليفة محل آل مسلم في سلطتهم علي بعض المناطق القطرية، لكن ظلت سلطتهم علي القبائل القطرية محل خلاف. لكن مع بروز الخلافات داخل أسرة آل خليفة صارت قطر ميدانا للصراع بين أبنائها، لهذا كان على الزعمات القبلية القطرية اتباع سياسات تهدف إلي التقليل من تأثير هذه الصراعات داخل الأسرة الحاكمة في البحرين، وانعكاس ذلك على قطر.

كان فتح آل خليفة لجزيرة البحرين سبباً في خلافات كبيرة بين القبائل العتبية. فقد شاركهم الجلاهمة في غزو البحرين عام ١٧٨٣ ومن ثم كانوا سبباً في ظهور آل خليفة كحكام للجزيرة، إلا أنهم تركوا الجلاهمة بلا غنائم. لهذا ظهر الخلاف

(1) Mss/Eur/F/126/50, Memo by Abol Cassim Moonshee concerning the district of Guttur, PP.27-30.

(٢) جمال زكريا قاسم، المرجع السابق، ج١، ص٣٦٩.

(٣) محمد بن خليفة بن حمد بن موسي النبهاني، التحفة النبهانية دار إحياء العلوم، الطبعة الثانية، بيروت ١٩٩٩، ص ٨٨-٨٩.

بين آل خليفة والجلاهمة، الذين تحدوا سلطة آل خليفة في الزبارة، مما أدى إلى مهاجمة قاعدتهم في خور حسان وقتل زعيمهم والد رحمة بن جابر. وقد أثار هذا الحدث سعي رحمة بن جابر طوال حياته للانتقام من حكام البحرين. وبحكم شهرته، انجذب آخرون إلى قضيته، ممن لديهم حسابات لتسويتها مع آل خليفة، أو أولئك الذين يتوقون إلى حياة القرصنة. وبسبب رغبته في تشكيل تحالفات ضد آل خليفة، لهذا أحدث رحمة الكثير من الاضطرابات في المنطقة امتدت لسنوات[١]. حيث استمر رحمة بن جابر في يمارس القرصنة ضد سفن الصيد والسفن التجارية البحرينية بصفة خاصة، لكنه قبيل الهجوم العماني على الزبارة، غادر قطر وانتقل إلى الدمام على الساحل الشرقي للجزيرة العربية لمواصلة حملته ضد البحرين، مهاجمًا سفنهم التجارية وأساطيل صيد اللؤلؤ، حتى توفي في عام ١٨٢٦[٢].

عندما توفي الحاكم الثاني للبحرين الشيخ أحمد بن خليفة بن محمد حوالي عام ١٧٩٦، أصبح ولديه الشيخ سلمان والشيخ عبد الله، حكامًا للبحرين. وعندما توفي الشيخ سلمان عام ١٨٢٥، أصبح ابنه خليفة شريكًا للشيخ عبد الله في الحكم. خلال فترة الحكم المشترك بين العم وابن الأخ، أصبحت قطر أرضًا خصبة لطموحاتهم السياسية وقاعدة للفصائل المنشقة من عائلة آل خليفة.[٣]

وفي ظل هذه الأوضاع السياسية للبحرين وقطر لمع نجم عيسى بن حمد بن طريف منذ منتصف العقد الثاني من القرن التاسع عشر حين أصبح شيخًا لقبيلة البنعلى[٤]، التى كانت تسكن فويرط، وكانت تشكل أهم القبائل القطرية فى تلك الفترة.

وكانت حياة عيسى بن طريف أحد شيوخ تحالف آل بن علي، والذى كان يتألف بشكل أساسي من المعاضيد وآل سليم، وكان يشكل أكبر تحالف قبلي في قطر

(1) Michael Quentin Morton, Masters of The Pearl, A History of Qatar, Reaktion Books 2020, pp.29-30.

(2) Ibid., p.٣٢.

(3) Habibur U. Rahman, the Emergence of Qatar, the Turbulent Years 1627-1916-Routledge, 2006, p. 39.

(٤) محمد بن خليفة بن حمد بن موسى النبهاني، التحفة النبهانية دار إحياء العلوم، الطبعة الثانية، بيروت ١٩٩٩، ص ١١٢.

في ذلك الوقت، وقد منح هذا التحالف المجتمع القطري الذى كان يفتقد إلي الوحدة، قوة مكنته من مواجهة القوى الإقليمية. لهذا كانت حياة الشيخ ابن طريف كلها تحديات شكلت جزءا من تاريخ قطر قبيل الاستقلال، وهو التاريخ الذي أصبح، بعد مقتله في عام ١٨٤٧، نقطة تحول فى تاريخ قطر فى سعيها نحو الاستقلال.

وهناك عاملان مهمان ساعدا فى صعود نجم عيسى بن طريف: **العامل الأول**: انتهاء نفوذ الجلاهمة عام ١٨٢٦ الذين كانوا يشكلون قوة لا يستهان بها فى قطر. **والعامل الثاني**: انتهاء سلطة حكام بني خالد من عاصمتهم فى قطر وهى الحويلة، وهو ما سيفسح المجال أمام عيسى وقبيلة البنعلي على أن يحلوا محل حكام بني خالد، ليبدأ نجم عيسى كزعيم تلتف حوله القبائل القطرية فى هذه المرحلة من تاريخ قطر.

عيسى بن طريف والياً على الحويلة

كانت الحويلة مركزا لأمراء آل مسلم ولاة بني خالد على قطر. ومن هنا اكتسبت الحويلة أهميتها كمركز محورى بين المدن القطرية حتي أوائل القرن التاسع عشر. وكان آل مسلم يتصلون معهم بصلة نسب، وكانوا يقيمون في الحويلة، ولهم هناك مركزًا مرموقًا، ويدعمون أقربائهم ويساعدونهم فى توطيد حكمهم فى قطر[1]. ويشير المؤرخ السعودى ابن بشر خلال أحداث عام ١٢٢٦هـ/١٨١١-١٢م إلي أن "أبا حسين أمير الحويلة البلد المعروفة فى قطر"،[2] وهو يقصد بذلك آل مسلم.

فى عام ١٨٢٨ قام الشيخ محمد بن خميس شيخ قبيلة البوعنيين فى الدوحة بقتل رجل من البحرين، فأمر الشيخ عبد الله شيخ البحرين بالقبض عليه وسجنه، لكن قبيلته رفضت تسليمه، وتمردت على سلطة آل خليفة[3]. فقام الشيخ عبد الله بمهاجمة البدع ودمر حصن قبيلة البوعينين. وعندما تم القبض عليه وسجنه، احتج أتباعه في البدع بشدة.

(١)مفيد الزيدي، تاريخ قطر المعاصر ١٩١٣-٢٠٠٨، دار المناهج للنشر والتوزيع، عمان ٢٠٠٨، ص٢٠.

(٢)عثمان بن عبد الله ابن بشر، عنوان المجد في تاريخ نجد، الجزء الأول، تحقيق عبد الرحمن عبد الله الشيخ، دارة الملك عبد العزيز، الرياض ١٩٨٢، ص ٣٢٠.

(٣) ج. ج. لوريمر، دليل الخليج، القسم التاريخي، الجزء الثالث، ترجمة مكتب أمير قطر، الدوحة د/ت، ص١٢٠٦.

وكان رد فعل الشيخ عبد الله هو إجبارهم على الانتقال إلى الفويرط والرويس والزبارة[1].

إن تدخل الشيخ عبد الله في شؤون قطر، سرعان ما واجه تهديدات خارجية خطيرة. حيث استغل سلطان مسقط سعيد بن سلطان الإدارة الضعيفة للشيخ، فجدد الأعمال العدائية ضد البحرين، واحتل ميناءا بحرينيا وهدد بالهجوم على مدينة المنامة في نهاية عام ١٨٢٨. لكن تم التخلي عن التهديد بغزو المنامة بسبب تفشي وباء الكوليرا على متن سفن أمام مسقط، وأخبار المتاعب التي يواجهها في شرق إفريقيا. بعد هجوم فاشل على سفن رعايا إمام مسقط، أبرم الشيخ عبد الله فى نهاية المطاف معاهدة مع سعيد بن سلطان فى ديسمبر ١٨٢٩، لدفع جزية سنوية إلى مسقط مقابل السلام[2].

ونتيجة ضغوط إمام مسقط سعيد بن سلطان، كتب شيخ البحرين عبد الله بن أحمد إلى الزعيم السعودي تركي بن سعود طالباً المساعدة، ورغم هزيمة قوات إمام مسقط، وحليفه الشيخ طحنون شيخ أبو ظبي، فى معركة تسمي "قرقز" (نسبة إلي المكان الذى حدثت فيه)[3]، إلا هذه التوترات أدت إلي أن بعضًا من قبيلة أباحسين هربوا من الحويلة وانضموا إلى الشيخ طحنون، شيخ أبو ظبي المتحالف مع إمام مسقط، فأرسل شيخ البحرين على الفور رجالهما فنهبوا نساءهم وأطفالهم وكل ما يمتلكونه، مع ذلك فإنه ما يزال قسماً من أباحسين موجودون فى الحويلة[4].

ويبدو أن خروج آل أباحسين ممثلو آل مسلم من الحويلة، قد أفسح المجال أمام قبيلة البنعلي لتملأ الفراغ السياسي الذى تركوه فى عاصمة آل مسلم في قطر. ومن هنا يمكن القول

---

(1) R/15/2/26, Enclosure No. 1, List of Chronological Events relating to the Katr Peninsula from 1766 A. D. to the present time, showing the relations of the Utub tribe, the Wahabis and the British and Turkish Governments with the indigenous people of the Peninsula, PP. 51-56.

(2) Habibur U. Rahman, op.cit., p. 40.

(٣) محمد بن خليفة بن حمد بن موسي النبهاني، المرجع السابق، ص١٠٣-١٠٤.

(4) R/15/1/48, 15 Oct. 1828, From: The Agent at Bahren. To: Lieut. Hennell, pp. 2-3.

أن صعود عيسى بن طريف كزعيم على الحويلة ليحل محل آل مسلم، وربما تم ذلك خلال عام ١٨٢٨، عقب خروج عائلة أباحسين من الحويلة. وهنا تبدأ المرحلة الأولي فى العمل السياسي للشيخ عيسى بن طريف، ليجمع حوله القبائل ذات التأثير والنفوذ فى قطر ليناوئ بهم حكام البحرين. كان عيسى بن طريف زعيم البنعلي مؤهلاً لأن يلعب دورًا مهمًا فى تاريخ قطر، فقد كان بالنسبة لحكام البحرين شخص موثوق فيه، حيث كان صهرًا للشيخ عبد الله بن أحمد آل خليفة حاكم البحرين. لهذا وقع اختيار الشيخ عبد الله له ليكون واليًا على الحويلة في الساحل منذ عام ١٨٢٩ وحتى عام ١٨٣٥. وقد تمكن عبر المصاهرة لحكام البحرين من تحقيق أهدافه، حيث أصبح حاكما على قطر من طرف آل خليفة.

وخلال عام ١٨٣١ تمكن الأمير تركي بن عبد الله بن سعود من استعادة نفوذ الدولة الوهابية (السعودية)، التى كانت قد انهارت على يد قوات محمد علي باشا والي مصر عام ١٨١٨م. واستطاعت القوات السعودية دخول مدن الأحساء من دون مقاومة تذكر، واستسلمت القطيف، وبهذا انهار نفوذ آل عريعر حكام بني خالد في تلك المناطق التي كانوا يحكمونها[١].

وما أن استقرت الأوضاع لصالح الأمير تركي في المنطقة الشرقية، بعد أن اعترف بسلطة إسمية للمصريين، ودفع جزية سنوية، لكنه واجه تحدياً لسلطته من آل عريعر حكام الإحساء، الذين أرسلوا إليه حملة عام ١٨٣٠، وتمكن من هزيمتهم[٢]. وعقب التخلص من آل عريعر فى الإحساء، أرسل مبعوثيه إلى شيوخ الساحل الغربي من الخليج، يطالبهم بالإذعان لسلطته. وفي عام ١٨٣٠، قام الإمام تركي بمطالبة شيخ البحرين بإعادة حصن الدمام إلى بشر بن جابر، ودفع جزية سنوية قدرها ٤٠ ألف كرونة ألمانية. والتزم الشيخ عبد الله نظرا لعدم وجود بديل عن سلطة السعوديين لتأمينه من أى هجوم

(١) للمزيد حول الحملة على الإحساء، راجع: محمد عرابي نخلة، تاريخ الإحساء السياسي ١٨١٨-١٩١٣، منشورات ذات السلاسل، د/ت، ص٢٦-٢٧.

(2) Selections from the Records of Bombay Government, Vol. XXIV Historical sketch about Wahabees , pp, 438-439.

خارجي على البحرين. ومع ذلك، في ١٨٣٣، تنكر الشيخ عبد الله من السيادة السعودية عندما تخلى بشر بن رحمة عن ولائه للوهابيين وغادر إلى عمان من جزيرة تاروت المقابلة لبلدة القطيف[1].

في عام ١٨٣٥، حين واجه عبد الله بن أحمد محاولة لانتزاع السلطة منه، على يد ثلاثة من أبنائه، وهم أحمد ومحمد وعلي بدعم من أخوالهم البنعلي وزعيمهم عيسى بن طريف، زعيم الحويلة، التى كانت تتألف من البنعلي والبوعنيين، وكان الأبناء الثلاثة يعتمدون على مساندة أخوالهم البنعلي المشهورون بالشجاعة، وكثرة الأموال[2].

أرسل الشيخ عبد الله حفيد أخيه محمد بن خليفة بن سلمان، وجهز حيشاً كبيراً، واتجه إلي فويرط، وانطلاقًا من فويرط بدأت قوات الشيخ وأتباعه يحاصرون الحويلة بحرًا وبرًا، وذلك لتأديب عيسى بن طريف زعيم البنعلي علي موقفه، وانحيازه لأحد أبناء الشيخ عبد الله المنشقين عنه. وتوجه أحد أبناء الشيخ المتمردين عليه إلى الإحساء، ثم إلى الرياض لطلب المساعدة من الزعيم الوهابي الذى ربما يستغل الفرصة للتدخل، بل ويسعد بسوء التفاهم الحالي بين الشيخ عبد الله وأبنائه[3].

وحاول الشيخ عبد الله استخدام المفاوضات مع البنعلي، وجنح للمصالحة، بعد لقائه أبناءه الثلاثة والزعيمين عيسى بن طريف وسلطان بن سلامة، لكن فشل المصالحة جعله يأمر بتجهيز السفن لتحاصرهم من البحر، وأنزل الفرسان في رأس ركن من أجل محاصرتهم من البر أيضاً[4].

وتمكن الشيخ عبد الله من خلال الحصار البحري والبري من سحق التمرد في قطر بلا رحمة، لكنه فقد دعم البنعلي والبوعينين، اللذين انفصلا على الفور عن تحالف العتوب[5]. وأذعن أبناء الشيخ لطاعته مرة أخري ورجعوا إلي البحرين

(1) Habibur U. Rahman, op. cit., p. 40.

(٢) محمد بن خليفة بن حمد بن موسي النبهاني، المرجع السابق، ص ١٠٦.

(3) R/15/1/68, Letter from Khalifa ben Shakhboot 24th Shaban (Rujub) or 15th November 1835, pp. 204-05.

(٤) محمد بن خليفة بن حمد بن موسي النبهاني، المرجع السابق، ص ١٠٧.

(5) Fuad Ishaq Khuri, Tribe and State in Bahrain, the Transformation of Social and Political Authority in an Arab State, University of Chicago Pres 1980, p. 30.

بعد محاولة تمرد فاشلة(1).

ونتيجة لهذه الاضطرابات اضطرت قبيلة البوعينين القطرية إلي مغادرة مدينة الوكرة واتجهت للإقامة في أبوظبي، بينما هاجرت قبيلة القبيسات من أبوظبي إلى منطقة العديد في أقصى الجنوب الشرقي من قطر. وكان شيوخ فويرط والوكرة والبدع يتعاطفون مع القبيسات، ويقدمون لهم المساعدة. ولتزايد خطر العديد على أبوظبي، جهز شيخ أبوظبي حملة بحرية ضد القبيسات وأجبرهم على العودة إلى أبوظبي. وفي رسالة من الشيخ خليفة بن شخبوط شيخ أبوظبي إلي المقيم البريطاني فى الخليج يشير إلي أن القبيسات ينتمون إلى قبيلتنا وما زالت منازلهم وعائلاتهم لدينا هنا، ولدي الكثير منهم هنا ممتلكات. لقد غادروا أبو ظبي كتجار مسالمين ولكن بدلاً من العودة ذهبوا إلى الدوحة وانفصلوا وخرجوا من سلطتنا(2).

حاول الشيخ عبد الله بن أحمد شيخ البحرين أن يقنع السلطات البريطانية فى الخليج بمنع شيخ أبوظبي من استضافة البوعنيين، في رسالته إلي الوكيل السياسي فى البحرين اشتكى من أن عيسى بن طريف وسلطان بن سلامة والبوعينين من الوكرة قد غادروا البحرين والوكرة على التوالي، ويقيمون حالياً في أبو ظبي تحت حماية رئيس ذلك المكان. وذكر أيضًا أنه في السابق عندما غادر آل البوسميط البحرين، سمح المقيم آنذاك لرئيس البحرين باتخاذ إجراءات ضد القبيلة المقاومة. كما أكد أنه عندما التمس منه فعل نفس الشيء مع القبيسات، رفض إعطائه نفس الشيء بحجة أنهم باتوا من رعايا أبو ظبي. وطالب شيخ البحرين بمنع شيخ أبو ظبي من منحهم حق اللجوء وحثهم على العودة(3).

أما البنعلي فوفقا لاتفاق بينهم وبين شيخ البحرين عقب موقعة الحويلة، فقد رحلوا إلى البحرين، لكن اضطرتهم

(1) محمد بن خليفة بن حمد بن موسي النبهاني، المرجع السابق، ص ١٠٧.

(2) R/15/1/68, Letter from Khalifa ben Shakhboot 24th Shaban (Rujub) or 15th November 1835, pp. 204-205.

(3) R/15/1/78, From Sheik Abdoolla bin Ahmed of Bahrein dated 4th Rubbee Ool Uwwal recd. 8th June 1838, PP. 52-53.

تعديات أحفاد الشيخ سلمان آل خليفة، وتغاضي الشيخ عبدالله بن أحمد عن هذه التعديات، إلى مغادرة البحرين والذهاب إلى أبوظبي. وبعد مغادرتهم استولى محمد بن خليفة بن سلمان على سفنهم، بالإضافة إلى أراضي وبساتين تمور وكميات من اللؤلؤ وممتلكات أخرى لعيسى بن طريف وسلطان بن سلامة[1]. وفي رسالة عيسى بن طريف وسلطان بن سلامة إلي الوكيل السياسي في البحرين، أكدا أنهما على الرغم من أن الشيخ عبد الله بن أحمد قد عاملهم بمزيد من الاحتقار واستولى على ممتلكاتهم، إلا أنهم لم يسيئوا إليه قط[2].

وما أن استقر عيسى بن طريف وسلطان بن سلامة مع البنعلي في أبوظبي، حتى بدءا يطالبان بإعادة ممتلكاتهم المسلوبة، فتكررت رسائلهما واتصالاتهما بالمقيمية البريطانية بهدف التدخل لحل مشكلة ممتلكاتهم المسلوبة من شيوخ البحرين، أو حتى السماح بشن الحرب البحرية عليهم، لكن المقيم البريطاني، كالعادة في مثل هذه الأمور، رفض مسألة إعلان الحرب إلا بعد استنفاذ السبل التفاوضية، وأكد الوكيل أنه لن يمنع أولئك الذين قد يكون لديهم مطالبات عادلة من السعي لتحقيقها وحقهم في التعبير عن آمالهم، إما بإعادة حقهم إليهم أو السماح لهم بإعلان الحرب ضد الأشخاص المعنيين فقط دون شعب البحرين[3].

كان الشيخ عبدالله بن أحمد يخشى من تداعيات انتقال البنعلي والبوعينين إلي أبو ظبي، وخوفه من أن تقوم بقية القبائل التي تخضع لسلطته بتقليد نفس النهج، كما أنهم من الممكن أن يشكلون تحالفا مناوئاً له بالتعاون مع شيخ أبو ظبي، وتهديد التجارة البحرينية. لهذا كان حريصًا علي إرجاع قبيلتي البنعلي والبوعينين من أبوظبي، أو

(1) R/15/1/78, Substance of letter from Isa bin Tarif and Sultan bin Salama dated 14th Ziulkada or 10th February 1838, PP. 17-18.

(2) R/15/1/78, from Isa bin Tarif and Sultan bin Salamah, 2 September, 1838, p. 158.

(3) R/15/1/78, Substance of letter from Isa bin Tarif and Sultan bin Salama dated 14th Ziulkada or 10th February 1838,_pp. 17-18.

على الأقل إخراجهما منها، خصوصاً بعد أن تحـــالف معهـــم شـــيخ أبـــوظبي، ومناصرته لقضيتهم، وكانت علاقة شيخ أبـوظبي بشـيخ البحـرين تتسـم بالعـداء في تلك الفترة. لقد كان تحالف شيخ أبو ظبـي الشـيخ خليفـة بـن شـخبوط مـع عيسـى بـن طريـف، وبإمكانهما التعاون سوياً لامتلاك قوة بحرية تعطل البحرية التجارية لشيخ البحرين. وبالتالى فإن تجارة البحـرين سـتتوقف تمامـاً بفعـل النشـاط المعادي لقوارب أبوظبي، دون أن يكلف ذلـك أبـوظبي خسـائر تـؤثر علـى حياتها الاقتصادية(1).

ومـن جانـب آخـر اسـتعان إمـام مسـقط بقبيلــة البنعلــي، التــي هــاجرت إلــى أبـوظبي، فـي اسـتعادة سـلطته علـى ممباســا، علــى الســاحل الشــرقي مــن أفريقيـا، ففـي رسـالة مـن هنيـل S. Hennell المقيم السياسـي فـى بوشهر يشير إلي أنه في الرابع من يناير ١٨٣٧، قـام إمـام مسـقط ومعـه عيسـى بـن طريف... وأتباعه الذين غادروا سابقًا أبو ظبي لهذا الغرض، بمهاجمة ممباسا، قد هبطت قـواتهم وهاجمـت القلعـة علـى الجانـب البـري، بينمـا تـم إطـلاق نيـران كثيفـة، واسـتمر القصـف حتـى ١٢ فبراير حـين تـم استسـلام قـوات القلعـة، وتـم تفكيـك جميـع المـدافع وتـدمير المكـان تمامًا. وكانت النتيجة الناجحة لهذا الحصار بعد العديد من الإخفاقات، قـد أدت إلـى رفـع اسـم وشـهرة إمـام مسـقط فـي الخليج الفارسـي، كما أن الاعتقاد السائد بالفعل بين الأهالي أن عند عودة الإمام إلـى مسـقط سـيتبعها بحمـلات علـى صُحار والبحـرين(2). ولاشـك أن المشـاركة فــى غــزوة ممباســا قــد عــززت مكانــة البنعلـي بـين القبائـل فـي الخلـيج، كما عززت قوة إمام مسقط.

ونتيجة لهذه المشاركة للبنعلي، تصاعد خـوف شـيخ البحـرين مـن تحـالفهم مـع شيخ أبـوظبي، لهذا سعى للتحـرك ضد تواجـد القبيلتـين القطـريتين، علـى أرض أبـوظبي، فتتـأزم العلاقـة بـين القبيلتـين القطريتين وأبوظبي من جهة وبين شيخ

(1) R R/15/1/78, 9 June 1838, From: S. Hennell, Offg. Resident. To: I. P. Willoughby, Secretary to the Government - Bobay, PP. 171-181.

(2) R/15/1/72, No. 41 of 1837, Residency in the Persian Gulf, Bushire 8th May 1837pp. PP. 196-197.

البحرين من جهة أخرى، وتستمر الأزمة التي وصلت حدّ إعلان الحرب، حتى جاء مطلع عام ١٨٣٩ حين تنشأ ظروف جديدة في الساحل الغربي من الخليج كله، بعد استسلام الأمير فيصل بن تركي أمام القوات المصرية وقائدها خورشيد باشا.

هكذا لم يستسلم عيسى بن طريف رغم هزيمته أمام شيخ البحرين في الحويلة، وحول الهزيمة إلي نصر بطريقة أخري، عبر هجرته بقبيلته من قطر إلي أبوظبي، واستراتيجية التحالفات مع أصدقاء أقوياء، مثل شيخ أبوظبي وإمام مسقط، تمهيدا لجولة صراع أخري مع غريمه. لعب التدخل البريطاني في هذا الصراع دورًا من أجل المخاوف البريطانية في الحفاظ علي معاهدة السلام التي عقدتها مع البحرين وبعض كيانات الخليج العربي عام ١٨٢٠[1]. ومن ثم انتهت المرحلة الأولي من حياة عيسى بن طريف التي أصبح فيها واليًا علي الحويلة، بانتقاله مع قبيلة البنعلي والبوكوارة إلي أبوظبي.

لقد كان وصول المصريين إلي منطقة الخليج قد ساهم في إرباك الأوضاع في المنطقة، وأربك الوضع الداخلي في قطر، خاصة مع محاولات شيخ البحرين التقارب مع خورشيد باشا قائد الحملة المصرية. كان وصول الحملة الحملة المصرية في بدايات عام ١٨٣٩ إلى

---

(١) نتيجة لقيام بعض القبائل العربية بفرض رسوم بحرية والقيام بالغارات على السفن البحرية، على غرار الممارسات البدوية على طول طرق التجارة الصحراوية، فقد شكل ذلك تهديدًا متزايدًا للشحن الهندي البريطاني. واعتبرت الحكومة البريطانية (في بومباي والهند) هذه الممارسات تعد ابتزازا وقرصنة. وكانت تعتقد أن القواسم الأسرة =

= الحاكمة في الشارقة ورأس الخيمة ولنجه، هم وراء هذه الغارات. لهذا حاصر البريطانيون أسطولًا من المراكب الشراعية القاسمية في عام ١٨٠٦ وأرسلوا حملات بحرية في عامي ١٨٠٩ و ١٨١٩ ضد عدد من موانئ القواسم. بعد الحملة الثانية، تمكن البريطانيون من فرض معاهدة لمكافحة القرصنة، تُعرف باسم المعاهدة العامة لعام ١٨٢٠، على القواسم وجميع الحكام والحكام الآخرين. تم قبول حكام البحرين، الذين يرغبون في تجنب دفع الرسوم البحرية، في المعاهدة بناء على طلبهم. راجع:

James Onley, Britain and the Gulf Sheikhdoms, 1820–1971: The Politics of Protection, Center for International and Regional Studies Georgetown University School of Foreign Service in Qatar, 2009, p.4.

ساحل القطيف. وأرسل خورشيد باشا محمد أفندي رفعت مبعوثاً إلي شيخ البحرين، من أجل عقد معاهدة صداقة وتأييد لحكمه فى نظير التعهد من جانبه بتقديم ما يلزم من السفن والجنود، في حالة تقدم خورشيد باشا إلي عمان أو غيرها من مناطق الخليج العربي[١].

أثارت اتفاقية شيخ البحرين مع خورشيد باشا غضب السلطات البريطانية التي حاولت جعل الشيخ عبد الله يرجع عن اتفاقيته مع المصريين، الا أن الشيخ عبد الله رفض التهديدات البريطانية، وأصر الالتزام بتعهداته. ويبدو أن الشيخ عبد الله أراد التخلص من البريطانيين، الذين كانوا على علاقات طيبة مع أعدائه، حاكم مسقط وشيخ أبو ظبي اللذين كانا يطمعان في السيطرة على البحرين منذ زمن بعيد[٢].

ونتيجة للتقارب بين شيخ البحرين مع خورشيد باشا، تعرض أهل قطر للابتزاز من شيخ البحرين، وقد رفضت قبيلة النعيم في شمالي قطر دفع الزكاة، التى طلبها شيخ البحرين، لصالح المصريين، وربما بحض من شيخ البحرين، أرسل خورشيد باشا قواته بقيادة محمد أفندي حاكم الإحساء للهجوم على قبيلة النعيم، وهدم بلادهم، لكنه فشل في إخضاعها. كما رفضت قبيلة البوكوارة التى تسكن الفويرط نفوذ خورشيد باشا، فغادرت قطر إلى جزيرة خارج على الساحل الفارسي التى تقع قبالة مدينة بوشهر[٣].

وكان للتقارب بين شيخ البحرين وخورشيد باشا تأثيره علي وضع عيسى بن طريف وقبيلة البنعلي المقيمين فى أبوظبي، حيث أدي توثيق العلاقة بين شيخ البحرين وخورشيد باشا، إلي محاولة الشيخ شيخ أبوظبي استمالة سعيد بن مطلق، وكيل خورشيد باشا في عُمان، إلى جانبه، لمناوئة الشيخ سلطان بن صقر حاكم الشارقة، قد مهدت السبيل أمامهما إلى إقامة تفاهم سيضر بقضية البنعلي[٤]. فقد وجد عيسى بن طريف

(١) جمال زكريا قاسم، المرجع السابق، ج٢، ص٨٨.

(٢) فائق حمدي طهبوب، تاريخ البحرين السياسي: ١٧٨٣-١٨٧٠، الكويت ١٩٨٣، ص ٢٠٣.

(٣) ج.ج. لوريمر، المرجع السابق، ج٣، ص١٢٠٧-١٢٠٨.

(٤) جمال زكريا قاسم، المرجع السابق، ج٢، ص ٩٠.

نفسه في موقف صعب للغاية مع مضيفه وحليفه شيخ أبوظبي، إذ أن هذا الأخير، بعد دأبه على الإعلان بأنه مع ابن طريف في السلم والحرب، وأنه يناصر قضيته ضد البحرين، مما جعله في قلب النزاع بين الجانبين، وأدى إلى الاستعداد للحرب، قد انقلب على عيسى بن طريف الذي ما يزال يقيم على أرضه.

وعقب خروج الجيش المصري من المنطقة عام ١٨٤٠ بدأت مرحلة من الفراغ السياسي في المنطقة. لهذا اشتعلت المنافسات والصراعات بين الأسرة الحاكمة فى البحرين، وبدا واضحاً أن المدن القطرية قد شكلت ملاذات آمنة لأولئك الذين يتعرضون للطرد من شيخ البحرين. وتلاعبت البحرين بالقبائل القطرية الواحدة ضد الأخرى وتدخلت في شؤون الحويلة، مما أجبر والي الحويلة -كما رأينا - على الذهاب إلى المنفى في أبو ظبي ثم بعد ذلك إلي جزيرة قيس، ومن هناك واصل مناهضته لحكام البحرين[1].

إن الإبعاد السلمي لعيسى بن طريف والجزء الأكبر من أتباعه من أبو ظبي، واستيطانهم في جزيرة قيس عام ١٨٤٠، قد منحهم فرصة العودة للانتقام من حكام البحرين، بسبب الخسائر التي تكبدها عيسى والبنعلي على يد شيخ البحرين، وقد قدم عيسى أكثر من عرض للسلطات البريطانية للسماح له بالسفر من جزيرة قيس لتهديد تجارة البحرين، وأيضًا للاستيلاء علي مركب يعود لشيخ دبي، كان في السابق مملوكًا له، ولكن تمت مصادرته لاحقًا بسبب انفصاله عن شيخ البحرين، وبعد الاستيلاء عليه قدّمه شيخ البحرين هدية إلى شيخ دبي الشيخ مكتوم.

كانت السلطات البريطانية كان تري أن جلاء الجيش المصري عن نجد، ربما أزال أحد مسببات حالة العداء من عيسى لشيخ البحرين، وأنه لا ينبغي السماح بانتهاكها لمعاهدة السلام البحري. وتم الرد على طلبات عيسى بن طريف، بتذكيره بأن موقع جزيرة قيس يقع ضمن هذه الحدود، وضرورة نبذ كل فكرة لشن حرب عدائية ضد أي جزء من الساحل العربي[2]. وهكذا تصدت السلطات البريطانية في الخليج

(1) Habibur U. Rahman, Op.cit., p. 39.

(2) R/15/1/93, No. 60 of 1840, Residency in the Persian Gulf, Karrak, 2nd June 1840, PP. 2-3.

لمحاولات عيسى بن طريف الدخول فى صراع مفتوح مع شيخ البحرين، ومنع الصدام بينهما حفاظاً علي السلام البحري.

عودة عيسى بن طريف من المنفى إلى البدع

استمرت حالة الاحتقان بين عيسى بن طريف وقبيلته لشيخ البحرين الشيخ عبد الله بن أحمد رغم انتقالهم إلي العيش فى جزيرة قيس. ولم تكن هناك فرصة للصدام بين الفريقين، لكن جاءت الفرصة المواتية للصدام بين عيسى بن طريف وشيخ البحرين عام ١٨٤٣ حين ثار النزاع بين شيخ البحرين الشيخ عبد الله بن أحمد وحفيد أخيه الشيخ محمد بن خليفة، الذى كان يطمع فى الحكم بتأييد ومساندة بريطانية، ولهذا تودد إلي أهالى قطر لمساندته فى هذا النزاع لانتزاع السلطة من الشيخ عبد الله[١].

وجد عيسى بن طريف فى هذا النزاع فرصة للانتقام من شيخ البحرين، فانضم إلي جانب محمد بن خليفة، هو وبشر بن رحمة شيخ الجلاهمة[٢]. وكان عيسى بن طريف قد وعد محمد خليفة بالانضمام إليه عند الضرورة[٣]. وانطلاقًا من جزيرة قيس، استعد عيسى بن طريف للتوجه إلى فويرط في قطر والانضمام إلى قبائل قطر ومنها الانطلاق للهجوم على البحرين، ووصل إلى المنامة تسعون مركباً يقودها عيسى بن طريف ومعه قبيلة البنعلي والبوعينين وبشر بن رحمة وجماعته، ومن قطر أخذ معه قبيلة البوكوارة، والقبائل الأخرى المناهضة للشيخ عبدالله بن أحمد، في حين كان الشيخ سلطان بن سلامة يستعد في جزيرة قيس مع عدد آخر من المراكب للتوجه إلى البحرين[٤].

وكان عيسى بن طريف، قد استعد بمركبه وقواته البحرية في مواجهة جزيرة المحرّق، مقر حكم الشيخ عبدالله بن أحمد وأبنائه، وذلك استعدادا للهجوم عليها. وفي ٢٨ صفر ١٢٥٩/٣٠ مارس

(١) فائق حمدي طهبوب، المرجع السابق، ص ٢١٢.

(٢) ج.ج. لوريمر، المرجع السابق، ج٣، ص١٣١٧.

(3) R/15/1/89, No. 130 of 1840. E. I. C. Sloop of War 'Coote' Bahrain August 27th 1840, to Thomas Mackenzie Esq. Acting Resident in the Persian Gulf, PP. 299-306.

(4) R/15/1/99, 5 Apr. 1843, From Hajee Jassim Agent at Bahrein to Lieutt. Col. H. D. Robertson, Offg. Resident in the Persian Gulf, , pp. 107-108

١٨٤٣ يــذكر الوكيــل فــي البحــرين، أن وصول القوات المشتركة لكل من محمد بن خليفـة وعيسـى بـن طريف وبشر بن رحمـة وسـكان قطـر إلـى المنامـة، حيث كان من المتوقع أن تنضم إليهم قـوات بن سلامة في قتالهم ضد عبد الله بن أحمـد. وعنـد وصـول عيسـى بـن طريف وبشــر بــن رحمــة إلــى المنامــة، جــاءا لمقابلتـه الوكيـل السياسـي فـي البحـرين وشـرح الغـرض مـن وصـولهما، وقـد أذن لهما بذلك[1].

أما الشيخ محمد بن خليفـة فقـد اجتمع مع أخيه الشيخ علي، الذى استماله إلى جانبـه، فـي الرفـاع وسـاروا إلـى المنامـة وفتحوها، بينما كانت قـوات ابـن طريف تحاصر المحرق، "وأمر ابن طريف آل عبد الشـيخ مـن البوكـوارة أن يكفونـه الخيـل فنضحوهم بالرصاص فولوا هاربين، وقـد وصـل الشـيخ محمـد فـي العبـرات مـن المنامـة وانكسـر عبداللـه بـن أحمـد مـع أهل البحرين، وجميع البنعلي حضروا هذه الوقعــة... وانهــزم عبداللــه بــن أحمــد ودخـل فـي قلعـة أبـو ماهر متحصناً بها مـع بعـض خواصـه، وطلـب الأمـان مـن الشيخ محمد، فأعطوه الأمان"[٢]. ورحل الشيخ عبدالله بن أحمد إلى الدمام[٣].

وكتب وكيل البحرين فى 10 أبريل ١٨٤٣، عن تفاصيل فوز فريق البنعلي على عبد الله بن أحمد بالمحرق، ومغادرة عبد الله بن أحمد من ذلك المكان والسماح لإبنه عبـد اللـه بالبقـاء فـي المحـرق بشـروط معينة من قبل البنعلي. وعن الإجراءات التـي اتخـذها عيسـى بـن طريـف لمنـع وصول العون لعبد الله بن أحمد. وفـي إشارة أخرى إلى وصول فيصل بن تركـي إلى نجد وتأكيد بن ثنيان والـي القطيف بشأن تحالف فيصل معهم، كما ذكر عـن احتجـاز أبنـاء قطـر فـي المحـرق الـذين رافقـوا محمـد بـن خليفـة وعيسـى بـن طريف في مهاجمة المحرق[٤].

وهكذا تمكن عيسى بن طريف من إخراج الشـيخ عبـد اللـه بـن أحمـد مـن حكمـه وتسلم الشيخ محمد بـن خليفـة مقاليد الحكم في البحرين، وتمكـن مـن التخلص

---

(1) Ibid.

(٢) راشد بن فاضل البنعلي، المرجع السابق، ص ٩٠.

(3) R/15/1/99, 10 April 1843, from Haji Jasim, Agent at Bahrain, pp. 138-141.

(4) R/15/1/99, From Hajee Jassim, Agent at Bahrein. To: Lieutt. Col. H. D. Robertson, The Resident, 10 Apr. 1843, , pp. 138-141.

من الشيخ عبد الله، الذى أصبح يناصبه العداء، حتي واتته الفرصة. وظلت قوات عيسى بن طريف ومن معه جزيرة المحرق. لكن انتهى الأمر بمغادرة القطريين من المحرق إلى البدع، التى خضعت لحكم عيسى بن طريف.

ومنذ عام ١٨٤٣ صار عيسى بن طريف حاكمًا علي البدع. ويشير لوريمر إلي أن عيسى بن طريف انتقل من منفاه فى جزيرة قيس إلي البدع فى خريف عام ١٨٤٣[١]. حيث ترك عيسى بن طريف وقبيلته البنعلي جزيرة قيس وارتحلوا إلى البدع، حيث انتزعوا حكم البدع من الشيخ سالمين بن ناصر السويدي، شيخ قبيلة السودان، وأجبره هو وقبيلته على الخروج من قطر، وذهبوا للعيش في لنجه على الساحل الفارسي. وتمكن عيسى من العيش بهدوء في البداية، ولكن بعد ذلك غير موقفه، وانقلب على الشيخ محمد بن خليفة[٢]. وقد رحبت السلطات البريطانية فى الخليج بهذا الانتقال للشيخ عيسى، لأنها ضمنت انتزاع الدوحة من قبيلة السودان التى كانت تراها بريطانيا تمارس أعمال القرصنة فى الخليج، والسبب الثاني أن هذا الانتقال قد نقل معه احتمالات الحرب إلي داخل قطر[٣].

لكن الوثائق البريطانية تشير بدقة إلي تاريخ عودة عيسى بن طريف من جزيرة قيس إلي البدع. فهى تشير إلي شهر يوليو ١٨٤٠، "عندما ذهب عيسى بن طريف مع علي بن خليفة إلى البدع، قام بتسوية شؤون قطر وطرد سالمين بن ناصر وجماعته من قلعة البدع التي استولى عليها علي بن خليفة، واستحوذ البوعينين على الوكرة"[٤].

وعندما عاد عيسى بن طريف إلى جزيرة قيس لاقناع البنعلي بالعودة إلي البدع. لكن قبل وصوله، حدث سوء تفاهم بين

(١) لوريمر، المرجع السابق، ج٣، ص١٢١٣.

(2) Michael Quentin Morton, op.cit, p.37.

(٣) لوريمر، المرجع السابق، ج٣، ص١٢١٣.

(4) R/15/1/99, Office No. 318 of 1843, Cons. No. 87 of 1843, To I. P. Willoughby Esqre, Secretary to Government Bombay, Political Department, Dated Bushire 19th July 1843. No. 2, Translation of a letter from Moollah Hossein, Agent at Shargah to Lieutt. A. B. Kemball, Assistt. Resident in the Persian Gulf in Charge dated 22nd Jumadee ool Awul 1259 (22nd June 1843), PP. 257-261.

سلطان بن سلامة وعلي بن عبد الله بن أحمد بن خليفة لأن ثلاثة من أبنائه قد غادروا البحرين للاستقرار فى قيس مع البنعلي، ووصل اثنان إلي الجزيرة، بينما ذهب الثالث بخيوله وممتلكاته إلي لنجة للاستمتاع، لكن سلطان بن سلامة اعترض علي ذلك، ومنع نزوله فى لنجه. وعند وصول عيسى بن طريف استولى على خيوله وممتلكاته وتركه يذهب إلى إخوته. ولهذا ساءت العلاقة بين عيسى بن طريف وسلطان بن سلامة[1].

خلال نوفمبر ١٨٤٣ وصل محمد بن خليفة من قطر وأقام في المحرق، وكذلك أخوه علي بن خليفة. وحث الأمير فيصل بن تركي الشيخ عبد الله بن أحمد على التصالح مع محمد بن خليفة. كما أن عيسى بن طريف طلب من المقيم البريطاني فى الخليج وقف جميع المعارك بين الأطراف المتنازعة في البحرين، وأن عيسى طلب الإذن أيضًا بشن حرب ضد عبد الله بن أحمد وناصر بن عبد الله بن أحمد في الدمام. كما أن عيسى بن طريف الذي وصل إلى البدع ذهب إلى المحرق وتحالف مع محمد بن خليفة[2].

وتتلخص المشكلة البحرينية بعد تولى الشيخ الجديد محمد بن خليفة، في نزاعه مع عم أبيه حول الحكم، والنزاع بينه وبين أبناء الشيخ عبد الله بن أحمد المعزول حول حقوقهم، وبينه وبين الأمير فيصل بن تركي حول دفع الزكاة. وقد حاول الشيخ جابر الصباح شيخ الكويت التوسط بين أسرة آل خليفة، لحل الخلافات الخليفية ومصير الشيخ عبد الله شيخ البحرين السابق. ووصل الشيخ جابر إلي الدمام والتقى علي بن خليفة في محاولة لإبرام اتفاق مع محمد بن خليفة حول مستقبل عبد الله بن أحمد. وذكر أيضا أن عيسى بن طريف تلقى تأكيدات بالمساعدة من ثويني بن سعيد، إمام مسقط. وذكر كذلك أن راشد بن خليفة قد وصل إلى المنامة قادماً من نجد وعند لقائه الأمير فيصل بن تركي تم التوافق علي خفض مبلغ الجزية المستحقة له من شيخ البحرين سنوياً

(1) Ibid.

(2) R/15/1/100, Isa bin Tarif's desire for fighting against Abdullah bin Ahmed and Nasir bin Abdullah bin Ahmed at Dammam, 21 November 1843, pp. 278-279.

مـن ٦٠٠٠ إلـى ٤٠٠٠ دولار. وأشـار إلـى أن مبارك بن خليفة عم محمد بن خليفة قد وصل من القطيف مع الشيخ جابر من الكويـت والتقـى بشـيخ البحـرين قبـل مغادرته إلى قيس[١].

وفـي محـاولات يائسـة للشيخ عبد الله شيخ البحرين السابق لاستعادة سلطته، ومن منفاه فى الدمام حاول مهاجمة سـفن تابعـة للبحـرين لكنـه أخفـق فـي مسـعاه وواصـل طريقـه إلـى المنـاطق المجـاورة للبحـرين، حيـث رسـا فـى ٢٥ سـبتمبر ١٨٤٤ لمـدة يـومين قريبـا مـن البحـرين فـى منطقـة عنـد رأس نابنـد، واستولى هناك على ثلاث سفن صغيرة، ينتمون إلى ذلك المكان، لكنه قام بتحرير جـزء مـن الطـاقم[٢]. وفـي أكتـوبر ١٨٤٤ حذر محافظ نابند أبو هندي أحمد سيف من أن الشيخ محمد بن خليفة قد يتخذ إجـراءات انتقاميـة، إذا واصل الشيخ عبد الله بن أحمد أعماله العدائية ضد البحرين أثناء إقامته في نابند[٣].

وحاول الشيخ عبد الله التواصل مع حاكم القطيـف بواسـطة ابنـه مبـارك، ونتيجـة لهذا التقارب بين عبد الله والقطيف، تنشأ عـداوة بـين القطيـف والبحـرين، ويصـل الشيخ حمد بن مجدل شيخ قبيلة العماير لطلـب بعـض المسـاعدات الماليـة مـن محمـد بـن خليفـة شـيخ الجزيـرة. وكـان رئيس البحرين قد امتثل للطلب بشرط أن يعتـرف شـيخ العمـاير بسـلطة شـيخ البحـرين[٤]. وأن الشـيخ محمـد بـن خليفـة كان ينوي حصار القطيف، ووافقـه علي ذلـك بشـر بـن رحمـة بينما عارضـه أخـوه علي بـن خليفـة، الذى كـان يرغـب فـي تجديد التفاهم. ونص الاتفاق أيضاً على أن حمـد بـن مجـدل يتلقـى مسـاعدات مالية من شيخ البحرين فكان ملزمًا بحصار القطيف كما رغب بشر بن رحمة ومحمد

(1) R/15/1/100, The Pearl Banks at Debil shoal and Ras Rakkan as well as Isa bin Tarif's alliance with the Regent of Muscat, 1 October 1843, pp. 221-227.

(2) R/15/1/103, From: S. Hennell, Resident. to I. P. Willoughby, Chief Secretary to Government-Bombay, 25 Sept. 1844, p. 379.

(3) R/15/1/103, From: S. Hennell, Resident. to I. P. Willoughby, Chief Secretary to Government-Bombay, 11 October, Bushire 1844, p. 397.

(4) R/15/1/105, Enclosure II, From Haji Jasim, the Agent at Bahrain, 20 July 1845, pp. PP. 373-379.



بن خليفة[1].

بدأ الشيخ عبد الله بن أحمد في حصار القطيف لكنه لاحظ حالة الحصار على الميناء المذكور فغادر إلى الساحل الفارسي. يذكر أن محمد بن خليفة عين حمد بن مجدل لحصار الموانئ الوهابية. وذكر كذلك أن المقيم البريطاني قد حذر محمد بن خليفة، رئيس البحرين من عواقب التحالف مع شخص غير موثوق به مثل حمد بن مجدل شيخ العماير، لأنه قد يجبر رئيس الكويت على الوقوف إلى جانب الشيخ عبد الله[2].

غادر سعد بن مطلق الإحساء بمجموعة من قوات الأمير فيصل بن تركي وتوجه نحو عمان. وقدم له عيسى بن طريف فور وصوله عند سواحل البدع البارود والرصاص[3]. كما أن شيخ البحرين قد أوقف خطته لمهاجمة قطر حيث تراجع من التزموا بالعمل معه وعادوا إلى أماكنهم خشية وجود مقاومة كبيرة من شعب قطر[4].

أما عن موقف عيسى بن طريف من حصار القطيف، فقد كان منحازا بشكل أساسي لجانب الأمير فيصل بن تركي وعبد الله بن أحمد، حيث عزز عيسى صلاته بالأمير تركي، وأنه رغم إسهامه في تعزيز أهداف الشيخ محمد بن خليفة، فإن الأخير كان حذراً من الأول ويعامله ببرود. لكن الجهود الفاشلة التي بذلها الشيخ عبد الله بن أحمد لاستعادة البحرين من خلال أسطول السفن التي كانت تحاصر القطيف، والتى انضم إليها عيسى بن طريف من ساحل قطر، معززا قوات الشيخ عبد الله، وكانت سفنه من بين سفن الحصار[5].

كان حصار القطيف من قبل شيخ البحرين الشيخ محمد بن خليفة، فى مواجهة الأمير تركي بن فيصل، وشيخ البحرين السابق الشيخ عبد الله بن أحمد، ووقوف

(1) R/15/1/105, Enclosure I, From Haji Jasim, Agent at Bahrain dated 25th July 1845, pp. 379-382.

(2) R/15/1/105, ١٩ August, 1845, Bushire. From S. Hennell to I. P. Willoughby, Bombay, pp. 373-379.

(3) R/15/1/105, 14 February, 1845, Bushire. From S. Hennell to I. P. Willoughby, Bombay, pp. ٧٠-٧١.

(4) R/15/1/105, ١٩ August, 1845, Bushire. From S. Hennell to I. P. Willoughby, Bombay, pp. 373-379.

(5) R/15/1/105, 1 September, 1845, Bushire. From S. Hennell to I. P. Willoughby, Bombay, PP. 379-382.

عيسى بن طريف ضمن فريق شيخ البحرين المخلوع والذى ساهم هو نفسه فى خلعه، قد جعل عيسى فى مأزق، سيجر عليه انتقام شيخ البحرين الحالي، وهو ما سيؤدي إلي صدام مباشر بين البحرين وقطر.

نهاية عيسى بن طريف

وصل العداء بين عيسى بن طريف والشيخ محمد بن خليفة إلي نقطة اللاعودة، بتحالف عيسى مع الشيخ عبد الله بن أحمد، حيث أن شيخ البحرين الجديد ما أن وصل إلي السلطة حتى تغيرت معاملته لحليفه عيسى الذى ساهم فى وضعه كشيخ للبحرين.

لقد كان عيسى يطلب فى بعض الأحيان أن يلعب دور الوساطة بين الشيخ عبد الله وأبنائه أثناء النزاع بينهم، لكن الشيخ عبد الله كان لا يصغي له ويطلب منه أن يسد هذا الموضوع ولا يفتح هذا الباب[1]. وخلال عام ١٨٤٧ استحكم الخلاف بين عيسى بن طريف وشيخ البحرين الجديد، حين أرسل عيسى إلي الشيخ محمد بن خليفة يطالبه برد أملاك المنهوبة من الشيخ مبارك بن الشيخ عبدالله شيخ البحرين السابق، بلغة تهديد "يلزم عليكم أن تردوا أملاك وأموال الشيخ مبارك المغصوبة... وإلا شققت شقاً لا يرفأ"[2]، وكان رد شيخ البحرين علي رسالة عيسى " أن الدم هو الذي يرفو ذلك الشق"[3].

ازداد الشعور بالعداء بين كلا من شيخ البحرين وعيسى بن طريف ومعه الشيخ عبد الله بن أحمد. وقد حاولت السلطات البريطانية فى الخليج احتواء هذا الخلاف، فوصلت السفينة الحربية "إلفينستون" إلى البحرين في محاولة لمنع الأعمال العدائية[4].

بدأ كلا من عيسى بن طريف والشيخ محمد بن خليفة فى حشد الأتباع وتشكيل التحالفات، تحسبا لمعركة مرتقبة. وقد أشارت الوثائق البريطانية إلي تشكيل ائتلاف بين الشيخ عبد الله بن أحمد ونجله مبارك مع عيسى بن

(١) الشيباني، محمد شريف الشيباني: إمارة قطر العربية بين الماضي والحاضر، ج١، دار الثقافة، بيروت، ١٩٦٢م. ص ٥٥.

(٢) محمد بن خليفة النبهاني، المرجع السابق، ص١١٣.

(٣) نفسه.

(4) R R/15/1/111, From S. Hennell to A. Malet, Bombay, 11 November, 1847, Bushire, pp. ٥٦٧-577.

طريف ورفاقه من بني هاجر[1]، لاجتياح أراضي محمد بن خليفه ورعاياهم من أبناء قطر الذين كانوا تابعين له. فقام شيخ البحرين بأرسال علي بن خليفة على متن قوارب إلى قطر بإذن من السلطات البريطانية. بينما جمع عيسى بن طريف قبيلة المحاربية، رعايا سعيد بن طحنون لمخططاته المعادية، وتعهد رسميًا بعدم تنفيذ أي عمل يتعارض مع رغبات الحكومة البريطانية[2].

في رسالة كلا من سلطان بن سلامة وعيسى بن طريف في ٧ نوفمبر ١٨٤٧، إلي الوكيل السياسي فى البحرين ذكرا فيها أن علي بن خليفة قد أبحر إلي الفويرط بقطر. وذكروا أن الحويلة بلدهم وأنهم يخشون أن يحتلها البحرينيون. وأفادوا بأنهم امتنعوا عن أي رد فعل، بناء على رغبة وتعليمات العميد البحري البريطاني الزائر، وعن القيام بأي استعدادات عدائية[3].

ولم يكن هناك مفر من التصادم العسكري بين البحرين والبدع. حيث اشتبكت قوات البحرين والبدع فى معركة يطلق عليها المؤرخون المحليون، اسم معركة "أم سوية"[4]، بينما تسميها الوثائق البريطانية بإسم "الفويرط"، وهي المعركة التى قتل فيها عيسى بن طريف[5].

استمرت معركة الفويرط، نصف يوم. وكتب لوريمر: "بادت آمال الشيخ السابق معه". استولى محمد بن خليفه على البدع وعين ابن أخيه أحمد حاكما. ثم أزال أبناء عيسى بن طريف وفلول آل بن علي وأنصارهم من البلدة. أكدت معركة

---

(١) بنو هاجر، أو الهواجر، هي قبيلة عربية سميت بهذا الاسم نسبة إلي منطقة هجر الواقعة فى شرق جزيرة العرب، وهم من القبائل القحطانية ويسكنون فى الإحساء شرق الجزيرة العربية والكويت.

(2) R/15/1/111, Bushire. From S. Hennell, Resident in the Persian Gulf to A. Malet, Secretary to Government, Bombay, 30 May 1847, PP. 243-261.

(3) R/15/1/111, From S. Hennell to Mohammed bin Khalifa, 11 November, 1847, PP. 567-577.

(٤) راشد بن فاضل البنعلي، المرجع السابق، ص ٩٢، محمد بن خليفة النبهاني، المرجع السابق، ص١١٢.

(5) R/15/1/114, From Captain Lowe, Indian Naval Squadron to Major S. Hennell, Bushire, Death of Isa bin Tarif and the removal of all the inhabitants of Doha to Bahrain, 27 December, 1847, PP. 2-10.

الفويرط هيمنة محمد بن خليفة على شبه جزيرة قطر، وكان مكانة آل خليفة في قطر مؤكدة في الوقت الحالي. واحتفظ الشيوخ المحليون بدرجة من الاستقلالية في شؤونهم الخاصة، ومع إخلاء البدع والدوحة من آلبنعلي، كان هناك فراغ في السلطة يمكن للآخرين ملؤه[1]. حيث أنه بعد انتهاء المعركة، انطلق الشيخ محمد بن خليفة في سفينته الحربية وتوجه إلى البدع التي هاجمها ودمرها بالكامل ونقل جميع سكانها إلى البحرين. وذكر كذلك أن الشيخ عبد الله بن أحمد قد فر إلى نابند بينما فر أبناؤه مبارك إلى نجد مع ٢٠٠ من أتباعه[2]

وربما ساهم البريطانيون فى وضع نهاية للشيخ عيسى بن طريف، الذى كان يركن إلي طمأنة السلطات البريطانية له، بأن شيخ البحرين لن يهاجمه، حاول مرات عدة تحدي سلطة البريطانيين، ورفض دفع غرامة للبريطانيين، بالاعتماد على الحلفاء الداخليين وقواعد الشرف، فقد هُزموا جميعًا في نهاية المطاف من قبل قوة البحرية البريطانية. التفوق واستعداد البريطانيين لمجرد دعم هؤلاء الزعماء الذين بدت أفعالهم أكثر انسجامًا مع المصالح البريطانية. ظهرت ملكية قطر كتعبير عن الاحتياجات العامة لسياسة الإمبراطورية البريطانية حتى لو لم يخلق البريطانيون الظروف المحددة التي أدت إلى صعود آل ثاني[3].

وهكذا انتهت حياة عيسى بن طريف زعيم البنعلي، والذى تسلم تمكن من الدفاع مصالح القبائل القطري طوال ربع قرن من الزمان نجح فى تحقيق الكثير من الأهداف، وأخفق فى تحقيق بعضها، ليكمل المسيرة شيوخ آل ثاني فى تاريخ متصل ومتسلسل من الكفاح. فكان مقتل عيسى بن طريف نقطة تحول مهمة فى تاريخ العلاقات بين قطر والبحرين والقوي المحلية الأخري، حيث نجح الشيخ محمد بن ثاني منذ انتقاله من فويرط إلى الدوحة في عام ١٨٤٨ فيما أخفق فيه عيسى بن طريف، حيث

(1) Michael Quentin Morton, op. cit., p.37

(2) R/15/1/114, From Captain Lowe, Indian Naval Squadron to Major S. Hennell, Bushire, Death of Isa bin Tarif and the removal of all the inhabitants of Doha to Bahrain, 27 December, 1847, PP. 2-10.

(3) Fromherz, Allen James, op.cit., p.45.

كان تولي بن ثاني زعامة قطر يشكل نقطة تحول مهمة في توحيد كامل قطر تحت قيادته الحكيمة، وأيضاً نقطة تحول فى سعيها نحو الاستقلال، ليؤسس لعصر جديد في تاريخ قطر تحت قيادة آل ثاني.

المصادر والمراجع:

١- الوثائق البريطانية: مجموعة وثائق بوشهر (/R/15/1)

R/15/1/100.

R/15/1/103.

R/15/1/105.

R/15/1/111.

R/15/1/114.

R/15/1/48.

R/15/1/68.

R/15/1/68.

R/15/1/7٢, No. 41 of 1837.

R/15/1/78.

R/15/1/89.

R/15/1/93.

R/15/1/99.

R/15/2/26.

٢- المراجع العربية

أحمد مصطفي أبو حاكمة، تاريخ الكويت الحديث، ١٧٥٠ - ١٩٥٦، الطبعة الأولي ١٩٨٤.

ج. ج. لوريمر، دليل الخليج، القسم التاريخي، الجزء الثالث، ترجمة مكتب أمير قطر، الدوحة د/ت.

جمال زكريا قاسم، تاريخ الخليج العربي الحديث والمعاصر، المجلد الأول، دار الفكر العربي ١٩٩٧.

خضير نعمان العبيدي، البحرين من إمارات الخليج العربي، مطبعة المعارف، بغداد ١٩٦٩.

راشد بن فاضل آل بن علي، مجموع الفضائل فى فن النسب وتاريخ القبائل، تحقيق الدكتور حسن بن محمد آل ثاني، الطبعة الثانية، الدوحة ٢٠٠٧.

الشيباني، محمد شريف الشيباني: إمارة قطر العربية بين الماضي والحاضر، ج١، دار الثقافة، بيروت،١٩٦٢م .

عثمان بن عبد الله ابن بشر، عنوان المجد في تاريخ نجد، الجزء الأول، تحقيق عبد الرحمن عبد الله الشيخ، دارة الملك عبد العزيز، الرياض ١٩٨٢.

فائق حمدي طهبوب، تاريخ البحرين السياسي: ١٧٨٣-١٨٧٠، الكويت ١٩٨٣.

محمد بن خليفة بن حمد بن موسي النبهاني، التحفة النبهانية دار إحياء العلوم، الطبعة الثانية، بيروت ١٩٩٩.

محمد حسن العيدروسى، دراسات فى الجزيرة والخليج، الكتاب الأول، دار الكتاب الحديث، القاهرة ٢٠٠٨.

محمد سليمان الطيب، موسوعة القبائل العربية، ج٢، دار الفكر العربي، القاهرة ٢٠٠٢.

محمد عرابي نخلة، تاريخ الإحساء السياسي ١٨١٨-١٩١٣، منشورات ذات السلاسل، د/ت.

مفيد الزيدي، تاريخ قطر المعاصر ١٩١٣-٢٠٠٨، دار المناهج للنشر والتوزيع، عمان ٢٠٠٨.

يوسف إبراهيم العبد الله، العلاقات البريطانية - القطرية: ١٩١٤-١٩٤٥، الدوحة ١٩٩٩.

٣- المراجع الأجنبية

Fromherz, Allen James, QATAR A MODERN HISTORY, Georgetown University Press, 2012.

Fuad Ishaq Khuri, Tribe and State in Bahrain, the Transformation of Social and Political Authority in an Arab State, University of Chicago Pres 1980.

Habibur U. Rahman, the Emergence of Qatar, the Turbulent Years 1627-1916-Routledge, 2006.

James Onley, Britain and the Gulf Sheikhdoms, 1820–1971: The Politics of Protection, Center for International and Regional Studies Georgetown University School of

Foreign Service in Qatar, 2009.

Michael Quentin Morton, Masters of The Pearl, A History of Qatar, Reaktion Books 2020.

Selections from the Records of Bombay Government, Vol. XXIV Historical sketch about Wahabees.

الكَوارث الطَبيعيةِ

وأثَرُها في التحقَيب التَاريخي.. رؤيةٌ تاريخيةٌ جديدة

Natural Disasters & its Impact on Historical Periodization New Historical Vision

الدكتور

إسماعيل حامد إسماعيل علي

عضو هيئة التدريس بالمعهد العالي

للسياحة والفنادق (القاهرة)

Dr Ismail Hamed Ismail Ali

Researcher in Medieval History

مُلخص الورقة:

ترصد هذه الورقةُ دور "الكوارث الطبيعية" مثل: الزلازل، والبراكين، والأوبئة، وكذلك الجفاف، والمجاعات... وغير ذلك في حركة التاريخ البشري، ومن ثم تأثيرها فيما يُعرف بين العلماء حديثًا بمصطلح "التحقيب التاريخي" وذلك حتى نهايات حقبة العصر الوسيط.

وهو ما يعني أن بعض "الأحداث الطبيعية"، قد تغير بشكلٍ واضح مجرى الأحداث التاريخية، ولعل من ذلك أن بعض الظواهر قد تؤدي لاندثار بعض المدن أو اختفائها من الوجود، أو حتى اندثار شعب من الشعوب، وربما يؤدي بعض تلك الكوارث الطبيعية إلى انهيار حضارات كبرى كانت مزدهرة، وغير ذلك من الأحداث التاريخية المهمة.

الكلمات المفتاحية: (الكوارث الطبيعية، التحقيب التاريخي، العصر الوسيط الزلازل، البراكين، الأوبئة، المجاعات..الخ).

Abstract

This Paper is dealing with the impact of the Natural Disasters such as Earthquakes, Volcanoes, Plagues, Drought, Famines..etc., on the History of the Man, therefor to show it influence on what is called Historical Periodization till the end of the Medieval Age. That would mean that some Natural Events could change the itinerary of Human History, so that some of these Events could vanish some Cities from existence, also hide some Peoples from the Historical Scene, on the same time some Natural Events could cause to put an end of some grand Civilizations

Key Words; Natural Disasters, Historical Periodization, Medieval Age Earthquakes, Volcanoes, Drought, Famines …

المقدمة:

تهدف الورقةُ لمعالجة الإشكالية الخاصة بتأثير "الكوارث الطبيعية" على تاريخ الإنسان، ودورها الفاعل في توجيه مسار الحدث، أو التأثير عليه. ولاريب أن الأحداثُ المأساويةُ التي يمرُ بها العالمُ الآن تستدعي من دارسي التاريخ ذوي الفِطنة والحَذق، نظرة مُختلفة الأبعاد، تتماهى مع تقلبات الأحداث التي تعاصرها البشرية بعد حقبة "كوفيد-١٩". ويمكن لتلك الرؤيةُ التاريخية أن تُسهم بشكلٍ أو بآخر في خدمة باقي العُلوم الإنسانية في ذات الآن، إذ إن تلك العلوم في حاجةٍ ماسة لرُؤية المؤرخين في خضم تلك المرحلة التاريخية الفاصلة التي نعيشها حاليًا. ومعلوم أن "الحدث التاريخي" يتكون من عناصر الزمان، والمكان، والرابطُ بينهما "الإنسان"، فهو صانعُ الحدث، ويُشكل العامل المؤثر في مجريات الأحداث عامة. غير أن "الطبيعة" قد يكون لها دورٌ لايقلُ أهمية عنه، وربما تتفوقُ عليه أحيانًا في صناعة أحداث، ومن ثمة يقف الإنسانُ أمامها حائرًا، بل وعاجزًا أحيانًا أُخرى.

ولا ريب أن بعضَ "الكوارث" كالزلازل، والبراكين، والأوبئة، والمجاعات..الخ ربما تتسبب في إسقاط حضاراتٍ، أو إضعاف أُخرى، أو أُفول أُمم كانت مُزدهرةً، وهو ما يُؤثر بالطبع في مسار التحقيب التاريخي بشكل أو بآخر يتوقف على قدر الكارثة الطبيعية، وأثرها بعدئذ. فالعديد من الأحداثِ وقعت على هذا النحو بسبب كوارث الطبيعة، ولعل منها اختفاء شعب "الأطلانتس" بسبب أحد الزلازل، كما اختفى الكثير من تُراث البحر المتوسط بسبب زلزال آخر، أو تسونامي، واختفت مدنٌ بسبب البراكين، وضعُفت إمبراطوريات ودول بسبب الأوبئة والطواعين..إلخ. ولعل أهمية هذه الورقة ترجع لنوعية الفكرة التي تطرحها، ولقلة الدراسات التاريخية التي تناولت دور "الكوارث الطبيعية" في مسار "الأحدث"، ومن ثم أثرها فيما يُعرف ب"التحقيب التاريخي".

أولاً- مَفهومُ التَحقيبِ التَاريخي ودلالتهُ الاصطلاَحية واللُغَوية:

تُعد الكوارثُ الطبيعية من أبرز الأحداث التي قد تُؤثر في التاريخ بشتى صورها، وأنماطها، وتلك الأحداثُ الاستثنائية قد يكون لها أثرها في صيرورة "الحركة التاريخية"، وهو ما يُعرف بين الدارسين ب"التحقيب التاريخي". ومُصطلح "التَحقيب" يُشير بصفة عامة لمحاولة تقسيم مراحل تاريخ الإنسان ل"حِقبٍ" زمنية مُتعاقبة، حقبةٌ تلو الأخرى، وهو "تحقيبٌ" قد يختلف بالطبع من مؤرخٍ لآخر، وكذا من منطقة لأخرى. ومن الناحية اللغُوية: فجمع كلمة "حِقبة": "حقب"[1]، و"الحقبة" يُعنى بها "المرحلةُ" أو "الفترة" من الزمن. ويَجدرُ بنا أن نستخدم بعض طرائق علماء "الفيلولوجيا"[2] لتفكيك بعض الألفاظ

---

(١) للمزيد عن مصطلح "حقبة" و"الحقب" في المعاجم اللغوية (مادة حقب)، انظر أبوبكر الرازي: مختار الصحاح، المطبعة الأميرية، القاهرة، ١٩٢٥م، ص١٤٦، وللمزيد انظر أيضا ابن منظور: لسان العرب، المجلد الثالث، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠١٤م، ص١٧٤.

(٢) علم الفيلولوجيا: هو مصطلح غربي مشتق في الأصل من لفظي (فيلو- لوجو)، ويشير هذا المصطلح إلى ما يعرف ب"علم اللغة"، أو ما يُعرف ب"فقه اللُغة" (وللمزيد =

اللُغويـة والمصـطلحات المرتبطـة بتلـك الفكـرة التـي نحـن بصددها لاسيما لفظ "التَحقِيـب"، وهــو مُشــتقٌ مــن الجــذر اللغُوي: (حَقَب)، ومنه لفظ: "الحُقب"، ومفردهـا: "حُقبـة"، ويُقصـد بهـا فـي الغالــب فيمــا تــذكر معــاجم اللغُـــة: "ثمـانون" سـنة، وقيـل إيضًـا: إن مـدة الحُقبة الزمنية قد تمتد لأكثر من ذلك[1]. أمـا جمـع "الحِقبـة": حِقـاب، والحِقـب: يُعنــي بهــا فيمــا يُقــال: "السُــنون"، و"الحُقُب": يُقصد بها "الدهر"، والجمع: "أحقاب"[2]. وتذكر المعاجم أن ما يُطلق عليهـا "الحقبـة مـن الـدهر": هـي مـدةٌ لاوقــت لهـا، وقيـل إن الحقبــة بالكسـر يُقصد بها السنة، والجمع: حِقب[3]. وكل هذا يُشير إلى ثراء لغة الضاد بأصل لفظ "التحقيـب"، وهـو اللفـظُ الـذي يُشـكل محـور الورقــة. وأمــا لفــظ "التحقيــب التـاريخي"، وهـو المصـطلح الأهـم فـي دراسة تلك الإشكالية، فمن المؤكد أنه مصــطلحٌ يختلــفُ مــن بلــدِ لآخــر، لأن "الحقــب التاريخيــة" فــي حياة أي مــن الشعوب، أو الأُمم، تختلفُ بصفةِ عامة عــن مثيلاتهــا لــدى الأمــم والشُــعُوب الأُخـرى، وعلـى هـذا ف"التحقيـب" يبـدو متباينًـا بـين الشعوب، وهـذا فـي الإطار الإقليمـي فيما يخـصُ "التـأريخ المحلـي" لأي بلــدِ، ف"التحقيــب التــاريخي" فــي مصر لـيس كمثيله فـي العراق، رغـم أن حضـارتيهما همـا الأقــدمُ. ورغــم البــون الواضــح فيمــا يُمكــن أن يُطلــق عليــه "التحقيب المحلي"، يحاول العلماء وضع تحقيـبِ جـامع قـدر الإمكـان، يمكنــه أن يجمــع المراحــل، أو "الحقــب" التاريخيــة، لأكثـر الشعـوب فـي ذات الآن. ونخلُـص لوجـود نـوعين رئيسـيين مـن "التحقيـب"، أولهمـا: "التحقيـب المحلـي"، أو "التـأريخ الإقليمـي"، وهـو الـذي يـرتبطُ ببلـدِ مـن البلدان، وثانيهما: "التحقيب العالمي"، أو "التحقيب العام"، الذي يرتبط ببلاد العالم كافـة، أو أكثرهـا. ويـرى الباحـثُ أنـه رغـم

=

عن ذات المصطلح، ومودلولاته، انظر أحمد السعيدي: الفيلولوجيا..من فقه اللغة إلى تحقيقــي التـراث، مجلـة الفيصـل، عـدد ٤، سبتمبر ٢٠١٨م).

(١) الرازي: مختار الصحاح، ص١٤٦.

(٢) المصدر نفسه، ص١٤٦.

(٣) ابن منظور: لسان العرب، ج٣، ص١٧٤.

التوافق حول مُجمل "التحقيب التاريخي" لوجود الإنسان، وحضاراته على اختلاف إسهامات كل أُمة من الأمم، واختلاف دورها، وتأثيرها الحضاري. غير أن ذلك لم يمنع في ذات الوقت من ظهور بعض الرُؤى المتباينة تجاه ذلك "التحقيب" العام الذي قد يميل إليه كثيرون، وهو أمرٌ يتفق مع طبيعة "علم التاريخ History" خاصة، وكذا باقي "العلوم الإنسانية" Human Sciences عامة[1]، إذ من المعلوم أن الحقيقة تبدو نسبية في دراسة العلوم الإنسانية، ولاتبدو فيها ما يُمكن أن يُقال له "الحقيقة المطلقة" على غرار العلوم الطبيعية.

ثانيا- أثر الكوارث الطبيعية في التحقيب التاريخي حتى القرن ٤م:

شهد تاريخُ الإنسان على الأرض، وبمرور الحقب المُتعاقبة العديد من الأحداث، أو بمعنى أدق "الكوارث الطبيعية" التي أصابت الأرض، وقاطنيها، ومن ثم أثرت بشكلٍ فاعل في الإنسان، وغيرت من طرق معيشته، والبيئة التي يسكن فيها، وقد اختلف تأثيرُ كلٍ منها حسب قوة الكارثة الطبيعية، وامتداد أثرها الجغرافي، والزمني. ومن أفضل ما قيل حول أثر "الكوارث الطبيعية" في حياة الإنسان، يقول "م. كلاوس": "تلعب الكوارثُ الطبيعية دورًا ذي خصوصية في خضم ذاكرة البشر..والانطباع المؤثر عن هذه الكوارث فيما مضى أكثر عُمقًا، حيث لم تكن هناك تفسيرات علمية في متناول اليد، بل كانت أية ظاهرة طبيعية تخرج عن مسارها الطبيعي، تُفسر على أنها هجوم من الآلهة"[2]. وهذا يُشير بشكلٍ

---

(١) من المهم في هذا الصدد تعريف معنى كلمة أو مصطلح "التاريخ"، حيث يذكر البعضُ أنه يعني في رأي البعض اللغة: "الإعلام بالوقت وقال آخرون: "التاريخ تعريف الوقت والتوريخ، ويقال: أرخت، وورخت (انظر السخاوي: الإعلام بالتوبيخ لمن ذم التاريخ، ص٦). وفي ذات الشأن يشير اللغوي العربي المعروف "الأصمعي" إلى دلالة ومفهوم لفظ التاريخ: "فقال بنو تميم: يقولون ورخت الكتاب توريخًا، وقيس تقول: أرخته تأريخًا.." (السخاوي: المصدر السابق، ص٦).

(٢) مانفريد كلاوس: الإسكندرية أعظم عواصم العالم القديم، ترجمة: أشرف نادي محمد، =

واضح لطُغيان ما يُعرف ب"التفسير الديني"، أو "اللاهوتي" (الكهنوتي)، لحدوث "الكوارث الطبيعية" في الماضي، وهو أمرٌ معروف لايمكن إنكاره. وكان لبعض الكوارث تأثيرٌ كبير على مُجريات الأحداث، ولعب بعضُها دورًا فيما يُعرف ب"التحقيب التاريخي"، وكذلك "التحقيب الجيولوجي"[1] لاسيما إبان العصور الغابرة، وذلك من خلال تأثير "الكارثة الطبيعية" الفاعل على أي من الأمم أو الشعوب، وكذا مدى تأثيرها على الحضارات الأخرى التي كانت معاصرة لوقوعها. ومن معلوم أن "التحقيب الجيولوجي" أقدم من زمنيًا من "التحقيب التاريخي"، لأن "التحقيب الأول" يرتبط بالأحداث الجيولوجية المبكرة من عمر الأرض، وتشكيلها منذ حقب زمنية بعيدة جدًا قبل أن يعيش الإنسان على هذه الأرض، أما "التحقيب التاريخي" فإنه مرتبطٌ بالإنسان، وتاريخه، والأحداث التي قام بها.

ويعتقد أن "الظواهر الطبيعية" كالزلازل والبراكين، والسيول، والفيضانات..الخ، وغيرها إذا تسببت في وقوع ضحايا من البشر، فإنها بذلك تحولت من مجرد "ظاهرة طبيعية" لكارثة طبيعية بسبب تأثيرها المُدمر على الإنسان. وامتد تأثير بعض "الكوارث" فيما يُعرف ب"التحقيب الجيولوجي" ذاته، وما يرتبط ب"الحقب الجيولوجية" التي مرت بها الأرض خلال تكوينها المبكر عبر ملايين السنين[2]. وأثرت بعض "الأحداث الجيولوجية" في التحقيب الخاص بالأرض قبل الإنسان، أي أننا نتحدث عن حقب بعيدة، ربما تبلغ عشرات الملايين من السنين. ولعل من

=

الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٩م، ص٢٩٨-٢٩٩.

(١) التحقيب الجيولوجي: يُقصد بهذا المصطلح تقسيم الحياة على الأرض عبر تاريخها الجيولوجي إلى مراحل، وما ارتبط بها من تغيرات جيويولجية وقعت، وساهمت في تغير شكل الأرض عبر التاريخ (وللمزيد عن ذلك، انظر ياسين صالح كريم: الجيولوجيا التاريخية، طبعة جامعة تكريت، د.ت، ص٢-٣).

(٢) ياسين صالح كريم: الجيولوجية التاريخية، ص٣.

بين ذلك حدوث ما يُعرف ب"الانشقاق الكبير" في "القارة الأم" القديمة المعروفة بقارة "جندوانة"، أو "جندوانا". وهذا الانشقاق الجيولوجي القديم كان عبارة عن حدوث شق طبيعي في الأرض، وهو ما تسبب في انفصال آسيا وأفريقيا عن بعضهما البعض، ويقال إن ذلك الانشقاق كان قد وقع منذ قرابة أربعين مليون سنة[١]. وكانت هاتان القارتان قبل ذلك الزمن تُشكلان كُتلة واحدة، وقد أدى ذلك الانشقاق لظهور "البحر الأحمر"، حيث لم يكن يوجد سوى "البحر المتوسط" القديم، وهو المعروف باسم: "بحر تيثيس"[٢]. أما هذا الانشقاق، وما نتج عنه من تداعيات، وامتداده جغرافيا صوب الشمال، وبلوغ تأثيره الجغرافي حتى بلاد الشام، وهو ما يُعرف ب"الأُخدود الأفريقي" African Rift. وفي ذات الشأن يُشير بعضُ الدارسين المُحدثين لفكرة الربط بين انهيار بعض الحضارات من جانبٍ، ووقوع "الكوارث الطبيعية" الكبرى من جانب آخر، أو ما يُطلق عليه البعضُ "فقدان شعوب تلك الحضارات السيطرة على بيئتها المادية"[٣]. ويرى الباحثُ أن فُقدان السيطرة على "البيئة المادية" يُشير بوضوحٍ لوقوع "الكوارث الطبيعية" التي قد تُصيب بعض الشعوب منذ

(١) كولين ماكيدي: أطلس التاريخ الأفريقي، ص١٦.

(٢) بحر تيثيس: الاسم القديم للبحر المتوسط منذ أقدم العصور الجيولوجية، وقبل ظهور البحر الأحمر. واسم تيثيس يوناني الأصل، وهو في الغالب يقصد بها إحدى المعبودات اليونانية القديمة، وهي التي تذكرها بعض المصادر اليونانية باسم: "الأم تيثيس"، يقول المؤرخ اليوناني المعروف "ديودور الصقلي" (وهو الذي عاش خلال القرن الأول الميلادي): "أوقيانوس مصدر = الآلهة مع الأم تيثيس، ذلك لأن المصريين يعتقدون أن أوقيانوس هو نهر النيل عندهم، وأن الآلهة نشأت على حافتيه، ومصر هي البلد الوحيد في العالم كله الذي توجد فيه مدن كثيرة أنشأها الآلهة القدماء.." (انظر ديودور الصقلي في مصر، ترجمة من اليونانية: وهيب كامل، دار المعارف، القاهرة، ٢٠١٣م، ص٣٥.

(٣)أرنولد توينبي: مختصر دراسة للتاريخ، جـ١، ترجمة: فؤاد شبل، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠١٥م، ص٤٢٨.

القدم، وربما يكون بعضُ تلك "الكوارث" في حدتها خارجةً عن سيطرة الإنسان، لدرجة أنه لم يستطع التعامل معها. وكان من أبرز "الكوارث الطبيعية" التي حدثت خلال "الحقب الجيولوجية" القديمة تلك التي تسببت في اختفاء "الديناصورات" Dinosaurs(١)، ويُطلق بعضُ الدارسين على ذلك "العصر العتيق" الذي اندثرت فيه "الديناصورات" تسمية عصر "المحنة والفناء"(٢). وتُصنف "الديناصورات" بأنها من مجموعة "الزواحف" القديمة التي عاشت على الأرض مدةً تقارب "١٤٠" مليون سنة(٣). وعاشت "الديناصورات" خلال العُصور الجيولوجية السحيقة، وتحديدًا منذ "العصر الترياسي" المتأخر Late Triassic Period، وحتى أواخر "العصر الكريتاسي" "Cretaceus Period"، وكان يعيش على الأرض آنذاك فيما يقال أكثر من ٨٠٠ نوعا منها(٤). وقد اندثرت "الديناصورات"، واختفت من الأرض منذ قرابة ٦٤ مليون سنة(٥). ولاريب أن ذلك وقع بسبب إحدى "الكوارث الطبيعية"، ويرجع سبب ذلك على وجه التحديد لوقوع بعض التغيرات والانقلابات المُناخية الهائلة التي أدت بدورها للإبادة أكثر الزواحف من الأرض آنذاك، ومن أبرزها "الديناصورات"(٦). بينما يذهب آخرون إلى أن اختفاء "الديناصورات" كان بسبب سقوط قذائف من السماء على الأرض، ويُقصد بها أنواعٌ من الشُهب والنيازك، وكانت فيما يقال هائلة الحجم، ومن ثمة تسبب في حدوث ارتفاعات كبيرة في درجات الحرارة بسبب ارتطامها الشديد بالأرض، ثم احتراقها، وهو ما تسبب في

(١) الديناصورات: للمزيد عن الديناصورات، وأصلها، وخصائصها، انظر جي. إتش. ويلز: معالم تاريخ الإنسانية، ج١، ترجمة: عبدالعزيز توفيق جاويد، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ٢٠١٨م، ص٤٩-٤٧.

(٢) ويلز: معالم تاريخ البشرية، ج١، ص٤٩.

(3) The Cambridge Paperback Encyclopedia, Edited by: David Crystal, Cambridge University Press, 2000, P. 253.

(4) Ibid, P. 253.

(5) Ibid, P. 253.

(٦) ويلز: معالم تاريخ البشرية، ج١، ص٥١.

هلاك "الديناصورات"[1]. ولاريب أن اختفاء "الديناصورات" يُعد من الأحداث الكبرى في تاريخ الأرض، أو ما يُعرف ب"التحقيب الجيولوجي"، أي قبل وجود الإنسان على الأرض بملايين السنين. ومن الأحداث المُهمة إبان العصور القديمة ما يذكره البعضُ عن اندثار"قارة الأطلانتس" (أو "أطلنتيس") Atlantis[2]، واختفاء الشعب الذي سكن تلك البلاد، وكان يحمل ذات الاسم، واندثار الحضارة التي أقامها. وكان الكهنة المصريون في معبد "سايس" بالدلتا أول من تحدث عن "الأطلانتس"، ثم تحدث الإغريقي "صولون" Solon (ت: ٥٦٠ ق.م) عن اختفاء هذا الشعب، ويذكر أنه سمع تلك القصة من كهان مصر خلال إقامته بها، ثم نقل "صولون" قصة هذا الشعب بعدئذ لليونان، ثم تحدث عنها بعده بحوالي قرنين "أفلاطون" Plato (ت: ٣٤٧ ق.م)[3]. ويعتقد أن "الأطلانتيس" كان شعبًا ذا مدنيةٍ مُتقدمة منذ أكثر من ٣٠٠٠ عام، أو أكثر، وكانوا يسكنون فيما يقال في منطقة ما تقع ب"المحيط الأطلنطي"، ويشير البعضُ إلى أنهم ربما عاشوا في منطقة ليست بعيدة عن مضيق "جبل طارق"، وبحسب بعض المصادر اشتهرت بلاد "الأطلانتس" بحدائقها المعروفة ب"حدائق هيسبريديس"[4]. بينما يصف آخرون حضارة "الأطلانتس" بأنها أقرب إلى "الأسطورة" أكثر من كونها قصة شعب حقيقي، وعلى هذا يُطلق على

(١) المرجع السابق، ص٥١.

(٢) للمزيد عن شعب الأطلنتس (أطلانطيس)، واصله، انظر ويلز: معالم تاريخ الإنسانية، ص١٧٨-١٧٩.

(3) Oliver D. Smith: The Atlantis Story an Authentic Oral Tradition, Shima Journal, Vol. 10. No. 2, 2016, PP. 8-9. Tom Gravey: Plato's Atlantis Story, Aprose Hymn to Athena, Greek, Roman & Byzantine Studies, No. 48, 2008, P. 382.

(٤) ويلز: معالم تاريخ الإنسانية، ص١٧٨. ومن الواضح أن اسم هسبريديس يغلب عليه الأصل اليوناني، ويتضح فيه لفظ براديس (أو برديس) التي تعني الجنة في أكثر اللغات الأوروبية.

تلك البلاد اسم: "القارة المفقودة"، أو "أطلانتس المفقودة"[1]. ولاتزال قصة "الأطلانتس"، وحضارتهم، يحيط بها الكثير من الغُموض حتى يومنا هذا. ومن جانبٍ آخر، أدت "الكوارث الطبيعية"، لاسيما ما يرتبط بوقوع "الجفاف" و"المجاعات" وما شابه من الأحداث الطبيعية لهجرات بشرية واسعة من بعض المناطق لأقاليم أخرى أكثر استقرارا، وهو ما ساهم في إحداث "تحقيب تاريخي" جديد، ولعل منها على سبيل المثال تلك التغيرات المناخية الشديدة التي وقعت في نطاق "الصحراء الكبرى" منذ آلاف السنين، وهو ما أدى لنزوح أعداد كبيرة من السكان[٢].

ويُحدد البعض الحقبة التي حدثت فيها تلك الهجرات البشرية لما قبل القرن "العاشر" قبل الميلاد[٣]. وأدت تلك الموجة من الجفاف، والمجاعات، لهجرات جماعات من شمال أفريقيا شرقا، ثم استقرت غرب مصر. وبرزت من بين تلك الجماعات "أسرة بربرية" خرج منها شخصٌ نال أهمية كبيرة، وهو "ششنق الأول" Shoshenq (٩٤٥-٩٢٥ ق.م)[٤]، ويكتب

---

(١) المرجع نفسه، ص١٧٨.

(٢) ترجع التغيرات المناخية التي حدثت في نطاق "الصحراء" لحقب عديدة لما قبل القرن ١٠ ق.م، وكذلك خلال القرن ٧ ق.م وبعده، وقد أدت بدورها للعديد من الهجرات من هذه المنطقة، وللمزيد عن ذلك، انظر أوليفر: موجر تاريخ إفريقية، ترجمة:دولت أحمد صادق، سلسلة دراسات إفريقية، الدار المصرية للتأليف، القاهرة، ١٩٦٥م، ص٢٦، وانظر أيضًا جراية محمد رشدي: الصحراء =

= الجزائرية خلال العصر الحجري الحديث، رسالة ماجستير، كلية العلوم الانسانية والاجتماعية، جامعة منتورة (قسنطينة)، الجزائر، ٢٠٠٨م، ص٣٠.

(3) Toby Wilkinson: Dictionary of Ancient Egypt, Thames & Hudson World of Art, London, 2005, P. 228.

(٤) ششنق: ملكٌ من أصولٍ بربرية، وتحديدًا من قبائل "الماشواش" القديمة، وتذكر إحدى اللوحات الأثرية التي أقامها أحد الكهنة في أهناسيا بصعيد مصر الأوسط، ثم وضعت في "السيرابيوم" أن "ششنق الأول" كان من أسرة ليبية استقرت وقتا ما في احدى الواحات بصحراء مصر الغربية، ويرجح البعض أنها الواحات البحرية. ثم رحلت هذه الأسرة إلى أهناسيا، واستقرت بها منذ ستة أجيال، وهي تنحدر في الأصل لشخص اسمه: =

اسـمه: "شاشـانق"[1]، وهـو الـذي ارتقـي عرش مصر حوالي منتصف القرن ١٠ ق.م، ومـن ثـم أسيس "أُسـرة ملكيـة" جديـدة، ولكنها كانـت مـن أصـول "غيـر مصـرية"، وهي الأسرة "الثانية والعشرون".

ويرى البعض أن الملك "ششنق الأول" كان في الأصل من قبائل "المشواش" البربريـة، وقيـل أيضًـا إن أجـداده الأوائـل كـانوا مـن قبائـل "التحنـو"[2]. ومـن المعلوم أنهم من قبائل البربر القدامى، وكـانوا مـن قـاطني شـمال أفريقيـا فـي الأصل. وكان جد "ششنق" يُدعى بذات الاسم، وكان يلقب ب"رئيس المشواش العظيم"[3]. وهـذا يُشـير لوجـود هجـرات كبيـرة مـن بطـون "البربـر" آنـذاك، ولهـذا فمن المُعتقد أن أعدادهم كانت كبيرة، وكـان لهـذه الجماعـات رئـيس يتـولى

=

"بوبـو- واوا"، وقيـل: كـان اسـمه: "بيـواوا" Buyuwawa (فيمـا يـذكر برسـتد) وكـان معاصـرًا لآواخـر "عصـر الرعامسـة"، وكانـت هذه "العائلة البربرية" قد بدأت تمصرها فـي منطقـة الواحـات، وتـأثروا بالعقائـد المصـرية آنذاك، ولهذا صار موسن بن بوبوواوا كاهنا لمعبود أهناسيا (حري شف)، ثم زاد ثراء هذه الأسرة، وزاد نفوذها بمرور الوقت. ثـم صـار ابنـه ششـنق رئـيس الحاميـة الليبيـة فـي المنطقة، وجمع في يده السلطتين الدينية والحربيـة، ثـم خلفـه ابـن نمـرودن ثـم جـاء ششـنق المعـروف الـذي كـان طموحـا، ومـد نفوذه فـي الـدلتان وجعـل تـل بسـطة مركـزا لـه، وصـار قائـدا للجيش. ولـم يقـم ششـنق بثورة ضد الملك بسوسنس، بل انتظر حتى مـات الملـك، وأحسـن الملـك ششـنق الأول لعائلـة الملـك السـابق، كمـا أنـه زوج ابنـه أوسـركون مـن ابنـة الملـك "بسوسـنس" (للمزيـد، انظـر ج. ه. برسـتد: فجـر الضـمير، ص٣٥٦-٣٥٧، انظـر كـذلك أحمـد فخـري: مصر الفرعونية، ص٤١٦-٤١٧).

(١) أحمد فخري: مصر الفرعونية، ص٤١٧.

(٢) وللمزيـد عـن أجـداد "ششـنق الأول، انظـر برسـتد: فجـر الضمير، ص٣٥٦. ويرى برسـتد أن هذه الأسرة ذات الأصل البربري صار لها نفـوذ كبيـر فـي الـدلتا أيام الأسرة ٢١، وكانـت لهم كلمة مسموعة مع ملوك هذه الأسرة. وعـن ارتقـاء ششـنق العـرش، يقـول برسـتد: "وفـي عـام ٩٤٥ ق.م تمكـن رئـيس هـذه الأسـرة مـن الاسـتيلاء علـى عـرش مصـر، والتربع فيه بمدينة تل بسطة شرق الدلتا. ويعتبر هذا التغير الملكي إما نتيجة ضعف آخر ملوك الأسرة الحادية والعشرين، وإما نتيجة وفاته، وانقراض ذريته.." (برستد: فجر الضمير، ص٣٥٦).

(٣) ج. ه.برستد: المرجع السابق، ص٣٥٦.

أمـرهم. وصـار "ششـنق الأول" قائـدًا للجـيش المصـري خـلال حكـم الملـك "بسوسنس"، ثم ارتقى "ششنق" عرش مصر من بعده، وجدير بالذكر أن البعض يُطلق على هذه الأسرة اسم "الأسرة الليبية"[1]. ويُعتبر ذلك الحدث بداية مرحلة "تحقيب تاريخي" مُهمة في تاريخ مصر القديمـة، ونـتج ذلـك التحقيـب الجديـد بسبب التغيرات الطبيعية والمناخية التي حـدثت فـي شـمال أفريقيـا التـي أدت لهجرات جماعات من البربر صوب الغرب، ثم صار أحد هؤلاء من الأجيال اللاحقة ملكًـا علـى مصـر، وهـو مـا يؤكـد ذات الفكـرة التـي تقـوم علـى أن أحـداث الطبيعة لها تأثير كبير في تاريخ الإنسان، وظهور تحقيب تاريخي جديد. ومن بين الأحـداث الأخرى الغامضـة إبـان العصـور القديمـة التـي وقعـت بسـبب "الكـوارث الطبيعية"، ما تذكره بعض المصادر عن اختفـاء جـيش الملـك الفارسـي "قمبيـز" (٥٣٠-٥٢٢ ق.م)، أو هـلاك هـذا الجـيش فـي صـحراء مصـر الغربيـة حـوالي سـنة ٥٢٥ ق.م، ومـن الـراجح أن ذلـك كـان بسـبب هبـوب ريـاحٍ عاتيـة علـى الجنـود الفرس، ومن ثم أهلكتهم هذه الرياح[2]. ويُشـير الـبعضُ إلـى أن "قمبيـز" لمـا استولى على مصر أراد أن يهدم "معبد أمـون" فـي واحـة سـيوة المعـروف بـ"معبـد الـوحي"، وكانـت لـه شـهرة واسعة في العالم القديم، لأنه علم أن كهنـة أمـون زعمـوا بـأن مصيره سـوف يكـون الهـلاك، ومـن ثـم أراد أن ينـتقم مـنهم، وأن يثبـت أن نبـؤاتهم ليسـت حقيقيـة[3]. ثم أرسل "قمبيز"جيشًا كبيرًا من طيبة (الأقصر) غربًا عبر الصحراء، ثم وصـل الجنـود الفـرس إلـى "الواحـات الخارجـة" بعـد ٧ أيام منذ بدء مسيرهم، ثم اتجهوا بعد ذلك نحو "واحة سيوة"، ويُعتقد أن هذا الجيش هلك كله قبل أن

---

(1)Toby Wilkinson: Dictionary of Ancient Egypt, P. 228.

(٢) وللمزيد عن قمبيز، انظر ول ديورانت: قصة الحضـارة، المجلـد ١، الهيئـة المصـرية العامـة للكتـاب، القـاهرة، ص٤٠٥. وانظـر فخـري: واحات مصر، ج١ (واحة سيوة)، الهيئة المصرة العامة للكتاب، القاهرة، ص١١٠.

(٣) أحمد فخري: مصر الفرعونية، ص٤٥٩.

يصل "سيوة" بسبب العواصف والرياح الرملية الشديدة. وأهلكت العواصف الجنود الفرس عن بكرتهم، ولم ينته الأمر عند ذلك، إذ إن الرياح من شدتها طمرت هؤلاء الجنود تحت الرمال، ولم يعد لهم أثر بعد ذلك[1].

ويذكر "هيرودوت" Herodotus (عاش سنة ٤٤٥ ق.م) أن قوام الجيش الفارسي الذي هلك بالصحراء كان يبلغ حوالي ٥٠ ألف جندي[2]. وعن هلاك تلك الحملة بسبب "الكوارث الطبيعية"، يقول هيرودوت: "هناك على أية حال قصةٌ يحكيها الأمونيون (سكان واحة سيوة)، وغيرهم ممن سمعوا منهم، فحواها أنه بعد أن ترك الرجال (أي الجنود الفرس) الواحة، وبينما كانوا يتناولون طعام الغذاء، هبت ريح جنوبية بالغة العنف، فأهالت الرمال أكوامًا عليهم، وهكذا هلكوا إلى الأبد.."[3]. ويرى البعضُ أن سبب هلاك هذا الجيش، وخسائر قمبيز الأخرى جعلت ملك فارس يُصاب بالجنون، ويقال إنه مات منتحرًا بعد ذلك[4]. بينما يذكر "هيرودوت" أن "قمبيز" كان قد أُصيب بلوثة وجنون شديد بسبب هلال جيشه في الصحراء الكبرى، وأنه مات وهو في طريق العودة من مصر إلى بلاد فارس[5]، هكذا كان تأثير "الكوارث الطبيعية" في تاريخ الإنسان، وحدوث تحقيب تاريخي جديدة، ولاسيما بعد تسببها في خروج الفرس من مصر.

ومن بين الأحداث الأُخرى التي كان للطبيعة تأثيرُ فيها أنه في حوالي سنة ٢٢٤ ق.م وقع زلزالٌ عنيف في بعض المناطق بالبحر المتوسط، وتحديدًا بالقرب من "جزيرة رودس"Rhodes، وهي واحدة من الجزر اليونانية[6]. وقد أدى

(١) **المرجع نفسه، ص٤٥٩.**

(٢) أحمد فخري: واحات مصر، ص١١٠.

(٣) هيرودوت يتحدث عن مصر: ص٥٥، وانظر أيضا أحمد فخري: واحات مصر، ص١١٠.

(٤) ول ديورانت: قصة الحضارة، المجلد الأول (٢/١)، ص٤٠٦.

(٥) هيرودوت يتحدث عن مصر: ص٥٥.

(6)Lynne Sable & Philip Steele: 1000 Great Events, Hamlyn Publishing Group, London, 1977, P. 33.

هذا الزلزال إلى تهدم "عملاق رودس" Colossus of Rhodes المعروف الذي كان قد أقيم خلال الفترة (٣٠٠-٢٨٠ ق.م)[١]. وكان هذا التمثال الضخم أحد عجائب العالم القديم، وكان ارتفاعه حوالي ١٠٠ قدم، أو ما يعادل ٣٠م[٢]. وكان هذا التمثال الضخم يقف عند مدخل ميناء جزيرة "رودس"، وكان يصور "أبوللو" (أو هليوس)، وهو معبود الشمس عند الإغريق، وكان قد صممه الفنان "كاريس" Chares، وعلى أية حال لم يبق هذا التمثال سوى قرابة ٥٠ سنة في موضعه، ثم سقط بعد ذلك بسبب هذا الزلزال[٣]. وعلى هذا فقد صار هذا الأثر الذي كان من العجائب في زمانه أثرًا بعد عين بسبب إحدى "الكوارث الطبيعية" التي تسببت في تدميره.

(1) Ibid, P. 33.

(٢) ليونارد كوتريل (وآخرون): الموسوعة الأثرية العالمية، ترجمة: محمد عبدالقادر محمد، وزكي اسكندر، مراجعة: عبدالمنعم أبوبكر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ط٢، ١٩٩٧م، ص٢٩٣.

(3) Lynne Sable & Philip Steele: 1000 Great Events, PP.33.

وخلال القرن الميلادي الأول اختفت مدينة "بومبي"Pombeii بسبب إحدى "الكوارث الطبيعية" والتي كانت نادرًا ما يكون لها تأثير في مجرى الأحداث، ولعل ذلك بسبب قلة ما ورد عن تأثير هذه الظاهرة، وهي "البركان" Volcano. وتقع "بومبي" في مواجهة "خليج نابولي" Bay of Naples، وكانت المدينة مكانًا للترفيه، غير أنه في أغسطس سنة ٧٩م، نشط بركان "فيزوف" Vesuvius Volcano قريب المدينة، وكان خامدًا لمدة من الزمن، وفجاة نشط البركان، وكانت ثورته عنيفة، فألقى ب"اللافا" على السكان القاطنين في المناطق القريبة له[٤]. واستمر نشاط "بركان فيزوف" قرابة يومين، وكان نشاطه بمثابة كارثة لايمكن تصورها على سكان المناطق القريبة منه لاسيما بومبي، وهو ما أدى لاختفاء المدينة بالكامل[٥]. وتم الكشف عن تلك المدينة

(4) Ibid, P. 51-52.

(5) Ibid, P. 51.

المفقـودة التـي طواهـا النسـيان سـنة ١٧١٠م، ولمـــا رفعـــت أنقـــاض البركـــان، وعـوادم الزمن، ظهرت مدينـة "بـومبي" كما كانت فـي زمانها منذ حوالي ١٩ قرنًا مـرت علـى اختفـاء هـذه المدينـة تحـت بقايا بركان "فيزوف"[١]. ولعل هذا الحدث يؤكد ذات الفكرة التي نطرحها، وهـي أن "الكـوارث" قـد تكـون حاسمة فـي حركـة "التحقيـب التـاريخي"، وفـي مسـارها، لاسيما مـن خـلال دور تلك الكـوارث فـي اختفـاء بعــض المــدن، أو الحضــارات، أو حتـى انـدثار بعـض الشـعوب القديمـة، وعلـى هـذا صارت "بـومبي" فـي طـي النسيان، وأضحت مدينـة مفقـودة مـدة طويلة، حتى تـم الكشف عنها منذ أقـل من عقدين من الزمان.

ثالثًا-أثرُ الكوارث الطبيعية في التحقيب منـذ القـرن ٤م حتـى آواخـر العصـر الوسيط:

تنوعــت أنمــاطُ "الكـــوارث الطبيعيـــة"، وأشـكالها، ومـدى تأثيرهـا علـى النطـاق الإقليمي الذي وقعت فيه خلال القرون الأولـى للميلاد، ومـا بعـدها حتـى نهايـة القرن ١٥م. وتباينت أشكال تلك الكـوارث مـا بـين الـزلازل، والطـواعين، والأوبئـة، وكـذلك الجفاف، والمجاعات، وكـان لكـل منها أسـباب تختلـف عـن الأخـرى. ومـن أهـم الأحـداث خـلال تلك المرحلة اختفاء الكثيرُ من معالم "كريت" القديمة بسبب أحـد الـزلازل الـذي وقـع إبـان القـرن ٤ الميلادي (حوالي سنة ٦٥م)، وهو ذاتـه الذي تسبب أيضًا في اختفاء أجزاءٍ كبيرة مـن تُـراث البحـر المتوسـط، وأدى لانـدثار بعض المدن[٢]. ونظرا لشدة هذا الزلـزال، يصفه البعض بأنه "تسونامي كريت"[٣]. كما يطلق عليه "مانفريد كـلاوس" بأنـه "تســـونامي ســـنة ٣٦٥م": "ويعتقـــد العلماء أن تسـونامي عـام ٣٦٥م يرجـع

(1) Ibid, P. 51.

(2) Vera verner: Traces of the Late Bronze Age Santorini and AD 365 Tsunami events in the Sedimentary Record of Crete, Reconstruction of the regional Tectonic geomorphology, mainz, 2019, P.1-2.

(3) Ibid, P.1-2.

إلـى زلـزال مـدمر للغايـة بـالقرب مـن شـواطيء كريـت، لدرجـة أنـه جعـل قـاع البحـر يرتفـع عنـد الشـواطيء المصـرية، ويتحـول إلـى أرض زادت عليهـا طبيعـة الدلتا المتغيرة.."[1]. ويعتقد أنه كان من أبرز تـأثيرات هـذا الزلزال أيضًا اختفاء أجزاء كبيـرة مـن "الاسـكندرية" القديمـة تحـت ميـاه البحـر، ويصـف "مانفريـد كـلاوس" تـأثير هـذا الزلـزال علـى الإسـكندرية بأنـه بمثابـة "يـوم الفـزع" علـى سـكان هـذه المدينـة[2]. وكانـت تلـك المنطقـة التـي اختفـت تحـت ميـاه البحـر والمعروفـة ب"حي هيراقليـوم" من الأحياء القديمة بالإسكندرية، وعثرت عليه إحدى البعثات منـذ نحـو عقـدين بقيـادة "جـون إيـف أُمبرور"[3]. وتم رفع بعض الآثار من قاع البحر، غير أنه بقيت أكثر الآثار مُتناثرةً في قاع البحر نظرًا لضخامة بعضها، وصعوبة رفعهـا. وحتـى الآن لاتـزال كتـل منـارة الإسـكندرية التـي سـقطت أجـزاءٌ كبيـرة منهـا فـي البحـر بسـبب زلازل وقـع بالإسـكندرية فـي القـرن ١٤م، ثـم بنيـت على أنقاضها "قلعة قايتباي"[4]. ويصف أحـدُ المـؤرخين القـدامى مـا وقـع مـن تأثيراتٍ مُدمرةٍ بسبب هذا "التسونامي": "إن الأمـواج العاتيـة حطمـت مـدنًا كثيـرة في فلسطين، وفي كل ليبيا، وكل مدن صـقلية تحولـت لحطـام، كمـا حطمـت الأمـواج كـل جـزر اليونـان مـا عـدا جزيـرة نيكايـا.."[5]. وهـذا يؤكـدُ أن الـزلازل قـد يكون لها تأثيرٌ كبير في الأحداث التاريخية،

(١) مانفريد كلاوس: الإسكندرية أعظم عواصم العالم القديم، ص٣٠٠.

(٢) المرجع نفسه، ص٢٩٨.

(٣) وعـن إعـادة اكتشـاف تـراث الإسـكندرية القـديم، انظـر جـان إيـف أمبـرور (وآخـرين): الإسكندرية ملكـة الحضارات، الهيئـة المصرية العامـة للكتـاب، القـاهرة، ٢٠٠٧م، ص١٨٣. وللمزيـد عـن ذات الأمـر، انظـر مانفريـد كلاوس: الإسكندرية، ص٣٠٢.

(٤) جان إيف أمبرور: الإسكندرية ملكة الحضارات، ص١٩٥. وكان هذا الزلزال قد وقع في سنة ١٣٠٢م، وتسبب فـي سقوط جزء كبير من منارة الإسكندرية، وللمزيد عن ذلك، انظر: Yousrya Abdel-Aziz Hosni: Le Guide Historique et Archeologique d'Alexandrie, Le Conseil Supreme des Antiquites, le Caire, 2009, PP. 26-27.

(٥) مانفريد كلاوس: الإسكندرية، ص٣٠١.

ومن ثم في حركة التحقيب في مناطق البحر المتوسط، وغيرها. ومن جانبٍ آخر، ضعُفت العديد من "الأُسرات الملكية" بسبب الأوبئة والطواعين خلال "العصر الوسيط"، وقد ارتبطت هذه الحقبة بالكثير من الأحداث المهمة، لاسيما ما يرتبط بوقوع أنماط من "الكوارث الطبيعية" التي كانت قد ضربت العديد من شعوب العالم في ذلك الوقت. ويُعتبر المقريزي (ت: ٨٤٥هـ) من أهم مؤرخي "العصر الوسيط" الذين تناولوا وقوع "الكوارث الطبيعية" في ذلك الوقت لاسيما في كتاب "إغاثة الأُمة بكشف الغُمة"[١]، وتحدث عن الأوبئة والطواعين التي ضربت مصر، وغيرها من البلاد عبر التاريخ ابتداء ب"طاعون عمواس" سنة ١٨هـ، إبان خلافة "عمر بن الخطاب" (١٣-٢٣هـ)، وتسبب في هلاك عدد من الصحابة[٢]. كما أفاض بالحديث عن الأوبئة والطواعين أيام المماليك (٦٨٤-٩٢٣هـ)، ولعله يكون أفضل من تحدث في هذا الشأن، لأنه من أبرز مؤخي حقبة المماليك، وكان قريبًا من أحداثها، والكوارث الطبيعية التي أصابت الناس آنذاك، وكانت الأوبئة والطواعين العديدة التي أصابت المسلمين في ذلك الوقت قد أرهقت دولة المماليك، وكذلك البلاد التي كانت حكمهم[٣]. ولم يكن مُستغربا أن يُشير بعض المؤرخين إلى أن الأوبئة والطواعين كانت من أهم العوامل التي أدت لضعف دولة المماليك، ثم سقوط هذه الدولة في نهاية المطاف[٤].

كما أن وقوع بعض "الكوارث الطبيعية"،

(١) المقريزي: إغاثة الأمة بكشف الغمة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٩م، ص٦٣-٦٤.

(٢) طاعون عمواس: طاعون وقع بالشام في خلافة عمر بن الخطاب، وتسبب في موت =

= عدد من الصحابة (تاريخ الطبري، ج١، اختصار: على الجندي، هيئة الكتاب، القاهرة، ٢٠١٤م، ص٧٢، وانظر أيضًا ابن الأثير: أُسد الغابة (المختصر)، اختصار: محمد إبراهيم عوض، هيئة الكتاب، القاهرة، ٢٠١٨م).

(٣) المقريزي: إغاثة الأمة، ص٦٣-٦٤.

(٤) ستانلي لينبول: سيرة القاهرة، ترجمة: حسن إبراهيم حسن، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٧م، ص١٨٣.

أو مظاهرها، على غرار الطاعون والأوبئة، أو الجفاف والقحط..الخ، كانت سببًا في إضعاف بعض السلاطين، ومن ثم انهيار حكمهم، ومن ذلك ما وقع أيام السلطان "العادل كتبغا" (٦٩٤-٦٩٦هـ)[١]. وبحسب رواية المقريزي (ت: ٨٤٥هـ) وقع في مصر وبعض بلاد المشرق الجفاف والمجاعات في حوالي سنة ٦٩٥هـ، ومن ثم وقعت الأوبئة والأمراض بعد ذلك، وهو ما أدى لهلاك أعداد كبيرة من الناس[٢]. وفي ذات الرواية التي أوردها "المقريزي" يذكر أنه كان من أسباب الطاعون هبوب ريح جاءت من تخوم "برقة"، وأدت هذه الريح لهلاك الزرع، وفساده، وانتشرت بسببها الأمراض والأوبئة[٣]. وعن هذا الطاعون، يقول "ابن كثير" (ت: ٧٧٤هـ): "وفي مستهل هذه السنة (أي سنة ٦٩٥هـ) كان الغلاء والفناء بديار مصر شديدا جدًا،

(١) المرجع نفسه، ص١٨٣.

(٢) المقريزي: إغاثة الأمة بكشف الغمة، ص٦٤.

(٣) المصدر نفسه، ص٦٤.

وقد تفانى الناس إلا القليل"[٤]. وفي رواية، يصف "النويري" (ت: ٧٣٣هـ) هذا الطاعون ب"الفناء العظيم"[٥] في إشارة لما تسبب فيه الطاعون في إفناء وهلاك أعداد هائلة من الناس. ويرى البعضُ أن أشد الأزمات التي عاني منها سلاطين المماليك كانت تحدث بسبب انخفاض منسوب نهر النيل، وكانت الأمورُ الأمور سوء إذا أصابت الناس صنوفٌ من الأوبئة والأمراض في ذات الآن[٦]. بينما يذكر النويري: "واستهلت

(٤) ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٣، تحقيق: أحمد أبوملحم، دار الكتب العلمية، بيروت، د. ت، ص٣٦٣.

(٥) النويري: نهاية الأرب، ج٣١، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٢م، ص٢٩٣.

(٦) سعيد عاشور: مصر في عصر سلاطين الأيوبيين والمماليك، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٣م، ص٤٣٧. وعن أهم أسباب الأزمات أيام المماليك، يقول سعيد عاشور: "وعلى الرغم من المتاعب والأزمات التي تعرض لها الناس أحيانا في عصر سلاطين المماليك بسبب انخفاض النيل، وانتشار الأوبئة، أو بسبب الفتن بين طوائف المماليك، أو عسف بعض الحكام" (مصر في عصر سلاطين الأيوبيين والمماليك، ص٤٣٧).

سنة خمس وتسعين وستمائة، في هذه السنة اشتد الغلاء بالديار المصرية، وكثر الوباء"[١].

ويُفهم من هذه الرواية أنه وقعت المجاعة أولاً، ثم تبعها "الطاعون"، وهو ما يبدو واضحًا في أكثر الروايات، مثل المقريزي، وغيره. وعن وقوع الطاعون وما ارتبط به من الجوع والغلاء، يقول "ابن تغري بردي" (ت: ٨٧٤هـ): "السنة الثانية من ولاية الملك العادل كتبغا على مصر، وهي سنة خمس وتسعين وستمائة، فيها كان الغلاء العظيم بسائر البلاد، ولاسيما مصر والشام، وكان بمصر مع الغلاء وباء عظيما أيضا، وقاسى الناس شدائد في هذه السنة"[٢]. ويذكر "المقريزي" أنه في سنة ٦٩٥هـ وقع بالناس غلاءٌ شديد، واشتدت الأُمور على الناس، ورغم ذلك كانوا ينتظرون فرجًا قريبًا، وكان الناسُ يُمنون أنفسهم بمجيء موسم الغلال لتنضبط الأمور في بلادهم[٣]. ولما أدرك الناسُ وقت الحصاد، وصاروا أقرب ما يكون منه، وقع البلاء[٤]. وثمة رواياتٌ تشير إلى أن أصل هذا "الطاعون"، ومبدأه الأول، أنه هبت ريحٌ عاصفة قادمة من التُخوم الغربية، وكانت العاصفة تحمل ترابًا يميل للصُفرة، ثم غطت تلك الأتربة الهائلة الحقول والزراعات، مما تسبب في إفساد المزروعات والمحاصيل، وهو ما أدى لوقوع الجفاف والقحط الشديد بمصر. ولعل هذا يشير لشدة البلاء الذي وقع بالناس آنذاك، وأن الأمراض انتشرت بهم،

(١) النويري: نهاية الأرب، ج٣١، ص٢٩٣.

(٢) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٨، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، ٢٠٠٨م، ص٧٨-٧٩.

(٣) النويري: ج٣١، ص٢٩٣.

(٤) وعن ذلك الذي حدث، يذكر المقريزي: "وكان قرب أوانها، فعند إدراك الغلال، هبت ريحٌ سوداء مُظلمة، من نحو بلاد برقة هبوبًا عاصفًا، وحملت ترابا أصفر كسا زُروع البلاد، فهافت كُلها (أي ذبلت)، ولم يكن بها إذ ذاك إلا زرع قليل، ففسدت بأجمعها، وعمت تلك الريح والتراب إقليم البحيرة، وإقليم الشرقية، ومرت إلى الصعيد الأعلى، فهاف الزرع، وفسد الصيفي من الزرع، كالأرز، والسمسم، والقلقاس، وقصب السكر، وسائر ما يزرع على السواقي، فتزايدت الأسعار.." (إغاثة الأمة، ص٦٣).

وكان أبرزها ما يرتبطُ بمرض "الحُمى"، وهو المرضُ الذي يرتبط بشدة ب"الطاعون" أكثر من غيره. ولعل إشارة المقريزي في هذا الصدد بأن المرض والحميات أصابت سائر الناس يبين بوضوح أن الأمراض والحمى أصابت كثيرين آنذاك. ثم يكمل المقريزي تلك الصورة المأساوية، حيث اختفت من الأسواق الأدوية والأعشاب التي كان يحتاجها المرضى للتداوي من الأمراض التي أصابتهم، ومن ثم ارتفعت الأسعار ارتفاعات هائلة[١]. ويرى الباحثُ أن تلك الريح التي تذكرها المصادر يُقصد بها في الغالب "رياح الخماسين" المعروفة[٢]، وهي رياح تهب على أرض مصر منذ أواخر الشتاء، وبدايات الصيف، وتأتي هذه الرياح من المناطق الصحراوية في الغرب[٣]. ومن المعلوم أن رياح "الخماسين" هي نوعٌ من الريح الموسمية الشديدة، والتي تتسم بسمات خاصة بها، حيث إنها رياح مُثيرة للرمال والأتربة، وفي الغالب يصحب هذه

---

(١) ومن هذه السلع المهمة: العسل والسكر، كما انعدمت الفواكه، وصار سعر الفروج بثلاثين درهما، وبيعت البطيخة الواحدة بأربعين درهما، وكان الرطل من البطيخ يباع بدرهم واحد، وأضحى سعر السفرجل الثلاث حبات بدرهم، وكان سعر البيض كل ثلاث منها بدرهم، ومن ثم ارتفعت الأسعار إرتفاعات حادة بما لم يعتاده الناس في ذلك الوقت. كما يقول المقريزي: "وتزايد القمح إلى إلى مائة وتسعين الأردب، والشعير إلى مائة وعشرين، والفول والعدس إلى مائة وعشر دراهم الأردب.." (إغاثة الأمة، ص٦٣).

(٢) رياح الخماسين: رياح جنوبية حارة، يتكرر هبوبها بتولد أو غزو الانخفاضات الجوية الصحراوية لمصر منذ آواخر الشتاء وبدايات الصيف، وهذه الرياح تنشط مثيرة للرمال والأتربة، ثم يصفو الجو بعدها لدى دخول الهواء البارد نسبيا قادما من البحر المتوسط، وربما يمتد تأثير هذه الرياح حتى أوروبا. وخلال هبوب رياح الخماسين تكثر الحرائق في القرى والريف المصري بسبب التغيرات الفجائية في اتجاه هذه الرياح، وسرعتها، ومن المعلوم انه يرافق هبوب هذه الرياح انتشار بعض الأمراض. ويعني مصطلح الخماسين أي الخمسون يوما التالية لعيد شم النسيم (الموسوعة الثقافية، دار المعرفة (بالتعاون مع مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر)، مطابع دار الشعب، القاهرة، ١٩٧٢م، ص٤٢٩).

(٣) الموسوعة الثقافية: المرجع السابق، ٤٢٩.

الرياح انتشار بعض الأمراض، مثل: "الحصبة"، و"الأنفلونزا"، وأمراض العيون[1]. وكانت كل هذه الأحداث والكوارث الطبيعية العديد التي أصابت مصر، وغيرها من بلاد المشرق الإسلامي أيام السلطان كتبغا أدت لوجود قناعة لدى الشعب بأن حكم هذا السلطان نذير شؤم على الناس، وأنه لابد من الخلاص منه[2]. كل تلك الأمور تؤكد فكرة الارتباط الوثيق بين "الكوارث الطبيعية" و"التحقيب التاريخي"، ولاسيما كون تلك الكوارث عاملاً مؤثرا في إضعاف بعض الدول والإمبراطوريات عبر التاريخ، وكذا دورها في انهيار حُكم أحد الملوك.

رابعًا- الإنسانُ وقُدرتهُ على التَكيُف مع بعض الكوارث الطبيعية:

نُورد في هذا المبحث جانبا من قدرة الإنسان والتي ربما يكون من الإنصاف أن ننعتها بأنها كانت محدودة في التعامل مع الظواهر الطبيعية عبر التاريخ، ومحاولة احتوائها، ومن أبرزها "الرياح الموسمية "Seasonal Winds ، وهي نوعٌ من الرياح العاتية تهب على المحيط الهندي، أو بحر الهند حسب مصادر العصر الوسيط[3]. ولعل قدرة الإنسان في ذلك الوقت على التعامل مع تلك الظاهرة الطبيعية هو ما أدخلها في إطار الظواهر وليس الكوارث، لكنها كانت في وقت ما تُشكل أحد أنماط "الكوارث الطبيعية" على التُجار والبحارة. وكانت هذه الرياح تهبُ مرتين في العام، مرة صوب سواحل شرق أفريقيا، والأخرى قادمة من الغرب في إتجاه جنوب شرق آسيا، وجزر المحيط الهندي[4]. وأدت هذه

(١) المرجع نفسه، ص٤٢٩.

(٢) ستانلي لينبول: سيرة القاهرة، ص١٨٣.

(٣) المسعودي: مروج الذهب، ج١، تحقيق: مصطفى السيد، المكتبة التوفيقية، القاهرة، د.ت، ص٨٨.

(٤) وللمزيد عن "الرياح الموسمية"، انظر المسعودي: مروج الذهب، ج١، ص٨٨، جوردون تشايلد: ماذا حدث في التاريخ، ترجمة: جورج حداد، تقديم: حسين مؤنس، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ٢٠١٨م، ص٢٧٣-٢٧٤، ف. هايد: تاريخ التجارة في الشرق الأدنى في العصور الوسطى، ج٢، =

"الرياح" لهلاك أعداد كبيرة من السفن، بمن كان عليها من البحارة، والتُجار، وغيرهم من صُنوف المسافرين[1]. ورغم ذلك إلا أن التُجار والبحارة الذين كانوا يقومون بالرحلات التجارية عبر المحيط حاولوا قدر إستطاعتهم التكيف مع تلك الظاهرة، وأخذوا يحسبون وقت هبوب الرياح في كل إتجاه، ومدى قوتها، ومن ثم بدأوا يستغلون هبوبها في رحلاتهم سواء في اتجاه سواحل شرق أفريقيا، أم في الاتجاه الآخر لجنوب شرق آسيا[2].

ويجدر بالذكر أن تلك الرياحُ لعبت دوراً في التواصل التجاري بين سواحل شرق أفريقيا، والتي يُقصد بها سواحل "بلاد الزنج"[3] من ناحية، والأسواق في مناطق جنوب شرق آسيا من ناحية أخرى، هذا رغم الصعوبات والمخاطر التي كانت تُشكلها هذه الرياح الموسمية، إلا أن سكان هذه البلاد تعلموا من خلال تجاربهم العديدة عبر السنين الطوال في الإبحار بين أمواج "المحيط الهندي" الهادرة خلال أكثر أوقاتها، وأنهم أدركوا كيفية الاستفادة من هبوب هذه الرياح، وأن يُطوعوها لخدمة تجارتهم، لاسيما وأن "التجارة" عبر "المحيط الهندي" لسكان هذه البلاد تُعد المورد الاقتصادي الذي لاغنى عنه بالنسبة لهم، وكان

=

ترجمة: أحمد رضا محمد رضا، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩١م، ص٨١-٨٤. وانظر ريتشارد هول: امبراطورية الرياح الموسمية، ترجمة: كامل يوسف حسين، مركزالامارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية، ١٩٩٠م، شوقي عبدالقوي عثمان: تجارة المحيط الهندي، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، ١٩٩٠م، ص٢٦٢.

(١) المسعودي: مروج الذهب، ج١، ص٨٤.

(٢) سليمان عبدالغني المالكي: دور العرب وتأثيرهم في شرق أفريقيا، ندوة مؤتمر العرب في أفريقيا الجذور التاريخية والواقع المعاصر، كلية الآداب، جامعة القاهرة، دار الثقافة العربية، ١٩٨٧م، ص١٢٣.

(٣) بلاد الزنج: يقصد بها البلاد التي تقع على ساحل شرق أفريقيا، وتمتد من مقدشو شمالاً وحتى ميناء سفالة (موزمبيق حاليا) جنوبا (مروج الذهب، ج١، ص٨٤، هول: الرياح الموسمية، ص٥٩. وانظر:

B. Davidson: The African Past Chronicles, Penguin African Library, London, 1966, PP. 114-115.

ذلك التعامل مع الرياح بحيث لاتُسبب لهم عائقاً للتواصل بين المواني والمرافيء الواقعة في أقصى الشرق من جانب، وأندادها الواقعة في أقصى الغرب من جانب آخر[1]. ومعلوم أنه تُطل على هذا البحر (أي المحيط الهندي) سواحل العديد من البلدان، ومنها: الصين، وبلاد الهند، والسند[2]، وكذا عُمان، وعدن، وبلاد الزنج..وغيرها[3]. ويُوصف "المحيط الهندي" بأنه بحر ذي أمواج عظيمة، وكأنها "الجبال الشواهق"، كما توصف الأمواج في هذا البحر بأنها "أمواجٌ عمياء"، ويُقصد بذلك أن البحارةُ كانوا إذا توسطوا "بحر الهند"، ودخلوا بين أمواجه، فإن هذه الأمواج كانت تبدو عاتيةً، وكانت قوية الحركة، وشديدة الاندفاع، وكانوا لايرون ما حولهم، كما كان الموجُ في داخل المحيط الهندي يرتفع بشكلٍ مُفاجيء أمام السفن التجارية مثل ارتفاع الجبال السامقة، ثم كان هذا الموجُ ينخفضُ مرة أخرى كأدنى ما يكون من "الأودية"، ومع ذلك لم تكن تنكسر أمواج هذا البحر، ثم يُضيف المسعودي في وصفه: "ولايظهر من ذلك الزَبد"[4]. وهذا يؤكد خطورة أمواج "المحيط الهندي"، وحدتها في ذلك الآن، ولاريب أنه كانت تزداد خطورة الإبحار داخل مياه هذا المحيط لاسيما مع هبوب هذه الرياح الموسمية آنفة الذكر، وعلى هذا كان على البحارة أن يتعاملوا مع هذه الرياح بأية وسيلة. وتذكر المصادر أن البحارة في هذه البلاد كانوا يعرفون آوان هذه الرياح، ووقت هبوبها بحكم التجربة، والعادة، وأنهم كانوا يتوارثون ذلك فيما بينهم، ولهم في هذه المعارف بأوقات "الرياح

---

(1) المسعودي: مروج الذهب، ج١، ص٨٨، وللمزيد عن هبوب الرياح الموسمية ودورها في تجارة المحيط الهندي، انظر سليمان عبدالغني المالكي: دور العرب وتأثيرهم في شرق أفريقيا، ص١٢١- ١٢٥.

(2) بلاد السند: يُقصد بها الأرض التي تشغلها حاليا آراضي باكستان، وانظر ابن حوقل (ت: ٣٥٠هـ/٩٦١م): صورة الأرض، شركة نوابغ الفكر، القاهرة، ط١، ٢٠٠٩م، ص٢٩٤ وما بعدها.

(3) ابن حوقل: المصدر نفسه، ص١٤٩.

(4) المسعودي: مروج الذهب، ج١، ص٨٤.

الموســـمية"علاماتٌ وإشـــاراتٌ كـــانوا يعملـــون بهـــا إبـــان[١]. وكانـــت الرحلـــة تستغرق فيما بين سواحل "البحر الأحمر" وسـواحل الهنـد حـوالي ٦ شـهور، وربمـا أقل من ذلك[٢].

بينما يقال إن الرحلة من الصين لموانيء عُمان ذهاباً وإياباً كانت تستغرق قرابة العام[٣]. ويذكر المسعودي: "ولكل من يركب هذه البحار من الناس يعرفونها في أوقاتٍ تكون منها مهابّها قد عُلم ذلك بالعادات، وطول التجارب، يتوارثون علم ذلك قولاً، وعملاً، ولهم فيها دلائل وعلامـات يعملـون بهـا إبـان هيجانـه، وأحوال ركوده، وثوراته. هذا فيما سمينا من "البحر الحبشي" والروم والمُسافرون في البحر الرومي سبيلهم، وكذلك من يركـب بحـر الخـزر الـى بـلاد جرجـان، وطبرســـتان، والـــديلم.."[٤]. وأفاضـــت المصادر فـي وصـف "المحيط الهنـدي" حيث تذكر أنـه يمتد امتداداً واسعاً من الغرب إلى الشرق، وتحديداً من أقصى "بـلاد الحـبش" (شـرق أفريقيـا)، أو بـلاد الـزنج، لأقصـى تخـوم الصـين والهنـد[٥]. ويُطلـــق المؤرخـــون علـــى "المحـــيط الهنـدي" اسـم "البحـر الهنـدي"، كمـا يُعرف ب"البحر الأخضر"، و"البحر الكبير"، و"البحـر المحـيط"[٦]. وكـان العُمـانيون

(١) المسعودي: ج١، ص٨٨، وللمزيد عن الرحلات البحرية والرياح الموسمية، انظر: www.chinatoday.com.cn

(٢) جـوردون تشـايلد: مـاذا حـدث فـي التـاريخ، ص٢٧٤.

(٣) فوه ين ده: تاريخ العلاقات الصينية العربية، ترجمة: تشانج جيا مين، انظر موقع الصين اليوم، وللمزيد في ذات الشأن انظر أيضاً: www.chinatoday.com.cn

(٤) المسعودي: المصدر نفسه، ص٨٨، وانظر أيضاً عطية القوصي: تجارة مصر في البحر الأحمـر منـذ فجـر الإسـلام حتـى سـقوط الخلافـــة العباســـية، دار النهضـــة العربيـــة، القاهرة، د.ت، ص٢٣.

(٥) مروج الذهب: ج١، ص٨٤. ويطلق ابن سعيد على هذا البحر أيضا في مواضع أخرى "بحر الهند" (ابن سعيد: كتاب الجغرافية، تحقيق: إسـماعيل المغربـي، سلسـلة ذخـائر التـراث العربـي، منشورات المكتب التجاري للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٧٠، ص٨٣، وانظر العُمري: مسالك الأبصار، ج١، ص١٠٥).

(٦) ابـن البلخـي: فـارس نامـة، تحقيـق: يوسـف الهـادي، الـدار الثقافيـة للنشـر، القـاهرة، ط١، ١٩٩٩م، ص١٤٩.

بصفةٍ خاصة أكثر من غيرهم خبرةً بهذا البحر، وبأسراره، وكانوا أعرف أهل هذا الزمان بالتجارة في مياهه، وكانوا يعلمون أحوال الرياح، وأسرارها، وأوقات هبوبها، ومن ثم كانوا أكثر الناس درايةً بالأوقات التي يُؤثِّرُ الإبحار خلالها سواء شرقاً، أي في إتجاه الصين، أم غرباً في إتجاه سواحل شرق أفريقيا[1]. وعلى هذا فقد أدرك التجارُ والبحارة العرب، وكذلك تجار بلاد جنوب شرق آسيا أسرار "الرياح الموسمية"، وأنها كانت تهب مرتين في السنة، وهو ما مكنهم من استغلال تلك الظاهرة، والقيام برحلتين من شرق آسيا صوب سواحل شرق أفريقيا. وكانت "الرحلة الأولى" تتم في موسم "الخريف" وهي المعروفة ب"رحلة الشتاء"، حيث كانت الرياح تدفعُ السفن في اتجاه جنوب غرب إلى ساحل شرق أفريقيا[2]. بينما في موسم الربيع (رحلة الصيف)، كانت الرياح تهبُ على سواحل المحيط الهندي، ومن ثم كانت الرياح تدفع السفن إلى شمال شرق، وبذلك كانت السفن قرب ساحل شرق أفريقيا تتمكن من العودة لقواعدها مرة أخرى إلى الساحل الأسيوي[3]. وعلى أية حال فيُمكن القولُ بأن "الرياح الموسمية" شكلت ما يُمكن أن يكون سراً من الأسرار التي احتفظ بها البحارة والتجار العرب أكثر من غيرهم من أندادهم، وهو ما جعلهم قادرين على السيطرة على محطات التجارة البحرية عبر سواحل المحيط الهندي[4]

---

(١) المسعودي: مروج الذهب، جا، ص٨٤.

(٢) سليمان عبدالغني المالكي: دور العرب وتأثيرهم في شرق أفريقيا، ندوة مؤتمر العرب في أفريقيا الجذور التاريخية والواقع المعاصر، كلية الآداب، جامعة القاهرة، دار =

= الثقافة العربية، ١٩٨٧م، ص١٢٣.

(٣) المرجع السابق، ص١٢٣

(٤) كرم الصاوي باز: التبادل التجاري بين شرق أفريقيا وآسيا كما يصورها البلدانيون العرب، ندوة مؤتمر التعاون العربي الأفريقي، معهد البحوث والدراسات الأفريقية، جامعة القاهرة، ٢٠٠٧م، ص٥.

الخاتمة:

وبعد هذه "الإطلالة" عبر مراحل وحقب تاريخية، يمكننا الخروج ببعض الاستنتاجات المهمة:

- أشارت الدراسةُ إلى أن الظواهر الطبيعية إذا تسببت في حدوث تدمير ووقوع ضحايا من البشر، فإنها تتحول من كونها ظاهرة طبيعية إلى ما يُعرف ب"الكارثة الطبيعية".

-أكدت الدراسةُ وجود نوعين رئيسيين من التحقيب التاريخي، وهما "التحقيب المحلي" الذي يرتبط بتاريخ أمة من الأمم، أو أي من الأقاليم، والثاني: "التحقيب العالمي"، أو التحقيب العام الذي يراد به وضع "تحقيب تاريخي" عام يجمع أكثر الشعوب مع بعضها في ذات الآن.

- أشارت الدراسة إلى أن "الكوارث الطبيعية" كان لها تأثير واضح في الحياة على الأرض وحتى قبل ظهور الإنسان، وخلال ما يُعرف ب"التحقيب الجيولوجي".

- بينت الدراسةُ أنه مع ظهور الإنسان برز دور "الكوارث" مثل: الزلازل، والبراكين، والفيضانات، والجفاف، والمجاعات، والأوبئة..وغيرها، وكان لها تأثير واضح في العديد من المراحل والحقب. وتتنوع الظواهر حسب طبيعتها، وحسب أسبابها، وحسب ما ينتج عنها، سواء كان ذلك في ذات الآن الذي تقع فيه "الكارثة"، أم تكون بعض النتائج متأخرة زمنيًا عن وقوع تلك الكارثة.

- حاول الإنسان التكيف بشكلٍ أو بآخر مع بعض أنماط "الكوارث الطبيعية" مثل الرياح الموسمية، ولاريب أن تعامل الإنسان مع هذه الرياح العاتية يشير لقدرته أحيانًا، وإن لم تكن في كل الظروف، على استغلال بعض "الظواهر الطبيعية" رغم قسوتها، وحدتها.

المصادر والمراجع

أولا- المصادر العربية:

١- ابن الأثير: أُسد الغابة، اختصار: محمد عوض، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠١٨م.

٢- ابن البلخي: فارس نامة، تحقيق: يوسف الهادي، الدار الثقافية للنشر، القاهرة، ١٩٩٩م.

٣- ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٨،

الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، ٢٠٠٨م

٤- ابن حوقل: صورة الأرض، شركة نوابغ الفكر، القاهرة، ط١، ٢٠٠٩م.

٥- ديودور الصقلي: ديودور الصقلي في مصر، ترجمة: وهيب كامل، دار المعارف، القاهرة، ٢٠١٣م.

٦- الرازي: مختار الصحاح، المطبعة الأميرية، القاهرة، ١٩٢٥م.

٧-السخاوي: الإعلام بالتوبيخ لمن ذم التاريخ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠١٨م.

٨-ابن سعيد: كتاب الجغرافية، تحقيق: إسماعيل المغربي، سلسلة ذخائر التراث العربي، منشورات المكتب التجاري للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٧٠م.

٩- الطبري: تاريخ الطبري، ج١، اختصار: على الجندي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠١٤م.

١٠- العُمري: مسالك الأبصار، ج١، اختصار: عامر النجار، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠١٢م.

١١- ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٣، تحقيق: الدكتر أحمد أبوملحم، دار الكتب العلمية، بيروت، د. ت.

١٢- المسعودي: مروج الذهب، ج١، تحقيق: مصطفى السيد، المكتبة التوفيقية، القاهرة، د.ت.

١٣- المقريزي: إغاثة الأمة بكشف الغمة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٩م.

١٤- ابن منظور: لسان العرب، ج٣، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠١٤م.

١٥- النويري: نهاية الأرب، ج١٣، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٢م.

١٦- هيرودوت: هيرودوت يتحدث عن مصر، ترجمة: محمد صقر خفاجة، دارالقلم، ١٩٦٦م.

ثانيا- المراجع العربية والمعربة:

١٧- أحمد السعيدي:الفيلولوجيا من فقه اللغة إلى تحقيق التراث،مجلة الفيصل، عدد٤، ٢٠١٨م.

١٨- أحمد فخري: واحات مصر، ج١ (واحة سيوة)، الهيئة المصرة العامة للكتاب، ١٩٨٩م.

١٩- أرنولد توينبي: مختصر دراسة للتاريخ، جت١، ترجمة: فؤاد محمد شبل، مراجعة: شفيق محمد غربال، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠١٥م.

٢٠- جراية محمد رشدي: الصحراء الجزائرية خلال العصر الحجري الحديث، رسالة ماجستير، كلية العلوم الانسانية والاجتماعية، جامعة منتورة (قسنطينة)، الجزائر، ٢٠٠٨م.

٢١-ويلز: معالم تاريخ الإنسانية، ج١، ترجمة: عبدالعزيز توفيق، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ٢٠١٨م.

٢٢- جان إيف أمبرور: الإسكندرية ملكة الحضارات، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٧م.

٢٣- جوردون تشايلد: ماذا حدث في التاريخ، ترجمة: جورج حداد، تقديم: حسين مؤنس، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ٢٠١٨م.

٢٤- رولاند أوليفر: موجز تاريخ إفريقية، ترجمة: دولت أحمد صادق، سلسلة دراسات إفريقية، الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة، ١٩٦٥م.

٢٥- ريتشارد هول: امبراطورية الرياح الموسمية، ترجمة: كامل يوسف حسين، مركز الامارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية،١٩٩٠م.

٢٦- س. لينبول: سيرة القاهرة، ترجمة:حسن إبراهيم حسن، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٧م.

٢٧- سعيد عبدالفتاح عاشور: مصر في عصر سلاطين الأيوبيين والمماليك، مصر عبر العصور (تاريخ مصر الإسلامية)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٣م.

٢٨- شوقي عبدالقوي عثمان: تجارة المحيط الهندي، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، ١٩٩٠م.

٢٩- سليمان عبدالغني المالكي: دور العرب وتأثيرهم في شرق أفريقيا، ندوة العرب في أفريقيا الجذور التاريخية والواقع المعاصر، كلية الآداب، جامعة القاهرة، دار الثقافة العربية، ١٩٨٧م.

٣٠- عطية القوصي: تجارة مصر في البحر الأحمر منذ فجر الإسلام حتى سقوط الخلافة العباسية، دار النهضة العربية، القاهرة، د.ت.

٣١- ف. هايد: تاريخ التجارة في الشرق الأدنى في العصور الوسطى، ج٢، ترجمة: أحمد رضا محمد رضا، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩١م.

٣٢- كرم الصاوي باز: التبادل التجاري بين

شرق أفريقيا وآسيا كما يصورها البلدانيون العـــرب فـــي الفتـــرة مـــن (٦٥٦-٩٠٤ه/١٢٥٨-١٤٩٨م)، نـــــدوة مـــــؤتمر التعاون العربي الأفريقي، معهد البحوث والدراســات الأفريقيــة، جامعــة القــاهرة، ٢٠٠٧م.

٣٣- ليونـــــارد كوتريـــــل (وآخـــــرون): الموســـوعة الأثريـــة العالميـــة، ترجمـــة: محمد عبدالقادر محمد، وزكي إسكندر، الهيئـة المصـرية العامـة للكتـاب، القـاهرة، ط٢، ١٩٩٧م.

٣٤- مانفريد كلاوس: الإسكندرية أعظم عواصـم العـالم القـديم، ترجمـة: أشـرف نــادي محمــد، الهيئــة المصـرية العامــة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٩م.

٣٥- الموســوعة الثقافيــة، دار المعرفــة، مطابع دار الشعب، القاهرة، ١٩٧٢م.

٣٦- ول ديورانت: قصـة الحضارة، المجلد الأول (٢/١)، الهيئـــة المصــــرية العامـــة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠١م.

ثالثا- المراجع الأجنبية:

38- Basil Davidson: The African Past Chronicles, Penguin African Library, London, 1966.

39- Lynne Sable & Philip Steele: 1000 Great Events, Hamlyn Publishing Group, London, 1977.

40-Oliver D. Smith: The Atlantis Story an Authentic Oral Tradition, Shima Journal, Vol. 10. No. 2, 2016.

41- Toby Wilkinson: Dictionary of Ancient Egypt, Thames & Hudson World of Art, London, 2005.

42- The Cambridge Paperback Encyclopedia, Edited by: David Crystal, Cambridge University Press, 2000.

43- Tom Gravey: Plato's Atlantis Story, Aprose Hymn to Athena, Greek, Roman & Byzantine Studies, No. 48, 2008.

44- Vera Werner: Traces of the Late Bronze Age Santorini and AD 365 Tsunami events in the sedimentary record of crete, , Reconstruction of the regional Tectonic geomorphology mainz university, X111, 145 Blatter, 2019.

45- Yousrya Abdel-Aziz Hosni: Le Guide Historique et Archeologique d'Alexandrie, Le Conseil Supreme des Antiquites, le Caire, 2009.

المترجمون ودورهم السياسي والاقتصادي والاجتماعي في العصر العباسي

(١٣٢ - ٣٣٤هـ / ٧٤٩ - ٩٤٥م)

د. يحيى أبو المعاطي محمد العباسي

المقدمة

تمثل الترجمة بين اللغات أهم سبل التواصل ونقل الخبرات والمعارف، وتُعدَّ حركة الترجمة في القرون الأولى للإسلام واحدة من أكبر حركات الترجمة التي وقعت في التاريخ القديم، فاتسمت بالإحاطة والشمول للمعارف والأمم التي عرفها المسلمون مثل الحضارة الفارسية والهندية واليونانية، كما أنها ترجمت عن: الفارسية واليونانية والسريانية والفارسية والهندية والنبطية والقبطية، ووصفت هذه الترجمة بأنها من أجل الحوادث وأعظمها شأناً في تاريخ العالم[١]، وأنها من أنشط الحركات في التاريخ وأشملها وأطولها نفساً، وأنها جعلت بغداد[٢] وريثة أثينا والإسكندرية[٣].

---

(١) ول ديورانت: قصة الحضارة، ترجمة محمد بدران، طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٧٤م، مج٤، ج٢، ص١٨٠.

(٢) بغداد: وهى مدينة السلام، وبغداد على جانبي دجلة من الشرق والغرب، والجانب الغربي منها يسمى الكرخ، وسكنه أبو جعفر المنصور، أما الجانب الشرقي فبناه ابنه المهدي، مراصد الاطلاع: ص ٢١٨.

(٣) إبراهيم مدكور: في الفلسفة الإسلامية منهج وتطبيقه (دار المعارف ١٩٧٦)، ١٦٢/٢. عائشة عبد الرحمن: لغتنا والحياة، دار المعارف بمصر - القاهرة ١٩٧١ م ص ١٣٠، ١٣١.

ويقصد بالترجمة هنا نقل العلوم والمعارف من لغة إلى لغة أخرى، وكذلك الأعمال المعاونة أو المساعدة كإصلاح الترجمات وتقويم عباراتها وتدقيق صياغتها، على نحو ما نسب للكندي[1] وحنين بن اسحق[2] وغيرهما،

(١) الكندي (... - نحو ٢٦٠ ه = ... - نحو ٨٧٣ م) يعقوب بن إسحاق بن الصباح الكندي، أبو يوسف: فيلسوف العرب والاسلام في عصره، وأحد أبناء الملوك من كندة. ونشأ في البصرة. وانتقل إلى بغداد، فتعلم واشتهر بالطب والفلسفة والموسيقى والهندسة والفلك. وألف وترجم وشرح كتبا كثيرة، يزيد عددها على ثلاثمائة. الزركلي: الأعلام، مطبعة دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ١٩٨٠ م، ١٩٥/٨.

(٢) حنين بن إسحاق (١٩٤ - ٢٦٠ هـ = ٨١٠ - ٨٧٣ م) حنين بن إسحاق العبادي، أبو زيد: طبيب، مؤرخ، مترجم: كان أبوه صيدلانيا، من أهل الحيرة (في العراق) وسافر حنين إلى البصرة فأخذ العربية عن الخليل بن أحمد، وانتقل إلى بغداد فأخذ الطب عن يوحنا بن ماسويه وغيره، وتمكن من اللغات اليونانية والسريانية والفارسية، فانتهت إليه رياسة العلم بها بين المترجمين، مع إحكامه العربية، وكان فصيحاً بها شاعرا. واتصل بالمأمون فجعله رئيسا لديوان الترجمة، وبذل له الاموال والعطايا. وجعل بين يديه =

فقيل عن الكندي أنه "ترجم من كتب الفلسفة الكثير، وأوضح منها المشكل"[3]

المبحث الأول: تاريخ الترجمة عند المسلمين

أولا: الأسباب التي دعت المسلمين إلى نقل العلوم والمعارف.

ويمكن إجمال الأسباب التي دعت المسلمين إلى نقل العلوم والمعارف ما يلي:

١- دعوة الإسلام إلى تحصيل العلم والمعارف: فوردت الآيات والأحاديث الكثيرة تحض على التعلم، ولم يعرف أن الإسلام منع التعلم والتعرف على ما عند الأمم من معارف وعلوم، قال

= كتابا نحارير عالمين باللغات، كانوا يترجمون، ويتصفح حنين ما ترجموا فيصلح ما يرى فيه خطأ. ولخص كثيرا من كتب أبقراط وجالينوس وأوضح معانيها. الزركلي: الأعلام ٢/٢٨٧- ٢٨٨.

(٣) ابن جلجل: طبقات الأطباء والحكماء، تحقيق فؤاد سيد، مؤسسة الرسالة، ١٩٨٥، ص ٧٣.

تعـالى: ﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ ۝٤﴾[1]، وقولـه سـبحانه: ﴿ هَلۡ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمۡتَ رُشۡدٗا ۝٦٦ ﴾[2]، وقولـه تعـالى: ﴿يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٖۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ۝١١ ﴾[3].

٢- تشـجيع الخلفـاء المسـلمين للترجمـة وبخاصـة الخلفـاء العباسـيين كالمنصـور (١٣٦ - ١٥٨ هـ/ ٧٥٤ - ٧٧٥م)[4] والرشيد (١٧٠ -١٩٣ هـ/ ٧٨٨ - ٨١٠م)[5] والمـأمون (١٩٨ - ٢١٨ هـ - ٨١٤- ٨٣٣ م)[6]، فـأظهر

---

(١) سورة الرحمن: آية ٤.

(٢) سورة الكهف: آية ٦٦.

(٣) سورة المجادلة: آية ١١.

(٤)الخليفـة أبـو جعفـر المنصـور (١٣٦ ه – ١٥٨ ه):هو عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب الهاشمي. وكنيته ابو جعفر ولد في شهر ذو الحجة سنة خمس وتسعون هجرية في الحميمية، أمه: سلامة البربرية، ولقب قبل ان يلي الخلافة " بالطويل " وعبد الله الطويل وكان يكنى بشبابه بابي جعفر وتلقب بعد خلافته " المنصور والمنصور بالله، تولى الخلافة في اول سنة سبع وثلاثين ومائة، وفي سنة اربعين ومائة شرع في بناء بغداد. الطبري تاريخ الرسل والملوك ١٠٥/٨ المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر، المكتبة العصرية، بيروت سنة ١٩٨٨م، ٣١٧/٣.

(٥)الخليفـة هـارون الرشـيد (١٧٠ هـ – ١٩٣ هـ) =

= الرشيد: هارون أبو جعفر بن المهدي محمد بن المنصور بن عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس، ولد سنة ثمان وأربعين ومائة بالري حين كان أبوه أميرا عليها وعلى خراسان، أمه: الخيزران من سبايا اليمن، وكان المهدي قد تزوجها ثم اعتقها فولدت له موسى قبل هارون، وكنيته أبا محمد، وكنيته الذائعة الصيت التي تذكرها غالبية المصادر التاريخية هي " أبا جعفر، ولايته: ولي الخلافة بعد وفاة أخيه موسى الهادي بعهد من أبيه ليلة السبت لأربع عشر بقين من ربيع الأول سنة سبعين ومائة. الطبري: تاريخ الرسل والملوك، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠١، ٥٧١/٣.

(٦) الخليفة:المأمون عبد الله أبو العباس (١٩٨-٢١٨ه) "عبد الله ابو العباس بن الرشيد ولد سنة سبعين ومائة في ليلة الجمعة منتصف ربيع الأول وهي الليلة التي مات فيها الهادي واستخلف ابوه ". " أمه: أم ولد. اسمها مراجل ماتت في نفاسها به، قرأ العلم منذ صغره وسمع الحديث من ابيه وعن طريق غيره كالهيثم وعباد من العوام ويوسف بن عطية وغيرهم ادبه الترمذي وجمع له الفقهاء من الانات فبرع في الفقه والعربية وايام الناس. ثم مهر في الفلسفة وعلوم الأولين. الطبري: تاريخ الرسل والملوك ١٣٦/٥-١٣٧ السيوطي: تاريخ =

المأمون عنايته بالترجمة، فنقلت له بعض كتب أبقراط[1]، وجالينوس[2] في الطب[3]. ممن نقل له جورجس[4] الذي يعتبر أول من ابتدأ في نقل الكتب الطبية[5]، كما زادت الترجمة في عهد الرشيد وبتشجيع من البرامكة[6]. كذلك

= الخلفاء»، تحقيق حمدي الدمرداش، مكتبة نزار مصطفى الباز، المملكة العربية السعودية، ١٤٢٥ه، ص٢٣٥.

(١) أبقراط: ولد حوالي ٤٦٠ ق م- توفي: حوالي ٣٧٠ ق م ؛ والمعروف أيضًا باسم أبقراط الثاني؛ هو طبيب يوناني عاش في عصر بريكليس (العصر الكلاسيكي اليوناني). يُعدُّ من أبرز الشخصيات في تاريخ الطب عبر التاريخ. هو سابع الأطباء العظام في تاريخ اليونان. ينتمي إلى عائلة آل أسقليبيوس الذين بدأوا بالأخير وخُتِموا بجالينوس المُلقب من قبل الرازي بـ«ثَانِي الفَاضِلَيْن»، بعد أبقراط الذي سُمّيَ لدى العرب ب«الفاضل»، تكريمًا له. هو» أبو الطب«، كما لَقّبهُ العرب ثم شاع تلقيبه به في العالم حتى لا يكاد ينازعه على هذا اللقب أحد ممن سبقوه أو لحقوه، اعترافًا بإسهاماته في المجال الطبي. الزركلي: الأعلام ٢٨٧/٢.

(٢) جالينوس: هو طبيب إغريقي ولد في بيرغامون سنة ١٢٩ وتوفي سنة ٢١٦. مارس الطب في أنحاء الإمبراطورية الرومانية وعالج العديد من الأباطرة الرومان. كان أكبر أطباء اليونان وأحد أعظم أطباء العصور القديمة .أثر بشكل كبير في العديد من الاختصاصات الطبية كعلم =

= التشريح، الفسيولوجيا، علم الأمراض وطب الجهاز العصبي، كما تنسب له العديد من الإسهامات في الفلسفة والمنطق .يعد بجانب أبقراط أحد أعمدة الطب في العهد الروماني الإغريقي وأحد من وضع أسس الطب الحديث.الزركلي: الأعلام ٢٠٩/١.

(٣) ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء،مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٦٠ م، ٢٥٨ - ٢٦٠.

(٤) جورجس بن يوحنا بن سهل بن إبراهيم، من النصارى اليعاقبة، وكان فاضلاً في صناعة الطب عالماً بأصولها وفروعها معدوداً من جملة الأكابر من أهلها والمتمرنين من أربابها، دائم الاشتغال، محباً للعلم، مؤثراً للفضيلة. عيون الأنباء في طبقات الأطباء ١/ ٤٠٣.

(٥) ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء ٢٧٩.

(٦) البرامكة: أسرة إيرانية أصلها من مدينة بلخ كانت تدين بالبوذية، ثم أسلم جد هذه الأسرة خالد البرمكي، وبدأ ظهور نشاطهم في عهد عبد الله السفاح والمنصور، ثم سيطروا على الحياة السياسية إلى عصر الرشيد، حتى نكبهم الرشيد سنة ١٨٧ ه =

الذين كانوا على معرفة بتراث الإغريق منذ كانوا بمرو[1] ونيسابور[2]، ووسع الرشيد من ديوان الترجمة الذي أنشأه المنصور[3]، وأسند الترجمة إلى الطبيب يوحنا بن ماسويه[4]، وعين له كتاباً حاذقاً يشتغلون بين يديه ويساعدونه في

=

/٨٠٢م، وقد وزر منهم ثلاثة وزراء للرشيد: يحيى بن خالد بن برمك، وابناه الفضل وجعفر، فبسطوا نفوذهم على الأراضي والأموال. البيهقي: المحاسن والمساوئ، دار صادر، بيروت، د. ت، ١٩٣ - ١٩٦.

(١)مرو الشاهجان:وهي مدينة تاريخية قديمة وأكبر من مرو الروذ وإليها ينقدح الذهن إذا قيل مرو،تقع في تركمانستان الآن ومعنى اسمها بالعربية مرج نَفَس الملك. مرو الروذ:مدينة تاريخية تقع تقريبًا في تركمانستان أيضًا لكن بقرب الحدود الأفغانية إلا أنه لا يمكن الجزم بمكانها على وجه التحديد ويعني اسمها بالعربية مرج النهر. ياقوت الحموي: معجم البلدان٨٢/٥.

(٢)نَيْسَابُور أو نِيْسَابُور بالفارسية :نيشابور مدينة في مقاطعة خراسان شمالي شرق إيران قرب العاصمة الإقليمية مشهد .كانت نيسابور عاصمة لمقاطعة خراسان قديماً، وتعد من أشهر مراكز الثقافة والتجارة والعمران في العصر العباسي، قبل أن يدمرها زلزال ضربها عام ٥٤٠ ه (١١٤٥ م)، ثم أكمل خرابها غزو المغول لها سنة ٦١٨ هـ (١٢٢١م) قال فيها ياقوت الحموي " بلاد الدنيا العظام ثلاثة، نيسابور لأنها باب الشرق، ودمشق لأنها باب الغرب والموصل لأن القاصد إلى

=

=

الجهتين قل ما لا يمر بها" ياقوت الحموي: معجم البلدان٨٢/٥.

(٣) ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء ٢٨١.

(٤) يوحنا بن ماسويه (٠٠٠ - ٢٤٣ هـ = ٠٠٠ - ٨٥٧ م) يوحنا بن ماسويه، أبو زكريا: من علماء الأطباء. سرياني الاصل. عربي المنشأ. كان أبوه صيدلانيا في جنديسابور (بخوزستان) ثم من أطباء العين، في بغداد. وتقدم، وخدم الرشيد. وببغداد نشأ ابنه يوحنا (صاحب الترجمة) ونبغ حتى كان أحد الذين عهد إليهم هارون الرشيد بترجمة ما وجد من كتب الطب القديمة، في أنقرة وعمورية وغيرهما من بلاد الروم، وجعله أمينا على الترجمة، ورتب له كتابا حاذقين بين يديه. ولم يقتصر عمله على خدمة العلم بل خدم الرشيد والمأمون ومن بعدهما إلى أيام المتوكل، بمعالجتهم وتطبيب مرضاهم، حتى كانوا لا يتناولون شيئا من أطعمتهم إلا بحضرته. وكان يقف على رؤوسهم ومعه البراني بالجوارشات المقوية والهاضمة. وأصاب شهرة واسعة وثروة طائلة. الزركلي: الأعلام ٢١١/٨٢. طبقات الاطباء ١: ١٧٥ – ١٨٣.

عمله[١]، ونقل نوبخت الفارسي كتب حكماء الفرس في فارس[٢] وخراسان[٣] للعربية[٤].

وقويت الترجمة في عهد المأمون، فأرسل مبعوثه إلى القسطنطينية لإحضار المصنفات الفريدة في الفلسفة والموسيقى والهندسة والطب، فروى ابن النديم[٥] أن المأمون: "كان بينه وبين ملوك الروم مراسلات، وقد استظهر عليه المأمون، فكتب (إليه) يسأله الإذن فيما يختار من العلوم القديمة المخزونة المدخرة ببلد الروم، فأجاب إلى ذلك بعد امتناع، فأخرج المأمون جماعة منهم الحجاج بن مطر وابن البطريق وسلمان صاحب بيت الحكمة وغيرهم، فأخذوا مما وجدوا مما اختاروا، فلما حملوه إليه أمرهم بنقله

---

(١) القفطي: أخبار الحكام، ٢٤٩.

(٢) بلاد فارس (أو الإمبراطوريّة الفارسيّة) هي الاسم القديم لدولة إيران، وتشمل جميع خصائصها الجغرافيّة وبيئتها الاقتصاديّة والاجتماعيّة، وتعود أصول بلاد فارس إلى المهاجرين الذين تحدّثوا باللغة الإيرانيّة ووصلوا إلى تلك الأراضي الآسيويّة في سنة ١٥٠٠ ق.م، كما يُشار إلى أنهم ينتمون للقبائل القوقازيّة التي رحلت إلى الهضبة الإيرانيّة، وبعد وصولها إلى تلك المناطق حرصت على التفاعل والاختلاط مع الشعوب التي كانت موجودة فيها.
هوما كاتوزيان - ترجمة: أحمد المعيني، الفُرس، إيران في العصور القديمة والوسطى والحديثة (الطبعة الأولى)، لبنان: جداول للنشر والترجمة والتوزيع،٢٠١٤، صفحة ١٥، ١٦. بتصرّف.

(٣) تألف خراسان في اللغة الفارسية من كلمتين: "خر" ومعناها الشمس، و"آسان" ومعناها المشرقة، فهي بلاد الشمس المشرقة التي تشمل مساحة واسعة تقع إلى الشرق من بلاد فارس وتترامى إلى نهر جيحون، وهي مقسومة في الوقت الحاضر بين ثلاث دول هي الاتحاد السوفييتي، وأفغانستان، وإيران. أما ما أضيف منها إلى الاتحاد السوفييتي فيشمل المنطقة الممتدة من مرو الشاهجان إلى نهر =

= جيحون. وأما ما ضم منها إلى أفغانستان فهو الرقعة الواقعة إلى الشرق من خط يبدأ من سرخس في الشمال. ويمتد إلى الجنوب مارا بمنتصف المسافة بين طوس وهراة. وأما سائرها فتابع لإيران. ياقوت الحموي: معجم البلدان ٢/ص٣٥٠.

(٤) ابن النديم: الفهرست، مكتبة خياط - لبنان،١٣٩٨هـ / ١٩٧٨ م ، ٣٤٧.بيانات الكتاب

(٥) ابن النديم: الفهرست ٣٥٣.

فنقل".

وفـي عهـده تـرجم كتـاب بطليمـوس[1] فـي الفلـك وسـماه المجسـطي[2]، كمـا أنشـأ بيـت الحكمـة، وهـو مجمـع علمـي ومرصد فلكي ومكتبة يقيم فيه طائفة من المترجمين، وتجري عليهم الأرزاق من بيت المال، فترجمت كتب اليونان الكبرى مثـل كتـب أفلاطـون وأرسـطو وسـقراط وجـالينوس وأقليـدس وأرخميـدس وبطليموس وغيرهم[3].

ووصـفت الترجمـة فـي عهـد المـأمون[4]، بأنه "تمم ما بدأ به المنصور فأقبل على طلـب العلـم فـي مواضـعه واسـتخراجه من معادنه بفضل همته الشريفة وقـوة

---

(١) كلوديـوس بطليمـوس (أو بَطْلُمْيـوس (حوالي ١٠٠م – حوالي ١٧٠) هو رياضي وعالم فلـك وجغرافـيّ ومـنجم مـن أهـل القـرن الثاني للميلاد. وُلِد نحو سنة ٨٧م وتوفّي قُـرْب الإِسْـكَندريّة نحـو ١٥٠م. وهـو صاحِب كتاب المَجَسْط. يقوم نظامُه الفَلَكيّ على أَسـاس أنّ الأَرْضَ ثابِتَـة، وأَنّ الأَفْـلاك تَـدُور حَوْلَهـا. بطليمـوس هـو مؤلـف العديـد مـن الأطروحات العلميـة، كـان لإثنـان منهـا لهمـا تـأثير كبيـر علـى العلـوم الغربيـة والشـرقية وذلـك عـن طريـق كتبـه العديـدة والمتنوعـة المجالات.أولهما هو كتاب المجسطي والآخر هو كتاب الجغرافية ويعد هذا الأخير تجميعا للمعرفة الجغرافية للعالم اليوناني الروماني. يعـد عمـل بطليمـوس اسـتمرارية لتطـور طويـل فـي العلـوم القديمـة يقـوم علـى ملاحظـة النجـوم والأعـداد والحسـاب والقياس. الزركلي: الأعلام ٢١٠/٥.

(٢) كتاب المجسطي وتعني الأطروحة الرياضية، هو رسالة بحثية في الفلك والرياضيات ألفه العالم الإغريقي بطليموس عام 148 م في الإسكندرية .يعتقد أنه أقدم كتاب معروف فـي الفلـك. ترجمـه للعربيـة حنـين بـن إسحاق ومـن الترجمـة العربيـة تُـرجم الكتـاب إلـى اللغـة اللاتينيـة ثـم إلـى بقيـة اللغـات الأوروبيـة. لهـذا السبب، اسم الكتاب العربي =

= هـو المسـتخدم فـي التـراجم حيـث يسـمى الكتـاب)باللاتينيـة (Almagest: مـن كلمـة المجسـطي العربيـة ولـيس الاسـم اليونـاني الأصلي. تم تأليف العديد من الكتب العربية والأوربيــة فــي دعــم أو نقــد وتصــحيح المجسطي. وتبدو التسمية العربية محاولـة لدمج كلمتي عنوان الكتاب. وبهذا العنوان عـرف الكتـاب حتـى فـي المصـنفات الأوربيـة الحديثة. الزركلي: الأعلام ٢١٠/٥.

(٣) عبد المنعم ماجد: تاريخ الحضارة الإسلامية، النهضة المصرية ١٩٦٦م، ١٤٧، ١٥٠.

(٤) صـاعد البغـدادي: طبقـات الأمـم، تحقيـق حيـاة العبـد بـن علـوان، دار الطليعـة، بيـروت ١٩٨٥م، ٧٥ - ٧٦.

نفسه الفاضلة فداخل ملوك الروم وأتحفهم بالهدايا، وسألهم صلته بما لديهم من كتب الفلاسفة فبعثوا إليه بما حضرهم من كتب الفلاسفة فبعثوا إليه بما حضرهم من كتب أفلاطون وأرسطاليس وأبقراط وجالينوس وأقليدس وبطليموس وغيرهم من الفلاسفة، فاستخار لها خيرة التراجمة وكلفهم إحكام ترجمتها، فترجمت له على غاية ما أمكن، ثم حض الناس على قراءتها ورغبهم في تعلمها، فنفقت سوق العلم في زمانه، وقامت دولة الحكمة في عصره، وتنافس أولو النباهة في العلوم لما كانوا يرون من أخطائه لمنتحليها واختصاصه لمتقلديها، فكان يخلو بهم ويأنس بمناظرتهم ويلتذ بمذاكراتهم فينالون عنده المنزلة الرفيعة والمراتب السنية، وكذلك كانت سيرته مع سائر العلماء والفقهاء والمحدثين والمتكلمين وأهل الذمة والأخبار والمعرفة والشعر والنسب، فأتقن جماعة من ذوي الفنون والتعلم في أيامه كثيراً من أجزاء الفلسفة، وسنوا من بعدهم منهاج الطلب ومهدوا أصول الأدب "

٣- معرفة الفلسفة والمنطق وسائر التراث اليوناني: أدى الجدل والمناظرة بين المسلمين وغيرهم إلى أن يروا استخدام الخصوم للمنطق والفلسفة اليونانية، فأجاد المسلمون هذا الفكر للزود عن عقيدتهم[1].

٤- ترجمة المسلمين الجدد حضارتهم في ظل الإسلام: ففعل ذلك الفرس عندما قابلوا نفوذ العرب السياسي بترجمة تراثهم، فقام ابن المقفع[2]

(١) بروكلمان: تاريخ الشعوب الإسلامية، ترجمة نبيه أمين فارسي، ومنير البعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت ١٩٧٧م،، ٢٧٠.

(٢)ابن المقفع، (١٠٦ - ١٤٢ هـ / ٧٢٤ - ٧٥٩ م) عبد الله بن المقفع: من أئمة الكتاب، وأول من عني في الإسلام بترجمة كتب المنطق، أصله من الفرس، ولد في العراق مجوسيا (مزدكيا) وأسلم على يد عيسى ابن علي (عم السفاح) وولي كتابة الديوان للمنصور العباسي، وترجم له " كتب أرسطو طاليس " الثلاثة، في المنطق، وكتاب " المدخل إلى علم المنطق " المعروف بايساغوجي. وترجم عن الفارسية كتاب " كليلة ودمنة " وهو أشهر كتبه. وأنشأ رسائل غاية في الإبداع، منها " الأدب الصغير " ورسالة الصحابة " و" اليتيمة "
=

٠ (ت ١٤٣هـ) بالترجمة عن الفارسية القديمة (الفهلوية) كتاب "كليلة ودمنة" وكتاب "خواى نامة" (أي سيرة الملوك العجم).

٥- عناية ذوي اليسار بالترجمة: لم يقتصر الاهتمام بالترجمة على الخلفاء والوزراء، بل تعدى ذلك إلى أهل اليسار، ومن هؤلاء: محمد وأحمد، والحسن[١] أبناء بن شاكر المنجم الذين بذلوا للحصول على العلوم القديمة: الرغائب وأتعبوا أنفسهم فيها، وأنفذوا إلى بلاد الروم من أخرجها إليهم، فأحضروا النقلة من الأصقاع والأماكن بالبذل السني فأظهروا عجائب الحكمة"[٢]، وشيرشوع بن قطرب[٣]من أهل جنديسابور الذي كان يبر النقلة ويهدي إليهم ويتقرب إلى تحصيل الكتب منهم لما يمكنه من المال[٤]، وحرص ثادرس[٥] أحد أساقفة

=

واتهم بالزندقة، فقتله في البصرة أميرها سفيان بن معاوية المهلبي. محمد كرد علي: رسائل البلغاء (مطبعة لجنة التأليف والترقية والنشر ١٩٤٦م) ص ١٢٤.

(١)محمد (أبو جعفر) وأحمد والحسن بن محمد بن موسى بن شاكر، رياضيون وفلكيون ومشتغلون بالحيل (الميكانيكا)، أخوة من مرو الشاهجان في خراسان، عاشوا في القرن التاسع الميلادي. اتصلوا بالخليفة المأمون وبرعوا في علومهم وجذبواحولهم علماء وأطباء ومترجمين كثيرين.أبو جعفر محمد بن موسى بن شاكر (قبل ٨٠٣ - ٨٧٣) وقد برع في الفلك والهندسة والجغرافيا والفيزياء.أحمد بن موسى بن شاكر (٨٠٣ - ٨٧٣) وقد برع في الهندسة والميكانيكا.الحسن بن موسى بن شاكر (٨١٠ - ٨٧٣) وقد برع في الهندسة والجغرافيا..الزركلي: الأعلام، ١١٦/٢.

(٢) القفطي: أخبار العلماء بأخبار الحكماء، الطبعة الأولى، القاهرة - مطبعة دار السعادة ١٣٢٦هـ،ص٢٠٨.

(٣) شيرشوع بن قطرب هو من الأطباء النقلة الذين نقلوا كتب الطب وغيره من اللسان اليوناني إلى اللسان العربي وذكر الذين نقلوا لهم. وهو من أهل جندي سابور وكان لا يزال يبر النقلة ويهدي إليهم ويتقرب إلى تحصيل الكتب منهم بما يمكنه من المال وكان يريد السرياني أكثر من العربي وهو أحد الخوز. ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء ٢٨٣.

(٤) ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء ٢٨٣.

(٥) ثادرس الأسقف هو من الأطباء النقلة الذين نقلوا كتب الطب وغيره من اللسان اليوناني إلى اللسان العربي وذكر الذين نقلوا لهم. وكان أسقفاً في الكرخ ببغداد

=

الكرخ ببغداد على طلب الكتب متقرباً إلى قلوب نقلتها، فحصل منها شيئاً كثيراً[1]، واشتهر أحمد بن محمد (ابن المدبر الكاتب)[2] بأنه كان يصل إلى النقلة من ماله وأفضاله شيء كثير جداً، وكان إبراهيم بن محمد بن موسى الكاتب[3]" حريصاً على نقل كتب اليونانيين إلى لغة العرب مشتملاً على أهل العلم والفضل وعلى النقلة خاصة"[4].

٦- التقارب السكاني الذي سهل التعايش الحياتي والتمازج الاجتماعي السريع بين أصحاب الثقافات القديمة والوافدين الجدد.

٧- الحاجات العملية لترجمة بعض المعارف كالطب و الفلك والصيدلة[5].

٨- استمرار الثقافات القديمة وتطورها في ظل المسلمين واستعداد أهلها لترجمة ثقافاتهم للغة العربية، كما أن انتشار اللغة العربية بين المسلمين الجدد كالفرس وسكان العراق ومصر والشام جعلتهم يدخلون معارفهم للغة العربية لغة دينهم.[6].

=

وكان حريصاً على طلب الكتب متقرباً إلى قلوب نقلتها فحصل منها شيئاً كثيراً. ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء ٢٨٣.

(١) ابن أبي أصيبعة: المصدر السابق ٢٨٣.

(٢) أبو إسحاق إبراهيم بن محمد بن عبيد الله ابن المدبر (١٩٥-٢٧٩) ه (٨١١-٨٩٣)(، وزير، من الكتاب المترسلين الشعراء. من أهل بغداد . تولى ولايات جليلة.

واستوزره المعتمد العباسي لما خرج من سامراء يريد مصر سنة ٢٦٩ هـ .

وتوفي ببغداد متقلداً)ديوان الضياع للمعتضد .عمر فروخ: تاريخ الأدب العربي: الأعصر العباسيَّة .دار العلم للملايين- بيروت. الطبعة الرابعة - ١٩٨١، ص. ٣٣٤.

(٣) إبراهيم بن محمد بن موسى الكاتب هو من الأطباء النقلة الذين نقلوا كتب الطب وغيره من اللسان اليوناني إلى اللسان العربي وذكر الذين نقلوا لهم. وكان حريصاً على نقل كتب اليونانيين إلى لغة العرب ومشتملاً على أهل العلم والفضل وعلى =

=

النقلة خاصة. ابن أبي أصيبعة: السابق نفسه ٢٨٤.

(٤) ابن أبي أصيبعة: السابق نفسه ٢٨٤.

(٥) محمد مصطفي زيادة وآخرون: تاريخ العالم العربي وحضارته، مكتبة نهضة مصر - القاهرة - بدون ص ٣٦١.

(٦) ابن أبي أصيبعة: السابق ٢٨٤.

ثانيا: مراحل حركة الترجمة:

مرت حركة الترجمة بمراحل متعددة هي:

المرحلة الأولى: الترجمة في الدولة الأموية.

فقد جاءت الترجمة في هذا العصر موازية للحركة العلمية التي شملت الجوانب الدينية والتاريخية والأدبية[١]، فنقلت بعض المعارف في التاريخ إلى معاوية بن أبي سفيان[٢] (٤١ - ٦٠ه/ ٦٦١-٦٧٩م) نتيجة لاهتمامه بأخبار الأولين وعلومهم ومعارفهم وسياساتهم، فأتى بعبيد بن شرية الجرهمي[٣] من اليمن للشام لمعرفة ابن شرية بكتب الأولين، فقص عليه ابن شرية أخبار الماضين والكوائن والأحداث وتشعب الأنساب والأخبار المتقدمة وملوك العرب والعجم، وسبب تبلبل الألسنة، وأمر افتراق الناس في البلاد[٤]، وجمع معاوية بن أبي سفيان دفاتر فيها سير الملوك وأخبارها والمكائد، يقرأها له غلمان في الثلث الثاني من الليل[٥]، وأغلب الظن أن هذه الدفاتر مترجمة لمعاوية بن أبي سفيان، كما اهتم كذلك بالطب، واصطفى

---

(١) أحمد أمين: فجر الإسلام، النهضة المصرية ١٩٦٥م، ١٤٥ وما بعدها، ١٦٦ وما بعدها، ٣٠١ وما بعدها.

(٢) معاوية بن أبي سفيان: صخر بن حرب، أبو عبد الرحمن، ولد سنة: ٢٠ قبل الهجرة، أمير المؤمنين، أول خلفاء بني أمية صحابي جليل اسلم يوم الفتح، وقيل: قبل ذلك، احد كتاب الوحي شهد فتح الشام قائداً تحت أمرة أخيه يزيد، بلغت فتوحاته إلى المحيط الأطلسي، وهو أول من غزا البحار، كان يمتاز بالدهاء والحلم، والوقار، والفصاحة، توفي سنة: ٦٠ ه، وقيل: ٥٩ ه. ينظر:ابن الأثير: أسد الغابة في معرفة الصحابة، تحقيق الشيخ على محمد عوض، والشيخ عادل أحمد عبد الموجود، الطبعة الأولي - بيروت - دار الكتب العلمية ١٤١٥ه/ ١٩٩٤م، ٤/ ٣٨٥

(٣)عبيد بن شرية الجرهمي، لايعرف له تاريخ ميلاد موثوق به، ومات في ٦٧ هـ الموافق ٦٨٦ من أقدم مؤرخي العرب، اهتم بتاريخ اليمن وألّف كتاباً حول ملوكها وأخبارها. ابن عساكر: تاريخ مدينة دمشق، تحقيق محب الدين أبي سعيد عمر بن غرامة العمروي، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٦، ج ٣٨، ص. ٢٠٢.

(٤) المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجواهر، المكتبة العصرية، بيروت سنة ١٩٨٨م، ٤/ ٨٩، ٩٠.

(٥) المسعودي: مروج الذهب ٢/ ٧٢.

لنفسه الطبيب الدمشقي ابن أثال من نصارى الشام الدارسين بالسريانية والإغريقية، فكان كثير الافتقار له والاعتقاد فيه والمحادثة معه ليلاً ونهاراً[1].

كما كتب تياذوق طبيب الحجاج خلاصة معارفه الطبية الإغريقية في كتاب إبدال الأدوية (تركيبها) في كناش كبير تداوله الناس، كما كتب طبيبه الآخر ثاودون كناشاً آخر كبيراً لابنه[2].

أما الشخصية التي ارتبطت بالترجمة في العصر الأموي فهي شخصية خالد بن يزيد بن معاوية،[3] فيشير الجاحظ أنه[4] "كان أول من أعطى التراجمة والفلاسفة وقرب أهل الحكمة ورؤساء أهل كل صناعة، وترجم كتب النجوم

---

(1)ابن أثال هو طبيب عربي نصراني شغل منصب الطبيب الشخصي لمعاوية بن أبي سفيان وكان يعتبر الطبيب الأكثر تميزًا في الفترة الأموية المُبكّرة. ويمكن اعتبار معرفته الطبية استمرارا للتراث الذي كان موجودًا في الجزيرة العربية قبل الإسلام. وكان من ذوي المهارات في علم السموم. ابن أبي أصبعة: طبقات الأطباء والحكماء، تحقيق فؤاد سيد، الطبعة الثانية، (مؤسسة الرسالة، بيروت ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م، ص ١٧١.

(٢) كان تياذوق طبيباً فاضلاً وله نوادر وألفاظ مستحسنة في صناعة الطب وعمر وكان في أول دولة بني أمية ومشهوراً عندهم بالطب وصحب أيضاً الحجاج بن يوسف الثقفي المتولي من جهة عبد الملك بن مروان وخدمه بصناعة الطب وكان يعتمد =

= عليه ويثق بمداواته وكان له منه الجامكية الوافرة والافتقاد الكثير ومن كلام تياذوق للحجاج قال لا تنكح إلا شابة، ولا تأكل من اللحم إلا فتياً، ولا تشرب الدواء إلا من علة، ولا تأكل الفاكهة إلا في أوان نضجها، وأجد مضغ الطعام، وإذا أكلت نهاراً فلا بأس أن تنام، وإذا أكلت ليلاً فلا تنم حتى تمشي ولو خمسين خطوة. ابن جلجل: طبقات الحكماء ٦١.

(٣) خالد بن يزيد: (٠٠٠ - ٩٠ هـ = ٠٠٠ - ٧٠٨ م):خالد بن يزيد بن معاوية بن أبي سفيان الأموي القرشي، أبو هاشم حكيم قريش وعالمها في عصره. اشتغل بالكيمياء والطب والنجوم، فأتقنها وألف فيها رسائل. اختلفوا في سنة وفاته، إلى أن قال الذهبي: (وفيها - أي سنة ٩٠ - على الاصح، توفي خالد بن يزيد. وكان موصوفاً بالعلم والدين والعقل). الزركلي: الأعلام ٣٠٠/٢.

(٤) رسائل الجاحظ،جمع ونشر حسن السندوبي، المطبعة الرحمانية ١٩٣٣م، ص ٣٧١.

والطب والكيمياء والحروب والآداب، والآلات والصناعات" ويؤكد ابن النديم ذلك بقوله عن خالد بن يزيد أنه "الذي عنى بإخراج كتب القدماء في الصنعة.. وكان خطيباً شاعراً فصيحاً حازماً ذا رأي، وهو أول مَنْ ترجم له كتب الطب والنجوم و كتب الكيمياء "[١].

ولم تقتصر الترجمات في هذا العصر على الطب والكيمياء والفلك، فلم تخل من أثر للفلسفة بمعناها العام، حيث كانت الفلسفة وقتها أم العلوم ووعاء العلوم النظرية والعملية، وظهر هذا التصور الجامع للفلسفة منذ أرسطو[٢]،

ومن أمثلة هذا أن فكرة تقسيم الأجسام إلى ذرات أو جواهر فردة هي فكرة فلسفية توجد لدى أصحاب المذهب الذري[٣] كديمقريطس[٤] وغيره،

---

(١) ابن النديم: الفهرست ٤٩٧.

(٢) أرسطو ٣٢٢ - ٣٨٤) الميلاد قبل (فيلسوف يوناني قديم كان أحد تلاميذ أفلاطون ومعلم الإسكندر الأكبر . كتب في مواضيع متعددة تشمل الفيزياء، والشعر، والمنطق، وعبادة الحيوان، والأحياء، وأشكال الحكم. و كان ابوه نيقوماخوس طبيب ببلاط الملك امينتاس المقدوني ومن هنا جاء ارتباط أرسطو الشديد ببلاط مقدونيا، الذي أثر إلى حد كبير في حياته ومصيره فكان مربي الإسكندر .لقد دخل أكاديمية أفلاطون للدراسة فيها وبقي فيها عشرين = عاما. ولم يتركها الا بعد وفاة أفلاطون . كان من أعظم فلاسفة عصره وأكثرهم علما ومعرفة ويقدر ما اصدر من كتابات ب ٤٠٠ مؤلف ما بين كتاب وفصول صغيرة. عرف بالعلمية والواقعية يوسف كرم: تاريخ الفلسفة اليونانية (لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٦٦ ص ١١٨.

(٣) رشدي راشد: ترجمة النصوص العلمية بين اللغات اليونانية والعربية واللاتينية، ص ٢١-٤٨ ص ٢٢ - ٢٣. من يوسف زيدان (تحرير ٢٠١٠): المخطوطات المترجمة، أعمال المؤتمر الدولي الرابع لمركز المخطوطات، مكتبة الإسكندرية، مايو ٢٠٠٧.

(٤) ديمقريطس أو كما يُطلق عليه اسم ديمقراط هو فيلسوف يوناني يلقب بالفيلسوف الضاحك، ولد في منطقة أبديرة عام ٤٦٠ق.م، وتوفي عام ٣٧٠ق.م، يعتبر من أهم الفلاسفة المؤثرين في العهد الذي سبق سقراط، حيث كان تلميذاً للفيلسوف ليوكيبوس الذي صاغ النظرية الذرية للكون، كما أنه ورث عن والده أموالاً كثيرة، واستنفذ أغلب أمواله في الرحلات، حيث زار مصر، وتعلم علوم الرياضيات من علمائها، ثم توجه إلى بلاد فارس ثم الهند، =

وليست هذه الفكرة بعيدة عن مباحث الكيميائيين، فنسب إلى جابر بن حيان[1] كتاب (الجواهر الكبير). وكتب الرازي[2] الطبيب الفيلسوف كتاب "جواهر الأجسام"[3].

وكان الطب باباً من أبواب الفلسفة، فلقب الطبيب بالحكيم "الفيلسوف"، وجمع الأطباء بين الطب والفلسفة مثل جالينوس، والرازي، وابن سينا[4]، وابن طفيل[5]، وابن رشد،[1] وغيرهم[2].

=

وحاور الفلاسفة في الهند، ثم رجع إلى أثينا، وتعرّف على العالم سقراط. يوسف كرم: تاريخ الفلسفة اليونانية ١٢٠.

(١)جابر بن حيان (٠٠٠ - ٢٠٠ هـ = ٠٠٠ - ٨١٥ م) جابر بن حيان بن عبد الله الكوفي، أبو موسى: فيلسوف كيميائي، كان يعرف بالصوفي. من أهل الكوفة، وأصله من خراسان. اتصل بالبرامكة، وانقطع إلى أحدهم جعفر بن يحيى. وتوفي بطوس. له تصانيف كثيرة قيل: عددها ٢٣٢ كتابا، وقيل: بلغت خمسمائة.

ضاع أكثرها. ابن النديم: الفهرست ١/ ٢٩٩. الزركلي: الأعلام ١٠٤/٢.

(٢) أبو بكر الرازي (٢٥١ - ٣١٣ ه = ٨٦٥ - ٩٢٥ م) محمد بن زكريا الرازي، أبو بكر: فيلسوف، من الائمة في صناعة الطب. من أهل الري.ولد وتعلم بها. وسافر إلى بغداد بعد سن الثلاثين. يسميه كتاب اللاتينية (رازيس). أولع بالموسيقى والغناء ونظم الشعر، في صغره. واشتغل بالسيمياء والكيمياء، ثم عكف على الطب والفلسفة في كبره، فنبغ واشتهر. وتولى تدبير مارستان الري، ثم رياسة أطباء البيمارستان المقتدري في بغداد. ابن النديم ١: ٣٥٤. الزركلي: الأعلام ١٣٠/٦.

(٣) الفهرست ٥٠١، القفطي: أخبار العلماء ١٨١.

(٤) الرئيس ابن سينا (٣٧٠ - ٤٢٨ ه = ٩٨٠ - ١٠٣٧ م) الحسين بن عبد الله بن سينا، أبو علي، شرف الملك: الفيلسوف الرئيس، صاحب التصانيف في الطب (ا) والمنطق والطبيعيات والالهيت. أصله من بلخ، ومولده في إحدى قرى بخارى. ونشأ وتعلم في بخارى، وطاف البلاد، وناظر العلماء، واتسعت شهرته، وتقلد الوزارة في همذان، وثار عليه عسكرها ونهبوا بيته، فتوارى. ثم صار إلى أصفهان، وصنف بها أكثر كتبه. ابن خلكان / وفيات الأعيان ١/ ١٥٢.الزركلي: الأعلام ٢/ ٢٤٢.

(٥)ابن الطفيل (٤٩٤ - ٥٨١ ه = ١١٠٠ - ١١٨٥ م) محمد بن عبد الملك بن محمد بن محمد بن طفيل القيسي الأندلسي، أبو بكر: فيلسوف.ولد في وادي آش Guadix وتعلم الطب في غرناطة، وخدم حاكمها.ثم أصبح طبيبا للسلطان أبي يعقوب يوسف (من الموحدين) سنة ٥٥٨ه واستمر إلى أن

=

وبسبب هذا التقارب بين العلوم والفلسفة لا يستبعد احتواء كتب الكيمياء والطب المترجمة على بعض الأفكار الفلسفية.

وشجع عمر بن عبد العزيز[3] ترجمة كتب الطب، فأمر بنشر كتب الطب الشرعي الذي نقله إلى العربية متطبب البصرة (مارسر جونه) في عهد الخليفة مروان بن الحكم[4]، وقد وجده في خزائن الكتب بالشام[5].

وأشهر من قام بدور الترجمة في العصر الأموي (الرهاوي)[6] الذي ترجم كثيراً من كتب الإلهيات اليونانية إلى العربية[7]، واضطلع السريانيون بنشر الفلسفة اليونانية في العراق وما حوله، وأخذوا ينقلون الكتب اليونانية إلى لغتهم السريانية وهي إحدى اللغات الأرامية

=

توفي بمراكش، وحضر السلطان جنازته.وهو صاحب القصة الفلسفية (حي بن يقظان). الزركلي: الأعلام ٦/ ٢٤٩

(١) ابن رشد (٥٢٠ - ٥٩٥ هـ = ١١٢٦ - ١١٩٨ م)محمد بن أحمد بن محمد بن رشد ض الأندلسي، أبو الوليد: الفيلسوف. من أهل قرطبة. عني بكلام أرسطو وترجمه إلى العربية، وزاد عليه زيادات كثيرة. وصنف نحو خمسين كتابا. الزركلي: الأعلام ٣١٧/٥-٣١٨.

(٢) القفطي: إخبار العلماء ٥٧، ٧١، ٧٢، ٧٣، ١٠٩، ١١٧، ١٣٠ وما بعدها.

(٣) عمر بن عبد العزيز: الخليفة الراشد والإمام العادل أبو حفص الأموي (٦١-١٠١) إمام، ثقة، فقيه، زاهد، ورع، صالح، عادل،أول من أمر بتدوين الحديث وكتابته، وشهرته تغني عن تعريفه رحمه الله. حلية الأولياء ٢٣٥/٥. الزركلي: الأعلام ٥٠/٥.

(٤)مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية القُرشِي الأُمَوِي: من كبار التابعين، روى عن عثمان بن عفان والمسور بن مخرمة، وأبي هريرة رضي الله عنهما وغيرهما، وروى عنه عروة بن الزبير وسعيد بن المسيب وجماعة، ولد بعد الهجرة بسنتين، وكان أصغر من عبد الله بن الزبير بأربعة أشهر، قال البخاري: (لم ير النبي ﷺ)، وبويع له بالخلافة بعد موت معاوية بن يزيد، روى له الجماعة إلا مسلماً المزي:تهذيب الكمال، تحقيق: د. بشار عواد معروف، مؤسسة الرسالة، (بيروت-١٩٨٠م)، ٣٨٧/٢٧،.

(٥) ابن أبي إصيبعة: عيون الأنباء، ١٦٣/١.

(٦) الرهاوي (٠٠٠ - ٥٨ هـ = ٠٠٠ - ٦٧٨ م) يزيد بن شجرة الرهاوي: أمير، حازم شجاع. من أصحاب معاوية. الزركلي: الأعلام ١٨٤/٨.

(٧) أحمد أمين: فجر الإسلام ١٦٢.

التـي انتشـرت فيمـا بـين النهـرين والـبلاد المجـاورة لهـا[1]، وكـان مـن أهـم مراكزهـا الرهـا ونصـيبين[2]، وظلـت هـذه المـدن مراكز للثقافة اليونانية إلى ما بعد الفتح الإسلامي تدرس فيها الرياضيات والفلك والفلسفة على المذهب الأفلاطوني[3] وهـم الـذين تسـموا - بعـد ذلـك - فـي عصر المأمون وبعده بالصابئيين[4]، وكان

---

(1) فيليب حتي: تاريخ العرب المطول، دار الكشاف ، (بيروت - ١٩٤٩م، ٢/ ٨٦.

(2) نصـيبين مدينـة قديمـة، تعـود إلـى الألـف الثاني قبل الميلاد. تقع في أسفل جبال كاشياري على نهير يتفرع من الخابور في أقصى شمال شرقي بلاد الرافدين سمي في العصر الإغريقي مكدونيوس ثم سمي ماسا الاسم الذي تصحف إلى موسى. وهـي علـى الأرجـح مدينـة أرامية باسـم نصيبينا. كانت تعتبر مركزا تجاريا لمرور التجارة مـن بـلاد آشـور وفـارس إلـى البحـر الأعلـى (المتوسط)، فقد سكنت فيها قبيلة (بيت- تمنـاي) الآراميـة علـى الأرجـح فـي القـرن الحادي عشر ق. م. الشريف الإدريسي.: نزهـة المشـتاق فـي اختـراق الآفـاق، عـالم الكتـب، بيـروت، الطبعـة الأولـى ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م،٢/ ٦٦١-٦٦٢.

(3) أفلاطون (عـاش ٤٢٧ ق.م - ٣٤٧ ق.م): وُلد في واحدة من أعرق العائلات في أثينا، وتنحدر أمه من نسل المشرع الأثيني الكبير سولون. وكلمة أفلاطون كنية تعني ذا الكتفين العريضتين، أما اسمه الحقيقي فهو =

= أرستوكليس. كان أفلاطون يرغب في شبابه أن يكون رجل سياسة. وفي عام ٤٠٤ ق.م، نصّب مجموعة من الأثرياء أنفسهم حكامًا مستبدين على أثينا، ودعوه للانضمام إليهم إلا أنه رفض لاشمئزازه من ممارساتهم القاسية اللاأخلاقية. وعندما أطاح الأثينيون بالحكام المستبدين في عام ٤٠٣ق.م. وأقاموا حكومة ديمقراطية أعاد أفلاطون النظر في الدخول إلى ميدان السياسة، لكنه تراجع عن ذلك بعد الحكم بإعدام صديقه سقراط في عام ٣٩٩ ق.م. وبعدها غادر أثينا في أسفار امتدت عدة سنين. فلسفة أفلاطون:نظرية المُثُل. كان أفلاطون شديد الاهتمام بكيفية استخدامنا لكلمة أو فكرة واحدة تغطي وتشمل عدة أشياء مختلفة. فمثلا كيف يمكن استخدام كلمة مائدة لكل الأشياء المفردة التي هي موائد؟ وقد أجاب على هذا السؤال بأن الأشياء العديدة يمكن تسميتها بنفس الاسم لأنها تتضمن شيئًا مشتركًا أُطلق عليه اسم المثال أو الفكرة. يوسف كرم: تاريخ الفلسفة اليونانية٢٢١.

(4) الصابئة وتسمى أيضاً الصابئة المندائية، وتعتبر نبي الله يحيى بن زكريا نبياً لها. ويعتبرونه المسيح؛ لذا تطلق عليهم بعض الطوائف اليهودية نصارى يوحنا المعمدان. =

منهم كثير من المؤلفين، و ممن تولوا الترجمة إلى العربية بعد ذلك. وخدم السريانيون العلم والفلسفة بما ترجموا من كتب الفلسفة اليونانية التي أصبحت الأساس الذي اعتمد عليه العرب والمسلمون، وكان لهم الفضل الكبير في نقل الفلسفة والعلوم إلى العربية في العصر العباسي[1].

= وهم لا ينكرون وحدانية الخالق، لكنهم يعتقدون بأمور كخلق الخير والشر، ووجود وسائط هي الكواكب. في الماضي، كان فريق منهم موحدين ذكرهم الله سبحانه وتعالى في القرآن مع أهل الكتاب والنصارى. وقد تأثرت فرقهم المتعددة، من حيث العقيدة بمؤثرات كثيرة مجاراة للبيئة والظروف التي تحيط بهم؛ فقد تأثروا باليهودية، والمسيحية وبالإسلام. وتأثروا بالمجوسية قبل الإسلام لمجاورتهم للمجوس في بلاد فارس قديماً. كما تأثروا بالحرانيين فنقلوا عنهم عبادة الكواكب والنجوم. كما تأثروا بالأفلاطونية المحدثة التي كانت في سوريا؛ فأخذوا منها الاعتقاد بالفيض الروحي على العالم المادي. انظر: الأفلاطونية المحدثة. وقد تأثروا بالفلسفة الإغريقية، وواضح ذلك في كتبهم المقدسة. عبد الرزاق الحسني: الصابئة في حاضرهم وماضيهم، –طبعة لبنان - ١٩٧٠ م.ص ٢٣.

المرحلة الثانية: العصر العباسي

لقد بدأت حركة ترجمة واسعة النطاق في النواحي العلمية والثقافية في العصر العباسي الأول منذ خلافة المنصور الذي كان شغوفاً بالطب والهندسة ويعتقد بالنجوم، وهو أول من راسل ملك الروم يطلب منه كتب الحكمة، فبعث إليه كتاب إقليدس وبعض كتب الطبيعيات[2]، وجمع حوله العلماء وشجعهم على ترجمة العلوم من اللغات الأخرى، وقد عرب كل من جورجيس بن جبرائيل[3] الطبيب وعبد الله

(١) أحمد أمين:المرجع السابق ١٢٩.

(٢) حاجي خليفة: كشف الظنون عن أسامى الكتب والفنون- دار الفكر- بيروت، ٦٧١/١.

(٣)جورجيوس بن جبرائيل هو جرجيس (جورجيوس) بن جبرائيل بن بختيشوع (ت ٧٦٩ م) عالم في الطب، وطبيب معالج بارع من أهالي مدينة جنديشابور، كان مشرفا على بيمارستان جنديشابور. هو كانت له خبرة بصناعة الطب ومعرفة بالمداواة وأنواع العلاج وخدم بصناعة الطب المنصور وكان حظيأ عنده رفيع المنزلة ونال من جهته =

بـن المقفـع كتـب المنطـق لأرسـطو طــاليس، واعتنـــى يوحنـــا بـــن ماســـويه[1] وســـلام الأبـــرش وباســـيل المطران بكتب الطب[2]. وفي عهده قام إبـراهيم الفـزاري بترجمـة كتـاب الفلـك الهندي الموسوم ب (السند هند)[3].

كمـا اسـتهل الفيلسـوف أبـو يوسـف يعقوب نشاطه الفكري الذي لم يقتصر علـى تعريـف مواطنيـه بالفلسـفة الأرسطوطاليسـية والأفلاطونيـة عـن طريق الترجمـة فحسـب، بـل تعـدى ذلـك إلـى توسـيع آفـاقهم العقليـة بمـا أخـرج من دراسات فـي التاريخ الطبيعـي وعلـم الظـواهر الجويـة مكتوبـة بـروح تلـك الفلسفة[4].

وقد زادت عناية الرشيد واهتمامه بترجمة الكتب، فأمر بترجمة جميع ما وقف فـي حـوزتهم مـن الكتـب اليونانيـة، كمـا وسـع ديـوان الترجمـة الـذي كـان قـد أنشـأه المنصـور لنقـل العلـوم إلـى العربيـة، وزاد عدد موظفيها فأسند ترجمة الكتب إلـى الطبيب يوحنا بن ماسويه وعين لـه كتاباً حـذاقاً يشـتغلون بـين يديـه ويسـاعدونه فـي عملـه[5]، وكـان الفضـل بـن نوبخـت المكنـى بـأبي سـهل الفارسـي[6] ينقـل

=

أمـوالاً جزيلـة وقـد نقـل للمنصـور كتبـاً كثيـرة مـن كتـب اليونـانيين إلـى العربـي. ابـن أبـي أصيبعة: عيون الأنباء١٠٤/١.

(١) أبو زكريا يحيى بن ماسويه (موسى) الخوزي طبيب عالم ومترجم مسيحي أبوه سرياني وكان صيدلانياً في جنديسابور الأحواز ثم عمل طبيبا في بغداد، أمّا أمه فكانت صقلبية، يعود له الفضل في تطور العديد من العلوم في العالم الإسلامي في العصر العباسي الأول. ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء١٥٨/١.

(٢) أحمد فريد رفاعي: عصر المأمون، مطبعة دار الكتـب المصـرية، القـاهرة، ط١، ١٩٢٧م، ٣٧٩/١.

(٣) بروكلمان: تاريخ الشعوب الإسلامية، تاريخ الشـعوب الإسـلامية، ترجمـة نبيـه أمـين فارسي، ومنير البعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت ١٩٧٧م، ص ١٤٠.

(٤) بروكلمان: المرجع السابق ٤٠.

(٥)القفطـي: أخبـا ر الحكمـاء ٢٤٩، ابـن أبـي أصيبعة: عيون الأنباء ١٧٥/١.

(٦) أبـــو ســـهل الفضـــل بـــن نَوْبخـــت فارســـي الأصـــل، ومـــن كبـــار مترجمي بيت الحكمة البغدادي، وقد تولى إدارته أيام هارون الرشيد.، كان الفضل في

=

كتب حكماء الفرس التي جمعت من خراسان وفارس إلى العربية، ومثله علان الفارسي الذي كان يعمل في خزانة الحكمة ويترجم للرشيد وللبرامكة[1].

ولما تولى المأمون الخلافة اهتم بترجمة علم الأوائل واقتدى بسياسة والده الرشيد في اهتمامه بالعلوم وأخذ يضمن شروط الصلح مع ملوك الروم إرسال كتب الحكمة فكان أحد شروط الصلح بينه وبين ميخائل الثالث[2] أن ينزل للمأمون عن إحدى المكتبات الشهيرة في القسطنطينية، وكان من بين ذخائرها الثمينة كتاب بطليموس في الفلك، فأمر المأمون بترجمته وسماه المجسطي[3].

كما أنشأ بيت الحكمة وهو مجمع علمي

= زمن هارون الرشيد صاحب خزانة كتب الحكمة، وكان قد تولى مهمة الترجمة والنقل من الفارسية إلى العربية .من مؤلفات الفضل: كتاب النمهطان في المواليد، كتاب الغال النجومي، كتاب المواليد، كتاب المدخل، كتاب تحويل سيء المواليد، كتاب التشبيه والتمثيل، كتاب المنتحل من أقاويل المنجمين في الأخبار والمسائل والمواليد. ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء ١/١٧٥.

(١) ابن النديم: الفهرست ٢٤٧.

(٢) ميخائيل الثالث: (٨٤٢-٨٦٧)هو ابن الإمبراطور ثيوفيلوس، والدته ثيودورا التي كان لها دوراً هاماً بإعادة إحياء الكنيسة الأرثودكسية وكانت الوصية على العرش والحاكمة الفعلية لحين بلوغ ميخائيل السن =

= القانونية لتبوّأ العرش.يصف الكثير من المؤرخين البيزنطيين الإمبراطور ميخائيل الثالث بطريقة سلبية نظراً لعدم جديته وانغماسه بشرب الخمر حتى السكر المتواصل وانعدام التقوى والتديّن لديه، ويشبّهه الكثير منهم بالقيصر الروماني الشهير كاليجولا الذي كان رمزاً للانحلال الأخلاقي. لكن المؤرخ المعاصر جريجوار يرى أن هؤلاء المؤرخين قد ظلموا ميخائيل الثالث الذي اعتبره جريجوار إمبراطوراً فذاً أحاط نفسه بنخبة المستشارين وحقق انتصارات عدة على الجبهة الشرقية وانتصاراً باهراً على الروس في ٨٦٠- ٨٦١. توفي اغتيالاً عام ٨٦٧م وهو في منتصف العشرينات من العمر.محمد مؤنس عوض: الإمبراطورية البيزنطية،عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، مصر، ٢٠٠٧. ص ٢٤٤.

(٣) جواد علي: تاريخ العرب قبل الإسلام، مطبعة المجمع العلمي العراقي، ١٣٥٥-١٩٧٤، ١/٦٨٠.

ومرصد فلكي ومكتبة[1]، يقيم فيه طائفة من المترجمين من أهل الذمة وتجري عليهم الأرزاق من بيت المال، وأرسل المأمون بعد ذلك بعثة علمية لشراء كتب الحكمة من بلاد الروم، مكونة من الحجاج بن مطر[2] وابن البطريق[3] وسلم صاحب دار الحكمة فأخذوا مما اختاروه عدداً كبيراً وحملوه إلى بغداد فأمرهم المأمون بترجمتها فاجتمع عنده في دار الحكمة مجموعة كبيرة من كتب الفلسفة والمنطق والموسيقى والفلك وغيرها[4]، إلى جانب كنوز العلوم الإسلامية[5]. وما أضافه الرشيد والمأمون من كتب العلم في لغات مختلفة وما جمعه يحيى بن خالد من كتب الهند[6].

وبلغت حركة الترجمة أشدها في عهده إذ حرص على نقل ما يتفق مع العقلية العربية الجديدة من التراث الهيليني والشرقي إلى العربية، فقد بلغ ا لتمازج الثقافي بين الثقافة العربية الإسلامية الجديدة وعلوم الأولين درجة كبيرة من التقدم وازدهار الترجمة لا يعطي للمأمون أكثر من كونه رمزاً للعصر وليس بالمحرك ولا الباعث له، إذ لم يبق المأمون في بغداد أكثر من عشر

(١) ديمتري جوتاس: الفكر اليوناني والثقافة العربية، حركة الترجمة اليونانية العربية في بغداد والمجتمع العباسي المبكر، ترجمة نقولا زيادة، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، ٢٠٠٣، ص ١١١ - ١١٢.

(٢)الحجاج بن يوسف بن مطر هو عالم رياضيات عربي عاش بين ٧٨٦ و٨٣٣. هو أول من ترجم كتاب العناصر لإقليدس .قام أيضا بترجمة ثانية محسنة لهذا الكتاب للخليفة العباسي أبو العباس عبد الله المأمون .قام كذلك بإعادة كتاب ترجمة المجسطي لبطليموس. ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء ١/١٧١.

(٣) يحيى بن البطريق: ت. نحو ٢٠٠ ه / ٨١٥ م) هو مترجم، كان مولى للمأمون، ويعرف أيضا ب يوحنا الترجمان. أمينا على الترجمة، حسن التأدية للمعاني، ألكن اللسان في العربية. وكانت الفلسفة أغلب عليه من الطب، كان يجيد اللاتينية واليونانية. ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء ١/١٧١.

(٤) الفهرست ٣٣٩.

(٥) بروكلمان: تاريخ الشعوب الإسلامية ٣٩.

(٦) محمد فوزي الفتيل: التربية عند العرب، الدار المصرية للتأليف والترجمة ١٩٦١، ص١.

سنوات بين (٢٠٤ - ٢١٤)، وكان تشجيعه للعلماء في جانب كبير منه عملاً سياسياً أكثر مما هو علمي، وكان ما فعله المأمون في هذا المجال أنه وسع دائرة الترجمة الموجودة في البلاط العباسي فجعل من مهمة (خزانة الحكمة) وأصحابها ترجمة الكتب الفلسفية أيضاً. وفي عهده ترجمت كتب اليونان الكبرى مثل كتب أفلاطون وأرسطواف في الفلسفة وأبقراط وجالينوس في الطب وأقليدس وأرخميدس وبطليموس وغير ذلك[1].

وإن عنصر الترجمة الحقيقي إنما قادته جماهير المتعلمين والمترجمين عبر عهد المأمون في عهد المعتصم (٢١٨ - ٢٢٧هـ / ٨٣٣-٨٤٢م)[٢] والواثق (٢٢٧-

(١) عبد المنعم ماجد: تاريخ الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى، ط٤ الانجلو المصرية، القاهرة ١٩٧٨م،، ١٤٧، ١٥٠.

(٢)الخليفة المعتصم بالله (٢١٨هـ-٢٢٧هـ) محمد بن هارون الرشيد بن محمد المهدي بن المنصور عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس ولد سنة ثمانين ومائة. لقبه: ابو اسحق، تولى الخلافة بعد أخيه المأمون في شهر رجب سنة ثمان عشرة =

٢٣٢هـ/ ٨٤٢-٨٤٧م)[٣] والمتوكل (232 – ٢٤٧هـ/ ٩٤٧ - ٨٦١م)[٤]، واستمرت الترجمة في عنفوانها وكثافتها حتى أواسط القرن الثالث الهجري، واستمرت حتى أواسط القرن الرابع الهجري.

لقد ازدهرت حركة التعريب والترجمة على أيدي أهل الذمة الذين عكفوا على

=

ومائتين هجرية فسلك ماكان المأمون عليه. أمه: ام ولد من مولدات الكوفة، اسمها ما رده وكانت احظى الناس عند الرشيد، وصف المعتصم بالشجاعة والقوة والهمة، ابن كثير، البداية والنهاية ٢٩٥/١٠.

(٣) هو الواثق بالله، أبو جعفر بن المعتصم بن الرشيد، ولي الخلافة بعهدٍ من أبيه، وكان يقول بخلق القرآن في أول أمره، ثم رجع عنه في آخره. ينظر: تاريخ الخلفاء: ٣٤٦-٣٤٠.

(٤)نهى المتوكل الناس عن الكلام في القران واطلق من في السجون، وكتب الى الافاق كتباً ينهى عن المناظرة والجدل فأمسك الناس، وقد واجه المتوكل عدة تمردات اثناء خلافته منها حركة ابن البعيث في اذربيجان، وتحرك البطارقة في ارمينيا، قتله الاتراك سنة (٢٤٧هـ / ٨٥١م)، وكانت خلافته اربع عشرة سنة وتسعة اشهر نيف، ودفن في قصره المعروف بالجعفري. الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ٢٢٢/٩ – ٢٣٤.

ترجمة وتعريب أمهات الكتب السريانية[١] واليونانيـــــــة[٢] والفهلويـــــــة[٣] والسنسكريتية[٤]، وكان ذلك بتأثير الخلفاء

(١)اللغــة السُــريانية: لغــة ســامية مشــتقة مـن اللغـة الآراميـة ويعتبرها بعـض الباحثين تطـــورًا طبيعيًـــا لهـــا موحـــدين بـــين اللغتـين، نشـأت اللغـة الآرامية، وهـي أصـل اللغــة الســريانية، فــي الألــف الأول قبــل المـــيلاد لتكـــون العائلـــة الثالثـــة ضـــمن عائلـة اللغـات السـامية، وأصبحت مـن القرن السادس قبل الميلاد لغة التخاطب الوحيدة فـي الهـلال الخصـيب إلـى مـا بعـد الميلاد، حيث تحورت تدريجيًا واكتسبت اسمها الجديد «اللغة السريانية» في القرن الرابع تزامنًا مع انتشـار المسـيحية فـي بـلاد الشـام. تعتبـر السـريانية اللغــة الأم لطوائـف الآشـوريون/ السـريان/ الكلـدان المنتشـرة بـالعراق وسـوريا خاصة، حيث أضحت من أهم العوامل التي تجمعهـم. إسـرائيل ولفنسـون: تـاريخ اللغات السـامية؛ ترجمــة لجنــة التــأليف و الترجمــة، مطبعة الاعتماد، القاهرة، ١٩٢٩م،١١٥ص.

(٢) اللغــة اليونانيــة مــن اللغــات الهندوأوروبيــة وهـي لغـة قديمـة، فتاريخهـا الموثـق يعـود لأكثـر مـن ٣٥٠٠ سـنة، يتكلمهـا بـين ١٥-٢٢ مليـــون شـــخص، هـــي اللغـــة المعاصـــرة المســـتعملة فـــي كـــل مـــن اليونـــان و قبـرص وأيضـا مـن قبـل جانـب الأقليـات والمهاجرين في العديد من البلدان الأخرى. تتكـون الأبجديــة اليونانيــة الحديثــة مــن ٢٤ حرفــاً. إســرائيل ولفنســون: تــاريخ اللغــات السامية ص ٢٠.

=

(٣)اللغــة البهلويــة أو اللغــة الفَهلَوِيّــة أواللغــة الفارسـية الوسـطى))بالفارسـية (وتطـورت عبـــر عهـــود مديـــدة. فاللغـــة الفهلويـــة الأشــــكانية اســــتخدمت فــــي عهــــد سـلالة الأشـكانيين مـن القـرن الثالـث قبـل الميلاد حتى نهاية القرن الثاني بعد الميلاد. ثـم سـادت اللغـة الفهلويـة الساسـانية فـي عهـد الحكـم الساسـاني مـن أوائـل القـرن الثالث الميلادي حتى سنة ستمائة وإحدى وخمســـين مـــيلادي. أصـــبحت اللغـــة الرسـمية للإمبراطوريـة الساسـانية .بعـد انهيار الإمبراطوريـة، بقيـت اللغـة البهلويـة منتشـرة كلغـة منفصلة عند الشـعوب. تنحـدر اللغـة البهلويـة مـن اللغـة الفارسـية القديمـة التـي انتشـرت فـي عهـد الإمبراطوريـة الأخمينيـة وهـي (أي اللغـة البهلويـة) السـلف اللغـوي للفارسـية الحديثـة التـي تعتبـر اليـوم اللغـة الرســـمية فـــي إيـــران وأفغانســـتان وطاجيكســـتان. إســـرائيل ولفنســـون: تـــاريخ اللغات السامية،٢٥٤.

(٤) السنسكريتية هـي لغـة قديمـة فـي الهند وهــــي لغــــة طقوســــية للهندوســــية والبوذيـــة، والجانيـــة، لهـــا موقـــع فـــي الهنـــد وجنـــوب شـــرق آســـيا مشـــابه للغة اللاتينية واليونانية في أوروبا في القرو ن الوسطى،، ولهذه اللغة جزء مركزي فـي التقليد الهندوسي .السنسكريتية هي إحدى

=

العباسيين إلا أنهم لم يكونوا وحدهم يهتمون بالترجمة والنقل إلى العربية، بل نافسهم الوزراء والأمراء والأغنياء وأهل العلم، وأخذوا ينفقون الأموال الطائلة عليها.

قال ابن الطقطقي[1]: إن البرامكة شجعوا ترجمة صحف الأعاجم حتى قيل إن البرامكة كانت تعطي المعرب زنة الكتاب المعرب ذهباً، وبالغ الفتح بن خاقان[2] وزير المتوكل في إنفاق الأموال على الترجمة والتأليف، ولم يكن محمد بن عبد الملك الزيات[3] أقل منه سخاء في هذا، وممن اشتهر بتشجيع حركة الترجمة والتأليف من الأغنياء محمد وأحمد والحسن أبناء موسى بن شاكر المنجم الذين أ نفقوا الأموال الضخمة في الحصول على كتب الرياضيات وترجمتها، وكانت آثارهم قيمة في الهندسة والموسيقى والنجوم وقد أنفذوا حنين بن سحاق إلى بلادهم الروم فجاءهم بطرائف الكتب وفرائد المصنفات[4]. ممن عرب لهم الكتب بالإضافة إلى حنين بن اسحق عيسى بن الحسن وثابت بن قرة[5]، وكانوا يرزقونهم في الشهر نحو خمسمائة دينار[6].

=

الاثنتين وعشرين لغة رسمية للهند .تُدرّس في الهند كلغة ثانية. كما أن بعض البراهمنيين -وهم الوعاظ من الطبقة العالية- يعتبرونها لغتهم الأم. إسرائيل ولفنسون: تاريخ اللغات السامية٢٥٥.

(١) ابن طباطبا: الفخري في الآداب السلطانية و الدول الإسلامية، نشرة: محمود توفيق الكتبى، المطبعة الرحمانية، مصر الفخري في الآداب السلطانية،ص ٢٣٥.

(٢)الوزير الكبير أبو الحسن عبيد الله بن يحيى بن خاقان التركي ثم البغدادي، وزر للمتوكل وللمعتمد، وجرت له أمور وقد نفاه المستعين إلى برقة ثم قدم بغداد بعد خمس سنين، ثم وزر سنة ست وخمسين. سير أعلام النبلاء ١٣/ ٩.

(٣) الوزير أبو جعفر محمد بن عبد الملك الزيات وزير المعتصم والواثق والمتوكل قبض عليه المتوكل وعذبه وسجنه حتى هلك كان أديبا شاعرا محسنا كامل الأدوات، العبر في خبر من غبر ١/ ٤١٤.

(٤) ابن النديم: الفهرست ٣٤٠.

(٥) قدري حافظ طوقان: تراث العرب العلمي في الرياضيات والفلك، مطبعة المقتطف، مصر، ١٩٤١م، ص ١٦٧.

(٦) رفاعي: عصر المأمون ١/٣٧٧.

ثالثا: بيت الحكمة وتحويل الترجمة إلى حركة رسمية

كانت حركة الترجمة حركة رسمية بمبادرة من الخلفاء ورعاية منهم، سواء في ذلك الأمويين أو العباسيون، وكانت هناك جهود فردية محدودة، ومن دون أن تكون لها مؤسسة تتولى شؤونها، وتنهض بأعبائها. ذلك لأن كل قادر على النقل من لسان ما إلى لسان آخر سواء بدافع من خليفة أو أمير، أو راغب في العلم، كان يعكف على ترجمة ما يراد منه أن يتوجه، أو ما يريد هو أن يترجمه حسب رغبته الخاصة. وكان التطور الكبير في الترجمة في عصر هارون الرشيد، فخصها بعناية فائقة لم تحظ بها قبلا، وأنشأ لها مؤسسة خاصة قائمة بذاتها هي " بيت الحكمة ".

و قبل أن ينشئ بيت الحكمة، جلبت بعض المؤلفات اليونانية من بلاد الروم، فانتدب طائفة من العلماء، الذين يعرفون اليونانية، والآرامية، والسريانية، للقيام بفحص ما تحويه مكتبات عمورية وأنقرة من مؤلفات تتحدث عن الطب، والفلك، والرياضيات، والحكمة، والفلسفة، وغيرها، فأودعها الرشيد بيت الحكمة، وأوكل أمر العناية بها إلى الطبيب يوحنا بن ماسويه الذي أصبح رئيسا لبيت الحكمة بعد ذلك.

قسم بيت الحكمة إلى عدد من الأقسام والقاعات والغرف.. فهناك غرف كثيرة للتدريس يحضرها الطلاب لتلقي العلوم فيها على أيدي أساتذة منتقين لتدريس تلك العلوم، أما المكتبة فتألفت من عدد من الغرف، مزودة برفوف تصف عليها الكتب.كما وجدت قاعة واسعة مخصصة لالقاء الدروس، وعقد المناظرات العلمية، حول شتى الموضوعات المختلفة. وهناك غرف خاصة معدة للاستراحة يؤمها الدارسون والمدرسون والمطالعون والعاملون في المكتبة، ليستريحوا فيها من عناء العمل.

وخصصت في بيت الحكمة غرف للمترجمين، وأخرى لمراجعي الترجمات وتنقيحها، وإصلاح كل خطأ فيها، و غرف خاصة بالنساخين للكتب إما لأنفسهم أو لحساب الغير، كذلك توجد غرف معدة لعمل المجلدين الذين يتولون تجليد كل كتاب يدخل إلى بيت الحكمة،بالإضافة

إلـى الغـرف المهيـأة للـوراقين، وخـازني الكتب والمناولين.

وقد اشتهر عدد من المجلدين والعاملين في بيت الحكمة من أشهرهم المجلد " ابـن أبـي الحريش"وكانـت النسـاء يـزاولن أعمالا في بيت الحكمة بصفة مناولات. وقــد اشــتهرت مــن بيــنهم " توفيــق السوداء " التي كانت مناولة للكتب في عهد " أبي منصور بن محمد الخازن " .

ولم يكن العمل في بيت الحكمة وقفا على طائفة معينة من العلماء فقد كان في مستطاع كل

قسم المترجمون إلى عدة أصناف. صنف ينقـل مـن اللغـة الأجنبيـة التـي يحـذقها إلـى اللغـة العربيـة رأسا. وصنف لا يحـذق اللغة العربيـة لكنه يحذق لغتين أجنبيتين أو أكثر وكان يعرف اليونانية والسريانية أو اليونانية، والسريانية، والفارسية في وقت واحـد. فمثل هـذا الصنف قـد ينقـل عـن اليونانيــة إلــى الســريانية، أو عنهـا إلــى الفارسية[1].

حتـى إذا مـا انتهـى مـن عمليـة النقـل، تـولى مترجمـون مـن العـالمين بإحـدى هذه اللغات ترجمة ما تم نقله إلى اللغة العربية، ولذلك فإن كثيرا من المصنفات اليونانيـة فـي الدرجـة الأولـى، لـم تتـرجم إلــى اللغــة العربيــة مباشــرة، وإنمـا جـرت ترجمتهـا إلــى الســريانية أو الفارسـية، ثـم نقلــت مــن هــاتين اللغتــين إلــى اللغــة العربية، وكانت الترجمة في بيت الحكمة تــتم مــن أشــهر اللغــات حينهــا هــي: اليونانية، والسريانية، والفارسية، والهندية، وقد جرت ترجمة بعض الكتب من اللغة النبطية.

وقــد تكــون بعــض هــذه النقــول غيــر دقيقـة، أو ركيكـة العبـارة، أو مجفـوة لأن عبارتــه كانــت عفطيــة غلقــة " كمــا وصــفابن النـديم[2] عنـد تقييمـه لـبعض المتــرجمين، ولــذلك يتــولى مترجمــون آخرون من العالمين باللغة العربية.

وصنف قسم الترجمة في بيت الحكمة حســب موضــوعات الكتــب التــي يــراد ترجمتهــا، فهنــاك مترجمــون مختصــون

(١) أحمد عيسى: التهذيب في أصول التعريب، مطبعة مصر - القاهرة ١٩٢٣ م، ص ٧٢.

(٢) الفهرست: ٣٦٧.

بترجمة كتب الفلسفة، وآخرون بكتب الطب، وغيرهم بمصنفات الفلك والكيمياء، والرياضيات وغيرها من العلوم.

وكان هناك طريقتان في الترجمة، هما: الطريقة الأولى تعتمد الترجمة الحرفية الدقيقة، أي ترجمة العبارات كلمة فكلمة، والتقيد بالألفاظ الأصلية تقيدا تاما، وعدم التصرف أو الخروج على هذه القاعدة.أما الطريقة الثانية فتعتمد على ترجمة معنى العبارة دون التقيد باللفظ الأصلي، وذلك بأن يقرأ المترجم الكتاب الذي يريد ترجمته، بإمعان وبعد أن يستوعب معناه في ذهنه يشرع بنقله إلى اللغة التي يحسنها.

قال الصفدي وللتراجمة في النقل طريقان: أحدهما طريق " يوحنا ابن البطريق" و " بان الناعمة الحمصي" وغيرهما، وهو أن ينظر إلى كل كلمة مفردة من الكلمات اليونانية، وما تدل عليه من المعنى، فيأتي بلفظة مفردة من الكلمات العربية ترادفها في الدلالة على ذلك المعنى، فيثبتها وينتقل إلى الأخرى كذلك حتى يأتي على جملة ما يريد ترجمته، وهذه الطريقة ردية.[1] والطريق الثاني في الترجمة، طريق حنين بن اسحق والجوهري[2] وغيرهما، وهو أن يأتي الجملة فيحصل معناها في ذهنه، ويعبر عنها من اللغة الأخرى بجملة تطابقها أجود " .

ولقد أدى اتباع المترجمين للطريقة الأولى إلى ظهور ترجمات ضعيفة ومفككة، وقد اشار " ابن النديم " إلى أمثال هؤلاء المترجمين منهم " ابن شهدي الكرخي " ومنهم " لاحبي "[3] الذي قال عنه " أنه جيد المعرفة بالسريانية، عفطي الألفاظ بالعربية،

---

(1) صاحب كتاب " فوات الوفيات " وهو تكملة لكتاب ابن خلكان " وفيات الأعيان" وقد طبع مؤخرا في ثمانية مجلدات.

(2) هو ابن سعيد الجوهري من كبار المترجمين في عصر المأمون.الزركلي: الأعلام ٤٠/١.

(3)ابن شهدي الكرخي هو من الأطباء النقلة الذين نقلوا كتب الطب وغيره من اللسان اليوناني إلى اللسان العربي وذكر الذين نقلوا لهم، كان مثل أبيه في النقل ثم إنه في آخر عمره فاق أباه ولم يزل متوسطاً وكان ينقل من السرياني إلى العربي ومن نقله كتاب الأجنة من تأليف أبو قراط.ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء ١٨٨.

ومنهم " فوبري " أيضا الذي قال عنه أن كتبه مطرحة مجفوة لأن عبارته كانت عفطية غلقة[١].

جمع الرشيد والمأمون كتبا كثيرة من خزائن الكتب القديمة التي جلبت: آسيا الصغرى، ومن الهند وإيران، وجزيرة قبرص، بالإضافة إلى ما كان يجمعه السريان من كنائسهم وأديرتهم في الشام وبلاد الجزيرة.

وجلب المأمون مجموعة من الكتب اليونانية من جزيرة قبرص[٢] ، قال " ابن نباته المصري " في كتابه " سرح العيون في شرح قصيدة ابن زيدون " أن المأمون جعل " سهلا بن هارون "[٣] على خزائنه الحكمة وهي كتب الفلاسفة التي نقلت للمأمون من جزيرة قبرص، وذلك أن المأمون لما هادن صاحب هذه الجزيرة أرسل إليه يطلب

---

(١) الفهرست: ٣٦٧.

(٢) قبرص: يرجع تاريخ الشعوب القديمة التي سكنت الجزيرة إلى حوالي عام ٦٠٠٠ ق.م. واستوطن فيها اليونانيون عام ١٢٠٠ ق.م وأنشأوا فيها الدّول المدن التي كانت شبيهة بالدول المدن اليونانية القديمة. وقبل المسيح عليه السلام غزا قبرص كل من الآشوريين والمصريين واليونانيين والفرس والرومان. وكانت ضمن السيادة المصرية فترات خصوصا بعد تقسيم الامبراطورية الرومانية لشرقية وغربية. وأدخل القديس بولس والقديس برنابا النصرانية إلى الجزيرة عام 45 م. وفي عام ٣٣٠م صارت قبرص جزءا من الإمبراطورية البيزنطية. فتح المسلمين =

= قبرص في عهد الخليفة الراشد الثالث عثمان بن عفان ٢٨ هـ \ ٦٤٩م - ٣٢ هـ \ ٦٥٣م. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ٣/٢٤٥.

(٣) سهل بن هارون (٠٠٠ - ٢١٥ هـ = ٠٠٠ - ٨٣٠ م) سهل بن هارون بن راهبون (أو راهيون) أبو عمرو الدستميساني: كاتب بليغ، حكيم، من واضعي القصص، يلقب (بزرجمهر الاسلام) فارسي الاصل، اشتهر في البصرة، واتصل بخدمة هارون الرشيد، وارتفعت مكانته عنده، حتى أحله محل يحيى البرمكي صاحب دواوينه. ثم خدم المأمون فولاه رياسة (خزانة الحكمة) ببغداد. وكان شعوبيا، يتعصب للعجم على العرب. والجاحظ كثير الاعجاب به، قال في وصفه: ومن الخطباء الشعراء الذين جمعوا الشعر والخطب والرسائل الطوال والقصار والكتب الكبار سهل بن هارون الكاتب الخ. الزركلي: الأعلام ٣/١٤٣.

خزانــة كتــب اليونــان، وكانــت مجموعــة عنـدهم فـي بيـت لا يظهـر عليهـا أحـد فجمع صاحب هذه الجزيرة بطانته، وذوي الرأي عنده، واستشارهم فـي حمل هذه الخزانة إلى المأمون، فكلهم أشاروا إليه بعدم الموافقة، إلا أن مطران واحد فأنه قال: الرأي بأن تعجل بانفاذها إليه، فما دخلت هـذه العلـوم العقلية فـي دولـة شــرعية إلا أفســدتها، وأوقعــت بــين علمائهـا " فأرسـلها إليـه، واغتـبط بهـا المأمون[1].

وجلــب المــأمون مــن القســطنطينية مجموعة أخرى من هذه الكتب أيضا، قال ابن النديم:" أن المأمون كان بينه وبين ملك الروم مراسلات، وقد استظهر عليه المأمون فكتب إلـى ملك الـروم يسأله الإذن فـي إنفـاذ مـا يختـار مـن العلـوم القديمـة المخزونـة المـدخرة ببلـد الـروم، فأجابـه إلـى ذلـك بعـد امتنـاع، فـأخرج المأمون لذلك جماعة منهم " الحجاج بن مطـر " و " ابـن البطريـق " و " سـلم " صـاحب بيـت الحكمـة وغيـرهم، فأخـذوا منها مما وجدوا ما اختاروا، فلما حملوه إليه أمرهم بنقله فنقل، وقيل أن " يوحنا بـن ماسـويه " كـان ممـن أنفـذ إلـى بلـد الروم[2]. و ممـن عنـي بإخراج الكتب مـن بلد الروم هم محمد، وأحمد، والحسن بن " شاكر المنجم "[3].

وجــئ بمجموعــة أخــرى مــن الكتــب القديمة من مدينة أصفهان[4] قال ابن

(١) ابن نباته المصري: سرح العيون فـي شرح قصيدة انب زيدون ص ٢٢٦ ، أحمد شلبي: تــاريخ التربيــة الإســلامية، مكتبــة النهضــة المصرية، القاهرة، ١٩٦٦م، ص ١٥٠.

(٢) ابن النديم: الفهرست ص ٢٥٣.

(٣) ابن النديم: المصدر السابق ، ص ٢٥٣.

(٤)أصــفهان أو أصــبهان هــي إحــدى مـدن إيران ومركـز محافظـة أصفهان علـى بعـد ٣٤٠ كـم جنـوب طهـران .» ورود كلمـة فارسية تعني «نهر.« كانت تسمى أصفهان "ايرانشـهر" وبعـد أن عمـرت سـميت "جَـي" ثـم اليهوديـة ومعنـى "جـي" الطـاهر، وقيـل أن "جـي" نسـبة إلـى ملـوك الجيـان وهـي جـي أفـرام بـن آزاد،، ثـم تغيـر الاسـم بمـرور الزمان أطلق الفرس عليها اسم "اسپهان" و "اسپاهان"، وبعد فتح المسلمون لها قاموا بتعريب الاسم وقالوا "اصبهان" و"اصفهان"، قيـل إن سـبب هـذه التسـمية لأنهـا تسـمى بالعجميــة "ســپاهان"، وهــي جمــع كلمــة =

النديم: " والذي رأيته أنا بالمشاهدة أن " أبا الفضل بن العميد[1] (تعريف به) " أنفذ إلى ها هنا في سنة نيفا وأربعين كتابا أصيبت في اصفهان في سور المدينة، فاستخرجها أهل هذا الشأن مثل "يوحنا"[2].

=

عسكر (سپاه: تعني العسكر، و "هان" تستخدم للجمع في عام ١٨ ه / ٦٤٠ م فتح المسلمون أصفهان. وخلال الفتح الإسلامي شهدت المدينة العديد من المعارك كما شهدت أيضا فترات زاهرة. وقد أعقب ضعف الخلافة في نهاية القرن العاشر الميلادي نشوء سلالات حاكمة محلية داخل إيران من خلال التجمعات الأسرية. فكان غرب إيران يسيطر عليه الديلميون والذين انقسموا بدورهم إلى البويهيين والكاكويين. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ١٩٠/١.

(١) ابن العميد هو الكاتب محمد بن الحسين بن محمد أبو الفضل بن أبي عبد الله المعروف بابن العميد لقب والده بذلك على عادة أهل خراسان في التعظيم . كان أبوه مترسلا بليغا يتولى الكتابة لنوح بن نصر الساماني ملك بخارى فنشأ على الأدب ودربه على الكتابة فبرع في الإنشاء والترسل وتوسع في الفلسفة والنجوم وقيادة الجيوش فضلا على نظم الشعر والترسل والكتابة حتى سمي بالأستاذ ولقب بالجاحظ الثاني بالمقارنة مع الجاحظ، وقد لقب بالجاحظ الثاني وذلك لبراعته في الكتابة. الزركلي: الأعلام ٩٩/٦.

جلب الخرائط والمصورات الجغرافية

كما ضم بيت الحكمة - بجانب نوادر الكتب و نفائسها - مجموعة من الخرائط والمصورات، و ذكر المسعودي هذه الخرائط والمصورات فقال عنها:" رأيت هذه الأقاليم مصورة في غير كتاب بأنواع الأصباغ، وأحسن ما رأيت... في الصورة المأمونية " التي عملت للمأمون، اجتمع على صنعتها عدة من حكماء أهل عصره، صور فيها العالم بأفلاكه ونجومه، وبره وبحره، وعامره وغامره، ومساكن الأمم، والمدن وغير ذلك، وهي أحسن مما تقدمها من جغرافيا " البطليموس" وجغرافيا " مارتيوس " وغيرها[3].

و" الصورة المامونية " هذه عبارة عن

(٢)ابن النديم : المصدر السابق من ٣٥٠.

(٣) المسعودي: التنبيه والإشراف، مكتبة خياط، بيروت،، د.ت، ص ٦٦.

خارطة مصورة للأرض، انتدب لها المأمون طائفة من علماء عصره، فوضعوا له صورة الأرض فنسبت إليه ودعيت بالصورة المأمونية وقد ذكر الأندلسي " محمد بن أبي برك الزهري " صاح " كتاب الجغرافيا" أن " الصورة المأمونية قد اجتمع عليها وعلى عملها سبعون رجلا من فلاسفة العراق، فوضعوها على صفة الأرض، وأن كانت على غير الحقيقة من ذلك، لأن الأرض كروية والجغرافيا بسيطة. وبالإضافة إلى الصورة المأمونية وضع علماء الهيئة والجغرافيا للمأمون كتابا في وصفها أعان عمال الدولة على التعرف إلى البلاد والأمم التي كانت خاضعة للدولة العباسية.

كتبت الكتب في دار الحكمة بخطوط قديمة من أمثال الخط الحبشي، والخط الحميري، والخط الآرامي، والسرياني، والعبري، واليوناني، والقبطي وغيرها،كما أشار إلى ذلك ابن النديم. كذلك ذكر ابن النديم نفسه عن وجود كتاب في بيت الحكمة، مكتوب على جلد آدم بخط عبد المطلب بن هاشم جد الرسول عليه الصلاة والسلام [1].

المبحث الثاني: الدور السياسي للمترجمين في العصر العباسي

أولا: العلاقة بين الخلفاء العباسيين والمترجمين:

اتصفت العلاقة بين الخلفاء العباسيين والمترجمين من الأطباء بالود والتقدير والاحترام، ونال عدد منهم منزلة رفيعة ومميزة في البلاط العباسي، وحازوا على قدر كبير من اهتمام الخلفاء العباسيين وكرمهم ورعايتهم، حتى ضاهي أحد المترجمين من الأطباء الخلفاء في اللباس والفرش والمأكل والمواكب.

وامتدت العلاقة الودية بين الخليفة العباسي لتشمل أبناء المترجمين من الأطباء،، فإن كان للمترجم الطبيب أبناء وفيهم طبيب جعله الخليفة خلفا لوالده، وإن لم يكن أحسن إليهم وأجرى عليهم الإنعام.

---

(1) ابن النديم: الفهرست ص ٢٩.

وشهدت العلاقات الطيبة تغيرات في بعض الفترات، بسبب اتخاذ الخليفة موقفا من طبيبه المترجم، بعض المؤامرات والدسائس التي تحاك ضد بعض الأطباء فتؤدي إلى نكبتهم على أيدي الخلفاء[١].

فتحدثت رواية عن علاقة الخليفة أبي جعفر المنصور، مع طبيبه المترجم جورجس بن جبرائيل[٢] والمتسمة بالتقدير والإجلال، فأنزله المنصور أول قدومه من جنديسابور، منزلا جليلا من دوره، وأكرمه وأغدق عليه المال الكثير، وأمر أن يجاب إلى كل ما و كان المنصور يبعث إلى طبيبه جورجس كل يوم بعض خدمه ليعرفوا أحواله، فلما اشتد مرض طبيبه في بعض الأيام أمر أن يحمل على سرير إلى دار العامة، فلما حضر إليها سار المنصور إليه ليعوده، ويسأله عن حاله، وعندما استأذن جورجس في الرحيل إلى بلده، تضايق المنصور من ذلك، وحاول إقناعه بالبقاء، إلا أن جورجس لم يكن يرى في بقائه فائدة بعد عجزه عن خدمة الخليفة، فجهزه المنصور وأمر له بعشرة آلاف دينار، وأنفذ معه خادما يراعيه في طريقه إلى بلده[٣].

---

(١) ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء، ص ١٨٦، ١٨٩، ٢٠٢، ٢٤١.. القفطي: إخبار العلماء بأخبار الحكماء، ١/ ١٣٧، ٢٢٤، ابن فضل الله العمري: مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار- تحقيق عبد الله بن يحيى السريحي وآخرين (١٥ مجلدًا، المجمع الثقافى - أبو ظبى - ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م. ٩/ ١٨٨، ١٩١.

(٢) جررجس بن جبرئيل (... - بعد ١٥٢ هـ = ... - بعد ٧٦٩ م) طبيب،سرياني الاصل. هو أبوبختيشوع الطبيب ورأس هذا البيت. كان رئيس الاطباء في جنديسابور، واعتل المنصور العباسي فأرشد إليه، فاستدعاه فقدم بغداد سنة ١٤٨ هـ فأحبه المنصور، فمكث حظيا عنده، ونقل له كتبا كثيرة من اليونانية إلى العربية. ثم اعتل جورجس وطلب الاوبة إلى جنديسابور فأذن له المنصور، فعاد سنة ١٥٢هـ ومات فيها. من =

= تصانيفه - عدا ما ترجمه إلى العربية - (كناش) ألفه بالسريانية وترجمه حنين بن إسحاق إلى العربية (ا). طبقات الاطباء ا: ١٢٣. الزركلي: الأعلام ١٤٦/٢.

(٣) ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء، ص ١٨٤، ١٨٥.

كما كانت علاقة الخليفة المهدي ودية مع طبيبه المترجم "عيسى أبو قريش"(1)، فنال مكانة عالية في البلاط العباسي، وصار من كبار أطبائه، وصاحبه في حله وترحاله، وجعله الخليفة المهدي مربيا لأبنائه الهادي و الرشيد، وأطلق عليه لقب أبا قريش لمحبته له(2). واستمرت علاقة الطبيب المترجم عيسى أبو قريش، متسمة بالتقدير والإجلال، مع الخليفة هارون الرشيد، فقد ثمن مكانته لخدمته لوالده، وفضله في تربيته حتى وفاة أبي قريش(3).

وكان الخليقة موسى الهادي (١٦٩ - ١٧٠ ه / ٧٨٦ - ٧٨٧م)(4) شديد المحبة والتقدير للطبيب المترجم عبدالله الطيفوري(5)، حيث اعتنى الطيفوري بتربيته ورعايته، حتى تولي الهادي الخلافة فلم ينس له تلك الرعاية والاهتمام، فزاد في جاهه، وجعله من خواصه الذين لا يستغني عنهم، وبلغت العلاقة بينهما أنه كان يتحدث مع الهادي بكلام خشن، والهادي لا يحمل عليه ولا يغضب منه، وبقيت علاقتهما على حالها من المحبة والتقدير إلى أن مات الهادي(6).

و حظي الطبيب المترجم بختيشوع بن جورجس بمكانة طيبة وتقدير من جانب

---

(1) عيسى المعروف بأبي قريش كان صيدلانياً يجلس على موضع نحو باب قصر الخليفة وكان ديناً صالحاً في نفسه. ابن أبي أصيبعة: المصدر السابق، ص ٢١٥.

(2) ابن أبي أصيبعة: المصدر السابق، ص ٢١٥.

(3) ابن أبي أصيبعة: السابق نفسه، ص ٢١٦.

(4) الخليفة موسى الهادي: (١٦٩ ه – ١٧٠ ه) الهادي: ابو محمد موسى بن المهدي بن المنصور. ولد بالري سنة سبع واربعين ومائة، بويع بالخلافة بعد ابيه المهدي بعهد منه، ولم يل الخلافة قبله في سنة. =

= أمه: الخيزران أم ولد بربرية مرقوقة، ومدة خلافته سنة واشهر، وقد اوصاه ابوه بقتل الزنادقة فجد في امرهم وقتل منهم خلقا كثيرا. الذهبي، سير اعلام النبلاء ٤٤١/٧ – ٤٤٢ السيوطي، تاريخ الخلفاء /٢١٣.

(5) عبد الله الطيفوري: هو الطبيب السرياني الذي كان مقرَّباً للخليفة العباسي الرابع الهادي الذي عاش بيت عامي (١٤٦-١٧٠ ه/٧٦٤ و ٧٨٦ م، وقد نال لديه حظوة كبيرة. ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء ١٣٦.

(6) ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء، ص ٢٢٠،٢٢١، ٢٢٣.

الخليفة الرشيد، لما رأى له خبرة كبيرة بالطب والعلاج، فوهب له الكثير من المال والأعطيات، وجعله رئيس الأطباء، يسمعون له ويطيعون[1].

و كانت علاقة الرشيد، بابنه جبرائيل بن بختيشوع[2] أكثر ودا ورفعة ومحبة، ونال من الجاه والمكانة عند الرشيد ما لم ينله غيره من الأطباء، حتى قال الرشيد فيه: " من كانت له حاجة فليخاطب بها جبرائيل، لأني أفعل كل ما يسألني فيه ويطلبه مني "[3]، ومما يؤكد محبة الرشيد لجبرائيل، أنه صرح بذلك حينما قدمت الموائد بين يدي الرشيد وطلب طبيبه جبرائيل حجب بعض الأطعمة عنه وجرب بعضها، وأصلح منها ما ينزع عنه الدهن، وكل ما يؤثر على صحة الرشيد، فأعجب الرشيد باهتمام طبيبه، وقال: "من يلومني على محبة هذا الرجل الذي يدبرني في هذا التدبير"، فأمر له بخمسة آلاف دينار. و كان الرشيد يصطحب معه جبرائيل في أسفاره، وأثناء حروبه، وكان جبرائيل مرافقا له في كثير من أوقاته.

وكان شاهد عيان لبعض الحوادث التي جرت في عهده، ومنها نكبة البرامكة التي حدثت سنة ١٨٧هـ / ٨٠٢ م.

وكان جبرائيل مرافقا للرشيد في أحد حروبه مع الروم، فأراد جبرائيل زيارة منزل الطبيب والفيلسوف الشهير جالينوس،

---

(١) ابن أبي أصيبعة: المصدر السابق، ص ١٨٧.

(٢)جبرئيل بن بختيشوع (٠٠٠ - ٢١٣ هـ = ٠٠٠ - ٨٢٨ م) جبرئيل بن بختيشوع بن جرجس: طبيب هارون الرشيد وجليسه وخليله. يقال إن منزلته مازالت تقوى عند الرشيد حتى قال لاصحابه: من كانت له حاجة إلي فليخاطب بها جبرئيل فاني أفعل كل ما يسألني فيه ويطلبه مني. فكان القواد يقصدونه في كل أمورهم. ولما توفي الرشيد خدم الامين، فلما ولي المأمون سجنه ثم أطلقه وأعاده إلى مكانته عند أبيه الرشيد، فلم يزل إلى أن توفي ودفن في دير (مار جرجس) بالمدائن. من تصانيفه (المدخل إلى صناعة المنطق) و (كناش) جمع فيه خلاصات ومجربات في الطب. وله رسالة في (المطعم والمشرب) وكتاب في (صنعة البخور) ألفهما للمأمون.طبقات الاطباء ١: ١٢٧ - ١٣٨. الزركلي: الأعلام ٢/١١١

(٣) ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء، ص ١٨٨. القفطي: إخبار العلماء بأخبار الحكماء، ج ١، ص ١٨١، ابن فضل الله العمري: مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، ٩/ ١٩٨.

لأنه قريب من معسكر الخليفة، فخشي عليه الرشيد من خروج الروم عليه في ذلك الموضع، وأمر أن يرافقه ألف فارس لحمايته حتى يعود[1].

وتبدلت العلاقة المميزة أواخر أيام الرشيد، فقد اعتراه مرض وهو في طريقه إلى مدينة طوس، واقتربت منيته، فجزع من مرضه وكان جبرائيل بصحبته، ولكنه لم يتمكن من علاجه، فطلب طبيبة غيره، فلما حضر الطبيب ووجد أنه لا جدوى من علاجه زعم أن مرضه إنما هو من أخطاء جبرائيل، فأمر الرشيد بسجن جبرائيل وقتله، إلا أن الرشيد توفي بعد أيام قليلة، وسلم جبرائيل[2].

واحتفظ الأمين (١٩٣-١٩٨ هـ / ٨٠٩-٨١٤م)[3] بعلاقة جيده مع جبرائيل، وأكرمه ووهب له أموالا كثيرة، وكان جبرائيل ملازما له مقربة إليه، حتى أنه كان لا يأكل ولا يشرب إلا بإذنه[4].

وتبدلت العلاقة في عهد الخليفة المأمون، فلم يقدر جهود الطبيب جبرائيل، وإخلاصه مع أبيه وأخيه، فقد اتسمت العلاقة بالتنافر في مستهل خلافته، وذلك بسبب انحياز جبرائيل إلى

---

(١)ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء، ص ١١٨، ١٨٨، ١٩١، ١٩٤، ١٩٦.

(٢) ابن أبي أصيبعة المصدر السابق، ص ١٨٨، ١٨٩.: الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ط٢، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠١.، ٤/ ١٤، ١٥، المسعودى: مروج الذهب، ٣/ ٣٠٤،٣٠٢، ابن الأثير: الكامل في التاريخ، دار المعرفة، بيروت، لبنان،٢٠٠٢م.، ٥/ ٢٤٨، ابن كثير: البداية والنهاية، دار إحياء التراث، بيروت، لبنان.د.ن. ١٠/ ١٩٨.

(٣) الخليفة محمد الأمين (193 -198ه / ٨٠٩-٨١٤م) محمد بن هارون الرشيد بن محمد المهدي بن المنصور عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس. ولد: لقبه: ابو عبد الله امه: زبيده بنت جعفر بن المنصور، تولى الخلافة بعهد من ابيه هارون الرشيد فبويع له بالخلافة في العسكر وهو يومئذ ببغداد فأتاه الخبر فصلى بالناس الجمعة ونعى الرشيد في خطبته الى الناس، ووصلت البردة والقضيب والخاتم في نصف جمادي الآخرة سنة (١٩٣ه)، وله فصاحة وبلاغة وادب وفضيلة، لكنه كان سيء التدبير كثير التبذير ضعيف الرأي ارعن لا يصح للاماره. الطبري:تاريخ الرسل والملوك ٥٠٧/٣ ابن كثير، البداية والنهاية ١٤٧/١٠

(٤) ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء، ص ١٨٩.

أخيه الأمين أبان الصراع بينهما[1]، حيث أمر المأمون بحبس جبرائيل، وبعد مدة أمر بإطلاق سراحه لشفاعة وزيره الحسن بن سهل، ثم أمر بعد ذلك بأن يجلس جبرائيل في منزله ولا يخدم بمهنته.

وعندما مرض المأمون وعجز أطباء القصر عن علاجه، أشاروا عليه بالطبيب جبرائيل، فأمر بإحضاره ونجح جبرائيل في علاجه، فسر به المأمون سرورا عظيما ووهب له الأموال الجزيلة، ورد له أملاكه وضياعه التي قبضت منه، وبدأت العلاقة بينهما تتحسن شيئا فشيئا حتى أصبح المأمون لا يرى مثله أحد من الأطباء، و بالغ في تقديره وتوقيره و كان يخاطبه بأبي عيسى، وكان المأمون يصطحبه معه في أسفاره، ولا يأكل ولايشرب إلا بإذنه، وظلت العلاقة بينهما تتسم بالصفاء، حتى توفي جبرائيل سنة ٢١٣هـ / ٨٢٨ م، وحزن المأمون على موته، وقرب ابنه بختيشوع وجعله طبيبه إكراما لأبيه[٢].

ولم يكن بختيشوع بن جبرائيل على علاقة طيبة مع الخلفاء في بعض الفترات، فقد توترت علاقته مع الخليفة الواثق بالله (٢٣٢-٢٤٧/٨٦١- ٩٤٧)[٣]، بسبب الدسائس والمؤامرات التي كانت تحاك ضده، فأمر الواثق بالله بمصادرة أملاكه وأمواله، ونفاه إلى جنديسابور، وحينما أحتاج إليه في مرضه طلب حضوره[٤].

ولما تولى الخليفة المتوكل على الله (٢٣٢-٢٤٧ هـ/ ٩٤٧ - ٨٦١م) قرب الطبيب

---

(١) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ٥/ ٣٢، مسكويه: تجارب الأمم و تعاقب الهمم، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان،٢٠٠٣م.، ٣/ ٢٩٠، ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ٥/ ٢٦٥، ابن خلدون: العبر العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، تحقيق/ خليل شحادة، دار الفكر للطباعة والنشر، ١٤٢١هـ/٢٠٠١م.، ٣/ ٢٩١.

(٢) ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء، ص ١٨٩، ١٩٠، ١٩٨.

(٣)هو الواثق بالله، أبو جعفر بن المعتصم بن الرشيد، ولي الخلافة بعهدٍ من أبيه، وكان يقول بخلق القرآن في أول أمره، ثم رجع عنه في آخره. تاريخ الخلفاء: ٣٤٠٣٤٦.

(٤) ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء، ص ٢٠٢، القفطي: إخبار العلماء بأخبار الحكماء، ١/ ١٣٧، ٢٢٤.

المترجم بختيشوع بن جبرائيل وأحسن معاملته، وحظي بمكانة عالية ومنزلة رفيعة عنده، إلا أن العلاقة كانت كثيرا ما تتوتر بينهما ولم تستقر طيلة خلافة المتوكل على الله،.

فقد بالغ المتوكل على الله في تقدير بختيشوع بن جبرائيل، في بادئ الأمر، حتى عظمت مزلته، وحسن حاله، وأصبح يباري الخليفة في الزي واللباس والطيب و الفرش والبذخ في النفقات، وبلغ مبلغ يفوق الوصف، فاستاء المتوكل على الله من ذلك، وقبض عليه وصادر أملاكه، ووجه به إلى بغداد[1].

وبعد مدة مرض الخليفة المتوكل على الله، فأحضر الطبيب المترجم بختيشوع فنجح في علاجه فاعتذر إليه المتوكل، وأنعم عليه و أعاد ما كان صودر منه ورضي عنه، وتحسنت العلاقة بينهما، وصار يأنس المتوكل على الله، بمجلسه و كلامه، وبلغ من الإجلال والرفعة والمنزلة عند المتوكل مكانة عالية، وطلب المتوكل على الله، من طبيبه بختيشوع ذات يوم، أن يضيفه على الغداء في منزله، ونال بختيشوع شرف حضور الخليفة إليه، وزاد ذلك الشرف بأن أراد المتوكل القيلولة عنده، غير أن ذلك الغداء و القيلولة قد انقلبت على بختيشوع بالنقمة، حينما رأى المتوكل على الله، أصناف الطعام وطرق عملها، وحال منزله الذي أبدع في تصميمه من الأنوار والروائح الطيبة جميع أنواعها تفوح من كل جانب[2]، مما أحدث مرة أخرى في نفس المتوكل حسدا من حال طبيبه، فانصرف من عنده وادعى أنه مرض من تلك الأطعمة، فأمر

(١) ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء، ص ٢٠٢.

(٢) اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي، دار صادر، بيروت،، د.ت.، ٢/ ٣٢٢، ٣٤٥، المسعودي: مروج الذهب، ٣/ ٢٥٩، ٣٠٠، ٣٢٣، السيوطي: تاريخ الخلفاء، تحقيق حمدي الدمرداش، مكتبة نزار مصطفى الباز، المملكة العربية السعودية، ١٤٢٥هـ، ص ٢١١، ٢٢٢، ٢٢٧، جرجي زيدان: تاريخ التمدن الإسلامي، منشورات دار الحياة، بيروت، ١٩٦٧م.، ٣/ ٦٤٢، وما بعدها، شاكر مصطفى: دولة بني العباس، وكالة المطبوعات، الكويت، ١٩٧٣.، ٢/ ٥٤٠ وما بعدها.

بالقبض عليه ومصادرة أملاكه[1].

ثم عالج بختيشوع المعتز ابن المتوكل على الله (٢٥١-٢٥٥ هـ/٨٦٥-٨٦٩م)[2]، من مرض أصابه، فنجح في علاجه، فقدر له ذلك المتوكل، وشكره على صنيعه، وتحسنت العلاقة بينهما مرة أخرى، وعرف المتوكل على الله، قدر طبيبه عنده، فلما اعتل بختيشوع حضر المتوكل على الله، وابنه المعتز وبعض الوزراء والولاة، لزيارته، وأمر المتوكل ألا يتعرض له أحد بعد ذلك اليوم، وباتت العلاقة لا يعكرها كدر حتى مات المتوكل على الله[3].

واتسمت العلاقة بين الخليفة المعتصم بالله (٢١٨-٢٢٧ هـ /٨٣٣-٨٤٢م)[4]، وطبيبه سلمويه بن بنان[5]، بالتقدير والإجلال، فكانت منزلة سلمويه من المعتصم بالله بمنزلة الأب، وكان المعتصم بالله، لا يناديه إلا بها، كما كان المعتصم بالله يصطحبه في سفره وحضره[6].

---

(١) ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء، ص ٢٠٥، ٢٠٦.

(٢)هو أبو عبد الله المعتز بن المتوكل بن المعتصم بن الرشيد ولد سنة ٢٣١هـ. بويع بالخلافة بعد خلع المستعين بالله في ٤ محرم سنة ٢٥٢هـ. ولم يزل والياً إلى أن خلع نفسه في ٢٧ من رجب سنة ٢٥٥هـ. كان عمره يوم ولي الخلافة تسعة عشر عاما، كان بديع الحسن. اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي ٥٠٢/٢

(٣) ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء، ص ٢٠٢، ٢٠٤، ٢٠٥، ٢٠٦، ٢٠٧.

(٤)الخليفة المعتصم بالله (٢١٨هـ-٢٢٧هـ) محمد بن هارون الرشيد بن محمد المهدي بن المنصور عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس ولد سنة ثمانين ومائة. لقبه: ابو اسحق تولى الخلافة بعد أخيه المأمون في شهر رجب سنة ثمان عشرة ومائتين هجرية فسلك ماكان المأمون عليه. أمه: ام ولد من مولدات الكوفة، اسمها ما رده وكانت أحظى الناس عند الرشيد، وصف المعتصم بالشجاعة والقوة والهمة. الخطيب، تاريخ بغداد ٣٤٣/٣ ابن كثير، البداية والنهاية ٢٩٥/١٠.

(٥) سلموية بن بنان: طبيب، فاضل. اختاره المعتصم العباسي لنفسه سنة ٢١٨ هـ وخص به. وله معه أخبار. كان عاقلا مدبرا اكتسب من خدمة الخلفاء معرفة بالسياسة. ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء ١٦٤ الزركلي: الأعلام ١١١/٢

(٦) الطبري: تاريخ الأمم و الملوك، ٥/ ٢٣٥، =

وبلغ سلمويه من المنزلة الرفيعة عند المعتصم بالله، ما لم يبلغه أحد من أطباء عصره، وعند مرضه عاده المعتصم بالله، وجزع عليه، وقال: " كيف يكون حالي بعد موته "، وبعد وفاة سلمويه، حزن عليه المعتصم بالله، حزنا شديدا، وامتنع عن الأكل يوم موته[١].

كما كان لأخيه ميخائيل بن ماسويه[٢] مكانة عند الخليفة المأمون وعلاقة ود ومحبة، وبلغ من التقدير والإجلال مكانة عالية، حتى كان المأمون يدعوه بالكنية أكثر مما يدعوه بالاسم، وكان يقدمه على غيره من كبار الأطباء، ويثق في علاجه ولا يتناول المأمون الأدوية إلا مما تولى ميخائيل تركيبه وإصلاحه له[٣].

وكان الواثق بالله (٢٢٧-٢٣٢ هـ/ ٨٤٢-٨٤٧م)[٤] شديد الإعجاب بالطبيب يوحنا بن ماسويه، وكان يأنس بحديثه، ويخرجه معه للصيد، و كان ملازما له حتى مات الواثق بالله[٥].

وكانت العلاقة بين الخليفة المعتضد بالله (٢٧٩ – ٢٨٩هـ/٨٩٢- ٩٠١ م)[٦]،

=

ابن الجوزي: المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، تحقيق محمد عبد القادر عطا، مصطفي عبد القادر عطا، الطبعة الأولي، بيروت - دار الكتب العلمية ١٤١٩هـ / ١٩٩٩م، ١١/ ٧٦، ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ٥/ ٤٥٥، اين كثير: البداية والنهاية، ١/ ٢٦٧.

(١) ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء، ص ٢٣٤.

(٢) ميخائيل بن ماسويه: متطبب المأمون، وميخائيل هذا هو أخو يوحنا بن ماسويه، كان هذا المتطبب لا يمتع بالحديث ولا يحتج في شيء يقوله بحجة، ولا يوافق أحداً من المتطببين على شيء أحدث من مائتي سنة. ابن أبي أصيبعة: المصدر السابق، ص ٢٥٦.

(٣) ابن أبي أصيبعة: المصدر السابق، ص ٢٥٦.

(٤)هو الواثق بالله، أبو جعفر بن المعتصم بن الرشيد، ولي الخلافة بعهدٍ من أبيه، وكان يقول بخلق القرآن في أول أمره، ثم رجع عنه في آخره. تاريخ الخلفاء: ٣٤٠-٣٤٦.

(٥)ابن أبي أصيبعة: السابق نفسه، ص ٢٤٦.

(٦)المعتضد بالله أحمد أبو العباس ابن ولي العهد الموفق طلحة بن المتوكل ابن المعتصم بن الرشيد ولد في ذي القعدة سنة اثنتين وأربعين ومائتين، وأمه أم ولد أسمها صواب وقيل: حرز وقيل ضرار وبويع له في رجب سنة تسع وسبعين ومائتين بعد عمه المعتضد، وكان ملكاً شجاعاً مهيباً ظاهر الجبروت، وافر العقل شديد الوطأة

=

وطبيبه "غالب"، موصوفة بالمحبة والتقدير والاحترام، وقد اختص بخدمة الموفق بالله - والد المعتضد بالله -[1]، منذ خلافة المتوكل على الله، ورضع جميع أبناء المتوكل، مع أولاده، فصارت بينهم أخوة من الرضاعة، وكان المعتضد بالله، يجله ويوقره، وجعله من ندمائه، ومن مرافقيه في رحلاته، ومات الطبيب غالب في مدينة آمد[2]، وهو مع المعتضد بالله، فحزن عليه، وأمر أن يقدم لأبنائه طعام العزاء، وجعل جميع كبار رجال الدولة، يقدمون العزاء لابنه

=

من أفراد خلفاء بني العباس، وكان ذا سياسة عظيمة.

(١) الطبري: تاريخ الأمم و الملوك، ٤٨٠/٥ وما بعدها، المسعودى، مروج الذهب، ٤/ ١٦٩، ابن الجوزي: المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، ١٢/ ٣٠٣، ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ٥/ ٦٦٦.

(٢)آمد: وهي أعظم مدن ديار بكر وأجلها قدرا وأشهرها ذكرا، وهو بلد قديم حصين ركين مبني بالحجارة السود وفي وسطه عيون وآبار قريبة نحو الذراعين يتناول ماؤها باليد وفيها بساتين ونهر يحيط بها السور. ياقوت الحموي: معجم البلدان ٥٦/١.

سعيد، وقرب المعتضد بالله، سعيد هذا وجعله مكان والده غالب تقديرا له[3].

ثانيا: مشاركة الأطباء المترجمين في الحياة السياسية العباسية:

حظي عدد من الأطباء المترجمين بمكانة رفيعة ومنزلة مميزة عند الخلفاء العباسيين، و نالوا موقعا يقارب موقع بعض الوزراء، وكل من له شأن كبير في البلاط العباسي، وصار الحلفاء لا يردون لهم طلبا، مما جعل بعض معاصر بهم يسعون للإفادة منهم في التقرب إلى الخلفاء.

ومن الطبيعي أن يكون لبعضهم أثر في الحياة السياسية في الدولة العباسية،، فقد ذكر أن الطبيب جبرائيل بن بختيشوع حين ارتبط بالخليفة هارون الرشيد وأصبح طبيبه، و علت مكانته عنده وعظم شأنه أصدر الخليفة الرشيد أمرا لأصحابه، يقضي بان كل من كانت له حاجة فليخاطب ما جبرائيل، لأن الرشيد كان يلبي كل ما يسأله أو يطلبه منه،

(٣) ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء، ص ٣١١، ٣١٢.

فأصبح القواد والأعيان يقصدونه في كثير من أمورهم، كما كان الرشيد يرى أن استمراره في الخلافة مرتبط ببقاء طبيبه جبرائيل[١]، لم يكن جبرائيل طبيبا فقط بل صار له أثره وعلاقته بالشأن السياسي في البلاط العباسي أيضاء.

وظل جبرائيل ذا أثر في الشأن السياسي في الدولة العباسية، ففي خلافة المأمون أسند إليه مكانة عالية في الدولة وأصدر المأمون أمرا بأن كل من تقلد عملا في حاضرة الخلافة العباسية لا يخرج إلى عمله إلا بعد أن يلقى طبيبه جبرائيل ويكرمه[٢].

كما كان للطبيب فرات بن شحاثا[٣] أثر سياسي في حياة عيسى بن موسى ولي عهد أبي جعفر المنصور، فقد كان عيسى يشاوره في كل أمر ويأخذ مشورته، وكان له دور في إقناعه بالتنازل عن ولاية العهد للمهدي بن المنصور، كما حثه على أن يتنازل أيضا عن ولاية العهد لأحد أبناء المهدي إذا دعي إلى ذلك، وذكره بأنه لا يمكن مخالفة الخلفاء في شيء يريدونه منه، وليس عنده منعة[٤].

كما تبوأ الطبيب سلمويه بن بنان[٥] مكانة رفيعة ومرتبه عالية في خلافة المعتصم بالله، فقد شغل منصبا في الدولة، وهو نائب المعتصم بالله، في التوقيع على السجلات، وكان يرد على أصحاب الدواوين خطه، و كانت الردود على الأمراء والقواد من أوامر وتواقيع

(١) ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء، ص ١٨٨، ١٩٢.

(٢) ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء، ص ١٩٠.

(٣) هو فرات بن شحاثا، طبيب يهودي عمل في خدمة عيسى بن موسى العباسي، وكان أستاذه تياذوق يقدمه على جميع تلامذته مهارته، وكان شيخا كبوا قد خدم الحجاج بن يوسف وهو حدث، و كان عيسى بن موسى يشاوره في كل أمر ينوبه. القفطي: إخبار العلماء بأخبار الحكماء، ج ٢، ص ٣٤٦، ابن أبي أصيبعة: المصدر السابق، ص ٢٣٠.

(٤) ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء، ص ٢٣١.

(٥) سلموية بن بنان: طبيب، فاضل. اختاره المعتصم العباسي لنفسه سنة ٢١٨ ه وخص به. وله معه أخبار. كان عاقلا مدبرا اكتسب من خدمة الخلفاء معرفة بالسياسة. ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء ١٦٤ الزركلي: الأعلام ٢/١١١

خط الطبيب سلمويه، كما قرب سلمويه أخاه إبراهيم بن بنان[1]، (من بلاط الخلافة العباسية، وأقنع المعتصم بالله أن يوليه منصب إدارية مهمة في الدولة العباسية، وهو خازن بيت المال[2]، وجعل له خاتما مع خاتم الخليفة المعتصم، تمضي عليه جميع الأمور المالية بأمره[3].

وكان الطبيب يوحنا بن ماسويه عالي المنزلة عند الخليفة المتوكل على الله، ولذا كان ذا تأثير في مجريات بعض الأمور السياسية والقرارات المهمة، ففي أثناء إحدى حواراته في مجلس المتوكل على الله، على الوزير الفتح بن خاقان، لما بدر منه من جميل الصنعة تجاه المتوكل، وأنه من أفضل الوزراء إخلاص ومحبة للخليفة، بل أنه قال إنه أفضل مني في طبي من مراعاتي لك[4]، فكانت تلك النصائح أحد أسباب محبة المتوكل على الله، لوزيره الفتح بن خاقان.

ومن الأطباء المترجمين الذين لهم شأن سياسي في الخلافة العباسية، داود بن ديلم[5] طبيب الخليفة المعتضد بالله، فقد بلغ مرتبة عالية عند الخليفة حتى أنابه بالتوقيع والكتابة عنه[6].

وأدى طبيب المترجم أبو الحسين عمر

---

(١)وولى إبراهيم بن بنان أخا سلمويه خزن بيوت الأموال في البلاد، وخاتمه مع خاتم أمير المؤمنين المعتصم بالله، ولم يكن أحد عنده مثل سلمويه وأخيه إبراهيم في المنزلة. ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء، ص ٢٣١.

(٢)لقد كان من مهام مجلس بيت المال تنظيم حسابات ديوان النفقات وتوخي ضبطها، وذلك بمقابلة النفقات من صكوك وإطلاقات وأوامر صرف بمجاميع النفقات المصروفة التي كانت تصل إلى ديوان بيت المال. السامرائي: المؤسسات الإدارية في الدولة العباسية، ص ٢٣٨.

(٣) ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء، ص ٢٣٤.

(٤) ابن أبي أصيبعة: المصدر السابق، ص ٢٥٣.

(٥) داود بن ديلم:الطبيب البغدادي، كان من الأطباء المتميزين ببغداد، المجيدين في المعالجة، واختص بالمعتضد وخدمه. وكانت التوقيعات تخرج بخط ابن ديلم لمحله منه. وكان يتردد إلى دور المعتضد، وله منه الإحسان الكثير والإنعام الوافر. وكانت وفاته سنة تسع وعشرين وثلاث مائة.

(٦) ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء، ص ٣١٦.

بـــن الـــدحلي[1] دورا سياســيا للخليفـــة المطيـع اللـه،، فبعـد أن كـان طبيبـه ولا يتعـدى عملـه العـلاج والعقـاقير، أصبح المتصـرف بـإدارة شـؤون خلافتـه، وصـار يتوسط في تعيين كتاب الخليفة، ومنهم أبو سعيد وهب بن إبراهيم، ثم أبو بشر البقري، وبقي على حاله حتى مستهل خلافـة الطـائع للـه (٣٦٣-٣٨١ ه/ ٩٧٤-٩٩١م)[2]، حيـــث اعتقـــل وأودع فــــي السـجن، وظـل فـي سـجنه حتـى دخـل بختيـار البـويهي[3] بغـداد وهـرب مــن ســجنه[4]. وكـــان ذلـــك ســـنة ٣٦٤ ه /

(١) عمـر بـن الـدحلي كـان متطبباً للمطيـع للـه، وكـان شـديد الـتمكن منـه والاختصاص بـه،نـه كان لا يحتشمه فـي شيء جملة، ولما صرف المطيع للّه أبا محمد الصلحي كاتبه، توسط أبو الحسين بن الدحلي لأبي سعيد وهب بن إبراهيم حتى تقلد كتبة الخليفة، وبقي مدة. ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء، ص ٣١٦.

(٢) الطائع بالله أبو بكر عبد الكريم، هو الطائع للـه أبـو بكـر الطـائع للـه: أبـو بكـر عبـد الكريم بن المطيع بن المقتدر بن المعتضد (320) . ه 393 - ه (من خلفاء الدولة العباسية، حكم من 363 ه 381 - ه .أمه أم ولد اسمها هزار. نـزل لـه أبـوه عـن الخلافـة وعمـره ثـلاث وأربعـون سـنة فركـب وعليـه البـردة ومعـه الجيش وبين يديه سبكتكين وخلع من الغد علـى سـبكتكين خلـع السـلطنة وعقـد لـه اللـواء ولقبـه نصـر الدولة.سير أعـلام النـبلاء ١٥/١١٩.

(٣)عـــز الدولـــة بختيـــار بـــن معـــز الدولـــة البويهي ثاني حكام البويهيين في العراق، ولـد سـنة (٣٣١ه)، تـولى الحكـم بعـد وفـاة ابيه معز الدولة سنة ٣٥٦ للهجرة وكان في الخامسـة والعشـرين مـن عمـره وذلـك فـي عهـد الخليفـة المطيـع للـه العباسـي وهـي الفتـرة التـي هـيمن فيهـا البويهيـون علـى السلطات الفعليـة للخلفـاء الـذين جُـردوا مـن اي صــلاحيات مســتقلة، اســتمر حكــم عــز الدولــة البــويهي حتــى مقتلــه عــام ٣٦٧ للهجرة على يد ابن عمه عضد الدولة. بنو بويـه مـثلهم مثـل بـاقي الـديلم يعتنقـون المـذهب الشـيعي الزيـدي، و مرجـع ذلـك أنهـم - الـديلم - اعتنقـوا الإسـلام علـى يـد الحسـن الأطـروش الزيـدي· دخـل بنـو بويـه فــي خدمــة "ماكــان بــن كــالى" صــاحب طبرستان وجرجان، ثم في طاعة مردويج بن زيار، ثم خرجوا عليه، وأقاموا دوله خاصة بهـم عرفـت باسـم الدولـة البويهيـة، ضـمت بـلاد فـارس والعـراق، وكانـت بـدايتها فـي فـارس عـام (٣٢١ هـ / ٩٣٣م)، و فـي العراق (٣٣٤ ه / ٩٤٥ م). ابـن مسـكويه: تجارب الأمـم، ١/ ٢٧٨-٢٧٩.

(٤) ابن أبي أصيبعة: المصدر السابق، ص ٣٢١.

(٥) مسكويه: تجارب الأمـم، ٥/ ٤١٢، ابـن الأثيـر: الكامـل فـي التـاريخ، ٧/ ٨٠ ، ٨١، ابـن خلـدون: =

كما تقلد الطبيب أبو الفرج صاعد بن هبة الله[1] الوزارة في خلافة الناصر الدين الله[2]، وحظي عنده وبلغ من المكانة ما لم يبلغه أحد من أطباء عصره، فسلم إليه الناصر عدة جهات يخدم بها وفيها عدة دواوين و كتاب بين يديه، وجعله مسئولا عن الأموال في دولته لأمانته،

=

العبر، ٣/ ٥٣١، ٥٣٢.

(١) صاعد بن هبة الله بن توما نصراني من أهل بغداد، وكان من الأطباء المتميزين والأكابر المتعينين، كان طبيب نجم الدولة أبي اليمن نجاح الشرابي، وارتقت به الحال إلى أن صار وزيره وكاتبه، ثم دخل إلى الناصر وكان يشارك من يحضر من أطبائه في أوقات أمراضه، ثم حظي عنده الحظوة التامة وسلم إليه عدة جهات يخدم بها، وكان بين يديه فيها عدة دواوين وكتاب، وقتل في سنة عشرين وستمائة. ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء، ص ٤٠٥.

(٢)الناصر لدين الله. أحمد أبو العباس بن المستضيء بأمر الله ولد يوم الاثنين عاشر رجب سنة ثلاث وخمسين وخمسمائة وأمه أم ولد تركية اسمها زمرد وبويع له عند موت أبيه في مستهل ذي القعدة سنة خمس وسبعين وأجاز له جماعة. السيوطي: تاريخ الخلفاء ١٨٤.

وكان يتدخل في حل القضايا و يتوسط في بعض الأمور عند الخليفة، وبقي على حاله حتى قتل على يد أحد الجنود[3].

ثالثا: تآمر الأطباء المترجمين على الخلفاء

كما لعب بعض الأطباء المترجمين أدوارا سياسية سيئة في الخلافة العباسية، ولم يسلم بعض الخلفاء من شرورهم، فشارك عدد من الأطباء مع المتآمرين على بعض الحلفاء، فهناك روايات تشير إلى بعض الخلفاء الذين ذهبوا ضحية أطبائهم، فتشير رواية إلى أن الخليفة الهادي مات بسبب تآمر الأطباء عليه، وكذلك الخليفة المأمون قيل أنه كان ضحية الطبيب يوحنا بن ماسويه، ولم يسلم الخليفة المعتضد بالله، من تآمر الأطباء عليه..

وتنسب الروايات أحيانا أن سبب وفاة الخليفة هو طبيبه الخاص، فهناك رواية تشير إلى وفاة الخليفة المأمون، بسبب

(٣) ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء، ص ٤٠٥.

طبيبه يوحنا بن ماسويه، بإشارة من أخيه المعتصم بالله، عندما نهض المأمون من نومه محموما، وفصد فظهرت في رقبته نفخة كانت تعتاده و يراعيها الطبيب إلى أن تنضج وتفتح و تبرأ، فقال المعتصم بالله، ليوحنا بن ماسويه: "إن هذه النفخة تعتاد أمير المؤمنين، أفلا تزيلها عنه، وتتلطف في حسم مادتها حتى لا ترجع إليه، ووالله لئن عادت هذه العلة عليه لأضر بن عنقك"، فانصرف يوحنا وهو في غاية الدهشة من قول المعتصم، فحدث يوحنا من يثق به بذلك القول، ففسرها أن المعتصم بالله، أراد من ذلك موت المأمون، لأنه قال لئن عادت لأضر بن عنقك، فأمر يوحنا تلميذ له بمتابعة تلك النفخة التي تعتاد المأمون، وإزالتها، وتلميذه يثنيه عن فعل ذلك، لأنها لم تحمر ولا بلغت وقت إزالتها، فأصر يوحنا على موقفه، فلما أزالها تلميذه مات المأمون[١].

بل الأشد من ذلك أن هناك تشير إلى إصابة المعتضد بالله، بمرض الاستسقاء، فأحضر الأطباء وقال لهم: أليس تقولون أن العلة إذا عرفت عرف دواؤها، فما بالكم تعالجوني ولست أصلح"، فلاطفه الطبيب عبدوس[٢]، وظن الأطباء عزم المعتضد بالله، على الإيقاع بهم، فتشاوروا على أن يرموه في التنور، فاحموه ورموا المعتضد بالله فيه، حين ارتفعت الحرارة إلى قلبه فمات بعد أيام، وكان ذلك سنة ٢٨٩ها ٩٠١م[٣].

رابعا: مصاحبة الأطباء المترجمين للخلفاء في أعمالهم وحياتهم الخاصة:

كشفت رحلات و تنقلات بعض الخلفاء العباسيين، صورة عن حياة الخليفة سواء كانت تلك الرحلات أو التنقلات لأغراض النزهة، أو لغرض ديني، كالخروج للحج، أو سياسي، مثل خروجهم للحرب، كما أبرزت

---

(١) ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء، ص ٢٥٤.

(٢) عبدوس: كان طبيباً مشهوراً ببغداد، حسن المعالجة، جيد التدبير، ويعرف كثيراً من الأدوية المركبة، وله تجارب حميدة، وتصرفات بليغة في صناعة الطب. ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء، ص ٢١٩.

(٣) ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء، ص ٣١٣.

جوانب تتعلق بأحداث ووقائع تاريخية مهمة كانت مصاحبة لتلك الرحلات والتنقلات.

فقد تحدث ابن أبي أصيبعة مثلا عن انتقال أبي جعفر المنصور، من مدينة الكوفة، إلى عاصمته الجديدة بغداد، بعد القضاء على ثورة محمد بن عبدالله العلوي الملقب بالنفس الزكية[1]، وأخيه إبراهيم[2]، و كان حرص المنصور على الانتقال حتى لا تكون عاصمته مهدده من جانب العلويين، الأمر الذي قد ينتج عنه تهديد الخلافة العباسية نفسها.

كما ساق رواية أخرى تتحدث عن رحلة المنصور الأخيرة إلى مكة، لأداء مناسك الحج، ومرضه في طريقه، وموته قبيل موافاته مكة[3].

و أيضا أورد ابن أبي أصيبعة، رواية تتحدث عن رحلة الخليفة المهدي إلى مضاعفة غلته وجعلها أكثر من حارسه وحاجبه[4].

ومن رحلات الرشيد التي ذكرها ابن أبي أصيبعة أيضاء رحلته لمدينة الحيرة ونزوله عند عون العبادي الجوهري، قائد البلدة، وكان الرشيد كثيرا ما يقيم في الحيرة وذلك لارتياحه في تلك البلدة، وقد أبان عن كثرة تردده على الحيرة بقوله: " قد

(١) محمد النفس الزكية (١٠٠ ١٤٥ ه) بن عبد الله الكامل بن الحسن المثنى بن الحسن السبط الهاشمي القرشي، ولد بالمدينة سنة ١٠٠ ه. يكنى أبا عبد الله، كان كثير الصوم والصلاة، شديد القوة. رجلاً شديد السمرة. ضخماً في لسانه تمتمة، بين كتفيه خال أسود كالبيضة، كان أفضل أهل بيته ويسمونه المهدي، وكان علماء آل أبي طالب يرون فيه أنه النفس الزكية، وثار على العباسيين، تحرك أبو جعفر المنصور ناحية المدينة وحاصرها العباسيون من ثلاث جهات، تاركين جهة حرة لمن يرغب في الانسحاب أو الاستسلام، وبدأت المعركة وقتل محمد النفس الزكية على يد (قحطبة بن حميد) والذى فصل رأسه بسيفه. السيوطي: تاريخ الخلفاء ١٠٦.

(٢) ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء، ص ٢٣٠، ٢٣١.

(٣) ابن أبي أصيبعة: المصدر السابق، ص ٢١٩. تقي الدين أحمد بن علي المقريزي: الذهب المسبوك في ذكر من حج من الخلفاء والملوك، تحقيق: جمال الدين الشمال، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، الطبعة الأولى ١٤٢٠ه / ٢٠٠٠م ، ص ٦٨.

(٤) ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء، ص ١٩١.

نزلنا الحيرة مرارة، وأجحفنا بعون العبادي في نزولنا بلده "، كما كانت رحلة الرشيد إلى مدينة طوس[1] هي آخر رحلاته حيث مرض في طريقه إليها وتوفي بها[2].

ومن رحلات الخلفاء التي أشار إليها ابن أبي أصيبعة قدوم الخليفة المأمون إلى بغداد، سنة ٢٠٤هـ /٨٢٠ م[3]، فقد كان مقيمة في مدينة مرو[4]، وتقلد الخلافة وهو بعيد عن بغداد، وذلك حتى تنتهي الفوضى والفتنة التي عمت بغداد، بعد مقتل أخيه الأمين.

ومن رحلات المأمون، رحلته إلى البصرة لزيارة واليها أخيه الأمير صالح بن الرشيد، والاطمئنان على أحوال المدينة، وكذلك مسيره إلى أطراف بلاد الروم سنة ٢١٠هـ / ٨٣٠م، ومعه طبيبه ختيشوع بن جبرائيل، وكانت معه بعض السفن المشاركة في الحرب ضد الروم، وكذلك خروج المأمون إلى طرسوس[5] ومعه أخوه

---

(١) طوس هي مدينة تاريخية أثرية بإيران تسمى اليوم بمشهد الرضا .كانت من كبرى مدن خراسان القديمة حتى هجوم المغول وهدمهم لها، وبعد القرن السابعالهجري لم ترجع إلى ما كانت عليه من قبل أبداً؛ فقد هاجر من بقي من أهلها رويداً رويداً إلى قرية سناباد .كانت المنطقة التي تسمى اليوم طوس أكبر مدينة في المنطقة المحيطة بأكملها في القرن الخامس الميلادي. كانت طوس مسقط رأس العديد من كبار علماء الفرس في شتى العلوم، ومن مشاهيرهم الشاعر أبو القاسم الفردوسي صاحب كتاب الشاهنامه، و أبو حامد الغزالي.ياقوت الحموي: معجم البلدان٤/٤٩.

(٢) ابن أبي أصيبعة:المصدر السابق، ص ١٨٨، ١٩٦.

(٣) ابن أبي أصيبعة: المصدر نفسه، ص ١٨٩، ٢٥٦.

(٤) مرو: ويقال فا مرو الشاهجان، وتعي =

= (نفس السلطان) كما تعني بالعربية الحجارة البيض، وهي أشهر مدن خراسان، بينها وبين نيسابور سبعون فرسخا (٢١٠ ميلا)، وبها نهران يقال لهما الرزيق و الماجان، كما اشتهر بها الماء البارد لكثرة الثلج، والقطن اللين، خرج من مدينة مرو الكثير من العلماء والأعيان منهم، أحمد بن محمد حنبل، وسفيان بن سعيد الثوري، وينسب إليها عبدالرحمن بن أحمد بن عبدالله المروزي أحد فقهائها. ياقوت الحموي: معجم البلدان، تحقيق محمد علي مرعشلي، دار إحياء التراث، بيروت، لبنان.د.ن.، ٥/ ١١٢ ، ١١٣.

(٥) طرسوس هي مدينة تركية تقع جنوب البلاد على ساحل البحر الأبيض المتوسط، =

المعتصــم باللــه، وطبيبــه يوحنــا بــن ماسويه، فتعل المأمون ومات في تلك الرحلة[1].

ومن تنقلات الخلفاء التي أشار إليها ابن أبي أصيبعة في كتابه، انتقال الخليفة المعتصم بالله من بغداد متوجها إلى مدينة "سر من رأى"[2] سنة ٢٢٠هـ / ٨٣٠م[3] حيث استقر فيها بعد اكتمال بنائها واتخذها عاصمة له.

خامســا: عــرض المتــرجمين لروايــات جديــدة لــبعض لحــوادث والقضــايا السياسية.

ومـن ذلـك، روايـة تتحـدث عـن موقـف الخليفة هارون الرشيد من وزيره جعفر بن يحيـى البرمكـي[4]، حيث إن الرشـيد فـي أول محـرم سـنة ١٨٧هــ / ٨٠٢ م، قلـت رغبته فـي الإقبال علـى الطعام، وذلك دون علة أصابته، وكان طبيبه جبرائيل بن بختيشوع، يتعجب من ذلك، ويدرك أنه لا يوجد أمر يؤثر علـى صحته يؤدي فـي

=

ذكـر كتــاب تــاريخ الخلفــاء للســيوطي أن المــأمون دفــن فيهــا ســنة ٢١٨ هجريــة ومـازال ضريحه ظاهرا. كما ان معارك أخرى حدثت ضد الروم فـي سنة ٢٧٠ هجرية فـي زمـن المعتمـد علـى اللـه. يـاقوت: معجـم البلدان ٢٨/٤. السيوطي: تاريخ الخلفاء ١٢٩.

(١) ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء، ص ١٩٥، ٢٥٤.

(٢) سـر مـن رأى: مدينـة مـن السـرور والرؤيـة بناها أبو اسحاق المعتصم بن رشيد، فأضاف إليهـا الواثـق المدينـة الهارونيـة، وتـم بناؤهـا المتوكـل وأضـاف إليهـا المدينـة الجعفريـة، ولـيس بهـا مـاء يجـري إلا أنهـار القـاطول وهواؤها وثمارها أصح من ثمار بغداد، ولها نخيـل وكـروم وغـلات تحمـل إلـى مدينـة الســـلام، ابـــن حوقـــل، صـــورة الارض، بيــروت،١٩٧٩، ص٢١٨، المقدســي: أحســن التقاسيم، ١٢٢.

(٣) ابن أبي أصيبعة: المصدر السابق، ص ٢٣٥.

(٤) أحد أفراد الأسرة البرمكية التي وبدأ ظهور نشــاطهم فــي عهــد عبــد اللــه الســفاح والمنصور، ثم سيطروا على الحياة السياسية إلـى عصر الرشيد، حتى نكبهم الرشيد سنة ١٨٧ ه /٨٠٢م، وقــد وزر مــنهم ثلاثــة وزراء للرشـيد: يحيـى بـن خالـد بـن برمـك، وابنـاه الفضـل وجعفـر، فبسـطوا نفـوذهم علـى الأراضــي والأمــوال. البيهقــي: المحاســن والمساويء ١٩٣ - ١٩٦.

تلك الفترة إلى تركه للطعام، وقد طلب الرشيد من طبيبه أن يبحث له عن مقام يتنزه فيه بعيدا عن بغداد، يكون هواؤه أصح من بغداد، فبدأ جبرائيل بذكر له المدن، فعرض عليه الحيرة، غير أن الرشيد رفض ذلك بحجة زيارتها مرارا، فعرض عليه الأنبار[1] وأنها أصح من الحيرة، فاقتنع الرشيد بذلك، وانتقل إليها وهو صائم ومعه طبيبه وخواصه، ووزيره جعفر البرمكي يرافقهم وهو صائم أيضا، فاتفق الرشيد ووزيره جعفر على تناول العشاء معا، إلا أن الرشيد لم يكثر من الطعام تلك الليلة، وحثه جعفر على الاستزادة فأخبره الرشيد أنه يريد أن يبيت خفيف المعدة، فخرج من عنده[2].

ويذكر أن الطبيب المترجم جبرائيل بن بختيشوع - كان شاهد عيان لتلك الحوادث والمواقف - ما جرى قبيل نكبة البرامكة ومصرع جعفر البرمكي، فهم من الرشيد سبب ضعف إقباله على الطعام، وهو اهتمامه بأمر البرامكة قبيل النكبة، وأنه استدعى جبرائيل إلى

(1) الأنبار مدينة عراقية قديمة تقع على الضفة الشرقية لنهر الفرات، الأنبار تسمى بالفارسية فيروز شابور وتعني باللغة الفارسية شابور المنتصر وكان اليونانين والرومان يسمونها بيرسابورا. أنشأت المدينة عام ٣٥٠ بعد الميلاد بيد الأمبراطور الساساني شابور الثاني ملك فارس، بعد ان تم فتح الحيرة عام ١١ هجرية أنتظر المسلمون سنة كاملة حتى أذن لهم الخليفة أبو بكر الصديق بفتح الأنبار، ودخل أهلها الإسلام صلحا، تغيير أسم المدينة إلى الأنبار عندما إتخذها مؤسس الدولة العباسية أبو العباس السفاح عاصمة له، وبقيت عاصمة لأخيه وخليفته أبو جعفر المنصور حتى بناء مدينة بغداد سنة ٧٦٢ م. وبقيت المدينة محافظة على أهميتها طوال لعصر العباسي. ياقوت الحموي: معجم البلدان ٢٥٧/١.

(٢) ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء، ص ١٩٦، وعن نكبة البرامكة ينظر إلى المقدسي: البدء و التاريخ، البدء والتاريخ، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ب.ت، ٦/ ٤ ١٠، ١٠٥، ابن أيبك الدواداري: كنز الدرر وجامع الغرر، كنز الدرر وجامع الغرر- تحقيق بيرند راتكه وآخرين- المعهد الألمانى للآثار - القاهرة - ١٩٦٠-١٩٩٤م.، ٥/ ١٢٩ وما بعدها، ابن خلدون: العبر، ٣/ ٢٧٩، محمد دياب الاتليدي: إعلام الناس بما وقع للبرامكة مع بني العباس، دار صادر، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ/١٩٩٠م، ص ٢٤٤، أحمد فريد رفاعي: عصر المأمون، ج ١، ص ١٣٥ وما بعدها.

مجلسه بعيد النكبة مباشرة، وطلب إليه أن يقدم له الطعام ليرى عجبا من الزيادة في أكله[1].

وذكر أن رجلا يدعى الدستواني وهو كما يبدو من العاملين في البلاط العباسي، أخذ يدهك صدره فجرت عليه من الدستواني، مكاره من التعليق والضرب والدهك، فأشفق عليه أبو العباس الحصيني، وأمر الطبيب المترجم ثابت بن سنان،[2] بالدخول عليه في سجنه لمعرفة أحواله، وحينما دخل عليه وجده مطروحا على حصير ومخدة وسخة تحت رأسه، ووجد بدنه من رأسه إلى أطراف أصابع رجله كلون الباذنجان، ليس في جسمه مكان سليم، وجعل الطبيب يعالجه بالفصد[3] ((تعريف) حتى خف ما به، وخفف عنه التعذيب والأذى[4].

ثم ووردت رواية تتحدث عن قطع يد الوزير ابن مقلة[5]، في سجن الخليفة الراضي بالله (٣٢٢-٣٢٩ هـ / ٩٣٤ - ٩٤١م)[6]، وما كان من توجه الطبيب ثابت

---

(١) ابن أبي أصبعة: عيون الأنباء، ص ١٩٧.

(٢) ثابت بن سنان (... - ٣٦٥ ه = ... - ٩٧٦ م) ثابت بن سنان بن ثابت بن قرة الحراني الصابئ، أبو الحسن: طبيب مؤرخ، خدم الخليفة الراضي بالله العباسي، ثم المتقي لله، والمستكفي، والمطيع. وألف (تاريخا) ذكر فيه ماكان في أيامه، ابتدأه بسنة ٢٩٥ ه وختم بوفاته. وله كتاب في (أخبار الشام ومصر) وهو خال هلال بن المحسن الصابئ. معجم الأدباء ٢: ٣٩٧ وأخبار الحكماء ٧٧. الزركلي: الأعلام ٢/٩٨.

(٣)الفصد (أو الإدماء (هو سحب الدماء من المريض لمنع أو علاج العلل والأمراض. كان الفصد، يستند على نظام قديم في الطب حيث يُعتبر أنه يجب على الدم وسوائل الجسم الأخرى الموجودة في البلازما أن تبقى في توازن مناسب للحفاظ على الصحة.

(٤) ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء، ص ٣٠٥.

(٥)ابن مقلة: ولد في بغداد عام ٢٧٢ ه / ٨٨٥ م، وتقلد الوزارة وهو في الستين من عمره، ووزر لثلاث خلفاء، وكان صاحب مؤامرات، تتهمه المؤرخون بالايقاع بين القاهر وجنده والعمل على الفتك به، وقد حاول الايقاع بين الخليفة الراضي بالله وابن رائق، ولما صار لابن الرائق تدبير المملكة قبض على ضياع ابن مقلة،الصابي: الوزراء، ص ١٣٥.

(٦) الخليفة الراضي بالله: أبو العباس محمد الراضي بالله، هو أبو العباس محمد بن المقتدر ابن المعتضد ابن طلحة =

بن سنان إليه في سجنه بأمر الخليفة، حيث أمره بالترقق به وتوفير العناية له وأن يلزمه إلى أن يهب الله له عافيته، وقام ثابت بعلاجه وهو يتألم من يده حتى سكنت حاله، فيدا يسأل عن خبر ابنه أبي الحسين، ويبكي على حاله ويقول: "يد خدمت بها الخلافة ثلاث دفعات لثلاثة خلفاء، وكتبت ما القرآن دفعتين، تقطع كما تقطع أيدي اللصوص"،[1].

=

بن المتوكل، الراضي بالله من خلفاء الدولة العباسية .ولد سنة 297 ه .وأمه أم ولد رومية اسمها ظلوم. بويع له يوم خلع القاهر عام 322 ه فأمر ابن مقلة أن يكتب كتاباً فيه مثالب القاهر ويقرأ على الناس. السيوطي: تاريخ الخلفاء ١٦٢.

(١) ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء، ص ٣٠٧. محمد بن عبدالملك الهمذاني: تكملة تاريخ الطبري، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، مصر ١٩٩٠، ص ٢٨٨ وما بعدها، مسكويه: تجارب الأمم، ٥/ ٢١٧، ٢١٨، ٢١٩، اليافعي: مرآة الجنان، مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان، الطبعة الثانية، القاهرة - دار الكتاب الإسلامي (١٤١٣هـ/١٩٩٣م)، ٢/ ٢١٩، آدم ميتز: الحضارة الإسلامية في القرن الرابع

=

سادسا: عناية الخلفاء العباسيين بالأطباء المترجمين وترجمة المصنفات العلمية.

أولى الخلفاء العباسيون اهتماما بالأطباء المترجمين وترجمة المصنفات الطبية، وقد ساهموا كثيرا في تقدم علم الطب والترجمة، وكان اهتمام الخلفاء بعلم الطب و الترجمة مرتبطة برعايتهم وعنايتهم بالأطباء، فقد تبوأ عدد من الأطباء مكانة رفيعة ومنزلة مميزة في البلاط العباسي، وكانت خدمة الخلفاء مطمح يتمناه كثير من الأطباء في العصر العباسي، ولذا كان العديد منهم يجتهد في التعميق في علم الطب ليتفوق على أقرانه و تتاح له بتالي فرصة العمل في بلاط الخلفاء

و من أوائل من اهتم هذا المجال من العباسيين الخليفة أبو جعفر المنصور، ففي سنة ١٤٨هـ / ٧٦٥ م، استدعى الطبيب جورجس بن جبرائيل من

=

الهجري، ترجمة: محمد عبدالهادي أبو ريدة، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الخامسة، ١/ ١٩١، ١٩٢.

جنديسابور، ليقف على علته، وعندما وجد المنصور راحة في جسمه و تخلص من مرضه الذي كان يشكو منه، وعرف حذاقة ومهارة أطباء جنديسابور، طلب من جورجس إحضار ابنه بختيشوع إلى بغداد، إلا أن والده اعتذر عن ذلك بحجة احتياج أهل جنديسابور إليه.

فكان المنصور يرمي إلى جلب أطباء جنديسابور حتى يندمجوا مع أطباء بغداد، ويستفيدوا منهم في صناعة الطب، ومما يؤكد ذلك أن أبا جعفر المنصور بعد مدة من رحيل طبيبه جورجس في سنة ١٥٢هـ / ٧٦٩م، أرسل في طلبه إن كان حيا، أو إحضار ابنه بختيشوع، كما أن الخليفة المنصور أمر جورجس بالشروع في ترجمة المصنفات الطبية إلى العربية.

كذلك أو كل المنصور إلى الطبيب ابن البطريق نقل الكتب الطبية القديمة[1]، ليستفيد منها الأطباء في الدولة العباسية.

(١) ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء، ص ١٨٣، ٢٧٩، ٢٨٢.

واستمر ذلك الاهتمام بالطب والترجمة لأبناء أبي جعفر المنصور وأحفاده، فنجد الخليفة هارون الرشيد، يولي اهتماما حلب أطباء جنديسابور، و منهم بختيشوع بن جور حس وابنه جبرائيل، وشهد عهد الرشيد كثرة المؤلفات الطبية، والتوسع في ترجمتها، فقد قلد الطبيب يوحنا بن ماسويه ترجمة الكتب القديمة مما وجد في بلاد الروم حينما جلبها المسلمون، وجعله أمينا عليها[2]، كما أمر الرشيد الطبيب جبرائيل بن بختيشوع ببناء بيمارستان جديد في بغداد، وحقق هذا البيمارستان شهرة واسعة و كان سببا في انتشار البيمارستانات في بغداد، و نظرا لعظم مهنة الطب وأهميتها، أمر الرشيد بزيادة رواتب الأطباء[3]، وغدت رواتب الأطباء أعلى الرواتب في مؤسسات الدولة العباسية خلال القرون الثلاثة الأولى.

(٢) ابن أبي أصيبعة: المصدر السابق، ص ٢٤٦.

(٣) ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء، ص ١٩٤، ٢٤٥، خضر أحمد عطا الله: بيت الحكمة في عصر العباسيين، دار الفكر العربي، القاهرة، ص ٧٦، ٧٧.

و يعتبر عهد الخليفة المأمون، العصر الذهبي لازدهار حركة الترجمة، فقد أتفق عليها بسخاء، وبعث جملة من الأطباء وعلى رأسهم صاحب بيت الحكمة وحنين بن إسحق العبادي[1]، إلى بلد الروم النقل العلوم القديمة المخزنة فيها، بعدما جرت بين الخليفة المأمون وملك الروم مراسلات في طلب الكتب، فجلبوا مما وجدوه واختاروه من الكتب، فشرع الأطباء بالنقل من اللسان اليوناني إلى اللغة العربية، و كان في مقدمة النقلة حنين بن إسحق، الذي كان أعلم أهل زمانه في الترجمة البراعته في اللغات اليونانية والسريانية والفارسية مع إتقانه للعربية، و ثابت بن قرة[2] وحبيش بن الحسن[3] وغيرهم[4].

ومن أسباب ترجمة الكتب أن المأمون رأى في المنام شيخا بهي الشكل جالسا على منبر وهو يخطب ويقول: "

(١) سليم طه التكريتي: (شيخ المترجمين حنين بن إسحاق) مجلة العربي - الكويت (١٩٦٨ م ع ١٠٧ ص ١٠٢، ١٠٨.

(٢) ثابت بن قرة بن مروان وقيل هو ثابت بن قرة بن عرفان الحراني، وكنيته أبو الحسن، وكانت أسرته تدرّس قديما الديانة الصابئية، ثم أسلمت، ومنها جاءت نسبة "الصابئي" لأسرته ٢٢١هـ/٨٣٦م. ٢٦ صفر ٢٨٨ ٢٨٨هـ /١٩ فبراير ٩٠١م (وهو عالم عربيٌّ، اشتهر بعلمه في الفلك والرياضيات والهندسة =

= والموسيقى .ولد في مدينة حران الشامية، الواقعة على نهر البليخ أحد روافد نهر الفرات . الزركلي: الأعلام ١/ ٤٢.

(٣) حبيش الأعسم:هو حبيش بن الحسن الدمشقي، وهو ابن أخت حنين بن إسحاق، ومنه تعلم صناعة الطب، وكان يسلك مسلك حنين في نقله وفي كلامه وأحواله، إلا أنه كان يقصر عنه. وقال حنين بن إسحاق، وقد ذكره في بعض المواضع إن حبيشاً ذكي مطبوع على الفهم، غير أنه ليس له اجتهاد بحسب ذكائه، بل فيه تهاون، وإن كان ذكاؤه مفرطاً وذهنه ثاقباً، وحبيش هو الذي تمم كتاب مسائل حنين في الطب الذي وضعه للمتعلمين، وجعله مدخلاً إلى هذه الصناعة، ولحبيش من الكتب كتاب إصلاح الأدوية المسهلة، كتاب الأدوية المفردة، كتاب الأغذية، كتاب في الاستسقاء، مقالة في النبض على جهة التقسيم، ابن أبي أصيبعة: المصدر السابق ١٨٥.

(٤) ابن أبي أصيبعة: المصدر السابق، ص ٢٦٠، أحمد بن محمد الدبيان، حسين بن اسحق دراسة تاريخية ولغوية مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض، ١٤١٤هـ /١٩٩٣م، ١/ ٧٥.

أنا أرسطوطاليس، فانتبه من منامه و سأل عن ارسطوطاليس فقيل له رجل حكيم من اليونانيين، فأمر بنقل كتب الحكماء اليونانيين إلى اللغة العربية "، وقد أنفق المأمون على الترجمة أموالا طائلة، فكان يعطي من الذهب زنة ما ينقله من الكتب إلى العربية مثلا بمثل[1]. وأكمل الخليفة المتوكل على الله، مسيرة الخلفاء بالعناية بالطب والترجمة فقد اختار بنفسه حنين بن إسحق، لترجمة الكتب الطبية، وجعله أمينا عليها، ووضع له نساخ لمساعدته[2].

كما أصدر الخليفة المقتدر بالله العباسي (٢٩٥-٣٢٠ هـ/ ٩٠٨-٩٣٢م)[3] سنة ٣١٩هـ / ٩٣١ م، أمرا يقضي بامتحان الأطباء قبل مزاولتهم لمهنة الطب، ويمنع من يرى عدم أهليته منهم، ويكون الطبيب مؤهلا بموجب رخصة طبية تمنح له من الطبيب سنان بن ثابت بن قرة، وكان ذلك بسبب خطأ طبي تسبب في وفاة أحد العامة[4]، وتبعة لاهتمام الخليفة المقتدر بالله، بالطب قام الوزير علي بن

---

(١) ابن أبي أصيعة: عيون الأنباء، ص ٢٥٩، ٢٦٠،، ول ديورانت ، قصة الحضارة، ج ١٣، ص ١٧٧ وما بعدها، خالد أحمد بديوي: الحياة السياسية والإدارية والاجتماعية والثقافية في عصر الخليفة المأمون، رسالة ماجستير، قسم التاريخ، جامعة عين شمس، ص ٤٢.

(٢) ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء، ص ٢٦٢، حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي: حسن إبراهيم حسن، ط/١، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة ١٩٦٧م، ٢/ ٢٧٢ وما بعدها، أحمد بن محمد الدبيان: حنين بن اسحق، دراسة تاريخية ولغوية، ١/ ٩٠.

(٣) هو أبو الفضل المقتدر بالله جعفر بن المعتضد بالله أحمد بن الموفَّق أحمد بن المتوكّل على الله جعفر بن المعتصم بالله بن هارون الرشيد، الهاشمي، العبَّاسي، البغدادي. وُلِد لثمانٍ بقين من شهر رمضان سنة ٢٨٢هـ، وأمُّه اسمها "شغب"، وهو الخليفة العباسي الثامن عشر في ترتيب الخلفاء العباسيّين (٢٩٥-٣٢٠هـ= ٩٠٨-٩٣٢م.(وقد تولّى الخلافة وهو في سنّ الثالثة عشرة بعد أخيه المكتفي بعهد منه في (ذي القعدة سنة ٢٩٥هـ= أغسطس سنة ٩٠٨م)، وهو بذلك يُعدُّ أصغر من تولّى هذا المنصب بداية من قيام دولة الإسلام حتى وقته، ممّا أوهن شأن الخلافة، وكانت مدّة خلافته وبالًا على الدولة العباسيّة والأمّة الإسلاميّة. السيوطي: تاريخ الخلفاء ١٨٥.

(٤) ابن أبي أصيبعة: المصدر السابق، ص ٣٠٢.

عيسى[1] بإرسال رسالة لرئيس الأطباء سنان بن ثابت، بحثه فيها على تفقد المرضى في جميع نواحي بغداد على اختلاف طبقاتهم وأديانهم، كما أمره أن يطوف على السجون ويعالج فيها المرضى[2].

كما افتتح في عهد المقتدر بالله، سنة ٣٠٦هـ/ ٩١٨م، بيمارستان السيدة، بمشاركة الطبيب سنان بن ثابت الذي جعله المقتدر رئيسا للبيمارستان، وخصص له نفقة شهرية بمقدار ستمائة دينار، ولتزايد أعداد المرضى والكثافة السكانية التي تشهدها بغداد، أمر المقتدر بالله، بإنشاء بيمارستان آخر يحمل اسم البيمارستان المقتدري، وجعل نفقته مائتي دينار شهريا من ماله الخاص[3].

وإلى جانب علم الطب اهتم بعض الخلفاء العباسيين، بعلم الصيدلة لارتباطها بالطب، فلا يمكن لطبيب أن يستغني عن علم الصيدلة، فالطبيب يشخص وعلم الصيدلة يعالج، وقد أمر المأمون بامتحان الصيادلة لما رأى إدعاء بعض الصيادلة معرفة كل العلاجات وصرف الأدوية من غير خبره، كما استحسن الخليفة المعتصم بالله، تصرف قائده الأفشين "حيدر بن كاوس"،[4]

---

(١)أبو الحسن علي بن عيسى بن الجراح وزير الخليفة المقتدر، عزله؛وذلك لأنه وقعت بينه وبين أم موسى القهرمانة نفرة شديدة فسأل الوزير أن يعفى من الوزارة فعزل ولم يتعرضوا لشيء من أملاكه وطلب أبو الحسن بن الفرات فأعيد إلى الوزارة بعد عزله عنها خمس سنين. البداية والنهاية ١١/ ١٤٦

(٢) ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء، ص ٣٠١.

(٣) ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء، ص ٣٠٢، أحمد عيسى بك: تاريخ البيمارستانات في الإسلام،دار الرائد العربي، بيروت، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م، ص ١٧٨ وما بعدها، رحاب خضر عكاوي: الموجز في تاريخ الطب عند العرب، دار المناهل، بيروت، ١٤١٥ هـ/ ١٩٩٥م، ص ٢٣٦، زيغريد هونكة: شمس العرب تسطع على الغرب، ترجمة فاروق بيضون و كمال الدسوقي، دار صادر، بيروت، الطبعة الثانية ١٩٦٣م، ص ٢٧٧ وما بعدها.

(٤) هو حيدر بن كاوس، من أشهر القادة الأتراك فى خلافة المعتصم بالله العباسى. والأفشين لقب كان يطلق على ملوك أشروسنة إحدى كور بلاد ماوراء النهر. كان أبوه حاكمًا على أشروسنة ووقع خلاف =

بامتحان الصيادلة في معسكره و كشف أصحاب الخبرة و المزيف منهم[1].

ومن أوائل المهتمين بعلم الصيدلة الطبيب سابور بن سهل[2]، فقد عمل أقراباذينا كبيرة، وهو المعمول به في البيمارستانات، ودكاكين الصيادلة في خلافة المتوكل على الله، ثم تبعه الطبيب أمين الدولة بن التلميذ[3]، زمن الخليفة المقتفي لأمر الله (٥٣٠ - ٥٥٥هـ/١١٣٥ - ١١٦٠م).

ومما يدل على شغف الخلفاء العباسيين بالترجمة، أن ابن أبي أصيبعة أورد أسماء عدد من المؤلفات الطبية و المترجمة التي حملت أسماء بعض الحلفاء، ومن ذلك كتاب الطبيب جبرائيل بن بختيشوع

=

بينهما فترك حيدر بلدته ورحل إلى بغداد وتقرب من الخليفة العباسي المأمون وشجعه على غزو أشروسنة وسهل له ذلك، ولما تم للمأمون فتحها ولاه عليها حاكمًا بعد أبيه. وبعد موت المأمون وتولّى المعتصم الحكم قرّب منه الأفشين واستعان به فى كثير من حروبه وجعله من كبار قواده، حتى إنه ولاه على جيش للقضاء على ثورة بابك الخرّمى التى استعصت على جيش الخلافة منذ عهد المأمون، ونجح الأفشين فى القضاء على تلك الحركة وأسر بابك الخرمى نفسه فى بغداد فأعجب المعتصم بقدرة الأفشين وخلع عليه وشاحين مطرزين بالجواهر، ومنحه وجنده ٢٠ مليون درهم. وكان الأفشين أحد قواد الفرق الثلاث فى جيش المعتصم فى فتح عمورية ببلاد الروم. بيد أن الأفشين اتُّهم بعد ذلك بالتآمر ضد الخلافة فعزل من منصبه وسجن وتوفى بالسجن سنة 226هـ = ٨٤١ م. السيوطي: تاريخ الخلفاء ١٣٨.

(١) ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء، ص ٢٢٤، ٢٢٥.

(٢)سابور بن سهل (... - ٢٥٥ هـ = ... - ٨٦٩ م)

=

سابور بن سهل: طبيب مقدم. كان صاحب بيمارستان جنديسابور (بفارس) له تصانيف، منها (كتاب الاقراباذين) و (قوى الاطعمة ومضارعا ومنافعها) و (الرد على حنين) و (القول في النوم واليقظة). الزركلي: الأعلام ٦٩/٣.

(٣) أمين الدولة بن التلميذ:هو الأجل موفق الملك أمين الدولة أبو الحسن هبة اللّه بن أبي العلاء صاعد بن إبراهيم بن التلميذ أوحد زمانه في صناعة الطب، وفي مباشرة أعمالها، ويدل على ذلك ما هو مشهور من تصانيفه وحواشيه على الكتب الطبية. ابن أبي أصيبعة: المصدر السابق، ص ٢٤١.

الموسوم " برسالة إلى المأمون في المطعم والمشرب "، وكتاب الطبيب يعقوب بن إسحق الكندي[1] الذي أسماه "رسالة للمأمون في العلة والمعلول"، كما ألف الطبيب ابن جزلة[2] جملة كتب في الطب جعل أكثرها باسم الخليفة المقتدي بأمر الله العباسي، و أن أكثر الكتب التي ترجمت من اليونانية إلى العربية، بخط حنين بن إسحق كانت عليها علامات المأمون.[3]

وألف يوحنا بن ماسويه كتاب " أسباب الأوجاع" للخليفة المأمون، وألف الطبيب الحلاجي كتاب تدبير الأبدان النحيفة التي قد علتها الصفراء" للخليفة المعتضد بالله، وألف الطبيب سعيد بن هبة الله[4] كتاب "المغني في الطب " إلى الخليفة المقتدي بالله.[5]

(١) قدرى حافظ طوقان: تراث العرب العلمي في الرياضيات والفلك ص١٦٧.

(٢) هو يحيى بن عيسى بن علي بن جزلة وكان في أيام المقتدي بأمر اللّه، وقد جعل باسمه كثيراً من الكتب التي صنفها، وكان من المشهورين في علم الطب وعمله، وهو تلميذ أبي الحسن سعيد بن هبة اللّه، ولابن جزلة أيضاً نظر في علم الأدب، وكان يكتب خطاً جيداً منسوباً، وقد رأيت بخطه عدة كتب من تصانيفه وغيرها تدل على فضله، وتعرب عن معرفته، وكان نصرانياً ثم أسلم، وألف رسالة في الرد على النصارى. ابن أبي أصيبعة: المصدر السابق، ص ٢٣٨.

(٣) ابن أبي أصيبعة: المصدر السابق، ص ٢٠١، ٢٦٠..

(٤) سعيد بن هبة اللّه: هو أبو الحسن سعيد بن هبة اللّه بن الحسين من الأطباء المتميزين في صناعة الطب، وكان أيضاً فاضلاً في العلوم الحكمية مشتهراً بها، وكان في أيام المقتدي بأمر اللّه، وخدمه بصناعة الطب وخدم أيضاً ولده المستظهر باللّه. ابن أبي أصيبعة: المصدر السابق، ص ٢٣٧.

(٥) ابن أبي أصيبعة: المصدر السابق، ص ٢٥٥، ٢٧٨، ٤٤٣.

المبحث الثالث: الدور الاجتماعي للمترجمين في العصر العباسي

أولا: الأصول الاجتماعية للمترجمين:

الترجمات عن الهندية:

وكانت معظم الكتب التي ترجمت من اللغات الهندية تبحث في الطب والفلك والرياضيات من أمثال "السند هند " " وكتاب أرياهيت" وكتاب " كهند كهادياك " وكتب " شاناق"، في السموم والتدبير، وكتاب " روسا " - وهي امرأة هندية - في أمراض النساء وعلاجها، وكتب " شارك سهتيا " في الطب الهندي، وكتاب: " شارك سهتيا " في الطب، وكتاب " بيدبا " في الحكمة، وكتاب:أسرار المسائل و " كتاب سيسر" و الذي ترجمه " منكه "، وكتاب عشر مقالات " لمنكه أيضا وكتاب " سدستاق واستانكى " الجامع وقد ترجمهما: " ابن دهن ". وترجم البيرونى كتاب " يانفل سوترا "، وكتاب الكسوفين " عند الهنود، وكتاب: لكهرجانكم راشاكات هند "[1].

ومن مؤلفات ومترجمات " كنكه " و كتاب " أشوادر "، في الأعمار، وكتاب القرانات الكبير. وكتاب في التوهم، وكتاب في أحداث العالم، وكتاب الدرر في القران[2].

وهناك كتب هندية أخرى ترجمت إلى العربية أيضا منها كتاب سيرك الهندي، وكتب علامات الأدواء، وكتاب الحار والبارد، وكتاب المواليد من تأليف الطبيب الهندي جوادر، وكتاب سرور في الطب نقله منكه، وكتاب عقاقير الهند من نقل منكه أيضا، وكتاب مختصر الهند في العقاقير، وكتب علامات الحبالي، وكتاب السكر، وكتاب رأي الهند في أجناس الحبات وسمومها.

وترجم البيروني كتابا عن طرق الحساب، ومقالة في الأمراض العفنة ومقالة في الجوايات الواردة من منجمي الهند، كما

---

(1) مهيش برشاد: بين اللغتين العربية =

= والستسكريتيه مجلة " ثقافة الهند " الجزء الأول ص ٩٥ مارس ١٩٥٠.

(2) جرجى زيدان: تاريخ التمدن الإسلامي ٣/ ١٧٧.

أصلح[1] ترجمة كتاب: " اريابهت ". ومن كتب الحكم والأدب والأساطير التي نقلت من الهندية إلى العربية كتاب كليلة ودمنة، وكتاب السندباد الكبير والسندباد الصغير، وكتاب بوداسف وكتاب برداسف مفرد، وأدب الهند والصين، وكتاب " هايل " في الحكمة، وكتاب الهند في قصة هبوط آدم، وكتب" دبك "، الهندي وكتاب حدود الهند، وكتاب " ساديرم "، وكتاب ملك الهند القتال والسباح، وكتب " بيافر"، عن أصول الألحان "[2]

الترجمات عن الفارسية:

بدأت حركة النقل عن الفارسية إلى العربية في عصر أبي جعفر، وكان ابن المقفع[3] في مقدمة الذين نقلوا عن

(١) عبد الرحمن بدوي: التراث اليوناني في الحضارة الإسلامية دراسات لكبار المستشرقين، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٤٠م.ص٤٢٧، ٤٣٨.

(٢) جرجى زيدان: تاريخ التمدن الإسلامي ٢/ ١٧٩ - ١٨٠، وابن النديم: الفهرست ص ٤٢١.

(٣) أوليري: الفكر العربي ومكانه في التاريخ، ترجمة تمام حسان، دار الفكر العربي - القاهرة ١٩٦١ م، ص٩٣، ٩٤.

الفارسية فقد ترجم كليلة ودمنة، وكتاب سيرة ملوك العجم وهو الكتاب الفهلوي المعروف باسم " خداي نائمة "، وكتاب " الائين "، وكتاب " ألين نامة " عن أنظمة الدولة، وكتاب " التاج " الذي قبل انه كان في سيرة انوشروان[4] وأردشير[5]،

(٤)كسرى الأول ٥٧٩-٥٠١م م (معروف أيضا باسم أنوشيروان العادل) حكم الإمبراطورية الساسانية ما بين ٥٣١ و٥٧٩ للميلاد.[٢] وقد اعتلى العرش بعد أبيه قباذ الأوّل. وضع الأسس لمدن وقصور وبنى العديد من الجسور والسدود، وخلال عهده ازدهرت الفنون والعلوم في بلاد فارس، وكانت الإمبراطورية الساسانية في قمة مجدها، وهو أحد الأباطرة الأكثر شعبية في الثقافة والأدب الإيرانيين. كان كسرى الأول يمثل الملك الفيلسوف في الإمبراطورية الساسانية فبعد صعوده العرش لم يحكر السلطة إلى طبقة النبلاء ولكن سلمها إلى حكومته المركزية. ويعتبر عهد كسرى أحد أنجح العهود ضمن الإمبراطورية الساسانية. وتركزت اهتماماته على تحسين الأوضاع الداخلية والإصلاحات والحملات العسكرية ونشر المعتقدات الفلسفية وكذلك ازدهرت السلع والتجارة من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب.

(٥) أردشير بن بابك بن ساسان 242-180، =

وكتاب مؤدك وهو قصة روائية، وعن الفارسية أيضا ترجم ابن المقفع بعض كتب أرسطو وفرفريوس.

وفي زمن ابن المقفع على وجه التقريب اشتغل بعض معاصريه من العجم أيضا في ترجمة كتب من الأدب الفارسي إلى العربية، منهم محمد بن جهم البرمكي، وزاروبه بن شاهويه الأصفهاني ومحمد ابن بهرام بن مهيار الأصفهاني وهشام بن القاسم الأصفهاني[١].

=

حاكم إصطخر (208-206 ووالي فارس 208-226)،

أسس الإمبراطوريةالساسانية بعدما أسقط الإمبراطورية البارثية، وأصبح أول الملوك الساسانيين ٢٢٤-٢٤٢ .ولد في بلاد فارس في قرية طيروده من قرى مدينة اصطخر. ولد أردشير الأول أواخر القرن الثاني في المرزبان، وكان أردشير يحكم مدينة اصطخر ثار ضد أخيه وأخذ منه الملك في سنة 208 م، وقام أردشير بالسيطرة على كثير من بلاد فارس والسيطرة على الكثير من المحافظات المجاورة ل كرمان وأصفهان.

(١) بروكلمان: تاريخ الأدب العربي،، الهيئة =

ومن الذين ترجموا عن الفارسية أيضا بهرام ابن مردانشاه، وموسى بن عيسى الكردي، اللذان ترجما كتاب " خداينامك " ولعل موسى بن عيسى هو الذي ترجم قصة السندباد التي بقيت منها ترجمة يونانية[٢].

وترجم أبان بن عبدالحميد اللاحقى كتاب سيرة أردشير، وكتاب سيرة أنوشروان، وكتاب "بلوهر وبوداسف "، وهذا الكتاب حكاية بوذية ترجمت للمانويين في " السند "، فأعجبوا بها، وعكفوا على قراءتها، وإلى هذه الترجمة ترجع صياغتها الحالية[٣]. كما ترجم " أبان" أيضا كتابا في الرسائل، وكتاب حلم الهند، وغيرها. وقيل أنه ترجم هذه الكتب شعرا.[٤]

وترجم: " علي بن زياد" به كتاب " زيج الشهر " في حين ترجم اسحق بن زيد

=

المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٥م. ٣/ ١٠٢.

(٢) بروكلمان: تاريخ الأدب العربي ٣/ ١٠٢.

(٣)بروكلمان: تاريخ الأدب العربي ٣/ ١٠٢.

(٤) ابن النديم: الفهرست ص ٤٢٤.

كتاب " اختبار نامة " وأثبت ابن النديم[1] طائفة كبيرة بأسماء الأشخاص الذين قال أنهم كانوا يقومون بأعمال الترجمة من الفارسية إلى العربية: من أمثال آل نوبخت، والحسن بن سهل، وعمر بن المفرخان وجبلة بن سالم، وأحمد بن بحي البلاذري.

وكان من بين المترجمين الشهيرين عن الفارسية أبو العباس الدميري، ومحمد بن خلف بن المرزبان[2] الذي قيل عنه انه ترجم أكثر من خمسين كتابا[3].

أهل الذمة والترجمة:

شكل أهل الذمة في بغداد في العصر العباسي الأول عنصرا مهما من عناصر المجتمع، والواقع كانت معاملة الخلفاء ورجال الدولة لهم تنم عن عدل وتسامح وكرم، وأطلق الخلفاء لرؤسائهم الروحيين مباشرة أمور وشئون أبناء ملتهم، وكان رئيس النصارى في بغداد يسمي " الجاثليق "، ويعينه الخفيفة بعد استشارة كبار الأساقفة ويتم تعيينه بعد إصدار منشور يتضمن الحقوق والامتيازات التي تمنحها الدولة له - أي الجاثليق - وتمنحه الحق في مراجعة حكومة بغداد في الأمور التي تتعلق بالمسيحيين الرعايا[4].

وساهم أهل الذمة في بغداد في ازدهار الحركة العلمية في العصر العباسي الأول ونشر المعرفة فأسسوا المدارس وقاموا بالتدريس لأبناء كبار رجال بغداد، وترجموا الكتب من اللغات الأجنبية إلى اللغة العربية، ذلك أن الخلفاء العباسيين الأول عنوا بترجمة الكتب العلمية واستعانوا بأهل الذمة في حركة الترجمة هذه، وتسدر الخلفاء جهودهم ومنعوهم الرواتب الجزيلة، وكان الخلفاء يرسلون العلماء الموثوق

(١) ابن النديم: المصدر السابق ص ٤٢٤.

(٢)بن المرزبان المحولي (··· - ٣٠٩ هـ = ··· - ٩٢١ م) محمد بن خلف بن المرزبان بن بسام، أبو بكر المحولي: مؤرخ، مترجم، عالم بالادب. نسبته إلى (المحول) وهي قرية غربي بغداد، كان يسكنها. قال ياقوت: كان أحد التراجمة، ينقل الكتب الفارسية إلى العربية، له أكثر من خمسين منقولا من كتب الفرس. وله تصانيف. الزركلي: الأعلام ١١٥/٥.

(٣)ابن النديم: السابق نفسه ص ٤٢٤.

(٤) آدم متز: الحضارة الإسلامية ٤٧/١.

بهم من أهل الذمة إلى الدولة البيزنطية لابتياع طرائف الكتب وغرائب المصنفات في الفلسفة والهندسة والموسيقى والطب ويعودون إلى التراجمة من أهل الذمة بنقل هذه الكتب إلى العربية. ومن أشهرهم أيضا جورجيس بن جبرائيل، ويوحنا بن ماسويه الطبيبان النصرانيان.[١]

ثانيا:أجور المترجمين.

كان من بين الأسباب التي شجعت المترجمين على نقل الكتب القديمة، ما كانوا يحصلون عليه من أموال وهبات، من الخلفاء العباسيين، ومن الأشخاص الذين كانوا يهتمون بهذه العلوم، من أمثال بني برمك، وبني شاكر المنجم، وغيرهم. فقد كان المأمون مثلا يدفع إلى " حنين بن اسحق" زنة ما يترجمه ذهبا، ولذلك كان " حنين" يعمد على الكتابة على ورق سميك وثقيل، وبأحرف كبيرة، لكي ترتفع زنتها، فتزداد مكافآته[٢].

وكان أولاد موسى بن شاكر ممن عنوا بإخراج الكتب من بلاد الروم " وبذلوا الرغائب، وأنفذوا حنين بن اسحق " وغيره إلى بلد الروم، فجاؤوهم بطرائف وغرائب المصنفات في الفسلفة، والهندسة، والموسيقى، والارثماطيقي، والطب.... قال " أبو سليمان المنطقي السجستاني" أن " بني المنجم "[٣]، كانوا يرزقون جماعة من النقلة، منهم " حنين بن اسحق"، و " حبيش بن الحسن "، وثابت بن قرة " وغيرهم في الشهر نحو خمسمائة دينار للنقل والملازمة"[٤].

وممن شجعوا حركة الترجمة، وبذلوا الأموال في سبيلها، الوزير ": محمد بن الملك بن الزيات[٥]، فقد كان يقارب

---

(١) محمد نبيه حجاب: مظاهر الشعوبية في الأدب العربي، نهضة مصر بالفجالة - القاهرة ، ط ١، ١٣٨١ ه ١٩٦١ م، ص ٥١٧.

(٢) جرجي زيدان: تراريخ التمدن الإسلامي ٢/١٦١، ط ١٩٥٨.

(٣) يقصد بهم أولاد موسى بن شاكر الملقب بالمنجم.

(٤) ابن النديم: الفهرست ص ٣٥٤ ، وابن القفطي: أخبار العلماء، ص ٣٠ - ٣١.

(٥) الوزير أبو جعفر محمد بن عبد الملك الزيات وزير المعتصم والواثق والمتوكل قبض عليه المتوكل وعذبه وسجنه حتى هلك كان =

عطاؤه للنقلة وللنساخ ألفي دينار في الشهر"[١].

وممن شجع المترجمين كذلك " على بن يحيى[٢] " المعروف بالمنجم الذي نقل له كثيرا من الكتب الطبية، و " إبراهيم بن محمد بن موسى الكاتب[٣] (" وكان

=

أديبا شاعرا محسنا كامل الأدوات، العبر في خبر من غبر ١/ ٤١٤.

(١) جرجي زيدان: تاريخ التمدن الإسلامي ، ١٧٠/٢ ، ط ١٩٥٨.

(٢)علي بن يحيى بن أبي منصور المنجم أبو الحسن أسلم يحيى بن أبي منصور على يد المأمون وخصّ به. وهم من فارس. وأبو الحسن أديب شاعر فاضل مفتنّ في علوم العرب والعجم، وكان جواداً، ونادم المتوكل، وعلت منزلته عنده ولم يزل مع الخلفاء، يكرمونه واحداً بعد واحد إلى أيام المعتمد، وتوفي في سنة خمس وسبعين ومئتين، وله أربع وسبعون سنة. ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء ج١ ، ص ١٨٩.

(٣) إبراهيم بن محمد بن موسى الكاتب هو من الأطباء النقلة الذين نقلوا كتب الطب وغيره من اللسان اليوناني إلى اللسان العربي وذكر الذين نقلوا لهم. وكان حريصاً على نقل كتب اليونانيين إلى لغة العرب ومشتملاً على أهل العلم والفضل وعلى النقلة خاصة. ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء ج١ ، ص ١٩٠.

حريصا على نقل كتب اليونانيين إلى لغة العرب، كثير البدل في سبيلها، ومنهم " عيسى بن يونس الكاتب الحاسب[٤] " من أهل العرق، وكانت له عناية في تحصيل الكتب القديمة والعلوم اليونانية[٥]. و كان لدى " سيف الدولة " طبيب اسمه " عيسى الرقي " ينقل له من السرياني إلى العربي"[٦].

ولقد راجت الكتب المترجمة رواجا منقطع النظير في كل أرجاء العالم الإسلامي، ونفقت سوقها، وكانت تباع بأغلى الأثمان، ذكر العالم المنطقي والمترجم "يحي بن عدي التكريتي"، وهو من

(٤)عيسى بن يونس الكاتب الحاسب: من جملة الفضلاء بالعراق وكان كثير العناية بتحصيل الكتب القديمة والعلوم اليونانية. ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء ج١ ، ص ١٩٨.

(٥)جرجي زيدان: تاريخ التمدن الإسلامي ، ١٧٠/٢.

(٦)عيسى الرقي: كان طبيباً مشهوراً في أيامه، عارفاً بالصناعة الطبية حق معرفتها، وله أعمال فاضلة ومعالجات بديعة، وكان في خدمة سيف الدولة بن حمدان ومن جملة أطبائه. ابن أبي أصيبعة: طبقات الأطباء ج١ ، ص ١٤٠.

تلامـذة حنـين بـن اسـحق، أن شـرح الإسكندر للسماع كله، وكتاب " البرهان "[١]، رأيته في تركة " إبراهيم بن عبدالله" الناقـل النصـراني، وأن الشـرحين عرضـا علـى بمائـة وعشـرين دينـارا، فـذهبت لاحتـال فـي الـدنانير، ثـم عـدت فأصبت القوم قد باعوا الشرحين في جملة كتب علـى رجـل مـن خراسـان بثلاثـة آلاف دينار[٢].

ويذكر يحيى بن عدي أيضا أنه التمس مـن إبـراهيم بـن عبدالله نـص " سوفسيطا" ونـص " الخطابـة"، ونـص " الشـعر"[٣]، بخمسـين دينـارا، فلـم يبعهـا له[٤].

ثالثا: المترجمون موظفون في الدولة العباسية.

ومـن الطبيعـي أن يعـين رئيسـا لبيـت الحكمـة، يعنـي بشـؤونه، ويشـرف علـى أعمال الترجمة فيه، ويساهم بنفسه في تلك الأعمال واطلق عليه اسم " صاحب بيت الحكمة ".كان " سلم " - ولم يذكر المؤرخون سوى اسمه مجردا - أول من تـولى رئاسـة بيـت الحكمـة فـي عصـر هارون الرشيد، وكان حاذقا فـي اللغتين الفارسية واليونانية، و كان من بين الذين اختارهم كل من الرشيد والمأمون لجلب الكتـب مـن بـلاد الـروم.وكـان " سـلم " يشـرف فـي الأصـل علـى ترجمـة الكتب الفارسية التي تجمعت في بيت الحكمـة، و كـان ينقـل مـن اللسـان الفارسـي إلـى العربي.

ومن أشهر من تولى رئاسة بيت الحكمة " يوحنا ابن ماسويه"، وأنه كان بالإضافة إلى ذلك يشرف على ترجمة الكتب التي جلبهـا الرشـيد مـن عموريـة[٥] وأنقـرة[١]،

---

(١) هـذان الكتابـان مـن كتـب " أرسـطو " وقـد قرهما الاسكندر الافروديسي.

(٢) ابن النديم: الفهرست ص ٢٦٨.

(٣) هذه الكتب الثلاثة من مؤلفات أرسطو.

(٤) ابن النديم ص ٢٦٨.

(٥) عموريـة:كانت مدينـة تقـع فـي فريجيـا بآسـيا الصـغرى تأسّسـت فـي الفتـرة الهلينيـة وازدهـرّت فـي عهـد الإمبراطوريـة البيزنطيـة. وهُجـرّت بعـد هجـوم الخليفـة العباسي المعتصم عليها في ٨٣٨ م. كانت عموريـة تقـع علـى الطريـق العسـكري =

وكان يعمل تحت يده عدد من المترجمين، والكتبة والنساخ.

ومن الذين تولوا رئاسة بيت الحكمة في عهد المأمون، سهل بن هارون[٢] هذا الذي يشرف على ترجمة الكتب التي وردت للمأمون من جزيرة قبرص.وكان حكيما وفصيحا وشاعرا ويقول "بان النديم " عنه أنه " فارسي الأصل " شعوبي المذهب،شديد العصبية على العرب[٣]. وله في ذلك كتب كثيرة، ورسائل في البخل، وعمل للحسن بن سهل رسالة يمدح فيها البخل، ورغبه فيه، ويستبيحه في خلال ذلك، فأجابه الحسن على ظهر رسالته " وصلت رسالته ووفقنا على نصيحتك، وقد جملنا المكافأة عنها القبول منك والتصديق لك

=

البيزنطي من القسطنطينية إلى قلقيلية. وتقع أطلالها وتلتها حالياً بالقرب من قرية حصار كوي على بعد ١٣ كم شرق مركز مقاطعة أميرطاغ في محافظة أفيون قرة حصار بتركيا. ياقوت الحموي: معجم البلدان٤/١٥٨.

(١) أنقرة: من المرجح أن الناس قد عاشوا فيما يعرف الآن بمنطقة أنقرة منذ العصر الحجري الذي بدأ قبل نحو ٢،٥ مليون سنة. وبحلول عام ٧٠٠ق.م أصبحت مدينة مهمة عرفت باسم فريجيا (تركيا الوسطى الآن). وقد فتح الإسكندر المقدوني أنقرة في ثلاثينيات القرن الرابع قبل الميلاد واستولى الرومان على المدينة عام ٢٥ق.م. وبعد سقوط الإمبراطورية الرومانية عام ٤٧٦م، تتابع في السيطرة على المدينة العديد من الجماعات. يعود تاريخ أنقرة إلى ماقبل عشرة آلاف عام تصل إلى العصر الحجري القديم عندما سكنها الإنسان البدائي الأول، وقد توالت عليها العديد من الحضارات قدحكمها الحيثيون، والفريجيون، والليديون، والفارسيون، والغلاطيون، والرومانيون، والبيزنطيون، والسلاجقة، ثم الدولة العثمانية.ياقوت الحموي: معجم البلدان ٢٧٢/١.

---

(٢) سهل بن هارون (٠٠٠ - ٢١٥ هـ = ٠٠٠ - ٨٣٠ م) سهل بن هارون بن راهبون (أو راهيون) أبو عمرو الدستميساني: كاتب بليغ، حكيم، من واضعي القصص، يلقب (بزرجمهر الاسلام) فارسي الاصل، اشتهر في البصرة، واتصل بخدمة هارون الرشيد، وارتفعت مكانته عنده، حتى أحله محل يحيى البرمكي صاحب دواوينه. ثم خدم المأمون فولاه رياسة (خزانة الحكمة) ببغداد.

(٣) ابن عبد ربه: العقد الفريد تحقيق أحمد أمين وآخرون، ولجنة التأليف والترجمة والنشر ط ٢ القاهرة ١٩٤٨ م، ص١٧٠.

والسلام...[1].

ومن أنبغ من تولى رئاسة بيت الحكمة " حنين بن اسحق" رئاسة بيت الحكمة طيلة عهدي المأمون والمعتصم وحتى عصر المتوكل، وقد نهض بهذه المهمة على أحسن وجه، وأحاط نفسه بعدد من المترجمين الذي دربهم على هذه الصنعة خير تدريب.

رابعا: التحاسد والتنافس بين الأطباء المترجمين

تشير الروايات التاريخية إلى وقوع التحاسد والتنافس الشديد بين الأطباء المترجمين، وذلك بسبب المكانة المتميزة من الخلفاء وكبار رجال الدولة، وبسبب الأعطيات والهبات والرواتب الكبيرة، وكذلك الشهرة الواسعة، والتوفيق في علاج الحالات المرضية الشديدة.

فقد ظهرت مكانة الطبيب المترجم عيسى أبو قريش، بعدما نجح في امتحان أمهر الأطباء، فحسده الطبيب المترجم جورجس بن جبرائيل، ووصفه بالكذب والدجل، فغضب الخليفة المهدي، وتحقق من علم عيسى أبو قريش، فأكرمه وقربه، وجعله كبير أطبائه.[2]

وبلغ الطبيب المترجم جبرائيل بن بختيشوع مكانة كبيرة في بلاط هارون الرشيد، فلما سمع بهذه المكانة الطبيب المترجم ماسويه، وكان يعمل في بيمارستان جنديسابور، فقال:" هذا أبو عيس (أي جبرائيل) قد بلغ السها، ونحن في البيمارستان لانتجاوزه" فعلم بذلك جبرائيل فأمر بطره من البيمارستان، فقدم ماسويه بغداد، وأراد الاعتذار لجبرائيل، ووقف بابها طويلا، غير أن جبرائيل لم يسمح له، ولا قبل اعتذاره.

فعمل ماسويه بالطب على باب الوزير الفضل بن الربيع،[3] وزير هارون الرشيد،

(1) ابن النديم ، الفهرست ، ص ١٨٠.

(٢) ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء، ص ٢١٥-٢١٦.

(٣)الفضل بن الربيع بن يونس الأمير الكبير حاجب الرشيد وكان أبوه حاجب المنصور، وكان من رجال العالم حشمة وسؤددا وحزما ورأيا قام بخلافة الأمين وساق إليه خزائن الرشيد وسلم إليه البرد والقضيب والخاتم، جاءه بذلك من طوس وصار هو الكل لاشتغال الأمين باللعب، فلما أدبرت دولة =

ونال شهرة كبيرة، ونجح في علاج أحد خدم الوزير، كان الأطباء قد عجزوا عن علاجه، وحصل على مكافآت جزيلة، ثم مرض الوزير الفضل بن الربيع في عينه، فعالجه ماسويه، وشفي على يديه بإذن الله، وصار من أطباء القصر، وأصبح منافسا لجبرائيل بن بختيشوع، الذي حط من قدره، وطلب مناظرة ماسويه، وإثبات أنه لايفهم في الطب،فدخل ماسويه معتزا بنفسه، وجلس بجانب جبرائيل، فقال له جبرائيل:"يا ماسويه أصرت طبيبا؟ فرد بثقة قائلا:" لم أزل طبيبا وأنا أخدم البيمارستان منذ ثلاثين سنة، وتقول لي هذا القول، فخرج جبرائيل من المجلس لئلا يتطاول عليه ماسويه، وأخذ ماسويه ثقة الخليفة هارون الرشيد، فقربه وجعله نظير جبرائيل في الرزق

=

الأمين اختفى الفضل مدة طويلة ثم ظهر إذ بويع إبراهيم بن المهدي فساس نفسه ولم يقم معه، ولذلك عفا عنه المأمون، مات سنة ثمان ومئتين في عشر السبعين. الذهبي: سير أعلام النبلاء ١٠/١٠٩، البغدادي: تاريخ بغداد ١٢/ ٣٤٣، الزركلي: الأعلام ٥/ ١٤٨.

والمرتبة.[١]

واستمر العداء والتحاسد بين جبرائيل وبين يوحنا بن ماسويه، الذي تعلم الطب على يد جبرائيل، إلا أنه بلغ جبرائيل أن يوحنا قال عن نفسه أنه أعلم من جالينوس بالطب، فلما بلغ ذلك جبرائيل قال:" هذا جزاء من وضع الصنيعة في غير موضعها، وأدخل في هذه الصناعة الشريفة ماليس من أهلها. إلا أن ماسويه أنكر ما بلغ جبرائيل من مقولة.[٢]

ووقع التحاسد بين الطبيب المترجم يوحنا بن ماسويه وبين سلمويه بن بنان وكلاهما من أطباء الخليفة المعتصم بالله، فكان سلمويه بن بنان يصف يوحنا بن ماسويه بأنه جاهل بالطب، وقال عنه:" يوحنا آفة من آفات من اتخذه لنفسه، واتكل على علاجه وكثرة حفظه للكتب، وحسن شرحه ووصفه بما يلجم به المكروه، ثم قال: أول الطب معرفة مقدار الداء حتى يعالج مقدار ما يحتاج

(١) ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء، ص ٣٤٣.
(٢) ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء، ص ٣٤٤.

إليه من العلاج، ويوحنا أجهل خلق اللّه بمقدار الداء والدواء جميعا، فإن زاول محرور عالجه من الأدوية الباردة والأغذية المفرطة البرد وبما يزيل عنه تلك الحرارة، ويعقب معدته وبدنه برداً، ويحتاج له إلى المعالجة بالأدوية والأغذية الحارة، ثم يفعل في ذلك كفعله في العلة الأولى من الإفراط ليزول عنه البرد، ويعتل من حرارة مفرطة، فصاحبه أبداً عليل إما من حرارة وإما من برودة، والأبدان تضعف عن احتمال هذا التدبير، وإنما الغرض في اتخاذ الناس المتطببين لحفظ صحتهم في أيام الصحة، ولخدمة طبائعهم في أيام العلة، ويوحنا لجهله بمقادير العلل والعلاج غير قائم بهذين البابين، ومن لم يقم بهما فليس بمتطبب"[1]

ومن أكثر من وقع له التحاسد رئيس المترجمين الأطباء حنين بن اسحق طبيب الخليفة المتوكل على الله.

وتتلمذ حنين بن اسحق على يد يوحنا بن ماسويه:" يقرأ على يوحنا بن ماسويه كتاب فرق الطب الموسوم باللسان الرومي والسرياني بهراسيس، وكان حنين إذ ذاك صاحب سؤال، وذلك يصعب على يوحنا، وكان يباعده أيضاً من قبله أن حنينا كان من أبناء الصيارفة من أهل الحيرة، وأهل جندي سابور خاصة ومتطببوها ينحرفون عن أهل الحيرة ويكرهون أن يدخل في صناعتهم أبناء التجار، فسأله حنين في بعض الأيام عن بعض ما كان يقرأ عليه مسألة مستفهم لما يقرأ، فحرد يوحنا وقال ما لأهل الحيرة ولتعلم صناعة الطب صر إلى فلان قرابتك حتى يهب لك خمسين درهماً تشتري منها قفافاً صغاراً بدرهم، وزرنيخاً بثلاثة دراهم، واشتر بالباقي قلوساً كوفية وقادسية، وزرنخ القادسية في تلك القفاف، واقعد على الطريق، وصح القلوس الجياد للصدقة والنفقة، وبع القلوس فإنه أعود عليك من هذه الصناعة"[2]

فدفعت هذه الإهانة حنين بن اسحق أن

---

(١) ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء، ص ٢٣٧.

(٢) ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء، ص ٢٥٧-٢٥٨.

يثبت ليوحنا بن ماسويه أنه يتفوق على أهل زمانه في الطب والترجمة، فتعلم الطب، وأجاد اللغات التي كتب بها الطب في وقته، وأصبح أشهر مترجم للكتب الطبية في تاريخ اللغة العربية[1].

وهذا التفوق جعل زملاء حنين بن اسحق يحسدونه، ويعادونه، ويشنعون عليه الأقوال، يقول حنين:" إنه لحقني من أعدائي ومضطهدي الكافرين بنعمتي الجاحدين لحقي، الظالمين لي، المتعدين علي من المحن والمصائب والشرور ما منعني من النوم وأسهر عيني وأشغلني عن مهماتي، وكل ذلك من الحسد لي على علمي وما وهبه الله، ﷻ، لي من علو المرتبة على أهل زماني، وأكثر أولئك أهلي وأقربائي، فإنهم أول شروري، وابتداء محني، ثم من بعدهم الذين علمتهم وأقرأتهم وأحسنت إليهم وأرقدتهم وفضلتهم على جماعة أهل البلد من أهل الصناعة، وقربت إليهم علوم الفاضل جالينوس، فكافؤوني عوض المحاسن مساوئ بحسب ما أوجبته طباعهم، وبلغوا بي إلى أقبح ما يكون من إذاعة أوحش الأخبار، وكتمان جليل الأسرار، حتى ساءت بي الظنون، وامتدت إلي العيون، ووضع علي الرصد حتى أنه كان يحصى علي ألفاظي، ويكثر اتهامي، بما دق منها مما ليس غرض فيه، ما أومأوا إليه، فأوقعوا بغضتي في نفوس سائر أهل الملل فضلاً عن أهل مذهبي، وعملت لي المجالس بالتأويلات الرذلة."[2]

ويقول:"كيف لا أبغض ويكثر حاسدي، ويكثر ثلبي في مجالس ذوي المراتب؛ ويبذل في قتلي الأموال؛ ويعز من شتمني، ويهان من أكرمني؛ كل ذلك بغير جرم لي إلى واحد منهم ولا جناية، لكنهم لما رأوني فوقهم، وعالياً عليهم بالعلم والعمل، ونقلي إليهم العلوم الفاخرة من اللغات التي لا يحسنونها ولا يهتدون إليها ولا يعرفون شيئاً منها، في

---

(١) دي بور: تاريخ الفلسفة في الإسلام، ترجمة: د/ محمد عبد الهادي أبو ريده - ط لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة ١٩٥٤م. ص ٣١.

(٢) ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء، ص ٢٥٩.

نهايــة مــا يكــون مــن حســن العبــارة والفصاحة، ولا نقـص فيهـا ولا زلـل، ولا ميـل لأحـد مـن الملـل، ولا اسـتغلاق ولا لحـن، باعتبار أصحاب البلاغـة مـن العرب الـذين يقومـون بمعرفـة وجـوه النحـو والغريـب، ولا يعثـرون علـى سـيئة ولا شكلة ولا معنى، لكن بأعذب ما يكـون عـن اللفـظ، وأقربـه إلى الفهـم، يسـمعه من ليس صناعته الطب"[١]

خامســا: ظــاهرة تــوارث الترجمــة وعلومها:

لقد شهد المجتمع الإسلامي إبان عصر الترجمة وجـود أسر علمية توارثت إجادة اللغـات، وصـناعة الطـب، وقامـت بـدور مهم في نقل الكثير من علوم الأمم الأخرى إلى العالم الإسلامي منهم:

أسرة حنين بن اسحق[٢]:

حنين بـن اسـحق ألـم باللغـات اليونانيـة والسريانية والعربية، وقصد بغداد وعمل مع جبرائيل بن بختيشوع الطبيب الخاص للخليفة العباسي المأمون، فترجم كتب جـالينوس "أصـناف الحميـات" و"القـوى الطبيعيـة"، وقـد قلـده المـأمون رئاسـة "بيـت الحكمـة " المعهـد العظيـم الـذي يعـزى إليـه وإلـى منشـئه الفضـل فـي انطلاقة علمية مذهلة، أثمرت ما أطلق عليــه " العصــر الــذهبي للعلــوم الإسلامية".[٣]

كـان حنـين يمـارس العلـم مـن خـلال مجالس العلـم والمنـاظرات التـي تعقـد بحضـرة الخلفـاء والـوزراء فـي زمـن تميـز باحتضان سلطة الدولـة للعلـم والعلماء، الأمـر الـذي انعكس علـى تقـدم وازدهار المجتمع العلمي، خاصة المجتمع العام بعامة. وقد كانت أغلب المجالس تنتهي بتصـنيف كتـب تتضـمن تفاصـيل مـا ورد فيها من حوار علمي، وذلك لينتفع بهذه الكتب من لم يحضرها.

وجمـع حنـين حولـه فريقـا ممتـازا مـن المترجمين وكان العمل في بيت الحكمة يجــري برئاســته. وقــد ســادت بــين

(١) ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء، ص ٢٦٤.

(٢) ابن النديم: الفهرست ص ٤٢٣.

(٣)ابن القفطي: أخبار العلماء بإخبار الحكماء ص ١١٩.

المترجمين أخلاقيات العلماء، فلم تعرف هذه المؤسسة صور التعصب لجنس معين أو دين، إذ كانت تضم ٩٠ فرداً من نصارى وسريان وفرس وغيرهم، عملوا في حرية تامة تحت إشراف ابنه" اسحق" وابن أخته "حبيش بن الأعسم" ترجم الأول أعمال بطليموس وأقليدس، وترجم الثاني أعمال أبقراط وديسقوريدس[١] وكانت النتيجة أن أخرج علماء بيت الحكمة بفضل الحرية الفكرية التي عاشوها نفائس الكتب من اللغات المختلفة إلى اللغة العربية، كما شكلوا مدرسة ذات طابع مميز تخصصت في ترجمة ونقل الكتب الطبية، بالإضافة إلى كتب الفلسفة والمنطق، التي ترجمها اسحق بن حنين ومن أهمها" كتاب الأخلاق" و"الكون والفساد" و"النفس."[٢]

أسرة بني قرة[٣]:

قد انصب عملها في الترجمة على المؤلفات الرياضية" الحساب والهندسة"، وقد وضع ثابت بن قرة رأس الأسرة

---

(١)طبيب يوناني وُلِدَ في عين زربة في آسيا الصغرى في القرن الأول بعد الميلاد، وكان معاصرًا لبليني الكبير، وقد صاحب الجيش كطبيب في تنقلاته في بلاد البحر الأبيض المتوسط، مما سمح له الاطلاع على أعشاب جديدة والتحقق الشخصي من صحة ما ورد في كتاب سابقيه عن المادة الطبية. وقد جمع في كتابه الملقب «كتاب الحشائش» — وهو مكتوب باليونانية — كل ما ورد في مؤلفات مَنْ سبقه من الأطباء في المادة الطبية، وظل كتابه المرجع الأساسي على ممر الأجيال للمفردات الطبية، فما من طبيب ذي قدر إلا ودرسه درسًا مطوَّلًا وعلَّق عليه منذ جالينوس إلى ابن سينا وداود الأنطاكي. ويشتمل الكتاب على ما يربو ستمائة عشبة وعددًا من الأدوية المعدنية والزيوت والأدهان ذات الفائدة الطبية، وقد أضاف تلاميذه — فيما =

= بعد - مقالتين خاصتين بالسموم ونسبوهما إلى أستاذهم. وقد تُرْجِمَ الكتاب إلى العربية بمدينة بغداد في الدولة العباسية في أيام جعفر المتوكل، وكان المترجم له اصطفن بن بسيل، وتصفَّح هذه الترجمة حنين بن إسحاق فصحَّحها وأجازها. ابن أبي اصيبعة: عيون الأنباء ٣٢٩.

(٢) ابن أبي اصيبعة: عيون الأنباء ١/ ١٨٩.

(٣) وابن النديم: الفهرست ص ٢٩٤ وابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء ٢/ ١٩٢.

أسساً سار عليها هو وأعضاء أسرته، منها ضرورة تحصيل العلم إلى حد درجة الإتقان وإجادة لغات الأمم الأخرى فضلا عن إجادة العربية طبعا. كان ثابت من مشاهير نقلة العلوم في الإسلام فقد كان جيد النقل إلى العربية، حسن العبارة، ذا معرفة ممتازة بالسريانية وغيرها. وتشهد على ذلك كثرة مصنفاته التي ورد ذكر أسمائها في معظم كتب التراث التي أرخت له. فذكر له ابن جلجل كتابا واحدا وهو "مدخل إلى كتاب إقليدس" وذكر له ابن النديم ١٤كتابا ورسالة. وعدد له القفطي١١٥ كتابا ورسالة، بينما انفرد ابن أبي أصيبعة بإيراد ثبت مطول لأعماله يشتمل على ١٤٧ مصنفا وهذه المصنفات تشتمل على مؤلفاته الشخصية، وما قام بنقله من اليونانية والسريانية، وذلك في فنون شتى مثل الطب والفلسفة والمنطق والرياضة والفلك والموسيقى ومذهب الصابئة.[١]

وقد لعبت شخصية عيسى بن أسيد النصراني[٢] دورا بارزا في البنية العلمية لتلك الأسرة والذي تتلمذ على يد ثابت وكانت بينهما علاقة على درجة عالية من الرقي يندر وجودها إلا في مجتمع علمي قطع شوطا كبيرا في طريق التقدم والرقي العلمي.

ومن أعضاء هذه الأسرة أبو سعيد سنان بن ثابت بن قرة الذي مهر في الطب وكانت له قوة بالغة في علم الهيئة وله مؤلفات كثيرة وترجمات من اليونانية والسريانية؛ فقد نقل نواميس هرمس والسور وصلوات الصابئين.

ومن أفراد هذه الأسرة ثابت بن سنان وهو حفيد ثابت بن قرة، وقد صار طبيبا حاذقا كان يتولى تدبير البيمارستان ببغداد، ويبدو أن تضلع ثابت الحفيد في الصناعة الطبية شغله عن التأليف أو

---

(١) ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء ٣/ ١٩٤.

(٢) عيسى بن أسيد النصراني: كان من تلامذة ثابت بن قرة عيسى بن أسيد النصراني، وكان ثابت يقدمه ويفضله وقد نقل عيسى بن أسيد من السرياني إلى العربي بحضرة ثابت ويوجد له كتاب جوابات ثابت لمسائل عيسى بن أسيد. ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء ٢٠٧.

الترجمة.[1]

أسرة بني بختيشوع:[2]

ومن أهم الأسر التي قدمت إلى بغداد ولعبت دورا مهما في حركة الترجمة[3]، التي تكاد تكون الأسرة الوحيدة التي انفردت بالترجمة الطبية دون غيرها، ساعدها على ذلك أن جميع أفرادها كانوا أطباء مهرة. و اختصت هذه الأسرة اختصت بالتعليم الطبي، ومن أفرادها جورجيس بن بختيشوع الذي عمل رئيس أطباء جنديسابور، ونقل كتبا كثيرة من اليونانية إلى العربية، وله مؤلفات عدة منها رسالة إلى المأمون في المطعم والمشرب، ومن أفرادها أيضا بختيشوع بن جورجيس وجبرائيل بن بختيشوع.[4]

(1) قدري حافظ: العلوم عند العرب، مكتبة مصر، ١٩٨٣م. ص ١٢٨. (بيانات الكتاب كاملة.

(2) ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء ، ٢/ ١١٨ - ١١٩.

(3) ابراهيم العدوى: (الدولة الإسلامية وإمبراطورية الروم، مكتبة نهضة مصر،القاهرة ١٩٥٨ م، ص١٧٠.

(4) صاعد الأندلسي: طبقات الأمم، تحقيق حياة العبد بن علوان، دار الطليعة، بيروت ١٩٨٥م. ص ٥٥.

أسرة بني موسى بن شاكر[5]:

التي نبغت في علوم الفلك والهندسة والحيل "الميكانيكا" والمساحة والفيزياء، وكان قوامها الأبناء الثلاثة محمد وأحمد والحسن. إلا أن الأب لم يعمل مع هذه الأسرة لأنه توفي وهم صغار، وكان في بداية حياته قاطعا للطريق مغيراً على القوافل بالليل في جهات خراسان، لكنه ما لبث أن تاب على يد المأمون، الذي، كما قيل، كان وراء تكوينه العلمي، حيث أتقن علوم الفلك والرياضيات.

نشأ الإخوة الثلاثة في بيئة علمية بحتة، في بيت الحكمة المأموني في جو مشبع بالعلم، فكبيرهم "محمد"، إضافة إلى كونه قد أصبح أعظمهم شأنا وأطولهم باعا في السياسة وذا تأثير كبير على الخليفة مثله مثل أبيه من قبل، فانه استطاع أن يكوّن جماعة علمية من الفلكيين لم تسعهم إلا دار

(5) ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء ١/ ١٩٢.اوليرى دى لاسى: علوم اليونان و سبل انتقالها إلى العرب ترجمة وهيب كامل . مكتبه النهضة المصرية،القاهرة : ، ١٩٦٢. ص ٢٣٨.

فسيحة في أعلى ضاحية من بغداد بقرب الشماسية، خصصها لهم المأمون لرصد النجوم رصدا علميا دقيقا وإجراء قياسات مثيرة للإعجاب كانت تقارن بغيرها في جنديسابور، وبأخرى جرت بعد ثلاث سنوات في دراسة ثانية تمت على جبل قاسيون على مقربة من دمشق للمقارنة. وكان أفراد هذه الجماعة يعملون مجتمعين على وضع جداول (أزياج) الفلك "المجربة" أو" المأمونية" وهي عبارة عن مراجعة دقيقة لجداول بطليموس القديمة. وقد ازدادت حصيلتهم العلمية وتطورت أساليبهم التطبيقية حتى أنهم تمكنوا من القيام بأول وأهم عمل علمي جماعي خطير، وهو قياس محيط الأرض.(١)

وقد اختارت المجموعة مكانين منبسطين أحدهما صحراء سنجار غرب الموصل، والآخر أرض مماثلة بالكوفة. وكانت النتيجة مذهلة فقد توصلت الجماعة إلى أن محيط الأرض يساوي ما يزيد على ٦٦ ميلاً عربيا وهذا ما يعادل ٤٧,٣٥٦ كيلومترا لمدار الأرض. وهذه النتيجة قريبة من الحقيقة إذ إن مدار الأرض الفعلي يعادل ٤٠ ألف كيلو متر تقريبا. وهذا أول قياس حقيقي للأرض عرفه العالم. هذه المهمة حفزتهم على بناء مرصد خاص بقرب جسر الفرات عند باب التاج، حيث المئذنة الملتوية إلى أعلى التي تم تثبيت آلات الرصد فوقها. وفيها قام أعضاء الجماعة باستخراج حساب العرض الأكبر من عروض القمر، التي فاقت قياسات بطليموس. وثمة نشاط علمي جماعي مهم مارسته جماعة بني موسى وكان له أثر مهم في ازدهار الحركة العلمية عموما وهو رعايتها لحركة الترجمة والنقل.

ومن أهم مؤلفاتهم كتاب "معرفة مساحة الأشكال البسيطة والكروية" الذي شكل تطويرا مهما لكتابي أرشميدس عن "حساب مساحة الدائرة " و"الكرة والاسطوانة". ومن أعمالهم أيضا "كتاب الدرجات المعروفة" الذي يعد موسوعة فلكية، يشيرون فيها إلى أن اليونانيين قد نقلوا العلوم التجريبية

---

(١) ابن النديم: الفهرست ص ٢٩٤ وابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء ٢/ ١٩٢.

مـن الهنـد لأن العقليـة اليونانيـة كانـت عقلية نظرية فلسفية أكثر منها تجريبية.
ويعـد كتـاب "الحيـل" مـن أهـم وأشـهر عمل جماعي لجماعة بني موسى، فهو أول كتـاب علمـي عربـي يبحـث فـي الميكانيكـا، وذلـك لاحتوائـه علـى مائـة تركيب ميكانيكي، أفاد منه العلم الغربي الأمر الذي جعل أساتذة أكسفورد الذين وضـعوا كتـاب "تـراث الإسـلام" فـي أربعينيات القرن الماضي يصرحون بأن ٢٠ تركيبا ميكانيكيا من محتويات الكتاب ذات قيمة علمية كبيرة.
و أسهمت هذه الجماعـة بأعمال عبقريـة فـي تـاريخ العلـوم منهـا: وضـع نظريـة ارتفـاع الميـاه التـي تسـتخدم فـي عمـل النافورات، واختراع ساعة نحاسية دقيقـة، واختراع تركيب ميكـانيكي يسـمح للأوعيـة بـالامتلاء ذاتيـا كلمـا فرغـت، ابتكـار طـرق لرسـم الـدوائر المتداخلـة، وتأسـيس علـم طبقات الجو.(١)

---

(١)جرجــي زيــدان: تــاريخ التمــدن الإســلامي ، ١٧٠/٢.

المبحث الرابع: الدور الاقتصادي للمترجمين في العصر العباسي

أولا: النفقات المالية على المترجمين.

أنفق الخلفاء العباسيين على أطبائهم المترجمين بسخاء، بالأموال الطائلة من الرواتب والهبات والأعطيات والإقطاعيات، وهذا مؤشر على المستوى الاقتصادي العالي الذي كانت تتمتع به الدولة العباسية.

أيضا مما يعكس المستوى الاقتصادي العالي للدولة العباسية نفقات بعض الحلفاء على ترجمة الكتب العلمية، فقد أنفق المأمون الأموال الكثيرة على جلب الكتب من بلاد الروم، وأنفق مثلها وزاد عليها في ترجمتها، حتى أصبح المأمون يعطي من الذهب زنة ما ينقل من الكتب إلى العربية(١).

وانعكس المستوى الاقتصادي الذي كانت تتمتع به الدولة العباسية، على حياة عدد من الأطباء المترجمين، وقد بلغ مستوى الترف لدى البعض منهم أنه كان يضاهي الخلفاء في اللباس والفرش والأطعمة وغيرها، مثل أحوال جبرائيل بن بختيشوع، ووفرة أمواله، فقد اشترى ضيعة بقيمة سبعمائة ألف درهم، كما كان ربع ضياعه في السنة ثمانمائة ألف درهم، و كانت الموائد بين يديه فيها جميع أصناف الأطعمة(٢).

فذكرت الروايات الترف الذي كان يعيشه بختيشوع بن جبرائيل، ومجاراته الخلفاء في الزي و اللباس والطيب والفرش والبذخ والنفقات، فقد كان منزله يفوق الوصف في هندسته، فقد جعل غلمانه في كل مكان يهتمون بأجواء المنزل، فإن كان في الصيف وضع الثلج مخيشا في أماكن وجعل الغلمان يروحون ذلك الثلج فيخرج منه البرد، وإن كان الجو شتاء، وضع الكوانين على الشبابيك

---

(١) ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء، ص ٢٦٠. ضيف الله بن يحيى الزهراني: النفقات وإدارتها في الدولة العباسية ١٣٢/ ٣٣٤هـ مكتبة الطالب الجامعي، مكة المكرمة، الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ /١٩٨٦م، ص ٢١٠ وما بعدها، ول ديورانت: قصة الحضارة، ج ١٣، ص ١٩٠.

(٢) ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء، ص ١٩٠، ١٩٢، ٢٠٠.

وفيها الفحم، والغلمان ينفخون مثل الحدادين، فيكون المنزل دافئة، كما كان المنزل يعج بروائح البخور من العود الهندي، والموائد تقدم له من جميع الأصناف[1].

ثانيا: أثر الترجمة على صناعة الورق والوراقين

اتسعت كلمة الوراقة فأصبحت تقال لمن يصنع الورق أو يبيعه أو يقوم بعملية الاستنساخ والتصحيح وسائر الأمور الكتابية الأخرى، وقد تقال لمن يبيع الورق وهو الكاغد في بغداد الوراق أيضا وذكر منهم:[2] أبا عبد الله بن يزيد الوراق الجهني من أهل واسط (ت١٥٩هـ / ٧٧٥ م)، وأحمد بن محمد بن أيوب الوراق من أهل بغداد أيام الرشيد، وعبد الله بن الفضل الوراق العاقولي من أهل دير العاقول نزل في بغداد وحدث فيها، وإبراهيم بن مكتوم من أهل سامراء ومحمد ابن هارون الوراق (ت ٢٤٦هـ/ ٨٦٠م) ومحمد حسن الوراق (ت ٢٢٥هـ/ ٨٣٩م) وغيرهم[3] وأحمد بن محمد بن الحسن الخلال الوراق الكاتب (كان حيا سنة ٣٦٥هـ) وصفه الصفدي بأنه (صاحب الخط المليح المتقن الفائق)[4]، وممن ذكرهم الخطيب البغدادي من المحدثين الذين لقبوا بالوراق عمر بن طاهر بن أبي قرة الوراق البغدادي[5] وعمر بن سهل بن يزيد الوراق التستري الذي سكن بغداد وحدث بها[6]، وعلي بن الحسن بن العبد، ابو الحسن الوراق (ت٣٢٨هـ/ ٩٣٩م)[7] وعلي بن الحسين ابن محمد بن هاشم الوراق البغدادي، رحل إلى دمشق وحدث بها[8].

لقد كان الواقع في بغداد في أواخر القرن الثاني الهجري مهيأ لظهور صناعة

---

(١) ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء، ص ٢٠٤، ٢٠٥، ٣٠٣.

(٢)

(٣) القلقشندي: صبح الأعشى ١٦٧/٧، ١٢٨.

(٤) الصفدي، خليل بن أيبك: الوافي بالوفيات، تحقيق: محمد يوسف نجم، شتوتغارت، ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م، ٦/٨.

(٥) تاريخ بغداد، ٢٢٢/١١.

(٦) تاريخ بغداد، ٢٢٣/١١.

(٧) تاريخ بغداد، ٣٨٢/١١.

(٨) تاريخ بغداد، ٤٠٠/١١.

الـورق والوراقـة وانتشـارها حيـث عجلـت حركة التأليف والترجمة وازدهارها وظهور مجالس الإمـلاء التـي نتجـت عنهـا كثـرة التـأليف، وكـون بغـداد عاصـمة الخلافـة ومركز الحضارة الإسلامية أصبحت موطنا رئيسـا مــن مــواطن النشــاط العلمــي والفكـري فــلا غرابــة أن تظهــر وتنمــو صناعة الورق والوراقة فـي بغـداد وتزداد فيهـا حوانيـت الـورق ازديـادا سـريعا حيث بلغت في القرن الثالث الهجري أكثر من مائـة حـانوت، واتسـعت هـذه الحوانيـت لتكون مكانا لنسخ الكتب وبيعها وملتقى لرجال العلم والفكر والأدب فمارس هذه المهنــة أعــلام مــن الاخبــارين والــرواة والقضـــاة والنحـــاة والأدبـــاء والكتبيـــين وغيرهم.[1]

وكانت فـي بغـداد أسواقا فيها حوانيت لصناعة الورق وبيعه، ففـي ذي القعدة من سنة (٣٣٢هـ/ ٩٤٣م) (وقع بالكرخ حريـق عظيـم مـن حـد طاق التكـك إلـى السـماكين وعطـف علـى أصحاب الكاغـد وأصحاب النعال)[٢] وأشار ياقوت الحموي في المائة السابعة للهجرة إلى محلة دار القــز بغــداد فقــال: (أنهــا محلــة كبيــرة ببغـداد فـي طـرف الصـحراء... بـين البلـد وبينها اليوم نحو فرسخ... وكل ما حولها قد خرب، وفيها يعمل اليوم الكاغد.[٣]

لقد تطورت صناعة الورق وأصبحت رائجة ومجزيــة وتزايــدت أســعار النســخ حتــى ارتفعـت خـلال قـرن واحـد عشـر مـرات[٤]، وقيـل ان مالـك بـن دينـار (ت١٣١هـ/٧٤٨م) كان يكتب حتى المصاحف باجرة، ويروي لنـا الخطيـب البغـدادي أن يعقـوب بـن شـيبة بـن الصـلت السدوسـي (ت٢٦٢هـ/ ٨٧٥م)، (كـان فـي منزلـه اربعـون لحافـا، لمـن يبيـت عنـده مـن الـوراقين لتبيـيض المسـند ونقلـه ولزمـه علـى مـاخرج مـن المسند عشرة الألف دينار.[٥]

وقـد كسـب بعـض المشـهورين ممـن اشتغل بهـذه المهنـة ثروة كبيرة فيذكر

---

(١) حبيـــب الزيـــات: الوراقـــة والوراقـــون فـــي الإسلام، مجلة المشرق، بيروت، ١٩٧٤، ص ١١.

(٢) القلقشندي: صبح الأعشى، ٤٧٥٤٧٦/٢.

(٣) ياقوت الحموي: معجم البلدان، ٤٢٢/٢.

(٤) ابن النديم: الفهرست، ص ٩١٠.

(٥) الخطيـب البغـدادي: تـاريخ بغـداد، ٢٨١/١٤؛ الزيات: الوراقة والوراقون في الإسلام ١٢.

أن سعر الكاغد وسعر النسخة المبيضة والزمن الذي يستغرقه في الكتابة فيما (حدث عيسى بن أحمد الهمذاني قال: قال لي أبو علي بن شهاب العكبري يوما: أرني خطك فقد ذكر لي أنك سريع الكتابة، فنظر فيه فلم يرضه، ثم قال لي: كسبت في الوراقة خمسة وعشرين ألف درهم راضية وكنت أشتري كاغدا بخمسة دراهم فأكتب فيه ديوان المتنبي في ثلاث ليال وأبيضه بمائتي درهم وأقله بمائتي وخمسين درهما)[1]، وذكر أن (أبا العباس الأحول كان يكتب مائة ورقة بعشرين درهما)[2]، (وكان يكتب في طومار تام بسعفة وربما كتب بقلم).[3]

ويروى أن القاضي أبا سعيد الحسن بن محمد السيرافي كان لا يخرج إلى مجلس الحكم ولا إلى مجلس التدريس في كل يوم إلا بعد أن ينسخ عشر ورقات يأخذ أجرتها عشر دراهم تكون قدر مؤونته.[4]

وهكذا تطورت صناعة الورق والوراقة وشاع استخدامها في القرنين الثالث والرابع الهجريين وما بعدهما واشتهر في العصور العباسية بعض الوراقين ببيع الكتب ولذلك كان يقال لهم الكتبيين منهم، ومنصور بن نصر بن عبد الرحيم وينسب اليه الكاغد المنصوري[5]

---

(١) الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد، ٣٢٩٣٣٠/٧.

(٢) إسحاق بن إبراهيم بن عبد الله بن الصباح البربري المحرر وكان والده محررا ايضا المعروف بالنديم التميمي السعدي وكان أول من تكلم على رسوم الخط وقوانينه وجهله أنواعا عرف بالأحول المحرر وكان من صنائع البرامكة محررا للكتب النافذة من السلطان إلى الملوك في الطوامير، ولأبنه اسحاق رسالة في الخط والقلم واشتعل وإخوانه وأولاده بالكتابة ومنهم ولده أبو العباس عبد الله بن اسحاق، ياقوت: معجم الأدباء ٦ /٦٠٦١.

(٣) ياقوت: معجم الأدباء، ٦٠/٦.

(٤) ابن خلكان: وفيات الأعيان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق: د. إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت-١٩٦٨، ١٣٠/١؛ الزركلي: الأعلام، مطبعة دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ١٩٨٠ م، ١٩٥١٩٦/٢.

(٥) السمعاني: الأنساب، تصحيح وتعليق: الشيخ عبد الرحمن بن يحيى اليماني، مطبعة المعارف العثمانية، حيدر آباد، (الهند-١٩٦٢، ص٤٦٢٤٦٣.

وقد كثر الورق وفشى عمله بين الناس فأمر أن لا يكتب الناس إلا في الكاغد، لان الجلود ونحوها تقبل المحو والإعادة فتقبل التزوير بخلاف الورق فأنه متى محي منه فسد وأن كشط ظهر كشطه وانتشرت الكتابة في الورق إلى سائر الأقطار وتعاطاها من قرب وبعد وأستمر الناس على ذلك إلى الآن).[1]

كما ذكر القلقشندي: (إن أعلى أجناس الورق فيما رأينا القطع البغدادي وهو ورق ثخين مع ليونة ورقة حاشية وتناسب أجزاء وقطعة وافر جدا، ودونه في الرتبة الشامي وهو على نوعين: نوع يعرف بالحموي، وهو دون القطع البغدادي ودونه في الرتبة الشامي، وقطعه دون القطع الحموي، ودونهما الورق المصري، وهو أيضا على قطعين: القطع المنصوري، وقطع العادة والمنصوري أكبر قطعا، وقلما يصقل وجهاه جميعا. أما العادة فإن فيه مايصقل وجهاه ويسمى في عرف الوراقين: المصلوح. وغيره عندهم على مرتبتين: عال ووسط، وفيه صنف لقطع خشن غليظ خفيف الغرف لا ينفع به في الكتابة يتخذ للحلوى والعطر ونحو ذلك).[2]

ثالثا: نكبات المترجمين من الأطباء:

تعرض بعض الأطباء للنكبات من جانب، وهناك أسباب عديدة للنكبات، منها ما يعود إلى المترجم الطبيب، ومنها ما يرجع إلى الحساد والوشاة..

ومن هؤلاء عيسى بن شهلا أحد أطباء الخليفة المنصور، الذي استغل موقعه في البلاط العباسي وبسط يده على المطارنة والأساقفة، يأخذ أموالهم لنفسه حتى أنه كتب إلى مطران نصيبين كتاباً يلتمس منه فيه من آلات البيعة أشياء جليلة المقدار، ويتهدده متى أخرها عنه،[3] فعلم الوزير الربيع بن يونس بتجاوزاته، فأبلغ الخليفة المنصور،

---

(1) القلقشندي: صبح الأعشى، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر- القاهرة- د.ت، ٤٨٧/٢.

(٢) القلقشندي: صبح الأعشى، ٤٧٨/٢.

(٣) ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء، ص ١٨٥.

فأمر بمصادرة أملاكه، ونفيه.(١)

وأمر الخليفة موسى الهادي بقتل أطباءه عيسى بن قريش، وعبد الله الطيفوري، لعجزهم عن علاجه، غير أن الوزير الربيع بن يونس تغافل عن تنفيذ أمر القتل لعلمه أن ذلك من شدة المرض، وتأخر في تنفيذ الأمر، حتى مات الخليفة الهادي.(٢)

وتعرض الطبيب جبرائيل بن بختيشوع للنكبة، بعد أن كان ذو مكانة كبيرة في بلاط هارون الرشيد، وسبب ذلك مرض الرشيد و عجز جبرائيل بن بختيشوع عن علاجه، فأمر الرشيد بالبحث عن طبيب آخر، فأحضر طبيب من بلاد فارس،، فلما حضر الطبيب قال: إن الذي عالجك لايفهم شيئا في الطب، وهو سبب شدة مرضك، فأمر الرشيد بسجن جبرائيل بن بختيشوع، وأمر بقتله، لكن الوزير الفضل بن الربيع أحفى جبرائيل بن بختيشوع، لأنه رأى أن الطبيب الذي أحضر لم يكن صادقا، ومات الرشيد في مرضه، ونجا جبرائيل بن بختيشوع.(٣)

وفي خلافة المأمون سنة ١٩٨/٨١٣م، أمر بالقبض على جبرائيل بن بختيشوع(٤)، لتركه القصر بعد موت هارون الرشيد، وانحيازه إلى الأمين في صراعه مع المأمون، وسجن جبرائيل بن بختيشوع حتى سنة ٢٠٢هـ/٨١٧م.

ولم يخرجه من سجنه إلا الوزير الحسن بن سهل، لتعرضه لأزمة صحية، وفشل الأطباء في علاجه، فعلاجه جبرائيل بن بختيشوع فشفي بإذن الله، فأكرمه الحسن بن سهل، وشفع له عند الخليفة، فعفى عنه الخليفة المأمون، إلا أنه ظل مبعدا عن الخدمة في البلاط، وجعل مكانه الطبيب ميخائيل بن ماسويه، وأكرمه.(٥)

وظل مبعدا عن البلاط لمدة خمس سنوات، واحتاج إليه الخليفة المأمون، عندما مرض وعجز الأطباء عن علاجه،

---

(١) ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء، ص ١٨٥.

(٢) ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء، ص ١٨٦.

(٣) ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء، ص ١٨٨- ١٨٩. ابن الجوزي: المنتظم: ٢١٤/٩.

(٤) ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء، ص ١٨٨- ١٨٩.

(٥) ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء، ص ١٨٨- ١٨٩.

فاستدعي جبرائيل بن بختيشوع و علاج الخليفة، فرضي عنه الخليفة، ورد عليه ما صودر من أملاكه وأحسن إليه.[1]

وممن تعرض للنكبات أكثر من مرة الطبيب المترجم بختيشوع بن جبرائيل، فلبغ في خلافة المتوكل منزلة كبيرة، وحاز مالا وثراء كبيرا، فلما رأى الخليفة المتوكل مافيه بختيشوع من بذخ وثراء، نقم عليه ونكبه، وصادر أملاكه، وطرده إلى بغداد، وكان الخليفة المتوكل يقيم في "سر من رأى". ثم رضي عنه وأعاد له أملاكه.[2]

ثم نكب بختيشوع بن جبرائيل مرة أخرى بسبب وشاية من رجال الدولة المتآمرين على قتل الخليفة المتوكل، فأوغروا قلب الخليفة عليه، فقبض عليه، وصودرت أملاكه، ونفي للبصرة.[3]

ثم عاد بختيشوع بن جبرائيل إلى خدمة البلاط العباسي في خلافة المستعين بالله، والمهتدي بالله، وأرجعت إليه أمواله وأملاكه.[4]

نكبة حنين بن اسحق: بلغ حنين في عهد المتوكل قمة مجده كمترجم ومتطبب؛ لكنه خلال نفس هذا الوقت نكب بمحن جرها سوء ظن المتوكل به وحسد زملائه النصارى له. وأول هذه المحن ما رواه ابن أبي أصيبعة من أن المتوكل لما قوى أمر حنين وانتشر ذكره بين الأطباء أمر بإحضاره؛ فلما حضر أقطعه اقطاعات حسنة، وكان الخليفة يسمع بعلمه ولا يأخذ بأي دواء يصفه حتى يشاور فيه غيره، وأحب امتحانه حتى يزول ما في نفسه عليه، ظنا منه أن ملك الروم ربما كان عمل شيئا من الحيلة به، فاستدعاه يوما وأمر بأن يخلع عليه وأحضر توقيعا فيه اقطاع يشتمل على خمسين ألف درهم. فشكر حنين هذا الفعل؛ ثم قال الخليفة بعد أشياء جرت: أريد أن تصف لي دواء يقتل عدوا نريد قتله سرا. فقال حنين: يا أمير المؤمنين إني لم أتعلم إلا الأدوية

---

(١) ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء، ص ١٨٨- ١٨٩.

(٢) ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء، ص ٢٠٢.

(٣) ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء، ص ٢٠٢.

(٤) ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء، ص ٢٠٢، ٢٠٣.

النافعة، وما علمت أن أمير المؤمنين يطلب مني غيرها، فإن أحب أن امضي وأتعلم فعلت ذلك. فقال الخليفة: هذا شيء يطول؛ ورغبه وهدده، فلم يزد حنين عما قاله. فأمر بحبسه في بعض القلاع ووكل به من يوصل إليه خبره وقتا بوقت ويوما بيوم؛ فمكث سنة في حبسه دأبه النقل والتفسير والتصنيف غير مكترث بما هو فيه؛ فلما كان بعد سنة أمر الخليفة بإحضاره واحضار أموال يرغبه فيها. وأحضر سيفا ونطعا وسائر آلات العقوبات؛ فلما حضر قال له الخليفة: هذا شيء قد كان، ولا بد مما قلته لك، فإن أنت فعلت فزت بهذا المال وكان لك عندي أضعافه، وإن امتنعت قابلتك بشر مقابلة وقتلتك شر قتلة.

فقال حنين: قد قلت لأمير المؤمنين اني لم أحسن إلا الشيء النافع ولم أتعلم غيره، فقال الخليفة: فإنني أقتلك، فقال حنين: لي رب يأخذ بحقي غدا في الموقف الأعظم فان اختار أمير المؤمنين أن يظلم نفسه فليفعل، فتبسم الخليفة وقال له: يا حنين طب نفسا وثق بنا فهذا الفعل كان منا لامتحانك، لأنا حذرنا من كيد الملوك واعجابنا بك، فأردنا الطمأنينة إليك والثقة بك لننتفع بعلمك؛ فقبل حنين الأرض وشكر له؛ فقال الخليفة: يا حنين ما الذي منعك من الاجابة مع ما رأيته من صدق عزيمتنا في الحالتين؛ فقال حنين: شيئان يا أمير المؤمنين؛ فقال المتوكل: وما هما؛ قال: الدين والصناع فقال الخليفة وكيف؟! قال حنين: الدين يأمرنا بفعل الخير والجميل مع أعدائنا فكيف أصحابنا وأصدقائنا، ويبعد ويحرم من لم يكن كذلك والصناعة تمنعنا من الإضرار ببني الجنس لأنها موضوعة لنفعهم ومقصورة على مصالحهم.

ومع هذا فقد جعل الله في رقاب الأطباء عهدا مؤكدا بإيمان مغلظة: ألا يعطوا دواء قتالا ولا ما يؤذي؛ فلم أر أن أخالف هذين الأمرين من الشريعتين ووطنت نفسي على القتل، فإن الله ما كان يضيع من بذل نفسه في طاعته، وكل يثيبني؛ فقال الخليفة: انهما لشريعتان جليلتان؛ وأمر بالخلع فخلعت عليه؛ وحمل المال بين يديه وخرج من عنده وهو أحسن الناس حالا وجاها.

كانت هذه التجربة امتحانا قاسيا وسوف تعقبها محنة أشد فكلما ارتقى حنين في فكره وعلمه كلما زاد حساده والحاقدين عليه. فما أسهل اللعب بعقول الحكام المستبدين.

فبعد مضي سنوات قليلة ابتلي حنين بمحنة أخرى إذ كان بختيشوع بن جبرائيل، وفي رواية أخرى إسرائيل بن زكريا الطيفوري الطبيب النسطوري قد قلب لحنين ظهر المجن وأصبح يعاديه ويحسده على علمه وفضله، فحاك له مكيدة عرضته لغضب الخليفة فأمر بسجنه وتعذيبه وتبديد مكتبته وبيته وكل ما كان يمتلكه؛ ويتجلى تألمه وحزنه على فقد كتبه كلها جملة...) في رسالة صغيرة[1] دقيقة يجيب بها علي بن يحيى، كاتم سر المتوكل وصديقه.

كما سجل حنين تفاصيل هذه المحنة بقلمه وما أصابه من الشدائد من الذين ناصبوه العداوة من أشرار أطباء زمانه المشهورين، حيث يقول من جملة كلامه: (فآلت القضية بي إلى أن بقيت بأسوء ما يكون من الحال، محبوسا مضيقا عليّ مدة من الزمان. ثم إن الله ﷻ نظر إليّ بعين رحمته، فجدد لي نعمه وردني إلى ما كنت عارفا به من فضله. وقد نقلها إلينا ابن أبي أصيبعة في كتابه.[2]

نكبة أحمد بن الطيب السرخسي: نكب الطبيب المترجم أحمد بن الطيب السرخسي في خلافة المعتضد بالله العباسي، الذي وقع في مكائد حساده وأعدائه، فأمر الخليفة بالقبض عليه وسجنه، وأدرج الوزير عبيد الله بن القاسم فيمن أمر الخليفة بقتله سنة ٢٨٦هـ/ ٨٩٩م.[3]

---

(١) عبد الرحمن بدوي: دراسات ونصوص في الفلسفة والعلوم عند العرب، المؤسسة العربية للدراسات والنشر،بيروت،١٩٨١. ص ١٤٩.

(٢) ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء، ص ٢٦١ - ٢٦٥ - ٢٧١.

(٣) ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء، ص ٢٩٤. جورج سارتون: مدخل لتاريخ العلم، عصر الحضارة الإسلامية، ترجمة لفيف من العلماء، دار المعارف، القاهرة،١٩٧٦،ص ١٥٣.

الخاتمة

تعتبر حركة الترجمة عند المسلمين أكبر حركات الترجمة التي وقعت في التاريخ القديم، فاستوعبت معظم العلوم والمعارف والأمم والحضارات التي عرفها المسلمون مثل الحضارة الفارسية والهندية واليونانية، كما أنها ترجمت عن: الفارسية واليونانية والسريانية والفارسية والهندية والنبطية والقبطية.

ومرت الترجمة بمراحل عديدة، ونشأت نشأة رسمية، فرعتها الدولة، واهتم بها الخلفاء وكبار رجال الدولة.

ونشأ مترجمون متعددو اللغات، ووفر بيت الحكمة كمؤسسة رسمية مكانا للتدريب، وتوارث الخبرات في الترجمة، بل ظهرت أسر بالكامل توارث الأبناء الترجمة عن آبائهم، فرأينا أجيالا متتالية في صناعة الترجمة.

ولم تكن الترجمة حرفة مستقلة فقط، بل كانت أداة عند كبار الأطباء، والجغرافيين والفلكيين، والصيادلة، وكان لهؤلاء أدوار سياسية واجتماعية واقتصادية واضحة، ووصل بعضهم لمكانة سياسية واجتماعية واقتصادية لا تنكر.

المصادر والمراجع

١. ابـن أبـي أصـيبعة: موفـق الـدين العباس أحمد بن القاسم بن خلايفة المتوفي سنة ٦٦٨ هـ /١٢٦٩ م.

عيـون الأنبـاء فـي طبقـات الأطبـاء، مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٦٠ م

٢. الاتليـدي: محمـد ديـاب. (١١٠٠هـ/ ١٦٨٨م)

إعلام الناس بما وقع للبرامكة مع بني العبـاس، دار صـادر، بيـروت، الطبعـة الأولى، ١٤١٠هـ /١٩٩٠م..

٣. ابـن الأثيـر: عـز الـدين أبـى الحسـن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بـن عبـد الكـريم المتـوفي سـنة (٦٣٠هـ/ ١٢٣٢م).

٤. - الكامـل فـي التـاريخ، دار المعرفـة، بيروت، لبنان،٢٠٠٢م.

٥. - أسـد الغابـة فـي معرفـة الصـحابة، تحقيـق الشـيخ علـى محمـد عـوض، والشـيخ عـادل أحمـد عبـد الموجـود، الطبعة الأولي – بيروت – دار الكتب العلمية ١٤١٥هـ /١٩٩٤م

٦. الإدريسـي: أبـو عبد الله محمد بن عبـد اللـه بـن إدريـس الحسـنى – ت (٥٥٧ هـ / ١١٦٢ م).

- نزهـة المشـتاق فـي اختـراق الآفـاق، عـالم الكتـب، بيروت، الطبعـة الأولى ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م.

٧. ابن أيبك الدوادارى (أبو بكر عبد الله بن أيبك، المتوفى بعد سنة ٧٣٦ه

٨. كنز الدرر وجامع الغـرر- تحقيق بيرند راتكه وآخرين- المعهد الألمانى للآثار - القاهرة - ١٩٦٠- ١٩٩٤م.

٩. البيهقـي، إبـراهيم بـن محمـد (ت ٤٧٠هـ / ١٠٧٧ م).

١٠. المحاسـن والمسـاوئ، دار صـادر، بيروت، د. ت

١١. الجاحظ: أبو عثمان عمرو بن بحر (ت ٢٥٥ هـ / ٨٦٩م).

١٢. رسـائل الجـاحظ،جمع ونشـر حسـن السـندوبي، المطبعـة الرحمانيـة ١٩٣٣م

١٣. ابـن جلجـل، سـليمان بـن حسـان (ت بعد ٣٧٧هـ/ ٩٨٧م):

١٤. طبقـات الأطبـاء والحكمـاء، تحقيـق فؤاد سيد، الطبعة ا لثانية، (مؤسسة الرسالة،بيروت ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م .

15. ابن الجوزي: أبي الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد، المتوفي سنة (٥٩٧هـ/ ١٢٠٠م)
16. المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، تحقيق محمد عبد القادر عطا، مصطفي عبد القادر عطا، الطبعة الأولي، بيروت - دار الكتب العلمية ١٤١٩هـ / ١٩٩٩م).
17. الحموي: ياقوت بن عبد الله البغدادي، (ت٦٢٦هـ/١٢٢٨م).
18. معجم البلدان، تحقيق محمد علي مرعشلي، دار إحياء التراث، بيروت، لبنان.د.ن.
19. ابن خلدون: عبد الرحمن بن محمد، (ت٨٠٨هـ/١٤٠٥م).
20. العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، تحقيق/ خليل شحادة، دار الفكر للطباعة والنشر، ١٤٢١هـ/٢٠٠١م.
21. ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد، (ت٦٨١هـ/ ١٢٩٣م).
22. وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق: د. إحسان عباس، دار الثقافة، (بيروت-١٩٦٨).
23. السمعاني، أبو سعد عبد الكريم بن منصور، (ت٥٦٢هـ/١١٦٦م)
24. الأنساب، ط١، تصحيح وتعليق: الشيخ عبد الرحمن بن يحيى اليماني، مطبعة المعارف العثمانية، حيدر آباد، (الهند-١٩٦٢).
25. السيوطي: جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر، (ت٩١١هـ/١٥٠٥م).
26. تاريخ الخلفاء، تحقيق حمدي الدمرداش، مكتبة نزار مصطفى الباز، المملكة العربية السعودية، ١٤٢٥ه.
27. صاعد البغدادي:، أبو القاسم صاعد أحمد بن عبد الرحمن بن محمد بن صاعد النقلي (ت ٤٦٢هـ / ١٠٧٠م.
28. طبقات الأمم، تحقيق حياة العبد بن علوان، دار الطليعة، بيروت ١٩٨٥م
29. الصفدي، خليل بن أيبك: (ت ٧٦٤هـ/ ١٣٦٢م)
30. الوافي بالوفيات، تحقيق: محمد يوسف نجم، شتوتغارت، ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م

٣١.	ابن عبد ربه: أبو عمر أحمد بن محمد (٣٢٧ هـ/٩٣٨م)
٣٢.	العقد الفريد تحقيق أحمد أمين وآخرون، و لجنة التأليف والترجمة والنشر ط ٢ القاهرة ١٩٤٨ م
٣٣.	ابن عساكر:الحافظ علي بن الحسين بن هبة الله بن عبد الله (ت ٥٧١ هـ/ ١١٧٥م):
٣٤.	تاريخ مدينة دمشق، تحقيق محب الدين أبي سعيد عمر بن غرامة العمروي، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٦
٣٥.	العمري: ابن فضل الله شهاب الدين محمد بن يحيى (ت ٧٤٨هـ / ١٣٤٧م)
٣٦.	مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار- تحقيق عبد الله بن يحيى السريحي وآخرين (١٥ مجلدًا، المجمع الثقافى - أبو ظبى - ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م.
٣٧.	ابن طباطبا (محمد بن علي بن طباطبا) (٧٠٩ هـ /١٣٠٩م):
٣٨.	الفخري في الآداب السلطانية و الدول الإسلامية، نشرة: محمود توفيق الكتبى، المطبعة الرحمانية، مصر
٣٩.	الطبري: أبو جعفر محمد بن جرير، ت ٣١٠ هـ/٩٢٢م
٤٠.تاريخ الأمم والملوك، ط٢، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠١.
٤١.	القفطي: جمال الدين أبي الحسن علي بن القاضي الأشرف القفطي، المتوفي سنة (٦٤٦هـ / ١٢٤٨م).
٤٢.	أخبار العلماء بأخبار الحكماء،الطبعة الأولي،القاهرة – مطبعة دار السعادة (١٣٢٦).
٤٣.	القلقشندي، ابي العباس احمد بن علي (٨٢١هـ/١٤١٨م)
٤٤.	صبح الأعشى في صناعة الانشا، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر- القاهرة- بدون تاريخ
٤٥.	ابن كثير الامام الحافظ ابي الفداء إسماعيل الدمشقي (ت ٧٧٤هـ/١٣٧٢م)
٤٦.	البداية والنهاية، دار إحياء التراث، بيروت، لبنان.د.ن.
٤٧.	المزي: يوسف بن الزكي عبد الرحمن، (ت٧٤٢هـ/١٣٤١م).
تهذيب الكمال، ط١، تحقيق: د. بشار عواد معروف، مؤسسة الرسالة،

(بيروت-١٩٨٠م).
٤٨. المسعودي: أبو الحسن علي بن الحسين بن علي، (ت٣٤٦هـ/٩٥٧م).
مروج الذهب ومعادن الجواهر، المكتبة العصرية، بيروت سنة ١٩٨٨م.
٤٩. التنبيه والاشراف، مكتبة خياط، بيروت،، د.ت
٥٠. مسكويه: أبو علي أحمد بن محمد (ت ٤٢١ هـ/ ١٠٣٠م).
تجارب الأمم و تعاقب الهمم، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان،٢٠٠٣م.
٥١. المقدسي: شمس الدين محمد بن أحمد، (ت٣٨٥هـ/٩٩٥م).
البدء والتاريخ، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ب.ت
٥٢. المقريزي: تقي الدين أحمد بن علي (٨٤٥هـ / ١٤٤١م).
الذهب المسبوك في ذكر من حج من الخلفاء والملوك، تحقيق: جمال الدين الشمال، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، الطبعة الأولى ١٤٢٠هـ / ٢٠٠٠م ،
٥٣. ابن النديم: أبى الفرج محمد بن أبى يعقوب إسحاق، المتوفي سنة (٣٨٥هـ / ٩٩٥م).
الفهرست، مكتبة خياط - لبنان،١٣٩٨هـ / ١٩٧٨ م .
٥٤. الهمذانى: محمد بن عبد الملك: (ت ٥٢١ هـ/١١٢٧م) :
تكملة تاريخ الطبري، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، مصر ١٩٩٠.
٥٥. اليافعي: أبو محمد عبد الله بن أسعد بن علي بن سلمان، المتوفي سنة (٧٦٨هـ / ١٣٦٦م)
مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان، الطبعة الثانية، القاهرة - دار الكتاب الإسلامي (١٤١٣هـ/١٩٩٣م).
٥٦. اليعقوبي: أحمد بن أبي بن جعفر بن واضح، (ت٢٩٢هـ/٩٠٥م).
تاريخ اليعقوبي، دار صادر، بيروت،، د.ت.

المراجع:

٥٧. آدم ميتز:
الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، ترجمة: محمد عبدالهادي أبو ريدة، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الخامسة.

٥٨. ابراهيم العدوى:
الدولة الإسلامية وإمبراطورية الروم، مكتبة نهضة مصر،القاهرة ١٩٥٨ م

٥٩. أحمد أمين:
فجر الإسلام، النهضة المصرية ١٩٦٥م

٦٠. أحمد شلبي:
تاريخ التربية الإسلامية، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٦٦م

٦١. أحمد فريد رفاعي:
عصر المأمون، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، ط١، ١٩٢٧م.

٦٢. أحمد عيسى بك:
- تاريخ البيمارستانات في الإسلام،دار الرائد العربي، بيروت، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م.
- التهذيب في أصول التعريب ٠ (مطبعة مصر - القاهرة ١٩٢٣ م

٦٣. أحمد بن محمد الديبان:
حنين بن اسحق دراسة تاريخية ولغوية مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض، ١٤١٤هـ /١٩٩٣م.

٦٤. إسرائيل ولفنسون:
تاريخ اللغات السامية؛ ترجمة لجنة التأليف و الترجمة، القاهرة، لجنة التأليف و الترجمة ، ١٩٢٩.

٦٥. أوليري دى لاسى:
- علوم اليونان و سبل انتقالها إلى العرب ترجمة وهيب كامل . مكتبه النهضة المصرية،القاهرة : ١٩٦٢.
- الفكر العربي ومكانه في التاريخ، ترجمة تمام حسان، دار الفكر العربي - القاهرة ١٩٦١ م.،

٦٦. توفيق الطويل:
في تراثنا العربي الإسلامي (عالم المعرفة، الكويت ١٩٨٥

٦٧. جرجي زيدان:
تاريخ التمدن الإسلامي، منشورات دار الحياة، بيروت، ١٩٦٧م.

٦٨. جواد علي:
تاريخ العرب قبل الإسلام، مطبعة المجمع العلمي العراقي، ١٣٥٥- ١٩٧٤

٦٩. حاجي خليفة:

كشف الظنون عن أسامى الكتب والفنون- دار الفكر- بيروت

٧٠. حبيب الزيات:
الوراقة والوراقون في الإسلام، مجلة المشرق، بيروت، ١٩٧٤.

٧١. حسن إبراهيم حسن:
تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي: حسن إبراهيم حسن، ط/١، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة ١٩٦٧م.

٧٢. خالد أحمد بديوي:
الحياة السياسية والإدارية والاجتماعية والثقافية في عصر الخليفة المأمون، رسالة ماجستير، قسم التاريخ، جامعة عين شمس.

٧٣. خضر أحمد عطا الله:
بيت الحكمة في عصر العباسيين، دار الفكر العربي، القاهرة.

٧٤. دي بور:
تاريخ الفلسفة في الإسلام، ترجمة: د. محمد عبد الهادي أبو ريدة – ط لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة ١٩٥٤م.

٧٥. ديمتري جوتاس:
الفكر اليوناني والثقافة العربية، حركة الترجمة اليونانية العربية في بغداد والمجتمع العباسي المبكر، ترجمة نقولا زيادة، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، ٢٠٠٣.

٧٦. رحاب خضر عكاوي:
الموجز في تاريخ الطب عند العرب، دار المناهل، بيروت، ١٤١٥ ه/ ١٩٩٥م.

٧٧. رشدي راشد:
ترجمة النصوص العلمية بين اللغات اليونانية والعربية واللاتينية، ص ٢١-٤٨ . من يوسف زيدان (تحرير ٢٠١٠): المخطوطات المترجمة، أعمال المؤتمر الدولي الرابع لمركز المخطوطات، مكتبة الإسكندرية، مايو ٢٠٠٧.

٧٨. الزركلي:
الأعلام، مطبعة دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ١٩٨٠ م

٧٩. زيغريد هونكة:
شمس العرب تسطع على الغرب، ترجمة فاروق بيضون و كمال الدسوقي، دار صادر، بيروت، الطبعة الثانية ١٩٦٣م.

٨٠. سليم طه التكريتي:

شيخ المترجمين حنين بن إسحاق، مجلة العربي - الكويت (١٩٦٨ م عدد ١٠٧.

٨١. شاكر مصطفى:

دولة بني العباس، وكالة المطبوعات، الكويت، ١٩٧٣.

٨٢. ضيف الله بن يحيى الزهراني:

النفقات وإدارتها في الدولة العباسية ١٣٢/ ٣٣٤هـ مكتبة الطالب الجامعي، مكة المكرمة، الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ /١٩٨٦م،

٨٣. عائشة عبد الرحمن:

لغتنا والحياة، دار المعارف بمصر - القاهرة ١٩٧١ م

٨٤. عبد الرحمن بدوي:

- دراسات ونصوص في الفلسفة والعلوم عند العرب، المؤسسة العربية للدراسات والنشر،بيروت،١٩٨١

- التراث اليوناني في الحضارة الإسلامية دراسات لكبار المستشرقين، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٤٠م.

٨٥. عبد الرزاق الحسني:

الصابئة في حاضرهم وماضيهم، – طبعة لبنان – ١٩٧٠ م

٨٦. عبد المنعم ماجد:

تاريخ الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى، ط٤ الانجلو المصرية، القاهرة ١٩٧٨م

٨٧. عمر فروخ:

تاريخ الأدب العربي: الأعصر العباسيَّة .دار العلم للملايين – بيروت. الطبعة الرابعة - ١٩٨١

٨٨. فيليب حتي وآخرون:

تاريخ العرب (مطول) ، دار الكشاف ، (بيروت - ١٩٤٩م

٨٩. قدرى حافظ طوقان:

تراث العرب العلمي في الرياضيات والفلك، مطبعة المقتطف، مصر، ١٩٤١م

٩٠. كارل بروكلمان (ت ١٩٥٦م / ١٣٧٦هـ):

- تاريخ الشعوب الإسلامية، ترجمة نبيه أمين فارسي، ومنير البعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت ١٩٧٧م.

- تاريخ الأدب العربى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٥م.

٩١. محمد فوزي الفتيل:

التربية عند العرب، الدار المصرية للتأليف والترجمة ١٩٦١

٩٢. محمد كرد علي:
أمـراء البيـان، مطبعـة لجنـة التـأليف والترجمة والنشر، القاهرة ١٩٥٠ م

٩٣. محمد مصطفي زيادة وآخرون:
تـاريخ العـالم العربـي وحضـارته، مكتبـة نهضـة مصـر بالفجالـة - القـاهرة - د.ت.

٩٤. محمد مؤنس عوض:
الإمبراطوريـة البيزنطيـة،عين للدراسـات والبحـوث الإنسـانية والاجتماعيـة، مصر، ٢٠٠٧.

٩٥. مهيش برشاد:
بين اللغتين العربية والستسكربتيه مجلة " ثقافة الهند " الجزء الأول ص ٩٥ مارس ١٩٥٠.

٩٦. هوما كاتوزيان:
إيران في العصور القديمة والوسطى والحديثـة ترجمـة: أحمـد المعينـي، (الطبعـة الأولـى)، لبنـان: جـداول للنشر والترجمة والتوزيع،٢٠١٤.

٩٧. ول ديورانت:
قصـة الحضـارة، دار الجبـل، بيـروت، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م.

٩٨. يوسف كرم:
تـاريخ الفلسـفة اليونانيـة (لجنـة التـأليف والترجمة والنشر ١٩٦٦ .

الضمير الجمعي التونسي بين دولة الزعامة ودولة المؤسسات: السبسي شكلا وخطابا بعد ثورة ٢٠١١ مثالا

بلقاسم بن عبد النبي

متحصل على شهادة الدكتوراه في التاريخ المعاصر

كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة صفاقس،

الجمهورية التونسية

Belgacem Ben Abdenbi

Doctor in Contemporary History

Faculty of Arts and Humanities, Sfax, republic

of tunisia.

ملخص

امتدت الدراسة زمنيا منذ تقلد السبسي رئاسة الحكومة الانتقالية في ٢٧-٢-٢٠١١ إلى توليه رئاسة الجمهورية، في إطار جدلية البطل القائد المنقذ المستقر في الوجدان العربي عموما وبالتخصيص التونسي وحكم المؤسسات التي تنفّذ الاستراتيجيات بغض النظر عن شخصية القائد أو الحاكم.

جاءت الثورة التونسية بهبّة شبابية رافضة للحكم الاستبدادي الذي تواصل طيلة ٢٣ سنة ومطالبة بالحرية والديمقراطية وبناء الجمهورية الثانية على أساس دولة المؤسسات الخاضعة لقانون الدستور وليس لقانون الرئيس. وفي نفس الوقت جاء السبسي الذي يمثل الجيل الأول للاستقلال في سن قاربت التسعين واستطاع أن يجلب الانتباه. فقد اقتبس شخصية الزعيم والمجاهد الأكبر للتونسيين الحبيب بورقيبة وولج قلوب

وعقول نسبة كبيرة من الشعب منذ ظهوره الأول، وكانت صدمة الصورة والخطاب. ففي فترة زمنية وجيزة استطاع أن يبرز بهيئة الزعيم المنقذ القادر على نقل البلاد من الفوضى إلى النظام واستطاع أن يجمد المطالب الثورية في بناء دولة المؤسسات والعودة إلى دولة الزعيم بانتخابه رئيسا للجمهورية في سنة ٢٠١٤.

Abstract

The study extended over a period of time since Essebsi assumed the presidency of the transitional government on February 27, 2011 to his assumption of the presidency, within the context of the dialectic of the hero, the savior, the stable leader in the Arab conscience in general, and the Tunisian privatization and the rule of institutions that implement strategies regardless of the personality of the leader or ruler.The Tunisian revolution came with a youthful revolt rejecting the authoritarian rule that continued for 23 years and demanding freedom and democracy and building the second republic on the basis of the state of institutions subject to the law of the constitution and not the law of the president. At the same time, Essebsi, who represented the first generation of independence, came at the age of nearly ninety and managed to attract attention. He borrowed the personality of the leader and the great mujahid of Tunisians, Habib Bourguiba, and penetrated the hearts and minds of a large proportion of the people since his first appearance, and the image and speech were shocking. In a short period of time, he was able to emerge as a savior leader who was able to move the country

from chaos to order, and was able to freeze revolutionary demands in building a state of institutions and return to the leader's state by being elected President of the Republic in 2014.

المصطلحات الأساسية

الثورة التونسية- الباجي قايد السبسي- الحبيب بورقيبة- الزعامة- دولة المؤسسات- الضمير الجمعي- الصورة- الخطاب.

المقدمة

مثلت بداية ما يسمى "بالربيع العربي" بتونس في أواخر ٢٠١٠ وبالتحديد مع إحراق محمد البوعزيزي نفسه في ديسمبر (كانون الأول) شرارة لتعميم الاحتجاجات بكامل التراب التونسي ضد الأوضاع الاجتماعية وتسلط الأجهزة الأمنية. وأخضع الشعب التونسي ثورته إلى شعارين هامين وهما "الحرية والكرامة"، لهذا فهو ينكر على الإعلام وخاصة الفرنسي منه نعتها "بثورة الياسمين".

لا توجد "ثورة" في العالم تنطلق من فراغ أو دون تمهيد، فكان للثورة التونسية إرهاصات في العشرية الأولى للقرن الحادي والعشرين بلغت أشدها في ٢٠٠٨ بالحوض المنجمي بجهة قفصة، لكن غطرسة نظام بنعلي جعلته يعمى على التحولات الكبيرة داخل المجتمع وحالة الاحتقان التي تمكنت من التونسيين نتيجة أوضاعهم الاقتصادية والاجتماعية وسياسته الاستبدادية، فكانت الاحتجاجات الشعبية التي دامت قرابة الشهر وانتهت بهروب رأس السلطة بنعلي وعائلته.

والمدقق في اندلاع الثورة التونسية يلاحظ تمردها عن ركائز الثورة التقليدية، فقد اندلعت دون معارضة سياسية واضحة من اليمين أو اليسار أو وجود جهة منظمة لها بل أنّ كل القوى السياسية المعارضة علنية أو سرية لم تكن مؤمنة بالحراك الثوري الشعبي وقدرته على مواجهة غطرسة وردّة الفعل العنيفة للسلطة، بل عجزت بعضها على مواكبة الوعي الشعبي وسقف مطالبه التي تعدّت الإصلاحات

فـي إطـار نفـس النظـام إلـى المطالبـة بتغييـره مـن أمثلـة "الشـعب يريـد تغييـر النظام" أو " خبز وماء وبنعلي لا". لكن غياب الأطـر التنظيميـة والأيديولوجيـة لا ينفي قدرة بعض الناشطون السياسيون أو النقابيون على احتضان هذه التحركات الاحتجاجية وأعطوها توجهات سياسية.

قـال أحـد الشـباب الثـوري اليسـاري فـي جــانفي (كــانون الثــاني) ٢٠١١ ملخصــا المشـــهد السياســـي التونســـي: " إنّ المتابع لما حصل في تونس، يلحظ تـوفر الواقـع الثـوري وغيـاب الـرأس الثـوريّ... فغياب الـرأس الثـوريّ الـذي تلتفّ حوله الجمـاهير يعنـي وجـود درجـة عاليـة مـن التنظـيم قوامهـا: وضـوح فـي الأهـداف، وتوزيـع دقيـق ومـدروس للمهـام، وتجـذّر فـــي مختلـــف الميـــادين والقطاعـــات، واختراق لكـل مؤسسات الدولـة وأجهزتها بما في ذلك الجهاز الأمنـي والعسكري. وهـذا مـا يـؤدي إلـى دحـر النظـام القـائم، وتحقيق الانتقال من مرحلة إلى مرحلة"[١]. (الأفـــق الاشـــتراكي. ٢٠١١. تكتيكـــات الانتفاضة التونسية).

فعفويـة الثـورة وغيـاب التـأطير والـرأس الثـــوري الموجـــه نتيجـــة غيـــاب أحـــزاب المعارضـة عـن الساحة السياسية بمـوالاة بعضـها الحـزب الحـاكم المنحـل وغيـاب البقيـــة عـــن القيـــادة الميدانيـــة نتيجـــة المراقبـة والاعتقـال والطـرد خـارج الـبلاد، دفعت هذه الأحزاب إلـى محاولـة اللحاق بركـب الثـورة وأعلنـت جميعهـا انخراطهـا فيها بل أكد العديد منهم أحقيتهم بها وهـم مـن تزعمهـا دون أن ينفـوا ريـادة الشـعب وأحقيتـه الكاملـة فـي مكاسـبها. فتغيـر الحــال مــن صــراع بــين الســلطة السياســية والشــعب إلــى صــراع حزبــي وأيديولوجي قسّمت المحتجين وشغلته عـن مطالبـه الأساسـية وتركـت الفرصـة لجماعـة النظام المخلوع لترتيب أوراقهم والعـودة مـن جديد فـي تنظيمات وأطر جديدة.

ومثل تعيين الباجي قائد السبسـي رئيسا للحكومـة فـي الفترة الانتقالية مـن قبـل الرئيس الانتقـالي ورئيس مجلس النـواب فـي عهـد بنعلـي فـؤاد المبـزع، التحـول الجديـد "للثـورة التونسـية" والاسـتغلال الأول للوضع الجديد في ظل الصدامات

بـــين الأحـــزاب والتـــوترات الاجتماعيـــة والتحركات الشعبية ليحاول أن يبرز نفسه زعـيم ملهـم قـادر علـى تسـيير الـبلاد ونقلهـا مـن حالـة الفوضـى إلـى حالـة النظام.

لن نطيل الحديث عن التجاذب السياسي أو الإيديولوجي أو التواتر الزمني لأحداث الثـورة لأنّ البحـث لـن يكـون ملتزمـا بالتسلسـل الزمنـي بـل سيكون مرتبطـا بشخصـية السبسـي فـي محاولاتـه المستميتة للبروز كقائد وزعيم قادر على التحـول بـالبلاد مـن حالـة الفوضـى لحالـة النظام فـي فترة تعالت الأصوات بدولـة المؤسسات.

وزعــيم القــوم رئيســهم وســيدهم والمتكلم عنهم والزعامة الدرع والسيادة والرياسة[٢]. (ابن منظور، ٢٠٠٨، ص ١٨٥٣). وبناء على المفهوم المقدّم وفـي إطار جدليــة حكــم البطــل القائــد المنقــذ المسـتقر فـي الوجـدان العربـي عمومـا وبالتخصيص التونسي وحكم المؤسسات التي تنفّذ الاستراتيجيات بغضّ النظر عن شخصية القائد أو الحاكم يمكن أن نطرح الإشـكال التـالي: كيـف اسـتطاع البـاجي قائـد السبسـي أن يتموقـع زعيمـا فـي الضمير التونسي بعد ثورة ٢٠١١ في لحظة ملـّ فيهـا الشـعب مـن الشخصـية الرمـز القائـد المنقـذ مطالبـا بتركيـز دولـة مؤسسات حقيقية ؟

١- صدمة الصورة

لـم يعـف تشـكيل محمـد الغنوشـي لحكومتـه الثانيـة مـن عناصـر تكنـوقراط معوضـة لعناصـر التجمـع مـن تقـديم اسـتقالته بعـد أن تعرضـت لانتقـادات شـديدة مـن المعتصـمين واعتبروهـا حكومـة خاضـعة لـلإرادة الفرنسـية ولا تسـتجيب للمطالـب الثوريـة والمسـار الثـوري، وهـي "ضـعيفة الأداء، مكبلـة اليدين، بطيئة الحركة، عاجزة عن مسايرة الفعل الثوري بالتوازي مع إرادة الثوار"[٣]. (المــازقي، ٢٠١١، ص٦١). فعــين الــرئيس فؤاد المبزّع، يوم ٢٧-٢-٢٠١١، الباجي قائد السبسي رئيسا للحكومة وكان ذلك بقرار انفـرادي دون استشـارة أحـد[٤]. (المبـزع. ٢٠١١. تصريح بإذاعة شمس أف أم).

وفــي تفســير عــن علاقــة الزعامــة بالجمــاهير قــال الباحــث دال Dall:" إنّ علاقـة الزعامـة بالجمـاهير تـأتي عبـر مـا

يمكن تسميته بالتداخل الشخصي أي ذلك التداخل الذاتي بين الشخص والجموع فهي ليست نابعة عن إكراه أو عن نفوذ قسري، بل هي أقرب ما تكون إلى التأثير السحري الآتي من الزعيم إلى من يؤمنون بزعامته"[٥]. (السعيد، ٢٠٠٥، ص ٧). وانطلاقا من هذا التفسير سنحاول في هذا العنصر النظر في الصورة التي ظهر بها الباجي قائد السبسي للشعب التونسي من ناحية الشكل أي الكاريزما الخارجية من خلال اللبس وطريقة الكلام والحركات دون الدخول في مضمون الخطاب.

ظهر الباجي قائد السبسي منذ أول خطاب له بمناسبة تعيينه رئيسا للحكومة التونسية يوم ٤-٣-٢٠١١ بهيأة صادمة أرجعت الجماهير لسنوات خلت، فكل الشعب التونسي تقريبا أجمع أنّ الذي أمامهم الحبيب بورقيبة. فيبدو أنّ السياسي المخضرم، الذي عاش معظم الأحداث التي مرّت بها البلاد التونسية في القرن العشرين، لم يكن بعيدا عن الساحة السياسية مثلما ادّعى ولم يكن رجوعه إليها مفاجئا، بل كان بعد دراسة شاملة للمشهد العام بالبلاد التونسية ودراسة أركيولوجية لسلوك التونسي وذهنيته. فقد استغل معرفته الدقيقة ببورقيبة وسنوات حكمه معه ليبرز نفسه الرجل الوحيد المناسب لإدارة تونس وإحلال الأمن وخلق النظام مكان الفوضى، ويمرّر للشعب أنه وريث بورقيبة في السياسة والحكمة والزعامة، رغم تأكيده في خطاب ألقاه بمناسبة الذكرى الخامسة للثورة التونسية في ١٤-١-٢٠١٦ أنه ليس وريث بورقيبة بقوله: "أقول هنالك فريق انشق وقرر أن يكون وريث الحبيب بورقيبة، أنا أوضّح أولا، على الرغم من علاقتي الوطيدة بالحبيب بورقيبة، بورقيبة قامة كبيرة في الكفاح في تحرير البلاد وفي بناء الدولة وتعصير المجتمع وأنا مثل الكثيرين تتلمذت على يديه وأنا مدين له ولكنني لست وريثه وثانيا لا وريث لي"[٦]. (مساكني.٢٠١٦. رئيس الجمهورية الباجي قايد السّبسي: لست وريث بورقيبة و لا وريث لي و لا علاقة لي بنداء تونس).

http://archive.akherkhabaronline.com/page/880/?p=cpjildeifj

فبنظرة خاطفة لهذه الكلمات، بدا أنّ السبسي في الظاهر قد تملّص من شخصية بورقيبة وأظهر نفسه زعيما بما يمتلكه من خبرة وحنكة في الشأن السياسي، لكن في الحقيقة فإنّ سطور كلامه بينت محاولته الحثيثة لكسب مشروعية الزعامة من خلال تنويهه بخصال بورقيبة وعلاقته به أثناء الكفاح ضد المستعمر الفرنسي أو حتى من خلال بناء " الدولة الحديثة".

لم يخرج الشكل الخارجي للسبسي عن بورقيبة في آخر أيام حكمه، خاصة وأنّ معظم الشباب التونسي لا يعرفون سوى صورة بورقيبة العجوز:

فكان رأسه دائري الشكل، قليل الشعر ووضع على عينيه نظارات نسخة من التي كان يلبسها معلمه. فأوردت جريدة الشروق الاليكترونية أنه: "خلال الاجتماع العام الذي عقده حزب حركة نداء تونس احتفالا بذكرى ٢ -٣- ١٩٣٤ وتأسيس الحزب الحر الدستوري الجديد، لاحظ العديد ممن حضر التظاهرة أن الهيئة التي برز بها السيد الباجي قائد السبسي تشبه إلى حد كبير هيئة الزعيم الراحل الحبيب بورقيبة وقد زاد من هذا التشابه النظارات السوداء التي ارتداها رئيس "نداء تونس" والتي ذكّرت الجميع بنفس النظارات التي كان يحملها الرئيس بورقيبة في لقاءاته الجماهيرية"[٧]. (جريدة الشروق الاليكترونية.٢٠١٣. قائد السبسي النظارات الصدرية.).

http://tn-news.com/portal/v4/40681876

- ارتدى على جسده الهرم بدلة وقميصا وربطة عنق تعيدنا إلى بورقيبة سنوات السبعين من القرن العشرين.

- ارتجل الخطابات واعتمد لكنة صوت حادة ومتعثرة في الكلام واستنجد بنفس أدوات المخاطب البورقيبية "أنا" وأحيانا "نحن". بل تمادى إلى اختيار نفس حركات وإشارات بورقيبة أثناء الاجتماعات الشعبية أو اللقاءات الصحفية. وكتب ناجي الزعيري في ذلك:" بدا واضحا أن الشخصية السياسية التي خطبت في التونسيين يوم أمس الأول مفعمة بروح الزعيم الراحل الحبيب بورقيبة أو لنقل هي شخصية الباجي قائد السبسي المتلبسة (بفتح الباء) بشخصية بورقيبة ومسكونة بها ووفية

لها. لكأننا كنا يوم أمس الأول نستمع إلى الحبيب بورقيبة في حركاته ونبرات صوته وارتجاله للكلام واستخدام (أنا المخاطب وأحيانا (نحن)" [٨]. (الزعيري.جريدة الشروق الاليكترونية.٢٠١١. الزعيم الراحل كان حاضرا في خطابه: بورقيبة... قائد السبسي).
http://www.turess.com/alchourouk/507578

صورة١: الشكل الخارجي لكل من الحبيب بورقيبة والباجي قائد السبسي





رئيس تونس عام 1970 رئيس تونس عام 2016

ومثل خطاب ٢٢-١- ٢٠١٥ أرقى مستويات التماهي بين السبسي وبورقيبة حتى أنه بإمكاننا الحديث عن " الباجي قائد بوقيبة" أو "بورقيبة قائد السبسي"، فلم يكن أمام الرئيس لمواجهة الاحتجاجات الاجتماعية المتصاعدة، والتي انطلقت من مدينة القصرين وتمدّدت نحو جميع المدن بما في ذلك العاصمة، والتي تنبئ بثورة مماثلة لسنة ٢٠١١ وانتهت بإزاحة بنعلي، سوى الاستنجاد بزعامة الحبيب بورقيبة بما يمتلكه من تأثير على الفكر الجمعي التونسي. فتقمص السبسي الشخصية وألقى خطابه من نفس المكتب الذي ألقى فيه بورقيبة خطابه في ٦ جانفي (كانون الثاني) ١٩٨٤ إبان ما سميّ "بانتفاضة الخبز"، بل وحافظ على نفس المؤثرات والديكور وكأنّ ٣٢ سنة من تاريخ تونس قد ألغيت. لذلك كانت الصورة التي ظهر بها محل تندّر من بعض الناشطين في التواصل الاجتماعي، وكتبت عديد الجرائد عن هذا التماهي، من ذلك أوردت جريدة الخبر الاليكترونية مقالا بعنوان " ما أشبه البارحة باليوم" وفيه: " نشر نشطاء تونسيون على مواقع التواصل الاجتماعي شريط فيديو يقارن الخطاب الذي ألقاه الرئيس التونسي الحالي الباجي قائد السبسي يوم ٢٢ جانفي (كانون الثاني) ٢٠١٦ عقب الاحتجاجات الأخيرة، وخطاب للرئيس التونسي الأسبق الحبيب بورقيبة يوم ٦ جانفي (كانون الثاني) ١٩٨٤ عقب ما يعرف ب"انتفاضة

الخبـز" والتـي انطلقـت شـرارتها الأولـى يوم الخميس ٢٩ ديسمبر (كانون الأول) ١٩٨٣. ويظهر الفيديو تشابه واضح في المفـردات المسـتعملة مـن السبسـي وبورقيبـة فـي الخطابين ما جعـل الكثير مـن الناشـطين التونسـيين يعلقـون "مـا أشبه البارحـة باليوم"، فبعـد أكثر مـن ٣٠ سـنة مـن "انتفاضـة الخبـز" الشـهيرة، لـم تتحسـن الأحـوال فـي تـونس ومـازال الشـعب يحـتج علـى البطالـة والتهميش في سنة ٢٠١٦"[9].

(جريــدة الخبــر الاليكترونيــة. ٢٠١٦).

http://www.elkhabar.com/press/article/98987/

(المسار العربي. ٢٠١٦. خطاب السبسي ٢٠١٦ وخطاب بورقيبة ١٩٨٤، التونسيون ما أشبه اليوم بالبارحة). http://elmassar-ar.com/ara/permalink/43039.html

بينت الصورة التي ظهر بها الباجي قايد السبسي للشعب التونسي أنّ قدومة للسلطة لم يكن صدفة وإنما بعد دراسة للذهنيــة التونســية وارتباطهــا بــالزعيم الحبيـب بورقيبـة وتاريخـه. فقـد اسـتغل مورفولوجيـا الجسـم والشـكل الشـبيه بمعلمـه وفـرض ضـغطا نفسـانيا علـى الجمهور أنتج صورة ضبابية غرست فيه يقينا بأنّ الذي أمامه زعيم من أيام الاستقلال قادر على الانتقال بالبلاد إلى برّ الأمان في مرحلة أولى ثم النجاح في بناء الجمهورية الثانية بما يمتلكه من خبرة سياسية وحنكة في إدارة البلاد ومؤسساتها.

الصورة ٢: تشابه الصورة بين الباجي وبورقيبة.



٢- صدمة الخطاب

اندمج السبسي في الثورة رغم عدم مشاركته فيها، وتبنى مطامح الشباب في بناء تونس جديدة قوامها "الحرية والكرامة"، لكنه لم ينجر وراء حماسة الشباب مثل بقية السياسيين بل كان على دراية بالتوازنات الداخلية والخارجية وعلى دراية بالوعي الجمعي للجمهور العربي عموما والتونسي خصوصا. فخبرة السنين الطوال في مجال السياسة والحكم أعطته قدرة على التمييز وأدرك أنّ الثورة وإن كانت شعبية وعفوية بلا

قيادات فهي تعبر عن طموحات جزء من المجتمع فقط، وهي في الغالب مطالب اجتماعية. فلم يرق الوعي الجمعي إلى درجة القدرة على الحكم الذاتي والمشاركة الفعّالة والقوية في التنظيم الاجتماعي والمؤسساتي ولازال يميل إلى الكسل في صنع القرار والتأثير فيه، لذلك مثلت فكرة الزعامة والبحث عن زعيم منقذ جديد يسوسه ويقوده طاغية على فكره ووجدانه.

ولنعد للبداية، عرض الرئيس الانتقالي فؤاد المبزع رئاسة الحكومة على الباجي قائد السبسي لكن هذا الأخير بدا زاهدا في الحكم ورفض ما عرض عليه بقولته "شوف غيري" أي ابحثوا عن غيري، فنجح بأن يظهر قبوله للمسؤولية في شكل "مناشدة" بعد أن اشترط مقابلة وزير الداخلية والجنرال رشيد عمار[١٠]. (القلالي، ٢٠١٢، ص ٥٨).

استبطن السبسي في طريقة قبوله للسلطة شخصية بورقيبة باعتقاده، مثلما كان يعتقد معلمه، أنه الوحيد القادر على إخراج البلاد من أزمتها وهو الزعيم المنقذ الذي ناشده السياسيون لقيادتهم. فكان ظهوره للإعلام بخطابه الأول في ٤- ٣- ٢٠١١، الذي ارتدى فيه جلباب الحبيب بورقيبة، فاعتمد لهجة عامية تونسية مهذبة، بسيطة، يسهل فهمها من جميع فئات المجتمع مع بعض الشعارات المستمدة من التقاليد الإسلامية، واتسم الخطاب بمفردات الثورة والحزم المغمورة بالثقة في النفس. فالروح الثورية والمفردات البورقيبية كانت حاضرة بقوة في الخطاب الارتجالي مثل " هيبة الدولة" و" الصدق في القول والإخلاص في العمل". فمن البداية كانت رسالته واضحة للشعب التونسي ومفادها أنّ رجال بورقيبة ليسو رجال بنعلي مثلما يدعي أغلبية "الثورجية" بل هم من أصحاب الثورة وعازمون على التفاعل الإيجابي مع الشباب ومتفهمون لمطالبهم ومستعدّون لتلبيتها وتحقيقها.

ورغم معارضة عديد السياسيين تعيين الباجي قائد السبسي رئيسا للحكومة بتعلة انتماءه إلى المنظومة السابقة، وأكد بعضهم على تاريخه الدموي حين كان وزيرا للداخلية في العهد البورقيبي

واعتبروا أنّ من تربى على الاستبداد لن يقدر على بناء الديمقراطية في المرحلة الانتقالية. إلاّ أنّ خطابه الأول قد لقي ارتياحا من التونسيين واستبشروا به، خاصة وقد أكد على تملّصه من المنظومة السابقة واعتبر بنعلي خائن البلاد ويستحق الإعدام ووعد بمشاركة كل الفعاليات السياسية والمجتمعية في الانتقال الديمقراطي للاستجابة لمطالب الثورة وأعط الأولوية لإنعاش الاقتصاد الذي عرف تدهورا كبيرا وذلك لن يكون إلاّ بتحقيق الأمن وإعادة "هيبة الدولة". وقد اعتبر٧٨% من التونسيين أنّ خطابه كان مطمئنا حسب سبر الآراء الذي قامت به مؤسسه " Enrhod Consulting"، كما أنشأ عدد من المدونين صفحة على موقعا للتواصل الاجتماعي " فيسبوك" عنوانها " كلنا مع الباجي قائد السبي ولقيت إقبالا فاق ١٢ ألف مشترك في زمن وجيز"[١١]. (عطية الله. ٢٠١١. العربية نت. قائد السبسي يعيد الروح البورقيبية إلى أذهان التونسيين).

تواصلت الروح البورقيبية في خطابات الباجي القائد السبسي ولقاءاته الصحفية جميعها تقريبا، فحتى سياسة بورقيبة للنيل من خصومه والإطاحة بهم حاضرة. ففي خطاب ١٦- ٦- ٢٠١٢، وفي الاجتماع الجماهيري للإعلان عن تأسيس حزب "نداء تونس"، فقد تمادى في السخرية والضحك من وزراء حكومة "الترويكا" خاصة المنتمين لحركة "النهضة" باعتماد عبارات مشينة تحط من مكانتهم[١٢]. (جريدة الصريح. ٢٠١٢).

واتهم الحكومة الإسلامية بالتغوّل والعودة للدكتاتورية التي عانى منها الشعب التونسي طيلة ٦٠ سنة، وهي قوى ظلامية تحاول الخروج عن النمط التونسي الذي أرساه بورقيبة[١٣]، (عمارة. رويترز الاليكترونية. ٢٠١٢. الباجي السبسي يعلن تأسيس حركة "نداء تونس" للتصدي لهيمنة "النهضة").

http://ara.reuters.com/article/topNews/idARACAE85F08C20120616?sp=true

وقسّمت البلاد إلى "ديار المسلمين" و"ديار الكفار" والتونسيين إلى "مؤمنين" و"كفار" لغايات انتخابية، مشددا على أن رئيس الحركة راشد الغنوشي "يقود

تونس إلى فتنة التقسيم على أساس الإيمان والكفر" والحال أنّ "المجتمع التونسي مجتمع مسلم" ولكن ليس على "الطريقة التي تريدها النهضة"[١٤]. (وطنا نيوز الاليكترونية. ٢٠١٤. 'نداء تونس' يتهم الغنوشي بتقسيم المجتمع الى كفار ومؤمنين).

http://watananews.com/print.php?nid=92808

(ميدل ايست أونلاين. ٢٠١٤. 'نداء تونس' يتهم الغنوشي بتقسيم المجتمع الى كفار ومؤمنين).

http://www.middle-east-online.com/?id=184381

وأنّ حزبه "نداء تونس" جاء لإعادة التوازن للساحة السياسية و" يسعى إلى تركيز مبادئ التداول على السلطة وتوفير الظروف الملائمة المفقودة حاليا، وأن شروط الزعامة لا تتوفر في حركة النهضة رغم تواجدها الكثيف على أرض الواقع... والزعامة تكون بتحقيق مستحقات الشعب وحركة النهضة لديها زعامة في احتلال المناصب".[١٥] (راديو جوهرة أف آم.٢٠١٢).

لم تكن اتهامات السبسي لحركة النهضة عشوائية بل كانت في إطار المناورات السياسية وخاصة استغلال الفكر الجمعي التونسي المحترز من الفرق الإسلامية نتيجة ما ألحقت بهم طيلة فترة طويلة في تونس أو في العالم من تهم عنف وإرهاب، وإخراج نفسه للشعب بصورة الزعيم الوحيد القادر على قيادة تونس والمحافظة على المكاسب والحقوق التي خطها بورقيبة في بناء الدولة الحديثة و" الإسلام التونسي" في مواجهة "الإسلام النهضاوي الإرهابي" الذي يرعاه ويحرّض عليه المنصف المرزوقي. فهو رأى بأن تونس "لن يحكمها لا غول ولا مهبول" وأنّ التكفيريين ورابطات حماية الثورة والسلفيين لن يدخلوا قصر قرطاج في صورة نجح بالفوز بلقب رئيس تونس"[١٦]. (بوجناح. الجريدة التونسية الاليكترونية. ٢٠١٤. الباجي قائد السبسي في صفاقس: تونس لا تحب غول ولا مهبول بل حاكم مسؤول).

http://www.attounissia.com.tn/details_article.php?t=42&a=140815

ومثل دائما خطاب ٢٢ جانفي (كانون

الثاني) ٢٠١٦، الذي أثار سخرية العديد من المتابعين خاصة نشطاء الفايسبوك الذين لخصوه في جملة "رجع الفريجدار" "أي أرجع الثلاجة"، الاستنجاد الحقيقي بزعامة بورقيبة. فالسبسي استعمل نفس مفردات بورقيبة في خطابه اثر احتجاجات الخبز في محاولة للسيطرة على الأحداث التي امتدت إلى جميع المدن التونسية، وهو يعلم بأنّ شعب ١٩٨٤ ليس شعب ٢٠١٦. فالشعب التونسي اليوم لازالت ثورة ٢٠١١ منبع أفكاره وتصوراته وهو مستعد أن يحوّل الاحتجاجات إلى ثورة وقد يحصل له ما حصل لبنعلي. وقد عمد نشطاء المجتمع المدني وخاصة في الفايسبوك إلى وضع فيديو بدقيقة ونصف يجمع التشابه في المفردات المستعملة بين السبسي ومعلمه وهي كالآتي:

الحبيب بورقيبة	الباجي قايد السبسي
- أيها الشعب التونسي - وأتوجه بهذه المناسبة بالشكر إلى قيادات الأمن وإلى قيادات الجيش وكل ضباط الأمن وضباط الجيش وإلى كل أعوان الأمن.	- أيها الشعب التونسي العزيز - ونشكر مجهود الشعب والجنود وأعضاء الأمن.
- بعض قطاع الطريق و"السراق" استغلوا هذا الظرف خاصة في بعض المناطق المجاورة لتونس.	- قررت أمام هذا "التشويش" (أي الاحتجاجات التي شابتها عمليات سرقة ولصوصية).
- أنا أطلب من الحكومة أن تأخذ بعين الاعتبار هذا الوضع وأن تقدم مشروعا للتنقيص من وطأة البطالة بخطى إنشاء الله ثابتة مع الأخذ بعين الاعتبار إمكانيات الدولة.	- ونعطي إذن للحكومة أن تمدّني بعد ٣ أشهر بميزانية أخرى.

إنّ المؤالفة بين الصورة والخطاب للظهور بمظهر الزعيم الوحيد لتونس والوريث الشرعي لبورقيبة، لم تكن كافية بالنسبة للسبسي للتأثير في جموع الناس للحصول على الرئاسة في مرحلة أولى وتوطيد حكمه في مرحلة ثانية، خاصة وقد أصبحت الساحة السياسية مزدحمة بالأحزاب والناشطين السياسيين الذي رأى فيهم حاجزا قانونيا أمام تحقيق طموحاته[١٧]، (المرزوقي. جريدة الحقائق. ٢٠١١. على السبسي أن يتقاعد مشكورا لأنّ بقاءه في السلطة لا يعني سوى أنّ هناك مجلسا عاجزا، وهذا لا يصب أبدا في مصلحة البلاد). (الهمامي. جريدة الحقائق. ٢٠١١. ألم يسمع (السبسي) أنّ الرئاسة مدى الحياة انتهت، وأنّ رئاسة الوزراء المؤبدة ولت) لذلك حاول التأثير بقوة على الذاكرة الشعبية باللعب أكثر على رمزية بورقيبة، فعقد اجتماع ٢٦- ١- ٢٠١٢ تحت عنوان " نداء الوطن" بمدينة المنستير، وما تمثله هذه المدينة من رمزية لعموم الشعب التونسي بما أنجبته من مناضلين لمواجهة الاستعمار الفرنسي وعلى رأسهم الحبيب بورقيبة، خاصة وقد ذكر السبسي نفسه في كتابه "المهم والأهم" أنّ نقطة ضعف بورقيبة هذه المدينة وكانت له نية كبيرة بتحويلها إلى عاصمة البلاد لولا معارضة زوجته وسيلة"[١٨]. (السبسي، ١٩٩٩، ص ٣٦٢- ٣٦٣).

وعمد إلى الزيارات المتكررة لضريح الحبيب بورقيبة خاصة في ذكرى تأسيس الحزب الدستوري الجديد ٢- ٣- ١٩٣٤ محفوفا بعدد من المناضلين القدامى حتى يبرز نفسه الزعيم المحافظ على الإرث النضالي للبلاد والمجدد له، بل وعد بإعادة تماثيل بورقيبة في مدن عديدة بعد أن دمرها بنعلي، وكان له ذلك بعد أن تمكن من الرئاسة. ولم ينس السبسي البروتوكول والظهور بهيبة رئيس المخيلة الشعبية التي افتقدها الشعب في المرزوقي واعتبروه "شعبويا"، فخلق لنفسه هالة من الفخامة في الاجتماعات العامة بحشد صفوف من الحماية، وفرض على الإعلام أثناء اللقاءات الصحفية المحافظة على الهيبة بل هو من يختار الأسئلة. لذلك طرحت عديد التساؤلات

حول معاملة السبسي للصحفيين خاصة بعد أن أجاب أحد الصحفيين في ٢٩- ١١- ٢٠١٤ بكلمة بذيئة تونسية " تي روح رهز"، ومن قبله في ٦- ٢- ٢٠١٤ ألقى الأوراق في وجه الصحافي محمد بوغلاب في برنامج "شكرا على الحضور" في القناة الوطنية التونسية الأولى".

لقد تطرقنا في بحثنا هذا إلى الباجي قائد السبسي في جداله مع الشعب التونسي بعد الثورة ومحاولاته البروز بهيئة زعيم دون الخوض في سياساته. فرغبة الرجل في القيادة والدخول لقصر قرطاج منذ أن أجبر على الخروج من رئاسة الحكومة - مثلما يدّعي بعض السياسيين والمحللين-، دفعته إلى تقمّص شخصية الأب الروحي للتونسيين وزعيمهم بورقيبة شكلا وخطابا. ويبدو اليوم أنّ إستراتيجية السبسي قد تبناها عديد السياسيون وادعوا بكل حماسة أنهم بورقيبيون من ذلك محسن مرزوق ومحمد نجيب الشابي.

الخاتمة: الزعامة على طاولة النقد

بدا الباجي قائد السبسي بعد ٢٠ سنة من الغياب عن الساحة السياسية متلهفا للسلطة محاولا تزعم ثورة لم يشارك فيها وتوجيهها بناء على أفكاره. فحاور الذاكرة التونسية وحاول السيطرة عليها بفكرة الزعامة وتقديم نفسه القائد المخلص، استمدّ زعامته من تاريخه صحبة الحبيب البورقيبة. واستطاع أن يجمد الضمير الجمعي ويجبره على التنازل عن مطلبه في بناء دولة المؤسسات ولو جزئيا مقابل العودة إلى دولة الزعامة البورقيبية بدخوله قصر قرطاج في انتخابات ٢٠١٤. وكتب خير الله خير الله في جريدة "مصر اليوم" حول فوز الباجي القائد السبسي في الانتخابات الرئاسية- وإن كان مقاله المعنون ب"" تونس صوتت لبورقيبة" غير محايد ومبني على أسس أيديولوجية ومحاولة لإسقاط الوضع السياسي المصري على الجبهة التونسية، فهو قد عبر بدقة عن جدلية السبسي والشعب التونسي والتكتيك التي اعتمده ليفرض نفسه زعيما - " لم يكن فوز الباجي القائد السبسي في الانتخابات الرئاسية التونسية انتصارا لرجل في الثامنة والثمانين من العمر على

مرشح كان مفترضا أن يمثّل طموحات التونسيين الذين قاموا ب"ثورة الياسمين". كان انتصار الباجي انتصارا لتونس، ولمؤسسات تونس. كان انتصارا للحبيب بورقيبة قبل أي شيء آخر. كان انتصارا لرجل، رحل من عالمنا، بنى المؤسسات التونسية التي صمدت في وجه هجمة الإخوان المسلمين الممثّلين ب"حركة النهضة" الذين أرادوا القضاء على كل ما هو حضاري وتقدمي في تونس. حلّ الباجي قائد السبسي مكان شخص الحبيب بورقيبة الذي ترشّح في وجه الإخوان المسلمين الذين حاولوا التسلل إلى رئاسة الجمهورية عبر سياسي اسمه المنصف المرزوقي يروّج لنفسه بأنه ليبرالي" [19]. (خير الله. جريدة مصر. ٢٠١٤. تونس صوتت لبورقيبة).

بدت شخصية بورقيبة واضحة على ملامح السبسي ومعلومة من كل فئات الشعب، إلاّ أنّ تكتيكه أزعج عديد السياسيين والمثقفين المناوئين له، خاصة وقد استطاع في وقت وجيز استقطاب طيف كبير من التونسيين والتأثر بشخصيته واعتبروه الزعيم المنقذ القادر على مواجهة الزحف النهضاوي والحفاظ على ملامح الدولة البورقيبة. فمثلا، أكد الطاهر بالخوجة وزير الداخلية في عهد الزعيم الحبيب بورقيبة في حوار أجراه مع صحيفة "عرابيا" أنّ الباجي قائد السبسي يريد أن يلعب دورا سياسيا معتمدا على البورقيبية التي أصبحت أصلا تجاريا يستغلها البعض لتحقيق أطماع معينة.

وأشار إلى أن التجربة البورقيبية أصبحت ملكا للشعب وله الحق أن يطورها أو يراجعها أو أن يتجاوزها مشيرا بأنّ البورقيبية أصبحت مغالطة يديرها البعض ممن يلبسون لباس تجمعي تحت ستار الفكر البورقيبي. وطالب بالخوجة الباجي قائد السبسي بالابتعاد عن الحياة السياسية وترك الساحة للشباب وللأفكار الجديدة، فإمكانياته البدنية لم تعد تسمح بإعطاء الكثير لتونس[20]. (باب بنات. ٢٠١٢)

http://www.babnet.net/rttdetail-46644.asp

وقال الأستاذ الجامعي في علم الاجتماع سالم الأبيض بعد البيان الذي ألقاه الباجي قائد السبسي في ٢٦-١-

٢٠١٢: " إنّ الـــوزير الأول البـــاجي قائـــد السبسـي سعى من خلال مبادرته إلى تمثـل الشخصـية البورقيبيـة بقـوة إلـى درجـة أنـه يحـاول أن يتماهي مـع فكـرة الزعيم التي تأثر بها كثيرا في ظل عمله طـويلا مـع بورقيبـة، ومـن هـذا المنطلـق يسـتبطن بعـض خصـائص الزعامـة، وربما يعتقد أنّ الفرصة باتت سانحة لتقلد هذا الدور... إنّ السبسـي لا يعلـم أو يتجاهـل أنّ رأس المال الرمزي للزعامتية البورقيبية متـأتّ مـن دوره فـي الحركـة الوطنيـة وليس مـن رئاسـته للدولـة... وهـذا مـا لا يتــوفر فـــي الســـيد البــاجي القائـــد السبسي... ولا أفهم هذه الوصاية التي وردت في بيان قائد السبسـي إلاّ ضمن التربيـة البورقيبيـة التـي تلقاهـا والتـي لا تنفصـل فيهـا الـبلاد والشـعب عـن ذات الزعيم، وإلاّ فلا مبرّر للتدخل في مهام مجلس منتخب انتخابا ديمقراطيا مباشرا يمثـل الشـعب وهـو حسـب الأعـراف المتداولـة فـي الثـورات سـيد نفسـه، والسـلطة الأعلـى، ولا سـلطة لسـواه"[٢١]. (الأبيض. جريدة الشروق التونسية. ٢٠١٢)

لم يخصّص بحثنا هذا للنظر في سياسات السبسي، ولكـن فرضت نفسنا علينا ولـو بإيجـاز، فشـعوره بالعظمـة وغلـق آذانـه أمام مطالب الشعب واهتمامه بمشاريع لا تمـت بصلـه لأهداف الثورة (مثـل بناء تماثيل لبورقيبـة أو أكبـر علـم فـي العالم أو أكبـر كسـكاس فـي العـالم (مـاعون طبخ الكسكسي)... بأموال طائلة عوض مواجهة الأزمـة الاقتصادية وإيجاد حلـول للبطالـــة وغـــلاء المعيشـــة والفقـــر المتفـــاقم. وكـــذلك تقـــديم مشـــروع مصالحة مع رجال الأعمال وإلغاء ديونهم المسـتحقة للدولـة والتـي هـي أساسـا أموال الشعب والتي تقدّر حسب بعض الإحصائيات ب ٨ مليار دينار تونسي وفي المقابل يحاول الاقتراض من بنك النقد الـــدولي ٣ مليـــار دينـــار وفرضـــه علـــى الشعب سياسة تقشفية وحرمان الشباب مــن الانتــداب فـــي الشـــغل لمـــدة ٣ سنوات...). بالإضافة إلى فرضه وصاية علـى مؤسسـات الدولـة وتدخلـه فـي رئاســـة الحكومـــة والبرلمـــان وحتـــى المؤسســة القضـائية متناسـيا أنّ نظـام الـبلاد برلمـاني ولـيس رئاسـي، وضـعت البورقيبيـة مـن جديـد علـى طاولـة النقـد

وبدأت فكرة الزعامة تفقد بريقها مع مرور كل يوم له في الرئاسة.

وعبر عن ذلك الطاهر بن حسين في حوار له في راديو كلمة: " إنّ عصر الزعامات انتهى والذي لم يفهم ذلك لن يستطيع إن يصل لشيء، واليوم الحيلة الوحيدة للنجاح هي القيادة الجماعية لكل مشروع سواء كان اجتماعيا أو سياسيا أو اقتصاديا أو أيّ شيء. اليوم الزعامات انتهت وزمن بورقيبة انتهى والباجي قائد السبي لم يكن زعيما بل كان فقط يدور حول البقية". وإن لم يخف الطاهر بن حسين تخوّفه من الفكر الجمعي الذي تهيمن عليه فكرة القائد المسير للشؤون العامة بالنيابة عنه[٢٢]. (بن حسين. راديو كلمة. ٢٠١٦).

وكتب في نفس المجال محمد الحداد في جريدة الحياة الإليكترونية في نقد لفرض السبسي تغيير حكومة الحبيب الصيد مقالا عنونه " الدرس التونسي: الزعامة عندما تخنق المؤسسات" وفيه: " قام الرئيس التونسي الباجي قايد السبسي بمجازفة خطرة عندما أعلن مع بداية شهر رمضان نيته استبدال الحكومة الحالية بحكومة وحدة وطنية. ومع أنّ دستور الجمهورية الثانية لا يمنع الرئيس من القيام بهكذا مبادرة، فإنّ روحه تتمثل في جعل الحكومة مسئولة أمام البرلمان لا أمام الرئيس. لذلك كانت المبادرة تحمل في طياتها أخطار خرق هيبة الدولة ونظامها الدستوري. وهي إذا طالت وفتحت مجالاً واسعاً للجدل، فإنها تزيد الوضع السياسي إرباكاً بدل المساعدة على حسن تسيير الشأن العام وتزيد الحكومة إضعافاً وهي الضعيفة أصلاً، لا سيما وقد اختار الرئيس الإعلان عن مبادرته عبر الإعلام وقبل مشاورة المعنيين بالمبادرة، وأولهم رئيس الحكومة الحالي... المسألة تتجاوز الحسابات السياسوية لهذا الطرف أو ذاك، وتتجاوز الواقع التونسي ذاته لتطرح سؤالاً أخطر: متى يقتنع العقل السياسي العربي بأنّ الحكم ليس غنيمة، وأنّ الدولة مؤسسات وليست زعامات، وأن المراهنة على المؤسسات أولى من المراهنة على عبقرية الحاكم التي تحضر مرة وتغيب مرات؟... وإذا ما غابت المؤسسات، تضخّم دور الزعامات

بـديلاً لمواجهـة الأخطـار. ومـن هـذا المنطلـق، وإذا غلّبنا حسـن النيـة فـي مبادرة الرئيس التونسـي قائد السبسـي، قلنا إنها محاولة لمعالجة اختلال سياسي واضح نتج من أزمـة الحزب الحاكم التي اندلعت منذ حصوله على الغالبية في الانتخابات الأخيرة سنة ٢٠١٤، ولم تزد بعد ذلك إلا استفحالاً، وأصبحت أزمة الحكومة ذاتها. ولقد كانت زعامـة قائد السبسـي، السياسي المخضرم، وهي زعامة تقتبس مشروعيتها مـن رفقتـه التاريخيـة للحبيب بورقيبة أثناء معركة الاستقلال ثم مراحل بناء الدولـة الوطنية، قد اضطلعت بدور إيجابي مرتين بعد الثورة، أولاهما عندما رأس الحكومة المؤقتة بعد الثورة لتنظيم انتخابـات المجلس التأسيسـي سـنة ٢٠١١، وثانيتهما عندما تدخل لتعديل المشهد السياسـي بعـد تغـوّل حـزب «النهضـة» وانتشـار الإرهـاب والاغتيـالات السياسـية سنة ٢٠١٣. وكان من المفترض أن تقف الزعامـة فـي حدود المرحلـة الانتقاليـة، وأن يدخل البلد عهد حكم المؤسسات بعـد صياغة الدسـتور الجديـد وإعـلان الجمهورية الثانية. ولئن لم يتحقق الأمل بسبب ضعف الأحزاب، فإنّ الزعامة أثبتت أيضاً محدوديتها وعجزها عـن أن تكـون دائماً المخرج والمنقذ... مهما يكن الأمر، فإنّ التجربة الديموقراطية الحقيقية هـي التـي تقـوم علـى مؤسسـات لا علـى زعامـات، والأفضـل المراهنـة علـى المؤسسات إلى أن يستقيم عودها بدل المراهنة على الحلّ السهل، أي الزعامات التي تخنق المؤسسات وهي تظنّ أنها تحسن صنعاً.

إن الأزمة السياسية الحادة التي تعيشها تـونس حاليـاً، تقـدّم درسـاً جديـداً بهـذا الاتجـاه، لكنـه لـن يكـون بالتأكيـد الـدرس الأخير. فثنائيـة الغنيمـة والزعامـة ما زالت متأصلـة فـي الـوعي السياسـي العربـي مهمـا كانـت القيمـة النظريـة للدسـاتير والتشريعات التي تصاغ هنا وهناك... "[٢٣].

(الحـدد. جريـدة الحيـاة الاليكترونيـة). ٢٠١٦ http://www.alhayat.com/Opinion/Writers/16523584/

إنّ مـرور سـنتان مـن حكـم الزعامـة فـي تـونس بقيـادة البـاجي قائـد السبسـي بـدأت تخلـق وعـي سياسـي جديـد وتحركات شعبية جديدة قد تعيدنا إلى

النقطة الصفر بهروب بنعلي أو حتى إلى اللحظات الأولى لبناء الدولة البورقيبية الحديثة، فالزعيم المنقذ نسي الفارق الزمني وصيرورة تطور الوعي الجمعي ومبادئ ثورة ٢٠١١. فقد أصبح السياسيون والمجتمع المدني وخاصة الشباب الذي خاض الثورة يتساءل عن جدوى ما قام به وقد عادت دولة الزعيم المتحكم في مصير البلاد والعباد، وهل أنّ الدولة البورقيبية التي سمع عنها ولم يعش مسيرتها وهلل لها الإعلام تستجيب لمطامحه اليوم في الديمقراطية والحرية والكرامة. إنه صراع أجيال في صلب طموحات إدارة البلاد، جيل أدار مرحلة الاستقلال لازال يرى أنّ له الحق في الغنيمة وفرض الوصاية على الشباب الذي تنقصه الخبرة السياسية، رغم أنّه فاق العقد الثامن من عمره، وجيل ثان شاب يرى أنّ عصر الزعامات قد انتهى ولن تعرف البلاد النمو الشامل إلاّ بتواجده بقوة وذلك ببناء دولة المؤسسات التي لا تخضع لمزاج الحاكم. لذلك فإنّ العودة إلى نقطة الصفر أصبحت حديث الشارع التونسي اليوم والإعلام البديل الذي مهد لثورة ٢٠١١، ونقصد بذلك الفايسبوك، فالإعلام الكلاسيكي لم يعد يلبي طموحات الشباب ولم يعد مصدر مضمون وضامن للحاكم.

قائمة المصادر والمراجع

- **الكتب**

١. ابن منظور، **لسان العرب**، تحقيق عبد الله علي الكبير ومحمد أحمد حسب الله وهاشم محمد الشادلي، المجلد الثالث، (دار المعارف للنشر، القاهرة، ٢٠٠٨).

٢. السعيد رفعت، **الزعامات السياسية المصرية**، (كتب عربية، القاهرة، ٢٠٠٥).

٣. قائد السبسي الباجي، **الحبيب بورقيبة- المهم والأهم**، (دار سراس للنشر، تونس، ١٩٩٩).

٤. القلالي محمد المختار - بن يوسف الطاهر، **القوى المضادة للثورة في تونس الباجي قايد السبسي نموذجا**، (مطبعة فن الطباعة، تونس، ٢٠١٢).

٥. المازقي صالح، **الثورة والدولة**، (دار المتوسطية للنشر، تونس، ٢٠١١).

- **الصحف**

١. "تكتيكات الانتفاضة التونسية، ما

العمل؟" **الأفق الاشتراكي**"، (تونس الأحد ٦ -٣- ٢٠١١.
٢. "**جريدة الصريح**"، (تونس)، ٢٣ جوان ٢٠١٢.
٣. الأبيض سالم، "**جريدة الشروق التونسية**"، (تونس)، ٢٧-١- ٢٠١٢.
٤. خير الله خير الله، "تونس صوتت لبورقيبة"، "**جريدة مصر** "، (مصر)، ٢٤- ١٢- ٢٠١٤.
٥. المرزوقي منصف، "**جريدة الحقائق**" (تونس)، ٢١- ١٠-٢٠١١
٦. الهمامي حمة، "**جريدة الحقائق**"، (تونس) ٢١- ١٠- ٢٠١١

- **المصادر الاليكترونية**

١. بوجناح فتحي، " الباجي قائد السبسي في صفاقس: تونس لا تحب غول ولا مهبول بل حاكم مسؤول"، "**جريدة التونسية الاليكترونية**"، (تونس، ٢٠-١١-٢٠١٤).
http://www.attounissia.com.tn/details_article.php?t=42&a=140815
٢. "**جريدة الخبر الاليكترونية**"، (الجزائر، ٢٣ - ١- ٢٠١٦).
http://www.elkhabar.com/press/article/98987/
٣. الحداد محمد، "الدرس التونسي: الزعامة عندما تخنق المؤسسات"، "**جريدة الحياة الإليكترونية**" (تونس، ١٠- ٨- ٢٠١٦).
http://www.alhayat.com/Opinion/Writers/16523584/
٤. الزعيري ناجي، " الزعيم الراحل كان حاضرا في خطابه: بورقيبة... قائد السبسي!" "**جريدة الشروق الاليكترونية**"، (تونس، ٨-٩-٢٠١١).
http://www.turess.com/alchourouk/507578
٥. عطية الله ليلي، "قائد السبسي يعيد الروح البورقيبة إلى أذهان التونسيين"، "**العربية نت**"، (٧-٣-٢٠١١).
٦. عمارة طارق،"الباجي السبسي يعلن تأسيس حركة "نداء تونس" للتصدي لهيمنة "النهضة""،"**رويترز الاليكترونية**"، (١٦-٦-٢٠١٢).
http://ara.reuters.com/article/topNews/idARACAE85F08C20120616?sp=true
٧. "قائد السبسي النظارات والصدرية"، "**جريدة الشروق الاليكترونية**"، (تونس، ٢ مارس ٢٠١٣).
٨. "**المسار العربي**"، "خطاب السبسي

٢٠١٦ وخطاب بورقيبة ١٩٨٤، التونسيون ما أشبه اليوم بالبارحة"، (الجزائر، ٢٣-١-٢٠١٦).
http://elmassar-ar.com/ara/permalink/43039.html

٩. مساكني جواهر، " رئيس الجمهورية الباجي قايد السّبسي: لست وريث بورقيبة و لا وريث لي و لا علاقة لي بنداء تونس" "**جريدة خبر أون لاين الإليكترونية**"، (تونس، ١٥-١-٢٠١٦).
http://archive.akherkhabaronline.com/page/880/?p=cpjildeifj

١٠. موقع الاليكتروني "**باب بنات**"، (تونس، ٥ -٣- ٢٠١٢).
http://www.babnet.net/rttdetail-46644.asp

١١. "'نداء تونس' يتهم الغنوشي بتقسيم المجتمع إلى كفار ومؤمنين"، "**ميدل ايست أونلاين**"، (١٨-٩-٢٠١٤).
http://www.middle-east-online.com/?id=184381

١٢. "'نداء تونس' يتهم الغنوشي بتقسيم المجتمع إلى كفار ومؤمنين"، "**وطنا نيوز الاليكترونية**"، (الأردن، ١٩- ٩- ٢٠١٤).
http://watananews.com/print.php?nid=92808

- **المصادر الإذاعية**

١. بن حسين طاهر،" **راديو كلمة**"، (تونس)، ١٨ فيفري ٢٠١٦.

٢. قايد السبسي الباجي، "شروط الزعامة لا تتوفر في حركة النهضة رغم عملها الكبير في احتلال المناصب"،"**راديو جوهرة أف آم**"، (تونس)، ٩-٧- ٢٠١٢.

٣. المبزع فؤاد، "**تصريح بإذاعة شمس أف أم**"، (تونس) بتاريخ ١٢- ١٢- ٢٠١١.

تعريف بالمؤلف

بلقاسم بن عبد النبي دكتور في التاريخ المعاصر كلية الآداب والعلوم الإنسانية جامعة صفاقس الجمهورية التونسية. صدر له كتابان، الأول بعنوان "تونسيون في جحيم الحرب العالمية الأولى" والثاني بعنوان " محمود بيرم التونسي مثقف عضوي ووطني ثائر في نقل أحوال تونس وأهلها"وعديد المقالات بمجلات محكمة.

المغرب في مواجهة الضغوط الاستعمارية خلال القرن التاسع عشر

محمد النظام

طالب باحث في سلك الدكتوراه

جامعة الحسن الثاني الدار البيضاء

Hassan II University Of Casablanca

الملخص:

تعرض المغرب خلال القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين لحملة من الضغوطات الاستعمارية قادتها عدة دول أوروبية مثل فرنسا وبريطانيا واسبانيا وايطاليا وألمانيا. فبخصوص الضغوط العسكرية فقد تجسدت في مواجهتين مسلحتين الأولى ضد فرنسا في معركة إيسلي سنة ١٨٤٤، والثانية ضد اسبانيا في حرب تطوان سنة ١٨٦٠. أما فيما يتعلق بالضغوط الاقتصادية فتشمل تلك المعاهدات غير المتكافئة التي وقعها المغرب مع كل من بريطانيا سنة ١٨٥٦، واسبانيا سنة ١٨٦١، وفرنسا سنة ١٨٦٣. وبالنسبة للضغوط الدبلوماسية فيمكن رصدها من خلال مؤتمر مدريد المنعقد سنة ١٨٨٠، ومؤتمر الجزيرة الخضراء سنة ١٩٠٦. وبقدر ما منحت هذه الضغوطات حرية أكبر للأجانب فإنها ساهمت بشكل كبير في عرقلة عملية الاصلاح التي باشرها السلاطين المغاربة الأمر الذي أدى في النهاية إلى السقوط في فخ الحمايتين الفرنسية والاسبانية. تحاول هذه المقالة الوقوف بتفصيل على أنواع الضغوطات التي تعرض لها المغرب وكيف تمكنت فرنسا من الانفراد بهذا الأخير بعدما تفاهمت مع باقي القوى الامبريالية المنافسة لها.

During the nineteenth and early twentieth centuries, Morocco was subjected to a campaign of colonial pressures led by several European countries such as France, Britain, Spain, Italy and Germany. With regard to military pressures, they were embodied in two armed confrontations, the first against France in the Battle of Isley in 1844, and the second against Spain in the Tetouan War in 1860. As for economic pressures, they include those unequal treaties signed by Morocco with Britain in 1856, Spain in 1860 and France in 1863. As for diplomatic pressures, they can be monitored through the Madrid Conference held in 1880, and the Algeciras Conference in 1906. To the extent that these pressures granted greater freedom to foreigners, they greatly contributed to obstructing the reform process initiated by the Moroccan sultans, which eventually led to them falling into a trap. French and Spanish protections. This article attempts to stand in detail on the types of pressures that Morocco was subjected to and how France was able to be alone with the latter after it came to terms with the rest of the imperialist powers competing with it.

الكلمات المفتاحية: المغرب، الضغوط، فرنسا، استعمار، الحماية، أوروبا

ملاحظات تمهيدية:

يعتبر العديد من المؤرخين أن القرون لا تبدأ ولا تنتهي بسنوات معينة بقدر ما تؤطرها أحداث بارزة، فالقرن التاسع عشر موضوع العرض يبدأ حسب ما نعتقد من سنة ١٨٣٠ تاريخ احتلال الجزائر وما ترتب عن ذلك من انعكاسات وينتهي سنة ١٩١٢ تاريخ توقيع معاهدة الحماية.

يعتبر القرن ١٩ قرنا مفصليا في تاريخ المغرب ذلك أنه شكل مرحلة فاصلة بين نمطين مختلفين: نمط حياة " الاستقلال " ونمط حياة الاحتلال، بل إن ما تراكم في هذا القرن من أحداث انعكس ليس على القرن الموالي فقط بل امتد إلى الوقت المعاصر.

المادة المصدرية، عديدة ومتنوعة، وتتوزع عبر كتب الحوليات والنوازل الفقهية والتراجم والرحلات والتقارير والمراسلات الرسمية... يضاف إلى هذا عدد كبير من الدراسات الأكاديمية المغربية والأجنبية.

ا تراجع هيبة المغرب أمام أوربا.

في إطار تحليله العميق لحالة المغرب في النصف الأول من القرن التاسع عشر، ورصده لبعض مظاهر التقهقر المغربي بالمقارنة مع أوربا، كتب الباحث الراحل محمد المنوني " إلى أوائل القرن الثالث عشر الهجري (أواخر القرن الثامن عشر الميلادي) كانت دول الغرب لا تزال تحفظ للمغرب هيبته، لما تعلم من قوة أساطيله في البحر واستحكام دفاعه في البر، ولم تنس أوروبا أن المغرب استطاع أن يحرر أكثر ثغوره من الاحتلال الأجنبي وآخر ذلك مدينة الجديدة عام ١٧٦٨م، أي خلال القرن الثامن عشر الذي ازدهرت فيه قوة أوربا"[1]. نفهم من خلال هذا الاستنتاج لمؤرخ مطلع بشكل جيد على خبايا مغرب القرن التاسع عشر أن المغرب وبغض النظر عن أوضاعه الداخلية، استطاع إلى حدود العقد الأخير من القرن الثامن عشر أن يحافظ كقوة حربية بصفة عامة وبحرية بصفة خاصة على استقلاله وهيبته التي

(١) محمد المنوني، مظاهر يقظة المغرب الحديث، الجمعية المغربية للتأليف والنشر والترجمة والنشر، الطبعة الأولى ١٩٨٥، الجزء الأول، ص٩.

كانت تمتح من بعض الانتصارات العسكرية (معركة واد المخازن، استرجاع المعمورة والجديدة...) وعمليات الجهاد البحري...

إلا أن هذه الهيبة لم تكن قادرة على الصمود أمام قوة الاختراق التي أضحت تتمتع بها أوربا أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر بفضل تفوقها التقني والحربي واقتصادها المتنامي بسرعة[1]، كما يضيف الأستاذ المنوني في إطار توضيحه لبعض أسباب تراجع هيبة المغرب ما يسميه بكارثة الأسطول المغربي الذي اضطر السلطان سليمان إلى حله نهائيا سنة ١٨١٧م، وتوزيع بعض قطعه على الايالات المجاورة مثل الجزائر وطرابلس[2]، ويمكن أن نفسر لجوء المولى سليمان إلى هذا القرار "الخطير" برغبته في تجنب كل ما من شأنه أن يدخل المغرب في مواجهة مباشرة مع أوربا التي كانت تجني ثمار ثوراتها السياسية والصناعية والتقنية والفكرية.

ومما زاد في تراجع هيبة المغرب وفقدان مصالحه مع أوربا أن جهاز الحكم التقليدي كان يعاني من أزمة بنوية، ولم يكن قبل القرن التاسع عشر يتوفر على مؤسسة تقوم مقام " وزارة الخارجية" لتتكفل بإدارة الملفات الدبلوماسية للمغرب، الشيء الذي جعل المخزن يراكم تقاليد دبلوماسية محتشمة عبارة عن ردود أفعال، وفي هذا الصدد نذكر مثلا أن سلاطين المغرب كانوا يخاطبون المسؤولين الأوربيين بعبارات وصيغ توحي بالترفع وبالأمر موظفين مصطلحات قدحية من قبيل (الكفار، الفجار، دمرهم الله...)، كما حرص المخزن قبل بداية القرن التاسع عشر على التقليل من الاتصالات مع الأوروبيين إلى أقصى الحدود الممكنة لتفادي كل الأسباب الكفيلة بتمهيد سبل التسرب الأجنبي للبلاد[3].

(١) أحمد المكاوي، النظام والجهاد والهجرة في مغرب القرن ١٩م، منشورات كلية الآداب بالجديدة، الطبعة الأولى ٢٠١٥، ص ٩.

(٢) محمد المنوني، مرجع سابق، ص ص ١٠/ ١١.

(٣) محمد القبلي، تاريخ المغرب تركيب وتحيين، =

٢ التحركات الفرنسية في شمال إفريقيا.

شهدت أوربا خلال الربع الأخير من القرن الثامن عشر مجموعة من التغيرات السياسية والاقتصادية التي أثرت على منطقة البحر الأبيض المتوسط ككل، وأمام هذه الظرفية الجديدة أخذ المغاربة يتحررون من أوهامهم الموروثة من بعض الانتصارات قصيرة الأمد ويراجعون نظرتهم الاحتقارية تجاه أوربا، وسأحاول أن أقف عند حدثين كان لهما وقع كبير على الوضع الداخلي لمغرب القرن التاسع عشر:

٢-١ حملة نابوليون على مصر سنة ١٧٩٨م.

استغلت فرنسا ضعف الدولة العثمانية فوجهت حملة إلى مصر بقيادة نابوليون بونابارت قوامها ٣٢٠٠٠ جندي نزلت في أبي قير على ساحل البحر الأبيض المتوسط في فاتح يوليوز سنة ١٧٩٨م ثم زحفت على القاهرة واحتلتها يوم ٢٤ يوليوز، بعد أن سحقت المقاومة المصرية، وكان من النتائج المباشرة لهذه الحملة على المغاربة أن ساد ترقب واحتمال من إمكانية غزو نابوليون للمغرب، ونقرأ عند الضعيف الرباطي نصا يورد فيه أنه " في سنة ١٢٢٢هـ قوى سلطان الفرنسيس وهو نابليون بنابارطي وقهر أجناس النصارى وغلبهم ولا يبقى مخالفا عليه إلا اللنقليز وأراد الخروج للمغرب وأتى بأجناس النصارى للبوغاز وإلى طريفا والخزيرات وصنع قنطرة من اللوح ليقطع عليها"[1].

وقد عكست حوليات المرحلة والقصائد الشعرية والخطب المنبرية حجم القلق والانزعاج الذي أبداه المغاربة من الوجود الفرنسي بمصر، كما عبروا عن تضامنهم وتعاطفهم مع المصريين. دون أن ننسى خوفهم من امتداد الخطر "النصراني" إلى المغرب، فالرهوني مثلا

=

منشورات المعهد الملكي للبحث في تاريخ المغرب، الطبعة الأولى2011 ، ص ٤٥٨.

(١) محمد بن عبد السلام الضعيف، تاريخ الضعيف، تحقيق وتقديم محمد العماري، دار المأثورات، الرباط، ١٩٨٦، ص٣٤٢.

اعتبر أن ما وقع بمصر هو فساد عظيم يخشى أن يقع بسائر البلاد " وقد تواترت يا معشر المسلمين الأخبار بأن النصارى دمرهم الله جمعوا من العدد والعدة ما زعموا أنه لا يقوم به أحد وأنهم ينتظرون أول ريح توافقهم فيخرجون خرجة وأنهم قاصدون العرائش أو طنجة"[١]. في حين خصص سليمان الحوات خطبتين جمعيتين لهذا الحدث ذَكّرَ فيهما المغاربة بما وقع من غزو فرنسي لمصر وحثهم على الاستعداد للجهاد ومقاومة العدو الكافر وحراسة الثغور وعدم الاغترار بالانتصارات السابقة[٢].

وهكذا تشير النصوص السالفة الذكر إلى تفاعل النخبة المغربية مع حادث غزو نابوليون لمصر محذرة في الوقت نفسه من تداعياته على الوضع الداخلي.

٢-٢ الاحتلال الفرنسي للجزائر سنة ١٨٣٠م.

كانت الجزائر في مطلع القرن التاسع عشر تابعة للإمبراطورية العثمانية تبعية اسمية وكانت تعيش انقساما سياسيا وتراجعا اقتصاديا، وقد استغلت فرنسا هذا الضعف فوجهت حملة على الجزائر بذريعة إنقاذ الأسرى الأوربيين والقضاء على القرصنة وتجارة الرقيق والثأر لشرف فرنسا بعد حادث المروحة، انتهت الحملة باحتلال مدينة الجزائر في ٥ يوليوز ١٨٣٠م.

والأكيد أن احتلال فرنسا للجزائر أثر بشكل سلبي على الوضع العام وطرح مشاكل من نوع جديد مرتبطة أساسا بترسيم الحدود[٣]، كما أَشَّرَ في الوقت نفسه على بداية حقيقية مهدت الطريق أمام

(١) الرهوني: الخطب المنبرية في الجمع والأعياد والكسوف والاستسقاء، المكتبة الشعبية، بيروت د ت، ص ١١. أورده أحمد المكاوي في مؤلفه " النظام والجهاد والهجرة في مغرب القرن التاسع عشر." ص١٠.

(٢) محمد بن عبد السلام الضعيف، مرجع سابق، ص ٣٤٢.

(3) Abdallah Laroui, Les origines sociales et culturelles du nationalisme marocain (1830-1912), Centre culturel arabe,3éme édition, 2009, 240.

إمكانية توسيع المشروع الاستعماري الفرنسي في بقية بلدان شمال افريقيا وخاصة تونس والمغرب[1]. وقد تجسدت ردود الفعل الفورية على هذه الحملة في الأوامر التي بعث بها السلطان عبد الرحمن بن هشام إلى القائد محمد أشعاش والقاضية بمضاعفة الاحتراس والأُبهة وعدم الاطمئنان إلى ما روجه الفرنسيون من أن هذه الحملة موجهة إلى الجزائر دون غيرها من الأقطار المجاورة والمهادِنة[2].

كما انفعل المؤرخون والكتاب والشعراء المعاصرون بفاجعة الجزائر فمحمد بن إدريس أبدى حسرة كبيرة على أفول الدور الجهادي الذي كان يقوم به أهل الجزائر داعيا في قصيدة طويلة إلى الجهاد ومساندة الجزائر:

يا أهل مغربنا حق النفير لكم إلى الجهاد فما في الحق من غلط.

فالشرك من جنبات الشرق جاوركم من بعد ما سام أهل الدين بالشطط.[3]

أما الفقيه التسولي فقد حَرَّضَ الناس على الجهاد والإكثار من الأبهة والنفر بغاية الاستعداد "فإن لم تشغلوهم شغلوكم وإن لم تقاتلوهم قاتلوكم كيف وهم لكم بالمرصاد... فأيقظوا أنفسكم من وسن الغفلة وانتهزوا من العدو الفرصة"[4].

<u>٣ الضغوط العسكرية.</u>

تجسدت الضغوط العسكرية التي مورست على المغرب في مواجهتين عسكريتين، أولهما مع الفرنسيين في إيسلي سنة ١٨٤٤ والثانية مع الاسبان في تطوان سنة ١٨٥٩/ ,١٨٦٠

٣- ١ معركة إيسلي ١٤ غشت ١٨٤٤.

بعد الاحتلال الفرنسي للجزائر سنة ١٨٣٠، تغيرت الأحوال وأصبح للمغرب جار جديد وغريب متفوق عليه عسكريا وصناعيا، وكان الحزب الاستعماري الفرنسي في الجزائر يرغب في ضم المغرب لأهمية الصوف المغربية لتجار مرسيليا من جهة،

---

(١) محمد القبلي، مرجع سابق، ص٤٥٩.

(٢) أحمد المكاوي، مرجع سابق، ص ٢٠.

(٣) محمد المنوني، مرجع سابق، ص ٣١.

(٤) محمد المنوني، مرجع سابق، ص ص ٢٩/٣٠.

ولأهمية الخط التجاري بين تلمسان وفاس من جهة أخرى، ولما كان السلطان عبد الرحمن بن هشام ملزما بحكم علاقات الدين والجوار واحتراما لعقد البيعة الذي كان يربطه بأهل تلمسان[1] بأن يؤازر الأمير المقاوم عبد القادر الجزائري فقد وجدت فرنسا في ذلك ذريعة لتوجيه ضربة قوية إلى المغرب لتدخله في دائرة نفوذها الاستعماري.

بدأت أولى المناوشات على الحدود المغربية باحتلال مغنية سنة ١٨٤٣ وإمعانا في الترهيب دخلت قوات الجنرال روبير طوماس بيجو إلى مدينة وجدة بتاريخ ٠٢ يونيو ١٨٤٤ واحتلالها ليوم واحد، وأمام إصرار فرنسا على توريط المغرب في مواجهة عسكرية فقد مهدت لها بقصف مدينة طنجة يوم ٠٦ غشت ١٨٤٤ والصويرة يوم ١٥ من الشهر نفسه.

على اثر هذه الأحداث أعطى السلطان عبد الرحمن بن هشام الأوامر من مراكش لابنه سيدي محمد للخروج من فاس للذهاب لتفقد الحدود، وفي صباح ١٤ غشت ١٨٤٤ هاجمت القوات الفرنسية بقيادة الجنرال بيجو وفق خطة عسكرية مضبوطة الجيش المغربي الذي لم يعرف بخروج الفرنسيين إلا ساعات قليلة قبل بدء المعركة[٢]. يقول الناصري في هذا الشأن " ولما كانت الليلة التي وقعت الحرب صبيحتها جاء رجلان من أعراب تلك الناحية وطلبا الدخول على الحاجب، وقالا إن العدو عازم على أن يصبحكم غدا إن شاء الله فاستعدوا له وأعلموا الأمير، فيقال إن الحاجب قال إن الأمير نائم وليست بالذي أوقظه"[٣].

ورغم أن الجيش الفرنسي وجد نفسه محاطا بقوات تفوقه من حيث العدد[٤]

(١) ثريا برادة، الجيش المغربي وتطوره في القرن التاسع عشر، منشورات كلية الآداب بالرباط، ١٩٩٧، ص ١٩٢.

(٢) ثريا برادة، مرجع سابق، ص ٢٠٣.

(٣) الناصري أحمد بن خالد، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، الجزء التاسع، دار الكتاب، الدار البيضاء، ١٩٩٧ ص ٥١.

(٤) كان الجيش الفرنسي يتألف من ٩٥٠٠ جندي، في حين قُدر عدد المغاربة المشاركين في المعركة ب ٣٠٠٠٠ فارس و ١٠٠٠٠ من المشاة.

وتقاتل باندفاع شديد فقد استطاع بفضل استراتيجيته المحكمة التي اتبعها الجنرال بيجو من الانتصار في معركة قصيرة زمنيا ولكنها حاسمة.

وعن هذه المواجهة وهزيمة الجيش المغربي كتب عبد الرحمن بن زيدان ما يلي" ما كانت الساعة العاشرة من اليوم المذكور حتى افترقت محلة المغرب ومات أكثرها وتمزقت أوصال حماتها وباقيهم طارت بهم خيولهم فلم ينزلوا إلا وراء نهر ملوية"[1].

بعد هذا الانتصار أمضى المغرب مع فرنسا معاهدة صلح بتاريخ ١٠ شتنبر سنة ١٨٤٤ نصت على تعيين الحدود، وتمكن الفرنسيون باستعمال المال من كسب المفاوضين المغاربة إلى جانبهم فتنازلوا لهم عن أجزاء ترابية مغربية أدخلوها في بلاد الجزائر، ويوم ١٨ مارس ١٨٤٥ وقَّع المفاوض المغربي حميدة الشجعي على مشروع اتفاقية الحدود في قرية لالة مغنية التي اكتنفها الغموض، إذ لم ترسم الحدود رسما واضحا إلا على مسافة قصيرة من البحر الأبيض المتوسط تصل إلى تنية الساسي وتركت الأرض التي هي قبلة قصور الفريقين في الصحراء دون تحديد لكونها أرض فلاة.

بينت الهزيمة في ايسلي عدم وجود خطة عسكرية مغربية حديثة لمواجهة جيش مسلح بأسلحة حديثة ومدرب على خوض الحروب بطريقة عصرية مثل الجيش الفرنسي، كما بينت تفوق النظام والتخطيط على العفوية والارتجال، والأعمق أنها هزيمة لاقتصاد القلة والكفاف الذي يحارب بجيش من الجياع أمام برجوازية تنشد العالمية.

٣- ٢ حرب تطوان ١٨٥٩/ ١٨٦٠.

أزاحت هزيمة إيسلي النقاب عن ضعف المغرب عسكريا فادعت اسبانيا أن لها حقوقا تاريخية في المغرب وعزمت على عدم الاكتفاء بموقف المتفرج الذي يعاين فرنسا وبريطانيا وهما تعززان مصالحهما الحيوية بالمغرب فقررت

(١) عبد الرحمن بن زيدان، اتحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس، تحقيق علي عمر، مكتبة الثقافة الدينية، الطبعة الأولى ٢٠٠٨، الجزء ٥، ص ٧٠.

القيام بما يُمَكِّنُها من تحقيق مكاسب فعلية ولو باستعمال القوة[1]، وتأتى لها ذلك حين استغلت خلافا حدوديا مع قبائل أنجرة المتاخمة لسبتة فأعلنت حربا على المغرب بعد أن أعطت ضمانات لبريطانيا بعدم احتلال طنجة، وبعد مواجهات غير متكافئة دامت حوالي أربعة أشهر دخلت الجيوش الاسبانية مدينة تطوان في ٦ فبراير ١٨٦٠[2]، وبعدئذ تحركت بريطانيا من جديد فتوسطت بين الطرفين لإبرام الصلح الذي كان مذلا إذ استجاب المغرب لجل المطالب الاسبانية و المتمثلة في أداء غرامة مالية قدرها ١٠٠ مليون بسيطة ذهبية وتوسيع رقعة سبتة ومليلية لفائدة الإسبان[3] بالإضافة إلى التنازل عن قطعة أرضية في الجنوب المغربي لبناء مركز للصيد البحري...

خلفت هزيمتي إيسلي وتطوان حالة رعب وانبهار من قوة الجهاز العسكري الأوربي، كما ألغت هذه الهزائم النظرة الاحتقارية تجاه أوربا وزعزعت الثقة في القوة الذاتية، وقد ناقشت النخبة المثقفة بشكل مستفيض أسباب تراجع هيبة المغرب العسكرية، داعية في الوقت نفسه إلى ضرورة الأخذ عن الأوربيين الوسائل التي مكنتهم من الغلبة خاصة في المجال العسكري، وفي هذا الصدد ظهرت العديد من الأجوبة الفقهية والفتاوى التي عالجت مسألة الاستعداد لمواجهة المد

(١) محمد القبلي، مرجع سابق، ص ٤٦٨.

(٢) كتب الناصري في الاستقصا ص ١٠١، عن هذه المواجهة ما يلي " ووقعة تطاوين هذه هي التي أزالت حجاب الهيبة عن بلاد المغرب واستطال النصارى وانكسر المسلمون انكسارا لم يعهد لهم مثله، وكثرت الحمايات ونشأ عن ذلك ضرر كبير". كما كتب محمد المشرفي في الحلل البهية الصفحة ٢٢٤ ما يلي " وبهذه الوقعة انكسر المسلمون انكسارا لم يعهد لهم مثله، وزال حجاب الهيبة عن بلاد المسلمين لذمامة الاصبنيول حينئذ وحقارته لدى الدول العظام، إذ غلب أشد للحسرة وأكد للفضيحة... ولذلك كانت هزيمة وادي إيسلي المتقدمة مع الفرنسيين أهون من هذه لكون الغالب غير حقير بل هو أعظم دول الإفرنج والروم بمكائد الحروب خبير...".

(٣) محمد القبلي، مرجع سابق، ص ٤٦٨.

الأوربي[1] نذكر على سبيل المثال لا الحصر الكردودي في مؤلفه كشف الغمة بيان أن حرب النظام حق على هذه الأمة، وأبو العلاء ادريس في مؤلفه الابتسام عن دولة ابن هشام، ومحمد أكنسوس في مؤلفه الجيش العرمرم الخماسي...

٣- ٣ الضغوط العسكرية في بداية القرن العشرين.

عندما تولى السلطان عبد العزيز مسؤولية الحكم فعليا كان عمره ٢٢ سنة وقد وجد نفسه أمام مشاكل ضخمة لا حصر لها تجاوزت تجربته السياسية المتواضعة، وما أبلغ تلك العبارة التي تصفه بكونه "سلطان صغير ورث أزمة كبيرة".

في هذه الظرفية استغلت فرنسا ثغرات بعض المعاهدات السابقة فتمكنت منذ أواخر ١٩٠٠ من بسط سيطرتها على الواحات المغربية كتوات وتيديكلت وكوارة وفيكيك[2] بعد القضاء على المقاومة المحلية، أما المخزن فقد فضل نهج أسلوب التفاوض والاحتجاج لدى بعض أعضاء السلك الدبلوماسي في طنجة.

وبعدما فوض مؤتمر الجزيرة الخضراء تنفيذ برنامج الإصلاحات لفرنسا، بدأت هذه الأخيرة تتحين الفرصة للسيطرة على البلاد فاستغلت مقتل الطبيب موشان بمراكش يوم ١٩ مارس ١٩٠٧ لتحتل مدينة وجدة يوم ٢٩ مارس ١٩٠٧[3]، وبعد أربعة شهور استغلت فرنسا تحركات قبائل الشاوية بالدار البيضاء لتحتل المدينة في غشت سنة ١٩٠٧[4]، وقد توغلت الجيوش الفرنسية في سهول الشاوية ودكالة فوقع الناس في حيرة من أمرهم بعد أن أرغمهم السلطان على الاستسلام للأمر الواقع.

وفي المناطق الشمالية شرعت اسبانيا في استغلال بعض مناجم الريف دون

(١) أحمد المكاوي، مرجع سابق، ص ٩.

(٢) محمد القبلي، مرجع سابق، ص ٥٠٤.

(٣) علال الخديمي، التدخل الأجنبي والمقاومة بالمغرب " حادثة الدار البيضاء واحتلال الشاوية"، منشورات افريقيا الشرق، الطبعة الثالثة ٢٠٠٦، ص ٩٥.

(٤) علال الخديمي، مرجع سابق، ص ٢٤٥.

موافقة السلطان فاصطدم الريفيون بالعمال الاسبانيين فردت اسبانيا على ذلك باحتلال منطقة قلعية وبعض الأراضي المتاخمة لسبتة سنة ١٩٠٩ كما ارتكزت اسبانيا على الفصل الثالث من اتفاقيتها السرية مع فرنسا سنة ١٩٠٤ والذي ينص على التدخل في حالة ضعف الحكومة المغربية فأنزلت قواتها في العرائش والقصر الكبير ما بين ٨ و١٢ يونيو ١٩١١[١].

٤ الضغوط الاقتصادية.

٤-١ المعاهدات.

تمسك سلاطين المغرب إلى حدود خمسينيات القرن التاسع عشر وفي ظل اقتصاد فلاحي هش بنهج سياسة اقتصادية حمائية لاعتقادهم أنها كفيلة بصيانة مصالح الرعية، فكان المخزن يحتكر استيراد المواد العسكرية كالأسلحة والبارود والكبريت، إضافة إلى مواد ثمينة مثل الشاي والسكر والبن... وكان الخواص يشترون من المخزن "الكنطردة" أي حق الانفراد بتصدير بعض المواد مثل العلق والغاسول والشمع والجلد... بينما كان يمنع تصدير مواد حيوية كالقمح والشعير والأغنام والصوف والزيت خوفا من نذرتها وارتفاع أسعارها في السوق الداخلية، وكذا تطبيقا لفتاوى الفقهاء الذين أَلَحُو على عدم شرعية تصدير المواد الغذائية إلى دار الحرب[٢]، وحينما كانت تسمح جودة المحاصيل الزراعية بتصدير كميات منها فقد كان ذلك يتم على يد تجار السلطان، وغالبا ما تكون الرسوم المفروضة عليها مرتفعة وغير قارة، وأمام انهيار حجم المبادلات بين التجار الأوربيين والمراسي المغربية تكررت شكاويهم إلى حكومات دولهم فاتخذت بريطانيا المبادرة وطالبت المولى عبد الرحمن بن هشام بضرورة إعادة النظر في القوانين المنظمة للمبادلات بين المغرب وأوروبا والعمل على تحرير التجارة من القيود المفروضة عليها لتصبح

---

(١) محمد القبلي، مرجع سابق، ص ٥١٢.

(٢) أحمد المكاوي، قراءة في بعض استشارات السلطان مولاي الحسن، مجلة كلية الآداب بالجديدة العدد الخامس، ٢٠٠٠، ص ١٧.

مسايرة للنهج الاقتصادي الليبرالي السائد آنذاك في أوربا "... وسمعنا من أناس لا عقل لهم ولا تجربة في هذا الأمر يقولون إن وسق الطعام حرام لبر النصارى وقائل ذلك من قلة عقله لا ينتبه للكسوة الجديدة التي عليه كونها عمل بيد النصارى، ورأسه الخارج منه هذا الكلام ملتف برزة من عمل النصارى وبعد خروجه من محل القول يذهب لداره ليشرب القهوة والشاي الواردين من بلد النصارى والسكة التي تحرث بها الأرض وصفيحة بهائمه وسيفه ومكحلته كل ذلك وارد من بر النصارى، ومن يقل ذلك جاهل ولا عقل له... وهذا الكلام منا في الوسق محض نصح لإصلاح هذه الإيالة ولنفع فلاحتها وتجارتها"[1].

وبعد مفاوضات عسيرة دامت أكثر من ثلاث سنوات تخللها الترغيب والترهيب وتوزيع الرشاوي على بعض موظفي المخزن والتهديد باستعمال القوة[2] أبرم السلطان عبد الرحمن يوم ٩ دجنبر ١٨٥٦ اتفاقية تجارية ومعاهدة صلح مع بريطانيا لم يسبق لسلاطين المغرب أن عقدوا مثلها في السابق مع أي دولة أجنبية، وكان من أهم ما أتت به هذه المعاهدة هو الإلغاء النهائي لنظام الاحتكار التجاري وتحديد قيمة التعريفة الجمركية على الواردات في عشر القيمة[3]. ولم تمض على إمضاء المعاهدة المغربية البريطانية خمس سنوات حتى ورطت اسبانيا المغرب في حرب احتلت على إثرها مدينة تطوان وأجبرته على توقيع اتفاقية سنة ١٨٦١ كرست الامتيازات التي تضمنتها معاهدة ١٨٥٦. وفي سنة ١٨٦٣ ونتيجة للضغوطات القوية التي مارسها الفرنسيون على المخزن رضخ هذا الأخير للأمر الواقع وأبرم اتفاق السماسرة مع

(١) مذكرة أرسلها جون دراموند هاي إلى المخزن بتاريخ ٢٧ مارس ١٩٥٦، أوردها خالد بن الصغير في كتاب "المغرب وبريطانيا العظمى في القرن التاسع عشر"، منشورات كلية الآداب بالرباط، الطبعة الثانية ١٩٩٧، ص ٨٠.

(٢) محمد القبلي، مرجع سابق، ص ٤٦٧.

(٣) نفسه.

فرنسا المعروف بوفق بكلار[1] الذي كرس ما يسمى بالحماية الفردية.

لقد مكنت المعاهدات[2] المذكورة الأوربيين من امتيازات عديدة يمكن أن نصنفها إلى:

---

(١) نفسه، ص ٤٦٩.

(٢) نصوص معاهدات ١٨٥٦ و ١٨٦١ و ١٨٦٣ موجودة في كتاب " مشكل الحماية القنصلية بالمغرب"، عبد الوهاب بن منصور، المطبعة الملكية، الطبعة الثانية ١٩٨٥.

امتيازات تجارية: أقرت المعاهدات الثلاثة مبدأ حرية المبادلات فألغت كل الاحتكارات السلطانية، وعاد الرسم المؤدى على كل الواردات محددا في عشر القيمة، أما الرسوم على الصادرات فظلت تختلف من مادة إلى أخرى، وقد احتفظ السلطان بحقه التقليدي في مراقبة استيراد المواد المستخدمة في الحرب كالكبريت والذخيرة[1].

امتيازات قضائية: اعترف المغرب للأجانب بحقوقهم المدنية والسياسية واستثناهم من الخضوع للقوانين والأنظمة المغربية وذلك بإقصاء القضاء المغربي من البث في النزاعات القائمة بين الرعايا الأوربيين على أرض المغرب وفي ضرورة حضور القنصل الأجنبي أثناء بث القاضي في النزاعات بين رعايا مغاربة وأجانب.

امتيازات ضرائبية: وهي امتيازات تعفي الأجانب من أداء الرسوم التي يدفعها المغاربة باستثناء الرسوم الجمركية على الصادرات والواردات.

٤- ٢ القروض الملغومة.

السنة	المبلغ	البلد أو البنك	نسبة الفائدة	مصير القرض والشروط المفروضة
١٨٦٠	٥٠١,١٧٦ جنيه استرليني	إنجلترا		لم يتسلم منه المغرب سوى ٢٦٠٠٠٠ جنيه بينما التزم بتسديد قيمة السلف والفائدة المستحقة.
١٩٠٢	٧,٥ مليون فرنك	بنك باريس والأراضي المنخفضة	٦%	صرف في أقل من شهر لتسديد ديون ومقتنيات المغرب.

(١) عبد لله العروي، مجمل تاريخ المغرب، المركز الثقافي العربي الدار البيضاء، الطبعة الثالثة2012 ، ص ٥٦٢.

السنة	المبلغ	البلد أو البنك	نسبة الفائدة	مصير القرض والشروط المفروضة
١٩٠٣	٢٢،٥ مليون فرنك	فرنسا، وإنجلترا، واسبانيا (بالتساوي)	٦%	توصل المغرب ب ١٣،٥ مليون فرنك فقط وصرف الباقي كعمولات للأبناك
١٩٠٤	٦٢،٥ مليون فرنك	بنك باريس والأراضي المنخفضة	٥%	اقتطع حوالي ربع المبلغ كسمسرة وعمولات، واستخدم الباقي لتسديد الاقتراضات السابقة[١]

زادت سياسة القروض من تقييد حرية المخزن وفي استفحال الوضعية الاقتصادية للبلاد، كما وضعت مالية المغرب تحت وصاية البنوك الأوربية وهكذا دخل المغرب في دوامة السلف غير المنتج الذي يؤدي حتما إلى الإفلاس وضياع الاستقلال بعد إجهاض كل مشروع إصلاحي[٢].

(١) بيير كيلين، الاقتراضات المغربية ١٩٠٢-١٩٠٤، تعريب المصطفى البرنوسي، الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، الطبعة الأولى ٢٠٠٧، ص ص ١٠١/ ٢٢٠/ ٢٢١.

(٢) عبد الله العروي، مرجع سابق، ص ٥٦١.

<u>٥ الضغوط الدبلوماسية.</u>

٥- ١ الحماية القنصلية.

شكلت الحماية القنصلية خطرا كبيرا على سيادة المغرب وتتلخص في منح الممثلين الدبلوماسيين والقناصلة المعتمدين في المغرب حماية دولهم لرعايا مغاربة فيصبحون وهم يعيشون على أرضه ويحملون جنسيته غير خاضعين لقوانينه وغير ملزمين بأداء الضرائب أو غيرها من الواجبات المفروضة على بقية المغاربة[١].

وقد نصت على ذلك معاهدة ١٨٥٦ مع بريطانيا وزادت من تعميقه وتوسيعه بنود الاتفاقية المغربية الاسبانية المبرمة سنة ١٨٦١، وكذا محتويات التسوية المغربية الفرنسية سنة ١٨٦٣، والتي حددت عدد المحميين في اثنين لكل تاجر فرنسي كما حالت دون متابعة موظفي المخزن للمخالطين.

وكانت عواقب الحماية القنصلية بالغة الخطورة، إذ صار المحميون أداة لتفكيك بنيات المجتمع ووسيلة لنشر النفوذ الأجنبي ومؤثراته الاقتصادية والثقافية داخل البلاد[٢]، وتحولت الحماية القنصلية مع مرور الزمن إلى مرض ما لبث أن شل كل الذات المغربية إذ شملت عامة الناس وخاصتهم وموظفي المخزن من قواد وعمال وكذا شيوخ الزوايا أمثال عبد السلام الوزاني الذي احتمى بفرنسا ومحمد بن سعيد المصلوحي الذي دخل تحت الحماية البريطانية، بل امتدت الحمايات لتشمل بعض وزراء المخزن عند مطلع القرن العشرين كالمنبهي وزير الحربية[٣] كما انضوى تحتها كبار التجار والأثرياء كالتاجر بوبكر الغنجاوي[٤]، دون أن ننسى اليهود المغاربة الذين كانوا أكثر المستفيدين من الحمايات القنصلية لأنهم وجدوا فيها فرصة للتخلص من وضعية أهل الذمة.

٥- ٢ مؤتمر مدريد: لقاء دبلوماسي غير متكافئ.

عُقد مؤتمر مدريد في ظرفية داخلية

(١) عبد الله العروي، نفسه، ص ٥٦٣.

(٢) محمد القبلي، مرجع سابق، ص ٤٧٠.

(٣) محمد القبلي، ص ٤٧١.

(٤) نفسه، ص ٤٧٠.

حرجة على كافة المستويات أما على المستوى الخارجي فالمنافسة على المستعمرات شكلت العنوان الأبرز للمرحلة بين الدول الإمبريالية.

وقد وُجهت الدعوة من اسبانيا ل ١٢ دولة لحضور المؤتمر وهم كالتالي: المغرب والبرتغال وفرنسا وبريطانيا وهولندا والدانمارك والسويد والنمسا وبلجيكا وألمانيا وإيطاليا والولايات المتحدة الأمريكية. وقد أكد المؤتمر في النهاية على الامتيازات الممنوحة للوجود الأوربي بالمغرب وإضفاء صبغة قانونية عليه، والاعتراف للدول الأوروبية بحق تملك الأراضي والعقارات في جميع أنحاء المغرب بالإضافة إلى تدويل القضية المغربية. ويمكن أن نستنتج من خلال مقررات المؤتمر العديد من الملاحظات أبرزها ضعف القوة التفاوضية للمغرب، وتزايد التدخل الأجنبي في اختصاصات المخزن لاسيما النقطة المرتبطة بالتشريع.

٣-٥ مؤتمر الجزيرة الخضراء.

أفضت سياسة المخزن والتدخل الألماني في المسألة المغربية إلى نقل قضية الإصلاحات من المجال الثنائي بين المغرب وفرنسا إلى الإطار الدولي، فانعقد مؤتمر الجزيرة الخضراء لبحث موضوع الإصلاحات. وقد شاركت في المؤتمر إلى جانب المغرب ١٢ دولة، وامتدت أشغاله ما بين ١٥ يناير و٠٧ أبريل من سنة ١٩٠٦[1]، وقد اشتمل نص المعاهدة على ١٢٣ فصلا موزعة على سبعة أبواب:

رقم الفصل	مضمونه
من ٠١ إلى ١٢	التصريح المتعلق بإحداث الشرطة
من ١٣ إلى ٣٠	نظام خاص بمراقبة تهريب الأسلحة وزجر من يقوم بذلك
من ٣١ إلى ٥٨	وثيقة امتياز لإحداث بنك مخزني بالمغرب وذلك بمساهمة مجموعة من الدول مع إعطاء أحقية لفرنسا

(١) نفسه، ص ٥٠٨.

رقم الفصل	مضمونه
من ٥٩ إلى ٧٦	تصريح يتعلق بتوفير أحسن مردود للضرائب وإحداث مداخيل جديدة
من ٧٧ إلى ١٠٤	نظام لضبط الجمارك بالإيالة الشريفة والزجر عن أعمال الغش والتهريب
من ١٠٥ إلى ١١٩	تصريح يتعلق بالمصالح العامة والأشغال العمومية
من ١٢٠ إلى ١٢٣	مقتضيات عامة(١)

ودون التوسع في تفاصيل البنود أعلاه، يمكن القول بأن المؤتمر نجح وبشكل كبير في إحداث شرخ كبير بين المخزن وباقي فئات المجتمع فقد اعتبر المغاربة المقررات الصادرة عن لقاء الخزيرات مقدمة للاحتلال كما رأوا فيها وسيلة لإخضاعهم للإستغلال الأجنبي(٢) خصوصا إذا ما نظرنا إلى الانعكاسات السلبية للمؤتمر على أوضاع المغرب الاقتصادية والاجتماعية.

٥- ٤ التفاهمات الفرنسية مع باقي القوى المنافسة.

١٩٠٢	الاتفاق الفرنسي الايطالي: تخلت بمقتضاه فرنسا عن نفوذها في ليبيا مقابل تنازل إيطاليا عن المغرب لصالح فرنسا.
١٩٠٤	- الاتفاق الودي: تنازل فرنسا لإنجلترا عن مصر و تنازل إنجلترا عن المغرب لصالح فرنسا. -الاتفاق الفرنسي الإسباني: تنازل فرنسا لإسبانيا عن شمال وجنوب المغرب.

---

(١) محمد عبوا، مؤتمر الجزيرة الخضراء وانعكاساته على الأوضاع المغربية، الدورة التاسعة من جامعة مولاي علي الشريف الخريفية، مركز الدراسات والبحوث العلوية- الريصاني، أبريل ٢٠٠١، ص ص ٦١/٦٢.

(٢) محمد القبلي، مرجع سابق، ص ٥٠٨.

١٩٠٥	- اقتراح فرنسا لمشروع إصلاحات يرمي إلى فرض نظام الحماية على المغرب. - زيارة الإمبراطور كيوم الثاني لطنجة.
١٩١١	أزمة أكادير[١]

خلاصة:

يتضح من خلال رصدنا للأحداث والوقائع السابقة أن المغرب قد تعرض لضغط ممنهج، وبصيغ مختلفة (عسكرية، اقتصادية، سياسية، إعلامية...). وهكذا انكسر صمود المغاربة ودخلت البلاد انطلاقا من سنة ١٩١٢ تحت الحمايتين الفرنسية والاسبانية: الأولى في الوسط والثانية في الشمال والجنوب.

---

(١) نفسه، ص ص ٥٠٤/ ٥٠٥.

الدولة العثمانية والتحول في عقوبة السُكر:
ظاهرة تعاطى الخمور فى الإسكندرية العثمانية نموذجاً

د. صبرى العدل
جامعة مصر الدولية

هذه الدراسة ترصد ظاهرة تعاطى المسكرات والخمور فى مدينة الإسكندرية التى تتميز بكونها مدينة ذات سمات خاصة عن باقى المدن المصرية فى تلك الفترة، فهى مدينة تتسم بالتنوع سواء التنوع الدينى والعرقى، حيث كان يسكنها المسلمون والمسيحيون واليهود، والتجار من موانيء البحر المتوسط سواء الموانيء العثمانية أو الأوربية، وذلك خلال الفترة العثمانية الممتدة من عام ١٥١٧ وحتى ١٧٩٨. وهذه الدراسة فى الوقت نفسه تتناول دراسة موقف السلطات العثمانية فى مصر باعتبارها تمثل دولة الخلافة الإسلامية العثمانية من صناعة محرمة كصناعة الخمور وقضية السُكْر، وإلى أى مدى أثر هذا الموقف على تنامى ظاهرة شرب الخمر من عدمه، هذا من ناحية، وكذلك دراسة تأثير هذه ظاهرة تعاطى الخمور على المجتمع المصرى آنذاك ومعرفة مدى ردود الفعل على مثل هذه الظاهرة فى مجتمع يمكن وصفه بالمحافظ خلال الفترة العثمانية من ناحية ثانية.

لقد حرم الإسلام الخمر بنص القرآن الكريم: "يَسْأَلونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا"[1]، ويقول ﷻ أيضاً:" يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ"[2].

---

(١) القرآن الكريم، سورة البقرة، الآية ٢١٩.

(٢) القرآن الكريم، سورة المائدة، الآية ٩٠.

كما تؤكد الأحاديث النبوية الشريفة على ضرورة منع صناعة وشرب الخمر، فعن أنس بن مالك ﷺ قال: " لعن رسول الله ﷺ فى الخمر عشرة: عاصرها، ومعتصرها، وشاربها، وحاملها، والمحمولة إليه، وساقيها، وبائعها، وآكل ثمنها، والمشتري لها، والمشتراة له"[1].

هناك خلاف حول تعريف مصطلح الخمر بناء على اختلاف تعريفها في اللغة فذهب الفيروز آبادى فى (قاموسه) إلى أن الخَمْرُ ما أسْكَرَ من عَصيرِ العِنَبِ، وسُمِّيَتْ خَمْراً لأنَّها تَخْمِرُ العَقْلَ وتَسْتُرُه، أو لأنَّها تُرِكَتْ حتى أدْرَكَتْ واخْتَمَرَتْ، أو لأنها تُخَامِرُ العَقْلَ، أي تُخَالِطه[2]، قال ابن منظور فى (لسان العرب): والخَمْرُ ما أَسْكَرَ من عصير العنب لأَنها خامرت العقل، والتَّخْمِيرُ التغطية يقال خَمَّرَ وجْهَهُ وخَمِّرْ إِناءك والمُخامَرَةُ المخالطة، وقال أَبو حنيفة: قد تكون الخَمْرُ من الحبوب فجعل الخمر من الحبوب ،قال ابن سيده: وأَظنه تَسَمُّحاً منه لأَن حقيقة الخمر إِنما هي العنب دون سائر الأَشياء... والخَمْرُ ما خَمَر العَقْلَ وهو المسكر من الشراب وهي خَمْرَةٌ وخَمْرٌ وخُمُورٌ مثل تمرة وتمر وتمور[3].

وقد قال بعض الفقهاء بضرورة توفر شرطين أساسين فى العصير حتى يمكن أن يسمى خمراً: **الأول**: الغليان أو الفوران، **والثانى**: الاشتداد بمعنى قوة المشروب التى تجعله شديد الإسكار، بينما أضاف الإمام أبو حنيفة النعمان

(1) وفى صحيح البخارى أيضاً، حدثنا عثمان بن أبي شيبة حدثنا وكيع بن الجراح عن عبد العزيز بن عمر عن أبي علقمة مولاهم وعبد الرحمن بن عبد الله الغافقي أنهما سمعا ابن عمر يقول: " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعن الله الخمر وشاربها وساقيها وبائعها ومبتاعها وعاصرها ومعتصرها وحاملها والمحمولة إليه"، صحيح البخارى، الحديث رقم (٣٦٧٤)، عون المعبود على شرح سنن أبي داود: أخرجه أبو داود في سننه، كتاب: الأشربة، باب: العصير للخمر، (١٠/ ٨٠).

(٢) الفيروز آبادي، مجد الدين محمد بن يعقوب (ت: ٨١٧هـ)، القاموس المحيط، دار الحديث، القاهرة ٢٠٠٨، ص ٤٩٨.

(٣) الأنصاري، ابن منظور (ت: ٧١١ هـ)، لسان العرب، دار المعارف، القاهرة (د/ت)، ص ١٢٥٩ (مادة: خمر).

مقوماً آخر حتى يحق لنا أن نمنح المشروب صفة الخمر، وهو قذف الزبد بمعنى خلاصه من الرغوة بحيث يصير العصير كامل النقاء والرقة، وهذه الصفات لا تتوافر إلا فى المشروبات المقطرة التى لا يخرج عند صبها أو رجها رغوة. وقال هؤلاء الفقهاء أنه إذا لم تتوافر فى المشروب هذه المقومات فهو غير محرم، ولا يمكن أن يسمى خمراً، ومن ثم يخرج النبيذ من دائرة التحريم[1].

ومن هنا فإن الأئمة الثلاثة مالك والشافعى وأحمد ابن حنبل قد سدوا الباب تماماً وفسروا الخمر بما يشمل جميع أنواع النبيذ المسكر، من نبيذ التمر والزبيب والشعير والذرة والعسل وغيرها، وقالوا كلها تسمى خمراً وعدوها كلها محرمة، بينما أباح أبو حنيفة النعمان شرب النبيذ مستنداً إلى تفسير معنى كلمة خمر وعدد من الأحاديث[2]. وما يهمنا فى هذا المقام هو رأى المذهب الحنفى الذى كان يمثل المذهب الرسمى للدولة العثمانية التى نحن بصدد دراسة موقفها من الخمر.

وقد أجمع فقهاء المسلمين على وجوب إقامة الحد على شارب الخمر، لكن لكى يحد شارب الخمر يجب بقاء اسم الخمر للمشروب وقت الشرب، لأن وجوب الحد بالشرب يتعلق به، حتى لو خلط الخمر بالماء ثم شرب نظر فيه إن كانت الغلبة للماء لا حد عليه، لأن اسم الخمر تزول عند غلبة الماء، وإن كانت الغلبة للخمر أو كانا سواء يحد لأن اسم الخمر باق، وهى عادة بعض الشربة أنهم يشروبونها ممزوجة بالماء[3]. وكان المعتقد أن عقوبة شارب الخمر التى تم تطبيقها ابتداء من العهد الراشدى، كانت

---

(1) حريتانى، سليمان، الخمرة وظاهرة انتشار الحانات ومجالس الشراب فى المجتمع العربى الإسلامى، دار الحصاد للنشر، دمشق، ١٩٩٦، ص٦٦.

(٢) أمين، أحمد، ضحى الإسلام، المجلد الأول، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة ١٩٣٣، ص ص ١١٨-١١٩.

(٣) بهنسي، أحمد فتحى، الخمر والمخدرات فى الإسلام، مؤسسة الخليج العربي، القاهرة ١٩٨٩، ص١٤.

تطبق عملياً علـى حالـة السـكر لا علـى الشراب، بمعنى إذا ظهر أمر شارب الخمر بين الناس وعرف أنه سكران، وتجاوز فـى شـربه درجـة النشـوة إلـى درجـة ذهـاب العقل، طبق عليه الحد[1].

اتفـق الفقهـاء علـى أن حـد شـارب الخمـر هـو الضـرب بالجريـد أو النعـال أو أطـراف الثيـاب، لكـنهم اختلفـوا فـى تقـدير عـدد الضربات، فهناك من يري أن النبـي صلي الله عليـه وسـلم قـد أتـي برجـل شـرب الخمـر فضـربه أربعـين، فبينمـا يـري الشافعية أن عدد الضربات يكون أربعـون ضـربة، والأحنـاف والمالكيـة والحنابلـة ثمانون جلدة[2].

وكانت عقوبـة الجلـد لا تجب إلا إذا ثبتت التهمـة فـي حـق الجاني، ومـن هنا كـان لزامـاً لتوقيـع العقوبـة، أن تقـوم الأدلـة علـي قيـام الجـاني بشـرب الخمـر، حـال كونه يعلم أنها خمر، وأنـه شربها مختاراً، بإرادتـه دون إكـراه. وكـان إقـرار الجـاني بشرب الخمر أهم الأدلـة، واتفـق الفقهاء أن إقـرار الجـاني يعـد دليلاً كافياً لتوقيـع العقوبة، حتي لو لم تثبت الأدلة الأخري مثل انبعاث رائحة الخمـر مـن فمـه، أو لـم يكن فى حالة سُكر، لكن أبـو حنيفـة وأبـو يوسف اعتبرا أن انبعـاث رائحـة الخمـر مـن الفم أمراً لازماً للاعتداد بشـهادة الشـهود وإقـرار الجـاني، أى لا تثبـت التهمـة بشهادة الشهود أو حتي اعتراف الجاني إلا إذا ظهرت رائحة الخمر فى الفم[3].

ولكن رغم هذا التحريم الإسلامى لشـرب الخمـر وصـناعته إلا أنـه رغـم ذلـك، كـان الـبعض يشـرب ويصـنعه رغـم تحريمـه، سواء كـانوا مـن المسلمين أو مـن الرعايا غيـر المسـلمين. وقـد حاولـت السـلطات فـى الخلافـة الإسـلامية خـلال عصـورها الممتـدة حتـي نهايـة الدولـة العباسـية، الحـد مـن المجـاهرة بارتكـاب المنكـر مـن خلال سلسلة من العقوبات أهمها الجلـد

(١) حريتانى، سليمان، المرجع السابق، ص٦٩.

(٢) الشيخ عبد الرحمن الجزيري، مختصر الفقـه علـى المـذاهب الاربعـة المجلـد الأول، دار القلم بيروت، ١٩٩٢ ص١٩٤.

(٣) حامـد أنـور الجزيـري، حـد السُـكر، المركـز القـومي للاصـدارات القانونيـة، القـاهرة ٢٠١١، ص٥٠-٢٥.

العلنى فى محاولة منها لردع المجاهرين بارتكاب مثل هذه الأفعال التى يرون أنها قد تضر بالمجتمع وأخلاقياته.

مواجهة ظاهرة شرب الخمر: الفتاوى الدينية في مصر العثمانية أحد أدوات المواجهة

وكانت الفتاوى تشكل جزءا من أدوات السلطة لمواجهة الظواهر الاجتماعية المختلفة، لما كانت الخمر والمسكرات محرمة فى الشريعة الإسلامية لهذا فقد تصدى علماء الدين والمفتين الرسميين للدولة لمحاربة هذه الظاهرة المحرمة شرعاً، وكان علماء الدين جزءاً من المواجهة الاجتماعية لهذه الظاهرة، وقد ظهر ذلك جليا فى مصادر الفترة العثمانية، فى صورة فتاوى شرعية يطلب أصحابها رأى العلماء والمفتين فى قضايا تتعلق بالخمر والمسكرات.

وكانت المحاكم الشرعية فى مصر العثمانية جزء من هذه المواجهة الفقهية بين العلماء، وسجلت بين طيات دفاترها جزءاً من هذا السجال الفقهى بين العلماء. وكانت المحاكم تستخدم لتوقيع العقوبة علي تلك الفئات الاجتماعية التى تتعاطى الخمور أو تمارس الرذيلة. وكانت المحاكم تلجأ إلي طلب الفتوي من خلال طرح سؤال على المفتين والعلماء وتسجيل الجواب فى سجلات المحكمة ليكون بمثابة قانون أو حجة قانونية يمكن إبرازها فى وجه من يريد المجتمع التخلص منه.

فهذه صورة فتوى ترجع إلى نهاية القرن السادس عشر الميلادى وبداية القرن العاشر الهجرى:

"صورة فتوي: الحمد لله رب العالمين، ما قولكم رضي الله عنكم ونفع بعلومكم المسلمين في رجل وزوجته ساكنين بين جماعة من المسلمين، وأن الرجل وزوجته من دأبهم شرب الخمر وجمع الأجانب مع بعض، وهم مصرون علي ذلك؟. فإدعي عليهما عند حاكم شرعي وثبت عليهم ذلك بشهادة أهل المحل وصدقوا بعد ذلك علي ذلك، فأما الرجل فعذر والمراة إدعت أنها شريفة فهل شرفها يسقط عنها ما لزمها ؟ أم لا ؟ وهل إذا تضرروا الجيران بسكناها عندهم ويحصل لهم بسكناها غاية الضرر ويخاف منها إفساد أهلهم يلزمها الخروج من

سكناها أم لا ؟ افتونا مأجورين أثابكم الله الجنة. الحمد لله رب العالمين، الشرف لا يمنع من التعذير وحيث تعين الإخراج من الدار طريقاً في الكشف عما ذكر فعل. والله أعلم، وكتبه عمر بن نجيم الحنفي حامدا. الحمد لله، جوابي كذلك والله سبحانه وتعالي أعلم وكتبه الفقير محمد بن علي الطايعي الحنبلي عفي عنه"[1].

وقد تنوعت الفتاوى الخاصة بتحريم المسكرات لتطال الحشيش والأفيون ومشتقاتهما، بل وصل الأمر إلى تحريم القهوة واعتبارها من المسكرات. فقد نشب سجال بين العلماء والفقهاء فى العصر العثمانى بعضهم يضعها ضمن المحرمات وآخرين يضعونه ضمن المباح. ويرى البعض أن انتشار القهوة والتبغ ساهموا إلى حد بعيد فى التقليل من انتشار إدمان الخمر، ويعزز هذا الرأى أن كلمة "قهوة" نفسها هى لفظة قديمة تطلق على الخمر[2]. فنرى الشيخ عبد الله الدنوشرى (ت: ١٠٢٥هـ/١٦١٦م) يؤلف رسالة فى حكم القهوة، وهل هى حرام أم حلال أم مباحة؟، والشيخ إبراهيم اللقانى (ت: ١٠٤١هـ/١٦٣١م) يبدأ أحد رسائله بتناول حكم تعاطى الدخان وحكم شرب القهوة[3]. بينما يستعين الشيخ الأجهورى برأى طبيب أوروبى وهو "موناردر الأسبانى" لدعم أسانيده فى تحريم الدخان[4].

وهناك من العلماء من حرموا القهوة باعتبارها من المسكرات كالشيخ السيواسى الضرير، الذى تخلص من كمية من البن أتته كهدية فى حفل زفاف ابنته لأنه يرى حرمة الانتفاع بثمنها أيضاً مثل الخمر، ودليله على ذلك ما ذكر فى وصف خمر الجنة فى قوله تعالى:

---

(١) دار الوثائق القومية، سجلات محكمة الإسكندرية، س٢٨، ص٢٠، ق٧ أوائل ربيع الأول ١٠٠٤هـ/١٥٩٣م.

(٢) لين، إدوارد وليم، المصريون المصدر السابق، ص٣٤٣.

(٣) عبد الله عثمان، ناصر، الحركة العلمية فى مصر فى القرن السابع عشر، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة ٢٠٠٦، ص٢١٥، وص٢٣١هامش ٢٥٨.

(٤) المرجع نفسه، ص٢١٦.

"لا فيهـا غـول ولاهـم عنهـا ينزفـون" (صدق الله العظيم) وقال بأن الغول هو مـا يعتـر شـارب الخمـر بتركهـا، وأن هـذه العلة موجودة فى القهوة بتركها.

ولم يسلم الدخان والتدخين من التحريم حيث اعتبره عدد من العلماء مسكراً شأنه شأن القهـوة، وخلال فترة ولايـة حسين باشـا (١٦٣٥ ١٦٣٧م) الملقـب بـالمجنون نظـراً لأفعالـه القاسـية والشـاذة، فلقـد أشرف شخصياً علـى تنفيـذ فرمـان يمنـع التدخين علناً، إذ كان يتجول فى الشوارع متنكراً، بحيث لا يتعرف عليه أحد، وحكـم بالإعـدام الفـورى علـى حوالى خمسين شخصاً لمجـرد ضبطهم يـدخنون[١]. وكـان محمـد باشـا اليدكشـى والـى مصـر فـى عام ١١٥٦هـ/١٧٤٣م، كان أول قرار لـه بعد توليـه حكـم مصـر وهـو "إبطـال شـرب الـدخان فـى الشـوارع وعلـى الـدكاكين، وأبواب البيوت، ونزل الأغا والوالى فنادوا بذلك وشـددوا فـى الإنكـار والنكـال بمـن يفعل ذلك مـن عـال أو دون، وصار الأغا يشـق البلـد فـى التبـديل كـل يـوم ثـلاث مرات، وكل من رأى فى يده آلة الـدخان عاقبـه وربمـا أطعمـه الحجـر الـذى يوضـع فيه الدخان بالبار وكذلك بالنار"[٢].

علـى أيـة حـال، لـم تكـن تلـك الفتـاوى المتشـددة، التـى كانـت تضـع الدولـة العثمانية فى حرج شديد أحيانًا، لتأخذ بها الدولة، لأنها كانت فتاوى من مشايخ قد ينتمى بعضهم إلى الأزهر، أو حتي من الـولاة الـذين ينتمـون إلـى رجـال السـلطة العثمانيـة، لـم يكـن رأيهـم ملزمـا للدولـة، وظلـت تحركـاتهم فـى مصـر العثمانيـة تحركات فردية، رصدها مؤرخو تلك الفترة.

القـوانين والعقوبـات العثمانيـة تتأقلم مع حركة التجارة العالمية

إذا نظرنا إلى قوانين العقوبات العثمانية وتطورهـا، نجـد أن الدولـة العثمانيـة (باعتبارها امتدادًا للخلافـة الإسلامية) قـد

(١) ونتر، مايكل، المجتمع المصري تحت الحكم العثمانى، ترجمة إبراهيم محمد إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ٢٠٠١، ص٢٣٩.

(٢) عبد الرحمن الجبرتى، عجائب الآثار فى التراجم والأخبار، الجزء الأول، مطبعة الأنوار المحمدية، القاهرة د.ت، ص١١٩.

مزجت بعض أحكام المذهب الحنفى مع بعض الأعراف ليشكل مجموعة قوانين نامة التى أصدرتها الدولة العثمانية، فوفقا لرودلف بيتر Rudolph Peters فإن الدولة العثمانية حولت القواعد الفقهية للمذهب الحنفى إلى مجموعة من المواد القانونية، التى شكلت أساساً للقوانين العثمانية[1].

أعطت الامتيازات الأجنبية التى منحتها الدولة العثمانية لبعض الدول الأوربية، تنازلات واستثناءات لرعايا هذه الدول منها عدم الخضوع للمحاكمات والمحاكم المحلية فى الإمبراطورية العثمانية. وضمنت التنازلات للأجانب سلامة الأشخاص والممتلكات. سُمح للأجانب المحميين بالسفر بحرية برا وبحرا، كما سُمح لهم بإنتاج النبيذ واستهلاكه في منازلهم، على سبيل المثال، على الرغم من أن هذا كان مقالّا تنافسيا حصل عليه العديد من الأوروبيين سنويّا على فرمان تأكيدي. احتفظ معظم الأجانب بالزي الغربي، وهو امتياز تضمنه كل من الامتيازات والقبعات القنصلية. كما سُمح لهم بإقامة شعائر دينية في خصوصية منازلهم وفي المصليات القنصلية. امتياز ذو أهمية أساسية يتعلق بإنشاء قنصليات ونواب قنصليات في المراكز العثمانية للتجارة الدولية. خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر والثامن عشر، ظل الوجود الأوروبي مقصورًا على المدن الساحلية العثمانية، مثل إسطنبول وإزمير (إزمير) وبيروت وعكا وصيدا[2].

لاشك أن الدولة العثمانية عقب توسعاتها فى البحر المتوسط، باستيلاءها على مصر وبلاد الشام، وانضمام شمال أفريقيا إلى مستعمراتها، قد باتت تسيطر على جزء كبير من

(1)Peters, Rudolph, Crime and Punishment in Islamic law, Theory and Practice from the Sixteenth to the Twenty-first Century, Cambridge University Press, 2005. P. 71.

(2) Maurits H. van den Boogert - Capitulations And The Ottoman Legal System_ Qadis,consuls And Beraths In The 18th Century (Studies in Islamic Law and Society) (Studies in Islamic Law and Society)-Brill p.32.

سواحل هذا البحر، ومع الوقت زادت حركة التجارة العثمانية مع أوربا وعالم البحر المتوسط، ومن ثم بات هناك دوافع تفرضها التجارة العالمية ومنظومتها على القوانين العثمانية، التى كانت ولابد أن تتغير لصالح السوق العالمى الذى باتت الدولة العثمانية جزء منه.

خلال القرن الثامن عشر حدثت تحولات فى الدولة العثمانية، حيث ترى البروفيسور نللى حنا Nelly Hanna أنه كان هناك ازدياد لحجم التجارة الدولية مع الدولة العثمانية مما أدي إلى التوسع الهائل فى فى استخدام النقود، ونرى ذلك بوضوح فى مراكز التجارة والانتاج فى مصر والأناضول، ومناطق مختلفة من الدولة العثمانية، حيث انتظمت عمليات التبادل التجارى، وتعاظمت بشكل واضح فى مناطق كالأناضول والبلقان ومصر[1].

وقد انعكست التحولات العثمانية وموقفها من عقوبة السُكر، وشرب الخمر علي ولاية مصر، وظهر ذلك جلياً فى أهم وأبرز المؤلفات عن الخمر فى مصر خلال العصر العثمانى، الذى انفرد به الشيخ حسن الجبرتى والد المؤرخ الشهير عبد الرحمن الجبرتى، حيث ألف رسالة فى شرب الخمر أسماها: **الأقوال المعربة عن أحوال الأشربة**، وتتميز هذه الرسالة بكونها تكاد تكون الرسالة الوحيدة التى تعطينا صورة واضحة عن أسماء الخمر وأنواعها فى العصر العثمانى وكيفية صناعة كل نوعه منها، ورأى المذهب الحنفى فى كل نوع منها.

يرى المؤرخ المصري عبد الرحمن الجبرتي والد الشيخ حسن الجبرتي مؤلف المخطوط أن والده كان من الثقاة فى الفتوى، "وأن القضاة لا يثقون إلا بفتواه، دون غيره"[2]. الشيخ حسن الجبرتى يتحدث فى بداية رسالته عن السبب فى تأليف هذه الرسالة، وهو أنه سُئل عن بيان المشروبات المحرمة

---

(1) نللى حنا، مصر العثمانية والتحولات العالمية: ١٥٠٠ - ١٨٠٠ ترجمة مجدي جرجس، المركز القومي للترجمة، القاهرة ٢٠١٦، ص٣٦.

(2) عبد الرحمن الجبرتى، ج1، ص٥٢٢.

والمباحة على مذهب الإمام أبى حنيفة النعمان، فعكف علي تأليف هذه الرسالة رداً على هذا السؤال. وقد قسم رسالته إلى مقدمة ومقصد وخاتمة، وقد افتتح المقدمة ببيان أن السكر حرام فى جميع الأديان وإن أبيح شرب الخمر لأهل الذمة عند أكثر المشايخ، وعند بعضهم حراماً، لكنه نهى عن التعرض لهم، وإذا شرب الذمى لا يحد وإنما يحد للسكر، لأن السكر محرم فى الأديان"[1].

ومن هنا تأتي أهمية هذه رسالة الشيخ حسن الجبرتي فى أحكام شرب الخمر بأنواعها، وتزيد أهميتها من أهمية مؤلفها كرجل أزهر عاش فى القرن الثامن عشر، وحنفى المذهب، وهو المذهب الرسمى للدولة العثمانية، ومن ثم فإن أحكامه الفقهية تكاد تتطابق مع وجهات النظر الرسمية للدولة العثمانية فيما يتعلق بقوانيين تحريم الخمر، وإقامة حد الخمر، وأى الأنواع من الخمور لا يطبق عليه الحد. وهذه الرسالة وضعت الكثير من القواعد والأسس والضوابط الفقهية لإقامة حد الخمر وفقاً للمذهب الحنفى.

أنواع المسكرات فى مصر العثمانية

يأتي الخمر علي رأس المسكرات التى كانت متداولة فى مصر العثمانية. يتناول الشيخ حسن الجبرتى في رسالته عن الأشربة، المواد التى يستخرج منها الخمر وهى أربعة: العنب، والزبيب، والتمر، والحبوب ونحوها، وأسماء الخمر المستخرج من العنب هى: الخمر، والباذق، والمنصف، والطلا، والمثلث، والبخنج، والجمهورى، والحميدي، واليعقوبي. أما الخمر المستخرج من الزبيب فهى؛ النقيع والنبيذ، والمتخذ من النخيل هى: السَكَر، والفضيخ، والنبيذ، وأما المتخذ من الحبوب ونحوها، فلكل منها اسم يدل على ما أضيف إليه.

الخمر اسم لما يستخرج من العنب، إذا غلى واشتد وقذف بالزبد، وسكن عن

---

(١) الشيخ حسن ابن إبراهيم بن حسن بن على الزيلعى الجبرتى العقيلى الحنفى (١١١٠-١١٨٨هـ)، الأقوال المعربة عن أحوال الأشربة، صورة مخطوط بمكتبة جامعة الملك سعود بالرياض، رقم ٣٨٢ فقه حنفى، تصنيف ٢١٧٫٤ ز، ومتاحة على الرابط التالى: http://makhtota.ksu.edu.sa/makhtota/3540/1 ورقة (١-أ)، (Access in 6-12- 2021) .

الغليان عند أبي حنيفة، ومخامرة العقل تحصل بالشدة والغليان، ويؤخذ بحرمة الشرب بالاشتداد، وفى وجوب الحد على الشارب بقذف الزبد احتياطاً، وقد ساق الشيخ حسن الجبرتى ستة أحكام لتحريم خمر العنب، منها حرمة الشرب أو التداوى بكثيرها وقليلها لأنها رجس من عمل الشيطان، والثاني أن يكفر جاحد بحرمتها لإنكاره الدلائل القطعية، والثالث، أنه يحرم تملكها وتمليكها وهبتها، والرابع، قد بطل تقومها حتى لا يضمن متلفها قيمتها إذا كانت لمسلم، والخامس، أنها بخسة بخاسة غليظة كالبول والدم، والسادس، أنه يحد شارب قليلها وكثيرها لقوله عليه الصلاة والسلام "من شرب الخمر فاجلدوه، فإن عاد فاجلدوه، فإن عاد فاقتلوه" كما جاء فى المحيط"[1].

أما **الباذق**، فهو ما طبخ من عصير العنب أدني طبخة إذا غلى واشتد وقذف بالزبد، **والمنصف** هو ما طبخ من ماء العنب حتى ذهب نصفه إذا غلى واشتد وقذف بالزبد ومن هنا جاءت التسمية. **والطلا** وهو كل شيء يطلى به الخمر، وهو اسم لما طبخ من الخمر حتى ذهب أقل من ثلثيه، وقيل إذا ذهب ثلثيه، ومن هنا وضعت درجات لحرمة كل نوع من هذه الأنواع من الخمور حسب الشدة، والطلا أقلها حرمة بينما الباذق والمنصف أشد حرمة، فالطلا دون الخمر لا يكفر مستحلها ولا يجب الحد بشربها مالم يسكر، والسكر هو حالة تعرض الإنسان لامتلاء دماغه من الأبخرة المتصاعدة إليه فيتعطل عقله المميز بين الأمور الحسنة والقبيحة، وله حدان، حد لحرمته ولا خلاف فيه، وحد لوجوب الحد بسببه، وفيه اختلاف. والسكران الذي يحد هو الذى لا يعقل منطقاً، قليلاً ولا كثيراً، ولا يعقل الرجل من المرأة، وهذا عند أبي حنيفة"[2].

والمثلث من الخمر فهو ما طبخ من ماء

---

(1) الشيخ حسن ابن إبراهيم بن حسن بن على الزيلعى الجبرتى العقيلى الحنفى (1110-1188هـ)، نفسه ورقة (1-ب)، ورقة 2-3.

(2) الشيخ حسن ابن إبراهيم بن حسن بن على الزيلعى الجبرتى العقيلى الحنفى (1110-1188هـ)، نفسه ورقة (3-أ).

العنب حتى ذهب ثلثاه وبقي الثلث، ولا فرق بين ذهاب الثلثين بالطبخ أو بالشمس، أما **الجمهوري**، فهو نسبة إلى الجمهور لكثرة استعماله لدي الجمهور وهو حلال، **والحميدى** نسبة صانعها، **واليعقوبي** ويسمى أبا يوسف (نسبة قاضى القضاه الإمام أبى يوسف)، لأن أبى يوسف اتخذه لهارون (الرشيد) تخلصاً مما هو حرام من الشراب، بأن أضيف إلى الخمر من نوع المثلث الماء حتى رق وترك حتى اشتد، **والبخنج** وهى أيضاً خمر من نوع المثلث مزجت بالماء بعد ذهاب ثلثيها والاشتداد وقذف الزبد، وهى حلال إذا شربت دون القدر المسكر بدون لهو أو طرب"[1].

أما أنواع الخمور المتخذه من الزبيب، فأهمها **النقيع**، وهو ما نقع من الزبيب فى الماء وغلى واشتد حتى قذف الزبد، وحرمته كالطلا ونجاسته مخففة، **والنبيذ** وهو ماطبخ من ماء الزبيب أدنى طبخ، وهذا النوع من الخمر حلال كالجمهورى، والفارق بين النقيع والنبيذ هو الطبخ أو عدمه"[2].

أما الخمور المتخذة من النخيل فهى السَكَر والفضيخ والنبيذ، **والسَكَر** هى المتخذة من ماء الرطب إذا غلى واشتد وقذف بالزبد وهو محرم كنقيع الزبيب، وحكمه النجاسة المخففة كالنقيع، أما **الفضيخ** فهو مأخوذ من الفضخ وهو كسر الشيء المجوف، وهو عصير البسر إذا غلى واشتد وقذف بالزبد، وهو محرم كالسَكَر، وفى القاموس أن الفضيخ شراب يتخذ من بسر مفضوخ ولبن غلبه الماء، أما **النبيذ** فهو مطبوخ ماء التمر اليابس إذا طبخ أدنى طبخة كنبيذ الزبيب، وهو حلال إذا شرب منه دون القدر المسكر لكن ليس على سبيل اللهو والطرب. والخليط من النبيذ العنب والتمر إذا طبخ أدني طبخة فهو حلال وفقاً لرأى الشيخ حسن الجبرتى، المستمد من الفقه الحنفى"[3].

وفيما يتعلق بأنواع الخمور المتخذة من الحبوب، فأهمها نبيذ **الحنطة**، الذى

---

(١) نفسه ورقة (٤-أ).

(٢) نفسه ورقة (٤-ب).

(٣) نفسه ورقة (٥-أ).

يسمى "المِزر"، ونبيذ **الشعير** ويسمى "الجعة"، ونبيذ **الذرة** يسمى "السكركة"، ونبيذ **العسل** ويسمى "التبِع"، ويرى الشيخ حسن الجبرتى أن كل تلك الأنواع من الخمور المتخدة من الحبوب والعسل والتين ونحوهم حلال، "لأنها متخدة من غير أشجار النخيل والأعناب، وأن أبو حنيفة قال أن السُكر من هذه الأنواع من الخمور حرام، لكن لا يحد من سكر بشربهم، وأن الحد متعلق بشرب الخمر، **فالبنج** يسكر، وهو حرام لكن لا حد فيه"[1].

تحدث عدد كبير من الرحالة عن تعدد أنواع الخمور والمسكرات فى مصر فى الفترة العثمانية، وكان لكل طبقة اجتماعية مشروبها المسكر حسب الحالة الاقتصادية. نظراً لتحريم الشريعة الإسلامية للخمر فقد كانت أكثر الشرائح الاجتماعية فى المجتمع المصرى تناولًا وتصنيعاً للخمور هم من المصريين من غير المسلمين، وهذا يبدو طبيعياً فى مجتمع مسلم، لكن رغم ذلك لا يمنع بطبيعة الحال انخراط عدد من المسلمين فى تعاطى وتصنيع هذه المسكرات، وخصوصاً من الشرائح الدنيا (كما سنرى)، نظراً لأن تعاطى هذا المنكر أمر مذموم دينيًا واجتماعيًا.

وعلى هذا فقد عمل على صناعة الخمور بعض الفئات من غير المسلمين كالأقباط والأوروبيين واليهود، حيث شارك الأوربيون مع بعض التجار اليهود فى تجارة الزبيب والعنب المستخدم فى صناعة الخمور بنوعيه الأحمر والأسود[2]، وكان يفرض عليه رسوم خاصة لصالح طائفة مستحفظان، وكان كاتب الجوالى[3]، يقوم بتحصيلها، كما قاموا بالإتجار فى الخمور التى كانت قاصرة

(١) نفسه ورقة (٧-أ).

(٢) صلاح أحمد هريدي، الجاليات فى مدينة الإسكندرية فى العصر العثمانى، دار عين للدراسات والبحوث الإنسانية، ط١، القاهرة ٢٠٠٤، ص٧١-٧٢.

(٣) كاتب الجوالي: الجوالي وهي الأموال التي كانت تجبى من أهل الذمّة. وكان كاتب موظفاً في ديوان الجوالي، فقد عُرف بالكاتب. محمد عفيفي، الأقباط في العصر العثماني ١٥١٧-١٧٩٨، القاهرة ١٩٨٩، ص١٦، ٩٤.

على المسيحيين المصريين والأجانب(١).

فيذكر علماء الحملة الفرنسية أن النبيذ الذي يتم تصنيعه فى الفيوم لا يستهلكه عادة سوي الأقباط(٢)، وكانت الأعناب المجففة (الزبيب) يتم استرادها من قبرص وجزر اليونان، لاستخدامها فى صناعة الخل والعرقى، إضافة إلى الأعناب المحلية، حيث يشير علماء الحملة الفرنسية إلى جودة الأنواع الموجودة فى مصر، حيث الأرض صالحة للغاية لزراعة الكروم، بل أشاروا أنه لولا تحريم الإسلام للخمور لصارت مصر منافساً قوياً لجزر الأرخبيل فى زراعة الكروم(٣).

وكان يتم استيراد بعض أنواع من العنب من جزيرة رودس لصناعة أنواع معينة من الخمور، وكانت جزيرة رودس هى المكان الذي يتم الاستيراد منه نظراً لشهرة رودس فى إنتاج العنب ذو الجودة العالية(٤).

أماكن تعاطي الخمور والمسكرات

حاولت الدولة العثمانية محاربة ظاهرة تعاطي الخمور والمسكرات من خلال مواجهة أماكن تصنيع وتناول الخمور، لكن مع هذا كانت المواجهة تجد العديد من الصعوبات، نظراً لاعتبارات عديدة منها ما يتعلق بطبيعة المؤسسات المنوط بها القيام بهذا العمل، مثل الصوباشي الذى كانت يحصل علي إيرادات من هذه الأماكن، ومنها ما يتعلق بوجود طوائف دينية وأجانب مسموح لهم تعاطي مثل هذه الخمور.

وصف الرحالة الفرنسي جرانجيه Granger الفيوم بأنها "حديقة مصر"، وهى الإقليم المتخصص فى صناعة النبيذ فى مصر نظرا لتوفر مزارع العنب بكثرة فى هذا الإقليم، وكان الأقباط العاملون فى زراعة العنب يسكنون غرب مدينة الفيوم، وهم يصنعون منه النبيذ

(١) المرجع نفسه، ص٧٣.

(٢) ب.س. جيرار، وصف مصر، ترجمة زهير الشايب، مكتبة الخانجى، ط١، القاهرة ١٩٧٨، ص١٩٦.

(٣)ب.س. جيرار، وصف مصر، المصدر السابق، ص١٩٦-١٩٧.

(٤) سجلات محكمة الإسكندرية، س١٤، ص٢١٦، ق بدون رقم بتاريخ ٢٩ رمضان ٩٨٧هـ/ ١٥٧٩م.

الأبـيض[1]، وكـان النبيـذ يصـنع بطريقـة بدائيـة، حيـث كـان العنـب يهـرس لمـدة سـاعة فـى إنـاء فخـارى إسـطوانى الشـكل، ثـم تفـرغ محتويـات الإنـاء فـى "جوال" كبير مصنوع من قماش صوفى بـالغ السـمك، ثـم يعتصـر الجـوال بشـدة، ويستقبل العصير الذي يسيل من الجوال علـى هـذا النحـو فـى إنـاء فخـارى شـبيه بالإنـاء الأول لتـتم عمليـة التخميـر التـى تسـتغرق مـن ٨-١٥ يومـاً، ثـم بعـد اتمام عمليـة التخمير يوضـع فـى قـوارير كبيـرة، ثـم يـتم دفـن هـذه القـوارير فـى الأرض حتـى عنقهـا وتغلـق فتحتهـا بسـدادة خشبية يحكم إقفالها بالجبس، ورغم هـذا الاحتياط إلا أن النبيـذ لا يظـل علـى حالـه لأكثـر مـن بضـعة شـهور. وكانـت عـدد مصـانع التقطيـر فـى القـاهرة لا يتجـاوز إثنـى عشـر مصـنعاً، وفقـاً لتقـدير علمـاء الحملة الفرنسية[2].

وتـذكر الوثـائق أمـاكن تواجـد الخمـارات بمدينــة الإسـكندرية، مثــل خمــارة فــى "الجزيــرة الخضــرا" ســنة ١٠٠٥هـ/١٥٩٦م، وشكوى الأهالى من خمارة بوكالة سنان باشـا سـنة ١٠١٦هـ/١٦٠٧م، وخمـارة "السـيد أحمـد الصـعيدي"، بخـط البحـرى والتـى ذكرت ضمن وثيقة وقف ترجع إلـى عـام ١١٤٨هـ/١٧٣٦م[3].

أما البوظخانات فهى أماكن تعاطي نوع مـن المسـكرات يسـمى البوظـة. تعتبـر "البوظـة" هـى أكثـر المسـكرات شـعبية فى مصر العثمانية، ويرى إدوارد لين أن الطبقــات الــدنيا هــى التــى تشــرب البوظــة[4]، هنــاك أنــواع متعــددة مــن البوظــة، وذلــك بحســب نــوع الحبــوب المستخدمة فى صناعتها، فهناك بوظة

---

(١) إلهـام ذهنـى، مصـر فـى كتابـات الرحالـة والقناصل الفرنسيين فى القرن الثامن عشر، الهيئــة المصــرية للكتــاب، القــاهرة ١٩٩٢، ص٢٤٨-٢٤٩.

(٢) ب.س. جيـرار، وصـف مصـر، ترجمـة زهيـر =

= الشـايب، مكتبـة الخـانجى، ط١، القـاهرة ١٩٧٨، ص١٩٦.

(٣) سـجلات محكمـة الإسـكندرية، سـجل٧٥، ص٦٢، وثيقــة ٧٠، بتــاريخ ١٥ شــوال ١١٤٨هـ/١٧٣٦م.

(٤) لـين، إدوارد ولـيم، المصـريون المحـدثون عـاداتهم وتقاليـدهم، ترجمـة سـهير رسـوم، مكتبة مدبولى، القاهرة ١٩٩٩، ص١٠٠.

الأرز وتسمى "السوبيا"، بينما البوظة المصنوعة من القمح تسمى "المُزة" أو "الموزة"[1]، وربما هى أصل كلمة "المَزة" المستخدمة إلى وقت قريب للدلالة على بعض المسليات المصاحبة للمشروبات الروحية، وتعتبر المُزة هى أشد أنواع البوظة سكراً، كما أن هناك البوظة التى تصنع من الشعير، ولها طرق متعددة فى كيفية تحضيرها، فهناك البوظة الشعبية وهى تصنع من خبز الشعير المفتت الممزوج بالماء، ثم يتم تصفيته ويترك حتى الاختمار[2].

لكن الطريقة المتبعة إلى وقت قريب فى صناعة البوظة كانت تتم وفق مراحل تصنيع تبدأ بنقع الشعير فى الماء، ثم تصفيته وتجفيفه فى الظل أولاً، ثم يجفف مرة أخرى فى الشمس، وعند تمام جفافه يدق ناعماً ويضاف إليه الماء ويترك فى المواجير (جمع ماجور وهو إناء كبير من الفخار) حتى يختمر، وهو مسكر ثقيل، ويتناولونه غالباً فى أوانى فخارية تسمى الواحدة منها "قرعة"، ويتخذ الشاربون لها "مزة" من اللحم المسلوق مع بعض الملح والفلفل، ويطلق على المكان الذي يباع فيه البوظة إسم "بوظة" أيضاً، وهو مكان وخم، وجلاسه وخمون، ويجلس أصحابه على حصر، مع جيوش الذباب، مما يعف على مواجير البوظة، ويتردد إليها بعض النساء الساقطات فيثيرون الشهوات، وينطق الرجال إذ ذاك بألفاظ الفحش البذيئة[3].

كانت البوظة أو البوظخانة والمقاهى فى مصر العثمانية أماكن سيئة السمعة لا يرتادها سوى ذوى الأخلاق السيئة، لهذا كانت هذه الأماكن غير مستحبة لدى المجتمع المصرى، ففى وثيقة مؤرخة بعام ٩٧٠هـ/١٥٦٢-٦٣م حاول أحد الأشخاص الاستيلاء على الرصيف

(١) جلبى، أوليا، سياحتنامة مصر، ترجمة محمد على عونى، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة ٢٠٠٣، ص٦٣٧.

(٢) لين، إدوارد وليم، المصريون المصدر السابق، ص١٠٠.

(٣) أمين، أحمد، قاموس العادات والتقاليد والتعابير المصرية، تقديم ومراجعة محمد الجوهرى، القاهرة ٢٠٠٧، ص١٤٤.

والمنطقة المجاورة له على شاطئ الخليج بالقاهرة وجعل هذه المنطقة "بيت قهوة" (مقهى)، كما حاول هدم حائط يفصل بينه المقهى ومسجدا هناك ويريد إضافة إلى مساحة المقهى، " وانه هدم في يوم تاريخه حايطا علي قطعة ارض من حقوق المسجد وحرمته يريد خلط ذلك بالمسطبة المذكورة وطلب الكشف عن ذلك فتوجه الفقير وشهوده لذلك فوجد الأمر كما شرح فيه بحضرة خير الدين المذكور فمنعه الفقير من ذلك لحرمة المسجد وحق المسلمين وعدم البنا علي ذلك لكونه محدثا مضرا فلم يسمعه ولم يمتنع وتلفظ بألفاظ قبيحة من جملتها أنه قال: أجعل ذلك **بوظ خانه أو بيت قهوة** وأجعل ذلك كما أريد"[١].

وفى الأسواق الأسبوعية على أطراف المدن والقرى كان هناك جماعات من اليهود يطلق عليهم "اليهود البطيطية" يبيعون البوظة وبعض أنواع من الخمور البسيطة كالعرق وغيرها، وكان هؤلاء الباعة أحيانا ما يطلق عليهم "اليهود الطرقية"[٢].

ومن المشروبات المسكرة أيضاً مشروب "البربريس" وهو مشروب يصنع من الزبيب الأسود بعد مزجه بالبهارات والسكر، إضافة إلى "العرق" أو "العرقى" ويصنع من البلح او العنب المجفف وماء العسل، وهو مشروب شديد الإسكار يجعل المرء خائر القوى لا يستطيع الوقوف على قدميه[٣]، وكان العرقى يقطر فى كثير من بلاد الصعيد، ولكنه كان للاستخدام الشخصى[٤].

---

(١) سجلات محكمة بابى سعادة والخرق، س٧٢٦، ص١١٦، ق٥٢٥ بتاريخ ٢٠ ذو القعدة ٩٧٠هـ.

(٢) عبد الحميد سليمان، مقاطعة الخردة وتوابعها، ضمن كتاب: الطوائف المهنية والاجتماعية فى مصر فى العصر العثمانى، تحرير ناصر إبراهيم، مطبوعات مركز البحوث والدراسات الاجتماعية، جامعة القاهرة، القاهرة ٢٠٠٣، ص١٢٧.

(٣) أوليا جلبى، سياحتنامة مصر، المصدر السابق، ص٦٣٧، ب.س. جيرار، وصف مصر، المصدر السابق، ص١٩٦.

(٤) أمين مصطفى عفيفى عبد الله، تاريخ مصر الاقتصادى والمالى فى العصر =

يشير الرحالة التركي أوليا جلبي إلى وجود مشروب شعبى مسكر بالقاهرة يسمى "ماء الأسرار" نظراً لأن من يتناوله يبوح بما فى داخله من الأسرار، وهو خليط من البنج أو الأفيون مع الدبس (عسل التمر)، ويتم تخمير الخليط لمدة يومين فى الماء، ثم بعد ذلك يصفى الماء ويرسب ما تبقى من الثفل، ويطاف بهذا المشروب على الحشاشين بميدان الرميلة بكؤوس خاصة فيشربه من يريده، وعند ذلك يظهر على لسانه ما فى قلبه من الأسرار[1].

موقف السلطات العثمانية فى مصر من الخمر وأماكن بيعها

الدولة العثمانية باعتبارها دولة إسلامية اعتبرت أن واجبها الحفاظ فى المقام الأول على الحفاظ على المباديء الأساسية للشريعة الإسلامية، ومن بينها النهى عن المنكر ومنع شرب وتصنيع الخمور، وتفعيل حد الخمر، حتى لا تظهر بمظهر المتساهل فى إقامة مبادىء الشريعة الإسلامية، لكنها فى الوقت نفسه تحاول إرضاء موظفيها فى الولايات المختلفة الذين ينتفعون من الضرائب على أماكن تعاطى الخمور، فتغاضت الدولة فى أحيان كثيرة كما سنرى عن محاربة صناعة الخمور ما لم تكن علنية فجة، فسمحت بها ضمنا على أن تكون سراً، خاصة وأن المجتمع المصرى لم يكن كله مسلماً، فهو يحتوى على طوائف دينية أخرى مسيحية ويهودية إضافة إلى الأجانب، والذين ترى الدولة أن من حقهم ممارسة شرب الخمر لكنها أجبرتهم على السرية.

وفى قانون نامة مصر الذى أصدره السلطان العثمانى سليمان القانونى (١٥٢٥ - ١٥٦٦م) شدد على اهتمام السلطان العثمانى بإقامة قواعد الدين واتباع سنة سيد المرسلين، فألغى بعض المحرمات التى رأى أنها كانت مباحة فى الماضى فى مقابل حصول الدولة على المقاطعة (الضريبة)، فأصدر السلطان

= الحديث، مكتبة الإنجلو المصرية، ط٣ القاهرة ١٩٥٤، ص٢٣٠.

(١) أوليا جلبى، سياحتنامة مصر، المصدر السابق، ص٦٣٧.

أوامره، "بإلغاء الحانات التى توجد بالمدن والقرى والأمصار والتى تمثل مأوى للفاسقين ومرتعاً لشرب الخمر نهاراً، وإلغاء الغبيراء (أماكن شرب البوظة) التى تشرب فيها الجماعات الخمر بحجة أنها غبيراء، وتحريم الفحشاء والمنكر الذى شاع ومنع الزنا والكبائر"[1].

كما شدد قانون نامة مصر على منع العادة المتفشية من قديم الزمان والتى تخرج فيها العروس ليلة العرس على الجمع سبع مرات وهم محتسون الخمر، ويمارسون الفسق والفجور، وفى كل مرة تخرج بلباس جديد وطلعة جديدة، وعندما تحل بالمجلس تلعب وتلهو وترقص، ويقوم الحاضرون بلصق النقود على وجهها، وبما أنها عادة تخالف الشرع، فقد حظر القانون ممارستها، وحدد كذلك العقوبة لمن يمارس هذا الجرم وهو تعزير والد العروس والعريس والتشهير بهما وبجرمهما بشدة، كما أناط بالسوباشى مهمة تنفيذ العقوبة والقبض على المخالفين لهذا القانون[2].

لكن رغم هذه القوانين والفرامانات التى تؤكد احترام الدولة العثمانية للشريعة الإسلامية من خلال منع تعاطى وتصنيع الخمور والمسكرات، لكن الباشاوات العثمانيين على مصر كانوا مشدودين بين رغبتهم فى تحقيق المصالح المادية والاقتصادية وبين احترام مبادىء الشريعة الإسلامية، وهذا ما دفعهم إلى الجمع بين النقيضين من خلال استغلال المهن المرذولة على المستوى الضريبى من جهة، واتخاذ بعض الإجراءات ضد الأماكن السيئة من جهة أخرى، وإن كانت تلك الإجراءات لا تتسم دائما بالفاعلية المطلوبة[3].

ويشير المؤرخ المصري ابن اياس خلال أحداث رجب من عام ٩٢٥هـ/ يوليو ١٥١٧م إلى أن المصريين كانوا يعتقدون أن بقاء أماكن الرذيلة وتعاطى الخمور

---

(١) قانون نامة مصر، ترجمة دكتور أحمد فؤاد متولى، القاهرة ١٩٧٦، ص٧٤-٧٥.

(٢) المصدر نفسه، ص٧٥.

(٣)ريمون، أندريه، الحرفيون والتجار فى القاهرة فى القرن الثامن عشر، الجزء الثاني، ترجمة ناصر إبراهيم، وباتسي جمال الدين، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة ٢٠٠٥، ص٨٩٣.

هى السبب فى قلة مياه الفيضان، فحينما توقف النيل سبعة أيام، أمر الباشا العثمانى "بإبطال بيوت الحشيش، وبيوت الخمارة، وبيوت البوظة، وغرق أنس التى كانت تجمع بنات الخطأ التى كانوا يعملون الفاحشة من أمر الزنا، فلما زاد النيل رجع كل شيء إلى حاله"[١]، هكذا أمر الباشا بإغلاق كل محلات الخمور والبوظة ومقاهى الحشيش، وإغراق العوامة المسماة بأنس، حيث كان العثمانيين أنفسهم يبيعون المشروبات الروحية، وسمحوا لبنات أنس أن يعملن بمهنة أمهاتهن[٢].

وكانت الخمارات وأماكن شرب الخمر فى الإسكندرية خلال القرن السادس عشر تعطى بنظام الالتزام، ففى عام ١٠٠٢هـ/١٥٩٤م نجد فى فرمان صادر من باشا مصر إلى حاكم ثغر الإسكندرية اسم أحد اليهود بالمدينة ويدعى "سميع" ملتزم الخمامير بالثغر السكندري[٣].

وخلال القرن الثامن عشر انتقلت سيطرة السوباشى على أماكن تعاطى الخمور والمسكرات إلى أغا الإنكشارية هو أصبح المنوط به السيطرة على محلات الخمور والمسكرات نظير حصوله علي العوائد. فخلال عام ١٠٨٢هـ/١٦٧٢م ورد إلى ديوان مصر المحروسة شكوى من بعض يهود إسكندرية بصناعة الخمور بدار سيدة يهودية تدعى "قميرة" زوجة إسكندر اليهودى بالجزيرة الخضراء، فأصدر إبراهيم باشا الوزير (١٦٧٠م/١٦٧٢م) بيورلدى يقضى بإبطال ومنع الخمامير وصناعة الخمر من ثغر الإسكندرية والتأكد من صحة الشكوى، وكان يترتب على هذا القرار أن تقوم السلطات المختصة بالكشف عن الخمامير وأماكن صناعة

---

(١) ابن إياس، بدائع الزهور فى وقائع الدهور، تحقيق محمد زيادة، الجزء الخامس، القاهرة ١٩٨٤، ص٣٤٧.

(٢) ونتر، ميكل، المجتمع المصري تحت الحكم العثمانى، ترجمة إبراهيم محمد إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ٢٠٠١، ص٢٣٧.

(٣) سجلات محكمة الإسكندرية الشرعية، سجل ٢٨، صفحة ٩٩، وثيقة ٣٣ بتاريخ ٧ محرم ١٠٠٢هـ/١٥٩٤م.

الخمور لتطبيق الفرمان، وكانت العادة أن يقوم القاضى بصحبة الصوباشى وعدد من المسئولين المختصيين منهم أحد أتباع أغا الحوالة، ومقدم بالديوان بعملية الكشف عن هذه الأماكن، فقام القاضى والمصاحبين له بتفتيش منازل عدد من اليهود منها بيت قميرة اليهودية، وبيت كريوسة اليهودية، وبيت سليمان اليهودى، وبيت فريحة اليهودى وسكن رازاد وساحم اليهوديين ولم يجدوا أية آثار للخمر أو أدوات تصنيعه، فتم تسجيل نتيجة الكشف فى السجلات ضبطاً لواقع الحال والمراجعة عند الاحتياج[1].

وكانت سلطة الوالى أو الصوباشى تشمل الخمارات وبيوت الدعارة، وتتيح له جمع العوائد التى تصل قيمتها إلى أرقام هائلة، وخلال فترة ولاية عبد الله كبورلى باشا لمصر صدر فرمان من السلطان العثمانى "بإبطال المخامير والمواقف"[2]، والمخامير أو الخمارات هى أماكن شرب الخمر، والمواقف هى أماكن البغاء. وبناء على ذلك قرر عبد الله باشا فى عام ١١٤٣هـ/١٧٣١م إقامة الحدود ومن بينها حد شارب الخمر، تنفيذا للمرسوم السلطانى، فأصدر أوامره بإبطال المنكرات والخمامير ومواقف الخواطىء والبوظة من بولاق وباب اللوق وطولون ومصر القديمة، وجعل للوالى (الصوباشى) والمقدمين تعويضاً عن هذه الخسارة حيث كانوا يتقاضون ضرائب عن هذه الأماكن فى كل شهر كيساً [يساوى ٢٥٠٠٠ نصف] من كشوفيات الباشاوات، مما يعنى ٣٠٠ ألف نصف فضة فى العام كتعويض، وكتب بذلك حجة وفيها لعن كل من يتسبب فى رجوع ذلك[3].

وخلال العصر العثمانى صدرت العديد من القرارات والأوامر والفرمانات التى

---

(١) سجلات محكمة الإسكندرية، س٥٢، ص٤٣٤، ق٨٦٠ بتاريخ ٢٧ شوال ١٠٨٢هـ/ ١٦٧٢م.

(٢) أحمد شلبى بن عبد الغنى، أوضح الإشارات فيمن تولى مصر القاهرة من الوزراء والباشات، تحقيق د. عبد الرحيم عبد الرحمن، مكتبة الخانجى، القاهرة ١٩٧٨، ص٥٧٤.

(٣) المصدر نفسه، ص٥٧٥.

تمنع تعاطى الخمور والمسكرات وغلق أماكن شرب الخمور أو الخمامير وأماكن تصنيعها، فبالإضافة إلى قانون نامة مصر الذى قرر صراحة منع شرب الخمور والأمور المنافية للشريعة الإسلامية، كانت السلطات العثمانية فى مصر تصدر بين فترة وأخرى القرارات التى تمنع صناعة الخمور أو غلق الخمارات، لكن هذه القرارات لم تكن تلقائية فى غالب الأحوال وإنما تأتى بعد شكاوى يتقدم بها مسلمين ضد هذه الخمارات وتضررهم منها.

ففى وثيقة مؤرخة بعام ١٠٠١هـ/١٥٩٣م رفع كلا من حسين ورضون بلك باشى وعدد من سكان ثغر الإسكندرية شكوى إلى الديوان يذكرون فيها: "أن هناك محلا لبيع الخمر فى جانب معين بالثغر من قديم الزمان، ثم أن الجماعة التى يتعاطوا بيع ذلك تعدوا ونقلوا الخمامير لمحل آخر بالقرب من المسجد وصاروا يجمعون الناس من مسلمين ونصارى ويتعاطون الخمر جهارا، ويقيمون الزور والفتن، وبذلك يحصل الضرر[1]"، وهذا يعنى أن هذه الأماكن كانت موجودة وتمارس عملها قبل التقدم بالشكوى، لكن المشكلة التى طرحتها الشكوى هو نقل أماكن تعاطى الخمور بالقرب من المسجد، وهو ما كان مصدر القلق الحقيقى الذى يمكن أن يضع السلطات فى موقف محرج.

وتحدد الوثيقة الإجراءات التى تتخذها السلطات حيال هذه القضية، فتحيل القضية إلى القاضى، "بالنظر فى ذلك وإجراء الأمر فى ذلك على جارى العادة القديمة المستمرة، من غير إحداث حادث ولا مظلمة، ومنع المذكورين من التجرؤ على الأفعال المخالفة، ومن التعدى على غير محلاتهم.... بحيث لا يشكى إلينا بسبب ذلك مرة أخرى، وما يتم عليه الحال فيعرض وليعتمد[2]"، وعليه فإن القاضى هو المنوط به التأكد من

(١) سجلات محكمة الإسكندرية، س٢٨، ص١٩٥، ق٩١ بتاريخ أواسط ذى الحجة ١٠٠١هـ/١٥٩٣م.

(٢) سجلات محكمة الإسكندرية، س٢٨، ص١٩٥، ق٩١ بتاريخ أواسط ذى الحجة ١٠٠١هـ/١٥٩٣م.

الشكوى عن طريق العدول وشهود المحكمة وإصدار قراره النهائى فى هذا الخصوص.

وبعد عامين أى حوالى عام ١٠٠٣هـ/١٥٩٤م من هذه الشكوى ضد الخمارة التى أقيمت فوق مقابر الشيوخ والأولياء، جاءت شكوى أخرى تقدم بها عدد من المسلمين ذكروا بها أن؛ "بالجزيرة بالثغر مقابر الأوليا والصلحا والمشايخ وغيرهم من المسلمين، وأن طايفة النصارى اتخذوا خمارة فوقها وصاروا يبيعون فيها الخمر ويتجاهرون... ولا يخلون من الفساد والقبايح وذلك بخلاف الشرع الشريف... وحيث يثبت ذلك شرعاً فيمتنعون عن ذلك ويقابلون عليه بما يستحقونه شرعاً أشد المقابلة"[1].

لكن أبرز الفرامانات التى تمنع شرب وتصنيع الخمور وتدمير أدوات التصنيع فى تلك الخمامير حال وجودها هو ذلك الفرمان الصادر فى ٢٣ شعبان سنة ١٢٠٥هـ/١٧٩١م من ديوان مصر المحروسة إلى جميع الأقاليم بما فيها الإسكندرية، ونص الفرمان هو[2]:

"صدر هذا الفرمان الشريف المطاع الواجب القبول والتشريف والأتباع من ديوان مصر المحروسة خطابا الي قدوة القضاة والحكام مولانا قاضي أفندى ثغر إسكندرية والسادات العلما والأشراف والأعيان وأغاة الحوالة وسردار مستحفظان ووكيل الجمرك وأغاة القلاع وكتخدا الحسبة وساير الحكام والأعيان والمتكلمين بالثغر نعلمهم ان من أعمال الأرازل والأراجيف والخمر والمسكرات تفشت بين الناس وأباحوها بالاستعمال فتأدى من استعمالها المصايب الكبرى، والخبايث الذى لا تحصى، ومنها واجب علي رقاب عباد الله المسلمين، كما أنه مغاير للأمور الدينية ومنها واجب علي كافة البرية كما قال الله تعالى: إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من أعمال

---

(١) سجلات محكمة الإسكندرية، س٢٨، ص١٢٥، ق٤٦ بتاريخ أواخر محرم ١٠٠٣هـ/١٥٩٤م.

(٢) سجلات محكمة الإسكندرية، س١٠١، ص٢٣١، ق٥٨٦ بتاريخ ٢٣ شعبان ١٢٠٥هـ/١٧٩١م.

الشـيطان فاجتنبوهـا لعلكـم تصـلحون، فاقتضى الحال أن جميع الخمامير بيوت الخمر المسكرات تكسروا مواعينها، ويكب ما فيها وتقفل أبوابها وتبنى ولم يكن بالبنـدر بعـد ذلـك إسـم خمـارة بيتعـاطوا منها الخمر، وبمقتضى ذلك أرسلنا لكم هذا الفرمان بصحبة المباشر حسين أغا، فعند إيصاله وتلاوته عليكم تبتدوا في إبطـال الخمـامير الكاينـة بالبنـدر، وكسـر مواعينهـا، وإفـراغ الخمـر، وقفـل أبوابهـا بالبنا بمعرفـة الشـرع الشـريف والمباشـر الأغا المومى إليه، كما هو متفق عليه بـديواننا السـعيد، بحضـور السادة العلماء والأمـراء والأعيـان والأوجاقـات السـبعة قولاً واحداً وأمراً نافذاً وحكما جازماً لا فيه تغييـر ولا تبـديل ولا نقـض ولا إبـرام، ويكـون ذلـك جاريـاً باقيـا علـي الـدوام بمشيئة الله المكرم فيجب عليكم السمع والطاعة وإجراء ما أمرناكم بـه وإعـلام لنا بإبطالـه حكـم أمرنـا المطـاع والعمـل بمضـــمونه، والحـــذر مـــن مخالفتـــه، وتسـجلوه بالسـجل المحفـوظ والكـف الكـريم والخـتم الفخـيم عليهمـا الاعتمـاد. حرر في ٢٣ شعبان سنة ١٢٠٥".

عقوبات السُكر وتعاطي الخمور

تثيـر مسـألة العقوبـات الكثيـر مـن التساؤلات لـدى الباحثين فـى القـوانيين العثمانيـة، فعلـى الـرغم مـن أن الدولـة العثمانيــة ظاهريــاً تؤكــد أنهــا تحتــرم الشريعة الإسلامية إلا أننا حينما نتفحص القوانيين العقابية وخاصـة تلك المتعلقـة بالحدود الشرعية، نرى أن الدولة اتخذت موقفاً نفعياً أكثر منه شرعياً فى معظم الأحيـان، وذلـك مـن خـلال اسـتبدال العقوبات المتعارف عليها فـى الشـريعة الإسـلامية كالجلـد مـثلاً بالغرامـة الماليـة عن كل جلدة كما سنرى.

فقد حدد القانون الذى وضعه السلطان العثمانى سليمان القانونى عقوبة شارب الخمر وعاصرها وبائعها بعـد إثبات ذلك بفرض غرامة قدرها أقجة واحدة عن كل ضـربتين[1]، وهـذا يعنـى أن يكـون إجمالى

(١) د. محمـد نـور فرحـات، التـاريخ الاجتمـاعى للقــانون فــى مصــر الحديثــة - العصــر العثمـانى، الهيئـة المصـرية العامـة للكتـاب، القاهرة ٢٠١٢، ص١٢٦.

الغرامة عن ثمانين جلدة وهى إجمالى العقوبة هى أربعون أقجة. بينما فرض عقوبة التعزير على من يحضر مجلساً لشرب الخمر ولم يشرب بغرامة قدرها أقجة واحدة عن كل ثلاث ضربات[1].

والتعزير هو جميع الأفعال المحرمة أو الآثمة، حتى لو لم تكن تشكل حدًا أو قتلًا أو ضررًا جسديًا، يعاقب عليها بموجب الشريعة الإسلامية، وبجوز للمسؤولين التنفيذيين والقضاة - حسب تقديرهم - أن يفرضوا عقوبات تصحيحية على أولئك الذين ارتكبوا مثل هذه الأفعال[2]. وكان مبدأ "التعزير" فى حد ذاته لا يعد خروجاً على القاعدة الشرعية، حيث يعطى سلطة واسعة لولى الأمر فى مواجهة الجرائم الجديدة الماسة بصالح المجتمع بما يتلائم معها من عقوبات، ولكن مع هذا لم يكن التعزير يسير وفق قاعدة تشريعية واضحة المعالم، بل كانت مسألة تقديرية للعقوبة التى توقع على العقوبة، والأخطر من ذلك أن سلطة التعزير قد نزعت من قاضى الشريعة وتولاها الموظفون العسكريون، مثل الوالى وجنود الإنكشارية تحت مسمى أهل العرف[3].

اختبارات السُكر

وكان السُكر وذهاب العقل هما الأساس الذى يعتد به القضاه والنظام القضائى فى مصر فى إصدار الحكم على متعاطى الخمر ونحوه، وكان لابد من اختبار حالة السكر من خلال شم رائحة الخمر فى الفم، ثم اختبار ذهاب العقل من خلال تصرفات الشخص أمام الشهود وأمام القاضى، وهذا ما سنلاحظه من خلال الوثائق المتعلقة بإقامة حد شارب الخمر خلال الفترة العثمانية.

وكان تطبيق حد الخمر لا يكفى فقط التلبس بشرب الخمر بل التأكد من السُكر عن طريق اختبار السُكر من خلال شم رائحة الخمر فى الفم، واعتراف الشخص نفسه بتعاطيه الخمر أو المُسك، أو شهادة الشهود بذلك. ففى ربيع الأول

---

(١)المرجع نفسه، ص١٢٦.

(2) Peters, Rudolph, *P. 66.*

(٣) د. محمد نور فرحات، المرجع السابق، ص١١٢.

مــن عــام ١٠٠٠هـ/١٥٩١م "قــبض الزينــى حمــودة بــن إبــراهيم الصوباشــى بثغــر إسكندرية على سيدة من سكان المدينة تدعى خديجة بنت مصطفى المعروف والدها بالراعى لأنها كانت: " سكرانة من خمر، ورائحة الخمر ظاهرة فى فمها"، فأحضرها السوباشى إلى قاعة محكمة الإسكندرية، واعترفت أمام القاضى بأن سـبب ذلـك هـو شـربها للبوظـة، فقـرر القاضى تنفيذ حد الخمر عليها[1]. فعلى الـرغم مـن أن البوظـة فـى المـذهب الحنفـى لا تعـد خمـراً إلا أن العبـرة هنـا كانت بالسُكر وليس وبشرب البوظة.

أما عبد العزيز بـن عطيـة القـواس مـن أهالى الجزيرة الخضراء بالإسكندرية فقد إدعى عليه الرايس عبد الرحمن أبو رسغ مــن رويســا (رؤســاء) الترســخانة، بأنــه:" يشرب الخمر والمسكر، وهو الآن سكران ويحصـل منـه الضـرر"، وشـهد الشـهود بسـكره، كمـا ثبـت سـكره بالمحكمـة مـن خــلال رائحــة الخمــر فــى فمــه، فقــرر القاضى إقامة حد الخمر عليه[2]، ونلاحظ هنا أيضاً اختبار السكر من خلال رائحة الخمر فى الفم، إضافة إلى شهادة الشــهود. هكــذا كانــت آراء المــذهب الحنفــي هــي المعتمــد عليهــا فــى المحاكم الشرعية فى مصر العثمانية، لإثبات تهمة شرب الخمر، عن طريق شم فم المتهم والتأكد من وجود رائحة الخمر لإثبات التهمة.

وفــي الإســكندرية (الثغــر) كــان أتبــاع قبــودان الإســكندرية ينوبــون عـــن الصوباشـي فـى ضبط الأشخاص الذين يتعاطون الخمر، ففـي عـام ١٠١٦هـ/١٦٠٨م حضـر الزينـي رمضان بـن عبـد الله تـابع كتخداه قدوة الأمرا بهرام بيك القابودان بالثغر للحاكم واخبره ان الثلاثة انفار كل مـن محمـد بـن عبيـد الفـلاح الحـوفي وحســن بــن حســن بــن طعيمــه البنــا وموسي بن طعيمه البنا يشربون الخمر بالمينا الغربية وانهم سكاري منه فتوجه معه جماعة عدول المحكمة الي المحل

---

(١) سجلات محكمة الإسكندرية، س٣٠، ص١٠٦، ق٢١٣ بتاريخ ٦ ربيع أول ١٠٠٠هـ/١٥٩١م.

(٢) سجلات محكمة الإسكندرية، س٢٩، ص٢٨٩، ق١١٣٢ بتاريخ ٤ شوال ١٠٠٠هـ/١٥٩٢م.

المذكور وكشفوا علي ذلك (التحقق من رائحة الفم) فوجدوا الجماعة المذكورين سكاري من الخمر فوضعوا عند الكتخدا استحفاظًا الي الصباح ثم سئلوا عن ذلك فاعترفوا بشربهم الخمر فوجه عليهم الحاكم الحد الشرعي حسب اعترافهم بذلك الاعتراف الشرعي[1].

حد السُكر

وكان حد الخمر يقام حتى المجموعات أو صحبة شرب الخمر دون النظر إلى عددهم، ففى عام ١٠١٦هـ/١٦٠٧م وصلت شكوى إلى قاضى محكمة الإسكندرية ليلاً من شخص يدعى الزينى رمضان بن عبد الله تابع بهرام بيك القابودان بالثغر، أن هناك مجموعة من ثلاثة أشخاص يشربون الخمر بالمينا الشرقى، فوجه القاضى مجموعة من عدول المحكمة إلى المكان المذكور فوجدهم سكارى من الخمر، فتم التحفظ عليهم لدي الكتخدا حتى الصباح، وفى الصباح تم استجوابهم عن حالة السكر فاعترفوا بشربهم للخمر، فقرر القاضى إقامة الحد عليهم[2]، وهنا لابد من ملاحظة أن القاضى أرسل شهوداً أو عدول المحكمة من طرفه ليقوموا بالتأكد من حالة السكر، كما أنهم اعترفوا بتناولهم للخمر مما يجعل القاضى مستريحاً فى إصدار حكمه بإقامة حد شارب الخمر عليهم.

---

(١) سجلات محكمة الإسكندرية، س٤٢، ص١٦٧، ق٥٤٦ بتاريخ ٣ شوال ١٠١٦هـ/١٦٠٨م.

(٢) سجلات محكمة الإسكندرية، س٤٢، ص١٦٧، ق٥٤٧ بتاريخ ٣ شوال ١٠١٦هـ/١٦٠٨م.

اسم الشخص المقام عليه حد الخمر	المكان	التاريخ	السجل والصفحة والوثيقة
خديجة بنت مصطفى الراعى	داخل الثغر	١٠٠٠ه/١٥٩١م	س٣٠، ص١٠٦، ق٢١٢
عبد العزيز بن عطية القواس	الجزيرة الخضراء	١٠٠٠ه/١٥٩١م	س٢٩، ص٣٨٩، ق١١٣٢
على بن محمد مشطة المغربى الكيال	خط باب السدرة	١٠٠٠ه/١٥٩١م	س٣٠، ص١٦٣، ق٣٥٨
جابر بن أبى بكر السكندرى القصاص	شرق الثغر	١٠٠٠ه/١٥٩١م	س٢٩، ص٣٩١، ق١١٣٨
على بن منصور برجاس البولاقى	الحصار الأشرفى	١٠١٦ه/١٦٠٧م	س٤٢، ص٢٤٠، ق٧٨٣
أحمد بن عيسى الشهير بابن رضية	سوق التجار بباب البحر	١٠١٦ه/١٦٠٧م	س٤٢، ص٢٣٠، ق٧٤٠
حامد بن عبد الله الجزار	اسكندرية	١٠١٦ه/١٦٠٧م	س٤٢، ص٢٣٥، ق٧٥٨
محمد بن عبيد الفلاح الحوفى	المينا الغربى	١٠١٦ه/١٦٠٧م	س٤٢، ص١٦٧، ق٥٤٦
حسن بن حسن بن طعيمة البنا	المينا الغربى	١٠١٦ه/١٦٠٧م	س٤٢، ص١٦٧، ق٥٤٦
موسى بن طعيمة البنا	المينا الغربى	١٠١٦ه/١٦٠٧م	س٤٢، ص١٦٧، ق٥٤٦
محمد بن لويفة	سوق الجزيرة	١٠٥٣ه/١٦٤٣م	س٤٧، ص١٢٥، ق٣٣٨

قائمة (١) توضح الأشخاص الذين تم رصدهم من خلال الوثائق ممن حكم عليهم بحد الخمر بمدينة الإسكندرية خلال العصر العثمانى

ومن خلال الجدول السابق الذي يوضح أسـماء الأشـخاص الـذين تـم حصـرهم وأقيم عليهم حد الخمر يتضح لنا بعض الملاحظات، وأهمها؛ **أولاً**: أن معظم من أقـيم علـيهم يحملـون ضـمن أسـمائهم حرفاً متنوعـة مـنهم الكيـال، والقصـاص، والجزار، والبنا، والقواس، أى أنهم ينتمون إلـى طوائـف حرفيـة، لـيس مـن بيـنهم مماليك أو عثمانيين من الطبقة الحاكمة فى المدينة، مما يرجح أن حد الخمر كان يقـام علـى أولئـك السـكارى مـن أهـل الحـرف والفقـراء، لأن الدولـة العثمانيـة وضـعت قيـوداً علـى تطبيـق الشـريعة الإسـلامية كـان يسـتثنى منـه الهيئـة العسكرية الحاكمة، وذلك بإخراجهم من ولايـة القضاء الشرعى[1]، لهذا كـان مـن الصعب تنفيذه علـى شخصيات متنفذة أو ذات نفـوذ قـوى، ربمـا لأنهـم غالـب المتعاطين للخمر منهم يتعاطون الخمر داخل قصورهم ومنازلهم.

ثانياً: أن معظم الحالات التى أقيم عليها حـد الخمـر تـم رصـدها وجـدت فـى السجلات الأقـدم أى التـى تنتمـى إلـى القرنين السادس عشر والسابع عشر أو بالتحديـد الفتـرة التـى كـان فيهـا السوباشـى هـو المنـوط بهـم تعقـب المتعـاطين للخمـر وتقـديمهم للقاضـى وتنفيـذ الحـد علـيهم، ولـم نعثـر فيمـا اطلعنا عليه من وثائق القرن الثامن عشر على وثائق تدل على إقامة حد الخمر، وربما يرجع ذلك إلى أسباب منها، ما هو مـرتبط بضـعف قبضـة الدولـة العثمانيـة علـى مصـر خـلال القـرن الثـامن عشـر وسيطرة المماليك على مقاليد السلطة، وانتقـال سـلطة تنفيذ العقوبات الخاصة بحـد الخمـر إلـى أغـا الإنكشـارية والـذى يغلـب الصـالح الماديـة علـى تطبيـق الشريعة، لأن أغا الإنشكارية بات مسئولاً عـن الخمـارات وأمـاكن الـدعارة ويحصـل على دخل وعائد من وراء ذلك.

ففـي وثيقـة مؤرخـة بعـام بشـهر رجـب ٩٦١هـ/١٥٥٤م أحضـر محمـد رمضـان السوباشي شخصًا يسمي أحمد أبو الخير الشبلي و ذكر أن جماعـة مـن الفسـقة كـانوا بمنـزل سـكنه مـع إمـراة يقـال لهـا مسعودة المغربيـة المقبـوض عليهـا الآن

(١) د. محمد نور فرحات، المرجع السابق، ص١٠٣.

يتعاطون شرب الخمر و انه لما وقع القبض علي بعضهم هرب أحمد المذكور وأنه كان هو وزوجته جالسين معهم يتعاطيان ما كانوا يتعاطونه، فسئل عن ذلك فأنكر وقال: أنا كنت مريض وعزمت علي جماعة بطعام وما ندري ما صنعوا وحضر الشهود الذين شهدوا بأنهم رأوا احمد والصحبة والخمر بدار سكنه، ولكنهم لم يروا زوجته وذكر السوباشي المذكور أن له عادة يجمع الجموع بدار سكنه وأنه أجهر بالثغر على فعل ذلك فوضع بالسجن"[1]. هكذا كان عدم التلبس بشرب الخمر لا يضع المتهم بشرب الخمر تحت طائلة الحد، وإنما يوضع فى السجن، حيث نري هنا أن القاضى أمر بسجن صاحب البيت، دون أن يقيم عليه أو على ضيوفه حد الخمر رغم شهادة الشهود.

على أية حال، مما سبق اتضح لنا مدي المرونة التى كانت تتعامل بها السلطات العثمانية، مع انتشار ظاهرة تعاطي المسكرات، وذلك لأسباب يتعلق بعضها بانخراط الدولة العثمانية فى النظام الاقتصادي العالمي، ومعاهدات الامتيازات الأجنبية والتنوع الديني للرعايا العثمانيين داخل ولاياتها بما فيها كما أسلفنا الإسكندرية العثمانية، التى كانت تتمتع بوضع مميز نظراً لكونها مدينة متنوعة يسكنها مصريون ورعايا عثمانيون وأجانب. وعلي هذا تم استبدال عقوبة الجلد فى حد الخمر، فكانت عقوبة السجن هى الشائعة، وعقوبة الغرامة فى بعض الأحيان، وهي تعكس التحولات فى نظام العقوبات العثمانى، الذى كان هو الآخر انعكاسا لانخراطها فى اقتصاد عالمي، يحتم عليها وجود وكلاء تجاريين أوربيين فى الولايات العثمانية.

(1) سجلات محكمة الإسكندرية، س٢، ص٧٩، ق٢٦٩ بتاريخ ٤ رجب ٩٦١هـ/١٥٥٤م.

المصادر والمراجع

أولا: الوثائق:

دار الوثائق القومية بالقاهرة: سجلات محمكمة الإسكندرية

سجلات محكمة الإسكندرية، س٢٨، ١٠٠٤هـ/١٥٩٣م.

سجلات محكمة الإسكندرية، س١٤، ٩٨٧هـ/١٥٧٩م.

سجلات محكمة الإسكندرية، سجل٧٥، ١١٤٨ هـ/١٧٣٦م.

سجلات محكمة الإسكندرية، سجل ٢٨، ١٠٠٢هـ/١٥٩٤م.

سجلات محكمة الإسكندرية، س٥٢، ١٠٨٢هـ/١٦٧٢م.

سجلات محكمة الإسكندرية، س٢٨، ١٠٠١هـ/١٥٩٣م.

سجلات محكمة الإسكندرية، س٢٨، ١٠٠١هـ/١٥٩٣م.

سجلات محكمة الإسكندرية، س١٠١، ١٢٠٥هـ/١٧٩١م.

سجلات محكمة الإسكندرية، س٣٠، ١٠٠٠هـ/١٥٩١م.

سجلات محكمة الإسكندرية، س٢٩، ١٠٠٠هـ/١٥٩٢م.

سجلات محكمة الإسكندرية، س٤٢، ١٠١٦هـ/١٦٠٨م.

سجلات محكمة الإسكندرية، س٢، ٩٦١هـ/١٥٥٤م.

سجلات محكمة باب سعادة والخرق

دار الوثائق القومية، سجلات محكمة بابى سعادة والخرق، س٧٢٦، ٩٧٠هـ/١٥٦٢-٦٣ م.

المراجع العربية:

القرآن الكريم.

ابن إياس، بدائع الزهور فى وقائع الدهور، تحقيق محمد زيادة، الجزء الخامس، القاهرة ١٩٨٤.

أحمد شلبى بن عبد الغنى، أوضح الإشارات فيمن تولى مصر القاهرة من الوزراء والباشات، تحقيق د. عبد الرحيم عبد الرحمن، مكتبة الخانجى، القاهرة ١٩٧٨.

إلهام ذهنى، مصر فى كتابات الرحالة والقناصل الفرنسيين فى القرن الثامن عشر، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة ١٩٩٢.

أمين مصطفى عفيفى عبد الله، تاريخ مصر الاقتصادى والمالى فى العصر

الحـديث، مكتبـة الإنجلـو المصـرية، ط٣ القاهرة ١٩٥٤.

أمـين، أحمـد، ضـحى الإسـلام، المجلـد الأول، لجنـة التـأليف والترجمـة والنشـر، القاهرة ١٩٣٣.

أمـين، أحمد، قـاموس العـادات والتقاليـد والتعابير المصرية، تقديم ومراجعة محمد الجوهرى، القاهرة ٢٠٠٧.

الأنصـاري، ابـن منظـور (ت: ٧١١ ه)، لسـان العرب، دار المعارف، القاهرة (د/ت).

ب.س. جيـرار، وصـف مصـر، ترجمـة زهيـر الشـايب، مكتبـة الخـانجى، ط١، القـاهرة ١٩٧٨.

ب.س. جيـرار، وصـف مصـر، ترجمـة زهيـر الشـايب، مكتبـة الخـانجى، ط١، القـاهرة ١٩٧٨.

بهنسي، أحمد فتحـى، الخمر والمخدرات فـى الإسـلام، مؤسسـة الخليج العربـي، القاهرة ١٩٨٩.

حامد أنور الجزيري، حد السُكر، المركز القومي للاصدارات القانونية، القاهرة ٢٠١١.

حريتانى، سليمان، الخمرة وظاهرة انتشار الحانات ومجالس الشراب فـى المجتمع العربـى الإسـلامى، دار الحصـاد للنشـر، دمشق، ١٩٩٦.

د. محمـد نـور فرحـات، التاريخ الاجتماعى للقـانون فـى مصـر الحديثـة – العصـر العثمانى، الهيئة المصرية العامـة للكتاب، القاهرة ٢٠١٢.

ريمـون، أندريـه، الحرفيـون والتجـار فـى القـاهرة فـى القـرن الثـامن عشـر، الجـزء الثـاني، ترجمـة ناصـر إبـراهيم، وباتسـي جمال الـدين، المجلـس الأعلـى للثقافـة، القاهرة ٢٠٠٥.

الشيخ حسن ابن إبراهيم بن حسن بن على الزيلعى الجبرتى العقيلى الحنفى (١١١٠-١١٨٨ه)، الأقوال المعربة عن أحوال الأشربة، صورة مخطوط بمكتبة جامعة الملك سعود بالرياض، رقم ٣٨٢ فقه حنفى، تصنيف ٢١٧،٤ ز، ومتاحة على الرابط التالى:
http://makhtota.ksu.edu.sa/makhtota/3540/1

الشـيخ عبـد الـرحمن الجزيـري، مختصـر الفقـه علـى المـذاهب الاربعـة المجلـد الأول، دار القلم بيروت، ١٩٩٢.

صلاح أحمد هريدي، الجاليات فى مدينة

الإسـكندرية فـى العصـر العثمـانى، دار عـين للدراسـات والبحـوث الإنسـانية، ط١، القاهرة ٢٠٠٤.

عبـد الحميـد سـليمان، مقاطعـة الخـردة وتوابعها، ضمن كتاب: الطوائف المهنية والاجتماعيـة فـى مصـر فـى العصـر العثمانى، تحرير ناصر إبراهيم، مطبوعات مركـز البحـوث والدراسـات الاجتماعيـة، جامعة القاهرة، القاهرة ٢٠٠٣.

عبـد الـرحمن الجبرتـى، عجائـب الآثار فـى التـراجم والأخبـار، الجـزء الأول، مطبعـة الأنوار المحمدية، القاهرة د.ت.

عبـد اللـه عثمـان، ناصـر، الحركـة العلميـة فـى مصـر فـى القـرن السـابع عشـر، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة ٢٠٠٦.

عون المعبود على شرح سنن أبي داود: أخرجــه أبــو داود فــي ســننه، كتــاب: الأشربة، باب: العصير للخمر.

الفيـروز آبـادي، مجـد الـدين محمـد بـن يعقـوب (ت: ٨١٧هـ)، القـاموس المحـيط، دار الحديث، القاهرة ٢٠٠٨.

قـانون نامـة مصـر، ترجمـة دكتـور أحمـد فؤاد متولى، القاهرة ١٩٧٦.

جلبـى، أوليـا، سـياحتنامة مصـر، ترجمـة محمـد علـى عـونى، دار الكتـب والوثـائق القومية، القاهرة ٢٠٠٣.

لـين، إدوارد ولـيم، المصـريون المحـدثون عاداتهم وتقاليدهم، ترجمة سهير رسوم، مكتبة مدبولى، القاهرة ١٩٩٩.

محمد عفيفي، الأقباط في العصر العثماني ١٥١٧-١٧٩٨، القاهرة ١٩٨٩.

نلـلـى حنـا، مصـر العثمانيـة والتحـولات العالميـــة: ١٥٠٠ - ١٨٠٠ ترجمـــة مجـــدي جرجس، المركز القومي للترجمة، القاهرة ٢٠١٦.

المراجع الأجنبية:

Maurits H. van den Boogert, Capitulations And The Ottoman Legal System, Qadis, consuls And Beraths In The 18th Century (Studies in Islamic Law and Society, Studies in Islamic Law and Society, Brill 2005.

Peters, Rudolph, Crime and Punishment in Islamic law, Theory and Practice from the Sixteenth to the Twenty-first Century, Cambridge University Press, 2005.

دور الأمم المتحدة في رعاية الحراك السياسي في ليبيا ١٩٤٩-١٩٥١م
(مسالة الدستور أنموذجاً)

د. جميلة مفتاح الجنزوري
JAMEELAH.MIFTAH. ALJANZOURI
أستاذ مساعد Assistant.Professor
جامعة بنغازي
Benghazi University

الملخص:

بعد هزيمة إيطاليا في الحرب العالمية الثانية أمام قوات الحلفاء عام ١٩٤٣م خسرت إيطاليا مستعمراتها في أفريقيا، إلا أنها ظلت من الناحية القانونية تتمتع بالسيادة على جميع مستعمراتها ومنها ليبيا التي لم تمنحها حق الحكم الذاتي الذي وعدتها به بريطانيا أثناء الحرب، بحجة عدم تصفية الوضع مع إيطاليا بعقد معاهدة الصلح، وبذلك انتدبت بريطانيا على إقليمي برقة وطرابلس، وفرنسا على إقليم فزان تحت ذريعة ضروريات الحرب واحتياجات الأهالي ولم توقع إيطاليا معاهدة الصلح مع الدول المنتصرة إلا في سبتمبر ١٩٤٧م، حيث تنازلت عن ليبيا، وعقدت سلسلة من الاجتماعات بين الدول الكبرى (الولايات المتحدة – روسيا- فرنسا - بريطانيا) بقصد تحديد مستقبل المستعمرات الإيطالية السابقة، حيث تم الاتفاق بينهما على نظام الوصاية ولكن حدث خلاف كبير بينهم حول شكل الوصاية والدولة التي يُعهد إليها بتولي السلطة الإدارية في ليبيا.

وبعد فترة من المناورات السياسية بين الدول

الكبرى التي حاولت كل طرف منها جذب الموقف لصالحها لم يسهل حل المسألة الليبية،لذلك سلّموا القضية الليبية إلى هيئة الأمم المتحدة وبدأت مناقشتها في أبريل ١٩٤٩م، فتوالت الدول الأجنبية في تقديم مقترحاتها أمام الأمم المتحدة التي تنص على الاستقلال ليبيا في فترات متفاوتة،ثم جاءت الولايات المتحدة بخطة "الوصاية المشتركة" تحت إشراف الأمم المتحدة، وقد عملت الدول الكبرى على الملف الليبي في اتفاقيات سرية بغية تمريرها داخل أروقة الأمم المتحدة، فقُدم مشروع بيفن – سفورزا للتصويت عليه وتمريره وقد نجح الليبيين في إسقاطه، و صوتت الجمعية العامة على مقترح أخرى ينص على منح ليبيا استقلالها قبل يناير ١٩٥٤، ونص القرار الذي اتخذته هيئة الأمم المتحدة على وضع دستور للدولة الوليدة تقره جمعية وطنية تضم ممثلين عن الأقاليم الثلاثة، وتعيين مفوض من الأمم المتحدة للمساعدة في صياغة الدستور وإنشاء حكومة مستقلة.

وقد كلف المفوض أدريان بلت مندوب من الأمم المتحدة، بترأس لجنة لصياغة الدستور ومعه فريق من الليبيين والأجانب،وقد بذل أعضاء الجمعية الوطنية جهوداً مضنية حتى أقروا الدستور، وتغلبوا على كلّ المؤامرات والدسائس التي هدفت إلى إفشال عملهم م بغرض منع حدوث الاستقلال وبقاء ليبيا تحت وصاية دولية، ولولا براعة وحكمة الملك محمد إدريس السنوسي وإخلاص أعضاء الجمعية لانفرط العقد وما تحقق الاستقلال، وقد قدم أدريان بلت تقريره إلى الجمعية العامة للأمم المتحدة التي أقرت الدستور تمهيداً لتحقيق الحلم وإعلان استقلال ليبيا في ٢٤ ديسمبر ١٩٥١م.

تهدف هذا الورقة إلى تسليط الضوء على دور الأمم المتحدة في تقريب وجهات النظر بين القوى السياسية في ليبيا، وما اسفر عنه من مباحثات وحراك من أجل حصول ليبيا على الاستقلال، واعتراف الدول الكبرى بها وانعكاسات ذلك الأوضاع السياسية في ليبيا، كما تسلط هذه الورقة الضوء على هذا الدستور الذى يُعد من الدساتير المتطورة قياساً بالدساتير في الدول العربية الأخرى، لاسيما فيما يتعلق بالأسس الديمقراطية، وتكوين مؤسساتها إلا أنه مع ذلك لا يخلو من نواقص كان من أبرزها افتقاره إلى النصوص التي تؤكد على التعددية الحزبية وتكوين الاحزاب وبيان دورها في الحياة السياسية، ولتوضيح الدور التي لعبته الأمم المتحدة في

رعايــة الحــراك السياســي ولاســيما مســالة تأسيس الدستور الليبـي وصياغة مسودته تم طـرح العديـد مـن التسـاؤلات الجوهريـة التـي يمكـن تقسـيم محـاور الموضـوع مـن خلالهـا وهي كالاتي:

-كيـف ظهـرت قضـية اسـتقلال ليبيـا علـى مسرح الأحداث الدولية، وماهي الظروف التي اجبـرت الـدول الكبـرى علـى دخـول فـي مفاوضات مع الزعامات المحلية والعربية من أجل نيل الاستقلال ؟

- كيـف تـم تأسـيس المجلـس الاستشـاري للأمـم المتحـدة وما دوره فـي نشـأة الدستور الليبي ؟

- ما الدور الذي لعبته الجمعية الوطنية في إقرار الدستور. وهل نجحت في اعداده في هذا الوقت القياسي وفـي ظل تلك الظروف الصعبة ؟

- مـاهي أهـم المشـاكل والصـعوبات التـي تعرضـت لهـا الجمعيـة الوطنيـة أثنـاء اعـداد لدستور ؟وهل استطاعت التغلب عليها ؟

- ما دور الـذي لعبـه منـدوب الأمـم المتحـدة بليبيـا (أدريـان بلـت) فـي مسـاعدة الجمعيـة الوطنيـة لتجـاوز نقـاط الخـلاف بـين مؤسسـي الدستور ؟

-هل مُرست على تلك الجمعية أي ضغوطات محلية أو دولية باي شكل من الاشكال لعرقلة إعدادها لمسودة الدستور ؟

-كيـف تأسسـت فكـرة الدسـتور؟ وماهي أهـم بنوده ؟ وهـل كـان للمسودة الدستور مزايا أو عيوب ؟

– هـل كـان للقيـادات المحليـة والعربيـة دوراً فعـال فـي مسـألة صـياغة الدسـتور؟ و مـا موقـف الـدول الكبـرى وجامعـة الـدول العربيـة من الدستور الليبي ؟

وفـي هـذه الورقـة البحثيـة أيضـا سيتم دراسـة دور الأمـم المتحـدة فـي صـياغة مسـودة الدسـتور مـع ذكـر الأحـداث التـي صـاحبت المفاوضات وانعكاساتها على قضية استقلال ليبيا. وسنعتمد فـي إعـداد هـذه الورقـة علـى عـدد مـن التقارير والوثائق إلـى جانـب المراجـع والدوريات.

الكلمـات الافتتاحيـة: الحـراك، السياسـي، فـي ليبيا، مسألة، الدستور.

Summary:

After Italy's defeat in World War II against the Allied forces in 1943, Italy lost its colonies in Africa, but it remained legally sovereign over all its colonies, including Libya, which did not grant it the right of self-rule that it had promised during the war, under the pretext that the situation with it would not be settled by concluding a treaty Peace, and thus Britain mandated the regions of Cyrenaica and Tripoli, and France over the Fezzan region under the pretext of the necessities of war and the needs of the people, and Italy did not sign the peace treaty with the victorious countries until September 1947, when it ceded Libya and held a series of meetings between the four major countries (the United States - Russia - France - Britain) with the intention of determining the future of the former Italian colonies, where they agreed on the guardianship system, but there was a major dispute between them about the form of guardianship and the state that is entrusted with the administrative authority in Libya.

After a period of political maneuvering between the major countries, each of which tried to attract the situation in its favor, it did not facilitate the solution of the Libyan issue, so they handed over the Libyan issue to the United Nations and began discussing it in April 1949, so the foreign countries continued to submit their proposals before the United Nations that stipulated the independence of Libya In varying periods, then the United States came up with a "joint trusteeship" plan under the supervision of the United Nations, and the major countries worked on the Libyan file in secret agreements in order to pass it within the corridors of the United Nations, so the Bevin-Sforza project was submitted to vote and passed, and the Libyans succeeded in bringing it down, and The General Assembly voted on another proposal to grant Libya its independence before January 1954, and the resolution taken by the United Nations provided for the establishment of a

constitution for the nascent state to be decided by a National Assembly comprising representatives of the three regions, and the appointment of a UN Commissioner to assist in drafting the constitution and establishing an independent government

Commissioner Adrian Pelt was assigned a delegate from the United Nations to chair a committee to draft the constitution, along with a team of Libyans and foreigners. Had it not been for the ingenuity and wisdom of King Muhammad Idris al-Senussi and the sincerity of the members of the Assembly, the decade would not have ended and the independence would not have been achieved. Adrian Pelt submitted his report to the United Nations General Assembly, which approved the constitution as a prelude to realizing the dream and declaring the independence of Libya on December 24, 1951 AD

This paper aims to shed light on the role of the United Nations in converging the views between the political forces in Libya, and the resulting discussions and movement for Libya's independence, recognition by the major powers and the implications of this for the political situation in Libya. This paper also highlights the This constitution, which is considered one of the advanced constitutions compared to the constitutions in other Arab countries, especially with regard to democratic foundations and the formation of its institutions. However, it is not without shortcomings, most notably its lack of texts that emphasize partisan pluralism and the formation of parties and an explanation of their role in political life, and to clarify The role played by the United Nations in sponsoring the political movement, especially the issue of establishing the Libyan constitution and drafting it.

-How did the issue of Libya's independence appear on the scene of international events, and what were the circumstances that forced the major countries to enter into negotiations with

local and Arab leaders in order to gain independence؟

- How was the United Nations Consultative Council established and what is its role in the emergence of the Libyan constitution؟

What role did the National Assembly play in approving the constitution? Did you succeed in preparing it in this record time and under these difficult circumstances؟

- What are the most important problems and difficulties faced by the National Assembly during the preparation of a constitution, and was it able to overcome them؟

- What role did the United Nations delegate in Libya (Adrian Pelt) play in helping the National Assembly to overcome points of disagreement between the founders of the constitution؟

-Has any local or international pressure been applied to that association in any way to obstruct its preparation of the draft constitution؟

How was the idea of the constitution established? What are its most important clauses? Was the draft constitution advantages or disadvantages؟

Did the local and Arab leaders have an effective role in the matter of drafting the constitution? And what is the position of the major powers and the Arab League on the Libyan constitution؟

In this research paper, the role of the United Nations in drafting the constitution will also be studied, with mention of the events that accompanied the negotiations and their repercussions on the issue of Libya's independence. In preparing this paper, we will rely on a number of reports and documents, as well as references and periodicals.

Keywords : The movement, the political, in Libya, the issue, the constitution

أولاً: قضية استقلال ليبيا على مسرح الأحداث السياسية المحلية والدولية.

برزت القضية الليبية في شهر مايو ١٩٤٣م إثر انحدار قوات المحور وانتقال العمليات الحربية من القارة الأفريقية إلى الأوروبية ومنذ ذلك الوقت ألتقت الدول المنتصرة في الحرب والسيطرة على المستعمرات الإيطالية السابقة في أفريقيا بما في ذلك ليبيا، وأحالت هذه المسألة للتداول في المؤتمرات الدولية فنقل موضوع المستعمرات لمجلس وزراء الدول الكبرى الذي تقرر عقده بلندن في سبتمبر ١٩٤٥م حيث جددت روسيا المطالبة بالوصاية على ليبيا، وقد أثار ذلك اعتراضاً شديداً لدى بريطانيا وفرنسا التي ترى أن وجود روسيا بطرابلس يهدد مصالحهما وعندما أحيل الموضوع للمرة الثانية إلى جلسة وزراء خارجية الدول الكبرى الأربعة الذي انعقد في باريس ١٩٤٦م عدلت روسيا موقفها بإشراك إيطاليا مع الدول الكبرى في توزيع المستعمرات الإفريقية فيما بينها[١].

ولم تعترض الولايات المتحدة على مبدأ اقتسام الوصاية بين الدول الكبرى بشرط أن تمارس هذه الدول وصاية جماعية على المستعمرات الايطالية السابقة وفي حالة قبلوا شركاؤها الاقتراحات الروسية فهي تشترط تحديد موعد لإنهاء الوصاية، ولذلك لم تتوصل تلك الدول إلى رأي موحد حول مصير المستعمرات الايطالية في أفريقيا، لان تلك الدول كانت تطمح إلى تأخير حل القضية من أجل كسب الوقت لتدعيم موقفها[٢]، وفي ظل تلك الخلافات تقرر أن يعاد النظر في مستقبل تلك المستعمرات بعقد معاهدة الصلح مع إيطاليا فإذا لم يتم هذا الاتفاق خلال سنة يتم رفع القضية إلى الأمم المتحدة[٣]، وقد تزامن مع هذا المؤتمرات أرسل جامعة الدول العربية وبعض الدول الأخرى مذكرات تؤكد أحقية ليبيا في الاستقلال، حيث أثيرت قضية ليبيا مرة أخرى في مؤتمر ملوك ورؤساء الدول العربية المنعقد في انشاض ١٩٤٦م الذين اصدروا في ختام توصياتهم للجامعة العربية لمساعدة ليبيا في نيل استقلالها.[٤]

---

(١) - صلاح العقاد، ليبيا المعاصرة، معهد البحوث والدراسات العربية، (القاهرة،١٩٧٠م)، ص٦٤.

(٢) -ن.إ.بروشين، تاريخ ليبيا من نهاية القرن التاسع عشر حتى عام ١٩٦٩م، ترجمة عماد حاتم، ميلاد المقرحي، منشورات مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، (طرابلس، ٢٠٠٥م)، ص١,٢٨٣.

(٣) - صلاح العقاد، المرجع السابق، ص ٦٥.

(٤) -تقرير مفصل عن جهود ومهمة وفد الهيئة التأسيسية الليبية لدى رؤساء وفود الدول =

وفي سنة ١٩٤٧م كانت مباحثات الصلح التي تقرر اجراؤها مع ايطاليا،هي الفرصة الوحيدة التي تستطيع حكومة روما خلالها أن تعرض رأيها في قضية مستعمراتها، وقد بنت حجتها على أساس أن الحكومة الايطالية من الدول الحليفة، وليست من الدول المعادية التي تعاقب بانتزاع مستعمراتها، ومما زاد الأمر تعقيداً أن ايطاليا كانت تأمل بعد أن انضمت للحلفاء بأن تتنازل بريطانيا وفرنسا عن مصالحهما، وأن تقدم لها الولايات المتحدة الدعم المباشر، لولا أن هذه الدول اختلفت حول مستقبل مستعمراتها وكيفية توزيعها إلى مناطق نفوذ بينها.(١)

وما أن تقرر عقد الصلح مع إيطاليا قدمت مصر مذكرة طالبت فيها الوصاية علي ليبيا إلا أن الدول الكبرى لم تلتفت إلى تلك المذكرة، وفي نفس الوقت قدمت الجامعة العربية مذكرة أكدت فيها حق الشعب الليبي في تقرير مصيره عن طريق الاستفتاء، ولضمان مصداقية هذا الاستفتاء يجب أن يتم تحت إشراف الأمم المتحدة والجامعة العربية(٢)، وهددت المذكرة بأن عودة أي شكل من اشكال النفوذ الإيطالي سيقابل بالمقاومة المسلحة بواسطة الشعب الليبي تسانده الجامعة العربية، ولهذا استبعد موضوع المستعمرات من مؤتمر الصلح، وهنا برز دور الجامعة العربية بمناسبة تكوين لجنة التحقيق الرباعية التي ينظر بها استقصاء الحقائق في المستعمرات السابقة، وكانت هذه اللجنة قد شكلت بواسطة الدول التي عقدت الصلح مع ايطاليا وكلفت ببحث الحقائق دون تقديم توصيات محددة على أن تناقشها الدول التي اشتركت في معاهدة الصلح.(٣)

وفي هذا الجو المليء بالخلافات السياسية وصلت إلى طرابلس لجنة تحقيق الرباعية المتحيزة لمصالح الدول الأوروبية وقد بدأت أعمالها بين شهري مارس ومايو سنة ١٩٤٨م بدعوة جميع الأحزاب والطوائف لعرض وجهت نظرهم وراعت في ذلك تمثيلها لكافة الاتجاهات التي تسيطر على الحياة السياسية في البلاد، كما زارت اللجنة إقليمي برقة وفزان و سجلت آراء كل المناطق التي قامت

=

العربية،يناير -فبراير ١٩٥١م،مطبعة التقدم (القاهرة، د.ت) ص١

(١)- بروشين، المصدر السابق،، ص٣٠٠.

(٢) - جميل عارف، مذكرات عزام السرية، المكتب =

=

المصري الحديث، (القاهرة، د.ت)، ص ٢٨٦.

(٣) - صلاح العقاد، المرجع السابق،، ص٧٥.

بزيارتها[1]، وبالرغم من اختلاف توجهات القيادات السياسية داخل أقاليم ليبيا الثلاثة من ناحية، وتفاوت مطالب الشعب الليبي من ناحية أخرى فإن الجميع طالبوا بالحرية والاستقلال، وإن اختلفوا في مسألة الوحدة نظراً لتباين آراء الزعماء حول مسألة الإمارة السنوسية على ليبيا بأكملها، حيث طالب الطرابلسيون بالوحدة والاستقلال وعضوية ليبيا في جامعة الدول العربية، أما أهل برقة فاطلبوا بالاستقلال برقة التام،وبأمارة الأمير إدريس السنوسي كشرط للوحدة في حين طالب أهل فزان بالوحدة و الاستقلال، ألا إن تصويت الشعب الليبي أمام لجنة التحقيق قد أكد إجماعهم على الوحدة والاستقلال ورفضهم لأي للدول الكبرى في شئون البلاد بعد أن اتضحت لهم مطامعهم في تقسيم ليبيا.[2]

وأخيرا أصدرت لجنة التحقيق الرباعية في شهر يوليو ١٩٤٨ م تقريرها الختامي المخيب لآمال الليبيين باعتبار ليبيا ليست مؤهله للاستقلال السياسي والاقتصادي الذي يمكنها من الاعتماد على نفسها، مما يتطلب تقديم المعونة الأجنبية من قبل الدول الكبرى التي تسعى لتقسيم البلاد[3]،وقد قابل الشعب الليبي قرارات لجنة التحقيق بالغضب بعد أن اشارت اللجنة إلى تمسك إيطاليا بطرابلس وفرنسا بفزان وبريطانيا ببرقة،و بما أن الدول الكبرى لم تتفق على التفاصيل المتعلقة بمستقبل المستعمرات الأخرى فقد تقرر نقل القضية إلى الأمم المتحدة[4].

وقد ظهر التنافس واضح بين الدول الكبرى على ليبيا مرة أخرى، منذ أن بدأت اجتماعات المنظمة الأمم المتحدة لمناقشة الوصاية الدولية عليها، حيث سيطرت فكرة تقسيم ليبيا إلي مناطق نفوذ على تلك الدول لتحقيق مصالحها، فقد تم تعديل الاقتراح البريطاني من قبل مصر وفرنسا بتشكيل لجنة من أحد عشر عضواً للنظر في طلبات الشعوب الخاضعة للاستعمار الإيطالي ورغبتها في تقرير مصيرها، وكان الموقف المصري واضحاً

(١) - سامي الحكيم، استقلال ليبيا بين جامعة الدول العربية والأمم المتحدة، ط٢، مكتبة الانجلو المصرية، (القاهرة،١٩٧٠)، ص٦٥-٧٤.

(٢)- مجيد خدوري، ليبيا الحديثة دراسة في تطورها السياسي، دار الثقافة (بيروت، ١٩٦٦م) ص ١٤٤.

(٣) - جون رايت، تاريخ ليبيا منذ أقدم العصور، ت عبد الحفيظ الميار وأحمد اليازوري، دار الفرجاني، (طرابلس،١٩٧٢م) ص ١٨٤.

(٤) - أمال السبكي، استقلال ليبيا بين هيئة الأمم المتحدة وجامعة الدول العربية ١٩٤٣-١٩٥٢م، منشورات مدبولي، (القاهرة، ١٩٩٠م)ص ٢٦.

منذ البداية في قضية وحدة ليبيا واستقلالها، حيث أكد أحمد خشبة المندوب المصري في هيئة الأمم المتحدة في جلسة يوم ١٩ إبريل ١٩٤٩م على استقلال ليبيا وطالب بإشراك الدول العربية في إدارتها[١].

فشهدت أروقة الأمم المتحدة صراعاً شرساً وتبيان ملحوظ في وجهات النظر عقب عرض قضية ليبيا،ونظراً لأهمية ليبيا الاستراتيجية بالنسبة للدول الأوروبية و روسيا والولايات المتحدة لم تستطيع الوصول إلى اتفاق نهائي يرضى جميع الأطراف، وبالرغم من ذلك لم تفقد ايطاليا الأمل في استرجاع بعض مستعمراتها فكونت وزارة للشؤون الأفريقية، وظلت تسعى في أروقة الأمم المتحدة من جهة و مع الحكومة البريطانية من جهة أخرى حتى ظفرت في النهاية باتفاق بين وزير خارجيتها (سفورزا) وبين (بيفن) وزير خارجية بريطانيا،. وحاولت بريطانيا تمرير مشروعها مع إيطاليا الذي يهدف إلى تقسيم ليبيا[٢]، حيث جاء في هذا الاتفاق إعلان استقلال ليبيا بعد عشر سنوات إذا أقرته الجمعية الأمم المتحدة، الذى يحوي في مضمونه وضع برقة تحت الوصاية الإدارة بريطانية، ووضع فزان تحت الوصاية بإدارة فرنسية، ووضع طرابلس تحت الوصاية الدولية على أن تكون لإيطاليا السلطة الإدارية حتى نهاية سنة١٩٥١م[٣].

وقد فوجئت الوفود الليبية خلال عمل اللجنة الفرعية للأمم المتحدة في يوم ٩ مايو ١٩٤٩م بالنبأ غير المتوقع إلا وهو هذا المشروع،وقد تعرض الاتفاق لموجة من الانتقادات الشديدة خاصةً من الممثلين العرب، وكانت النقاط الرئيسية في هذه الانتقادات هي إن هذا القرار يقوم على حل وسط يرضي الدول الكبرى خارج أروقة الأمم المتحدة ويتجاهل مصالح سكان البلاد حيث قسمت ليبيا إلى ثلاثة وحدات سياسية في الوقت الذي كان مبدأ وحدة ليبيا قد قُبل داخل المنظمات الدولية[٤]، وعلى الصعيد المحلي أثار المشروع رد فعل عنيف في طرابلس فانطلقت

---

٥)- محمود الشنيطي، قضية ليبيا، مكتبة النهضة المصرية، (القاهرة، د.ت)، ص ٢٢٢.

(٢)- محمد الهادي بو عجيلة، (دور الحركة الوطنية الليبية في الكفاح ضد الاطماع الاجنبية في ليبيا عقب الحرب العالمية الثانية)، مجلة الساتل، د.ع، د.س، منشورات جامعة مصراته، (مصراتة، د.ت)

=

=

ص ١٢٥

(٣) -عبدالرحمن الجنزوري، رحلة السنوات الطويلة وقائع وتأملات في سيرة مواطن ليبي،منشورات مركز الجهاد (طرابلس، ٢٠٠٠م)،ص ١٣٨

(٤) - مجيد خدوري، المرجع السابق،ص ١٥٣.

مظاهرات الاحتجاج في كثيراً من مدن البلاد التي هددت بالعصيان ومقاطعة الإدارة البريطانية وتعالت الهتافات بسقوط بريطانيا وفرنسا وأمريكا وايطاليا وتهديدها بضرب مصالحها في كل مكان ولم يكتفِ المتظاهرون برفع اللافتات المعادية لهذه الدول بل أحرقوا علم القنصليتين الأمريكية والفرنسية، واقتحموا بيت الايطالي غالمبرتي الموفد من وزارة المستعمرات الايطالية لدعم سياستها في طرابلس، كما قذفوا الجنود البريطانيين بالحجارة والقنابل ورفعوا علم الاتحاد السوفياتي ولافتات تتضمن شكرهم لها[١]

وفي يوم ١٧ مايو ١٩٤٩م عرض مشروع التقسيم للتصويت ولكنه لم يتحصل على موافقة ثلثي الأصوات حيث أيدته ١٤ دولة بينهما أمريكا وبريطانيا وتركيا وعرضته ٣٧ دولة في مقدمته الدول العربية ودول أوروبا الشرقية والأسيوية وبعض دول أمريكا اللاتينية، وأمتنع عن التصويت ٧ دول فقط،ونتيجة لذلك أجهض مشروع بيفن سفورزا الاستعماري، ونجت ليبيا من خطر التجزئة والوصاية، وهكذا استطاع الشعب الليبي أن يحقق انتصاراً كبيراً في كفاحه من أجل حريته واستقلاله بسقوط هذا المشروع، كما حققت الأمم المتحدة نصراً لها حيث لم توافق على إصدار قرار يتنافى ورغبة الشعب الليبي في الحصول على حريته وسيادته فوق ترابه.[٢]

قد كانت تطورات مشروع بيفن سفورزا في الجمعية العامة بمثابة ناقوس خطر ينبه إلى ضعف الوضع الدولي لقضية الليبية، و كان الأمر مرهوناً بصوت واحد لوضع ليبيا كلها في طريق مظلم عنوانه الوصاية الدولية ومما زاد الأمر خطورة غياب الاتفاق بين القوى الوطنية في الأقاليم الليبية حول الأسس التي بموجبها ينبغي تحقيق الاستقلال، وبتاريخ أول يونيو ١٩٤٩، انعقد في بنغازي اجتماع للمؤتمر الوطني (البرقاوي)، أعلن فيه الأمير إدريس السنوسي استقلال برقة، وطالب بريطانيا والدول العربية والمجتمع الدولي بالاعتراف بهذا الاستقلال وعبر عن أمله في تحقيق وحدة طرابلس وبرقة في المستقبل القريب.

وأثارت هذه الخطوة ترحيب من البعض بينما

(١) - الهادي ابراهيم المشيرقي، ذكريات في نصف قرن من الإحداث الاجتماعية والسياسية، مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية (طرابلس، ١٩٨٠م)، ص ٣١٤-٣٢٠.

(٢)- عبد الرحمن الجنزوري، المرجع السابق، ص١٣٩.

لقت انتقادات البعض الأخر، ومهما قيل من انتقادات حول هذه الخطوة، واعتبارها البعض خطوة انفصالية، إلا أن لدى الأمير إدريس ما يبرر إقدامه عليها، خاصة على ضوء التطورات التي شهدتها القضية الليبية في الأمم المتحدة، حيث اختبار الأمير نوايا بريطانيا ووعودها تجاه ليبيا عامة وتجاه برقة خاصة، كما أثبت قدرة العناصر الليبية على استلام الأمور وإدارة شؤون الدولة كرد على حجج من يقولون بعكس ذلك، إن هذه المناسبة استغلها الأمير لتأكيد اهتمامه بتحقيق وحدة ليبيا، كما كانت فرصة لإذابة الجليد وإنهاء القطيعة مع طرابلس، حيث بادرت الجبهة الوطنية (الطرابلسية)، والمؤتمر الوطني (الطرابلسي). بإرسال وفود لتهنئة الأمير باستقلال برقة، و البحث مع الأمير مسألة الزعامة السنوسية مع زعماء برقة، وقد لقي الوفدان ترحيباً حاراً في بنغازي حيث طلب الوفدان بأن يمر الأمير بطرابلس في طريقه لزيارة بريطانيا للاطلاع على وجهات النظر ونقلها إلى لندن، وهو ما قام به الأمير في رحلتي الذهاب والعودة ولقي ترحيباً منقطع النظير.[1]

ولما رفض هذا المشروع أصبح الاتفاق على الاستقلال أمراً مسلماً به،وعقب فشل بريطانيا في تمرير مشروعها غيرت من سياستها فأعلنت بريطانيا ومعها الولايات المتحدة أنهما تؤيدان استقلال ليبيا، كما غيرت ايطاليا موقفها من دولة تطمح في الحماية إلى دولة تؤيد الاستقلال، وبذلك انهارت المناورات السياسية التي قامت بها بعض الدول الأوروبية، وانهارت معها محاولة تقرير مصير ليبيا من خلال المساومات الدولية داخل أروقة الأمم المتحدة، وأصبح من الضروري التفكير في منح ليبيا استقلالها في القريب العاجل فكانت القضية الليبية من بين الموضوعات المطروحة للبحث خلال اجتماع الدورة الرابعة للجمعية العامة للأمم المتحدة بليك سكسيس في شهر سبتمبر ١٩٤٩م.[٣] افتتحت الجمعية اجتماعها في نيويورك بتاريخ ٢٠ سبتمبر من نفس العام وصلت الوفود الليبية إلى مقر المنظمة الدولية للإدلاء بوجهة نظرها، وفي يوم ٦ أكتوبر ١٩٤٩ م خلال انعقاد الجلسة الثانية للجنة السياسية

---

(١) - ابراهيم عبدالعزيز صهد، معركة الاستقلال صراع من أجل الحرية والوحدة والسيادة عقبات أمام =

= الاستقلال http://www.libya-watanona.com/

2) -مجيد خدوري، المرجع السابق، ص ١٥٧، ١٥٨.

(٣) - محمود الشنيطى، المرجع السابق،ص ٢٣٨.

الأولى أتيحت لمندوبي الهيئات السياسية الممثلة للحركة الوطنية في المستعمرات الإيطالية السابقة فرصة التحدث أمام اللجنة فألقى السعداوى كلمه وضح فيها رغبة الليبيين في الوحدة والاستقلال تحت تاج الأمير محمد إدريس السنوسي.

وعينت الجمعية العامة للأمم المتحدة لجنة فرعية في ١٢ من أكتوبر ١٩٤٩م تكونت من سبعة عشر عضواً بهدف وضع مسودة قرار استقلال ليبيا، ولقت هذه المسودة موافقة معظم الدول الغربية وعارضتها الكتلة الشرقية (روسيا، تشيكوسلوفاكيا، بولندا) باعتبار أنها تمنح الدول الاستعمارية فرصة البقاء بالبلاد مدة أطول، فتقدم الوفد الأمريكي باقتراح جديد يقضى باستقلال ليبيا بعد مضي ثلاث سنوات من اتخاذ قرار الاستقلال، وفى الجلسة المسائية لنفس اللجنة صدر قرارها بأن تنال ليبيا استقلالها في مدة أقصاها الأول من يناير ١٩٥٢م[١]، واشتمل القرار على الخطوات العملية التي تكفل للشعب الليبي حقه في اجتياز الفترة الانتقالية بنجاح وقد تمثلت في:

(١)- نقولا زيادة، محاضرات في تاريخ ليبيا من الاستعمار الايطالي إلى الاستقلال، جامعة الدول العربية،معهد الدراسات العربية العالية، (د. م، ١٩٥٨م) ص ١٦٩، ١٧٠.

أولاً: تعين الجمعية العامة أميناً عاماً يعاونه مجلس لتقديم المشورة.

ثانياً: يتكون المجلس من عشرة أعضاء على الأسس التالية:

أ) ممثل من كل دولة من الدول التالية: مصر، فرنسا، بريطانيا، باكستان، إيطاليا، الولايات المتحدة الأمريكية.

ب) ممثل عن كل منطقة من المناطق الليبية الثلاث (طرابلس - برقة - فزان)،وممثلاً عن الاقليات في ليبيا.

ثالثاً: على الأمين العام أن يسترشد بآراء أعضاء المجلس أثناء القيام بالمسئوليات المنوط بها، وله الخيار في تحديد عدد الممثلين المستشارين وفى المناطق التي يطلب النصيحة بصددها وكذلك في الموضوعات الأخرى.[٢]

وفى ١٣ أكتوبر اجتمعت اللجنة الفرعية لتدارس قضية اختيار مندوب عن الأمم المتحدة لمساعدة ليبيا خلال المرحلة الانتقالية التي تسبق تسلم الليبيين السلطة فظهرت على السطح مجدداً بوادر الخلاف بين الدول الكبرى لتضارب المصالح بينهم في اجتماع الجمعية العامة في ١٥ أكتوبر من نفس

(٢)-امل السبكى،المرجع السابق،ص ٥٢.

العام، ومن ثم أجلت الجمعية العامة اجتماعها حتى الأسبوع الأخير من شهر نوفمبر ١٩٤٩م ليتسنى للدول أخذ الفرصة الكافية لتقريب وجهات نظرهم في شكل الحكم في ليبيا و وحدة ترابها[١]،وفي هذه الأثناء كثف الوفد الطرابلسي محادثاته في أروقة الأمم المتحدة، فألتقي مع مندوبي بعض الدول وعلى رأسها بريطانيا، والولايات المتحدة، مؤكداً لهم أن الاستقلال والوحدة هي الرغبة التي اجمع عليها سكان ليبيا، وأن الحكومة التي تنشأ فيها ستكون حكومة ديمقراطية تضمن الحرية الفردية والحقوق المشروعة للجميع[٢].

وقد حاول بشير السعداوي آنذاك ترميم التصدع الذي كان قائم بين الوفود الليبية وتقريب وجهات نظرهم،حيث عقد اجتماع في ٢ نوفمبر ١٩٤٩ وبمقر المنظمة الدولية بين أعضاء الوفود الليبية لتبادل الرأي حول ما سيطرح على المنظمة الدولية بشأن قضيتهم الوطنية، فظهرت الخلافات بين الوفد البرقاوى ووفد المؤتمر الوطني العام الطرابلسى من ناحية، ووفد حزب الاستقلال الذي تمسك برأيه في عدم الاعتراف بالإمارة السنوسية على ليبيا من ناحية أخرى. وبناء على طلب الوفد البرقاوى تدخل مندوبو مصر و العراق والسعودية والباكستان لرأب الصدع بين الوفود الليبية المتخاصمة ولتقريب وجهات نظرهم حول قضية ليبيا واستقلالها.[٣]

وبعد صدور قرار الجمعية العامة للأمم المتحدة رقم (٢٨٩) في جلستها رقم (٢٥١) بتاريخ ٢١ نوفمبر ١٩٤٩م بإعلان استقلال ليبيا في مدة أقصاها يناير ١٩٥٢م، وموافقة الأمم المتحدة على اقتراح الوفد الهند، الذي دعا أن تكون ليبيا بأقاليمها الثلاث موحده في دولة مستقلة ذات سيادة، و بتشكيل لجنة لمساعدة الشعب الليبي على اجتياز فترة الانتقالية، واختيار شكل الحكم ووضع الدستور.[٤] وجه بشير السعداوى التهنئة إلى رئيس المؤتمر الوطني العام البرقاوى السيد محمد رضا السنوسي، كما وجه التهنئة للشعب الليبي عبر أثير إذاعة طرابلس التي ربطت بإذاعة هيئة الأمم المتحدة في ليك سكسس، ونشرتها جريدة طرابلس الغرب بتاريخ ٢٦ نوفمبر ١٩٤٩.[٥]

(١)- صلاح العقاد، المرجع السابق، ص ٧٨.

(٢) محمود الشنيطى، المرجع السابق، ص ٢٣٨.

(٣) -عبد الرحمن الجنزورى، المرجع السابق، ص ١٤٩.

(٤) -محمد المفتي، جمعية عمر المختار، وزارة الثقافة والمجتمع المدني (طرابلس، ٢٠١٢ م).، ص٢٤٠.

(٥)- أحمد زارم، مذكرات صراع الليبي مع مطامع =

وفي يوم ١٠ ديسمبر سنة ١٩٤٩م قررت الجمعية العمومية للأمم المتحدة تعيين مستر بلت مساعد الأمين العام الأمم المتحدة والمسؤول عن القسم الخاص بالمؤتمرات والخدمات العامة، مندوباً للأمم المتحدة في ليبيا بعد أن اعتذر عن قبول هذا المنصب الدكتور رالف بانش وكارلوس روماللو مندوب الفلبين ورئيس الجمعية العمومية والدكتور لويس باديلانيرفو رئيس الوفد المكسيكي. وتقرر تطبيقاً لهذا القرار تعيين مجلس يعاون المندوب ويرشده[١]،وفى ١٢ ديسمبر ١٩٤٩ م وجه عبد الرحمن عزام بصفته أمين جامعة الدول العربية نداء إلى الشعب الليبي يهنئه بالاستقلال، وطالبهم بالعمل من أجل إقامة الدولة الليبية مستقلة تقوم على دعائم حكم وطني تكسب احترام العالم اجمع[٢].

ثانياً: تأسيس المجلس الاستشاري للأمم المتحدة و دوره في نشأة الدستور الليبي.

= الاستعمار١٩٤٣-١٩٦٨م،الدار العربية للكتاب، (طرابلس، ١٩٧٩م)، ص ٢٩٠

(١)- سامي الحكيم، استقلال ليبيا، ص١٢١.

(٢)- أرويعي قناوي، بشير السعداوي ودوره في الحركة الوطنية الليبية ١٨٨٤-١٩٥٢م، رسالة دكتوراه، غير منشوره، كلية الآداب جامعة عين شمس، (القاهرة، ٢٠١١م)،ص١٩١.

دخل قرار الأمم المتحدة حيز التنفيذ عندما وافقت الجمعية العمومية على تعين أدريان بلت مندوباً لها في ليبيا فباشر الأخير أعماله في ١٨ يناير سنة ١٩٥٠م وكان بلت مدركاً منذ البداية أهمية مهمته وما يكتنفها من صعاب، فهناك الكثير ممن يتربصون به ويعملون جاهداً لإفشال تلك المهمة، لأن استقلال ووحدة ليبيا كانت تشكل ضرراً لكثير من الدول الكبرى التي لها مطامع في ليبيا ومن ثم فليس من مصلحة تلك القوى أن تنجح مهمة أدريان في تحقيق استقلال البلاد[٣].

وعلاوة على ذلك كانت ليبيا تعاني في أواخر الأربعينات من حالة متردية، فقد تركتها الحروب التي استمرت قرابة ثلاثين عامًا ضد إيطاليا، دولة فقيرة يعاني سكانها من سوء الاوضاع الاقتصادية والاجتماعية ناهيك عن قلة الموظفين والأطباء والمعلمين،وفوق ذلك كله كانت البلاد مقسمة إلى ثلاث مناطق ألا وهي (برقة وطرابلس و فزان) ولذلك لم تكن مهمة أدريان بالأمر السهل ؛ فعند وصوله إلى ليبيا بدأ بجولاتٍ واسعة في أنحاء الأقاليم الثلاثة استمرت لمدة ثلاث أسابيع قام فيها بإجراء مباحثات لتأسيس المجلس الاستشاري

(٣)- نقولا زيادة، المرجع السابق، ص ١٧١,

فـي أقـرب وقـت ممكـن، وقـد حـرص علـى التشـاور مـع كـل القيـادات السياسـية والحزبيـة والشخصيات الاجتماعيـة المؤثرة و كبار زعمـاء القبائل، ناهيك عن إجراء مشاورات مع الأقليات اليهودية واليونانية وغيرها المقيمة في ليبيا، وأستطاع عـن طريـق تلـك اللقاءات المفتوحة لعموم المواطنين التعرف على البلاد بتركيبتها السكانية ومكوّناتها الاجتماعية فـي كـل مـن مـدنها وأريافهـا بـرغم المسـاحة الشاسـعة ومشقة التنقل فيها[1] وفي خلال هذه زيارات طلـب منـدوب الأمـم المتحـدة مـن الزعمـاء الليبيين في الولايات الثلاث إلى جانب ممثلي الأقليات أن يقدموا إليه في موعد لا يتجاوز ١٥ مـارس ١٩٥٠م أسـماء المرشـحين لكـل مـن المقاعـد المخصـص لهـم فـي المجلـس الاستشاري[٢].

ويبدو أن المهمـة الأولـى التـي أقـدم عليها أدريـان بلـت لـم تـأتي بنتـائج مرضيـة لـه،حيث لمس علـى أرض الواقـع المناورات السياسية مـن قبـل سـلطات الإدارتـين البريطانيـة والفرنسـية التـي كانـت تسـعي مـن وراء الكواليس إلى تقسيم ليبيا[٣] ففي برقة مثلاً سـن قـانون الجنسـية البرقاويـة كمـا عزمـت بريطانيا على نقل السلطات إلى الأمير إدريس مما اتضح له رغبتها في تأكيد استقلال برقة عن بقية أجزاء ليبيا بحكم ذاتي تحت رعايتها[٤]، كما سجل أدريان رغبة أهل برقة في الحصول علـى اسـتقلالهم واعتبـر أن هـذا الاسـتقلال يضـر بوحـدة البـلاد و سـيادتها خلافـاً لتوصـيات الأمـم المتحـدة كما أن الفرنسيين منذ البداية لم يكن لديهم رغبة حقيقة في وحدة البلاد، مما جعل مهمة بلت شبه مستحيلة[٥].

غيـر أن كـل ذلـك لـم يجعـل أدريـان يتقـاعس عـن عملـه،حيث بـدأ اتصـالاته مـع الزعمـاء الليبيـين المهـاجرين فـي مصـر، وعقـد معهـم اجتماع ابدى لهم تمسكه بقرار استقلال ليبيا،

2) - AdrianPelt:Libyan Independence nd The United Nations,ACaseofPlanned Decolonization.The Endowment for International Carnegie peace ,New Haven &P, London, Yle University Press, 1970.204-205

(٢) -محمد يوسف المقريف، ليبيا بين الماضي والحاضر صـفحات مـن تـاريخ السياسـي، مـيلاد دولـة الاسـتقلال، مـج١،مركـز الدراسـات الليبيـة (بريطانيـا، ٢٠٠٤م) ص٢٥٢.

(٣)- سامي حكيم، استقلال ليبيا، ص ١٢١.

(٤)- اسرة التحرير، ((المعتمد البريطاني يصدر منشوراً بانتقـال السـلطات غـالي الأميـر المعظـم)، جريـدة برقـة الجديـدة، ع ١٣٦٤، مطبوعـات حكومـة برقـة (بنغازي، ١٩٥٠ م)،ص١.

٦) -محمود الشنيطي، المرجع السابق، ص٣٠٠.

كما أكد رفضه التام إقامة أي حكومة وطنية سواء في طرابلس أو فزان، حتى لا يفسر بأنه استعداد للانفصال عن باقي الولايات ووضح ذلك بقوله: ((**نحن هنا لنرشد الناس وننصحهم، لكننا لن نضغط على أحد ليتخذ مسارا محدداً ولن نسمح لأي طرف بالتلاعب بنا في الترويج لسياسة** معينة))، كما رحب بتعاونه الكامل مع السلطات الإدارية لإقامة جمعية تأسيسية، وتشكيل حكومة ليبية موحدة[1]

وبعد ذلك شرع أدريان بلت بتنقل من بلد إلى آخر حيث قام بزيارة عواصم الدول الست المشاركة بالمجلس الاستشاري، لمعرفة مقترحاتهم و وجهات نظرهم في القضية الليبية للحصول على موافقة جميع الأطراف، حيث بدأ جولته بزيارة مدينة جنيف يومي٥ و٦ من إبريل ١٩٥٠ م واجتمع خلالها مع ممثلي الحكومات الست[٢] الأعضاء في مجلس العشرة وهم: محمد كامل سليم السفير مصر، عبد الرحيم خان مندوب الباكستان، جورج بالاي وزير والمفوض الفرنسي السابق في بغداد، لويس كلارك سفيرأمريكا السابق بالصين، السيرهيو ستونهيو بيرد سفير بريطانيا السابق ببغداد، والبارون كونفالونيري السفير ومندوب إيطاليا في المكتب الأوروبي لهيئة الأمم المتحدة.[٣]، وقد اسفر عن ذلك الاجتماع اختيار أربعة أسماء من بين قوائم المرشحة من الولايات وهم: علي أسعد الجربي (عن برقة) وقد حل محله فيما بعد الدكتور علي نور الدين العنيزي،ومصطفي ميزران (عن طرابلس)، وأحمد الحاج السنوسي صوفر (عن فزان) الا انه استبدل بسبب مرضه بمحمد عثمان الصيد، بالإضافة إلى جياكومو مارشينو ممثلاً عن الأقليات في ليبيا[٤].

وفي إطار تنفيذ قرار الأمم المتحدة باستقلال ليبيا تم تأسيس المجلس الاستشاري الخاص بليبيا الذي يهتم بتقديم المشورة والنصيحة لكل ما يتعلق بالإجراءات والخطوات المرتبطة بتنفيذ ذلك القرار، وقد تمكن أدريان من الانتهاء من تأسيس هذا المجلس في ٦ إبريل ١٩٥٠ م[٥]، الذي تكون من (عشرة) أعضاء يضم مندوب واحد عن حكومات الدول التالّية:

---

7)-Adrian Pelt: Libyan Independence and The United Nations- p188

(٢)- أسرة التحرير، ((المجلس الدولي لليبيا ينتقل إلى جنيف)، جريدة برقة الجديدة، ع ١٣٦٤، ص٤.

(٣)- محمود الشنيطي، المرجع السابق، ص٣٠٠.

(٤)- سامي الحكيم، حقيقة ليبيا، مكتبة الانجلو المصرية، (مصر، ١٩٧٠)، ص٤٧.

(٥)- مجيد خدوري،المرجع السابق، ص ١٦٢.

مصر، وفرنسا، وإيطاليا، والباكستان، وبريطانيا، والولايات المتحدة الأمريكيّة إلى جانب ممثّل عن الشّعب في كلّ من أقاليم ليبَيا الثلاثة، وكذلك ممثّل عن الأقليّات في ليبَيا وعقد هذا المجلس اجتماعه الاول بطرابلس يوم ٢٥ إبريل من نفس العام بحضور مندوب الأمم المتحدة وأعضائه العشرة، وقد اقتصرت جلسته الاولى على كلمات الافتتاح التي ألقاها الأعضاء، وبدأ مصطفى ميزران (المندوب الطرابلسي) بالإعراب عن شكر بلاده لمصر والباكستان على الجهود التي بذلتها في سبيل تنفيذ قرار الأمم المتحدة القاضي باستقلال ليبيا ودعا إلى إزالة الحدود بين طرابلس وبرقة وفزان، كما دعا إلى الوحدة الاقتصادية، واقترح المبادرة بوضع دستور لليبيا، وتحدث مندوب برقة علي اسعد الجربي قائلاً انه يرجو أن يرى ليبيا في المستقبل مملكة يحكمها الأمير إدريس السنوسي[1].

كما تمت مشاورات أخرى بين أدريان بلت و ممثلي الحكومات الست في الأمم المتحدة وأخيراً تم الاتفاق بينهم على خطة عمل تتضمن مايلي:

١) انتخاب المجالس المحلية في برقة وطرابلس وفزان خلال شهر يونيو ١٩٥٠م

٢) اختيار اللجنة التحضيرية لأعمال الجمعية الوطنية التأسيسية في وقت لا يتجاوز يوليو ١٩٥٠. (وهي اللجنة التي عرفت بلجنة الواحد والعشرين).

٣) انتخاب الجمعية الوطنية التأسيسية ودعوتها إلى الاجتماع في خريف ١٩٥٠. (لجنة الستين).

٤) تؤلف الجمعية الوطنية التأسيسية حكومة مؤقتة في أوائل عام ١٩٥١)

٥) إقرار الجمعية الوطنية التأسيسية للدستور خلال عام ١٩٥١)

٦) إعلان الاستقلال وإنشاء حكومة وطنية قبل ١ يناير ١٩٥٢، وهو الموعد الذي حدده قرار الأمم المتحدة كموعد أقصى للاستقلال. وبصدور ذلك القرار وتشكيل المجلس الاستشاري و بتعيين مندوب الأمم المتحدة، بدأت مرحلة جديدة في تاريخ ليبيا عرفها المؤرخون بمرحلة بناء دولة ليبيا الحديثة أو مرحلة التطور الدستوري[2].

لم تكن مرحلة سهلة ميسرة، إنما كانت محفوفة بالمصاعب والتحديات. كان على رجال ليبيا أن يثبتوا أنفسهم في ميدان لم

(١)- طاهر أحمد الزاوي، جهاد الليبيين في ديار الهجرة،دارف محدودة، (لندن،١٩٨٥م)، ص٢٥٧.

(٢) -محمد المقريف، المرجع السابق، ص٢٥٣،٢٥٢

يألفوه ولم يتدربوا عليه، كانوا يحسبون أن المرحلة ستكون مرحلة صراع داخلي سلمي من أجل بناء ليبيا الدستورية المستقلة، وهكذا كانت المرحلة، غير أن محاولات عديدة بدأت من أطراف غير ليبية لعرقلة تلك الجهود المضنية التي كان أبناء ليبيا يبذلونها.

وكانت الخلافات سرعان ما تسوى فيما بينهم لتجاوز نقاط الاختلاف، حيث حلول الوسط تُغلّب على كل محاولات التشدد و التشنج، وكان تعاون السيد أدريان بلت غير محدود، فلقد أبدى تفهماً لأوضاع البلاد وقام بتكييف إجراءاته بما يتناسب مع تلك الأوضاع، واتصفت إدارته بالحكمة والرغبة الأكيدة في الوصول بليبيا إلى موعدها مع الاستقلال في التاريخ الذي حددته الأمم المتحدة دون أي تأخير[١].و قد استمر المجلس جلساته بالانعقاد الى سبتمبر ١٩٥٠م،حيث تم خلال هذه الفترة عقد ما يقارب (٥٢)جلسة علنية وكانت الرئاسة فيها دورية بين الأعضاء، واتخذ المجلس من مدينة طرابلس مقراً دائماً له،واعتمد اللغة العربية والإنكليزية والفرنسية لغات رسمية للمجلس.[٢]

ثالثاً - مجلس الواحد والعشرين ودورها في الحراك السياسي في ليبيا.

بدأت المباحثات بين بلت والمجلس الاستشاري حول تشكيل لجنة التحضيرية، ومهمتها اختيار الجمعية الوطنية (التأسيسية) التي ستقوم بوضع الدستور، وقد تألفت هذه اللجنة من (٢١) عضواً، وأصبحت تعرف بلجنة (الواحد والعشرين)[٣] وبعد استشارات بلت ومفاوضاته مع كل الاطراف فى الولايات الليبية الثلاثة قرر تشكيل لجنة تتكون من سبع ممثلين عن كل ولاية، وقد تم الاتفاق على أن يختار الأمير إدريس السنوسي ممثلي برقة، والسيد أحمد سيف النصر ممثلي فزان، والسيد المفتي محمد أبو الاسعاد العالم ممثلي طرابلس.[٤] إلا أن بلت واجهته عدة مشاكل عند تشكيل هذه اللجنة ومن هذه المشاكل: مسألة تمثيل الجالية الإيطالية بطرابلس في لجنة الواحد والعشرين، وتم تصويت هذه المشكلة بموافقة الأمير،وأحمد سيف النصر على التمثيل الايطالي بشرط أن لا يحصلوا على حق قانوني حينما يتم إعلان الدستور، والمشكلة الأخرى الوسيلة التي لجئ إليها بلت لاختيار الممثلين السبعة لمنطقة طرابلس، فقد اتصل بلت بالهيئات والجمعيات

---

(١)- ابراهيم عبدالعزيز صهد، المرجع السابق.

(٢)- الشنيطي، المرجع السابق، ص٣٢٢-٣٢٥.

(٣)- مجيد خدوري، المرجع السابق، ص١٦٨-١٦٩.

(٤)- محمد المقريف، المرجع السابق، ص ٢٥٠-٢٥١.

السياسية بها وطلب أن تقدم كل منها قائمة بالأسـماء المرشـحة فتعاونـت معـه بعـض الأحزاب[1]، فيما رفض حزب الاستقلال والكتلة الوطنية الحرة التعاون معه، حيث تلقى بلت مذكرة تتضمن رفضهما تقديم قائمة بأسماء المرشـحين لعضـوية لجنـة الواحـد والعشـرين، بحجـة أن التمثيـل يجـب أن يراعـي فيـه عـدد السكان لكل إقليم من الأقاليم الثلاثة ورفض أي المسـاواة بيـنهم، وهنـاك خمسـة احـزاب سياسـة فـي طـرابلس قـدمت لـه قـوائم متشـابهة بأسـماء مرشـحيها فـي اللجنـة التحضيرية المقترحة، نظراً لاختيار سبعة أعضاء عن كل أقليم من الأقاليم الثلاثة، وأن أربعةً مـن هـذه القـوائم تحتـوي علـى اسـم واحـد لممثل الأقليات الايطالية[2].

ثـم طـرح المنـدوب علـى جمعيـة الأمـم المتحـدة أسـماء السـبعة الممثلـين لطـرابلس بعد أن أخذ بعين الاعتبار القوائم التي قدمت إليـه مـع مراعـاة كفـاءة المرشـحين، غيـر أن منـدوب الباكسـتان اعتـرض علـى هـذه القائمـة لاشـتمالها علـى اسـمين معينـين وقـال أن أحدهما ابو الاسعاد العالم مفتي طرابلس لم يرشح من قبل الحزب الذي ينتمي إليـه، والآخر سالم القاضي هو رئيس بلديـة مصراته وعضـو المحكمـة الأهليـة والمجلس الإداري ممـا يـدل على انه ليس معادياً للإدارة البريطانية، كما أن الحـزب الـذي ينتمـي إليـه المـؤتمر الـوطني اعترض على ترشيحه، وأعـرب ممثل مصر عـن قبوله لترشيح المفتي طرابلس، ولكنه طالب بإبدال اسم رئيس بلديـة مصراته برئيس حزب الاتحـاد المصـري الطرابلسـي، علـي رجـب المحامي، بعد أن اجمعت على ترشيحه كافـة الاحـزاب السياسـية، وأيـد هـذا الاقتـراح ممثـل طـرابلس وممثـل الباكسـتان ثـم ايـده فـي النهايـة منـدوب الأمـم المتحـدة ولكـن ممثـل بريطانيـا اعلـن امتناعـه عـن التعليـق واكتفـى بالقول بأن القائمة التي قدمها مندوب الامم المتحـــدة هـــي افضـــل مـــا يســـتطيع أن يقدمه،وأيـده فـي هـذا الـرأي ممثـل فرنسـا الذي قال على المجلس أن يسترشد بالمبادئ الديمقراطية ورد عليه ممثل الباكستان بأن أي مبدأ ديمقراطي يخول اقليم فزان وبرقة التي يقل سكانها عن طرابلس أن يساوي ممثليهم بها.[3]

كما أن اغلـب الاهـالي فـي طـرابلس وجـدوا فـي هـذه الاجـراءات تنـازل كبيـر مـنهم، حيث

(1)- نقولا زيادة، المرجع السابق، ص175.

(2)- محمود الشنيطي، المرجع السابق، ص 311-312.

(3) (سامي الحكيم، حقيقة ليبيا، ص142.

تسمح لكل من برقة وفزان معاً أن يكون لهما (١٤) ممـثلا، ممـا اقلـق الطرابلسـيون لأنـه قـد يتبنـى البرقـاويين رأيـاً يستحسـنه السنوسـي وبإيعاز من بريطانيا، كذلك الحال لممثلي فزان الذين قد يتبنون موقفاً بتأثير من فرنسا، وبعد أن تـم الاختيار اعلـن المندوب الأمـم المتحـدة أنه لا يمتلك سلطة تعينهم، وأن هذا التعين يجب أن يصدر به قرار من المعتمد البريطاني أو المجلـس الإداري الطرابلسـي، وبعـد ذلـك جـرت مباحثـات بـين بلـت والمعتمـد البريطـاني في طرابلس، وانتهت بأن قدم الأخير اقتراحاً يقضي بحذف اسم مرشح الأقليات الايطالي (جيـاكومو مـاركينو arkeeno Giakomo) واسم زعيم حزب الاتحاد المصري الطرابلسي (علي رجب)، إلا أن هذا المقترح واجه معارضة من قبل مندوب مصر والباكستان، فاضطر بلت عدم الأخذ به، ومما زاد الامر تعقيداً في هذه مباحثـــات أن المعتمـــد البريطـــاني كانـــت اختصاصـاته تنحصـر فـي معالجـة المسـائل الإداريـة الخاصـة بإقليم طـرابلس وليس لـه أن يبحـث المسـائل الخاصـة بـالتطورات الدسـتورية في ليبيا، مما اوقعه بلت فـي مشكلة اخرى قـد تخلـق نـزاع جديـد بـين بعـض الاحـزاب السياسية والإدارة البريطانية[1].

ورأي مجلس الأمم المتحدة ازاء هذا أن يغلق باب النقاش باعتبار الأمر منتهياً عند هذا الحد فأصدر المندوب قراره باختيار ممثلين طرابلس كأعضاء في لجنة الواحد العشرين بدون اقامة أي وزن لاعتراضات المندوب البريطاني، وافـق مجلـس الامـم المتحـدة بأغلبيـة سـتة اصـوات علـى هـؤلاء الممثلـين، بعـد التعـديل الـذي ادخل عليهم وهم: محمد أبو الاسعاد العالم، علـي رجـب، أبوربيـع البـاروني، سـالم المـريض، احمــد عــون ســوف، عبــد العزيــز الزقلعــي، جياكوموركينو، ووجه إليهم بلت الدعوة يوم ٢٥ يونيــو ســنة ١٩٥٠م ليلتحقــوا بــزملائهم ممثلـي برقـة وفـزان الـذين رشـحهم الأميـر السنوسـي ورئيس اقليم فـزان للجنـة الواحـد والعشرين، وعقد أول اجتماع لهذه اللجنة يوم ٢٧يوليو سنة ١٩٥٠م في مكتب مندوب الأمم المتحدة بفندق جراند هوتيل بطرابلس[2] ومثل الاقاليم الثلاث كل من: أعضاء عن طرابلس الـذي سبق ذكـرهم، رشـيد الكيخيا، محمـد بـن هدمة، طيلان الباجي،عبد الكافي أين، أحمد

(١)- الصـادق شـكري، عبـدالرَّحمن باشـا عـزّام والقضـيّة اللّيبيّة (سيرة ومسيرة)- http://archive.libya-al mostakbal.org/

(٢) سامي الحكيم، حقيقة ليبيا،١٤٦.

كيلان العزي، عمر شنيب، خليل القلال، ممثلوا برقة، علي مكطوف، طاهر جراري، علي بدوي، بلقاسم بقويلا، سي الماجد (قائد غدامس)، أحمد الطبولي ممثلو فزان، واستمرت اجتماعات اللجنة التحضيرية حتى ٣٠ أكتوبر وعقدت في هذه المدة (٢٢) جلسة، انتخبت خلالها الشيخ محمد ابو الاسعاد العالم المفتي رئيساً للجنة، وخليل القلال من برقة، ومحمد بن عثمان الصيد من فزان سكرتيرين للجنة(١).

ولعل من أهم مهام هذه اللجنة الاتفاق على عدد وكيفية اختيار الجمعية الوطنية، قد واجهت هذه اللجنة مشكلتين عند اختيار الجمعية التأسيسية، هما على أي أساس سيتم التمثيل في الجمعية بالتمثيل النسبي أم على أساس التساوي ؟ وكيف سيتم اختيار الأعضاء بالانتخاب أم التعيين؟ وظهر خلال مباحثات التأسيس التباين في وجهات النظر حول أسس اختيار اللجنة على أساس النسبة العدديــة أم بالتســاوي للمنــاطق الثلاثــة ؟ ومدى ملائمة ظروف البلاد.(٢)

وقد ظهر الاختلاف واضح بين الاقاليم الثلاثة في اتجاهاتهم السياسية منذ بداية تأسيس اللجنة التحضيرية، فانقسموا إلى فريقين، احدهما يتمسك بإقامة دولة موحده ويقتضي هذا النظام تمثيل البلاد بالتساوي سواء في الجمعية التأسيسية أم في المجالس النيابية الأخرى بعد قيام الدولة، وكان ممثلو طرابلس هم الذين يجمعون على هذا الاتجاه، و طالبوا بأن يتم وضع الدستور بواسطة مجلس وطني منتخب وليس عن طريق اللجنة التحضيرية غير أن غالبية الأعضاء الذين يمثلون برقة وفزان أيدوا الاتجاه الثاني ألا هو إقامة دولة فيدرالية وصياغة الدستور بواسطة مجلس وطني يكون تمثيل الأقاليم الثلاثة فيه بالتساوي بغض النظر عن عدد السكان، أما فيما يتعلق بالإشكالية الثانية فهي: كيف سيتم الاختيار أعضاء الجمعية :هل بالانتخابات أم بالتعيين فقد تم الاتفاق على تعين الأعضاء بشرطين وهما: إلا يكون الاعضاء من قيادات الاحزاب الرئيسية في طرابلس، وأن تتاح الفرصة لأبناء الشعب غير الحزبيين في المشاركة والتمثيل في الجمعية الوطنية، وبناء على هذا الاتفاق نجحت لجنة الواحد والعشرين فى اختيار أعضاء الجمعية الوطنية فى الوقت الذى حدد لها(٣).

---

(١) مجيد خدوري، المرجع السابق، ص١٧٠.

(٢) - الصادق شكري، المرجع السابق.

(٣)- صلاح العقاد، المرجع السابق، ص٨٦-٨٨.

ثـم توالـت اجتماعـات اللجنـة لوضـع لائحتها الداخلية التي تسير عليها، واستطاعت أن تضع في صلب اللائحة نصاً خطيراً له دلالته ومغزاه، وهـذا الـنص يقضـي بـأن تتخذ جميع القـرارات بأغلبيـة ثلثـي الاصـوات وأن يكتمـل النصـاب القـانوني للجنـة بحضـور خمسـة عشر عضـواً، والغايـة مـن هذا الـنص هـو ضمان عـدم اتخاذ أي قرار دون موافقة أعضاء برقة وفزان وهم يمثلـون معـا أقـل مـن ثلث سـكان ليبيـا، أمـا الشطر الثاني من النص والخاص بأن ١٥ عضـواً من أعضـاء اللجنـة يكونـون عـدداً قانونيـاً، فهـو يعنـي أن اللجنـة لا تسـتطيع الاجتمـاع فـي غيـاب الاعضـاء مـن فزان،وبهـذه الطريقـة كما يقول ممثل مصر في مجلس الامم المتحدة، قـد اعطـى فـي الواقـع مـا يقـل عـن خمسـة في المائة من سكان ليبيا حق الفيتو. وترتب علـى هـذا الـنص انـزال الشـلل بإعمـال اللجنـة طـول أسـابيع عديدة ثـم شـرعت اللجنـة فـي اعداد جدول اعمالها بشأن الخطـة التي يجب السـير عليهـا لـدعوة الجمعيـة الوطنيـة إلـى الانعقاد وفقاً لقرار الأمم المتحدة .[١]

يبدو أن الجمعية العامة للأمم المتحدة كانت تتابع تنفيذ قراراتها مـن خلال التقرير السـنوي الـذي يقدمـه منـدوبها عـن تنفيـذ توجيهاتها. فتقـدم بلـت بتقريـره الاول الـى الامـين العـام للأمـم المتحـدة لتقدمـه الـى الجمعيـة العامـة فـي جلسـتها الاعتياديـة الخامسـة فـي ديسمبر/١٩٥٠، تضمنت الاجراءات التي اتخذها للفتـرة مـن بدايـة أكتـوبر١٩٥٠، وهـي تشـكيل المجلـس الاستشـاري لليبيـا، واختيـار ممثلـي الأقـاليم ثـم تشـكيل لجنـة تحضـيرية للجمعيـة الوطنية وهي (لجنة الواحـد والعشرين)، وعنـد مناقشـة التقريـر وجهـت انتقـادات للتـدخل البريطـاني الفرنسـي فـي سـير عمـل بعثـة الامـم المتحـدة فـي ليبيـا حيـث أن الإدارتـين تسعيان جاهدتان الى فرض حكومات انفصالية شـكلية فـي طـرابلس وبرقـة وفـزان مـن أجـل اعاقـة الوحـدة الليبيـة واسـتقلالها. كمـا وجـه الـدكتور محمـد صـلاح الـدين احتجاجـاً علـى التقسـيم المتسـاوي فـي العـدد لممثلـي الاقـاليم الليبيـة الـثلاث فـي لجنـة الواحـد والعشرين، لأن ذلك من شأنه أن يجعل مـن تساوي الاجزاء الثلاثة تحكم الاقلية في مصير

(١)- دسـتور المملكـة الليبيـة المتحـدة الـذي أقرتـه الجمعيـة الوطنيـة فـي ٧ اكتوبر ١٩٥١م، مذكرة من مندوب الامم المتحدة في ليبيا إلى مجلس الامم المتحدة لليبيا بشأن أعمال لجنة الواحد والعشرين،
=

=
الملحق الثاني.

الاكثرية[1].

رابعاً - دور الجمعية الوطنية في إقرار الدستور الليبي:

في ٢٣ أكتوبر ١٩٥٠م اتخذت لجنة الواحد والعشرين القرار بتكوين الجمعية الوطنية، وهي تجمع وطني يتكون من ٦٠ عضواً يختارون بالتعيين، والتمثيل يكون قائماً على أسس المساواة بحضور ٢٠ مندوباً عن الأقاليم الثالث يمثلون كامل ليبيا،حيث يقوم الأمير إدريس السنوسي باختيار ممثلي برقة، وأحمد سيف النصر باختيار ممثلي فزان، ولا يجوز للأقليات غير الوطنية أن تشترك في تلك الجمعية، كما يقوم باختيار ممثلي طرابلس المفتي محمد أبو الإسعاد العالم عضو لجنة الواحد والعشرين[2]،بوصفه أكبر الاعضاء سناً قدم لائحة المرشحين إلى اللجنة،كما أبدا السعداوي استعداده للإسهام في أعمال الجمعية وقدم قائمة تحوي على (٣٦) أسماً من أعضاء المؤتمر الطرابلسي غير أنه عاد وسحب تأييده للجمعية ودعا الجماهير للتظاهر ضدها وعارض الاتجاه الفدرالي وأخذ يطالب بالدعوة الى وحدة ليبيا.[3]

وبعد المناقشات بين جميع الاطراف (بريطانيا وفرنسا وايطاليا ومصر والأمين العام للجامعة العربية) مع مندوب الأمم المتحدة ادريان بلت، عرضت اللجنة السياسية لهيئة الامم المتحدة مشروع قرار تضمن عدة نقاط منها: تأسيس جمعية وطنية تمثل الشعب الليبي في وقت لا يتجاوز الاول من يناير ١٩٥١، على أن تنشئ تلك الجمعية حكومة مؤقتة قبل الأول من إبريل، بشرط أن تقر دولتا الادارة بنقل السلطة تدريجياً إلى الحكومة المؤقتة، ويتم التسليم نهائياً في موعد اقصاه يناير ١٩٥٢م، وعند التصويت على المشروع في ١٩ أكتوبر ١٩٥٠م اقر المشروع بعد ان حصل على (٥٣) صوتاً لصالحه ومعارضة صوت واحد وهو فرنسا و (٥) اصوات امتنعت عن التصويت، وحينما عرض المشروع مرة اخرى على الجمعية العامة للأمم المتحدة في ١٧ نوفمبر١٩٥٠ م، حاز على الموافقة، حيث صوت لصالحه (٥٠) صوتاً، بدون أي معارضة مع امتناع (٦)عن التصويت. وبموجب ذلك تكون ليبيا قد بدأت تتهيأ للإعلان الرسمي للاستقلال.[4]

وكانت مهمة الجمعية الوطنية الأساسية هي وضع الدستور، وتحديد شكل الدولة

(١)- مجيد خدوري، المرجع السابق، ص١٩٣

(٢)- ابراهيم عبدالعزيز صهد،المرجع السابق.

(٣)- طاهر الزاوي، المصدر السابق، ص٤٠٠.

(٤)- المصدر نفسه، ص٤٠١.

الليبية الجديدة ومعالمها، وبعد اختيار أعضاء الجمعية الوطنية تقرر عقد أول اجتماع لتلك الجمعية في ٢٥ من نوفمبر ١٩٥٠م بطرابلس،[١] بمقر الحاكم العام وحضر هذا الاجتماع أعضائها الستين، وعدد كبير من الشخصيات الوطنية و كذلك مندوبون عن الإدارات البريطانية والفرنسية، وأعضاء السلك القنصلي، وممثل عن مندوب الأمم المتحدة (أدريان بلت) الذى كان يحضر الاجتماع الدوري الخامس للأمم المتحدة في نيويورك، كما حضر الجلسة الافتتاحية للجمعية جميع أعضاء مجلس الأمم المتحدة الخاص بليبيا فيما عدا مندوبي مصر والباكستان.[٢] وقد تم في هذه الجلسة اختيار محمد أبوسعادة العالم رئيساً، وعمر الفائق شنيب، و أبوبكر بن أحمد نائبين له عن طريق الانتخاب من قبل أعضاء الجمعية، وفي الجلسة الثانية من هذا الاجتماع يوم ٢٧ نوفمبر سنة ١٩٥٠م، شكلت الجمعية لجنة فرعية تتألف من ١٢ عضواً على أن تنتخب من بين أعضائها رئيساً وسكرتيراً،

(١)- ابراهيم عبدالعزيز صهد،المرجع السابق.

(٢) جمعية الوطنية التأسيسية الليبية، مجموعة محاضر الجمعية الوطنية لجنة الدستور المنبثقة عنها ١٩٥٠/ ١٩٥١م، المركز الوطني للمحفوظات والدراسات التاريخية، شعبة الوثائق العربية، ملف رقم ٤٥، ج١، ص١.

وكانت مهمة هذه اللجنة وضع لائحة للجمعية تنظم اعمالها الداخلية، وتكونت هذه اللائحة من (٤٣) مادة حددت فيه اختصاصاتها[٣]، حيث أشارت في أحد لوائحها على أن اجتماع الجمعية لن يكون قانونياً إلا بحضور ثلثا الأعضاء الحاضرين في الجلسة والمشتركين في التصويت، كما نظمت لائحة تقوم بإعداد محاضر الجلسات العلنية والخاصة، ثم طلبت الجمعية برفع وثيقة البيعة إلى الأمير إدريس لأنها تمكنه من أن يطلب من الدولتين القائمتين أن تمكناه من تسلم سلطاته وممارستها كإجراء مبدئي لتأسيس الدولة الليبية المتحدة في التاريخ المحدد ووصلت جلسات الجمعية إلى (٤٣) جلسة. وفي ٢٤ مارس ١٩٥١م ألفت الجمعية الوطنية لجنة ثلاثية تمثل الولايات الثلاث برئاسة رئيس الجمعية أبوسعادة العالم لمباحثه الملك في بنغازي بشأن تأليف الحكومة المؤقتة، وفي ٢٩ مارس سنة ١٩٥١م بحثت الجمعية تقرير اللجنة الثلاثية و اتخذت بإجماع قرار بتأليف حكومة اتحادية مؤقتة[٤].

(٣)- سالم الكبتي، الدستور في ليبيا تاريخ وتطور، دار الساقية، (بنغازي،٢٠١٢م)، ص٣٧.

(٤)- حسن سليمان محمود، ليبيا بين الماضي والحاضر، مؤسسة كل العرب، (القاهرة ١٩٦٢م،)٢٦٤-٢٦٥.

وفي إطار عمل الجمعية في إعداد مشروع الدستور قامت بإقرار مبدأين صاغتهما في شكل قانونين أساسيين اعتبرا ضروريين لتقرير مستقبل الدولة الليبية، وهما: شكل الدولة الاتحادي، ونظم الحكم الملكي[1] فتعددت الآراء حول ذلك حيث قدم الوفد البرقاوي مقترح مفاده أن يكون شكل الحكومة المقبلة لليبيا اتحادية ملكية ويكون أمير برقة هو الملك[2]، بينما مندوب فزان أقترح أن تحمل الدولة طابعاً اتحادياً فيدرالياً، وتصدى الطرابلسيون لتلك الاقتراحات مؤكدين أن إقامة الدولة الموحدة يتلاءم بصورة أعظم مع مصلحة ليبيا، وعلى الرغم من ذلك اتخذت الجمعية الوطنية قرارها بغالبية الأصوات بإقامة دولة اتحادية فيدرالية مستقلة يكون نظام الحكم فيها ملكياً دستورياً ذات سيادة ديمقراطية نيابية، وفقاً لقرار الجمعية العامة لأمم المتحدة الصادر في ١٩٤٩م[3].

هنا برزت أمام ادريان بلت مجموعة من الصعاب عند بدء الجمعية في مسألة الدستور، كان من أبرزها الاختلاف الواضح عند بعض الأطراف الليبية في تفسير مهمة الجمعية الوطنية وهل كونها مطالبة بوضع مشروع الدستور أم أن الهدف من عملها هو صياغة مسودة دستور الذي يعرض على البرلمان للتصويت عليه، ولتسهيل المهمة أمام الجمعية أرسل بلت برسالة إلى رئيسها في ١٣أبريل ١٩٥١م، معرباً عن رأيه في أن تعد الجمعية مشروع دستور متكامل ؛ لأنه لاحظ أن استعمال كلمة مسودة تفسر من قبل بعض الأعضاء وكأنه انتقاص من عمل الجمعية.[4] وقد تساءل العضو الطرابلسي عبد العزيز الزقلّعي، عمّا إذا كان المطلوب وضع مشروع دستور، أم دستور بكامله و ردّ عليه رئيس الجمعيّة (أبو الأسعاد العالم) مؤيّدا من العضو عمر شنّيب بأنه اتفق على وضع دستور لا مشروع دستور[5].

وقد أقرَّت الأمم المتحدة أعمال هذه الجمعيّة وباركتها بينما عبدالرّحمن عزّام أمين جامعة الدّول العربيّة وقف ضدَّها وطعن في شرعيتها !. رفضاً الاعتراف بها، كما رفض قبول

(١)- محمد يوسف المقريف، المرجع السابق،ص٢٥٨.

(٢)- تقرير مفصل عن جهود ومهمة وفد الهيئة التأسيسية الليبية لدى رؤساء وفود الدول العربية،يناير -فبراير ١٩٥١م، ص٩

(٣)- امال السبكي، المرجع السابق،ص ٣٣٦.

(٤)-مفتاح السيد الشريف، المرجع السابق، ص٥٤٧.

(٥)هنري أنيس ميخائيل، العلاقات الإنجليزية الليبية مع تحليل للمعاهدة الإنجليزية الليبية، الدار القومية للنشر والطباعة (مصر،د.ت)ص ١٧١.

ليبيا المستقلة كعضو في الجامعة إبان فترة ترأسه لها، حيث طلب من اللجنة السياسية لجامعة الدول العربية أن ترفض الاعتراف بدولة ليبيا ثم أتبع هذا التصريح بأن دفع مجلس الجامعة نحو اتخاذ هذا القرار الخطير بتاريخ ١٧ مارس ١٩٥١ بالرغم من احتجاج بعض الوفود العربية خاصة العراق ولبنان التي رأيا بأن المشكلة الدستورية الليبية هي مسألة داخلية لا يحق لجامعة الدول العربية أن تتدخل فيها، ومع ذلك استمر عزام في الإدلاء بتصريحاته المناهضة للإجراءات والقرارات التي ابتدأت تشكل أسس بناء الدولة الليبية، كذلك استمر عزام في حرصه على توجيه النداءات إلى الشعب الليبي مباشرة دون مخاطبة قيادات هذا الشعب.[١]

ورداً على بلت على الانتقادات التي وجهت للجمعية الوطنية لاختيار أعضائها من قبل الاحزاب والجمعيات السياسية في ليبيا، حيث تحدث موضحاً ((**أن تمثيل الاقاليم الثلاثة على قدم المساواة دعت اليه ضرورة سياسية لم يكن في الامكان التغلب عليها، ذلك لان كلا الاقليمين فزان وبرقة قد جعلا المساواة في التمثيل شرطاً لازماً لاشتراكهما سواء في لجنة الواحد والعشرين أو في الجمعية الوطنية**)) وأضاف قائلاً انه لولا الموافقة على تلك الفكرة لما أمكن إنجاز أول خطوة باتجاه تحقيق الوحدة الليبية[٢].

لم يكن الرد الذي قدمه بلت مقنعاً للوطنيين في ليبيا ولهذا شرعوا في تقديم شكاوى كثيرة الى سكرتير هيئة الأمم المتحدة يعلنون فيها تأييدهم لفكرة انشاء دولة ليبية حرة ديمقراطية موحدة مستقلة، ونددوا بالمحاولات التي يقوم بها أدريان بلت لتحويل ليبيا الى مستعمرة غربية تحتفظ فيها بريطانيا وأمريكا وفرنسا بقواعد عسكرية عن طريق موافقة الاقليات الليبية، كما احتجت اللجنة الطرابلسية في مذكرة على اختلاف تعداد أقسام ليبيا الثلاثة التي مثلت في الجمعية بعددٍ متساوي وهذا إعطاء فرصة للعناصر غير الكفوء التي كانت مسانده لدول الاستعمارية أن تتميز عن العناصر المثقفة المتعلمة التي تسكن المدن والتي تزيد نسبتها في طرابلس على غيرها من الأقاليم الليبية[٣]، وحملة اللجنة الطرابلسية الأمير

(١)- سامي حكيم، استقلال ليبيا، ص١٦٨.

(٢) ئي.آ.ف.دي كاندول، الملك إدريس عاهل ليبيا حياته وعصره، دار محمد عبده بن غلبون (لندن، ١٩٨٨م)، ص١١٤.

(٣) طاهر الزاوي، المصدر السابق، ص٢٧٩

إدريس ما قد تصل إليه الأمور من تعقيد، ومسؤولية ما وصلت إليه أعمال بلت واللجان الدستورية التي عمل على إنشائها.[1]

وقد قام بعض أعضاء الجمعية الوطنية وفقاً لتلك التطورات بتنظيم مسيرة احتفالية في طرابلس في ٦ ديسمبر سنة ١٩٥١م ليستعرضوا الفرحة الكبرى بتشكيل الجمعية وبالقرارات التي أخذتها، لكن ما كان من الشعب إلا أن اجتمع عند جامع السنوسية وأصبح يهتف بوحدة ليبيا واستقلالها وبسقوط الفيدرالية[2]، ورغم كل تلك العقبات التي كانت تعصف برجال الجمعية الوطنية إلا أنهم سعوا إلى اتخاذ خطوات حاسمه من أجل إنجاز الدستور والإعلان عن استقلال ليبيا.

خامساً: دور الأمم المتحدة في التطور الدستوري:

بعد أن أتخاذ أدريان بلت الخطوات الاولى لتنفيذ قرار الأمم المتحدة القاضي باستقلال ليبيا في الفترة التي حددتها لتحقيق ذلك، اتجه إلى وضع خطة لإقامة الاطار الدستوري لليبيا فقد قدم كل دعم للجمعية الوطنية المسؤولة عن هذه القضية منذ تأسيسها[3]،وفي إطار الشروع بإعداد الدستور عقدت تلك الجمعية جلساتها لمناقشة موضوع بناء دولة ليبيا، فقررت في جلستها الثانية في ٢ ديسمبر ١٩٥٠م بغالبية الأصوات إقامة نظام حكم ملكي دستوري، وأصدرت قرار مبايعة الأمير محمد إدريس السنوسي ملكاً على المملكة الليبية المتحدة[4]

كما اتخذت قراراً في اجتماعها الثالث في ٤ ديسمبر ١٩٥٠م بتشكيل لجنة تعكف على صياغة دستور البلاد من بين أعضاء الجمعية الوطنية، و اتفق على أن يكون أعضاؤها بالتساوي بين الأقاليم الثلاثة على غرار النظام الذي اتبع في تشكيل لجنة الواحد والعشرين ثم جمعيّة الستين،وقد تمنّى الطرابلسيون أن يكون عدد اللجنة الجديدة كبيراً، ليلبّي تعدّد أحزابهم، ولكن سرعان ما برزت مشكلة لدى فزان الذي لا يتوفّر فيه الكثير من ذوي الخبرة القانونيّة، ولذا تم الاتفاق على أن يكون عدد الأعضاء ستة من كلّ إقليم، رغم احتجاج الفزانيين لعدم قدرتهم على توفير هذا العدد،

---

(١)-محمد الهادي أبوعجيلة، المرجع السابق،ص٤٩٥.

(٢)- امال السبكي، المرجع السابق،ص٣٣٦.

(٣)- مجيد خدوري، المرجع السابق، ص ١٦٤.

(٤)- محمد عثمان الصيد، محطات من تاريخ ليبيا " مذكرات محمد عثمان الصيد" نشرها طلحة جبريل، منشورات الجبهة الشعبية (الرباط، ١٩٩٦م)،ص ٦٤-٦٥.

وقـد سُـميّت اللجنـة بلجنـة الدسـتور وعـدد أعضـاءها (١٨)عضـو، وقـد ترأسّـها عمـر فـائق شنّيب من برقة[١]،واستكمالاً للإجراءات السابقة قـدم عمر شنيب فـي أحـد جلسـات الجمعيـة الوطنية تصميماً نفذه لشكل علم البلاد وقـد أقرتـه الجمعيـة ووافقـت عليـه فـي نفـس الجلسة السابقة الذكر[٢]، ثم نوقشت بعد ذلك منهجيّـة العمـل؛ هـل تقـدّم كـل مـادّة إلـى جمعيّـة السـتين للمصـادقة عليهـا، أم تقـدّم إليها مجموعة من المواد وقد تمت الموافقـة علـى الطريقـة الثانيـة مـع ضـرورة قـراءة كـل مجموعــة مــن المــواد ثــلاث مــرّات قبــل اعتمادها[٣].

كما اتفق على أن تعقد اللجنة اجتماعاتها كل يوم أثنين في الأسبوع بدلا من الأحد ؛ احتراماً للخبــراء القــانونيين ومــوظّفي الســكرتارية وأغلـبهم مـن المسـيحيين، وفـي ٥ ديسـمبر عقدت لجنة (١٨) اجتماعاً لصياغة وثيقة البيعـة للسيّد محمد إدريس السنوسي كملك علـى البلاد، و رغبة منها فـي التسريع وتيرة عملها قامت بتشكيل لجنة فرعية تتكون من ست أعضـاء (أثنـان مـن كـلّ إقلـيم) عرفـت باسـم (لجنـة العمـل) ترأسّـها خليل القـلاّل مـن برقـة وحددت مهمتها بصياغة نص مسوّدة الدستور على أن تعرض بعد ذلك على لجنة الدستور لمناقشـتها و إقرارهـا وإحالتهـا إلـى الجمعيّـة الوطنية[٤].

وفـي يـوم ١١ ديسـمبر بـدأت لجنـة عملهـا بالإشـراف علـى عمليـة النقـل السلطات مـن الإدارتـين الحـاكمتين فـي ليبيـا إلـى الحكومـات الإقليميـة الليبيـة، وتـم تحديـد اختصاصـات،[٥] وتوزيـع السـلطات بـين حكومـة الاتحاديـة و (الإدارات المحليّة). ونظرا إلى عدم معرفتهم بنظام السلطات فـي الدول الفدراليّـة، طلب الأعضـاء مـن بعثـة الأمـم المتحـدة إمـدادهم بالأنظمـة الاتحادية فـي العالم، و قام عـوني الــدجّاني المستشــار القــانوني للممثلــين البرقاويين بتوفير دساتير جميع الدول العربيّة،و دعت اللجنة السيد عوني الدجّاني لمساعدتها في وضع دباجة مسودة الدستور، ومنذ ذلـك الوقـت حتـى منتصـف مـارس ١٩٥١م، عقـدت لجنـة العمـل سلسـلة اجتماعـات، كمـا أخـذ كـل

(١)- سالم الكبتي، المرجع السابق، ص ٣٨.

(٢)- تـألف العلـم مـن اللـون الأحمـر والأسـود والأخضـر يتوسـطه هـلال ونجمـة (لونهـا أبـيض). محمـود الشنيطي، المرجع السابق، ص٢٥٠.

(٣)- سامي حكيم، استقلال ليبيا، ص١٦٨.

(٤) محمد المقريف، المرجع السابق، ص٢٧١.

(٥) محضـر جلسـات الجمعيـة التأسيسـية الليبيـة، ج١، ص١٥٧.

عضو مجموعة من الوثائق ليقوم بدراستها في بيته، ومنذ البداية وضع أدريان بلت مندوب الأمم المتحدة، ومعه عمر لطفي المستشار القانوني (من مصر) وموظّفي بعثتها، أنفسهم تحت تصرّف (الجمعيّة الوطنية) ولجنة الدستور والعمل، كما استدعي خبراء شؤون ماليّة للمساعدة[١]، وقد طلبت لجنة الدستور من المستشار القانوني لبعثة الأمم المتحدة بوضع مسودة الفصل الأول الذى احتوى على شكل الدولة ونظام الحكم،وكذلك الفصل الرابع الذى نص على سلطات الحكومة الاتحادية، مما جعله يحضر جميع الاجتماعات تقريباً[٢].

وقد حرص أدريان بلت على ألاّ يتدخّل أو يفرض أراءه على لجنة العمل، ولكنه أبدى استعداده لإعطاء أية مشورة تطلب منه، وأن بابه مفتوح أمام الجميع سواء في بيته أو مقرّ البعثة حسب قوله، كما أن "بلت" نوّه عن الجهود التي بذلها أعضاء لجنة في صياغة الدستور، وقدم شكره لرؤساء اللجان وهم: سليمان الجربي (من برقة)السكرتير الأوّل لجمعيّة الستّين؛ منير برشان (من طرابلس) مقرّر لجنة ال ١٨ ؛ أبوبكر بن أحمد (من فزان) مساعد مقرّر لجنة أل ١٨ ؛ محمد الهنقاري (من طرابلس) عضو لجنة العمل؛ عبد الجوّاد فريطيس (من برقة) عضو لجنة الستة، وكان بين هذه اللجان اتصال مستمرّ وتبادل للمعلومات، وكثيراً ما أوقفت لجنة الستّة مناقشاتها لتستشير لجنة الدستور، وأحيانا الجمعية الوطنية أو أن تطلب توجيهات من الأمير إدريس السنوسي في القضايا السياسيّة المهمة، كما كانت دائما تطلب مشاورة مندوب الأمم المتحدة ومعاونيه، خاصة في المعضلات القانونيّة والفنيّة[٣].

لقد قامت لجنة العمل بدراسة النظم الاتحادية المختلفة في العالم واضعة في اعتبارها عند توزيع السلطات بين الهيئات الاتحادية والإقليمية، كما تم ترجمة دساتير اثني عشر دولة اتحادية من دول العالم ومنها: إندونيسيا والأرجنتين واستراليا والسويد وفنزويلا و البرازيل، ألمانيا،الهند، سويسرا، الولايات المتحدة،، ثم أضيفت هولندا، و جنوب

---

(١)- المؤتمر الوطني للمعارضة الليبية إعداد لجنة دراسة دستور ١٩٥١، ٨سبتمبر ٢٠٠٩ http://elgazwi.blogspot.com

(٢)- مفتاح السيد الشريف، ليبيا الصراع من أجل الاستقلال، دار الفرات (بيروت، ٢٠١١م) ص٥٤٩.

(٣)- مفتاح السيد الشريف، المرجع السابق، ص٥٣١.

أفريقيا وقامت لجنة العمل بدراستها و الاستفادة منها في أعداد فصول الدستور[1]، حيث عقدت لجنة العمل حوالي (٩٦) اجتماعاً أعدت فيها جميع نصوصه،التي حددت شكل الحكم المتوقع في الدولة أتحادي أو فدرالي وحقوق الشعب والحريات الأساسية واستندت على وثيقة إعلان حقوق الإنسان الصادرة عن هيأة الأمم المتحدة في ١٠ ديسمبر ١٩٤٨م، كما اعتمدت تلك اللجنة على ميثاق العالمي لحقوق الإنسان في تحديد حقوق الأقليات في ليبيا فقد عملت على وضع بنود تنص على حرية المعتقد الديني والتعبير وحرية التجمع، فاعتبرت حقوق الأقليات من ضمن حقوق الشعب، ليكفل لهم الدستور الحافظ على حريتهم الشخصية وحماية حرمة منازلهم وأملاكهم مع ضمان حقهم في ممارسة الوظائف وتقديم الشكاوي أمام القضاة، ووضعت مواد في دستور متصلة بالملك وولاية العهد والبرلمان وشكل الحكومة وانتهت لجنة العمل من صياغة الدستور في (١٢) فصل و (٢١٣) مادة وقد دلت محاضر جلسات لجنة العمل على مدى الجهد الشاق الذي بذله أعضاؤها في سبيل إعداد الدستور وسلامة عملها[2].

وقد أرسلت لجنة العمل تلك الفصول التي اعدتها إلى لجنة الدستور لكي تقوم بدراستها والموافقة عليها، ولم تُدخل لجنة الدستور التي عقدت (٢٥) اجتماعاً أي تعديلات هامة على المشروع، وبعد أن اقرتها تم أحالتها إلى الجمعية الوطنية، التي بدأت في دراسة ومناقشة مسودة الدستور بتاريخ ١٠ سبتمبر ١٩٥١ م،ونظراً للضغوطات المتواصلة التي اخذت تمارسها الجماهير الطرابلسية المعارضة لنظام الحكم عن طريق المظاهرات التي عمت شوارعها، تدخل الملك إدريس وطلب من أعضاء الجمعية الوطنية الانتقال إلى بنغازي، ليبعدها عن أجواء طرابلس المشحونة بتدخلات الأحزاب السياسية وتأثيراتها الغير المباشرة على سير عملهم[3]، فانتقلت الجمعية إلى بنغازي وواصلت اجتماعاتها حتى أواخر سبتمبر، حيث تمكن أعضاءها من دراسة نصوص الدستور في جو أكثر هدوء[4].

ونتيجة لمساعدة أدريان بلت وتوجيهات إدريس السنوسي إلى جانب تنازل الأطراف السياسية عن موقفهم زالت بعض نقاط

(١)- نقولا زيادة، المرجع السابق، ص١٧٩.

(٢)-سالم الكبتي، المرجع السابق، ص ٣٨ ٦٢،٦١.

(٣) -محمد الهادي أبو عجيلة، المرجع السابق، ص٤٦٣.

(٤) - مجيد خدوري، المرجع السابق،ص١٩٩.

الخلاف، وابرزها التصارع حول مسألة تحديد العاصمة حيث ادرك أدريان وجود الخلاف بينهم سببه أن البرقاويين كانوا يريدون أن تكون (بنغازي) هي العاصمة من أجل الإسراع في أعمارها بعد الدمار الذى تعرضت له أثناء الحرب العالمية الثانية،ولكن الطرابلسيين طالبوا باختيار (طرابلس) العاصمة وأيدهم في ذلك الفزانيين، وحُسماً للخلاف وفي محاولة لتهدئة التوتر بين الأقاليم تم التوصل إلى حل توافقي، حيث زار بلت الملك إدريس عارضاً عليه أراء الأعضاء فرأى اختيار المدنيتين عاصمتين للمملكة الجديدة، على أن يكون مقر الحكومة في طرابلس، وأن يعقد البرلمان جلساته في بنغازي، وقد نص الدستور على أن يكون مقر الحكم بالتناوب كل سنتين بعاصمة[١]، أما مسألة مجلسي النواب والشيوخ رأى بلت ألا يتم الاكتفاء بانتخاب أحدهما بل يجب أن يبدأ المجلسان عملهما عبر الانتخاب، وقد أثارت هذه الطريقة الخلافات بين أعضاء الجمعية الوطنية، فرأى البعض أن يطلب من المجلسين اختيار الممثلين من بين أعضاؤهم، ورأى فريق آخر أن تنتخب كل ولاية ممثليها من هذين المجلسين وتوصل الفريقين لحل هذا الخلاف عن طريق انتخاب مجلس النواب من الولايات لكن بموجب قانون انتخابي موحد[٢]ويتألف هذا البرلمان من مجلس شيوخ وعددهم (٢٤) بمعدل ثمانية لكل ولاية فيعين الملك نصفهم، ويعين الباقون من خلال الانتخابات على إلا يقل عدد ممثلي الولاية الواحدة عن (٥) نواب. وهكذا نالت فزان (٥) نواب، وبرقة (١٥) وطرابلس (٣٥) وفي نفس الوقت جعل لكل ولاية قانون أساسي،ويوجد بها مجلس تنفيذي وأخر تشريعي خاص بها، على أن يكون واليها ممثلاً للملك، كما جاء في بعض بنود الدستور ايضا أن الوزارة التي يعينها ويعزلها ملك غير مسؤول أمام البرلمان، بينما يختار الملك أعضاء مجلس الشيوخ بشرط ألا يتجاوز الأعضاء المعينين (٥٠%) بينما تنتخب مجالس الولايات الثلاثة الاعضاء الأخرين[٣]، وكذلك نص الدستور تحديد سلطات الملك، وتحديد مرتبه مع منحه الأحقية في توقيع بعض المعاهدات، مع إلزامه بعرض تلك المعاهدات على البرلمان للتصديق عليه.[٤]

و ما أن حل يوم السابع من أكتوبر ١٩٥١ حتى

---

(١)- مفتاح السيد الشريف، المرجع السابق،ص ٥٤٩.

(٢)- مجيد خدوري، المرجع السابق، ١٩٨.

(٣)- صلاح العقاد، ليبيا المعاصرة، ص٨٩.

(٤) -دي كاندول، المصدر السابق،ص١١٦

كانت الجمعية الوطنية قد انتهت من إقرار الدستور ثم صدقت بالأجماع على مواده بكامله وتم توقيع الوثيقة الدستورية من قبل رئيس الجمعية الوطنية الشيخ محمد أبو الإسعاد العالم والسيد عمر فائق شنيب عن برقة والسيد أبوبكر احمد أبوبكر عن فزان، واعترفت به الإدارتين الفرنسية والبريطانية، فبدأت مرحلة اخرى من مراحل اعلان الاستقلال هي نقل السلطات الى الحكومة الليبية المؤقتة[١].

غير أن هذه القرارات الصادرة من قبل الجمعية الوطنية واجهت بالرفض من قبل الشعب الليبي كما اكدت ذلك وثائق الأمم المتحدة في ٣٠ أكتوبر ١٩٥١ م " **بأن الشعب لم يكن راضياً لا بالجمعية الوطنية ولا بقراراتها**". ويمكن أن نستدل ذلك من موقف الطرابلسيون الرافض والذي تمثل بعدة صور منها: المظاهرات، والعرائض، والنداءات. حيث شكلت وفد ضم (١٠٠)مندوب من المدن والقرى والأرياف التي تضم إقليم طرابلس لإبلاغ الاحتجاج للملك إديس السنوسي، خاصة حول موضوع قيام الحكومة الفدرالية، إلا ان المهمة لم تنفذ، وأمام تعاظم الحراك الوطني، وتزايد النشاط المعادي للفدرالية وللجمعية الوطنية والحكومات المنفصلة[٢]، بدأ ادريان بلت عمله في تنسيق مع الإدارتين الحاكمتين في ليبيا لنقل سلطاتهما للحكومة الاتحادية في أقرب وقت[٣]،إذ أجبرت انجلترا وفرنسا على الإسراع بإعلان المملكة الليبية المتحدة والانتهاء من تسليم سلطاتها خلال المواعيد التي حددتها قرارات الدورة الأولى لمنظمة الأمم المتحدة، وقد أكد بلت مندوب المنظمة بليبيا على أنه وفقاً لقرارات الهيئة العامة تعلن ليبيا دولة مستقلة في يناير ١٩٥٢م [٤] .

وخلال شهر ديسمبر عام ١٩٥١ م موعد إعلان الاستقلال كثف المجلس الاستشاري اجتماعاته مع الحكومة الليبية المؤقتة لحلحلة المعوّقات أمام تأسيس دولة الناشئة كتوفير اعتمادات لميزانية الدولة الناشئة، وسّك العملة الليبية بتوفير غطاء مالي لها من منطقة

(١)- المصدر نفسه، ص١١٦.

(٢)- بروشين، المرجع السابق، ص ٣١٢،٣٤٣.

(٣)- دستور المملكة الليبية المتحدة،أقرته الجمعية الوطنية الليبية بمدينة بنغازي، السابع من أكتوبر ١٩٥١م،ص٤٤-٤٥.

(٤)- التقرير السنوي الثاني (التكميلي) لمندوب الأمم المتحدة في ليبيا أكتوبر ١٩٥١م،بخصوص استقلال ليبيا،مقدم لمجلس الأمم المتحدة، مركز البحوث ودراسات الجهاد الليبي رقم الملف ٢٢٠٣،ص٤٢٨.

الإستريليني وتدبير الأموال بفتح مفاوضات بالتنسيق مع المندوب الأممي لاتفاقيات عسكرية نظير مساعدات عينية لتغطية العجز المالي للدولة مع بريطانيا وفرنسا وأميركا التي لها قوات عسكرية في ليبيا كنتيجة من نتائج الحرب العالمية الثانية، وباقتراح من المندوب الأممي تم توقيع اتفاقيات قبل إعلان الاستقلال لكي تصير التزاماً عملياً وواقعياً بالاستقلال مع المنظمات التابعة للأمم المتحدة (اليونسكو، الصحة العالمية، الفاو، اليونيسيف، والعمل الدولية)، إلى جانب إبرام اتفاقية مع المنظمة الأمريكية للمساعدات الدولية "النقطة الرابعة" وحتى ليلة الاستقلال تواصل العمل الدؤوب في طرابلس ثلاثة أيام بلياليها ليسافر المجتمعون بعدها إلى بنغازي ليكونوا على موعدٍ مع الملك إدريس السنوسي(١).

وفي الساعة العاشرة من صباح ٢٤ ديسمبر سنة ١٩٥١م أعلن الملك إدريس السنوسي من قصر المنار بمدينة بنغازي أمام أعضاء الوزارة المؤقتة ومندوب الأمم المتحدة في ليبيا والممثلين الدبلوماسيين للدول الأجنبية، وأعيان من أقاليم ليبيا الثلاثة: ((**أن ليبيا التي تشمل برقة وطرابلس وفزان أصبحت دولة مستقلة ذات سيادة وأنها تعرف الآن باسم المملكة الليبية المتحدة**))، وبهذا اعتلى عرش الدولة الجديدة متخذاً لقب ((ملك المملكة))، وفي اليوم نفسه الذي أعلن فيه الاستقلال أصبح الدستور الليبي ساري المفعول(٢)،وعلى إثر هذا الإعلان قدم محمود المنتصر رئيس الحكومة المؤقتة الدستور الذي أصدرته الجمعية الوطنية واستقالة حكومته، التي قبلها الملك، ثم استدعاه وكلّفه بتشكيل الوزارة الجديدة،ومنذ ذلك الوقت أصبح الدستور ساري المفعول حتي تم تعديل بعض بنوده في عام ١٩٦٣ م لتنتقل الدولة من النظام الاتحادي (الفيدرالي) إلى النظام المركزي، وتم تعديل بعض القوانين مثل إعطاء المرأة الحق في التصويت في الانتخابات(٣).

ويمكن القول مما سبق أن الدستور الليبي الوليد الذي كان لهيأة الأمم المتحدة دوراً كبيراً في مساندته قد أقرّ عدداً من الحقوق التي لم تسمح بها دول كثيرة حول العالم في ذلك الوقت، مثل المساواة أمام القانون،و الحقوق

(١)- محمد عثمان الصيد، المرجع السابق،ص٧٧.

(٢) -التقرير السنوي الثاني (التكميلي) لمندوب الأمم المتحدة، ص٦.

(٣)- محمد عثمان الصيد، المرجع السابق،ص٧٧

المدنيـة والسياسـية، والمسـؤولية المتسـاوية في المهام والواجبات العامة، دون تمييز فـي الـدين أو العـرق أو الجـنس أو اللغـة أو الآراء السياسية و الثقافية، كما أن هذا الدستور قد أقر مبدأين وهما. الأول: توضيح الأسس التي يلتزم بها من أجل بناء المؤسسات التي تحكم الدولـة والثـاني تقويـة الاتفـاق بـين الأطـراف السياسـية المتصارعة علـى الكيفيـة التـي تـدار بها شئون الدولة.

هكذا تـم وضـع اللبنـة الأولـى لبنـاء دولـة ليبيا ونظام حكمها الذى لم يكن وليد اللحظـة، بل كـان انتاج مساعي كثيرة وجهـود جبارة بـذلها الرجال المخلصين لهذا الـوطن بمختلف أراءهم وتوجهـاتهم أضـف إلـى ذلـك اثمـرت جهـود الأمم المتحـدة من خلال البعثة التي أرسلتها إلى ليبيا برئاسـة ادريان بلت و العاملين معـه منذ وصـول تلك البعثة حتي صياغة الدستور ونقـل السـلطات مـن الإدارات الحاكمـة آنـذاك تمهيـد لطريـق لإعـلان اسـتقلال ليبيا فـي الموعد المحـدد له، الذى تم فيه ميلاد الأمة الليبية وتكوين دولة ديمقراطية مستقلة ذات سيادة تؤمن بالوحدة الوطنية وتصون الحقوق وتكفـل أقامـه العدالـة وتضمن مبادئ الحريـة والمساواة والإخاء وترعى الاقليات.

قائمة المصادر والمراجع

- أحمد زارم،مذكرات صراع الليبي مع مطامع الاسـتعمار ١٩٤٣-١٩٦٨م،الـدار العربيـة للكتـاب، (طرابلس،١٩٧٩م).

- ابراهيم عبـدالعزيز صـهد، معركـة الاسـتقلال صـراع مـن أجـل الحريـة والوحـدة والسـيادة عقبات أمـام الاسـتقلال http://www.libya-watanona.com/

-Adrian Pelt: Libyan Independence and TheUnitedNations,ACaseofPlanned Decolonization. he Carnegie Endowment for International Peace, New Haven & London, Yle University Press, 1970.

- أرويعي قناوي، بشير السعداوي ودوره فـي الحركـة الوطنيـة الليبيـة ١٨٨٤-١٩٥٢م، رسـالة دكتوراه، غير منشوره، كلية الآداب جامعة عين شمس، (القاهرة، ٢٠١١م).

- أسرة التحرير، ((المجلس الـدولي لليبيا ينتقل إلـى جنيـف))، جريـدة برقـة الجديـدة، ع ١٣٦٤، مطبوعات حكومة برقة (بنغازي،١٩٥٠ م).

- أسـرة التحريـر، ((المعتمـد البريطـاني يصـدر منشـوراً بانتقـال السـلطات غـالي الأميـر المعظـم))، جريـدة برقــة الجديـدة، ع ١٣٦٤، مطبوعات حكومة برقة (بنغازي،١٩٥٠ م).

- أمال السبكي: استقلال ليبيا بين هيئة الأمم المتحدة وجامعة الدول العربية ١٩٤٣-١٩٥٢م.

- التقرير السنوي الثاني (التكميلي) لمندوب الأمم المتحدة في ليبيا أكتوبر ١٩٥١م،بخصوص استقلال ليبيا،مقدم لمجلس الأمم المتحدة، مركز البحوث ودراسات الجهاد الليبي رقم الملف ٢٢٠٣.

- تقرير مفصل عن جهود ومهمة وفد الهيئة التأسيسية الليبية لدى رؤساء وفود الدول العربية، يناير / فبراير ١٩٥١م،مطبعة التقدم (القاهرة، د.ت)

- جمعية الوطنية التأسيسية الليبية، مجموعة محاضر الجمعية الوطنية لجنة الدستور المنبثقة عنها ١٩٥٠/١٩٥١ م،المركز الوطني للمحفوظات والدراسات التاريخية، شعبة الوثائق العربية، ملف رقم ٤٥، ج١

- جميل عارف، مذكرات عزام السرية، المكتب المصري الحديث، (القاهرة، د.ت).

- جون رايت: تاريخ ليبيا منذ أقدم العصور، ت عبد الحفيظ الميار و احمد اليازوري، دار الفرجاني، (طرابلس، ١٩٧٢م).

- حسن سليمان محمود، ليبيا بين الماضي والحاضر، مؤسسة كل العرب، (القاهرة ١٩٦٢م،).

- دستور المملكة الليبية المتحدة الذي أقرته الجمعية الوطنية في ٧ اكتوبر ١٩٥١م، مذكرة من مندوب الامم المتحدة في ليبيا إلى مجلس الامم المتحدة لليبيا بشأن اعمال لجنة الواحد والعشرين، الملحق الثاني.

-سالم الكبتي، الدستور في ليبيا تاريخ وتطور، دار الساقية، (بنغازي،٢٠١٢م).

- سامي الحكيم، استقلال ليبيا بين جامعة الدول العربية والأمم المتحدة، ط٢، مكتبة الانجلو المصرية، (القاهرة،١٩٧٠).

- سامي الحكيم، حقيقة ليبيا، مكتبة الانجلو المصرية، (القاهرة، ١٩٧٠).

- الصادق شكري، عبدالرّحمن باشا عزّام والقضيّة اللّيبيّة (سيرة ومسيرة) http://archive.libya-al -mostakbal.org/

- صلاح العقاد، ليبيا المعاصرة، معهد البحوث والدراسات العربية، (القاهرة،١٩٧٠م).

- طاهر أحمد الزاوي، جهاد الليبيين في ديار الهجرة، دارف محدودة، (لندن،١٩٨٥م).

- عبدالرحمن الجنزوري، رحلة السنوات الطويلة وقائع وتأملات في سيرة مواطن ليبي، منشورات مركز الجهاد، (طرابلس، ٢٠٠٠م).

- مجيد خدوري،ليبيا الحديثة دراسة في تطورها السياسي، دار الثقافة (بيروت، ١٩٦٦م).

- محمد عثمان الصيد، محطات من تاريخ ليبيا " مذكرات محمد عثمان الصيد"،نشرها طلحة جبريل، منشورات الجبهة الشعبية، (الرباط، ١٩٩٦م).

-محمد المفتي، جمعية عمر المختار، وزارة الثقافة والمجتمع المدني (طرابلس، ٢٠١٢ م).

- محمد الهادي بوعجيلة، (دور الحركة الوطنية الليبية في الكفاح ضد الاطماع الاجنبية في ليبيا عقب الحرب العالمية الثانية)، مجلة الساتل، د.ع، د.س، منشورات جامعة مصراته، (مصراته، د.ت).

- محمد يوسف المقريف، ليبيا بين الماضي والحاضر صفحات من تاريخ السياسي، ميلاد دولة الاستقلال، مج١،مركز الدراسات الليبية (بريطانيا، ٢٠٠٤م).

- محمود الشنيطي، قضية ليبيا، مكتبة النهضة المصرية، (القاهرة، د.ت).

- مفتاح السيد الشريف، ليبيا الصراع من أجل الاستقلال، دار الفرات (بيروت، ٢٠١١م)

-المؤتمر الوطني للمعارضة الليبية إعداد لجنة دراسة دستور ١٩٥١، ٨سبتمبر ٢٠٠٩

- http://elgazwi.blogspot.com/

ن.إ.بروشين، تاريخ ليبيا من نهاية القرن التاسع عشر حتى عام ١٩٦٩م، ترجمة عماد حاتم، ميلاد المقرحي، منشورات مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، (طرابلس، ٢٠٠٥م).

- نقولا زيادة، محاضرات في تاريخ ليبيا من الاستعمار الايطالي إلى الاستقلال، جامعة الدول العربية، معهد الدراسات العربية العالية، (د. م، ١٩٥٨م).

- الهادي ابراهيم المشيرقي، ذكريات في نصف قرن من الإحداث الاجتماعية والسياسية، مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية (طرابلس، ١٩٨٠م).

-هنري أنيس ميخائيل، العلاقات الإنجليزية الليبية مع تحليل للمعاهدة الإنجليزية الليبية، الدار القومية للنشر والطباعة (مصر،د.ت)

-ئي.آ.ف.دي كاندول، الملك إدريس عاهل ليبيا حياته وعصره، دار محمد عبده بن غلبون (لندن، ١٩٨٨م).

جريمة في الإيالة التونسيّة:
وثائق غير منشورة عن مقتل مهندس دار السكّة شارل بينوا (١٨٥٤)

A crime in the Tunisian province: unpublished documents on the murder of the railway engineer, Charles Benoit (1854)

محمد البشير رازقي

Rezgui Mohamed Bechir

أستاذ تاريخ مساعد

المعهد العالي للعلوم الإنسانية بجندوبة

Assistant Professor: Higher Institute of Human Sciences of Jendouba

الملخّص:

تتميّز الوثائق المقدّمة في هذه الدراسة بكونها لم تُنشر من قبل، إلى جانب مواكبتها للحظة مهمّة لتاريخ البلاد التونسيّة سواء على مستوى أزماتها الداخلية أو تموقعها في الصراع العالمي الفرنسي/الإنجليزي، وهي لحظة آخر فترة حكم أحمد باي (ت.١٨٥٥) وبداية حكم محمد باي (١٨٥٥-١٨٥٩).

ونُرجع أهميّة قضية قتل المهندس الفرنسي شارل بينوا Benoit Charles للظرفيّات والسياقات التي ميّزت البلاد التونسيّة. قُتل المهندس الفرنسي خلال آخر فترة حكم أحمد باي وبالتحديد عند ملازمه للفراش. كما أنّ الاسمين المرتبطين بالنازلة (بن عيّاد وشمامة) تمكّنوا من الهروب تباعا من الإيالة بعد سرقة جانب مهمّ من ثورة الإيالة. كما تميّزت هذه الظرفيّة بالتنافس الشديد بين إنجلترا وفرنسا على حيازة النفوذ والمصالح عالميّا، حيث اشتدّ الصراع على البلاد التونسيّة خلال هذه الفترة خاصة ماليّا وليس من الصدفة أن يبرز صراع شديد بين الدولتان سنوات قليلة بعد قتل بينواه حول احتكار تأسيس بنك في الإيالة.

فقد رغبت كلّ من إنجلترا فرنسا على احتكار مراقبة وتسيير الشؤون المالية للبلاد التونسي. كما تميّزت هذه الفترة باضطرابات سياسيّة عالميّة وأهمها الحرب العثمانية الروسيّة التي سعى الباي خلالها إلى دعم العثمانيين، حيث باع مجوهرات عائلته ومثله فعل مصطفى خزندار.

الكلمات المفاتيح: الإيالة التونسيّة، قتل، المهندس شارل بينوا دار، التنافس الإنجليزي/ الفرنسي، القرن ١٩

Summary:

The documents presented in this study are distinguished by the fact that they have not been published before, in addition to keeping pace with an important moment in the history of the Tunisian country, whether at the level of its internal crises or its position in the French/English world conflict, the last moment of Ahmed Bey’s reign (d. 1855) and the beginning of Muhammad Bey’s rule (1855-1859).

We return the importance of the case of the killing of the French engineer to the circumstances and contexts that characterized the Tunisian country. The French engineer was killed during the last reign of Ahmed Bey, specifically when he was lying in bed. In addition, the two names associated with the disaster (Ben Ayad and Shamama) were able to escape in succession from the Eyalah after stealing an important aspect of the Eyalah revolution. This circumstance was also characterized by intense competition between England and France for the possession of influence and interests globally, as the struggle over the Tunisian country intensified during this period, especially financially. England and France wanted a monopoly over controlling and managing the financial affairs of Tunisia. This period was also characterized by global political turmoil, the most important of which was the Ottoman-Russian war, during which the Bey sought to support the Ottomans, selling his family's jewelry, and likewise, Mustafa Khaznadar did.

Keywords: Tunisian regency, murder, engineer Charles Benoit Dar, English/ French rivalry, 19th century

تقديم الوثائق:

تشابكت في وثائق القضيّة ثلاثة شخصيّات أساسيّة. الضحيّة وهو المهندس الفرنسي العامل بدار السكّة التونسية شارل بينوا Charles Binoix ومحمود بن عيّاد من أثرياء الإيالة التونسيّة ومن أهمّ المشرفين على الخزينة التونسيّة، ونسيم شمامة وهو من أبرز أعوان الدولة وأشهر الأثرياء فيها. تورّط محمود بن عيّاد في سرقة جزء من الميزانيّة التونسيّة مرسلا "الأموال إلى فرنسا، واحتال على السراح للسفر إلى هناك للتداوي" ولما وصل لفرنس احتمى بها "وأعلن بعدم الرجوع" وحصل على الجنسيّة الفرنسية[1]. هرب محمود بن عيّاد في ١٤ جوان ١٨٥٢ و"ترك ابنه ونوّابه قائمين مقامه في خلاص ديونه ومباشرة أعماله وحضّهم على إرسال ما يستخلصونه من المال"[2]. وقد تدخّل قنصل فرنسا فيما بعد في تهريب عائلة بن عيّاد من الإيالة[3]. والفاعل الثاني المهمّ في هذه الوثائق هو نسيم شمامه الذي أخذ مكان محمود بن عيّاد مشرفا على الخزينة التونسيّة والذي هرب أيضا إلى فرنسا مباشرة بعد اندلاع ثورة ١٨٦٤[4].

قُتل المهندس الفرنسي شارل بنوا في ٧ أفريل ١٨٥٤[5]. يُعدّ هذا المهندس شخصية مؤثرة في انتاج السكة في عهد أحمد باي،[6]

---

(١) بيرم الخامس، محمد، **صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار**، المجلّد الثاني: القطر التونسي، تحقيق: علي بن الطاهر الشنوفي/ رياض المرزوقي، عبد الحفيظ منصور، المجمع التونسي للعلوم والآداب والفنون: بيت الحكمة، قرطاج، ١٩٩٩، ص.٤٣٢- ٤٣٣

(٢) بن أبي الضياف، أحمد. **إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان**، الدار العربية للكتاب، تونس، ٢٠٠٠، الجزء ٤، ص.١٥١. حذّر مصطفى خزندار الباي كثيرا من شخصيّة محمود بن عيّاد، وقد اعترف أحمد باي متأخّرا بتحذيرات خزنه دار. أنظر: نفس المصدر، ص.١٥٣

(٣) نفس المصدر، ص.١٥٤

(٤) نفس المصدر، ص.٤٨٧- ٤٨٨، ٦١٩ الهامش عدد ٣٠.

(٥) الأرشيف الوطني التونسي، السلسلة التاريخيّة، الصندوق: ٢١٩، الملف: ٣٣٧ مكرّر، الملف الفرعي: ٧/٣، و١٩.

(6) Fenina, Abdelhamid. *Les monnaies de la régence du Tunis sous les H'usaynides.Etudes de numismatique et d'histoire monétaire. (1705-1891)*, Université de Tunis. Faculté des sciences humaines et sociales de tunis,2003, p 195-199.

اذا المساس به وتهديده يعد مساسا بالسلطة وتهديدا لها، سواء على المستوى الاقتصادي أو على مستوى هيبة السلطة. فقد كان مسؤولا عن دار السكّة (مؤسسة إنتاج النقود) في الإيالة التونسيّة في فترة مهمّة وحسّاسة من تاريخ البلاد وضمن سياق عالميّ تميّز بالتنافس الإنجليزي/الفرنسي على تقاسم النفوذ. تبرز أهميّة شارل بينوا عند أحمد باي من خلال رسائل الباي نفسه الى القنصل الفرنسي، فقد كتب بتاريخ ٢٣ رجب ١٢٧٠/ ٦ أفريل ١٨٥٤: " نوكد لكم أني استعملت ولازلت أستعمل ما في وسع البشر من البحث عن فاعل ذلك, و أذكيت العيون والجواسيس...وكاتبنا بذلك عمالنا في أطراف العمالة خشية فراره...وجهنا أمير اللواء إبننا صالح زيد باش حانبه في عقد من الفرسان لموضع مصابه, وأمرناه ان يأتي لنا بساير من يسكن تلك الناحية, فأتى بجميعهم, وأودعناهم السجن حتى يظهر لنا من حالهم ما نرجوا الاطلاع به على الحق,والحاصل أن أعمال الفكر واظهار ما عندي من العناية في هذه النازلة هو عمل ليلي نهاري حتى أذهلني عن كل نازلة غيرها, لأنني تأثرت منها أوجع تأثير, زيادة على ما يجب علي من الاحتفاظ على ساير المخلوقات بايالتي...".[١] تشابك في عملية قتل المهندس شارل بنوا بالمساس بمصالح الايالة الاقتصادية والسياسي. في هذا الإطار نضع العقوبة الجسدية التي سلطت على قاتلي شارل بنوا حيث تم " تعليقهم في السور". تسعى السلطة للانتقام لكرامتها ومكانتها من مرتكب عملية القتل، ولكنها لا تنسى ان تحذر كل من تسول له نفسه أن يتحداها مثلما تحداها قاتلي شارل بنوا. ومن هنا تأتي العبرة من تعليق المذنبين في السور حيث أنهم يوضعون مباشرة أمام أنظار "العامة"، و" في احتفالات التعذيب يبدو الشعب كشخصية رئيسية وحضوره الحقيقي والماثل مطلوب لاستكماله. فالتعذيب، حتى ولو كان معروفا، اذا جرى بصورة سرية قلما يكون له معنى،والعبرة كانت مطلوبة، ليس فقط بإيقاظ الوعي في أن أقل مخالفة سوف تلقى العقاب القوي، بل بإثارة مفعول الرعب بمشهد السلطة وهي تصب سعار غضبها على الجاني"[٢].

(١) السلسلة التاريخية. الصندوق.٢١٩ مكرر. الملف.٣٣٧. مكرر.٧/٣. الملف الفرعي: ٧٣. وثيقة عدد.٢٢.

(٢) فوكو، ميشال. **المراقبة والعقاب: ولادة السجن**، ترجمة: علي مقلّد، مركو الانماء القومي، بيروت، ١٩٩٠، ص٨٨

ونُرجع أهميّة قضية قتل المهندس الفرنسي للظرفيّات والسياقات التي ميّزت البلاد التونسيّة[1]. قُتل المهندس الفرنسي خلال آخر فترة حكم أحمد باي وبالتحديد عند ملازمه للفراش. كما أنّ الاسمين المرتبطين بالنازلة (بن عيّاد وشمامة) تمكّنوا من الهروب تباعا من الإيالة بعد سرقة جانب مهمّ من ثورة الإيالة. كما تميّزت هذه الظرفيّة بالتنافس الشديد بين إنجلترا وفرنسا على حيازة النفوذ والمصالح عالميّا، حيث اشتدّ الصراع على البلاد التونسيّة خلال هذه الفترة خاصة ماليّا وليس من الصدفة أن يبرز صراع شديد بين الدولتان سنوات قليلة بعد قتل بينواه حول احتكار تأسيس بنك في الإيالة. فقد رغبت كلّ من إنجلترا فرنسا على احتكار مراقبة وتسيير الشؤون المالية للبلاد التونسي[2]. كما تميّزت هذه الفترة باضطرابات سياسيّة عالميّة وأهمها الحرب العثمانية الروسيّة التي سعى الباي خلالها إلى دعم العثمانيين، حيث باع مجوهرات عائلته ومثله فعل مصطفى خزندار[3].

تتميّز الوثائق المقدّمة في هذه الدراسة بكونها لم تُنشر من قبل، إلى جانب مواكبتها للحظة مهمّة لتاريخ البلاد التونسيّة سواء على مستوى أزماتها الداخلية أو تموقعها في الصراع العالمي الفرنسي/الإنجليزي، وهي لحظة آخر فترة حكم أحمد باي (ت.١٨٥٥) وبداية حكم محمد باي (١٨٥٥- ١٨٥٩).

حُرّرت الوثيقة الأولى بعد وفاة شارل بينوا بعد أن قدّمت زوجته شكاية بمحمود بن عيّاد ونسيم شمامه كونهم أخلّوا بعقد كان يربطهم بزوجها قُبيل وفاته بحكم موقعهم كمسؤول أوّل عن سكّ النقود بدار السكّة بتونس. تُبرز لنا هذه الوثيقة معلومات مهمّة وهي العلاقة الوطيدة بين محمود بن عيّاد ونسيم شمامة وعلاقاتهم المالية المتشابكة قبل هروبهم تباعا من الإيالة. كما تُبين لنا

(١) تعدّدت نوازل قتل الأجانب في تلك الفترة في الإيالة التونسية. أنظر: رازقي، محمد البشير "حوادث القتل تجاه الأوروبيّين والمحميّين في الحاضرة تونس قُبيل انتصاب الحماية الفرنسيّة بتونس (١٨٨١): الفاعل الاجتماعي ورهاناته"، **مجلّة الدراسات التاريخيّة والاجتماعيّة**، كلية الآداب والعلوم الانسانية، جامعة نواكشوط، العدد ٣٤، ٢٠١٨، صص.٣٠- ٦١

(٢) رازقي، محمد البشير. **إيالة وإمبراطوريتان: البلاد التونسية والصّراع على عهد الأمان (١٨٥٥-١٨٧٠)**، دار كلمات للنشر والتوزيع، مصر، ٢٠٢١، ص.٢١ =

= وما بعدها

(٣) نفس المصدر، ص.١٥٧- ١٦٥ (توفّي أحمد باي آخر شهر ماي ١٨٥٥)

الوثيقـة تـزامن مـوت شـارل بينـوا مـع اشـتداد الأزمة بينه وبين بن عيّاد وشمامة. كما أبـرز لنا تقريــر الشــكوى الضــغوطات التــي كانــت مسلّطة علـى شـارل بينـوا مـن قبـل شـمامة وخاصّة بن عيّاد، حيث لم تُخفي الوثيقة عدم رغبة بينوا في العمل معهم.

من ناحية أخرى، نبرز لنا الوثيقـة الثانيـة والثالثة والرابعــة الاضــطراب الــذي أصــاب الســلطة التونسيّة وخاصة أحمد باي، وهـو مـلازم سـلفا لفراش المرض، بعـد قتـل بينـوا. بيّنت لنا هـذه الوثيقــة الأهميــة التــي يحتلّهــا المهنــدس الفرنســي فــي المعــاملات الماليــة للــبلاد التونسـيّة، وبـرز لنـا خاصّـة ارتبـاك السـلطة مـع عدم عثورها على أدلّة واضحة وملموسة عـن قاتـل المهنـدس حيـث اضـطرّت إلـى إعـدام أربعــة رجــال بعــد اعتــرافهم تحــت التعــذيب واعتقال جماعيّ لأهاليهم. فلم تقم السلطة سوى باعتقال سكّان المنطقة التي قُتل فيها المهنـدس وعـذّبت النسـاء الرجـال. إذا بقـي مرتكـب هـذه الجريمـة، حسـب رأينـا، مجهـول الهويّــة رغــم المحــاولات اليائســة للســلطة التونســيّة، ربّمــا بســبب ضــغوطات القنصــل الفرنسي أو حماية لبعض أعوانها.

الوثائق:

الوثيقة عدد ١:

"تعريب حكومة مجلس قنصلاتو جنرال فرانسا بتـونس. إنّ المجلـس المجمـوع فـي دريبـة كمـرك (كـذا: الجمـارك) ومكـوّن مـن السـنيور باسـكال كانـدولف والسـنيور إيميليـان روسّـو الاثنـين تجّـار فرنسـيس متـوظّفين فـي هـذه المدينــة ومســمّايين (أي مُعيّنــين) قضــاة بموجب أمر مسيو بقلار نايب ملوكي وقنصل جنرال فرانسا رقـم ٢١ يونيـو، ومـن السيّد أحمد الـوزير والسـيّد محمـد التـومي قضـاة، والسـيد محمـد الـوزير أمـين التجّـار ورئـيس المجلـس ثلاثتهم رعايا تـونس مسمّايين (معيّنين) مـن سـعادة بـاي تـونس، ومُعـانين (أي بإعانـة) مســيو كابريــل والنســي سمســار وترجمــان قنصلاتو جنرال فرانسا مسمّى من القنصلاتو المذكور معرّف عند القضاة المذكورين. وقد اجتمع جملة أمرار لأجل الحكم في الاختلاف الحاصل بين مدام ادلين بينواه أرملة المرحوم شـارل بينـواه مهنـدس فـي خدامـة سـعادة الباي منصرفة باسم الخصوصي، كما أيضا بما أنها وكيلة بنتها شرعيّا، ووكيلها مسيو أوجين فوانـا فرنسـيس فـي هـذه المدينـة وكيـل خصوصــي مفــوّض بــذلك بموجــب أمــر خصوصـي رقـم ٢١ يونيـو وبـين السـنيور نسـيم

شـمامه رعيّـة تـونس ووكيلـه السـنيور بـاز سـوديتو توسـكانا مفـوّض بـذلك بموجـب أمـر باللغة العربيّـة. وإنما فـي اليوم المعيّن لأجل يجتمـع المجلـس آخـر مـرّة قـد حكـم حتميّـا موسـيو باسـكال كانـدولف وأميليـان روسّـو القضـاة المـذكورين حـين سـمعوا أن القضـاة التونسيين المذكورين أعلاه فضّوا في غيابهم حكومـه وقـدّموها لسـعادة البـاي، التزمـوا أن يفضّـوا لـذاتهم حكومـه فـي القضـيّة ذاتهـا ولذلك شرحوا ما هو آتي ذكره.

شـرح صـورة الواقـع: إنّ موسـيو شـاول بينـواه كان عقد في في ١٩ مارث (مارس) ١٨٥٢ مع القايد نسيم شمامه كنتراتو بموجبه يتعهّد أن يقدّم لهذا الأخير فـي مدّة خمسـة أعـوام ٢٠٠ قنطار سكّة نحاس كل شهر لكي يُضربوا فـي دار السـكّة المجعـول لهـذا الخصـوص. فشـارل بينواه المذكور من بعدما تجهّز ليُقدّم ما ذُكـر وجـد شـغله موقـوف بالاختلافـات التـي كـانوا يقـدّموها لـه وكـلا (ء) الحكـم. وشـرح هـذه الاختلافات للقايد نسيم شمامه بجملة جوابات مشروحة في زمامه المختصّ بنسخ الجوابات. ومـن حيـث أنّ المـذكور مـا عمـل تأويـل لأجـل تدبير الشغل موسـيو بينـواه أخبـر بـذلك سـيادة الخزنـدار الـذي أشار عليـه بـأن يمشـي للسـيّد محمود بن عيّاد الذي في باريز (باريس). وكان كـذلك أنّـه توجّـه لعنـده، وبمـا أنّـه كـان ناقـل الكونتراتو الذي انعقد مع شمامه قبل بإفساد هـذه الحجّـة بشـرط أنّـه عنـد رجوعـه لتـونس القايـد شـمامه يـدفع لـه قيمـو تقديماتـه ومصاريفه مـن غيـر ربـح ولا خسـارة. وبـن عيّـاد التـزم أن يعلـم القايـد شـمامه علـى هـذه الشروط. كما صار الاتفاق ضمن جواب مختوم الـذي توكّـل بـه موسـيو بينـواه أن يُسـلّمه لمـولاه. ولـذلك هـذا الكونتراتـو المعمـول نسختين كل واحد منهم مُمضية بخـطّ يد أحد المتعهّـدين فقـط قـد تبـدّل، وموسـيو بينـواه حين استلم ذلك الممضي بخطّ يده سلّم لبن عياد ذلـك الممضـي بخـطّ يـد نسـيم شـمامه. فلأجـل إجـري (أي إجـراء) هـذا الاتّفـاق نسـيم شمامه أعطي لبينواه الإذن بخطّـه أنّـه يسلّم للسيّد بهرام وكيل سعادة الباي في دار سكّة النحـاس البـاقي عنـده. وجـرى ذلـك بموجـب وصولات مسلّمة إلى بينواه مـن السـيّد بهـرام المذكور. وحينئذ بينواه قدّم حسابات تقديماته إلى نسيم شمامه وطلب منـه قيمتهم الـذي هـو: ٦٥٩١,٣٠ قيمـة حسـابات مكينـات وأوايـل آلات إلـخ. ٩٣٢٧١,٣٠: قيمـة حسـاب نحـاس وخلافه. الجملة تسعة تسعين ألف وثمانمائة وإثنـين وسـتين فرنـك وسـتين شـنتيزي (٩٩٨٦٢,٦٠) بما فيه الفرط علـى ذمّتـه. ومـن

حيث أنّه صار بعض منازعات في هذا الحساب صار تقديمه فيما بعد من مسيو كبريل والنسي سمسار القنصلاتو من طرف حضرة وكيل دولة فرانسا إلى نسيم شمامه الذي قرّ (أي أقرّ) بأنّه مضبوط ما عدى المبالغ المذكورة أدناه التي ما حبّ يقبلها وهي: ٢٠٢١٢,٩٥: قيمة نصف كومسيون التي بينواه قيّدها كأنّها مدفوعة لوكيله في مرسيليا على كلّ مسواق النّحاس مع أنّه ما خلّص غير جزء منها، ومبلغ ٨٢١٥,٦٥ قيمة الفرط المضاف على الحسابات المذكورة. وعلى حساب المبالغ التي قرّ بها، بموجب الحسابات التي بقيت بُقيت من ذاك الوقت عند وكيل دولة فرنسا، نسيم شمامه دفع إلى بينواه على جملة دفعات مبلغ عشرين ألف فرنك وخمسة عشر ألف ريال تونسي أو الجملة: ٢٩٧٩٦ فرنك و٩٠ شنتيزي. وفيما بعد نسيم شمامه امتنع عن دفع باقي المبلغ الذي قرّ به قايلا أنّ التقدّمات المذكورة كانت على ذمّة محمود بن عيّاد، وبما أنه كان وكيل هذا الأخير كان أذنه بالتحقيق أنّه يسلّم النحاس، ودفع له جانب من القيمة تحت الحساب. ولكن ما عاد يحسب روحه وكيل من حين بن عيّاد صار سوديتو فرنسيس. وبما أنّه خدّام وزرا (ء) الباي ما عاد ينجّم يخدم بن عيّاد من حين المذكور ضيّع منه هذه الرتبة عند تركه الحماية التونسيّة. وأن أخيرا بموجب أوامر هذا الأخير كان لازم يدفع لبينواه من محصول تقديمه الأمر الذي ما ينجّم يجريه لداعي تعرفوا محصول النحاس وغير أشيا (ء) للسكّه من طومازوا دابوارس. ولذلك كان ممنوع عن أخذ النحاس المرقوم عليه من بن عيّاد دفعه إلى بينواه. ويضيف على ذلك أن بينواه مان بعث طلبه قدّام سيادة الخزنه دار وتمّ رأي هذا الأخير بأن ما له حقّ عليه يب يطلب قيمة سلعته من بن عيّاد. وأخيرا أن بينواه كان لازم يعرف بأنّ بن عيّاد هو وحده مديون له لأنّه سلّم لنسيم شمامه حساب كافّة تقدماته بخطّ يده باسم محمود بن عيّاد. فكل هذه الأسباب تقدّمت إلى المجلس من سنيور باز وكيل نسيم شمامه مشروحة في عرض حال. ومن جهته مسيو أوجين بواه وكيل مدام بينواه يثبّت بأن الكونتراتو المذكور قد انعقد مع نسيم شمامه ذاته وعلى ذمّته، والشاهد لذلك: أوّلا وجود أحد الكونرتتوات مُمضى بخطّ يد المرحوم شارل بينواه لفظ ومشطوبها خطّ يده عند افساده، ثانيا دفتر جوابات شارل بينواه التي قرء منهم جملة عبارات في المجلس ومن جملتهم جواب ١٩ يونيو يتّضح منه أن مسيو بينواه يتشكّى من المخالفة

التـي وجـدها فـي دار السـكّة يفكّـر نسـيم شمامه بإجراء شروط الكونتراتو المعقود معه واعـدا إيّاه أنـه يداوم علـى حفـظ السرّ الذي طلبه منه إذن من سيادة الخزندار فـي هـذا الخصوص الذي كان وعده بها نسيم شمامه، وشارل بينواه قايل **أنّه ما حبّ يشتغل معه** إلاّ حين وعده بهذه الحجّة لكي يُظهر أنّ مع أنـه متصـرّف باسـمه الخصوصـي ولكـن جـرى ذلـك علـى ذمّـة الحكـم التونسـي. ثالثا الإذن أسلم لشارل بينواه من نسيم شمامه باسمه الخصوصي من غير ما يُذكر مطلقا بأنّه وكيل يـن عيّـاد والمـر يـذكر أنّ سـيادة الخزنـدار هـو الـذي أذن بهـذا التسليم، ومـن ذلك يتّضـح أن نسـيم شـمامه كـان مـن دون شـكّ متعهّـد وحـده بمـا أنّـه وكيـل خصوصـي للحكـم التونســي. فبعــد النّظــر علــى المطاليــب والجوابـات المكتوبـة والمقدّمـة مـن مسـيو أوجين فواه وكيل مدام بينواه، والحماية عند ذلـك بـالخط مقدمـة مـن السـنيور بـاز وكيـل نسيم شمامه. ومن بعد سمع القايد نسيم شـمامه شخصـيّا الـذي كـان حاضـر فـي أوّل جلسـة ومـن بعـد سـمع السؤالات والجوابات الشفاهيّة المقدّمة من مسيو فواه وباز، ومـن بعد النظر إلى الكونتراتو الأصلي المقـدّم من مسـيو فـواه المرقـوم عليـه خنفوسـة (أي إمضاء) شارل بينواه مشطوبه ومذكور فيه فـي الحاشـيه هـذه العبارة: مقـال- مفسـوخ- مـع سـي محمـود بـن عيّاد فـي باريز فـي ١٩ ســبتمبر ١٨٥٢. وبعــد النظــر علــى الإذن المعطى من شارل بينواه إلى نسيم شمامه بمـوجبهم بقربان وصله ٢٠,٠٠٠ فرنك وخمسـة عشر ألف ريال تونسي تحت حساب النحاس المقدّم له بموجب إفساد الكونتراتو المعقـود معه. وبعد النظر على جملة عبارات مأخوذة من مخاطبات شارل بينواه مع شمامه، وبعد النظر على حسابين مكتوبين من بينواه منهم واحد ممضـي بخطّ يده والآخر من غير إمضا (ء) مبتديا بهذه الألفاظ: مطلوب مـن سيّدي محمــود بــن عيّــاد، ومــذكور فــيهم المبــالغ المـذكوره أعـلاه. وبعـد النظـر علـى تعريـب جواب من محمود بن عيّاد إلى نسيم شمامه به يُعرّفـه علـى إفساد الكونتراتو ويدعيه (أي يـدعوه) فـي إجـري (أي إجـراء) شـروط هـذا الإفساد، أعني يستلم من شارل بينواه باقي النحـاس الموجـود فـي تـونس ويـدفع لـه قيمتهم بموجب سعرهم من غير خسارة ولا ربـح وذلـك مـن محصـول أشـغال السـكّة. فالدعوة على هذا المنوال ظهر فيها المسائل الآتي ذكرها: أوّلا أهلْ هذا الكنتوراتو المقـدّم مـن مـدام بينـواه هـو حقيقـي؟ وألـيس أن

بموجب هذه الحجّة نسيم شمامه يوجد متعهّد شخصيّا يدفع قيمة تقديمات شارل بينواه؟ وأهلْ أن نسيم شمامه في استلامه هذه السلعة تصرّف باسمه الخاص كما يتّضح ذلك من الإذن الذي أعطاه على شارل بينواه لكي يسلّم النحاس الأمر الذي هو ممضي باسمه الخصوصي ومن غير إشارة وكالة؟ وأهلْ أنّ الحسابات المكتوبة من بينواه باسم بن عيّاد يمكن قبولها برسم برهان على أنّ بينواه تعهّد مع بن عيّاد وليس مع نسيم شمامه؟ وأهلْ أنّ هذا الحساب الجاري يفسد برهان الكونتراتو الأصلي ومخاطبات شارل بينواه والإذن المذكور أعلاه بتسليم السلعة ووصولات بهرام الذين يدلّوا على تصرّف نسيم شمامه باسمه الخاص؟ ثانيا أهلْ أن نسيم شمامه بما أنه وكيل -إذا افترضنا أنّه كذلك- واستلم أو سلّم السلعة ودفع جانب من قيمتها لا يلزمه دفع باقي القيمة؟ ثالثا ومع ابتعادنا عن الأشيا (ء) التي جعلت نسيم شمامه مطلوب بهذا الشيء أو أنّ الكونتراتو المذكور أعلاه ليس هو حجّة كافية، وعند الابتعاد عن واجباته بما أنّه وكيل أليس هو مطلوب بقيمة سلعة بينواه بهذه الحجّة وحدها أي عند إعطاء الإذن باسمه الخاص إلى المرحوم بينواه بتسليمه النحاس وبوصولات بهرام في الاستلام. فعند الاعتبار في السوال (السؤال) الأوّل بخصوص أن الكونتراتو المقدّم من مدام بينواه هو وحده حجّة جقيقيّة مع أنّ عليه خنفوسة بينواه مشطوبة منه وشارحا عليه بخطّ يده إفساد الكونتراتو في تاريخ معلوم. إن ارثة (أي ورثة) بينواه ليس في خاطرهم تتميم شروط هذا الكونتراتو بالكمال بل لأجل إظهار من هم المتعهّدين. وأن مادام بينواه لا تنجّم (لا تستطيع) تُعطي حجّة أكثر حقيقية من ذلك الكوتراتو المُقال -أي المفسوخ) لأن العادة الجارية والدارجة في كلّ حين في تونس في الأشغال المتجريّة هي بإبدال الكونتراتو المكتوب في نسختين أصليّتين الذين كل واحد منهما موضوع عليه خنفوسة أحد المتعهّدين فقط بنوع أنه عند إفساد (أي فسخ) هذا الكونتراتو شارل بينواه رجّع لنسيم شمامه الكونتراتو الذي فيه خنفوسة نسيم (شمامه) كما هو استلم خنفوسته. وأن هذه الحجة هي موافقة مع مخاطبات بينواه المفسوخة بالتبعية في زمامه وتاريخها مقدّم عن الوقت الذي به ابتدي (ابتدأ) نسيم شمامه أن يبعد عنه هذه المطالبة. وأنّ حين طُلب نسيم شمامه بالجواب شخصيّا نكر بالكليّة وجود هذا الكونتراتو. وأنّ فيما بعد

وكيله في شرحه أظهر وجوده بالتمام لأنّ بموجبه كان لازم أجري (إجراء) حساب التسليمات، وأن مع ذلك حين طُلب من الوكيل المذكور أن يشهد مع من صار عقد الكونتراتو المذكور امتنع عن الجواب بالكليّة. وأن مع ذبك من حين أنه ملزوم أن يعرّف منطوق الكونتراتو المذكور لكي يجري العمل كما يقول هو ذاته بمقتضى شروط الافساد المذكوره من بن عيّاد كان لازم يكون حايز على النسخة الأصليّة المسلّمة لبن عيّاد، وإن من ذلك الوقت إذا كان انعقد الكونتراتو بين بينواه وبن عيّاد أو غيره كان من الضروره نسيم شمامه في عوض ما يبقى ناكرا لوجوده في هذا الخصوص ويجعل الشكّ في صدقه يظهره -سوى إن كان عنده أو إذا لزم إحضاره من باريز- وحينئذ كان فصل القضيّة، وعند الاعتبار بأنّ الإذن المسلّم من نسيم شمامه لأجل تسليم النحاس هو ممضي باسمه الخصوصي. ومن حيث أن هذه الحجّة هي كبيره في قضيّتها كان وجب على نسيم شمامه لكي يبعد عنه المطالبة يذكر فيه أنه وكيل بن عيّاد، وأن هذه الحجّة كانت تدلّ جليّا بأنّ تسليم النحاس كان لازم يكون بموجب أوامر الخزندار الأمر الذي يدلّ على أنّ نسيم شمامه بلا شكّ هو متصرّف باسمه الخاص، وكان وكيل الحكم التونسي كما يتّضح ذلك من مخاطبة بينواه بتاريخ مقدّم. وعند النظر على أن وصولات بهرام وكيل دار السكّة تقول إنه استلم النحاس من نسيم شمامه عن يد شارل بينواه الأمر الذي يدلّ على أن وكيل دار السكّة يقرّ بأن نسيم شمامه هو الذي يقدّم النحاس لهذا الدار. وبناء على أنه معلوم عند العموم بأنّ في وقت هذه التسليمات نسيم شمامه كان مُلتزم دار سكّة النحاس وبناء على أن إذا كان نسيم شمامه حبّ تصرّفه الشخصي كما في خاطره الآن كان لازم ينتبه أنّه يوضّح في إذن التسليم. كما أيضا يجعل أن بهرام يوضّح في وصولات الاستلام وبينواه يوضّح في وصولات القبض وكالة بن عيّاد المدّعي بها. وبناء على أنّ كل هذه الحجج والبراهين لا يمكن إفسادها بوجود حساب جاري مكتوب من بينواه وأنّه أشار على أنّ بن عيّاد هو مديونه وأننا فهمنا كيف أنّ شارل بينواه من بعد ما طلب نسيم شمامه قدّام الحكم وما نال حقّه قبل مشورة سيادة الخزنه دار بأنه يقيم شكواه على بن عيّاد كما يقرّ بذلك، وإنّ نسيم شمامه في شرحه الممضي من وكيله -ضانّا أنه ينتج له شيء في خلاصه- يقرّ بأنّه صار الاتّفاق بينه وبين شارل بينواه بأنّ هذا

الأخير يعمل حساباته باسم محمود بن عيّاد لكي عند قبولهم من نسيم شمامه، وهذا الأخير يعطي لشارل بينواه غير حجج ينجّم يتصرّف ضدّ بن عيّاد. وإن هكذا هذه الحسابات مكتوبة باتّفاق واحد لأجل تجربة قضيّه التي ما صار إجراها لا يدلّوا سوى على أنّ شارل بينواه حبّ في وقت ما أنه يداعي بن عيّاد ورتّب حسابته لهذا الخصوصي. وهذا الاعتماد كان طبيعي لأنهم كانوا متعارضين لحقوقه على نسيم شمامه وواعدينه بحجج على بن عيّاد. وإنه وإن يكن بينواه تصرّف شرعيّا على بن عيّاد -الأمر الذي ما تمّ لأن نسيم شمامه ما أعطاه الحجج اللازمة- ولكن حقّه على نسيم شمامه باقي. وعند التأمّل في السؤال الثاني إذا صار الافتراض بأن نسيم شمامه ما تعهّد بالكونتراتو وما استلم السلعة غير بما أنّه وكيل بن عيّاد ما كان ينجّم يقبل غير وكالة كاملة نظرا لبينواه مهما كانت أوامر بن عيّاد أعني يتفوّض باستلام السلعة ودفع قيمتها لأن العادة الجارية في العالم تشير على أنه ما ينجّم يقبل وكالة استلام لسلعة وعدم دفع قيمتها من غير ما يخبر بينواه. أن إذا كان نسيم شمامه استلم السلعة بوظيفة وكيل وبعد ذلك دفع مبلغ ٢٩٧٩٦ فرنك و٩٠ شنتيز تحت الحساب ما كان ينجّم بأيّ حجّة كانت يمتنع عن دفع باقي المبلغ بناء على أن لو كان له داعي في عدم تتميم وكالته كان لازم يخبر بينواه رسميّا وحينئذ يجعله أن يُوقف تسليمه مع أنّ عند دفعه جانب كبير من هذه القيمة تعهّد طبيعيّا كما كان متعهّد رسميّا في إعطاء إذن التسليم باسمه أنه يتمّم هذا الدفع، وبناء على أن الشريعة تشير على الوكيل بأنه ملزوم أن يُعرّف الشخص الثالث الحدود المعيّنة له والتي بها ينجّم يتصرّف باسم الذي وكّله. ومن حيث أن نسيم شمامه ما أجرى ذلك لشارل بينواه قد قبل وكاله كامله أعني وكالة الاستلام ودفع قيمة السلعة بتمامها وأنّ أخيرا الشريعة ذاتها تدلّ جليّا بأنّ تصرّف الوكيل باسمه الخاص -مع أنّه طايع لإذن الوكاله- لا تخصّ الموكّل ولذلك حين أذن باسمه الخاص تسليم النحاس تعهّد شخصيّا بدفع قيمته. وعند التأمّل في السؤال الثالث بأنّ ما عدا متوجّبات الكونتراتو على نسيم شمامه إن كان من شروط فسخه أو من الشروط المتوجّبة عليه إذا كان محسوب وكيل بن عيّاد هذه المتوجّبات ذاتها تنتج فقط من وجود الإذن باسمه الخاص لأجل تسليم النحاس في دار السكّة بيد مادام (زوجة) بينواه وأيضا وصولات بهرام في استلام النحاس وأخيرا دفعات نسيم شمامه

تحـت حسـاب هـذا التسـليم. ولـذلك نحـن الواضـعين أسـماءنا أدنـاه باسـكال كانـدولف وإيميليان روسّو قُضاة فـي هذه الـدعوة قـد عرّفنا القُضاة التونسيه بواسطة مسيو كبريل والنسـي المترجم ملخّص ملحوظاته السابقة وأشـهدنا للقضاة المـذكورين أن بموجـب رأينا علـى أيّ طريقـة كانت خـدمت خدمـة نسـيم شمامه خو ملزوم بدفع باقي ما هو مطلوب إلـى بينـواه مـن ثمـن سـلعته، وعلـى ذلـك القضاة التونسيه جاوبوا أن رأيهم مخالف رأينا بما أن نسيم شمامه ليس هو ملزوم بتكميل الكونتراتـو لأن بينـواه ذاتـه قبـل بـأنّ بـن عيّـاد يكون مديونه من حيث أنه قد كتب حساباته باسـم هـذا الأخيـر الأمـر الـذي بوجـود هـذا الحـادث الأخيـر أي أن الكونتراتـو صـار إفسـاده من بن عيّاد يظهر أنـه هو الذي كـان متعهّد بـذلك، وأنهـم لا يقـدروا يسـمّوا الكونتراتـو المقـدّم مـن مـدام بينـواه شـرعي نظـرا لأن موضوع عليه خنفوسة بينواه وحده، ولذلك لا يُحسب له حجّة، وأن عند الاعتبار بأن الحسابات الممضية من بينوا هي حجّة كافية على عدم تعهّـد نسـيم شـمامه فـي الكونترواتـو لذلك...كما كنا طلبنا ذلك بموجب الحجج التي عنـدنا يلزمـوا نسـيم شـمامه بـاليمين علـى دخوله في هذا الكونتراتو وأن لذلك لا يعرفوا

نسيم شمامه غير نايب بن عيّاد. وأنّ مع ذلك بموجب شريعة الإسلام التي توضّح أن النايب الذي قبل حاجة ما باسم من وكّله هو ملزوم أن يـدفع إلـى مـن سـلّم السـلعة كـل المبلغ المختصّ بالسلعة التي يكـون استلمها، الأمـر الذي يدلّ على وكالة كاملة. لذلك اتّفقوا بأن من حيث أن نسيم شمامه استلم من بينواه سلعة بن عيّاد قد تعهّد بهذا العمل أن يدفع قيمتهـا بالتمـام إلاّ إذا كـان نسـيم شـمامه بموجب قوّة عليّه أُخذت منه الأشياء المسلّمة له من بينواه التي قـد تَعيّن دفـع قيمتها من محصـوله ذاتهـا بموجـب إذن مـن وكّلـه. وأنّ هـذه القـوّة العليّـه موجـوده الآن بموجـب تعرقن (كذا: يبدو أنه يعني تعرقل أي احتجاز) السـلعة مـن حضـرة نايـب دولـة فرانسا باسـم موسيو طومازو دابوارس. ولذلك من حيث أن بـاقي السـلعة المـذكورة مـا عـادت بيـده مـا عادت تصلح للدفع المعيّن من موكّله، فلذلك نحـن القضـاة الموضـوع اسـمنا أدنـاه أخبرنـا القضـاة التونسـيه بـأن مـع أننا نلتجّ (أي نلـحّ) علـى ثبات رأينا السابق ذكره وجدنا فـي رأي القضـاة المـذكورين بخصـوص لـوازم نسـيم شـمامه بمـا أنـه نايب أنـه موجـود فيـه بعـض الوفق مع رأينا. ومـن حيث أن مرامنا أن نتّفق معهـم لكـي نجعـل خلاصـة عموميّـه بموجـب

ملحوظاتنا جميعا قد عزمنا على مقابلة حجج الفريقين في وجود التعرقن (التعرقل) وعدمه وتفحّص ما هو قوّته في هذه الدعوة، العزم الذي صار قبوله مم القضاه التونسيه المذكورين الذين شهدوا رسميّا بأن إذا كان نسيم شمامه ما يحضر حجج وجود التعرقن هم يعطوا خلاصة طبق خلاصتنا ويحكموا على نسيم شمامه أن يدفع إلى بينواه قيمة تسليماته بتمامها. ولذلك مسيو أوجين فواه وكيل مادام بينواه قدّم للمجلس نسخة عرض حال مسيو طومازو على بن عيّاد بموجبه يطلب بواسطة حضرة نايب دولة فرنسا من سعادة باي تونس علم النحاس وباقي الآلات التي امتلكتها دار السكّة بالسّيف، والتي كان أبقاها في مخازن دار السكّة ومفاتيحهم معه. ثمّ مسيو فواه المذكور قدّم جواب من سعادة باي تونس إلى حضرة نايب دولة فرنسا مطبوع بطابع العمالة الكبير بموجبها سعادته يذكر بأن النحاس والآلات المذكورة في العرض الحال المذكور هم في دار السكّة على ذمّة مسيو طومازو، حينئذ عند إحضار هذه الحجّة الأخيره التي تذكر بأنّ ما عاد موجود تعرقن (تعرقل) على نسيم شمامه وموكّله بن عيّاد أعني على السلعة المذكوره أعلاه لأنها موضوعه على ذمّة بن عيّاد بشخص طومازو دالوارس المذكور، وعدا عن ذلك أن قضيّة مسيو طومازو هي خاطية قضيّة شمامه بالكليّة ولا تجعل أدنى تغيير في متوجّبات نسيم شمامه إلى شارل بينواه لأن نسيم شمامه قد سلّم بطيبة خاطره نحاس البيليك، والبيليك بما أنه صار مالك السلعة سلّم السلعة إلى طومازو دالوارس على ذمّته الأمر الذي بأيّ طريقة كان لا يدلّ على حدوث أمر سامي، وأن العقل يبيّن صريحا بأن من حيث أن نسيم شمامه استلم من بينواه السلعة المذكورة وسلّمها بطيبة خاطره كما يتّضح ذلك من إذنه المكتوب لا يقدر يحتجّ لبينواه لأجل عدم الدفع بالطريقة التي تصرّف بها البيليك من حيث أنه صار مالكها بموجب هذا الأمر. فلذلك نحن الواضعين أسماءنا أدناه شهدنا إلى القضاة التونسيه بأن هذه الحجة تظهر لنا كافيه ودعيناهم أن يتمّموا وعدهم بإعطاء حكومه (أي حكم) كامله على هذه القضيّه، وإنما القُضاة المذكورين مع إقرارهم حقيقة هذه الحجّة في إظهار عدم وجود التعرقن المذكور طلبوا من المجلس أن يسمحوا بمهلة ثمانية أيّام لكي يجعلوا لنسيم شمامه كلّ المهله اللازمة أن يُحضّر الحجج للمناقضة، واشهروا أنه إذا ما تمّم ذلك يحكموا عليه

بدفع باقي قيمة سلعة بينواه. ومن حيث أننا نحبّ ننهي هذا القضيه بمحبّة مع أنّه ظهر معنا الحقّ كفايه رضينا بما ذُكر، ولذلك انفضّ المجلس قاصدا الاجتماع يوم الاثنين في ١٤ الجاري لكي يسمع إقرار موسيو باز وكيل نسيم شمامه الذي صار ادعاه (أي دعوته) بالحضور وإنما حين اجتمع المجلس في اليوم ذاته الساعة خمسة بعد الأوّل في دريبة الكمرك انتظر حضور الوكيل المذكور باطلا ولمّا رئيس المجلس بعث يُناديه جاوبوه بأنّه مشى لحلق الوادي، ولذلك نحن الواضعين أسماءنا أدناه شهدنا أن بموجب الشرائع عدم حضور نسيم شمامه أو وكيله يظهر عدم إمكانهم بإحضار حجّة في وجود التعرقن ودعيناهم بأن يعملوا معنا الخُلاصة التي وُجبت في عدم إحضار الحجّة المذكورة، وإنما مع كلّ تعهّدهم الرسمي لجّوا بعدم الحكم على نسيم شمامه إلا شرطيّا أعني أنهم يبغوا له ضدّ كل قاعدة وشريعة التفويض أنه يحضر بعد فضّ المجلس الحجج المطلوبة منه بخصوص التعرقن المذكور وقت ما يحبّ، فوإن نكن احتسبنا منذ هذا الوقت شغلنا انتهى حضرة نايب فرنسا أخبرنا بأن الأمين محمد الوزير رئيس المجلس قد دُعي اجتماع المجلس مرة أخرى يوم الاثنين في ٢١ الجاري الساعة ٩ من النهار لكي يُفوّض مسيم شمامه أن يحضر الحجج اللازمة لذلك. اجتمعنا في اليوم ذاته والساعة ذاتها في الدريبة ذاتها وإنما ترجمان قنصلاتو جنرال فرنسا قال لنا بأن لا القضاة التونسيه ولا رئيسهم حضروا، وأن هذا الأخير أخبر حضرة نايب دولة فرنسا بأنه ما عاد حاجة لجمع المجلس لأن القضاة المذكورين لكتبوا حكومتهم وقدّموها لسعادة الباي، فلذلك نحن الواضعين أسماءنا أدناه عرفنا عدم امكاننا أن نتّفق مع القضاة التونسية لأجل إجري (أي إجراء) حكومه (أي حكم) واحده بناء على أنّه مذكور في الملحوظات السابقة نسيم شمامه المذكور هو متعهّد رسميّا في الكونتراتو المقبول منه أعني بإتمام شروط إفساده المذكور في الجواب المحرّر له من محمود بن عيّاد في ٦ ذي الحجة ١٢٦٨، وبدفع قيمة سلعة بينواه إلى ورثاءه. وبناء على أنّ هذا التعهّد ذاته هو متوجّب عليه من أمره المكتوب بخطّ يده وباسمه الخاص لأجل تسليم النحاس، وبناء على أن لكي يصير خاطي العمليّة كما كان مقصود القضاة التونسيه ما نجّم يُعطي حجّة على وجود التعرقن الذي يمنعه هو أو موكّله المدّعي به ن امتلاك السلعة التي على قوله استلمها على ذمّة المذكور. وبناء

علـى أنّ الشـهادة المقدّمـة شـفاها إلـى المجلس مـن مسيو كبريل والنسـي المترجم بـأن حسـابيّ السـلعة المقـدّمين إلـى نسـيم شمامه من الشاهد المذكور بإذن حضرة نايب دولـة فرنسا صـار قبولهم شـفاها مـن نسـيم شـمامه ما عـدا الفرط ومبلغ ٢٠٢١٢,٩٥ فرنـك شـنتيزي قيمـة نصف كومسـيون علـى كميـة التسليم المذكور. ومنذ ذلك الوقت الحسابات المذكوره بما فيه فـي قنصلاتو جنرال فرانسا وبناء علـى أن بخصـوص الفرط المـذكور فـي الحسابات بـن عيّاد عند فسخه الكونتراتـو عـن نسيم شمامه مع بينواه يدعي نسيم شمامه المذكور أن يـدفع إلـى بينواه قيمـة تسليماته مـن غيـر ربـح ولا خسـارة. وأن بهـذه العبـارة المعنـى مستتر بأنـه لازم يـدفع لـه الفرط لأنّ بخـلاف ذلـك تحصـل لـه خسـارة واضـحة حـين يدفع لوكلاءه فرط تقديماتهم من وقت تاريخ كـلّ إرسـاليّه لحـدّ تـاريخ الـدفع. فعنـد التأمّـل بخصـوص مبلغ العشرين ألف ومايتين واثنين عشر فرنك وخمسة وتسعين شنتيزي المذكور فـي حسـاب بينـواه بمـا أنـه مـدفوع لوكيلـه المعـيّن المشـتري السـلعة المـذكورة باسـم مكافـآت أو نصـف كومسـيون علـى كميـة متاجرة السلعة مدّة خمسة أعوام، مع أنـه ما صـار أجـري (أي إجـراء) غيـر جانـب مـن العمليـة بـأن نسـيم شمامه عند عقـده الكونتراتـو مـع بينـواه حسـب هـذا الحادث الـذي تقـدّم أعنـي إبطـال الشغل بموجب أوامر سامية فـي دار السكّة النحاس، وهـذا الحادث كـان يمنعـه مـن وقتهـا عـن تتمـيم شـغله. وأن هـذه العبـارة لا تلـزم نسـيم شـمامه بهـذه الكومسـيون لأنهـا كانت معدّة لاحتساب هذا الحادث الناتج مـن تسليم جانب من السلعة، فحكم على السنيور نسـيم شـمامه أن يـدفع إلـى مـدام بينـواه المبالغ الآتي ذكرها حسب الحسابات المـذكورة أعلاه وإنما مسقوط منها بعد لجاجه وهي:

٦٥٩١,٣٠: سـتّة آلاف وخمسـمائة واحـد وتسعين فرنك وثلاثين شنتيزي قيمة ماكينات وآلات وفرط لغاية ٣١ ديشمبر ١٨٥٣،

٩٣٢٧٤,٣٠: ثلاثـة وتسـعين ألـف ومـائتين أربـع وسـبعين فرنـك شـنتيزي قيمـة نحـاس وفحـم وخلافـه وفـرط لحـدّ ٣١ ديشـمبر ١٨٥٣ وإنمـا يُسقط منه ما هو آتي ذكره.

٢٠٢١٢,٩٥: عشـرين ألـف ومـائتين واثنـي عشـر فرنـك وخمسـة وتسـعين شـنتيزي قيمـة نصـف كومسـيون داخلـه فـي المبلغ المـذكور والتـي دُفعـت، حينئـذ كميـة المبلـغ تكـون تسـعة وسبعين ألف وستمائة واثنين وخمسين فرنك ونخصم أيضا من هذا المبلغ: ٢٩٧٠٧,٤٠: قيمـة دفع نسيم شمامه إلى شارل بينواه مـن بعـد

خصم ٨٩ فرنك وخمسين شنتيزي قيمة سمسره أعني صافي تسعة وعشرين ألف وسبعمائة وسبع فرانكات وأربعين شنتيزي كما وأيضا مبلغ: ١٧٦٢,٢٥ قيمة الفرط باسم نسيم شمامه على هذه الدفعة لحدّ ٣١ ديشمبر ١٨٥٣ وهو ألف وسبعمائة واثنين وستّين فرنك وخسمة وعشرين شنتيزي، الأمر الذي يجعل كميّة المبلغ الذي يجب دفعه إلى مدام بينواه ثمانية وأربعين ألف ومائة وثلاثة وثمانين فرنك، وذلك قيمة سلعة المرحوم بينواه. ونأذن على نسيم شمامه بأنه يدفع المبلغ المذكور إلى مادام المذكوره (زوج بينواه) بعملة فضّة ضايفا عليه الفرط الذي جرى ويجري عليه من ٣١ ديشمبر الماضي لحدّ يوم إتمام الدفع. والدفع المذكور يجب إجراه في برهة ثمانية أيّام يجري من تاريخ يومنا هذا. والفرط يكون اثني عشر في المائة كلّ عام. ونحكم على نسيم شمامه بالمصاريف. وأن عرض حال مسيو باز وكيل نسيم شمامه المذكور يصير وضعه في كنشلريه قنصلاتو جنرال فرنسا في هذه المدينة سويّة مع هذه الخلاصة، تحريرا في تونس في تسعة وعشرين أغوستو سنة ألف وثمانمائة وأربعة وخمسين. كاتبين كاندولف وروسّو. صحّ نسخ ذلك طبق الأصلي تحريرا في تونس في اثنين استمبر سنة ألف وثمانمائة وأربعة وخمسين. كاتبه مورين كنشلير"[1].

الوثيقة عدد ٢:

"تعريب مكتوب من المحترم الكولير بكلار مخاطبا به حضرة سيدنا ومولانا دام عزّه وعلاه بتاريخ ٨ أفريل ١٨٥٤ نصّه: السيد الجليل الكلّي، فإن واحد من أهل بلادي السنيور كاروا بنوا الذي من زمان طويل في خدمة جنابكم العليّ في رتبة مهندس تقتلْ أمس عشيّه بين تونس والمحمّدية ومع واحد يهودي تونسي سميته لياه غزلان في خدمة دار السكّة وهم مروّحين من فوشانه محلّ الذي فيه مسيو بنوا ريس (أي رئيس) على خدمة باش يمشي للسانية القريبة لصرايه المحمدية. وكرّوستهم توعّرت في السبخة وهم تمّو ماشين ترّاسه (أي على القدمين) بالقصدان (أي راغبين) يُوصلوا للبلاد قبل صلحان (أي إعلاق) الباب. وفي الثنيّة (أي في الطريق) ما بين السبخة وتونس في بقع السمة (أي اسمها) اليهوديّه ماتوا تحت حديد القطعيّة (قطاع الطرق) جريمة تتلف الحقّ. وسبحيّة

---

[1] الأرشيف الوطني التونسي، السلسلة التاريخيّة، الصندوق: ٢١٩، الملف: ٣٣٧ مكرّر، الملف الفرعي: ٧/٣، و١٤.

(أي صباح) يوم التاريخ أشتكي مشافهة لجنابكم العلي بكلام فاصح. وبين الأسباب الذي جابوا هذا الفصل وقلتلكم أنّ سبب قتل بنوا ليس من قلّة النظر في العواقب وليست من مصادفة إنما هو من الإهمال وعدم التدبير ومن المسامحة الذي نبهه على الدولة التونسية وعدم القصاص الواضح الذي...يتمتّعوا به المجرمين في هذا البلاد، ومن توقيف جري الحكم وبترك الحكم في القاتلين والنهبين (النهّابين)، جنابكم العليّ تحمّل بضمانة عظيمة، نعلم أن ميتة (وفاة) موسيو بينوا وجعتكم كثير ونعلم أن وقع إذن سريع من جنابكم العلي في البحث والتمكّن بالمجرمين، لكن نعلم أيضا أن في وقعيّه مثل هذه سدرت (صدرت) أوامر مثل ما ذكر ولا يقع عليهم العمل أبدا، فإن كان البحث يقع بصفة الضمير ينكشفوا القاتلين...ويشبه (أي أشكّ) عندي أن نيّاب جنابكم (أي أعوان الدولة)العليّ لم عملوا ما يلزمهم، والآن يلزم أن ميثال (مثال) قويّ يقع ليكون رعب للقطعيّة ليكون رعب للقطعيّة ويرجع الأمان لأهل العافيه الذي يخص لهم، الحاصل يلزم الآن أن الحكم يأخذ مجراه والسلام"[1].

(١) الأرشيف الوطني التونسي، السلسلة التاريخيّة، الصندوق: ٢١٩، الملف: ٣٣٧ مكرّر، الملف الفرعي: = ٣/٧، و١٩.

الوثيقة عدد ٣:

"الحمد الله وحده. من عبد الله سبحانه المتوكّل عليه المفوّض جميع الأمور إليه المشير أحمد باشا باي صاحب المملكة التونسية إلى معاهدنا ذي الافتخار الأكبر الكولير بكلار المكلّف بأمور الدولة الفرنساوية والقنصل جنرال بحاضرتنا تونس، أما بعد فإنه بلغنا كتابكم في النازلة التي غيّرتنا وكدّرتنا وهي مصاب الرجل الحسن السيرة المهندس بنوا وغزلان الذي معه. وسطّرتم في مكتوبكم في قرّرتم لنا مشافهة في النازلة يوم سماعها المكرب. ويعلم الله أنني أُصبت بموت هذا الرجل لاسيما على تلك الحالة مثلما يجد عليه أهله وأقاربه لأمور منها أن الرجل من حيث كماله وأدبه يتوجّع عليه كل من يعرفه، ومنها أنه من دولة العظمى فرنسا الحبيبه، ومنها أنه في خدمتنا وكذلك غزلان الذي معه من خدمته في دار السكّة إلى غير ذلك من الأمور التي أدناها يُحرّك النفس ويبعث الهمّة على الأخذ بثاره والقصاص من قاتله. نسأل الله أن يظفرنا به عاجلا ونؤكّد لكم أني استعلمت ولازلت أستعمل ما في وسع البشر من البحث عن فاعل ذلك وأذكيت

العيون والجواسيس في البحث عن القراين والأمارات والشبه. وكاتبنا بذلك همّالنا في أطراف العماله خشية فراره بأبلغ تأكيد. وكما علمتم وجّهنا أمير اللواء ابننا صالح زيد باش حانبه في عقد من الفرسان لموضع مصابه وأمرنا أن يأتي لنا بساير من يسكن تلك الناحية. فأتى بجميعهم وأودعناهم السجن حتّى يظهر لنا من حالهم ما نرجوا الاطّلاع به على الحق. والحاصل أن إعمال الفكر وإظهار ما عندي من العناية في هذه النازلة هو عمل ليلي ونهاري حتّى أذهلني عن كلّ نازلة غيرها لأنني تأثّرت منها أوجع تأثير، زيادة على ما يجب عليّ من الاحتفاظ على ساير المخلوقات بإيالتي. وأسأل الله أن يُفرّج همي بأخذ ثأره ودمتم في أمن الله. وكتب في ٢٣ رجب ١٢٧٠ (٢١ أفريل ١٨٥٤)"[١].

الوثيقة عدد ٤:

"الحمد الله. الأمجد الهمّام أمير اللواء السيد تونين بوقوا حرسه الله أما بعد، فإنّ المعظم الأرفع مولانا وسيدنا حكم يوم التاريخ وأحضر بين يديه قتلة المهندس بنوا الأربعة الذين أقرّ بعضهم على بعض، وظهرت عندهم نايرات وقرّرهم هل معهم أحد فلم يقرّوا. فأمر بتعليقهم في السّور قصاصا في القطع وقطع الطريق، وأعطى العصا للنسوة فلم تقرّ واحدة منهنّ الآن، وتصلكم سلسلة أمر مولانا بإرسالها لكم لتبلغها بنفسك إلى القنصل وتعرّفه بما وقع، والسلام ودمتم في أمن الله. وكتب يوم الأحد ٣ من شعبان ١٢٧٠ (١ ماي ١٨٥٤). حرره الفقير إلى ربّه تعالى وزير العمالة أمير الأمراء مصطفى خزندار عفى الله عنه آمين"[٢].

---

(١) الأرشيف الوطني التونسي، السلسلة التاريخيّة، الصندوق: ٢١٩، الملف: ٣٣٧ مكرّر، الملف الفرعي: ٣/٧، و٢٢.

(٢) الأرشيف الوطني التونسي، السلسلة التاريخيّة، الصندوق: ٢١٩، الملف: ٣٣٧ مكرّر، الملف الفرعي: ٣/٧، و٢١.

مصادر ومراجع البحث:

المصادر:

١- الأرشيف الوطني التونسي، السلسلة التاريخية. الصندوق.٢١٩ مكرر. الملف.٣٣٧ مكرر.٧/٣. الملف الفرعي: ٧٣

٢- بن أبي الضياف، أحمد. **إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان**، الدار العربية للكتاب، تونس، ٢٠٠٠، الجزء ٤

٣- بيرم الخامس، محمد، **صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار**، المجلّد الثاني: القطر التونسي، تحقيق: علي بن الطاهر الشنوفي/ رياض المرزوقي، عبد الحفيظ منصور، المجمع التونسي للعلوم والآداب والفنون: بيت الحكمة، قرطاج، ١٩٩٩.

المراجع:

٤- رازقي، محمد البشير. **إيالة وإمبراطوريتان: البلاد التونسية والصّراع على عهد الأمان (١٨٥٥- ١٨٧٠)**، دار كلمات للنشر والتوزيع، مصر، ٢٠٢١

٥- فوكو، ميشال. **المراقبة والعقاب: ولادة السجن**، ترجمة: علي مقلّد، مركو الانماء القومي، بيروت، ١٩٩٠

٦- محمد البشير "حوادث القتل تجاه الأوروبيّين والمحميّين في الحاضرة تونس قُبيل انتصاب الحماية الفرنسيّة بتونس (١٨٨١): الفاعل الاجتماعي ورهاناته"، **مجلّة الدراسات التاريخيّة والاجتماعيّة**، كلية الآداب والعلوم الانسانية، جامعة نواكشوط، العدد ٣٤، ٢٠١٨، صص.٣٠- ٦١

المراجع الأجنبيّة:

7- Fenina, Abdelhamid. *Les monnaies de la régence du Tunis sous les H'usaynides.Etudes de numismatique et d'histoire monétaire. (1705-1891)*, Université de Tunis. Faculté des sciences humaines et sociales de tunis,2003, p 195-199.

جوانب من المجاعات والأوبئة خلال العصر المرابطي

٤٤٨- ٥٤١هـ / ١٠٥٦-١١٤٦م

Aspects of famine and epidemics during the Almoravid era

448 – 541 AH / 1056 – 1146 AD

جمال رداحي

طالب باحث في سلك الدكتوراه

كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية

جامعة ابن طفيل، المملكة المغربية

ملخص:

تناولت هذه الدراسة موضوع المجاعات والأوبئة خلال العصر المرابطي (٤٤٨- ٥٤١هـ/ ١٠٥٦-١١٤٦م)، وذلك من خلال رصد أهم المجاعات والأوبئة التي عرفها المغرب والأندلس خلال الفترة المدروسة، ليتبين من خلال ذلك أن الكوارث الطبيعية كانت المسببة الرئيسية في تفشي المجاعات والأوبئة خاصة في أواخر عهد المرابطين، وما زاد من حدة الانعكاسات المترتبة عنها هو الصراع بين المرابطين والموحدين عكس الوضع في بداية الدولة، كما تبين من خلال هذه الدراسة أنه خلال العصر المرابطي اقترنت المجاعات بالأوبئة في الكثير من الأحيان، الواحدة تؤدي إلى الأخرى، بمعنى قد تؤدي المجاعة إلى حدوث وباء، وقد يؤدي الوباء إلى حدوث مجاعة، كما شهدت البلاد مجاعات وأوبئة منها ما هو عام ومنها ما هو خاص بأقاليم ومدن معينة.

الكلمات الدالة: الدولة المرابطية، الوباء، المجاعة، الجائحة.

Abstract:

-This study deals with the subject of famines and epidemics during the Almoravid era (448- 541١١٤٦-١٠٥٦ /) ,And by monitoring the most important famines and epidemics that Morocco and Andalusia knew during the studied period, so that it became clear through this that natural disasters were the main cause of the outbreak of famines and epidemics, especially in the late Almoravid era, and what intensified the repercussions resulting from them is the conflict between the Almoravids and the Almohads. The beginning of the state, as revealed through this study that during the Marabout era famines were associated with epidemics in many cases, one leading to the other, meaning famine may lead to an epidemic, and the epidemic may lead to famine, as the country witnessed famines and epidemics, including what is general Including what is specific to certain regions and cities.

Keywords: -The Almoravid State - The epidemic - Famine -Pandemic

مقدمة:

شهد العصر المرابطي كغيره من الفترات التاريخية الأخرى أزمات وكوارث عديدة، حيث عرف المجتمع سواء في المغرب أو الأندلس سلسلة من التحولات الكبرى والانعطافات الحاسمة في مساره التاريخي، ومن بين البلايا التي كان لها أشد وقعا على المجتمع المرابطي نذكر المجاعات والأوبئة، خاصة أنها أفرزت واقعا مريرا صعب على الإنسان معايشته خلال تلك المرحلة، ورغم تعدد المجاعات والأوبئة خلال الفترة المرابطية فإنها لم تحظى باهتمام كبيرة من طرف الباحثين في التاريخ، وبالتالي لازالت في حاجة إلى دراسة عميقة ورصينة بهدف الوقوف عليها وعلى مسبباتها والانعكاسات التي أفرزتها سواء من الناحية الاقتصادية أو الاجتماعية أو الديمغرافية وحتى السياسية وغيرها من المجالات.

من هنا سنحاول من خلال هذه الدراسة الإلمام بالمجاعات والأوبئة التي عرفتها الدولة المرابطية منذ نشأتها إلى سقوطها، وكذلك رصد بعض الجوانب المتعلقة بهذه المجاعات والأوبئة، ولا يمكن القيام بذلك دون العودة إلى المصادر التاريخية المختلفة خاصة كتب التاريخ والجغرافيا وكتب المناقب وغيرها، وذلك

لتناثر المعلومات بين ثناياها، ويعتبر كتاب "البيان المغرب" لإبن عذاري المراكشي من بين مصادر التاريخ التي أولت اهتماما كبيرا لقضية المجاعات والأوبئة بصفة عامة والمجاعات والأوبئة التي ظهرت خلال العصر المرابطي على الخصوص، سواء منها العامة التي اجتاحت البلاد ككل أو المحلية الخاصة بأقاليم ومدن معينة، فهذا الكتاب قدم معلومات ومعطيات وفيرة حول المجاعات والأوبئة خلال هذه الفترة وكذلك مسبباتها وانعكاساتها. هناك أيضا كتاب " نظم الجمان لترتيب ما سلف من أخبار الزمان" لابن القطان، فهو الأخر يزخر بمعلومات مهمة حول الموضوع خاصة أنه أرخ للمرحلة الانتقالية، أي نهاية الحكم المرابطي وبداية الموحدين، وما عرفته المرحلة من صراعات وتطاحنات سياسية وعسكرية، كان لها الدور الكبير في ظهور وتفشي المجاعات والأوبئة سواء في المغرب أو الأندلس. كما اعتمدنا على عدد من المقالات التاريخية ذات الصلة بالموضوع[1].

إشكالية الدراسة:

يطرح موضوع المجاعات والأوبئة إشكالات عديدة، نظرا لكونه من المواضيع المهمة التي لها تأثير وانعكاس مباشر على الحياة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية... لأفراد المجتمع بصفة عامة ومجتمع العصر الوسيط على الخصوص، وهذا ما دفعنا إلى التساؤل: هل عرف العصر المرابطي انتشار للمجاعات والأوبئة؟ هل اقترنت المجاعات والأوبئة خلال العصر المرابطي؟ ما هو مفهوم الوباء؟ ما هو مفهوم المجاعة؟

الفرضيات:

تفرغت عن إشكالية المقال فرضيات جزئية على الشكل التالي:

- عرف العصر المرابطي مجموعة من المجاعات والأوبئة.
- هناك اقتران بين المجاعات والأوبئة خاصة

---

(1) من بين المقالات: عز الدين جسوس، الكوارث الطبيعية والأوبئة ومدى تأثيرها على العلاقة بين الرعية والسلطة السياسية خلال حكم المرابطين، ضمن كتاب المجاعات والأوبئة في تاريخ المغرب، الجمعية المغربية للبحث التاريخي، ٢٠٠٢ /عبد الحق الطاهري، تمثلات الأوبئة بالمغرب خلال العصر =

= الوسيط (٢٦٠-٨٩٩هـ/ ٨٧٤-١٤٦٤م)، ضمن كتاب جماعي الجوائح والأوبئة عبر تاريخ المغرب: الأنواع والأسباب والتدابير، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، الطبعة الأولى، ٢٠٢٠ / عبد الرحمان أمل، الأوبئة والجوائح وموت النخبة العالمة وأهل الصنائع بمغرب العصر الوسيط، ضمن كتاب جماعي الجوائح والأوبئة عبر تاريخ المغرب: الأنواع والأسباب والتدابير، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، الطبعة الأولى، ٢٠٢٠ .

في أواخر العصر المرابطي.

الأهداف:

- تحديد مفهومي الوباء والمجاعة.
- الاطلاع على جوانب من المجاعات والأوبئة خلال العصر المرابطي.
- معرفة ما إذا اقترنت المجاعات بالأوبئة خلال العصر المرابطي.

المنهج المعتمد:

للإجابة على هذه التساؤلات واعتمادا على المادة المصدرية المتوفرة لدينا اعتمدنا في هذه الدراسة على منهجية علمية قائمة على المزج بين الوصف وتحليل مختلف النصوص التاريخية المستقاة من مصادر متنوعة، ثم استقراء النتائج منها، بهدف التعرف على جوانب من المجاعات والأوبئة التي عرفها المغرب والأندلس خلال العصر المرابطي.

أولا- المجاعات والأوبئة: تحديد المفهوم

١- مفهوم الوباء

الوباء في اللغة هو: "كل مرض عام، وجمع المقصور أوْباء، وجمع الممدود أوبئة، وقد وبئت الأرض توْبأُ فهي موبوءة إذا كثر مرضها، وكذلك وبئت توْبأُ وباءةً فهي وبِئَة على فعِلةٍ وفعيلةٍ، وأوبأت أيضا فهي موبئة، واستوبأت الأرض وجدتها وبيئة"[١].

أما الوباء اصطلاحا فهو: "المرض المعدي الذي يصيب في وقت واحد في أرض واحدة عدد كثيرا من الناس خاضعين لتأثيرات واحدة"[٢]. وهو نفس التعريف الذي ذهب إليه أبو الوليد الباجي (توفي ٤٧٤هـ/ ١٠٨١م) حيث يقول أنه: " مرض يعم الكثير من الناس في جهة من الجهات، بخلاف المعتاد من أمراض الناس، ويكون مرضهم واحدًا بخلاف بقية الأوقات فتكون الأمراض مختلفة"[٣].

ويعرفه ابن خاتمة بأنه مرض عام للناس قتَّال غالبا عن سبب مشترك[٤]، أما ابن الخطيب

---

(١) ابن منظور، لسان العرب، ج١، دار صادر، بيروت، ١٩٦٨، ص ١٨٩-١٩٠.

(٢) ابن زهر عبد الملك، التيسير في المداواة والتدبير، تحقيق محمد عبد الله الروداني، مطبعة فضالة، المحمدية، ١٩٩١، ص ١٩٠.

(٣) عبد الحق الطاهري، تمثلات الأوبئة بالمغرب خلال العصر الوسيط (٢٦٠-٥٨٩٩هـ/ ٨٧٤-١٤٦٤م)، ضمن كتاب جماعي الجوائح والأوبئة عبر تاريخ المغرب: الأنواع والأسباب والتدابير، منشورات كلية الأداب والعلوم الإنسانية، الرباط، الطبعة الأولى، ٢٠٢٠، ص ٨٤.

(٤) ابن خاتمة، تحصيل الغرض القاصد في تفصيل المرض الوافد، نشر ضمن كتاب عبد الكريم الخطابي، الطب والأطباء في الأندلس الإسلامية، ج١، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٨٨، ص ١٦٢.

فقد عرفه بأنه: "هو مرض حاد، حار السبب، سمي المادة يتصل بالروح بدءا بواسطة الهواء، ويسري في العروق فيفسد الدم، ويحيل رطوبات إلى السمية، وتتبعه الحمى ونفث الدم، أو يظهر عنه خراج من جنس الطواعين"[١]، الملاحظ أن ابن الخطيب لم يكتفي بتعريف الوباء بل قدم تفاصيل عن أعراضه، كما أنه يرجع السبب الرئيسي للوباء إلى فساد الهواء، وهو نفس السبب الذي ذهب إليه ابن خلدون، حيث اعتبر أن سبب الوباء " في الغالب هو فساد الهواء وهو غذاء الروح لكثرة ما يخالطه من العفن والرطوبات الفاسدة، وإذا فسد الهواء غذاء الروح الحيواني، وملابسه دائما، فيسري الفساد إلى مزاجه، فإن كان الفساد قويا وقع المرض في الرئة، وهذه هي الطواعين وأمراضها مخصوصة بالرئة، وإذا كان الفساد دون القوي والكثير فيكثر العفن ويتضاعف فتكثر الحصيات في الأمزجة وتمرض الأبدن وتهلك"[٢]، كما أطلق ابن خلدون على الوباء لفظ الموتان[٣]، وهو قد يعني شمولية الموت من هذا المرض المفاجئ، أي أنه يصبح عام يموت به عدد كبير جدا، أي أنه يقتل أعداد كبيرة في نفس الوقت.

يطلق على الأوبئة أيضا الأمراض الوافدة لأنها قادمة على الناس من بعيد مع الهواء، ليست من جهة مطعوم ولا مشروب ولا عرض نفساني وشبه ذلك، أو لكونها أيضا أمراض عامة تشمل وفدًا كبيرا من الناس[٤].

أما ابن هيدور فقال عن الوباء: " وذلك أن ترتفع أبخرة فاسدة متعفنة من السباخ والأوخام والأتربة الراكدة في الهواء، وأقذار الناس وفضلاتهم، وجيف القتلى والدواب... فيتغير الهواء عنها ويتعفن ويحدث الوباء"[٥]، وهو نفسه يرجع سبب الوباء إلى التغذية إذ يذكر أنه "يحدث هذا المرض (يعني الوباء) أيضا عن فساد الأغذية المستعملة في زمن المجاعات وغلاء الأسعار، فيضطر فيه الناس إلى تناول غذاء غير مألوف قد فسد وتعفن لطول زمنه وقدمه، فيفسد المزاج من هذه

(١) ابن الخطيب لسان الدين، مقنعة السائل عن المرض الهائل، منشورات معهد العلوم العربية الإسلامية، ألمانيا، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م، ٦٥.

(٢) عبد الحق الطاهري، تمثلات الأوبئة، مرجع سابق، ص ٨٦.

(٣) ابن خلدون عبد الرحمان، المقدمة، تحقيق محمد الاسكندراني، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الأولى، ٢٠٠٦، ص ٢٨٢.

(٤) ابن خاتمة، المصدر السابق، ص ١٦٢-١٦٣.

(٥) عبد الحق الطاهري، تمثلات الأوبئة، مرجع سابق، ص ٨٦.

التغذية، وتحدث الأمراض القاتلة"[1].

الملاحظ من خلال جل التعاريف التي أعطيت لمفهوم الوباء، هو أنها لا تتعارض فيما بينها، وتشترك في خاصية أساسية وهي أن الوباء مرض عام ناتج عن سبب مشترك هو فساد الهواء، إلا أن ابن هيدور يضيف سبب أخر وهو فساد التغذية.

من خلال الاطلاع على المصادر التاريخية التي أرخت للأوبئة خلال العصر الوسيط، يتبن أنه هنا سبب أخر لا يقل أهمية عن فساء الهواء وفساد التغذية، ويتعلق الأرض بالمجاعات، فالمجاعة تؤدي إلى كثرة الضحايا ونقص في التغذية ونقص في المقدرة الحمائية للجسم مما يؤدي إلى الوباء[2]، وقد يحدث العكس أي أن الوباء يؤدي إلى كثرة الضحايا وبالتالي نقص في اليد العاملة وفراغ الحقول، مما ينتج عنه المجاعة[3]، وربما أن هذا السبب هو الذي يجعل البحث في الأوبئة مقرون بالمجاعات فهم متلازمان وواحدة تؤدي إلى الأخرى.

من خلال ما سبق يتبين أن مفهوم الوباء لا يختلف كثيرا على ما هو معروف عليه اليوم، فالوباء هو أزمة صحية حادة طويلة الأمد نسبيا، وهي ناتجة عن مرض شديد العدوى وسريع الانتشار يصاب به عدد كبير من الناس جماعة، وينتشر في منطقة جغرافية واسعة، وكأن الوباء مرض يصسب البيئة فيتأذى الناس[4].

٢- مفهوم المجاعة

المجاعة غي اللغة هي مفْعَلَة من الجوع، ومن الفعل جاع يَجُوعُ فهو جائع وجوعان، والجوع نقيض الشبع وهو اسم للمَخْمَصَةِ وهي مصدر مثل الغضبة والمعتبة، وهي خلاء البطن من الطعام[5]، وتعني المجاعة كذلك المسغبة وهذا ما يتضح من خلال قوله تعالى: " أَوْ إِطْعَامٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ"[6]، فقد جاء عند ابن منظور " سغب الرجل يَسْغَبُ، وسَغَبَ يَسْغُبُ سغبا: جاع، والَّغْبَة:

(١) نفس المرجع، نفس الصفحة.

(٢) عبد الرحمان أمل، الأوبئة والجوائح وموت النخبة العالمة وأهل الصنائع بمغرب العصر الوسيط، ضمن كتاب جماعي الجوائح والأوبئة عبر تاريخ المغرب: الأنواع والأسباب والتدابير، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، الطبعة الأولى، ٢٠٢٠، ص ٥٦.

(٣) نفس المرجع، نفس الصفحة.

(٤) محمد أبطوي، دراسة وسبل التحرر منه: الأوبئة في الطب العربي وفي التاريخ الثقافي والاجتماعي، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، يونيو ٢٠٢٠، ص ٣.

(٥) ابن منظور، لسان العرب، ج٢، ص ٤٣١-٤٣٢.

(٦) سورة البلد، الآية ١٤.

الجوع، وقيل: الجوع مع التعب، وربما سمي العطش سغبًا وليس بمستعمل"[1].

تعددت التسميات والمصطلحات التي أطلقت على لفظ المجاعة، وإن كانت تصب كلها في مفهوم واحد يدل على أنها حالة مرتبطة بنقص الغذاء أو انعدامه، كما أنها ظاهرة اقتصادية واجتماعية انتشرت في مختلف الدول والحضارات على مر الأزمان، وكانت لها انعكاسات على مختلف الميادين منها الاقتصادية والاجتماعية والديمغرافية وحتى السياسية منها، ومن بين المصطلحات التي تطلق المجاعة هناك الشدة، وشدة العيش: شَظَفَهُ، والأنْفَاضُ ويعني المجاعة والحاجة، أما الخصاصة فهي الخُلَّة والفقر، وذو خصاصةٍ: ذو فقرٍ، وقيل أن العرب كانت تسمي الشتاء مجاعة، لأن الناس يلتزمون البيوت ولا يخرجون للانتجاع[2].

كما عرفت السنة التي تعرف مجاعة بتسميات متعددة، مثل السنة الغَبْرَاءُ وسنة لَزْبَةٌ أي شديدة، وهي السنة التي يكون فيها القحط، واللَّزُوب يعني القحط، وكذلك السنة الحمراء أي السنة الشديدة الجذب لأن آفات السماء إنما تحمرُّ في سنة القحط، والسنة الشَّهْبَاء: إذ كانت بيضاء من الجذب لايرى فيها الخضرة، وقيل هي بيضاء لكثرة الثلج وعدم وجود النبات، وقيل أن الشهباء هي ريح شديد البرد، وقيل سنون خدّاعة أي تكثر فيها الأمطار ويقل الريع فيها، فذلك خداعها لأنها تطعم في الخصب بالمطر ثم تخلف، وقيل الخداعة: القليلة المطر، والسنون الخوادع: هي القليلة الخير الفواسد، وكذلك السنة السنهاء: وهي السنة التي لا نبات فيها ولا مطر، ويقال: أسْنَتَ القوم بمعنى أصابهم سنة شديدة القحط[3].

ويطلق على المجاعة أيضا مصطلح الأُلْبَةُ وهي مأخوذة من التَّألُّب والتَّجَمُّعْ لأن الناس يجتمعون في المجاعة ويخرجون أرسالاً، ويقال للجوع أيضا الخَوْبَةُ، وأصابتهم خوبة أي مجاعة، ولفظ الخوبة يطلق أيضا على الأرض التي لم تمطر بين أرضين ممطورتين، وقيل الخوبة والقَوَايَة والخَطِيطَةُ هي الأرض التي لم تمطر[4].

من هنا فإن المجاعات جاءت في المصادر بتسميات عديدة ومختلف فكتب المناقب استعملت في كثير من الأحيان لفظ مسغبة

---

(١) ابن منظور، لسان العرب، ج١، ص ٣٦٨.

(٢) ابن منظور، لسان العرب، ج٣، ص ٢٣٤.

(٣) نفس المصدر، ج١، ص ٥٠٨- ٧٣٨، ج٤، ٢١٠، ج٨، ص ٦٦، ج١٣، ٥٠٥.

(٤) نفس المصدر، ج١، ص ٣٦٨.

خاصة إذا جاءت مقرونة بفعل قام به الولي مثل الصدقة أو إظهار الكرامة من أجل إطعام الناس، كما تما استعمال كلمة القحط والجوع الشديد والخصاصة والمجاعة والشدة وهي كلها مصطلحات تدل على المجاعة.

أما المصادر التاريخية فغالبا ما عبرت بلفظ المجاعة لأنها تعبر عن أزمة اقتصادية من بين الأزمات التي تعرفها مرحلة معينة، كما تم العبير بلفظ الجائحة رغم أن الجائحة لا تعني المجاعة وإنما هي أحد مسبباتها، فالجائحة تعني " الشدة والنازلة العظيمة التي تجتاح المال من سنةٍ أو فتنة، وأصلها من الجوائح أي بمعنى الاستئصال والهَرْتَكَسُ: نعت لكل جائحة مستأصلة"[1] كما عرفت الجائحة بأنها كل الآفات السماوية التي لا يد للإنسان فيها، والتي لا يستطاع التحرز منها ولا دفعها إن عُلم بها، كالقحط وكثرة المطر والريح والبرد والجراد والدود والعفن والغبار المفسد وغيرها[2].

الجدول ١: المجاعات خلال العصر المرابطي

تاريخ المجاعة	المصدر
٤٥٠هـ / ١٠٥٨م	ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج٢، ص ٦٢٠
٤٩٨هـ / ١١٠٣م	ابن عذاري، البيان المغرب، ج٤، ص ٤٥
٥١٢هـ / ١١١٨م	ابن عذاري، البيان المغرب، ج٤، ص ٣٠٧
٥١٤هـ / ١١٢٠م	ابن الزبير،الصلة، ج٢، ص ٥٢٥. نقلا عز الدين جسوس، الكوارث الطبيعية والأوبئة، ص ٥٧
٥٢٤هـ / ١١٣٠م	ابن القطان، نظم الجمان، ص ٢١٧.
٥٢٥هـ / ١١٣١م	ابن الزبير، الصلة، ص ٢٤. نقلا عز الدين جسوس، الكوارث الطبيعية والأوبئة، ص ٥٨.
٥٢٦هـ / ١١٣٢م	ابن القطان، نظم الجمان، ص ٢٢٦.
٥٢٧هـ / ١١٣٣م	ابن القطان، نظم الجمان، ص ٢٣٠.
٥٢٩هـ / ١١٣٤م	ابن القطان، نظم الجمان، ص ٢٤٢.
٥٣٠هـ / ١١٣٥م	ابن القطان، نظم الجمان، ص ٢٥٠.
٥٣١هـ / ١١٣٧م	ابن القطان، نظم الجمان، ص ٢٥٢.
٥٣٥هـ / ١١٤١م	ابن الزيات، التشوف، ص ١٨٣.

(١) نفس المصدر، ج٨، ص ٦١-٦٢.

(٢) ابن لمون الكناني، العقد المنظم للحكام فيما يجري بين أيديهم من العقود والأحكام، ج١، المطبعة العامرية الشرقية، الطبعة الأولى، ١٣٠١هـ، ص ٢٥١.

الجدول ١: الأوبئة خلال العصر المرابطي

تاريخ المجاعة	المصدر
٥١٢هـ / ١١١٨م	ابن عذاري، البيان المغرب، ج٤، ص ٣٠٧
٥١٤هـ / ١١٢٠م	ابن الزبير، الصلة، ج٢، ص ٥٢٥. نقلا عز الدين جسوس، الكوارث الطبيعية والأوبئة، ص ٥٧.
٥٢٤هـ / ١١٣٠م	ابن القطان، نظم الجمان، ص ٢١٧.
٥٢٥هـ / ١١٣١م	ابن الزبير، الصلة، ٢٤، نقلا عز الدين جسوس، الكوارث الطبيعية والأوبئة، ص ٥٨
٥٢٦هـ / ١١٣٢م	ابن القطان، نظم الجمان، ص ٢٢٦.
٥٢٧هـ / ١١٣٣م	ابن القطان، نظم الجمان، ص ٢٣٠.

ثانيا- المجاعات والأوبئة خلال العصر المرابطي:

عرفت الدولة المرابطية خلال تاريخها العديد من الأزمات والشدائد، وتبقى المجاعات والأوبئة من أهم الشدائد التي عرفتها هذه الدولة، خاصة في نصفها الثاني أي مع نهاية القرن الخامس الهجري وبداية السادس، فقد ظهرت مجموعة من المجاعات والأوبئة ومنها ما هو عام وإن كان قليلة مقارنة بالمجاعات والأوبئة التي كانت محلية أي ارتبطت بأقاليم أو مدن معينة.

من أهم المجاعات التي في التي انتشرت تفشت في نهاية القرن الخامس الهجري نجد مجاعة ٤٩٨هـ/١١٠٤م حيث يقول ابن عذاري: تناهى القحط في بلاد الأندلس والعدوة حتى أيقن الناس بالهلاك"[١]، لكن يبقى النصف الأول من القرن السادس الهجري، الفترة التي عرفت انتشار المجاعات والأوبئة بشكل كبير، ومنها مجاعة ٥١٢/١١١٨م حيث يقول ابن عذاري: " كان في هذه السنة غلاء عظيم ووباء، وبلغ ربع الدقيق بتلمسان عشرين درهما"[٢]، ومن خلال ما جاء عند ابن عذاري يتبين أن هذه السنة لم تشهد مجاعة فقط، بل رافقها وباء مما أدى إلى نقص مواد التموين وارتفاع أثمنتها وخاصة الدقيق الذي شكل مادة أساسية بالنسبة لساكنة الغرب الإسلامي، وبعد مرور سنتين على هذه

(١) ابن عذاري أبو العباس احمد بن محمد المراكشي، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، ج٤، تحقيق ومراجعة، ج. س كولان و ليفي برفنسال، دار الثقافة، بيروت، لبنان،بالطبعة الثالثة، ١٩٨٣، ص ٩٥.

(٢) نفس المصدر، ص ٩٥.

المجاعة "عم قحط أخر البلاد"[1]، سنة ٥١٤هـ/ ١١٢٠م، وفي سنة ٥٢٤هـ/ ١١٣٠م عرف المغرب والأندلس قحط كان له أثر واضح على المجتمع، إذ يقول ابن القطان: "ضرب قحط المغرب والأندلس وكان له تأثير سيء على الوضعية الصحية بالمغرب، إذ انتشرت الأوبئة التي كان لها أثر سيء بمدينة فاس"[2]، لتتوالى بعد ذلك المجاعات، وما كان يزيد من حدتها وانعكاساتها على الاقتصاد والمجتمع هو اقترانها خلال هذه الفترة بالأوبئة، فقد عرفت البلاد فمن سنة ٥٢٤هـ/ ١١٣٠م إلى سنة ٥٢٧هـ/ ١١٣٣م سلسلة من المجاعات المقرونة بالأوبئة[3]، وما زاد من تفاقم الأوضاع سواء في المغرب أو الأندلس هو توالي سنوات الجفاف وكذلك هجومات الجراد، وهو ما أكده ابن القطان بقوله: "اشتدت المجاعة والوباء بالناس بقرطبة وبلغ مد القمح خمسة عشر دينارا"[4]، ونفس الأمر سيتكرر سنة ٥٢٧هـ/ ١١٣٣م فقد شهدت مدينة قرطبة مجاعة وجفاف بسبب هجوم أسراب الجفاف[5].

إذا كانت سنة ٥٢٨هـ/ ١١٣٤م لم تشهد البلاد خلالها مجاعات ولا أوبئة، فإن السنة الموالية لها عرفت مجاعة حيث يقول ابن القطان في هذا الصدد: "محت الجراد ما على الأرض من زرع وكلإ"[6]، كما تواصلت الجائحة نفسها سنة ٥٣٠هـ/ ١١٣٦م، وذلك نتيجة إضرار الجراد بالمحاصيل الزراعية أو ما تبقى منها[7]، وهو الأمر نفسه الذي سيتكرر سنة ٥٣١هـ/ ١١٣٨م[8].

تبقى أصعب مجاعة عرفها المغرب والأندلس في أواخر الدولة المرابطية هي مجاعة ٥٣٥هـ/ ١١٤٠م، خصوصا إذا علمنا أن هذه الفترة عرفت صراعات وحروب بين المرابطين والموحدين، أي شكلت مرحلة انتقالية سواء في المغرب أو الأندلس، وخلال هذه المرحلة

---

(١) ابن الزبير، الصلة، ص ٥٤٥. نقلا عن عزالدين جسوس، الكوارث الطبيعية والأوبئة ومدى تأثيرها على العلاقة بين الرعية والسلطة السياسية خلال حكم المرابطين، ضمن كتاب المجاعات والأوبئة في تاريخ المغرب، الجمعية المغربية للبحث التاريخي، ٢٠٠٢، ص ٥٧.

(٢) ابن القطان أبو الحسن علي بن محمد الكتامي الفاسي، نظم الجمان لترتيب ما سلف من أخبار الزمان، تحقيق محمود علي مكي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٠، ص ٢١٧.

(٣) عز الدين جسوس، الكوارث الطبيعية والأوبئة، مرجع سابق، ص ٥٨.

(٤) نفس المرجع، نفس الصفحة.

(٥) ابن القطان، نظم الجمان، ص ٢٢٦.

(٦) نفس المرجع، ص ٢٤٢.

(٧) نفس المرجع، ص ٢٥٠.

(٨) نفس المرجع، ص ٢٥٢.

شهدت البلاد ظهور مجاعات مختلفة، ففي هذه السنة انعدمت الأتوات وضاقت الأرض بالمساكين[١]، واضطر الناس إلى أكل جذور النباتات[٢]، وما زاد من حدة هذه المجاعات هو حصار الموحدين للعديد من المدن المغربية، فحصار مدينة مراكش الذي دام قرابة عشرة أشهر، حيث نفد الطعام، وفنيت مخازنهم حتى أكلوا دوابهم ومات منهم بالجوع ما ينيف عن مائة وعشرين ألف، ولما طال الحصار واشتدت أحوالهم هلكوا جوعا، حتى أكلوا الجيف وأكل المساجين بعضهم بعضا، وعدمت الحيوانات كلها، وعدمت الحنطة بأسرها واختبرت المخازن فلم يوجد بها شيء[٣]، كما ضاقت مدينة مكناسة درعا لكثرة الوقائع وتمادى الحصار عليها ففنيت الأقوات واضطر الناس إلى أكل خسيس الحيوان، حتى عدم كل ذلك، وهلك الناس قتلا وجوعا[٤]، ونظرا للفاقة التي ألمت بالناس أيام المجاعات اضطر البعض إلى بيع أملاكهم كما حدث مع امرأة من أهل أغمات[٥].

من خلال ما سبق، يتبين أن بلاد المغرب والأندلس، عرفت خلال العصر المرابطي، العديد من المجاعات وبشكل دوري، كما أن هذه المجاعات لم تكن حاضرة في بداية الدولة المرابطية باستثناء مجاعة ٤٥٠هـ/ ١٠٥٨م، لكن مع النصف الثاني من العصر المرابطي ستتوالى المجاعات ومنها مجاعة ٤٩٨هـ/ ١١٠٣م، ثم مجاعة ٥١٢هـ/ ١١١٨م، ومجاعة ٥١٤هـ/ ١١٢٠م، لتعرف البلاد سلسة من المجاعات ما بين ٥٢٤هـ/١١٣٠م إلى نهاية الدولة المرابطية، خصوصا أن هذه الفترة شكلت المرحلة الأخيرة من عمر الدولة وما عرفته من حروب وصراعات بين المرابطين والموحدين، كما ساهمت الكوارث الكبيعية المختلفة في حدوث المجاعات خلال الفترة المدروسة، خاصة توالي سنوات الجفاف مما سبب في حدوث

(١) ابن الزيات التادلي أبو يعقوب يوسف يحيى، التشوف إلى رجال التصوف وأخبار أبي العباس السبتي، تحقيق احمد التوفيق، منشورات كلية الآداب بالرباط، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، الطبعة الثانية،١٩٩٧، ص ١٤٩.

(٢) نفس المرجع، ص ٢١٢.

(٣) ابن غازي محمد، الروض الهتون في أخبار مكناسة الزيتون، المطبعة الملكية، الرباط، ١٩٦٤، ص ٩.

(٤) ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص ٢٧/ مجهول، الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، تحقيق سهيل زكار وعبد القادر زمامة، دار الرشاد الحدية، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، ١٣٩٩هـ-١٩٧٩، ص ١٣٧-١٣٨.

(٥) ابن الزيات، التشوف، مرجع سابق، ص ١٢٤-١٢٥.

المجاعات، فقد عمت موجة الجفاف مدينة فاس وهو ما يفهم من الإشارة التي أوردها ابن الزيات في ترجمته للولي الصالح أبو جبل يعلى المتوفي سنة (٥٠٣هـ/١١٠٩م) حين قال: "وقحط الناس في بعض الأعوام، فبعثوا إليه رجلا عساه أن يدعو لهم بماء المطر"(١)، ونفس الأمر بالنسبة لمدينة مراكش حيث يقول صاحب الحلل الموشية: "وغلت الأسعار، وتوالت الفتن وعم الجذب"(٢)، ولم تكن الأندلس بأحسن حال فهي الأخرى عرفت مجاعات نتيجة الجفاف وهذا ما يظهر عند ابن عظاري وهو يؤرخ لما حدث سنة ٤٩٨هـ/ ١١٠٤م حيث قال: "تناهى القحط في بلاد الأندلس والعدوة حتى أيقن الناس بالهلاك"(٣) كما تعرضت مدينة غرناطة سنة ٥٢٤هـ/ ١١٢٩م لحالة من الجفاف والقحط نتيجة عدم سقوط الأمطار(٤)، ولم يكن الجفاف المسبب الوحيد للمجاعة هناك أيضا الجراد الذي يعتبر من أخطر الكوارث الطبيعية التي تصيب البلاد نظرا لأنه يأتي على الأخضر واليابس، وكثيرا ما

(١) ابن الزيات، التشوف، ص ٨٥.

(٢) مجهول، الحلل الموشية، ص ١١٩-١٢٠.

(٣) ابن عذاري، البيان المغرب،ج٤، ص ٩٥.

(٤) ابن الزبير، الصلة، ص ٢٤. نقلا عن عز الدين جسوس، الكوارث الطبيعية والأوبئة، مرجع سابق، ص ٥٨

يتسبب في أضرار فادحة للزراعة سواء في المغرب أو الأندلس، كما ساهمت هجومات الجراد في حدوث العديد من المجاعات خلال الفترة المدروسة، فقد تعرض المغرب الأقصى لزحف الجراد على منطقة أغمات مما دعى الناس إلى الإجتماع والخروج لمحابته، ولم يكتفوا بذلك فحسب بل قصدوا أحد الأولياء وشكوا له ما نزل بهم من الجراد، وتذرعوا له بالدعاء، فدعا الله لهم أن يصرفه عتهم وبعد ذلك بيوم خرج الناس للمزارع والجنات فلم يجدا جرادة واحدة(٥)، رغم المبالغة التي وردت عند ابن الزيات إلا أن النص يقدم لنا تصورا عن حجم الضرر الذي ينتج عن هجومات الجراد وما قد يسببه من أضرار بالنسبة للناس، كما ساهمت الفيضانات والسيول في حدوث المجاعات، كما حدث في مدينة طنجة حيث شهدت سنة ٥٣٢هـ سيلا عظيما دمر الدور والجسور وتسبب في هلاك خلق عظيم من الناس والحيوانات(٦)، كما شهدت مدينة فاس وضواحيها سنة ٥٣٦هـ نزول أمطار غزيرة تسببت في حدوث فيضانات حيث حملت الوديان، واشتد البرد فهلك الكثير من جيوش المرابطين بردا وجوعا لانقطاع الطرق ومن

(٥) ابن الزيات، التشوف، ص ٢٠٤-٢٠٥.

(٦) ابن عذاري، البيان المغرب، ج٤، ص ٩٥.

شدة البرد وصل الأمر باجند المرابطين بعد حلولهم بمنطقة النواظر الواقعة بناحية تازا أن أحرقوا السروج وصحاف العود، ولم يتسنى لهم غرس أوتاد الأخبية لرخاوة الأرض نظرا لعدم توقف الأمطار عن السقوط لمدة عشرة أيام، وهذا ما أدى إلى كثرة الموتى سيما في الضعفاء من الناس(١).

ما يستشف هو أن أواخر العصر المرابطي عرف سلسلة من المجاعات سواء في المغرب أو الأندلس، لكن الملاحظ هو اقتران المجاعات بالأوبئة في كثير من الأحيان، وهذا ينسجم مع ما ذهب إليه ابن خلدون من خلال قوله: "إن المجاعات والموتان تكثر عند ذلك في أواخر الدولة، والسبب فيه: أما المجاعات فلقبض الناس أيديهم عن الفلح في الأكثر، بسبب ما يقع في أخر الدولة من العدوان في الأموال والجبايات أو الفتن الواقعة في انتقاص الرعايا وكثرة الخوارج لهرم الدولة... وأما الموتان فلها أسباب من كثرة المجاعات أو كثرة الفتن لاختلال الدولة فيكثر الهرج والقتل(٢)، وقول ابن خلدون هو ينسجم مع حدث في الفترة المدروسة، فالمجاعات والأوبئة تلازمتا في كثير من الأحيان خاصة سنة ٥٥١٢/ ١١١٨م، وما بين سنوات ٥٥٢٤/ ١١٣٠م و ٥٥٢٧/ ١١٣٧م كما يوضح ذلك الجدول رقم (١) و (٢).

جاء اقتران المجاعات والأوبئة لأن كل واحدة تؤدي إلى الأخرى، فالأوبئة غالبا ما تليها مجاعات نتيجة انعدام التغذية، وما يترتب عنه من تدني المناعة عند الأهالي(٣)، وكذلك جراء تعفن الجتت وجبف الحيوانات في الشوارع مما يؤدي إلى فساد الهواء، فيكثر الوباء والأمراض المعدية فيرتفع عدد الضحايا(٤)، وهذا الأمر هو ما عبر عليه أحد الباحثين بما يلي:

- الوباء ينتج عنه كثرة الضحايا ونقص في اليد العاملة وفراغ الحقول وبالتالي مجاعة.
- المجاعة تؤدي إلى كثرة الضحايا ونقص التغذية ونقص المقدرة الحمائية للجسم وبالتالي حدوث الوباء(٥).

---

(١) نفس المصدر، ص ٩٩- ١٠٠.

(٢) ابن خلدون عبد الرحمان، المقدمة، ص ٣٢٠-٣٢١.

(٣) عبد الرحمان أمل، المرجع السابق، ص ٥٦.

(٤) نفس المرجع، نقس الصفحة.

(٥) نفس المرجع، نفس الصفحة.

خاتمة:

يبدو من خلال تتبع المجاعات والأوبئة التي عرفها العصر المرابطي، أن وثيرتها كانت ملازمة للكوارث الطبيعية التي عرفها المغرب والأندلس من جفاف وجراد وفيضانات وسيول، كما كانت ملازمة لمختلف أنواع الأزمات السياسية، خاصة في أواخر العصر المرابطي، حيث اشتد الصراع بين المرابطين والموحدين، مما كان يزيد من المجاعات، خاصة ما بين سنوات ٥٢٣هـ و٥٢٧هـ، ثم من سنة ٥٣٥هـ إلى نهاية الدولة، وفي كثير من الأحيان كان ينتج عن المجاعات تفشي وانتشار الأوبئة نظرا لاقترانهما واشتراكهم في المسببات خاصة الكوارث الطبيعية.

وما يمكن استنتاجه من هذه الدراسة هو أن:

- غياب المجاعات والأوبئة في الفترة الأولى من حكم المرابطين.
- ارتباط المجاعات والأوبئة بنهاية القرن الخامس الهجري وبداية السادس.
- تفاقم حدة المجاعات والأوبئة في نهاية الحكم المرابطي بسبب الصراع بين المرابطين والموحدين.
- اقتران المجاعات والأوبئة لأن كل واحدة كانت تؤدي إلى الأخرى في الكثير من الأحيان.

قائمة المصادر والمراجع:

١- القرآن الكريم.

٢- ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت، ١٩٦٨.

٣- عز الدين جسوس، الكوارث الطبيعية والأوبئة ومدى تأثيرها على العلاقة بين الرعية والسلطة السياسية خلال حكم المرابطين، ضمن كتاب المجاعات والأوبئة في تاريخ المغرب، الجمعية المغربية للبحث التاريخي، ٢٠٠٢

٤- عبد الحق الطاهري، تمثلات الأوبئة بالمغرب خلال العصر الوسيط (٢٦٠-٨٩٩هـ/ ٨٧٤-١٤٦٤م)، ضمن كتاب جماعي الجوائح والأوبئة عبر تاريخ المغرب: الأنواع والأسباب والتدابير، منشورات كلية الأداب والعلوم الإنسانية، الرباط، الطبعة الأولى، ٢٠٢٠

٥- عبد الرحمان أمل، الأوبئة والجوائح وموت النخبة العالمة وأهل الصنائع بمغرب العصر الوسيط، ضمن كتاب جماعي الجوائح والأوبئة عبر تاريخ المغرب: الأنواع والأسباب والتدابير، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، الطبعة الأولى، ٢٠٢٠.

٦- مجهول، الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، تحقيق سهيل زكار وعبد القادر زمامة، دار الرشاد الحدية، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، ١٣٩٩هـ-١٩٧٩.

٧- ابن غازي محمد، الروض الهتون في أخبار مكناسة الزيتون، المطبعة الملكية، الرباط، ١٩٦٤.

٨- ابن الزيات التادلي أبو يعقوب يوسف يحيى، التشوف إلى رجال التصوف وأخبار أبي العباس السبتي، تحقيق احمد التوفيق، منشورات كلية الآداب بالرباط، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، الطبعة الثانية،١٩٩٧.

٩- ابن القطان أبو الحسن علي بن محمد الكتامي الفاسي، نظم الجمان لترتيب ما سلف من أخبار الزمان، تحقيق محمود علي مكي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٠.

١٠- ابن لمون الكناني، العقد المنظم للحكام فيما يجري بين أيديهم من العقود والأحكام، ج١، المطبعة العامرية الشرقية، الطبعة الأولى، ١٣٠١هـ.

١١- ابن عذاري أبو العباس احمد بن محمد المراكشي، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، ج٤، تحقيق ومراجعة، ج. س كولان و ليفي برفنسال، دار الثقافة، بيروت، لبنان،بالطبعة الثالثة، ١٩٨٣.

١٢- محمد أبطوي، دراسة وسبل التحرر منه: الأوبئة في الطب العربي وفي التاريخ الثقافي والاجتماعي، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، يونيو ٢٠٢٠.

١٣-ابن خلدون عبد الرحمان، المقدمة، تحقيق محمد الاسكندراني، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الأولى، ٢٠٠٦.

١٤- ابن زهر عبد الملك، التيسير في المداواة والتدبير، تحقيق محمد عبد الله الروداني، مطبعة فضالة، المحمدية، ١٩٩١.

١٥-ابن خاتمة، تحصيل الغرض القاصد في تفصيل المرض الوافد، نشر ضمن كتاب عبد الكريم الخطابي، الطب والأطباء في الأندلس الإسلامية، ج١، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٨٨.

١٦- ابن الخطيب لسان الدين، مقنعة السائل عن المرض الهائل، منشورات معهد العلوم العربية الإسلامية، ألمانيا، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م.

قراءة تركيبة حول كتاب:
"الواحات المغربية قبل الاستعمار غريس نموذجا" للدكتور بن محمد قسطاني

رشيد صديق

Rachid SADIK

دكتور وباحث في التاريخ والتراث

Doctor and researcher in history and heritage

كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الخامس

الرباط المملكة المغربية

Faculty of Letters and Human Sciences, Mohammed V University, Rabat, Kingdom of Morocco

ملخص:

تعد واحات المغرب إرث تاريخي وحضاري يشهد على عراقة وأصالة المجتمع المغربي عبر التاريخ. وتعد هذه الواحات امتداد للواحات الصحراوية التي تزخر على مؤهلات ثقافية وتاريخية وأثرية من شأنها المساهمة في كتابة تاريخ وتراث المجتمعات البشرية. ولفهم عمران الواحة اهتم المؤرخين والانتروبولوجين والسوسيولوجين بالبنيات الاجتماعية والثقافية والسياسية للمجتمعات الواحية، فساهموا في وضع أسس معرفية حول طبيعة المجتمع الواحي خلال مرحلة ما قبل الاستعمار. ولاشك فيه، أن النظرية الخلدونية حول العمران البشري قدمت الكثير من التفسير والتحليل لطبيعة المجتمع والقبيلة في المغارب. تساهم دراسة مجتمع الواحة في معرفة الكثير من التفاصيل والأحداث التاريخية والاجتماعية للمجموعات البشرية المستقرة بالواحات المغربية. فالحديث عن موضوع الواحة هو بضرورة دعوة لكتابة وتوثيق جوانب مضنية من التاريخ العام للمجتمعات الواحية.

كلمات مفتاح: الواحة، التاريخ، المجتمع، الاستعمار، المغرب.

Abstract:

The oases of Morocco are a historical and civilized heritage that testifies to the nobility and authenticity of Moroccan society throughout history. These oases are an extension of the desert oases, which are rich in cultural, historical and archaeological qualifications that will contribute to writing the history and heritage of human societies. In order to understand the urbanization of the oasis, historians, anthropologists, and sociologists were interested in the social, cultural and political structures of oasis communities. They contributed to laying the foundations of knowledge about the nature of oasis society during the pre-colonial stage. There is no doubt about it, that the Khaldunian theory of human settlement provided a lot of interpretation and analysis of the nature of society and tribe in the Maghreb. The study of the oasis community contributes to the knowledge of many details and historical and social events of the human groups settled in the Moroccan oases. Talking about the subject of the oasis is an invitation to write and document strenuous aspects of public history.

Key words: Oasis, History, Society, Colonialism, Morocco

تقديم

إن محاولة إقامة قراءة تركيبة حول الكتب والدراسات المونوغرافية التي هي عبارة عن الرسائل والأطروحات الأكاديمية ليست مسالة بالأمر السهل، كما قد يتبادر إلى الذهن سذاجة لأول وهلة، بل إنها مسألة وقضية في غاية الصعوبة خصوصا لما قد يقع من سوء فهم أو تقصير في التحليل والتقييم خلال عملية القراءة. فالكتاب في الأصل هو رسالة لنيل دبلوم الدراسات العليا في شعبة علم الاجتماع نوقشت سنة ١٩٩٦م بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط تحت إشراف الأستاذ المكي بن طاهر. يدخل هذا العمل الذي ألفه بن محمد قسطاني، باحث جامعي، في إطار سلسلة الدراسات والأطروحات التي يعمل المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية على إصدارها إغناء لحقول البحث العلمي ببلاد المغرب ومساهمة في خلق تراكمات معرفية في مجال الأرصدة الوثائقية الأمازيغية.

عموما، يشير الباحث بن محمد قسطاني إلى أن هذا العمل الذي يتناول التاريخ الاجتماعي لواحة غريس منذ "الجذور" حتى الاستعمار هو مساهمة في الحوار حول البنيات التقليدية

للمجتمع المغربي عبر مجتمع الواحة. إن أول خطوة منهجية تعتمد في مثل هذه الدراسات هو محاولة تقديم شكلي حول الكتاب، وبعده تأتي مرحلة استكشاف المضامين واستخراج الخلاصات والاستنتاجات العامة، وإعمال المسافة اللازمة للإنباء والتموقع مع المعطى إيجابيا أو سلبيا أوهما معا. وتكمن أهمية الدراسة، حسب المهتمين والدارسين، كونها تعتبر من الدراسات القلائل المتخصصة في موضوع الواحة المغربية. كما أن من ميزاتها الأساسية تتجلى في مزجها في التحليل بين ما هو نظري وما هو ميداني، حيث تحاول الاعتماد على نظريات شتى في بناء التحليل.

المحور الأول: ملاحظات شكلية و تقنية

يتموقع الكتاب ضمن الحجم المتوسط، إذ يحتوي على ٢٧٦ صفحة باحتساب صفحات الفهرسة والبيبلوغرافيا. ويتكون من ستة فصول ومدخل وخاتمة والعديد من المحاور والمداخل من داخل كل فصل على حدى. نشر الكتاب من طرف مركز الدراسات الانتربولوجية والسوسيولوجية التابع للمعهد الملكي للثقافة الامازيغية بالمملكة المغربية سنة ٢٠٠٥م. فالكتاب جميل وأنيق تتسم فيه جميع الصفات والمواصفات التقنية والشكلية.

إن إخراج هذه الرسالة العلمية إلى خزانة المكتبات الوطنية والعمومية هو في حد ذاته مكسب لثقافة ومجتمع الوحات بالمغرب. فلا يمكن الحديث عن تنمية الواحات بدون الاستفادة من الدراسات والبحوث الأكاديمية التي تناولت موضوع الواحة من جوانب وزوايا مختلفة. وتتكون الدراسة من مدخل نظري يناقش النظريات الاجتماعية حول المغرب وستة فصول وخاتمة كلها مخصصة لدراسة الواحة في أبعادها الاجتماعية والثقافية والأنثربولوجية.

المحور الثاني: مضامين وفصول الكتاب، فهم وتفسير وتحليل

بعد المدخل النظري الذي حاول فيه الباحث أن يعرض لمختلف التنظيرات التي تناولت المجتمع المغربي ابتداء بالخلدونية وصولا إلى الطرح الوطني المعاصر مرورا بنظرية أنماط الإنتاج الماركسية والسوسيولوجيا الكولونيالية والانقسامية. ليحصر بعدها إشكالية البحث عموما "فيما مدى إجرائية مفاهيم وأطروحات تلك التنظيرات جميعها حول البنيات الاجتماعية المغربية التقليدية حتى حدود الاستعمار عبر نموذج غريس محور الدراسة". وبعد المدخل النظري وطرحه للإشكالية بني البحث على ستة فصول:

ففي الفصل الأول المعنون باسم: "المكان". حاول فيه الباحث تحديد الإطار المكاني والمجال الإيكواجتماعي لواحة غريس، حيث حددها ضمن ما سماه بالمغرب قبل الصحراوي تمييزا لها عن المجالات التي تتحدد في "المغرب شبه الصحراوي" ومجالات المغرب الصحراوي. فالمجال قبل الصحراوي الذي أدرج ضمنه واحة غريس: "تحده جبال الأطلس الكبير شمالا والصغير جبال صغرو واكنات جنوبا، ويبدأ شرقا عند حدود الجزائر مع واحة فكيك، وينتهي غربا في حدود سوس عند انتهاء مجال درعة لتمتد جنوبا نحو الصحراء". فيما يبقى تحديده لمجال غريس ضبابيا وتكتنفه الكثير من الغموضية الشيء الذي أوقعه في عديد المرات في هفوات ومزالق تتعلق أساسا بخروجه عن المجال المدروس...كما هو الأمر حينما يقحم قصور قلعة مكونة ضمن القصور الغريسية الكبرى. وكذلك إدراجه لقصر قرب تافيلالت هو قصر موش قلال الذي يحتوي على مقبرة يهودية...تم يتحدث عن فركلة وكأنها غريسية...لتصبح بذلك غريس وفق تعامله ذاك محتلة للمجال الماقبل صحراوي في عموميته؟.

وبعد التحديد المجالي ذاك "المستشكل" حاول الباحث الوقوف على مختلف الخصائص التي يتميز بها هذا المجال ألما قبل الصحراوي على مستوى الجغرافيا، حيث بدأ بالتربة محددا نوعها من النوع المستصلح والمؤنس ((Anthropogenèse، وصولا إلى الحديث عن المناخ السائد في واحات هذا المجال الذي هو مناخ متوسطي متدهور يميل وبقوة نحو القارية، مرورا بالتحدث عن "بؤر" ومنابع مياه هذا المجال التي حددها في ثلاث وهي روافد الوادي ومياه الفيض ومياه العيون الدائمة. وانتهى في هذا المحور الذي سماه المكان الطبيعي إلى خلاصة جميلة يقول فيها: "يعطي فقر التربة الجهد والمثابرة والحرارة بطء الحركة وعمق التأمل أما قلة التساقطات فتفضي إلى عطش نفسي عميق وتقشف مبالغ فيه في غالب الأحيان..اقتصاد الفقر، الاحتساء الشديد للشاي، للبن، للماء، ومطبخ مبني أساسا على السوائل"، لكنها مع ذلك تعد قولة وخلاصة محدودة لأنه لم يعطي فيها أية أهمية لنتائجها على مستوى العلاقات الاجتماعية بين القبائل،نظرا لشح وندرة الموارد هي المحرك الأساسي للنزاعات والصراعات القبلية الصانعة للتاريخ من داخل مجتمعات "الاستقرار" في الواحات لما قبل الاستعمار.

إن الواحة هي "مجال لفعل الإنسان" كما قال بها الباحث ولا يتجلى ذلك بشكل أخص إلا في مجالين أساسين: المجال الطبيعي والإنساني منجلي أساسا فيما سماه "بالأشغال الكبرى" التي يمارسها الإنسان بالواحة. فقبل تهيئة التربة واستصلاح الأراضي يقوم الإنسان الواحي بأشغال توسيع فوهات العيون والمنابع وبناء الصهاريج وإقامة السدود والخطارات والربطات وأغرور...رغم أن المجهود كله لا يعطي سوى زراعة معاشية كفافية مبنية على النخيل والزيتون والقمح والشعير والذرة و"البرسيم" (أو الفصفيصة الكلمة العربية الفصحى الأصح) وبعض أشجار الفاكهة وخضر البساتين.

والمجال الثاني هو ما عنونه الباحث ب "التنظيم الاجتماعي للمجال"، وفيه تنجلي عبقرية الواحي في المعمار وتشييد إمكانيات وشروط الاستقرار داخل القصور خاصة حيث تتبدى التصورات والمخيلة المتحكمة في حياة الاستقرار، فبعد جرد المؤلف لمختلف التعريفات التي أقيمت حول مفهوم القصر أقام تعريفا إجرائيا له محددا إياه بكونه: "وحدة سكنية أساسية وغاية لاشعورية للبدوي وبأنه معمار تقليدي محلي فرضته ضرورات المناخ والمجال والتاريخ أولا والإنتاج الزراعي والاستقرار ثانيا، والدفاع والمواجهة ثالثا". لينتهي إلى خلاصة حول المعمار في الواحات الجنوب الشرقي وتحديدا واحة فركلة وغريس مفادها أن هاتين الواحتين تنتميان معماريا (وهنا يثمن في طرحه موقف هنري طراس في كتابه "قصبات البربر في الأطلس والواحات" إلى منطقة حدود بين مجال القصبات "تيغرماتين" الكلاوية الدرعية- الأطلسية الدادسية غربا والقصور المخزنية الفيلالية الزيزية شرقا".

وفي الفصل الثاني المعنون تحت اسم" الزمان" حاول فيه الباحث جاهدا تتبع المسار التاريخي لساكنة غريس منذ ما قبل التاريخ والزمان المطلق حتى حدود الاستعمار، بعد أن وقف على مصطلح "غريس" ودلالاته الممكنة مستغرقا في اللسنية الامازيغية والعربية وبعد وضعه مجازفة للأسماء التي أطلقت على المنطقة مبتدءا بالقول بأن غريس من قبل كانت تسمى "أيت أكركور[1]"

---

(١)- هنا نستغرب كيف أمكن للباحث القول بأن أهل غريس قبلا كانوا يسمون ب"أيت أكركور"أو" تومولوس" في اللاتينية علما أن" الكركور"بحسب الأركيولوجيين تعني اختصارا المباني الجنائزية منتشرة في شمال أفريقيا وبأعداد كبيرة تصل ١٠٠٠ ألف في منعطف درعة كما ما أفادنا به الأركيولوجي "يوسف بوكبوط" كما توجد أيضا =

نسبة إلى قبور بروتوتاريخية التي توجد في عالية غريس، ثم "واد العرعار" مع المرحلة الامازيغية، و"واد الرمان" مترددا هنا في ربطها بالمرحلة الرومانية، ثم مرحلة تسمية غريس مع دخول العرب وتفليحهم للواحة بأشجار النخيل.

وقد استندت معلومات الكتاب على البحث في مختلف المصادر والمراجع العربية خصوصا للرحالة والجغرافيين (البكري، ابن حوقل، البيدق، الوزان) باعتبارهم مؤرخي العصر الوسيط. كما اعتمد على الروايات الشفوية لأهل الواحة متتبعا كذلك كرونولوجيا الأسماء التي لصقت غريس، ولمختلف القبائل والمجموعات البشرية التي يتحدث عنها التاريخ المحلي. كما هو الحال مع قبيلة "مسوفة" القبيلة العطاوية التي تحدث عنها ابن حوقل، وبعدها "إملوان" وكذا "أمرغاد" التي أوردها البكري في موقع حديثه عن حدائق تافيلالت، وصولا إلى "أيت تايرات" التي يتحدث عنها البيدق في العصر الموحدي جاعلا فركلة وغريس تحت لوائها كمكونيها الرئيسين وهي المرة الأولى التي ترد فيها كلمة "غريس" في الكتابات التاريخية حسب الباحث، موضحا فيما بعد كيف انضاف العنصر العربي المعقلي إلى غريس خصوصا في العهد المريني خلال القرن ١٣م حيث عهد سلطة الشريف السعدي على الواحات كما أورد ذلك حسن الوزان.

ليؤكد الباحث بأن الحضور المخزني في الواحات وفي غريس خصوصا لم يبدأ بشكل جلي إلا في عهد العلويين وتحديدا في عهد المولى إسماعيل والمولى الحسن حيث في عهد الأول شهدت غريس أهم واقعة سياسية وهي تأسيس حلف "أيت يافلمان" بإيعاز من السلطة المركزية وبمباركة الزاوية الويعقوبية لصد الحلف العطاوي القوي الذي تأسس بمباركة شريف تامصلوحت في القرن ١٦م لمقاومة الزحف المعقلي العربي.

كما شهدت المنطقة في هذا العهد خلخلة قوية في بنياتها القبلية من خلال أوامر التفرقة والتوزيع القبلي والتهجير من طرف السلطان العلوي المولى إسماعيل. فقد اختار من بين أيت مرغاد: أيت أحي ليسكنوا "تونفيت". كما أرسل فرقة من أيت مرغاد

=

بأعداد مهمة بقصر بويا بتافيلالت فهل نقول حتى لساكني هاته الأماكن أيت أكركور....؟؟ أنظر بهذا الخصوص أكثر عبد الله صالح ترجمة الحسين اسكان كتاب "المصطلحات الامازيغية في تاريخ المغرب وحضارته" تحت إشراف محمد حمام ج ا الرباط ٢٠٠٤ منشورات م م ث أ ص..٣٣

وأيت حديدو إلى بلاد كروان[1] وغيرها من التجهيزات. أما في عهد المولى الحسن فقد عرفت المنطقة امتدادا مخزنيا قويا عبر تولية قواد سماهم الباحث "بالقواد الصغار" مقارنة بالقواد الكبار للأطلس الكبير الغربي. مثبتا إيالتهم للمخزن برسائل من السلطان[2]، وتحدث هنا الباحث عن نوعين أيضا من القواد من داخل فرع الصغار، فهناك قواد البدو كالقايد أوعرجي.. وقواد المستقرين كالقايد محمد (وبعده ابنه العربي) بأسرير بفركلة[3]. ولاحظ الباحث هنا ملاحظة تتعلق بغياب قواد بكلميمة في تلك الفترة لأنها مازالت تحت سلطة أيت عطا إلى ذلك الوقت أي قبل سنة ١٨٨٤م. لينتهي الباحث هنا إلى خلاصة مفادها إثبات مركزية الدولة المغربية نافيا بذلك الأطروحات الغربية "الكولونيالية" التي تقول بالعكس معترفا في الوقت ذاته بكون فترات الفتن ترجع إلى عوامل جغرافية تتجلى أساسا في عامل البعد عن العواصم، وإلى عوامل أخرى أجنبية مثل المزاحمة الاقتصادية دون أن يتعب نفسه بإفهام المقصود بالعوامل الأجنبية التي حددها خصوصا في العامل الاقتصادي.

وفي نفس الفصل وتحديدا في محوره سماه "زمان الزاوية" حاول فيه الباحث الإحاطة بمختلف الزوايا التي لعبت دورا مهما في تاريخ غريس منتهيا إلى القول أولا: بوجود نموذجين من الزوايا مسميا الأولى بالزوايا الكبرى مثل زاوية الدلائية والحنصالية والحمزاوية والبيعقوبية شمالا حيث أيت يافلمان، والدرقاوية شرقا وغربا والناصرية وتامصلوحت جنوبا من ناحية أيت عطا. والنموذج الثاني للزوايا اصطلح عليها بالزوايا الصغرى الوظيفية المرتبطة أساسا بترشيد اليومي على عكس الكبرى المرتبطة بالتدبير والفعل السياسي، وفي الموقع هذا انتهى إلى القول بأن الزوايا خصوصا الزوايا الكبرى لم تكن تؤدي وظائف الصلاح فحسب، بل كانت تمارس دورا سياسيا منظما وواعيا في غالب الأحيان. ولها علاقات بالسلطة المركزية خصوصا فيما يتعلق بالزاوية "البويعقوبية" التي لعبت أدوارا سياسية مهمة حيث باركت

---

(١)- يقول هنا الكاتب بأن" كروان" هو الاسم القديم لغريس وفي محطة أخرى يقول أيضا بأن "قصر حليمة" اسم قديم لغريس ولا ندري بالنسبة لهاته الأسماء عن أي مرحلة يتحدث.

(٢) - فقد استطاع الباحث يقول الحصول عليها من بعض أحفاد أولئك القواد..

(٣)- هل فركلا ينتمي إلى غريس؟ فالباحث في مجمل لحظات الكتاب يتحدث عن فركلا كما لو كانت "قبيلة" غريسية؟.

السلطة المركزية وقامت بتبييع القبائل للمخزن لنصرته. فالزاوية حسب الباحث ساهمت في تشكيل الخريطة القبيلة للمنطقة خصوصا في عهد المولى إسماعيل كما عملت في الوقت نفسه في فترة ما سماه الباحث بفترة "الجهاد" خاصة القيام بأدوار أساسية تتجلى في تعبئة الساكنة خدمة للجهاد ضد الاحتلال الفرنسي الأجنبي.

لكن قبل فترة الجهاد هذه، يتحدث الباحث عن فترة ذات أهمية بالغة وهي فترة "فتنة ما قبل الاستعمار" أو "عهد السيبة" أو ما سماه أيضا بفترة "ما قبل الجهاد أو الجهاد الأول" نظرا لما وقع في هذه الفترة من اضطرابات عنيفة ك (هزيمة إسلي حرب تطوان ١٨٥٩م، حرب تلوين ١٨٨٤م، وتهديد فرنسا لشرق المغرب، ودخولها بوذنيب سنة ١٩٠٧م) كلها أدخلت المنطقة الفيلالية عموما وغريس خصوصا في حالة من الفوضى الداخلية، حيث هددت ففرنسا الواحة من الشرق، والكلاوي يهددها من الغرب، الشيء الذي عجل بظهور شخصيات كان لها الأثر البالغ في مرحلة مهمة لعل أبرزها مولاي محمد السملالي التوزنيني وقائده بلقاسم النكادي الذين قاموا بمواجهة الزحف الكلاوي والنصاري، فالتوزنيني، قد عمل إلى جانب ماء العينين في الجنوب. أما النكادي فعمل مع بوحمارة في الشمال، واستطاع بلقاسم النكادي بعد انقلابه على التوزنيني حيث قتله بعد شجار بينهما من هزم النصاري في معركة البطحاء[1]. وفي معركة "تيغمرت" سنة ١٩١٧م جعل من خلالها النصاري يمتنعون عن سجلماسة بحوالي ١٥ سنة، ولم يستسلم النكادي إلا سنة ١٩٣٤م في طريقه إلى تندوف. وقد كان له أعوان مثل "القويع" و"باعلي" اللذان كان له دور مهم في دفع الأهالي لنصرة الجهاد ضد العدوان الأجنبي والكلاوي الدرعي. بل إن "باعلي" معروف بسطوه على الممتلكات وأعراض الناس وهو الذي ربط سيدي الهواري شيخ "زاوية سيدي الهواري" بفركلة بفوهة مدفع بمجرد انحيازه إلى الكلاوي وهو نفس المصير الذي لقيه عشرة من أعيان أيت مرغاد ومن أتبع سيدي علي.

وبعد هذه الفترة المضطربة كما سماها الباحث، حاول ضبط أهم المعارك الكبرى التي كانت نهاية جهاد أهل غريس مع الاستعمار ضد النصارى وهي معركة "بوكافر" التي استمرت ٤٢ يوما ولم تقع التهدئة فيها حتى فرض المجاهد عسو بسلام شروطه سنة

(١)- أو معركة" البطح" كما صححها لنا الأستاذ الحسن حافظي علوي.

١٩٣٣م، وهـذه المعركـة همـت خصوصـا أيـت عطـا، تـم معركـة "بـادو" التـي كانـت فيـه الزعامـة "لأيـت مراغـاد" عسـكريا، وللفقيـه "سيدي موح أولحاج التلتفراوتي" روحيا.

وبعد فصل الزمان هذا الذي يعتبر أكبر فصل من حيث عدد الصفحات والاستغراق الزماني فهـو يتموقـع فـي ٦١ صـفحة، انتقـل الباحـث إلـى الفصـل الثالـث نحـو الحـديث عـن الإنتـاج والتنظـيم الاجتمـاعي للعمـل بالواحـة، وبعـد عـرض المفـاهيم المتداولـة محليـا فـي حقـل الإنتـاج (أمشـغال، لخـدمت، تـاووري، لهـم، إسـكر...). أكـد بأنـه فـي الواحـة لـيس هنـاك تـداول للمفـاهيم الرأسـمالية للعمـل مثـل السـلطة والفائـدة والـربح والسـوق والاسـتهلاك...فالعمل فـي الواحـات لـيس سوى الحياة نفسها (هناك حياة هي العمل وهناك عمل هـو الحياة). ومن هنا اتخذه من الدلالة الرمزية الثقافية الأكثر منه وسيلة للربح والملـك والاسـتثمار. ورغـم ذلـك فهـو لـيس عملا بدائيا عشوائيا، بل هو فعل إنساني واع ومـنظم ومؤسـس علـى التعاقـدات عقـود الشغل التي تشمل عقد الفول والتمر والذرة والأثـل، الزيتـون والفصفيصـة[1]... وعقـود الحيوان والأشجار وعقـود الشـركة مـن جهـة، والأعراف من جهة ثانية والفقه المالكي من جهة ثالثة.

إن العناصر المؤسسة للفعل الاقتصادي فـي الواحـات وفـي واحـة غـريس بشـكل أخـص تتمثـل فـي الزراعـة أولا والرعـي ثانيـا، والغـزو والتجارة ثالثا. بالرغم من عدم تفصيل الباحث في عنصر التجارة فيما يخص بالتحديد التبادلات والسـلع. وقـد انتهـى الباحـث إلـى تسـمية اقتصاد الواحة بنمط إنتاج الفقر القائم علـى الكفاف وإمكانية العطب فـي أي لحظـة. كما انتهى إلى خلاصة مفادها أن البدو معروفين بطابعهم التجاري على عكس المستقرين لان حتى السوق في الواحة بالنسبة للمستقرين هو مجال لقاء رمزي ثقافي إخباري أكثر منه لقاء اقتصاد، وبذلك يغيب مفهوم الربح اللهم ما كان عند خلف "اليهود" ويقصد بهم "أيت باعلي أوحماد" و "أيت لحسن أعلي" وبعض "أيت كطوا "استرسالا. ويعتبر نظام الخماسة التنظـيم الاجتمـاعي النمـوذجي للعمـل الجمعوي الأسري إلـى العمل المأجور، وهـو

(١)- المقصـود بهـا هـو مـا أعتـاد النـاس علـى تسـميته بالبرسـيم أو الفصـة فالأصـح هـو الفصفيصـة علـى =

= اعتبار أنها الأصل وهـو مـا أفادنا بـه الأستاذ حسن حافظي علوي...فالبرسيم كلمة مصرية أما الفصة فهي اختصار للفصفيصة.

ما زكى بحسبه كون الواحة منطقة وسطى بين الاستقرار الزراعي في الجبال والسهول، والترحال والرعي عبر المفاوز والصحاري.

يتحدث الباحث في الفصل الرابع عن مسألة تحديد الأشكال المورفولوجية السائدة في البنية الاجتماعية للمجتمع الواحي، واعتبرها من أعقد العمليات السوسيولوجية نظرا لعوائق إبستمولوجية وميدانية بإضافة إلى الصعوبة الكبيرة في تصنيف وترتيب الأشكال المورفولوجية وذلك لعوامل ذاتية وموضوعية وأخرى تاريخية وجغرافية إيكولوجية. هذا ما يجعل الأشكال التنظيمية الطبيعية رمزية.

فبعد فحص الباحث المراجع التي حاولت إعطاء صورة حول المورفولوجية الاجتماعية للمجتمع المغربي، استخرج ثمانية أشكال مورفولوجية، إلا أنها صورية تختلف أهميتها وقيمتها بالنسبة لكل مجتمع وهي: ألمسي (الأسرة)، أخام (العائلة)، إخس (العظم)، أشرغوف (الفخد)، تاقبيلت (القبيلة)، أقبيل، اللف (الحلف)، تافركيت (الإتنية).

كما تطرق في الفصل الزمان بأن النفوذ حول غريس انتزعه لفان: أيت عطى، وأيت يافلمان. إن أيت عطا هو لف تكون في القرن ١٦م بقيادة دادا عطا ومباركة الشريف الإدريسي شريف تمصلوحت والذي يتكون من خمس أخماس أساسية. أما بالنسبة لأيت مرغاد فإن الأسطورة تربطهم بدادا عطا الأخ، لكن في نفس الوقت نجد أن طرف أخر يرجع هذه التسمية إلى أيت اغرم ن وودي أي ساكنة القصر السمن، ويتكون من بنياتي أساسيتين: الأولى بنية مستقرة والثانية بنية مورفولوجية أيت غريس المقيمين.

لقد خلص الباحث في الأخير، إلى مورفولوجيتين أساسيتين: الأولى: بدوية تتكون من ألمسي ثم أخام، و إخس، تاقبيلت، أقبيل ثم اللف. الثانية: وهي مستقرة: تتكون من المسي، العائلة، اللف. ويبقى لف أيت يافلمان من اللفوف المصطنعة، نظرا لتقسيمات التي عرفها أيت مرغاد وأيت عطى هذا ما جعل أيت يافلمان كحلف غير طبيعي. وكل هذه الأشكال المورفولوجية لعبت دورا هاما في بناء النفسية الاجتماعية للأفراد والجماعات وتتمثل أساسا في إثبات المبادرة الدينامية.

يضيف الباحث في هذا الفصل الرابع شكل أخرا، ألا وهو التنظيم السياسي الغريسي الذي يقسمه إلى قسمين أو نوعين: أولا: السلطة المخزنية وتتمثل هذه السلطة في القواد وهي سلطة توردها الرواية الشفوية

إلى السلاطين العلويين من أمثال مولاي الحسن، وعبد العزيز....وقد أثبث ذلك بواسطة تواجد الظهائر والرسائل التي تبرر رغبة الساكنة في السلطة. إلى جانب هذه السلطة المخزنية نجد، سلطة أمغار وهي سلطة وظيفية ذات أركان وصلاحيات تتمثل في التنظيم الأشغال الواحة والصهر على تنفيذها والحفاظ على الأمن واستقرار الواحة.

ويعتبر "أزرف" أي العرف من الأعراف الغريسية التي تنطلق من مفهوم إنسي أو العار، الحامل لدلالة قوية أي الشرف والحق والكرامة. فهذا المفهوم تشخصه لنا مجموعة من الطقوس أهمها القسم الذي يربط بشروط مشروطة بضمانات كالرهون أو مزاريق. إلا أن هذا المفهوم في تصور الباحث يوازي مفهوم المحارم عند ستراوس، حيث تربطها علاقة الحرمة والتي تعد من مرادفات العار، إلا أن هذا الأخير له أهمية كبرى، وذلك راجع لاتساع مدلول العار ليشمل الذمة والشرف بل حتى إنسية. ولقد لعب العار دورا مهما في عقد مواثيق الحماية ك"حماية تايسا". واعتبر الباحث أن الحماية والعار طقوس وشروط وضوابط لابد لها من محمي وحامي وطلب الحماية. وإذا أصبح العرف مدونا "أزرف" يصبح تاعقيط أي الشروط، والتي تعني تجميع الأعراف والتقاليد والأخلاق المتعارف عليها عبر القرون حتى يتم إملائها على فقيه القبيلة لعدة أيام، حيث تضاف البنود واحدة بعد الأخرى حسب الوقائع أو من طرف أمغار إنحكامن والحملاء والمحافظين عليها. فهي تنقسم إلى: تاعقيط حلف، تاعقيط القبيلة، تاعقيط القصر، تاعقيط الزاوية.... وبهذا الشكل يصبح أزرف عرف أمازيغيا بحيث يشكل من أهم الأشكال التنظيمية القانونية للعلاقات الاجتماعية للأعراف الامازيغية بالمغرب.

أما بالنسبة للفصل الخامس والذي خصصه الباحث للوضع الثقافي والديني في منطقة غريس، فقد وجد أن الثقافة مرتبطة أساسا بالمورفولوجية. فهي ليست مستقلة على البنية الاجتماعية. ويرى الباحث أن الألفاظ الامازيغية لم يقع لها أي تعريب كما أكدته الدراسات السوسيولوجية الكولونيالية حول مسألة اللغة على مستويين أساسين التركيب والصرف. ويؤكد ذلك بأمثلة حية من الألفاظ الغريسية التي لم تتغير وقسمها إلى قسمين: دلالات مرتبطة بالطبيعة ودلالات مرتبطة بالثقافة الوجدانية.

وتعتبر المرأة الغريسية ذاكرة الواحة وحاملة اللغة تحفظ التاريخ وتنقله إلى الأجيال عبر

الأطفال المندمجين مع العالم، انطلاقا من لُعَب طبيعية ورياضية وذهنية والتي تساعد على اكتساب شخصية متميزة وحرة دون قيود. إلا أن الطفل أو ابن الواحة بشكل عام يخترق مخياله طقوس ومعتقدات قديمة مثل: تونانت: وهي انتقام خفي لمظلم، وقد يكون أدميا وغير ذلك، وأموتل، البركة، تاقريانت... واعتبرها عقائد وطقوس قديمة تؤرخ لفترة سيادة القوى الغيبية، إلا أن المعتقد السائد في غريس هو الإحائية. وكل هذه المعتقدات والطقوس الغريسي يرجع أصلها إلى مرحلة اليونانية والشرق الأوسط.

لقد ارتبط الباحث الطقس بروح الثقافة الرمزية، وقسمه إلى أنواع من الطقوس الوثنية:

١- طقوس وثنية جامدة: كالحجارة، أكركور...
٢- طقوس وثنية نبات: كإسكار، دنس..
٣- طقوس وثنية حيوانية: أكرو، إسلمان، إكرامن
٤- طقوس وتنية بشرية والتي تملك قوة البركة.

ثم هناك طقس العنصرة وسبع خضاير....الخ. بعد ذلك، تطرق الباحث إلى التشكيل الغريسي الذي يعتمد على الأشكال الهندسية الحادة التامة، انطلاقا من خطوط متكسرة على شكل مربعات ومثلثات ومستطيلات في المعمار والزرابي والخزف وتاحرويت كلها فن أمازيغي مزيج عبقريته الخاصة القديمة والعبقريات الزنجية والإسلامية. فالحديث عن الفن الغريسي يتطلب الحديث عن الآداب الامازيغية والإبداع الامازيغي بصفة عامة انطلاقا من أمارك: أي الشعر أو الغناء عند أمازيغ سوس، فهذا الأخير يتأسس على أربعة أبعاد، البعد الأسطوري، البعد البروتاريخي، والبعد الجمالي القيمي، والبعد التاريخي.

وبالتالي، لا يمكننا التطرق إلى الثقافة الشعبية لغريس دون الحديث عن الثقافة العالمة الإجرائية التي يغلب عليها الطابع الفقهي بمعناه القانوني الضيق، إنها الثقافة التي لا تنتج غير النوازل والفتاوى إلى جانب النتف الأدبية مثل حفظ المقامات الألفية والحريري والسحر ودجل الطلبة. وفي أخير الفصل يتحدث لنا الباحث عن "أكرام" أي المرابط كبؤرة فاصلة بين الثقافة الرمزية والعالمة، دون الفصل بين أكرام والزاوية فهما وجهان لعملة واحدة. وبهذا تكون الزاوية ضرورة حتمية تقبلها الساكنة في بعض الأحيان والأوقات. وهذا ما تؤكده لنا الفتاوى والنوازل المحلية الغريسية.

يأتي الفصل الأخير والسادس، المعنون تحت

اسم "النقد المركب" الذي حدد فيه الباحث المفاهيم الأساسية لدراسة. كما يعتبر نقطة تلخيص نتائج جميع الفصول السابقة، ونقد النظريات التي تطرق إليها في المدخل العام ومقارنة النتائج مع النتائج التي توصل إليها الباحثون الآخرون في مناطق أخرى. و من أهم المفاهيم الأساسية التي استخلصها الباحث في هذا الفصل نجد:

١- **إيكولوجية المجال:** إن المجال الغريسي والواحات الجنوب الأطلس هي مجالات صنعتها الطبيعة قبل أن يصنعها الإنسان. ومن هذا المنطلق تصبح الواحة حسب تعبيره مجال ميكروسكوبي يمكنه اعتباره عتبة ممتازة لحضارة تجاوزت البدائية عبر الاستقرار وبناء القصور وإقامة نشاط تجاري مزدهر في بعض الأحيان.

٢- **دينامية القبيلة: هجرة أم تهجير؟ ملك أم غزو أو إضظرار؟** يعرف الباحث على أن القبيلة هي تجمع سكني جغرافي، تاريخي، ثقافي، طابع القرابة بمعناها اللاتيني الثقافي وليس بمعناه العرقي، تتكون من أفخاذ وقسمات وأسر تحددها ظروف الزمان من حرب وسلم ورخاء وظروف المجال من ترحال أو انتجاع أو استقرار في السهل أو في الجبل أو في الصحراء أو في الواحات. كما ربط الباحث العوامل المتحكمة في صنع القبيلة أو ما يحطمها وتهجيرها إلى أربعة عوامل حقيقية: الايكولوجية، المخزن، اللف، الفعل الخارجي.

٣- **الزاوية ضرورة سوسيولوجية:** استنتج الباحث أن الزاوية هي مؤسسة تواصل بين الأفراد والجماعات بل وبين المخزن والقبائل. كما هي في نفس الوقت المتنفس الثقافي والأمني والديني للأفراد والجماعات فهي تعتمد على ثقافة عالمة فقهية سنية مرنة وعلى ثقافة شعبية رمزية طقسية صوفية. أما وظائفها فتتجلى أساسا في خدمة الأمة عبر المخزن والسلطان وفي نفس الوقت هي رابطة خفية للوحدات المكونة للمجتمع الإسلامي والمحافظة على استمرار. هكذا تكون الزاوية في نظر الدكتور محمد بن قسطاني ضرورة إسلامية وليست إسلاما أمازيغيا أو دولة بالقوة.

٤- **نمط الإنتاج الفقر:** إن نمط الإنتاج السائد في الواحات بصفة عامة وواحة غريس خاصة، يتحكم فيه عاملين أساسين: الايكولوجية والتاريخ. وهذا ما يفرض على

الإنتاج أن يتخذ ثلاثة أبعاد أساسية و رئيسية: أولا: بعد زراعي، ثانيا: بعد رعوي، ثالثا: بعد عسكري. ومن خلال هذه الأبعاد يمكن القول بأن الاقتصاد الواحي هنا يصبح إنتاجا اجتماعيا وأنثربولوجيا نظرا لذلك التنظيم الذي يمكن اعتباره حلقة وسطى بين العمل الأسري الجمعوي والعمل المأجور بمعنى المقتصر على الخماسة.

٥- **إخس ووحدة مورفولوجية محورية:** إن كل الأشكال المورفولوجية لها مدلولات سوسيولوجية محددة. ففي واحة غريس مثلا كل أسماء الأشكال مصطلحات محلية وظرفية تخدم أغراض بعينها وعندما تنتهي الأغراض تنتهي المدلولات وتبقى الدلالات. وبذلك تصبح المصطلحات التي تظهر بقوة عند اللحظة الأولى هشة مثل القبيلة واللف. لقد استخلص الباحث أثناء معاينته للميدان مستويين أساسيين في المورفولوجية الغريسية: المستوى الأول: سماه أدنى، ويتجلى في المسي و أخام. والمستوى الثاني: سماه أعلى، ويتكون من الفخذ، القبيلة، أقبيل، اللف. وبين هاذين المستوين يبرز إخس كأهم شكل مورفولوجي، إذ هو الوحدة الاجتماعية العرفية الأساسية الذي يحمي الأسرة والعائلة والفرد. إذن، يعد إخس شكلا محوريا بالنسبة للبنية الاجتماعية البدوية والمستقرة على حد سواء.

٦- **سلطة مخزنية وأخرى محلية:** لقد تجلت السلطة المخزنية في واحة غريس من خلال مجموعة من قواد متواضعين أشباه من إمغارن، وذلك راجع إلى ضعف تمفصل الإداري للقائد. فالمخزن عمل على ترك سلطته إلى السلطة العرفية التي تتجلى عند أمغار والجماعة. أما السيبة فقد ارتبطت بأوصاف إيجابية كالحرية ورد الحق، فهي ليست كخطاب موجه إلى المخزن لكنها حالة اجتماعية تعبر عن غياب سلطة مركزية إدارية محلية معقلنة ومرشدة.

٧- **أوفاق تحطم الانقسامية:** إن لابن الواحة خاضع باستمرار لأوفاق الجماعة في وقت الحرب والسلم. فقد كانت هذه الاوفاق حلولا ناجعة في غياب السلطة التشريعية والتنفذية والقضائية الواضحة المعالم. وتبقى أهم الاوفاق التي تملك تحطيما للانقسامية أوفاق الحماية والأخوة والذبيحة وطاطا، هاته الاوفاق تنسج المجتمع وتجعله لحمة واحدة عن الفهم

العميق للضروريات الاجتماعية.

٨- **العار كخليفة إنسية:** يرى الباحث أن مفهوم العار يدله مفهوم المحرم أو زنى المحارم لدى ستراوس، لكنه ضيق من العار لأن هذا الأخير يطال الجنس والذمة والمال والنفس. أما المحرم فهو مرتبط بالجنس فقط. ومن هنا تبرز العلاقة أو القنطرة السيميولوجية بين مفهوم العار والمحرم وهي الحرمة. وبذلك فالإنسية تنطلق من مفهوم العار.

٩- **هل العرف يلغي الشرع:** تبقى مقارنة العرف بالشرع غير ذات جدوى، حيث أن الفقه الإسلامي نفسه مختلف، أما العرف أي أزرف فهو لا يهتم إلا بما هو متحول ويومي. إذن، يصبح العرف مرادف لليومي حيث يستمد جذوره من أي تصور قبلي.

١٠- **ثقافتان في السطح وثقافة واحدة في العمق والفعل:** تلتقي الثقافة العالمة بالثقافة الرمزية بشكل جدلي تصالحي، إذ تعبر الشعبية الرمزية عن اليومي ويستغاث بالعالمة عندما يحتاج إليها وكل ذلك في وود وئام متجانسين.

١١- **الواحة:** لقد تسال الباحث في البداية عن ماهية الصحراء اعتبار للضرورة الآنية. إن الاهتمام بالصحراء بدأ من طرف الإنسان كنقطة البدء وانتهاء بالمحال كنقطة النهاية. واستنجد بمقولة Celerier حيث يقول: "كم هو فريد عالم الصحراء، وكم هو أصيل، إلى أنه لا يمكن فهمه دون الانتماء إليه".

فمفهوم الصحراء في نظره الخاص ليس امتداد اللانهائي للأرض الخالية، وليست هي تلك الحرارة اللافحة في الصيف وتلك البرودة الشديدة في الصيف بل هي تنوع واختلاف، حسب التضاريس والعلو وحسب الاقتراب أو الابتعاد من الأنهار أو الوديان وحسب طبيعة الأرض وكذا حسب الإرادة الإنسانية".

المحور الثالث: خاتمة وتركيب عام

في نهاية المقال، تعتبر الخاتمة وظيفة بيداغوجية تبرر التكرار الواردة في الفصل الأخير "النقد المركب". وقد حاول البحث في هذه المحطة إبراز ما أسهم به البحث من مناقشة البنيات الاجتماعية التقليدية المغربية عبر نموذج غريس واقتراح مفاهيم جديدة والتي تطرقنا إليها في المحور الثاني. وبهذا السبب اقترحنا عدم تكرار هذه الاستنتاجات تفاديا لتكرار نفس المعلومات. لكن وجب التأكيد على أن الواحة هي مجتمع ميكروسكوبي، حيث حقق بعض الجوانب من

جل فروض النظريات السابقة الذكر فالخلدونية تبقى إجرائية في تفسير كثير من مظاهر عمران الواحة. وخلص الباحث في الأخير إلى طرح أسئلة مفتوحة حول الواحة وهي كالتالي: - كيف عمرت الواحة؟ ومن يعمرها؟ ومتى؟ وما هو الشكل التنظيمي؟ وما هي المؤسسات الأساسية فيها؟. إلا أن التساؤل المركزي الذي يطالب به الباحث عن جوابه هو كالآتي: كيف عمرت الواحة؟ بمعنى أخر، كيف يمكن إعادة بناء تاريخ الواحة؟.

البيبلوغرافيا:

- بن محمد قسطاني، **الواحات المغربية قبل الاستعمار غريس نموذجا**، منشورات المعهد الملكي للثقافة الامازيغية الرباط، المملكة المغربية، ٢٠٠٥م.

- عبد الله صالح ترجمة الحسين أسكان، **المصطلحات الامازيغية في تاريخ المغرب وحضارته**، تحت إشراف محمد حمام، ج ١ منشورات المعهد الملكي للثقافة الامازيغية الرباط ٢٠٠٤م.

معهد أمير الصعيد بمدينة سوهاج (معهد سوهاج الديني)
(١٣٦٣-١٣٦٤هـ)/ (١٩٤٥-١٩٤٦م)
(دراسة أثرية معمارية)

The Prince of Upper Egypt institute In Sohag (Sohag religious institute)
(1363-1364 AH)/ (1945-1946 AD)
(Archaeological and architectural study)

حسن حسين قلاد إمام

طالب ماجستير، كلية الآداب، جامعة طنطا

Hassan Hussein Qallad Imam, Faculty of Literature,

Master Student, Tanta University

ملخص:

اعتنى الإسلام بالتعليم ومنح العلم منزلة رفيعة ونال فيه العلماء مكانة قديرة لم تبلغه أي أمة من قبل، وهي دلالة واضحة على مدى وأهمية قيمة العلم والعلماء منذ ظهور الإسلام وانتشاره في سائر البقاع، ولم تكن النظم التعليمية الحديثة معروفة في مصر حتى الربع الأول من القرن التاسع عشر الميلادي، حيث كان النظام التعليمي يقوم على النظام التعليمي التقليدي في الكتاتيب المنتشرة في قرى مصر، وفي المدارس الدينية الملحقة بالمساجد الكبرى بالمدن، ثم الالتحاق بالأزهر الشريف.

وكان لإنشاء المدارس والمعاهد التعليمية دورا مهما وكبيرا في تطور الحياة الثقافية، وأثرا كبيرا في ازدهارها وارساء دعائم النهضة العلمية والثقافية في مصر خلال تلك الفترة.

يهدف هذا البحث إلى دراسة معهد أمير الصعيد بسوهاج (معهد بنين سوهاج حالياً)، وهذا المعهد لم يسبق نشره من قبل،

وتتضمن هذه الدراسة وصفا تفصيليا للمعهد من الخارج ومكوناته من الداخل، ومادة البناء التي شيد منها المعهد والتصميم المعماري، كما تتضمن الدراسة تاريخ هذا المعهد، ودور شيخ الأزهر فضيلة الشيخ مصطفى عبد الرازق في إنشاءه.

الكلمات المفتاحية: معهد، أمير الصعيد، سوهاج، قصر القبة.

Abstract:

Islam has taken care of education and given science a high status, and scientists have attained in it a powerful position that no nation has attained before. The tenth century AD, where the educational system was based on the traditional educational system in the katatib scattered in the villages of Egypt, and in the religious schools attached to the major mosques in the cities, then joining Al-Azhar Al-Sharif. The establishment of schools and educational institutes had an important and significant role in the development of cultural life and a great impact on its prosperity and laying the foundations of the scientific and cultural renaissance in Egypt during that period. This research aims to study the Prince of Upper Egypt Institute in Sohag (presently the Sohag Boys Institute), and this institute has not been published before. The Institute, and the role of the Sheikh of Al-Azhar, His Eminence Sheikh Mustafa Abdel Razek, in the establishment of the Institute.

Keywords: Institute, Prince of Upper Egypt, Sohag, Dome Palace.

الموقع:

يقع معهد[1] أمير الصعيد[2] بمدينة سوهاج[3] وإلى القرب منه جهة الشرق توجد مدرسة سوهاج الثانوية العسكرية، حيث يشرف من الجهة الجنوبية وهي الواجهة الرئيسية على ميدان الشبان المسلمين، ومن الجهة الشمالية على مبنى حديثا للمعهد، ومن الجهة الشرقية على شارع أسفلتي، ومن الجهة الغربية على شارع أسفلتي (لوحة1).

تاريخ الإنشاء:

صدر بقصر القبة[4] مرسوم من الملك فاروق بإنشاء معهد ديني في سوهاج في ٨ ربيع الثاني سنة ١٣٦٥هجرية الموافق ١٢ مارس ١٩٤٦ ميلادية.

---

(١) جمع معاهد، اسم مكان من عهد/ عهد إلى: مؤسسة للبحث أو التعليم، معهد تحفيظ القرآن الكريم/ الدراسات التربوية، أنظر معجم اللغة العربية المعاصر.

(٢) ولي العهد كان يكتسب لقباً آخر هو (أمير الصعيد)، وكان الأمير فاروق بن الملك فؤاد هو ولي العهد وأمير الصعيد طبقاً للأمر الملكي الصادر في يناير ١٩٣٤م، ويبدو أن الملك فؤاد كان يتشبه ببريطانيا التي تطلق على ولي العهد (أمير ويلز)، أنظر ناصر الأنصاري: المجمل في تاريخ مصر، النظم السياسية والإدارية، دار الشروق الطبعة الثانية، ١٩٩٧م، ص٢٥٣.

(٣) كانت قديما تلفظ سوهاي، وكانت من قرى أخميم، ولكن المشهور والمستعمل الآن بين الناس اسمها بالجيم في آخرها، والصحيح الذي في كتب التاريخ أنها بالمثناه التحتية بدل الجيم والنسبة إليها (سوهائي)، وقد وردت في قوانين أبن مماتي (سوهاي) واستمرت باسم سوهاي ثم حرفت إلى سوهاج فوردت به لأول مرة في قائمة مساحة ١٢٧٢هـ/١٨٥٦م ولا يزال هذا اسمها الى اليوم، للمزيد أنظر يحي شاهي: موسوعة المدن العربية والإسلامية، دار الفكر العربي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٣م، ص٢٠٢؛ علي باشا مبارك: الخطط التوفيقية الجديدة لمصر القاهرة ومدنها وبلادها الشهيرة، المطبعة الأميرية، الطبعة الأولى في عشرين جزء، القاهرة، ١٣٠٥هـ، الجزء ٩، ص٩٥؛
محمد رمزي: القاموس الجغرافي للبلاد المصرية مدن عهد قدماء المصريين إلى سنة ١٩٤٥م، الجزء الرابع، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٤م، ص١٢٨.

(٤) قصر القبة: كان أول من أمر بتشييد هذا القصر إبراهيم باشا بن محمد علي باشا، ثم آلت ملكيته إلى أبنه مصطفى باشا فاضل، ولقد أشترى الخديوي إسماعيل هذا القصر ضمن أملاك مصطفى باشا عام ١٨٦٦م، وشرع في تجديده عام ١٨٦٨م وتبلغ مساحة هذا القصر ٧٠ فدان، وعدد غرفه ٤٠٠ غرفة، وتشمل مباني القصر السلاملك والحرملك، ويشتمل السلاملك على جناح نوم الملك وحجرة الطعام والمكتب الخاص، بينما الحرملك فيشتمل على جناح نوم الملكة، للمزيد أنظر، محمود عباس، آثار العصر الحديث (علم وتراث)، المجلس الأعلى للآثار، الطبعة الأولى، الدار العالمية للنشر، ٢٠٠٨م، ص١٤٣،ص١٤٤.

المنشئ:

أمر بإنشاء هذا المعهد الملك[١] فاروق الأول[٢] ملك مصر والسودان وابن الملك فؤاد بن إسماعيل باشا بن محمد علي باشا والي مصر والذي تولى حكم مصر من عام ١٩٣٦إلى عام ١٩٥٢م.

شيخ الأزهر ودوره في إنشاء المعهد:

قام شيخ الجامع الأزهر[٣] فضيلة الشيخ مصطفى عبد الرازق[٤] بطلب استعجال لرئيس مجلس الوزراء في تلك الفترة وهو الوزير[٥]

---

(١) الملك: من أسماء الله الحسنى ويجمع على ملوك، ويطلق على الرئيس الأعلى للسلطة الزمنية وهو لقب معروف في اللغات السامية ولم يعرف هذا اللقب بصفة رسمية في صدر الإسلام ولا في العصر الأموي وإنما بدأ ظهوره في العصر العباسي وعرفه الفاطميون في مصر لقباً للأمراء والوزراء، أنظر عزة علي عبد الحميد شحاتة: النقوش الكتابية بالعمائر الدينية والمدنية في العصرين المملوكي والعثماني،العلم والايمان للنشر والتوزيع، دسوق، ٢٠٠٨، ص ٣٨٥؛ مصطفى بركات: الألقاب والوظائف العثمانية، دراسة في تطور الألقاب والوظائف منذ الفتح العثماني لمصر حتى الغاء الخلافة العثمانية من خلال الوثائق، (١٥١٧-١٩٢٤م)، دار غريب للنشر، ٢٠٠٠م، ص٣٩، ص٤٠.

(٢) الملك فاروق ابن الملك فؤاد الأول بن الخديوي إسماعيل بن محمد علي باشا، أرتقى أريكة الحكم بعد وفاة والده الملك فؤاد وهو شاب صغير وكان يبلغ ١٨ سنة هلالية، ١٧ عاما ميلادية، وعين علي ماهر رئيسا للديوان بأمر ملك يفي أكتوبر ١٩٣٧م، تم إسقاط حكمه على يد الضباط الأحرار في ٢٣ يوليو ١٩٥٢م، وتولى من بعده أبنه الملك فؤاد الثاني وهو لا يزال رضيعا، أنظر، وجيه عتيق: الملك فاروق وألمانيا النازية، خمس سنوات من العلاقة السرية، الطبعة الأولى، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٩٢م.

(٣) كانت نشأة شيخ الأزهر في نهاية القرن السابع شر الميلادي، وتأكد هذا المنصب في القرن ١٨م، وهو منصب كان يخصص لرئيس العلماء الأزهريين منذ القرن الثامن عشر، وكان أول شيخ للأزهر محمد الخراشي الذي توفي (١١٠١هـ/١٦٩٠م)، وخلفه محمد النشرتي، وكان الشيخ الشبراوي أول شيخ شافعي يتولى منصب شيخ الأزهر، للمزيد أنظر، ميكل ونتر: المجتمع المصري تحت الحكم العثماني، ترجمة إبراهيم محمد إبراهيم، مراجعة عبد الرحمن عبد الله الشيخ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠١م، ص ١٩٤: ١٩٦.

(٤) ولد الشيخ مصطفى عبد الرازق في أبي جرج مركز بني مزار (مديرية المنيا) عام١٣٠٣هـ/ ١٨٨٥م، لأسرة كريمة عريقة، ولما بلغ أشده ودخل مكتب بلده وحفظ القرآن الكريم، أنخرط في سلك الأزهر عام ١٣١٣هـ/١٨٩٥ إلى سنة ١٣٢٦هـ/١٩٠٧م، ثم عين مدرساً بمدرسة القضاة الشرعي، سافر إلى أوروبا عام ١٣٢٨هـ/١٩٠٩م إلى باريس، وألتحق بكلية ليون، وأستمر فيها حتى نشبت الحرب العالمية الأولى وأضطر إلى العودة إلى مصر، وقد شغل منصب سكرتير الأزهر أنظر فرج سليمان فؤاد: الكنز الثمين لعظماء المصريين الجزء الأول، مكتبة الاعتماد، ١٩١٧م،ص١٧٠، ص١٧١.

(٥) لقب الوزير من الألقاب الشهيرة في الآثار =

إسـماعيل باشـا[1] صـدقي لاستصـدار مرسـوم لإنشاء معهد ديني في سوهاج هذا نصه:

حضرة[2] صاحب الدولة رئيس مجلس الوزراء:

سبق أن قـرر مجلس الأزهـر الأعلـى بجلسـتي ٢٦ يونيـه وأول يوليـو سـنة ١٩٤٥ م مشـروع

=

والفنـون الإسـلامية، ومـن الألقـاب المعروفـة أيضـاً عند العرب حتى قبل الإسلام بصفة رسمية، وهو اسم وظيفـة أختلف فـي أصلها فقيل أنها كلمـة فارسـية الأصـل، وقيـل عربيـة أختلف فـي اشـتقاها، فقيـل أنهـا مشـتقة مـن الـوزر بفـتح الـواو والـزاي، وهو الملجأ، سـمي الـوزير بـذلك لأن الرعيـة يلجأون إليـه فــي حــوائجهم، وقيــل مشــتقة مــن الأوزار بمعنى الأمتعة، لأنه متقلد بخزائن الملك وأمتعته، وقيـل مـن الـوزر بكسـر الـواو وسـكون الـزاي، وهـو الثقـل، لأنـه يتحمـل أثقـال الملـك وقيـل مـن الأزر وهـو الظهـر، سـمي بـذلك لأنـه يقـوي الحـاكم كمـا يقـوي الظهـر البـدن، وقـد عرفـت وظيفـة الـوزير بصـفة رسـمية عنـد العـرب قبـل الإسـلام وحتـى صـدور الإسـلام، وقـد عرفـت هـذه الوظيفـة فـي مصـر فـي عهـد الإخشـيدين، وقـد ورد هـذا اللقـب فـي القـرآن الكـريم فـي قولـه تعـالى [وأجعـل لـي وزيـراً مـن أهلـي* هـارون أخـي* أشـدد بـه أزري* وأشـركه فـي أمـري]، كمـا ورد ضمن ألقـاب محمـد علـي باشـا بشـاهد قبـر طوسـون باشـا بحـوش الباشـا ١٢٣١هـ، ولـم يـرد ضـمن ألقـاب غيـره مـن ولاة مصـر فـي هـذه الفتـرة أنظـر مصـطفى بركـات، الألقـاب والوظائف العثمانية، ص٧٢، ص٧٣؛ جمال خير الله: النقـوش الكتابيـة علـى شـواهد القبـور الإسـلامية، (القـاهرة- رشـيد- دهلـك- اسـتانبول)، مـع معجـم الألفاظ والوظائف الإسلامية، العلم والإيمان للنشر والتوزيـع، ٢٠٠٧م، ص٣٠٠؛ سـعيد مغـاوري محمـد: الألقــاب وأســماء الحــرف والوظــائف فــي ضــوء البرديـات العربيـة، المجلـد الأول، دار الكتـب المصـرية بالقاهرة، ٢٠٠٠م، ص٨٥٧.

(١) ورد فـي اشـتقاق هـذا اللفـظ عـدة أقـوال الأول أن =

=

أصـلها (بـاي شـاه) الفارسـية ومعناهـا قـدم الملـك وقـد بنـي هـذا التأويـل علـى أسـاس أن الفارسـية القديمــة كــان فيهــا موظفــون يســمون (عيــون الملــك) وقيــل أن أصـلها الكلمــة التركيــة (بــاش) ومعناهـا رأس أو طـرف أو قمـة، أو زعـيم، أو قائـد، وتوضع قبل الصفة أو الوظيفة، مثل (باش كاتب) أو فـي آخرهـا مثـل (حكيمباشـي)، بمعنـى رئـيس الحكمــاء، وقــد اســتعملت هــذه الكلمــة كلقــب عسـكري بمعنـى كبيـر الأغـوات، وقيـل أن باشـا مأخوذة من الكلمة التركية (باش أغا) بمعنى الأخ الأكبـر وقيـل أنهـا مـأخوذة مـن الفارسـية (بادشـاه) بمعنـى الملــك، وظهـر هـذا اللقـب فـي القـرن ١٤/٥٨م وكـان عـلاء الـدين أخـو أورخـان بـن عثمـان الأول هـو أول مـن لقـب بلقـب الباشـا ومنـذ ذلـك الحين بدئ بمنح لقب الباشا لرجال السياسة، كما مـنح هـذا اللقـب للنسـاء أيضـاً فـي القـرن ١٤/٥٨م، وقـد أنتشـر هـذا اللقـب فـي عصـر محمـد علـي ليصبح لقبـاً فخريـاً رسـمياً تقتضيه مكانـة الشـخص فـي المجتمـع يـرتبط بالمـدنيين والعسـكريين علـى حــد ســواء، أنظــر، مصــطفى بركــات: الألقــاب والوظائف العثمانية، ص٨٠، ص٨١،ص٣٠٤.

(٢) حضـرة: بمعنـى قـرب وحضـرة الرجـل قربـه وفنـاؤه، وقيل بحضـرة فـلان، والحضـور نقيض الغيـاب وقـد استعمل اللفـظ كلقـب فخـري أنظـر، حسـن الباشـا، الألقاب الإسلامية في التاريخ والوثائق والآثار.

إنشاء معهد بسوهاج، طبقاً للمادة ٢٢ من القانون رقم ٢٦ لسنة ١٩٣٦، وقد وافق مجلس الوزراء والبرلمان[١] على المبلغ المدرج في الميزانية لهذا المعهد، ثم تفضل حضرة صاحب[٢] الجلالة مولانا[٣] الملك بالإذن بتسميته (معهد أمير الصعيد بسوهاج).

وقد كتبنا لرياسة مجلس الوزراء في ٢٠أغسطس سنة ١٩٤٥م لاستصدار المرسوم الملكي لإنشائه، وفقاً لما نصت عليه المادة الثالثة من قانون الجامع الأزهر رقم ٢٦ لسنة

(١) أفتتح الملك فؤاد أول برلمان مصري في ١٥ مارس ١٩٢٤م، وتم الاحتفال بذلك الاحتفال في أجلى مظاهر الأبهة والجلال، وكان البرلمان المصري مؤلف من مجلسين أعلى وهو مجلس الشيوخ وأوطأ وهو مجلس النواب، وأعضاء مجلس الشيوخ عددهم ١١٩ ينتخب منهم ٧١ عضو، ويعين الملك الباقين، ويجب أن يكون سن العضو في مجلس الشيوخ لا يقل عن ٤٠ عاما، أما مجلس النواب فأعضاؤه ٢١٤ وينتخبون جميعهم لخمس سنوات، ويجب أن تكون سن العضو منهم لا تقل عن ٣٠ عاما، أنظر زكي فهمي: صفوة العصر في تاريخ ورسوم مشاهير رجال مصر، ص١١٨.

(٢) الصاحب في اللغة اسم الصديق وهو من ألقاب الوزراء مختص بأرباب الأقلام منهم دون أرباب السيوف، وتشير العديد من المصادر التاريخية العربية إلى أن لقب الصاحب قد بدأ استعماله كنعت خاص حين أطلق على الوزير إسماعيل بن عباد وزير بني بويه بأصفهان، فكان أول من تلقب به من الوزراء، ومن بعده صار لقباً على من ولي الوزارة بعده، مصطفى بركات: الألقاب والوظائف العثمانية، دراسة في تطور الألقاب والوظائف منذ الفتح العثماني لمصر حتى إلغاء الخلافة العثمانية (من خلال الوثائق والآثار)، (١٥١٧- ١٩٢٤م) دار غريب للنشر، ٢٠٠٠، ص ٨٦؛ سعيد مغاوري محمد: الألقاب وأسماء الحرف والوظائف في ضوء البرديات
=

=
العربية، ص٥٠٧.

(٣) مولانا: المولى هو المالك والعبد المعتق والمعتق واستعمل كلقب بمعنى السيادة أحياناً وبمعنى الانتماء أحياناً أخرى، أما مولانا فهو إضافة ضمير جمع المتكلم إلى اللقب وقد بدأ استعمال هذا اللقب منذ عصر صلاح الدين الأيوبي، وتلقب به السلطان قايتباي كما تلقب به السلطان الملك الأشرف قانصوه الغوري .كما تلقب به سلاطين العصر العثماني حيث تقلب به كل من السلطان محمد بنص جامع الملكة صفية ٥1019 والسلطان محمود بنص مدرسته. كذلك تلقب به وزراء ذلك العصر ممن تولوا حكم مصر فقد تقلب به على باشا الذى تولى حكم مصر ١١٠٣هـ .وحينما خاطب إبراهيم باشا والده محمد على باشا استعمل لقب مولاي كما استخدمه رؤساء الجهادية عند مخاطبتهم محمد على باشا أيضًا كما استعمل لقباً لكبار رجال الدولة وفي نهاية القرن التاسع عشر أنتشر استخدام مولانا وقد أطلق على الخديوي إسماعيل وأطلق أيضاً على الخديوي عباس حلمي الثاني، للمزيد أنظر مصطفى بركات، الألقاب والوظائف العثمانية، ص٣١٦،٢٢٢؛ حسن الباشا :الألقاب الإسلامية في التاريخ الوثائق والآثار، ص ٥١٩.

١٩٣٦ وبما أن المرسوم لم يصدر إلى الآن، أرجو التفضل باستصداره.

وتفضلوا بقبول فائق التحية ،،

مرسوم الملك فاروق:

عرض رئيس مجلس الوزراء إسماعيل صدقي باشا خطاب شيخ الأزهر على جلالة الملك فاروق لإنشاء معهد ديني في سوهاج فأصدر الملك فاروق مرسوماً بإنشاء معهد ديني في سوهاج وأمر رئيس مجلس الوزراء إسماعيل صدقي باشا ووزير الأوقاف إبراهيم دسوقي أباظة ووزير المالية إسماعيل صدقي أيضاً بتنفيذ هذا المرسوم وهذا نصه:

نحن فاروق الأول ملك مصر

بعد الاطلاع على المادتين الثالثة والثانية والعشرين من المرسوم بقانون رقم ٢٦ لسنة ١٩٣٦ بإعادة تنظيم الجامع الأزهر.

وبناء على ما عرضه علينا رئيس مجلس الوزراء، وموافقة رأي المجلس المذكور،

رسمنا بما هو آت:

(المادة الأولى)

ينشأ معهد ديني في مدينة سوهاج باسم معهد أمير الصعيد بسوهاج

(المادة الثانية)

على رئيس مجلس الوزراء ووزيري المالية والأوقاف تنفيذ هذا المرسوم

صدر بقصر القبة في ٨ ربيع الثاني ١٣٦٥ (١٢ مارس ١٩٤٦)

مسميات المعهد:

معهد أمير الصعيد وذلك كما هو موضح على المدخل الرئيسي للمعهد في الواجهة الجنوبية وكذلك بناءاً على مرسوم الملك فاروق.

معهد سوهاج الديني وذلك كما هو موضح أيضاً على المدخل الرئيسي للمعهد.

معهد بنين سوهاج وهو الاسم الحالي للمعهد.

التخطيط العام للمعهد:

يشغل معهد أمير الصعيد بسوهاج مساحة غير منتظمة الشكل تأخذ شكل حرف(V) (شكل ٤-١)، وتعذر معرفة اسم المهندس المعماري الذي شيد المعهد الديني إلا أن القائمون على إدارة المعهد ذكروا أن المهندس الذي قام بتشييد المعهد الديني هو مهندس معماري بريطاني، ويتكون المعهد من مبنى ضخم يحيط به حديقة من الناحية الجنوبية، وهي الواجهة الرئيسية للمعهد، ويحيط بالمعهد من الخارج سور حديدي مدعم بدعامات بنائية من جميع الاتجاهات، كما تفتح عليه بواباتان حديديتان، إحداهما جهة الجنوب، والأخرى في الجهة الشرقية، والمعهد مبني بنظام الحوائط

الحاملة، وقد أستخدم في بنائه الطوب الأحمر، والسقف من الخرسانة المسلحة المدعمة بأشرطة (قضبان) حديدية، كما نجد أن المعهد مكون من طابق أرضي وآخران علوي، ويحيط بالطابق العلوي من الخارج رفرف من الخرسانة المسلحة من ثلاث جهات، وللمعهد أربع واجهات حرة والواجهة الرئيسية هي الواجهة الجنوبية، ويلاحظ في تخطيط المعهد التماثل والسيمترية الشديدة، وكل واجهة من واجهات المعهد مقسمة إلى ثلاث مستويات أفقية كل منها يمثل واجهة أحد الأدوار.

الأسوار الخارجية:

يحيط بالمعهد سور حديدي يلتف حول جهاته الأربعة، والسور مكون من جزئيين بارتفاع نحو ٣م، السفلي مبني بالخرسانة بارتفاع نحو ٦٠سم، يعلوه سياج[1] من المعدن بارتفاع نحو ٢,٤٠م، ينتهي بقوائم معدنية تنتهي بقوائم رمحية الشكل مسننة، يكتنفه من أعلى ومن أسفل عارضان من المعدن، ويبلغ طول هذا السور من الجهة الجنوبية ٢٩م ومن الجهة الشرقية ٧٠ متر ومن الجهة الشمالية ٦٠م ومن الجهة الغربية ٧٠ متر ويتخلله بواباتان حديديتان، كل بوابة باتساع ثلاثة أمتار إحداهما تتوسط الجهة الجنوبية، حيث تؤدي إلى الحديقة مباشرة والمدخل الجنوبي للمعهد والأخرى من الجهة الشرقية تؤدي إلى فناء المعهد وملحقاته.

الوصف المعماري من الخارج:

للمعهد أربع واجهات حرة تتفاوت في طولها وتنظيمها المعماري والزخرفي، وتشترك الواجهة الجنوبية والشرقية والغربية للمدرسة في تكوينها من ثلاثة صفوف أفقية من النوافذ، وفيما يلي تفصيل لكل واجهة على حدة.

الواجهة الجنوبية:

وهي الواجهة الرئيسية للمعهد (لوحة ٢)، (شكل ٤) وهي تمتد بطول نحو ٢٤م، وهي تنقسم إلى ثلاثة أقسام رأسية، القسم الأيمن والأيسر منها متشابهان جملة وتفصيلا، القسم الأيمن طوله ٩م، وكذلك القسم الأيسر، يتوسطهما كتلة المدخل، ويبلغ طوله ٦,٢٠ م، وكلاً من القسم الأيمن والقسم الأيسر يتكون من ثلاث مستويات أفقية من

(١) عبارة عن سور ساتر من الشجر يجعل حول البستان أو العنب، ويستخدم اللفظ في الوثائق بهذا المعنى فهو عبارة عن سور ساتر إما ببناء أو بخشب أو غيره، أنظر رباب عبد التواب فهمي حامد: القصور الباقية بمراكز أسيوط، دراسة أثرية فنية معمارية مقارنة، ماجستير، كلية الآداب، أسيوط،٢٠١٧م، ص٤٨٣.

النوافـذ، حيـث المسـتوى الأول يضـم نافـذة اتسـاعها ١,٢٥ م وارتفاعهـا ١,٨٥ م، والنافـذة مغشاة بمشغولات معدنية من الحديـد، وباب اتســاعه ١,٣٠ م وارتفاعــه ٣ م، والمســتوى الثاني يتكـون مـن نافـذتين اتساع كـل نافـذة ١,٢٥ وارتفاع كـل نافـذة ٢,٤٠ م، أما المستوى الثالث فيتكون من نافذتين أيضاً اتساع النافذة ١,٢٥ م وارتفاعهـا ١,٣٠م،وبـذلك يضـم القسـم الأيمـن خمـس نوافـذ وبـاب، وكـذلك القسـم الأيسر، وجميع نوافذ المستويات الثلاث يغلـق عليها شيش خشبي مكون أربع ضلف خشبية، ويفصل الطابق الأول عن الطابق الثاني رفـرف خرساني، وهو عبارة عن شرفة بطول الواجهـة واتساعها نحو متر تقريباً.

كتلة المدخل:

يتم الوصول إلى كتلة المدخل من خلال سبع درجـات سـلم رخاميـة توصـل إلـى بسـطة مستطيلة الشكل يبلغ طولها ٣,٦٠م وعرضها ١,٥متر،منهـا إلـى كتلـة المـدخل والتـي بلـغ اتساعها ٦,٢٠ متر وتبرز عن الجدار بنحو ٩٠ سم، ويتوسـط كتلـة المـدخل بـاب حديـدي مـن ضـلفتين مـن الحديـد يبلـغ اتسـاعه ١,٥ متـر وارتفاعه نحو ٣,٦٠ متر، ويمكـن أن نقرأ أعلـى البـاب كلمـة ((اللـه)) داخـل أشـرطة زخرفيـة (١٣٠)، يعلـو البـاب مـن أعلـى شـراعة حديديـة تبلغ نحو ٦٠×١٢٠ سم منفذ عليها أشكال زخارف هندسـية، والبـاب يقـع داخـل عقـد نصـف مستدير، ويبرز عن جدار كتلة المدخل بنحـو ٢٠ سم أربع أعمدة مستطيلة الشكل ذات قواعد وتيجـان، يفصـل بـين كـل عمـودين مسـاحة مسـتطيلة غـائرة باتسـاع ٢٥ سـم مقسـمة بـدورها إلـى مسـاحات مسـتطيلة الشـكل، وتنتهـي مـن أعلـى بما يشبه شكل السـهم، وإلى الشرق والغرب من كتلة المدخل قسمت أيضاً إلى مساحات مستطيلة الشكل، ويوجد علـى جـانبي المـدخل فانوسـان متوسـطي الحجـم مـن الزجـاج، بـداخل كـل فـانوس لمبـة، وكل فانوس يأخذ الشكل المخروطي ومكـون مـن ثمـاني أضـلاع، ومثبتين بواسـطة قطعـة حديدية مطلية باللون الأسود مثبتة فوق جدران المدخل بواسطة مسامير حديدية، ويوجد إلـى اليمين مـن كتلـة المـدخل لوحتان مـن النحاس مثبتان فـوق جدران المدخل فـوق قطعتان مـن الخشـب، اللوحـة الأولـى وهـي لوحـة مستطيلة الشكل (لوحة٣) تبلغ ٦٠ سم×٥٠ سم ومكتوب عليها في ثلاثة أسطر الآتي:

الجامع الأزهر

والمعاهد الدينية العلمية الإسلامية

معهد أمير الصعيد

واللوحـة الثانيـة (لوحـة ٤) وتبلغ مسـاحتها ٦٠×

٢٠ سم، (لوحة ١٣٣)، ومكتوب عليها الآتي:

"معهد سوهاج الديني"

الواجهة الشرقية:

يبلغ طول هذه الواجهة ٣٩,٥ م لوحة (٥)، وهي خالية من أي مداخل، وهي لا تمتد باستقامة واحدة، إذ تبدأ في طرفها الشمالي الشرقي باستقامة قدرها٣٥م. بعد ذلك دخلة بمقدار ٢,٢٥ م ثم استقامة ثانية بمقدار ٤,٦٠ م، وهي تتكون من ثلاث مستويات أفقية من النوافذ كل مستوى من هذه المستويات الثلاث يشتمل على إثنى عشر نافذة، نوافذ المستوى الأول يبلغ اتساعها ١,٢٥ م وإرتفاعها ١,٨٥ م، ونوافذ المستوى الثاني يبلغ اتساعها ١,٢٥ م وإرتفاعها ٢,٤٥م، أما نوافذ المستوى الثالث فيبلغ اتساعها ١,٢٥ م وإرتفاعها ٢,٤٥ م وجميع نوافذ المستويات الثلاث يغلق عليها شيش خشبي مكون أربع ضلف خشبية، كما أن جميع نوافذ المستوى الأول مغشاة بمشغولات معدنية من الحديد.

الواجهة الغربية:

تتشابه تماما مع الواجهة الشرقية جملة وتفصيلا (لوحة ٦)، حيث يبلغ طول هذه الواجهة ٣٥,٥ م، وهي خالية من أية مداخل، وتطل بكامل اتساعها على شارع يبلغ اتساعه نحو ١٢م، وهي تتكون من ثلاث مستويات أفقية من النوافذ تتشابه تماما مع الواجهة الغربية.

الواجهة الشمالية:

يلاحظ أن هذه الواجهة تنقسم إلى قسمين منفصلين (لوحة ٧)، حيث يمثل كل قسم منها نهاية حرف ((V الذي خطط على شاكلته هذا المعهد كما سبقت الإشارة، وهما متشابهان جملة وتفصيلا، حيث يبلغ طول كل قسم منها ٨,٨٠ م، حيث يشتمل كل قسم منها على ثلاث نوافذ، نافذة الدور الأرضي ويبلغ اتساعها ١,٢٥ م وإرتفاعها ١,٨٥م، أما الطابق الأول به نافذة يبلغ اتساعها ١,٢٥ م وإرتفاعها ٢,٤٥ م، والطابق الثاني يشتمل نافذة يبلغ اتساعها ١,٢٥ م وإرتفاعها ١,٣٠ م، وجميع النوافذ يفتح ويغلق عليها شيش خشبي من أربع ضلف.

وصف المعهد من الداخل:

الطابق الأول:

يؤدي المدخل الرئيسي للمعهد الموجود بالجهة الجنوبية إلى ردهة مستطيلة الشكل فرشت أرضيتها بالرخام الذي يعود إلى تاريخ إنشاء المعهد، وبصدر الردهة سلم رخامي عريض مكون من أربعة عشر درجة سلم رخامية، وعلى جانبي ذلك السلم درابزين[1]

(١) الدرابزين حاجز أو سور مكون من قوائم رأسية وقضبان أفقية من الخش عادة أو الحجر، =

مبني من الآجر ومكسي بالملاط، يبلغ ارتفاعه نحو ٦٠ سم، ويؤدي هذا السلم إلى صالة مستطيلة الشكل، تبلغ مساحتها نحو ٤,٥ م × ١٦,٨٠ م، بصدر هذه الصالة سلم يؤدي إلى الطابق الثاني والدور الأرضي للمعهد، ويتوسط الصالة من الناحية الشرقية فتحة باب خشبي من ضلفتين يبلغ اتساعه ١,٥ م، وارتفاعه ٢,٣٠ م يؤدي إلى غرفة مستطيلة الشكل تبلغ مساحتها نحو ٧×٥م، وفتح في جدارها الغربي نافذة تفتح على الطرقة، تبلغ ٢,٤٥ × ١,٢٥م، كما فتح في جدارها الشرقي نافذتان يطلان على الخارج متشابهتان مع جميع نوافذ الطابق الأول للمعهد، كما يتوسط الصالة من الناحية الغربية

=

ويرك)الدرابزين للسلالم والأسطح وتسمى قوائم الدرابزين الرأسية باسم برامق، أما الفتحات التي بين قوائمه فتعرف باسم التفاريج على هذا فالدرابزين الخشبي عبارة عن مدادتين أفقيتين علوية وأخرى سفلية تجمع بينهم برامق رأسية ويثبتان في قوائم تثبت أطرافها في بسطات السلم ومتصلة من أعلى بالحوائط والدرابزين كلمة ذات أصل فارسي، أنظر حسين إبراهيم عبد العال، المنشآت التعليمية والصحية الباقية بمحافظتي أسوان وقنا من أواخر القرن التاسع عشر الميلادي حتى نهاية عصر أسرة محمد علي (دراسة أثرية معمارية)، ماجستير، جامعة أسيوط، المجلد الأول، ٢٠١٧م، ص٣٥.

فتحة باب من ضلفتين من الخشب متشابه تماما مع باب الغرفة الشرقية، يؤدي هذا الباب إلى غرفة مستطيلة الشكل تبلغ أبعادها ٤,٥×٥م، فتح في جدارها الغربي نافذة مستطيلة متشابهة مع جميع نوافذ الطابق، وفرشت أرضية هذه الغرفة بخشب الباركيه[1]. وفتح في الجنوب من الصالة أربع أبواب من ضلفتين، الباب الأول وهو باب خشبي إلى الغرب من الصالة، يؤدي إلى غرفة مستطيلة الشكل فرشت أرضيتها بخشب الباركيه، وسقف خرساني، فتح في جدارها الغربي نافذة مستطيلة، وفتح في جدارها الجنوبي نافذتان، تتشابهان مع نوافذ الطابق، الغرفة التي تجاورها إلى الشرق يفتح عليها باب حديدي من ضلفتين يؤدي إلى غرفة مستطيلة الشكل فتح في جدارها الجنوبي نافذة تتشابه مع نوافذ الطابق الأول، أما الباب الثالث فهو

(١) جاءت طريقة الباركيه إلي مصر مع الطراز الأوربي وانتشرت في قصور الأمراء والباشوات في مدينة القاهرة في القرن ١٣هـ/١٩م، وتعتبر القصور التي شيدها محمد علي باشا، والقصر العالي الذي شيده إبراهيم باشا من الأمثلة الأولي التي استخدمت أسلو الباركيه في تغطية الأرضيات، عبد المنصف سالم نجم، قصور الامراء والباشوات في مدينة القاهرة في القرن التاسع عشر، جزأن، الطبعة الأولى، مكتبة زهراء الشرق، ٢٠٠٧م، ص١٣٠.

بـاب خشـبي مـن ضـلفتين يـؤدي إلـى غرفـة مسـتطيلة الشـكل فـتح فـي جدارها الجنـوبي نافـذة مسـتطيلة تتشـابه مـع نوافـذ الطـابق الأول، أما الباب الرابع فهو بـاب خشـبي مـن ضـلفتين أيضـاً ويـؤدي إلـى غرفـة مسـتطيلة الشـكل فرشـت أرضـيتها بخشـب الباركيـه، وسقفها خرساني، وفتخ فـي جدارها الجنوبي نافــذتان مســتطيلتان، وفــتح فــي جــدارها الشـرقي نافـذة مستطيلة تتشـابه مـع نوافـذ الطابق الأول.

وتفتح الصالة فـي نهايتها جهتا الشمال علـى طـرقتين مـن فتحتـين كـل فتحـة مسـتطيلة الشكل يبلغ اتساعها ٥,١م وارتفاعها نحو ٣ م، تؤدي إلى طرقة مستطيلة الشكل تمتد من الجنوب إلـى الشمال ويبلغ طـول كـل طرقـة نحـو٣٥م، واتسـاع كـل طرقـة نحـو ٢,٦٥م، الطرقـة الأولـى الشـرقية ويفـتح عليهـا أربعـة أبواب خشبية من ضلفتين، يبلغ ارتفاع كل باب نحـو٣ م، واتسـاع كـل بـاب ١,٥٠ م، كمـا يفـتح عليهـا أيضـاً خمسـة نوافـذ خشـبية مـن ثـلاث ضـلف، تتشـابه مـع نوافـذ الطـابق الأول، الباب الأول إلى الجنوب يؤدي إلى غرفة مستطيلة الشـكل تبلـغ مسـاحتها نحـو ١٠,٥×٦م، ويطلـق عليهـا (غرفـة المـدرج) (لوحـة٨)، وهـي حجـرة أرضيتها من خشـب الباركيه، وفـتح فـي جدارها الشرقي ثلاث نوافذ خشبية تتشابه مع نوافذ الطـابق الأول، وكانـت هـذه الغرفـة مخصصـة للاجتماعات في المعهد منذ إنشاءه، حيث بها سـبع مـدرجات، ارتفـاع كـل مـدرج ٨٥ سـم وطولـه ٤,٠٥ م، وبكـل مـدرج مقاعـد تتسـع لعدد ثماني أشخاص، الغرفة التي تلي غرفة المدرج مستطيلة الشكل وأرضيتها من البلاط الحديث ذو اللون الأبيض والأسود، وفتح فـي جدارها الشـرقي نافـذتن تتشـابهان مـع نوافـذ الطـابق الأول، والغرفـة التـي تليهـا تتشـابه مـع الغرفــة الســابقة جملــة وتفصــيلاً، أمــا الغرفــة الرابعة فهي مستطيلة الشكل أيضاً وفتح في جـدارها الشـرقي نافـذتان مسـتطيلتان، وفـتح فـي جدارها الشـمالي نافـذة مسـتطيلة أيضـاً تتشابه مع نوافذ الطابق الأول.

الطرقــة الثانيــة (الغربيــة) يفـتح عليهـا خمـس أبواب خشبية من ضلفتين تتشابه مع أبـواب الطرقة الشرقية، كما يفتح عليها أيضاً خمس نوافذ مستطيلة تتشابه أيضاً مع نوافذ الطرقة الشــرقية، البــاب الأول يــؤدي إلــى غرفــة مستطيلة الشكل أرضيتها من خشب الباركيه، وفتح في جدارها الغربي نافذتان مستطيلتان، وفتح فـي جدارها الشرقي نافذة مستطيلة، البـاب الثـاني يـؤدي إلـى غرفـة مسـتطيلة الشكل وفتح في جدارها الغربي نافذتان وفتح

في جدارها الشرقي نافذة، الباب الثالث يؤدي أيضاً إلى غرفة مستطيلة الشكل، فتح في جدارها الغربي نافذتان وفتح في جدارها الشرقي نافذة مستطيلة، أما الباب الرابع فيؤدي إلى غرفة مستطيلة الشكل فتح في جدارها الغربي ثلاث نوافذ مستطيلة، وفتح في جدارها الشرقي نافذة أخرى مستطيلة، وفي وقت لاحق تم تحويل هذه الغرفة إلى دورة مياه تضم عدد ست دورات مياه، حيث هذه الدورات لم تكن في أصل هذه الغرفة، حيث أن نوافذ هذه الغرفة الأصلية بنيت عليها دورات المياه دون مراعاة لتلك النوافذ، أما الباب الخامس فيؤدي إلى غرفة مستطيلة الشكل أرضيتها من البلاط الحديث، وفتح في جدارها الغربي نافذة واحدة مستطيلة، وفتح في جدارها الشمالي نافذة أخرى مستطيلة تطل على المبنى الحديث للمعهد وفتح في جدارها الشرقي نافذة مستطيلة وجميع تلك النوافذ تتشابه تماما مع نوافذ الطابق الأول، وقد تم تقسيم هذه الغرفة أيضا في وقت لاحق إلى غرفتين ودورة مياه.

الدور الأرضي:

يتم الوصول إلى الدور الأرضي من خلال سلم الطابق الأول، حيث يتم النزول منه إلى صالة مستطيلة الشكل، تمتد من الشرق إلى الغرب، تبلغ مساحتها ٤,٥ م × ٦,٨٠م، ويتوسط الصالة من الناحية الشرقية فتحة باب خشبي من ضلفتين يبلغ اتساعه ١,٥م، وارتفاعه ٢,٣٠م يؤدي إلى غرفة مستطيلة الشكل، فتح في جدارها الشرقي نافذة تطل على الخارج متشابهة مع جميع نوافذ الدور الأرضي للمعهد، وفتح في جدارها الجنوبي فتحة مستطيلة الشكل تؤدي إلى غرفة المكتبة، كما يتوسط الصالة من الناحية الغربية فتحة باب من ضلفتين من الخشب متشابه تماما مع باب الغرفة الشرقية، يؤدي هذا الباب إلى غرفة مستطيلة الشكل، فتح في جدارها الغربي نافذة مستطيلة الشكل متشابهة مع جميع نوافذ الطابق.

ويفتح على الصالة مباشرة ناحية الجنوب أربع غرف، الغرفة التي إلى اليمين في أقصى الغرب من الصالة هي ذات مساحة مستطيلة الشكل تفتح على الصالة بباب خشبي من ضلفتين، وفتح في الجدار الجنوبي لهذه الغرفة نافذة مستطيلة تتشابه تماما مع نوافذ الدور الأرضي، وفتحة باب خشبي من ضلفتين يطل على الحديقة مباشرة، أما الغرفة الثانية التي تجاورها إلى الشرق فهي مربعة الشكل، وتطل على الصالة بفتحة مستطيلة الشكل يبلغ اتساعها نحو ٢,٦٠ م،

وتستخدم كمخزن للمعهد، ويجاورها غرفة أخرى تتشابه معها تماما من حيث المساحة، ولا تشتمل على نوافذ، وتطل على الصالة بفتحة باب خشبي من ضلفتين يتشابه مع أبواب الدور الأرضي، أما الغرفة الرابعة فتفتح على الصالة بفتحة باب خشبي من ضلفتين، وهي مستطيلة الشكل وفرشت أرضيتها بالبلاط الحديث ذو اللون الأبيض والأسود، وفتح في جدارها الجنوبي نافذة مستطيلة (تم وصفها من الخارج)، وباب خشبي من ضلفتين يؤدي إلى الحديقة مباشرة، وتستخدم هذه الغرفة الآن كمكتبة للمعهد، وتضم بين جنباتها مئات الكتب القيمة.

وتفتح الصالة في نهايتها جهتا الشمال على طرقتين من فتحتين كل فتحة يبلغ 'اتساعها ١,٥ م وارتفاعها نحو ٣ م، وكل طرقة من هاتان الطرقتان يبلغ اتساعها نحو ٢,٦٥م، وطولها نحو ٣٥م، وتتقدمها إحدى عشر دعامة مربعة الشكل من الآجر، المسافة بين كل دعامتين ٢,٨٠م، الطرقة التي جهة اليمين (الشرقية) يبلغ طولها ٣٥ م، ويفتح عليها سبعة غرف، الغرفة الأولى الثانية والثالثة إلى الجنوب من الطرقة مباشرة متشابهة تماما جملة وتفصيلا، حيث أن كل غرفة من هذه الغرف الثلاث مستطيلة الشكل وفرشت أرضيتها ببلاط حديث باللون الأبيض والأسود، وكل غرفة تبلغ مساحتها ٧,٢٠ م× ٦ م، وتفتح على الطرقة بباب خشبي من ضلفتين، يبلغ اتساع كل باب ١,٣٠ سم وارتفاعه نحو ٣ م، وكل غرفة فتح في جدارها الشرقي نافذتان تطلان على الخارج، كل نافذة مكونة من أربع ضلف شيش تتشابه تماما مع نوافذ الدور الأرضي، ثم ثلاث غرف أخرى يتشابهون جملة وتفصيلا حيث أن كل غرفة منهم مربعة الشكل تبلغ مساحتها نحو٦,٢٠×٥م، كما أن كل غرفة تفتح على الطرقة بباب خشبي من ضلفتين، وفتح في الجدار الشرقي لكل غرفة نافذة تطل على الخارج، أما الغرفة الأخيرة ففتح في جدارها الشرقي نافذة، وفتح في جدارها الشرقي نافذة تتشابهان مع نوافذ الطابق الأرضي.

أما الطرقة الأخرى (الغربية)، فهي تتشابه تماما مع الطرقة السابقة حيث أنها مكونة من ١١ دعامة مبنية من الآجر، وتبلغ المسافة بين كل دعامتين ٢,٨٠ م، واتساع الطرقة ٢,٦٠ م، وطولها نحو ٣٥م ويفتح عليها أيضاً سبع غرف كل غرفة تطل على الطرقة بباب خشبي من ضلفتين ونافذة، وكل غرفة تطل على الخارج بنافذتين، ومن التعديلات المعمارية التي تمت حديثاً هو تحويل الغرفة

الثالثة من الطرقة من جهة الشمال تم تحويلها إلى عدد من دورات المياه. وكذلك الغرفة التي تجاورها من جهة الغرب فقد تم تقسيمها من الداخل في وقت لاحق إلى غرفتين ودورة مياه.

الطابق الثاني:

يتم الوصول إلى الطابق الثاني من خلال السلم الرئيسي للمعهد، من خلال قلبتين سلم، وفي نهاية القلبة الثانية للسلم يوجد باب خشبي من ضلفتين، يبلغ اتساعه ١,٣٠م، ويفضي هذا الباب إلى صالة مستطيلة الشكل فرشت أرضيتها بالبلاط الحديث ذو اللون الأبيض والأسود، ويبلغ طولها ١٦,٨٠م وعرضها ٤,٥م، ويفتح على هذه الصالة من الجهة الغربية ثلاث غرف، كل غرفة يفتح عليها باب خشبي من ضلفة واحدة، يبلغ اتساع فتحة الباب ٩٥ سم، وارتفاع الباب ٢,١٥ م، ونجد أن الغرفة الوسطة هي شبه مربعة الشكل، تبلغ مساحتها نحو ٤,٨٠×٥م، وهي تستخدم الآن كمطبخ للمعهد، يتوسط الجدار الجنوبي لهذه الغرفة فتحة نافذة مستطيلة الشكل تطل على حديقة المعهد يبلغ أتساعها ٦٠× ١,٥م، أما الحجرتان الجانبيتان فهما متشابهتان جملة وتفصيلاً حيث أن كل غرفة مستطيلة الشكل تبلغ مساحتها ٩,٢٠×٨,٦٠م ويفتح عليها ثلاثة نوافذ يبلغ اتساع كل نافذة ١,٢٥م وإرتفاعها ١,٣٠م، كما يتوسط الصالة من الجهة الشرقية فتحة باب من ضلفة واحد يبلغ أتساعه ٩٥ سم وارتفاعه ٢,١٥ م، يؤدي إلى غرفة مربعة الشكل وتطل على الخارج بنافذة تبلغ ١,٢٥×١,٣٠م، وإلى اليمين من الصالة بالجهة الشرقية نصل إلى طرقة مستطيلة الشكل اتساعها نحو ٢,٥م، يفتح عليها خمس غرف كل غرفة من هذه الغرف تفتح على الطرقة بباب من ضلفة واحدة ونافذة تتشابه مع نوافذ وأبواب هذا الطابق، كما فتح في الجدار الشرقي لكل غرفة من الغرف الخمس نافذتان، تطلان على الخارج، ومتشابهتان أيضا مع نوافذ هذا الطابق.

أما الطرقة الأخرى بالناحية الغربية فيفتح عليها ست غرف، الغرفة الأولى مستطيلة الشكل تطل على الطرقة بفتحة باب واحدة ولا يوجد بها نوافذ تطل على الطرقة، و فتح في الجدار الغربي لهذه الغرفة نافذتان متشابهتان تماما مع نوافذ الطابق، والغرفة الثانية مستطيلة أيضاً وتبلغ نفس مساحة الحجرة السابقة، وتفتح على الطرقة بنافذة وفتحة باب خشبي من ضلفة واحدة، وفتح في جدارها الغربي نافذتان متشابهتان مع نوافذ الغرفة السابقة، وكذلك الغرفة الثالثة والرابعة

والخامسة، متشابهين تماما جملة وتفصيلا، أما الغرفة السادسة والأخيرة التي في نهاية الطرقة والتي تطل على الطرقة بفتحة باب من ضلفة واحدة وفتح بجدارها الشمالي نافذة تطل على المبنى الحديث للمعهد، وفتح بجدارها الغربي نافذة تتشابه مع نوافذ الحجرات السابقة.

غرفة السلم:

أو كما يطلق عليه (برج السلم)، وذلك لأنه يشبه برج المراقبة، وهو بناء مستقل بذاته، يقع بالناحية الجنوبية من الفناء، يتكون من ثلاث مستويات، كل مستوى منه يمثل طابق من طوابق المعهد، ويطل على فناء المعهد مباشرة، وهي عبارة عن مبنى مربع من الداخل، أطوال أضلاعه بالتساوي كالآتي: ٤م، ثم شطف بطول ١,٢٠م، ٤,٧٠م، ثم شطف آخر بطول ١,٢٠م، ٤ م.

ويرتفع مبنى السلم بارتفاع المعهد، المستوى الأول منه فتح به فتحة نافذة تبلغ ٥٠× ١٢٠ سم، والمستوى الثاني به نافذة يبلغ اتساعها ١,٢٥ م وإرتفاعها١,٨٥ م، ويفتح ويغلق عليها شيش خشبي من أربع ضلف، أما المستوى الثالث فبه نافذة اتساعها ١,٢٥ م، وإرتفاعها ١,٣٠ م، ومن الداخل فهو عبارة عن غرفة مربعة الشكل ترتفع بارتفاع المعهد، ويوجد السلم بداخل ذلك المبنى وهو عبارة عن سلم خراساني مكسي بالرخام، وله درابزين من الطوب الآجر المكسي بطبقة من المحارة، ويتكون من ست قلبات.

فناء المعهد:

يتوسط المعهد فناء غير منتظم الشكل تبلغ مساحته نحو٦٠٠م لوحة (٩)، وكان يستخدم في البداية كساحة لصلاة الظهر حيث كان يفرش بالحصر ويؤم الطلاب شيخ المعهد، وذلك كما جاء في تقرير مفتش إدارة الأزهر الأستاذ[1] عبد المنعم الصايغ أفندي[1].

---

(١) لفظة فارسية، أخذها العرب واستخدموها دون تغيير، لأنه ليس في اللغة العربية كلمة أصيلة تجمع بين الذال والسين، واستخدمت في العصور المبكرة حتى العصر العباسي والفاطمي، وأطلقت على الخصيان من الغلمان حيث كان يعظم أمرهم وينالون حظوة عند الخلفاء أو الولاء ويسند إليهم تربية الأبناء الصغار، وأستاذ في اللغة العربية بمعنى الماهر، وأطلقت هذه اللفظة على من أتقن مهنته ووصل فيها إلى درجة عالية من رجال الدين والعلم وذوي الحرف والصناعات والمهارات المختلفة، كما استعملت لفظة أستاذ على من يشتري المملوك ثم يعتقه عند الكبر، وتعتبر رابطة الأستاذية أقوى رابطة بين المملوك وأستاذه، وائل بكري الرشيدي، أشغال الخشب بالعمائر الإسلامية الدينية بصعيد مصر منذ بداية العصر العثماني حتى نهاية القرن التاسع عشر الميلادي دراسة أثرية فنية، (٩٢٣هـ-١٥١٧م)/ (١٣١٧هـ-١٨٩٩م)، رسالة =

وقد شُيد إلى الشمال من الفناء مبنى حديث مكون من ثلاثة طوابق، وذلك لأن المعهد أصبح لا يتحمل الزيادة الثانوية الكبيرة في أعداد الطلاب، وذلك بسبب ما يتمتع به المعهد من سمعة طيبة، ولحسن سير العمل فيه.

=

ماجستير، جامعة جنوب الوادي، المجلد الأول، ٢٠٠٧م، ص٣٢٥، محمد أحمد دهمان: معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي، دار الفكر المعاصر، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٩٩٠، ص١٤.

(١) أفندي لقب فخري قيل أنها مأخوذة من اليونانية العامية (أفنديس) واستعملها الترك في القرن الثالث عشر الميلادي وقد أطلق العثمانيون لقب أفندي على الرجل الذي يقرأ ويكتب ولقباً لبعض الموظفين وكان يقال لرئيس الكتاب رئيس أفندي ولقاضي استانبول أفنديس وكان الترك يطلقونها على رؤساء الديانات الأخرى وشاع لقب أفندي في البلاد التي خضعت للنفوذ العثماني، واستخدم في مصر لقباً فخرياً لنقيب الأشراف، وقد أطلق المصريين على محمد علي باشا لقب (أفندينا) وأطلق على النساء أيضاً لقب أفندي، أنظر مصطفى بركات: الألقاب والوظائف العثمانية، ص١٥٠، ص٣٠٢؛ وائل بكري الرشيدي: أشغال الخشب بالعمائر الإسلامية الدينية بصعيد مصر منذ بداية العصر العثماني حتى نهاية القرن التاسع عشر الميلادي، دراسة أثرية فنية، (٩٢٣ هـ - ١٥١٧م) (١٣١٧ هـ - ١٨٩٩م)، ماجستير، المجلد الأول، ٢٠٠٧م، ص٣١٩.

حديقة المعهد:

وهي حديقة تعود إلى تاريخ إنشاء المعهد، وتوجد في الجهة الجنوبية من المعهد، وتبلغ مساحة هذه الحديقة نحو ٢٠٠م، وقد قسمت إلى عدة أقسام هندسية غير متساوية يفصل بينها مداميك أسمنتيه بارتفاع ٥٠سم، وبها مختلف أنواع أشجار الزينة وأشجار النخيل والفيكس والسدر والكافور والجزورين والصفاف والتين، وغيرها التي تحجب بعض ملامح الواجهة الجنوبية.

وفي عام ١٩٤٩م خصصت لها إدارة المعهد عاملاً خاصاً يقوم على تنظيمها وتنظيفها بصفة دورية وذلك بعد تقرير مفتش الأزهر الأستاذ عبد المنعم الصايغ عن الحديقة عن عام (١٣٦٦هـ/١٩٤٩م)، والذي جاء فيه الآتي ((الحديقة مهملة لعدم وجود بستاني، وأرى تعيين بستاني لها فنبلغ حضرتكم ذلك للإحاطة وإجراء ما يلزم)).

كما يوجد فوارة بالحديقة تعود الى عام ١٩٤٩م (لوحة١٠)، توجد بالجهة الغربية من الحديقة وهي مستديرة الشكل يبلغ طول قطرها ٢,٥ متر، وكسيت من الداخل بقطع من السيراميك الحديث، وبداخلها بناء من الآجر وقطع من الحجر الجيري الأبيض ذو شكل مستدير من أسفل وبه أربع فتحات ومن

أعلى يأخذ الشكل الهرمي مثبت في منتصفها أنبوب يخرج منه الماء وإلى يسار الداخل من مدخل السور الجنوبي حجرة صغيرة مربعة الشكل حديثة البناء خصصت لبستاني الحديقة.

تقرير مفتش الأزهر:

في شهر مارس عام ١٩٤٩م قام الأستاذ عبد المنعم الصايغ أفندي مفتش الآداب بإدارة التفتيش بالأزهر بزيارة لمعهد أمير الصعيد بسوهاج، وكانت أهم الملاحظات التي رفعها إلى الأستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر عن معهد أمير الصعيد ما يأتي:

١- دورة المياه بالمعهد غير نظيفة، ويجب وضع مطهرات لها من وقت لآخر، حيث أن حالتها تتنافى مع أبسط قواعد الصحة.

٢- حجرة الجغرافيا بالمعهد حجرة خاصة تحفظ بها الخرائط والأجهزة الجغرافية ويحسن بإدارة المعهد أن تتدبر الأمر وأن تعمل على إيجاد حجرة تثبت في حوائطها رفوف مثقوبة، يتسع كل ثقب منها بنفاذ خريطة ملفوفة يستند طرفها من أسفل إلى رفوف أخرى غير مثقوبة.

٣- أبواب ونوافذ المعهد تحتاج إلى تجديد طلائها، وأن المراحيض الموجودة وعددها أربعة لا تتناسب مع عدد الطلاب والذين يبلغ عددهم ٤٠٥ طالب، ويحسن التفكير في إنشاء مراحيض أخرى، وإنشاء فصول جديدة لمواجهة الزيادة المنتظرة في عدد الطلاب بالقسم الثانوي الذي يتكون تدريجياً.

٤- استراحة المعهد تحتاج إلى العناية التي تتفق وما لنزلاءها من كرامة وأن إدارة المعهد تبدي شكواها لعدم إجابة ما تطلبه حتى تصبح استراحة المعهد صالحة لأن يقبل عليها السادة المفتشين حيث أن الملاءات و الأغطية بها غير كافية وليس بها مائدة يمكن تناول الطعام عليها.

٥- يحرم طلاب المعهد من تناول طعام الغذاء لعدم وجود المكان الصالح لذلك ولعل الإدارة العامة عند إنشاءها للفصول الجديدة الخاصة بالقسم الثانوي لا يفوتها إعداد مطعم يتسع لأن يتناول فيه طلاب هذا المعهد طعام الغذاء.

٦- طلب من الإدارة العامة بالأزهر شراء مبنى آخر وتهيئته يتسع لطلاب القسم الابتدائي والثانوي.

نتائج البحث:

١- كشفت الدراسة عن أهمية هذا المعهد واستخدامه للتدريس، ومعرفة تاريخ الانشاء الأصلي للمعهد من خلال وثيقة

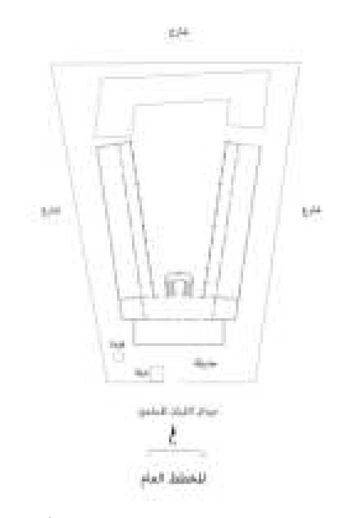
التأسيس التي أصدرها الملك فاروق والتي لم تنشر من قبل.

٢- تم إنشاء المعهد بأمر ملكي من الملك فاروق بعدما قام شيخ الجامع الأزهر فضيلة الشيخ مصطفى عبد الرازق بطلب استعجال لرئيس مجلس الوزراء الوزير إسماعيل باشا صدقي لاستصدار مرسوم لإنشاء معهد ديني في سوهاج.

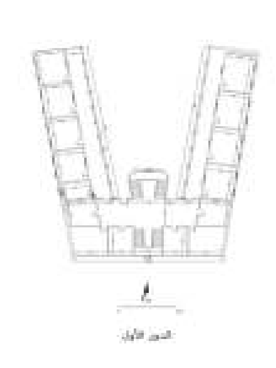
٣- جاء تخطيط هذا المعهد على شكل حرف (V) وتخطيط هذا النمط عبارة عن فناء أوسط مكشوف تحيط به الحجرات من ثلاث جهات، وهذا التخطيط ذو الفناء الذي تحيط به بائكات هو تخطيط متأثر بتخطيط القصور ذات البائكات التي تلتف حول الصحن والتي كانت منتشرة في مدينة فلورنسا والبندقية بإيطاليا، وقد تجسد في قصر (Municipio) بالبندقية وهو قصر بني عام ٩٥٢هـ/١٥٤٦م، ويرجع إلى طراز النهضة الإيطالية.

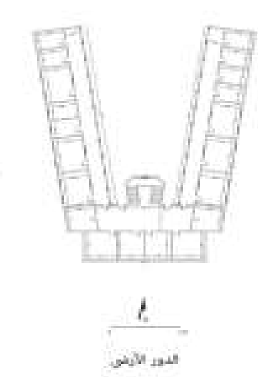
٤- تنوع أنواع الأرضيات من خشب باركيه وبلاط أرضيات مزايكو، كما ظهرت الارضيات الرخامية وذلك في ردهة المدخل من الناحية الجنوبية.

٥- ظهور عنصر الحديقة الخارجية المحيطة بالمعهد من الخارج.



شكل (١) التخطيط العام لمعهد أمير الصعيد بسوهاج (الباحث)

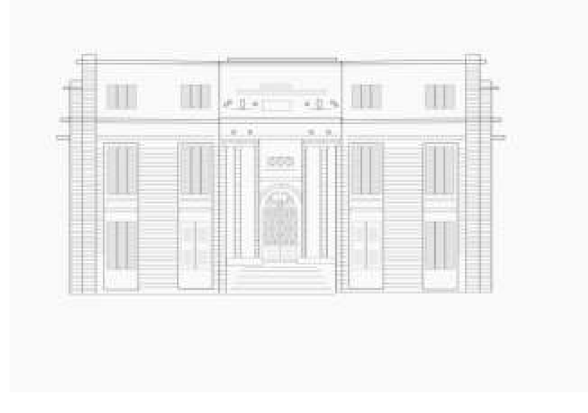




شكل (٢، ٣) الدور الأرضي والطابق الأول بمعهد أمير الصعيد (الباحث)



لوحة (٣) من النحاس لوحة (٤) من النحاس



شكل (٤) الواجهة الجنوبية للمعهد (الباحث)



لوحة (٥) الواجهة الشرقية (تصوير الباحث)

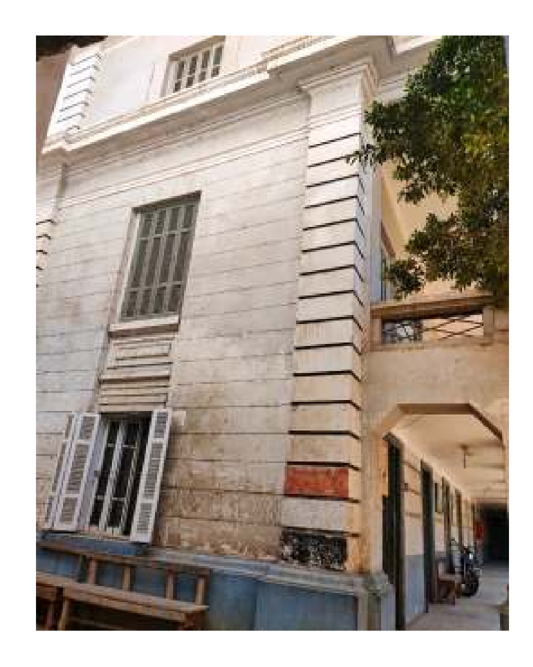


لوحة (١) معهد أمير الصعيد (تصوير الباحث)
لوحة (٢) الواجهة الجنوبية (تصوير الباحث)





لوحة (٦) الواجهة الغربية (تصوير الباحث)



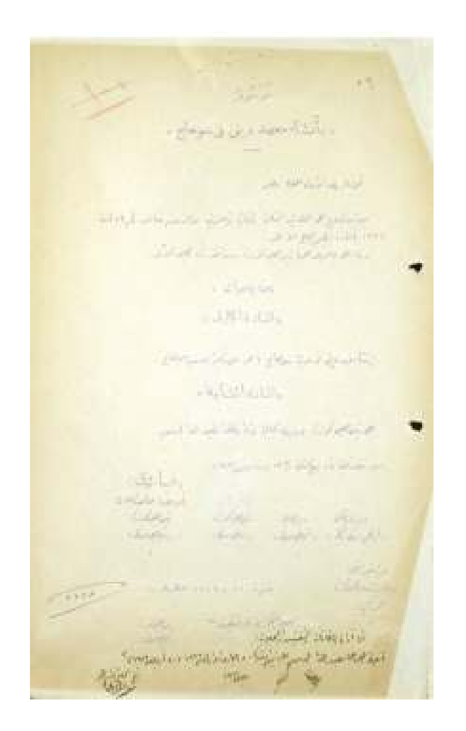
لوحة (٧) القسم الشرقي والغربي من الواجهة الشمالية (تصوير الباحث)



لوحة (٨) غرفة المدرج (تصوير الباحث) لوحة (٩) فناء المعهد (تصوير الباحث)

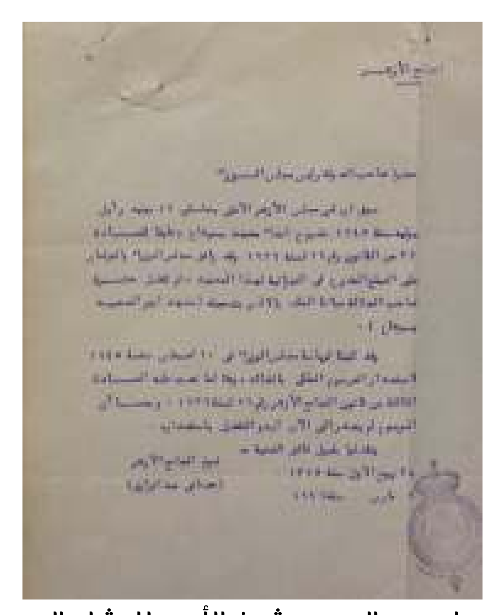


لوحة (١٠) فوارة الحديقة (تصوير الباحث)





وثيقة إنشاء المعهد (ينشر لأول مرة (الباحث)



طلب استعجال من شيخ الأزهر لإنشاء المعهد
ينشر لأول مرة (الباحث)



معهد إمام الصعيد بسوهاج





تقرير الأستاذ عبد المنعم الصايغ أفندي عن

المعهد ينشر لأول مرة (تصوير الباحث)

المصادر والمراجع:

القرآن الكريم.

الوثائق:

وثيقة إنشاء معهد أمير الصعيد.

تقرير عبد المنعم الصايغ عن معهد أمير الصعيد.

المصادر:

علي باشا مبارك: الخطط التوفيقية الجديدة لمصر القاهرة ومدنها وبلادها الشهيرة، المطبعة الأميرية، الطبعة الأولى في عشرين جزء، القاهرة، الجزء ٩، ١٣٠٥ه.

فرج سليمان فؤاد: الكنز الثمين لعظماء المصريين، الجزء الأول، مكتبة الاعتماد، ١٩١٧م.

المراجع العربية:

جمال خير الله: النقوش الكتابية على شواهد القبور الإسلامية، (القاهرة- رشيد- دهلك- استانبول)، مع معجم الألفاظ والوظائف الإسلامية، العلم والإيمان للنشر والتوزيع، ٢٠٠٧م.

حسن الباشا، الألقاب الإسلامية في التاريخ والوثائق والآثار، الدار الفنية للنشر والتوزيع، ١٩٨٩م.

زكي فهمي: صفوة العصر في تاريخ ورسوم مشاهير رجال مصر، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، ٢٠١٢م.

سعيد مغاوري محمد: الألقاب وأسماء الحرف والوظائف في ضوء البرديات العربية، المجلد الأول، دار الكتب المصرية بالقاهرة، ٢٠٠٠م.

عبد المنصف سالم نجم، قصور الامراء والباشوات في مدينة القاهرة في القرن التاسع عشر، جزأن، الطبعة الأولى، مكتبة زهراء الشرق، ٢٠٠٧م.

عزة علي عبد الحميد شحاتة: النقوش الكتابية بالعمائر الدينية والمدنية في العصرين المملوكي والعثماني،العلم والايمان للنشر والتوزيع، دسوق، ٢٠٠٨.

محمد أحمد دهمان: معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي، دار الفكر المعاصر، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٩٩٠م.

محمد رمزي: القاموس الجغرافي للبلاد المصرية مدن عهد قدماء المصريين إلى سنة ١٩٤٥م، الجزء الرابع، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٤م.

محمود عباس أحمد عبد الرحمن: آثار العصر الحديث (علم وتراث)، المجلس الأعلى للآثار، الطبعة الأولى، الدار العالمية للنشر، ٢٠٠٨م.

مصطفى بركات: الألقاب والوظائف العثمانية، دراسة في تطور الألقاب والوظائف منذ الفتح العثماني لمصر حتى الغاء الخلافة العثمانية من خلال الوثائق، (١٥١٧-١٩٢٤م)، دار غريب للنشر، ٢٠٠٠م.

معجم اللغة العربية المعاصر.

ناصر الأنصاري: المجمل في تاريخ مصر، النظم السياسية والإدارية، دار الشروق الطبعة الثانية، ١٩٩٧م.

وجيه عتيق: الملك فاروق وألمانيا النازية، خمس سنوات من العلاقة السرية، الطبعة الأولى، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٩٢م.

يحي شاهي: موسوعة المدن العربية والإسلامية، دار الفكر العربي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٣م.

المراجع المعربة:

ميكل ونتر: المجتمع المصري تحت الحكم العثماني، ترجمة إبراهيم محمد إبراهيم، مراجعة عبد الرحمن عبد الله الشيخ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠١م.

الدوريات والمجلات العلمية:

الرسائل الجامعية:

حسين إبراهيم عبد العال، المنشآت التعليمية والصحية الباقية بمحافظتي أسوان وقنا من أواخر القرن التاسع عشر الميلادي حتى نهاية عصر أسرة محمد علي (دراسة أثرية معمارية)، ماجستير، جامعة أسيوط، المجلد الأول، ٢٠١٧م.

رباب عبد التواب فهمي حامد: القصور الباقية بمراكز أسيوط، دراسة أثرية فنية معمارية مقارنة، ماجستير، كلية الآداب، أسيوط،٢٠١٧م.

وائل بكري الرشيدي: أشغال الخشب بالعمائر الإسلامية الدينية بصعيد مصر منذ بداية العصر العثماني حتى نهاية القرن التاسع عشر الميلادي، دراسة أثرية فنية، (٩٢٣هـ-١٥١٧م)/ (١٣١٧ه-١٨٩٩م)، رسالة ماجستير، جامعة جنوب الوادي، المجلد الأول، ٢٠٠٧م.

مختصر الكلام في عمارة بيت اللّه الحرام

(قراءة في فتوى اسعاد آل عثمان المكرم ببناء بيت الله المكرم للشرنبلالي)

باحثة دكتوراه

سماح رجب عبدالصمد محمد

كلية الآداب - جامعة الاسكندرية





مقدمة:

بسم الله والصلاة والسلام على اشرف المرسلين وخاتم النبيين سيدنا محمد وعلى أهله وصحبه أجمعين. أما بعد،،

لقد ارتبطت الفتوى منذ ظهورها بالفقهاء والعلماء الذين كرمهم الله تعالى بقوله ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمَۢا بِٱلْقِسْطِ﴾[1]

والسبب في أن أبدأ الحديث بالآية الكريمة هو توضيح كيف بدأ الله ﷻ بنفسه وثنى بالملائكة وثلث بأهل العلم أي أنه قد جاء ذكر أهل العلم بعد الملائكة وذلك ليوضح لنا الله ﷻ منزلة ومرتبة أهل العلم وناهيك بهذا شرفًا وفضلاً وجلاء ونبلاً،وأيضا قوله تعالى: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾[2]. وقوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ ﴾[3].

وقد قال رسول الله ﷺ: (**مَنْ يرد الله به خيرًا يُفَقِهْهُ فِي الدين ويلهمُه رشدُه**)، وقوله أيضًا: (**صنفان من أمتي إذا صلحوا صلح الناس وإذا فسدوا فسد الناس الأمراء والفقهاء**)، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: (**للعلماء درجات فوق المؤمنين بسبعمائة درجة ما بين الدرجتين مسيرة خمسمائة عام**)[4].

وعن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (**من سلك طريقًا يبتغي فيه علمًا سَهل الله له طريقًا إلي الجنة وإن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضًا بما صنع وإن العالم ليستغفر له من في السموات والأرض حتى الحيتان في الماء وفضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب وإن العلماء ورثة الأنبياء وإن الأنبياء لم يورثوا دينارًا ولا درهمًا وإنما ورثوا العلم فمن أخذه أخذ بحظ وافر**)[5]

---

(١) **سورة آل عمران**، أية (٨).

(٢) **سورة المجادلة**، أية (١١).

(٣) **سورة فاطر**، أية (٢٨).

(٤) الإمام الغزالي (ابن حامد محمد بن محمد الغزالي)، **إحياء علوم الدين**، تحقيق: سيد إبراهيم، صادق عمران، ط ١، القاهرة ١٩٩٩، ص٢٠-١٥.

(٥) الإمام النووي (محيي الدين أبي زكريا يحيي بن =

واشترط العلماء في المفتي أن يكون مُسلمًا مُكلفًا ثقة مُأمونًا مُنزهًا عن أسباب الفسق وفساد النفس لأن من لم يكن كذلك فقوله غير صالح للاعتماد وإن كان من أهل الاجتهاد، ويكون عفيف النفس سليم الذهن، رصين الفكر صحيح التصرف والاستنباط، متيقظًا.

أما عن صفاته العلمية فلابد له العلم بالقرآن والسنة النبوية، ومعرفته بالإجماع والعقل، واللغة العربية، وأصول الفقه، ومعرفة أحوال رواة الأحاديث، وفهم مقاصد الشريعة(١) وقال ابن القيم ولا يجوز الفتوى بالتقليد لأنه ليس بعلم والفتوى بغير علم حرام ولا خلاف بين الناس(٢).

مكة المكرمة والكعبة المشرفة:

﴿ رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ ٣٧ ﴾(٣)

مكة هذه البلدة المقدسة التى هى فردوس العبادة في الأرض وجنة الدنيا المعنوية، عبارة عن واد ضيق ذي شعاب متعرجة تحيط بذلك الوادي جبال جرداء صخرية صماء لا عشب فيها ولا ماء كما وصفها الله ﷻ في الآية الكريمة عن لسان إبراهيم عليه السلام، فبدعوة إبراهيم (اجعل افئدة..) إلى هذا المكان وإلى المتمكنين فيه أفئدة ورفرفت عليهم جوانح من جميع فجاج الأرض ترى الناس منذ ألوف من السنين يحجون هذا البيت المحرم، ويقول ابن دريد في وصفها:

يحملن كل شاحب محقوقف من طول تداب الغدو والسرى

ينوي التي فضلها رب السما لما دحا تربتها على البنى

حتى إذا قابلها استعبر لا يملك دمع العين من حيث جرى(٤)

= شرف النووي الدمشقي)، **رياض الصالحين من كلام سيد المرسلين**، تحقيق: محمد عصام الدين آمين، (المنصورة، مكتبة الإيمان، د.ت)كتاب العلم، ص٣٣٣.

(١) سماح رجب عبد الصمد، **تاريخ الفتاوى والافتاء في مصر العثمانية (١٥١٧-١٧٩٨م)**، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، جامعة الاسكندرية، ٢٠١٢م، ص ١١.

(٢) أحمد بن حمدان الحراني الحنبلي، **صفة الفتوي والمفتي والمستفتي**، تحقيق محمد ناصر الدين الالباني، بيروت، ١٩٨٤م، ص ٧٨.

(٣) سورة إبراهيم، الآية ٣٧.

(٤) أرسلان، الأمير شكيب، **الرحلة الحجازية المسماة الأرتسامات االطاف في خاطر الحاج إلى أقدس مطاف**، تقديموتعليق: السيد محمد رشيد رضا، حسن السماحي سويدان، ط١، (بيروت، دار النوادار، ١٤٢٨هـ -٢٠٠٧م)، ص ٤٩-٥٢.

وفـي مكـة مـن الآثـار الدينيـة الأسـلامية عـدد كبير نذكر منها على سبيل المثال:

مقـام إبـراهيم وهـو الحجـر الـذي وقـف عليـه ابـراهيم عليه السلام أثنـاء بنـاء الكعبـة، وبئـر زمـزم[١]، ودار الأرقم بن الأرقم وتقع فـي الصفا وهى الدار التى كان يصلي فيها المسلمون سرافي صـدر البعثـة النبويـة حتـى أسـلم عمـر بـن الخطاب فخرجـوا للصلاة فـي المسـجد جهـرا، وأيضًا غار حراء وهو الغار الذي كـان يتعبد فيـه الرسـول ﷺ قبـل البعثـة وفيـه نـزل جبريـل بـالوحي، وغـار ثـور الـذي أختبـأ فيـه النبـي وصاحبه أبـوبكر الصديق رضي الله عنه أثناء الهجرة إلـى المدينة[٢].

﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا ۗ وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴿٩٧﴾ ﴾[٣]

لقد بدأنا موضوعنا بالآيات الكريمة من القـرآن الكـريم لنؤكـد ونوضـح أهميـة ومكـان مكـة المكرمة بين المدن كافـة، والتى اختصها الله سبحانه وتعالى بوجـود المسـجد الحـرام وهـو أول مسـجد وضع في الأرض وتعتبر الصلاة فيه بمائة ألف صلاة.

وأيضا قال ﷺ يوم فتح مكـة: (إن هـذا البلد حرمـه اللـه يـوم خلـق السـماوات والأرض، فهـو حـرام بحرمـة اللـه إلـى يـوم القيامـة، وإنـه لـم يحل القتال فيه لأحد قبلي، ولم يحل لـي إلا ساعة من نهار، فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامـة، لا يعضـد شـوكه، ولا ينفـر صيده، ولا يلتقط لقطته إلا من عرفها، ولا يختلى خلاه) فقال العباس: يا رسول الله، إلا الإذخر، فإنه لقينهم ولبيوتهم، قال: (إلا الإذخر)[٤].

وأيضا قال ﷺ" من مات بمكـة فكأنما مات في السماء الدنيا"

ويكفـي مـن الآيات القرآنيـة والآحايث النبويـة الشـريفة مـا يؤكـد مكانـة وعظمـة هـذا البلـد الأمين، وزادها تشريفاً بوجـود الكعبـة المشرفة بيـت اللـه الحـرام وتقـع الكعبـة وهـى قبلـة المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها وسـط المسـجد الحـرام ويبلـغ أرتفاعهـا خمسـة عشـرا مترا، واول من بناها الملائكة ثم آدم عليه السلام ثم

---

(١) قـد جـاء عنـه فـي الحـديث الشـريف " مـاء زمـزم لمـا شرب له"

(٢)الأزرقـي، أبـي الوليـد محمـد بـن عبدالله بـن أحمـد، **أخبار مكة وما جاء بها من الاثار**، تحقيق: رشدى الصالح ملحس، ط٣، (بيروت:دار الأندلس، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م) ج١،ص ٥-٧..

(٣) سورة آل عمران، الاية ٩٦-٩٧.

(٤) البخاري،أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، **صحيح البخاري**، باب العلم، ص ٣١٨٩..
http://www.Islam spirit.com

شيث ثم إبراهيم عليه السلام ثم العمالقة ثم جرهم ثم قصي بن كلاب الجد الرابع للنبي ﷺ ثم قريش ثم عبالله بن الزبير ثم الحجاج بن يوسف في عصر مروان بن الحكم سنة ٧٣هـ.[١]

أولاً: ترجمة الشيخ الشرنبلالي:

هو حسن بن عمار بن علي، أبو الإخلاص المصري الشرنبلالي[٢]، الفقيه الحنفي[٣] الوفائي، مفتى السادة الحنفية بمصر[٤].

مولده ونشأته:

ولد الشيخ حسن الشرنبلالي عام ٩٩٤هـ/ ١٠٦٩م في قرية شبرايلولة ثم جاء به والده إلى القاهرة وعمره نحو ست سنوات فنشأ بها والتحق بالازهر الشريف[٥] وحفظ القرآن، وطلب

---

(١) الأزرقي، المرجع السابق، ج١،ص ٦.

(٢) **الشرنبلالي:** بضم الشين المثلثة مع الراء وسكون النون وضم الباء الموحدة ثم اللام ألف وبعدها لام نسبة الي الشبرايلولة وهذه التسمية علي غير قياس والاصل شبرايلولي نسبه لبلده تجاه منوف العليا بإقليم المنوفية بسواد مصر وهي من القري القديمة وردت في المشترك لياقوت وفي القوانين لابن مماتي وفي تحفة الارشاد، كما يوجد كفر يحمل نفس الاسم تابع لمنوف واصله من توابع قرية شبرايلولة وورد معها سنة ١٢٢٨هـ ثم فصل عنها سنة ١٢٥٩هـ. المحبي، **خلاصة الاثر في اعيان القرن الحادي عشر**، ج٢/٣٩، محمد حسن رمزي، **القاموس الجغرافي للبلاد المصرية**، (القاهرة، الهيئة العامة للكتاب، ١٩٩٤م)، ج٢/٢٢٦،٢١٩.

(٣) **المذهب الحنفي في مصر:** كان أهل مصر لا يعرفون هذا المذهب حتى ولي قضاءها إسماعيل بن اليسع الكوفي من قبل الخليفة العباسي المهدي سنة (١٤٦هـ/٧٦٢م) وهو أول قاضي حنفي بمصر وأول من أدخل إليها مذهب أبي حنيفة ثم انتشر المذهب مدة الخلافة العباسية إلا =

= أن القضاء بها لم يكن مقصورا على الحنفية بل كان يتقاسمه معه المالكيون والشافعيون إلي أن استولى عليها الفاطميون وأخذوا مذهب الشيعة الإسماعيلية فقوي هذا المذهب الجديد، وفي عصر الدولة الأيوبية قضي على التشيع وأُنشئت المدارس للفقهاء الشافعية والمالكية وكان أول من رتب دروسا على المذاهب الأربعة في مدرسة واحدة هو الصالح نجم الدين أيوب ثم انتشر وأصبح رسميًا في عهد الدولة العثمانية.أحمد تيمور باشا، **المذاهب الفقهية الأربعة (الحنفي، المالكي، الشافعي، الحنبلي) وانتشارها عند الجمهور**، ط١، (القاهرة، دار الآفاق العربية، ٢٠٠١ م)، ص٥٠-٥٩.

(٤) المحبي، **خلاصة الاثر في اعيان القرن الحادي عشر**، ج٢/ ٣٨، الزركلي، **الاعلام**، ط١٥، (بيروت، دار العلم للملايين، ٢٠٠٢م)، ج٢/٩٩.

(٥) ويعتبر **الجامع الأزهر** أول مسجد بني في مدينة القاهرة التي أسسها جوهر الصقلي حاكم الفاطميين لمصر عام (٣٠٩هـ/ ٩٦٩م) وعرف منذ أنشائه بجامع القاهرة واستغرق بناؤه عامين (٣١٠ - ٣١٢هـ/ ٩٧٠ -٩٧٢م) وحول تسميته بالأزهر فمن المرجح إنها نسبة إلى فاطمة الزهراء حيث أن الفاطمين ينتسبون إليها، و يعتبر الجامع الأزهر الشريف الذي ولد شيعيًا في ظل حكم الفاطميين =

العلم على يدي كبار علمار الازهر[1]

وهو الشيخ العالم العلامة حسن بن عمار الشرنبلالي الوفائي الحنفي شيخ السادة الحنفية بالجامع الأزهر في القرن السابع عشر، الذي يوجد له تراث كبير من العلوم الفقهية في جميع مناحي الحياة والتي لم يلتفت اليها ولم يستفاد منها في كتابة تاريخ مصر في العصر العثماني حتى الان.

ذلك التراث العلمي الذي تعدى المائة وثلاثة مخطوطة محفوظة في أكثر من مكان مختلف سواء بدار الكتب والوثائق القومية بالقاهرة أو بدار المحفوظات بالقلعة أو بدار كتب خانة بباب الخلق وايضا بمكتبة الملك سعود بالرياض بالمملكة العربية السعودية وكذلك ستون رسالة فقهية تضمن الفتاوى وأجوبة الاسئلة التي تم سؤال الشيخ واستفتائه عن بعض الاحداث اوالمواقف التي يسلتزم وجود الرأي الشرعي فيها سواء في مصر او خارجها، وقد ذكر الشرنبلالي نسبه في احدى رسائله الفقهية وهي الرسالة السادسة المعنونة ب **(درة الكنوز فمن عمل بها بالسعادة يفوز)** حيث قال: **(واذا حسن الشبرايلولي يشهر ناظمها حسن بن عمار بن علي الشرنبلالي وهذا غلط شايع سايغ والاصل الشبرايلولي نسبة لبلدة قرية تجاه مدينة منف العليا بأقليم المنوفية بسواد مصر المحروسة يقال لها شبرايلولا واشتهرت النسبة اليها بلفظ الشرنبلالي فلله الحمد كانت ولادتي بها في القريب من وسط العشر الاخير من تمام االلف وهو العشر الذي يلي التسعين وتسعمائة واتي بي والدي رحمه الله الي مصر وسنى يقرب من ست سنين ومن الله تعالى بما اراداه من قسمته الازلية وترادف نعمه الجزيلة العلية....)**[2]

التعريف بالمخطوط:

(إسعاد آل عثمان المكرم ببناء بيت الله

=

وشبٌ سنيًا، هو مؤسسة متخصصة في شئون الدعوى الإسلامية وذلك من وعظ وإقامة شعائر، وتعليم ديني وإفتاء عام هدفها فتح الحدود بين الأصول السماوية للشريعة وبين واقع الناس بما يجعلهم يحيون حياة حضارية متقدمة في ظلال عقيدتهم مسعود الخوند، **الموسوعة التاريخية الجغرافية**، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ٢٠٠٦م، ج١٩/ ٥٨،٥٩.

(١) الزركلي، **المرجع السابق**، ص ١٠٠.

(٢) حسن بن عمار الشرنبلالي، **التحقيقات القدسية والنفحات الرحمانية في مذهب السادة الحنفية**، الرسالة السادسة، رقم ٩٤٤، ١٣١٦هـ، مكتبة جامعة الرياض، السعودية، ص ٥٩.

المحرم)[1]

وتوجد المخطوطة بمفردها محفوظة في دار الكتب والوثائق القومية بالقاهرة، وكذلك تقع تلك المخطوطة ضمن ستون رسالة فقهية قال عنها الشرنبلالي:

وقد تنوعت الرسائل الفقهية وهي عبارة عن أسئلة تم توجيها للشيخ الشرنبلالي في فترات زمنية مختلفة وقام بالاجابة على كل رسالة بفتوى شرعية موضحة ومفسرة بالادلة الدينية من الكتاب والسنة وكذلك من أثر السلف الصالح وأئمة المذاهب الأربعة وتنوعت تلك الرسائل ما بين علوم دينية مثل العبادات والعقائد وما يشتمل عليه وكل ما يرتبط بالفرد من شئون دينية واجتماعية واقتصادية وأو علوم دنيوية مثل الطب والهندسة والرياضيات والادب والشعر.

وقد جمع الشيخ الشرنبلالي تلك الرسائل الفقهية في مخطوط واحد تحت عنوان التحقيقات القدسية والنفحات الرحمانية في مذهب السادة الحنفية، ويذكر الشرنبلالي اسباب جمع الرسائل الفقية فيقول: **(بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله المتفضل على الموجودات بالإيجاد والإمداد والتبيين والصلاة والسلام على سيدنا محمد الامين المبعوث رحمة للعالمين وعلى ساير الانبياء والمرسلين والصحابة والتابعين والعلماء الراشدين والاولياء العارفين وبعد، فيقول العبد الفقير الحقير حسن الشرنبلالي الحنفي أنه قد امرني استاذي الشيخ الامام العالم الحبر النحرير الهمام ملحق الاحفاد بالاجداد شمس الملة والدين محمد بن المحب الحنفي تغمده الله برحمته وافاض عليه من جزيل نعمته ووالديه ومشايخه وتلامذته وساير مشايخنا واهلينا وذرياتنا واخواننا في دار الخلد وكرامته وجمعنا به في حظيرة قدسه مع اهل محبته ومتعنا بلذيذ مشاهدته وجوار خير خلقه وصفوته امين، بأن أجمع ما يسره الله تعالى من الرسايل في تحقيق عزيز المسايل فامتثلت أمره الشريف وارشاده لهذا الفضل المنيف وعرفت مقصده من ذلك سلك الله بنا احسن المسالك ووقانا شر النفوس وطريق المهالك وجعلنا ممن تخلص من مضرات العلايق والنظر للشهوات العوايق والهمنا رشدنا ووفقنا لما يرضيه ويرضى به عنا وجمعت ماتجمل منها بحلول نظره عليه وماتجدد بعده منها ببركة مطمح خاطره**

---

(1) مخطوط محفوظ بدار الكتب والوثائق القومية بالقاهرة، تحت رقم ٤٧٨، فقه حنفى.

الشــريف اليســر، وســميتها التحقيقــات القدسية والنفحات الرحمانيه الحسنية فـي مـذهب السـادة ب الحنفيـة سـائلا مـن اللـه الكريم القبول فهـو خير مسئول وأكـرم ما مول متوسلا بالحبيب المصطفى زاده الله فضـلا وشـرفا وهـذه فهرسـتها علـى ترتيـب كتب الفقه....)[1]

واستعرض الشرنبلالي فـي مقدمته عنـوانين السـتين رسـالة فقهيـة التـي رد عليها بأجوبتـه الشرعية بدء من الرسالة الاولى التي عنونت **(اسـعاد أل عثمـان المكـرم ببنـاء بيـت اللـه المحـرم)** التـى نحـن بصـددها فـي الدراسـة الحاليـة وذكـر سـبب تقـديم تلـك الرسـالة عـن بـاقي الرسـايل الفقهيـة بوصـفه أنهـا القبلـة وذلـك لتميـز موضـوعها وأهميتـه للمسـلمين كافة.

وهـي عبارة عـن خبر وصل مـن مكـة للشـيخ الشـرنبلالي فـي يـوم الأربعـاء الموافـق تاسـع عشـر شـعبان سـنة تسـع وثلاثين وألـف هجريًا أنـه بنـزول بنـزول سـيل عظـيم اقتلـع الأشـجار والأحجار واغرق وأبكى العيون بالدموع...

نص الرسالة:

وبــدأ الشــيخ الشــرنبلالي رســالاته الفقهيــة كعادتــه فــي الكتابــة والــرد علــى الأســئلة الموجهة له بالبسملة والثناء والحمد ثم الصلاة على سيدنا محمد ﷺ قائلاً:

(بســم اللــه الــرحمن الــرحيم وبــه الإعانــة والحمد لله الـذي جعـل البيت مثابـة للناس وآمنا غير مجحـود وأمـر بتطهيره للطـائفين والعاكفين والركع السجود وأنـزل عليه كـل يوم وليلة مايـة وعشرون رحمـة[2] **مقسـمة**

(١) حسن بـن عمار الشرنبلالي، **التحقيقات القدسية**، المصدر السابق، ص ٢.للمزيد: المخطـوط عبـارة عـن ستين رسالة فقهية له العديد من النسخ فـي عـدة أمـاكن منهـا، مركـز جمعـة الماجـد بـدبي بـرقم (٢٢٧٢٥١)في ٥٤٨ ورقة، ومنها نسخة خطية في المكتبة الظاهرية بدمشق تحت رقم ٥٣٤٩، وفـي جامعـة الملك سـعود بالرياضى تحت مجموع رقـم ٢١٧/٤، ومكتبة قرة ياشي بمكتبة الملك عبد العزيز بالمدينـة تحت رقـم ٥٩١،وفـي المكتبـة المحموديـة بمكتبـة الملـك عبـدالعزيز بالمدينـة تحت رقـم ١١٦٤، وفـي المكتبـة السـليمانية بتركيـا بـرقم ١/١٠٤٤،أبـي هاشم إبراهيم بـن منصـور الهاشـمي الأمير، **رسائل علماء الاسلام في قتال من استباح مكة وقتل الانـام**، ط١، (بيـروت، دار البشـائر الاسـلامية، ١٤٣٦هـ-٢٠١٥م)، ص ٩٦. وفـي القـاهرة بـدار الكتب والوثائق القوميـة، مـذهب حنفـى م، تحت رقـم ٥٢ ونسـخة اخرى تحت رقم ١٣٢ الحسيني.

(٢) عن ابن عباس قال: قال رسـول اللـه - صلى اللـه عليـه وسـلم: " إن اللـه ينـزل فـي كـل يـوم وليلـة عشـرين ومائـة رحمـة ينـزل علـى هـذا البيت سـتون للطـــائفين، وأربعـــون للمصـــلين، وعشـــرون للناظرين ." رواه الطبراني فـي الكبير والأوسـط إلا أنـه قـال: " ينـزل علـى هـذا المسـجد - مسـجد =

على ما تقدم من أهل الشهود والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد صاحب المقام المحمود والحوض المورود والذي شرف به الله به كل مكان وزمان بفضل غير مجذوذ وعلى آله وأصحابه وأزواجه وذريته والتاربعين باحسان إلي يوم الورود وبعد......)[1]

ثم استعرض الشيخ الشرنبلالي عدة موضوعات بتلك الرسالة الفقهية فلم تكن مجرد فتوى شرعية عن سؤال تم توجيهه للشيخ وإنما كانت جواب مفصل واف تاريخيا عن مكة والكعبة المشرفة والأحداث التى وقعت بها عبر عصور مختلفة كما ذكر عدة شخصيات مهمة في تاريخ الكعبة المشرفة كان لها التأثير علي مجريات الأحداث كما سنوضح.

(وبعد فيقول الفقير إلى لطف مولاه الخفي حسن الشرنبلالي الوفائي الحنفي أنه قد ورد الخبر من مكة المشرفة بأنه لما كان يوم الاربعاء تاسع عشر شعبان سنة تسع وثلاثين وألف[2] ابتد نزول سيل عظيم أقتلع الأشجار والأحجار وأغرق، فأبكى العيون بالدموع الغزار لما أنه لعظمة ودوام ثباته بالمسجد الحرام أسقط ميزاب الرحمة[3] وما قام عليه من الجدار بالحجر وذلك المقام وقطعة من الجانب الذي به الباب ثان يوم نزوله فدهشت لذلك العقول

=

مكة ." وفيه يوسف بن السفر، وهو متروك. وفي رواية: " وأربعون للعاكفين " بدل: " المصلين ." الهيثمي، نور الدين علي بن أبي بكر، **مجمع الزوائد ومنبع الفوائد**، تجقيق: حسام الدين القدسي، (القاهرة، مكتبة القدسي، ١٤١٤هـ-١٩٩٤م)، باب الحج.

(١) الشرنبلالي، مخطوط **اسعاد آل عثمان المكرم ببناء بيت الله المحرم**، المصدر السابق.

(٢) عام ١٠٣٩هـ / ١٦٣٠م.

(٣) **ميزاب الكعبة:** هو الجزء المثبت على سطح الكعبة في الجهة الشمالية والممتد نحو حجر إسماعيل عليه السلام والمصرف للمياه المتجمعة على سطح الكعبة المشرفة عند غسل السطح أو عند سقوط الأمطار، وأول من وضع ميزابا للكعبة المشرفة قريش حين بنتها سنة ٣٥ من ولادة الرسول صلى الله عليه وسلم حيث كانت قبل ذلك التاريخ بدون سقف وطوله أربعة أذرع اي ٢,٥٨ مترا منها ٥٨ سم في داخل الجدار وعرضه ٢٥ سم وارتفاعه ٢١ سم، وسعته ثمانية أصابع في أرتفاع مثلها والميزاب ملبس بصفائح الذهب والذي جعل عليه الذهب الوليد بن عبد الملك، وشكله مستطيل مفتوح من اعلاه ممايلا للسماء ومن مؤخرته ممايلا لسطح الكعبة وكذلك من مقدمته ممايلا حجر اسماعيل ويبلغ طوله.للمزيد: الأزرقي، **المرجع السابق**، ج١/٢٠٢.

والالباب ولما بلغ خبر ذلك لكافل كنانة الله في أرضه المأنوسة أشرف الممالك مصرنا المحروسة المقلد تدابير الدولة المرادية[١] والقوانين العثمانية والقيام بنظام الشريعة المطهرة المحمدية صاحب السيد الأوحد مولانا الوزير محمد باشا[٢] يسر الله له من أسباب السعادة ما يشاء فأهتم لذلك الوارد وجمع من العلماء والأكابر الأماجد لينظر ما تجتمع عليه الآراء السديدة في شأن هذا الأمر المهم وما أراد من المبادرة للعمارة من غير توقف واستنارة في مدة غير مديدة ثم بادر إلى الارسال إلى مكة المشرفة من يعتمد عليه في الأمور المهمة وأحتاط لينظر الجواب من الباب الذي لا يخيب قاصده والجناب الذي لا يشقى وافده والمورد العذب الذي لا يظمأ وارده حضرة مولانا السلطان الاعظم والخاقان الأفخم وارث المجد وحايز قصبات السبق بالجد والأب والجدد...)

ثم يستعرض الشيخ الشرنبلالي ما حدث للكعبة في عهد السلطان سليمان القانوني[٣] ومن ترميمات وكذلك كيفية

---

(١) الدولة المرادية المقصود بها الدولة العثمانية ونسبها الشيخ الشرنبلالي للسلطان مراد الرابع سلطان الدولة العثمانية الذي تولى عرش السلطنة من سنة ١٠٣٢-١٠٤٩هـ/ ١٦٢٣-١٦٤٠م وهو في الحادية عشرة من عمره وكان شديد البأس ولوعا بالحرب ويعتبر آخر ملوك آل عثمان الحربيين وتوفى وهو في الثامنة والعشرين من عمره وتميز عهده بالعدل والنظام وقام بفتح بلاد وخوض حروب كثيرة مع الفرس. للمزيد: عمر الاسكندري، سليم حسن، **تاريخ مصر من الفتح العثماني إلى قبيل الوقت الحاضر**، راجعه: أ.ج. سفدج، ط٢، (القاهرة، مكتبة مدبولي، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م)،ص ٣٩-٤٢.

(٣) الوزير محمد باشا: تولى حكم مصر في عهد السلطان مراد الرابع بعد استدعاء حاكم مصر مصطفى باشا الي استنول وتعيينه وزيرا بديوان الدولة العثمانية، وكان محمد باشا مدة حكمه بمصر سنتين فساس الامور بحكمة ودراية وكان محبا للعزلة فلم يخرج بموكبه في أثناء حكمه الا ست مرات، وفي حكمه سنة ١٠٣٩ حدث السيل في مكة وكذلك في سنة ١٠٤٠هـ كان ارتفاع النيل منخفضا فجاء شهر توت ولم يبلغ ١٦ ذراعا ومع ذلك فتح الخليج وسيقت المياة قليلة الى الارضين ولكن آمنت البلاد من المجاعة بسبب تدبير محمد =

= باشا فاستدعاه السلطان مراد الي استنبول وقلده منصب الوزارة في الديوان الشاهاني مكأفاة لحسن سياساته وتصرفه.

جرجي زيدان، **تاريخ مصر الحديث مع فذلكة في تاريخ مصر القديم**، (القاهرة، مكتبة مدبولي، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٩م) ج٢،ص ٣٤،٣٣.

(١) سليمان القانونى: هو ابن السلطان سليم الأول، ولد عام ٩٠٠هـ / ١٤٩٤م وتولى زمام السلطنة عام ٩٢٦هـ/١٥٢٠م، ولقب بالقانوني؛ حيث إنه وضع عدة قوانين تتعلق بالإدارة، وتمت في عهده عدة =

الصرف علي بناءها عام ٩٥٩هـ - ١٥٥٣م:

(......إن عمـارة البيــت الشــريف والقيــام بواجب خدمته بما صار إليه الان مضاف إلى السـلطان مـراد خـان... غـذا لـم يبلغـه مـن قبله من سلطان زيادة علـى مـا كـان لابيـه لمجـده مـن التشـريف بعمـارة سـقف البيـت المنيـف وذلـك بسـبب انكسـار خشـبة مـن سقفه المكرم فصار الماء ينزل مـن موضـع الكسـر إلـى جـوف البيـت المعظـم فعـرض الاميـر علــى حضـرة مولانــا المغفــور لــه السلطان سليمان خان جـد مولانا آدام اللـه دولتــه ومــا تعاقــب (....)[1] فأرســل الــي مفتــي الاســلام[2] أبــي الســعود أفنــدي سقى الله عهده يستفتيه[3] عن حكم الله

=

فتوحـات، وتـوفي عـام ٩٧٤هـ / ١٥٦٦م وعمـره ٧٤عام وكانت مدة حكمه ٤٨ عام، وقد مات في إحـدى الغـزوات وأُخفـي خبـر وفاتـه لمـدة ثلاثـة أسابيع. محمد حرب، **الحملات الحربية في عهد سـليمان القـانوني**، القـاهرة، ٢٠٠٢، ص ٢٢٩ - ٢٤١. http:/www.scopus.comرقم العدد ٥٥-٥٦

(٢) الكلمة غير واضحة بالمخطوط.

(٣) هكذا كانت ألقاب الشخصية الثانية بعد السلطان في إستنابول، الشخصية المساوية للصدر الأعظم بالإضافة إلـى عـدة ألقاب أخرى أقدمها استعمالاً مفتــي الأنــام، صــدر الصــدور، و مالــك الشــرع والتقوى، مرشد الملوك والسلاطين، مربي أفاضل الأمم، مسند الفتوى الركين. وقد اختلفت الروايات فـي بدايـة ظهـور هـذا المنصـب وتحديـد الوقـت

=

=

الذي أطلق فيه على مفتي العاصمة لقب شيخ الإسلام وقد قيل أن أول ظهوره كـان فـي عهد السـلطان مـراد الثـاني (٨٢٥هـ/١٤٢١م - ٨٥٥هـ/ ١٤٥١م) وكان أول من تولى هذا المنصب أده بالي حما عثمان، وهناك رواية أخرى تقول أن أول من مُنح هذا اللقب بشكل رسمي هو خضر بك عليّ بعد فتح السلطان محمد الفاتح (٨٥٥هـ - ١٤٥١م / ٨٨٥هـ - ١٤٨١م) للقسطنطينية. و بمنح هذا اللقب لمفتــي العــرش بإســتنابول بــدأت المؤسســة المسماة المشيخة ولكن نفوذ شيخ الإسلام تبلور بصورة تامة وغدا يعترف به أوائل القرن السادس عشر الميلادي وكان لقب مفتي أفندي أو مفتي الأنام بشكل مطلق يعنـي شيخ الإسـلام وهـذه المرتبـة كانـت تفـوق مرتبـة الـوزارة وتعـادل مرتبـة الصـدارة. مصـطفى بركـات، **الألقـاب والوظـائف العثمانيــة مــن الفــتح العثمــاني حتــي الغــاء الخلافـة العثمانيـة**، (القـاهرة، ٢٠٠٠م)، ص ١٢٧ -١٣٠؛ يلماز أورتانا، **تاريخ الدولة العثمانية**، ترجمة عـدنان محمــد ســليمان، مراجعــة محمــد الأنصــاري، ط١، (إســتنابول منشــورات مؤسســة فيصــل للتمويــل، ١٩٩٠م)، ج٢ / ٤٧٢-٤٧٣.

(٤) كان من مبادئ وأُسُس الدولة العثمانية احترام العلماء وتبجيلهم وتقديرهم حتى أن التاريخ حفظ لنا وصـية عثمـان (٦٥٦هـ - ١٢٥٨م) لابنـه أورخـان وهو على فـراش الموت وكانت تلك الوصية فيها دلالــة حضــارية ومنهجيــة ســارت عليهــا الدولــة العثمانيـة خاصّة فـي أوج سـلطتها وانصـرفوا عنهـا فيما بعـد، يقـول فـي وصيته: **(يا بنـي: إيـاك أن تشـتغل بشـيء لـم يـأمر بـه اللـه رب العـالمين، وإذا واجهتـك فـي الحكـم معضـلة فأتخـذ مـن**

=

في هذه المسألة جوازا[1] وعدما فكتب إليه يجوز ذلك إن دعت الضرورة إليه فارسل الجواب الي صاحب مصر يومئذ الوزير على باشا فأرسله الى الحرم الشريف مع أمر مضمونه العمل بمقتضى الفتوى، واتفقت أراء الحاضرين بمكة إذا ذاك على الاقدام على عمارة السطح وتبديل الاعواد وعينوا الابتداء بالشروع صبح يوم السبت منتصف ربيع الأول سنة ٩٥٩هـ....).

ثم تطرق الشرنبلالي الي مخالفة بعض العلماء لذلك وحدثت فتنة وتأثير خطبة الشيخ البكري وافتاءه بأن من يخالف ذلك بأنه هوى، وتم اعادة بناء الكعبة واستبدلت الأعواد كما في الفتوى الأولى:

(فتعصب جماعة حركتهم الأنفس والأغراض

=

مشورة علماء الدين موئلاً، يا بني لسنا من هؤلاء الذين يقيمون الحروب لشهوة حكم أو سيطرة أفراد فنحن بالإسلام نحيا وللإسلام نموت وهذا يا ولدي أنت له أهل، يا بني: أوصيك بعلماء الأمة أدم رعايتهم وأكثر من تبجيلهم وأنزل على مشورتهم فإنهم لا يأمرون إلا بالخير)، لقد كانت هذه الوصية منهجًا سار عليه بعض سلاطين العثمانيون فاهتموا بالعلم وبالمؤسسات العلمية وبالعلماء واحترامهم وأخذ مشورتهم في كل صغيرة وكبيرة يقدمون عليها ويستفتونهم فيفتونهم حتى أن السلطان سليم الأول عندما دخل مصر وتم القبض على طومان باي آخر سلاطين المماليك توجه له قائلاً: (أنا ما جئت عليكم إلا بفتوى من علماء الأعصار والأمصار وأنا كنت متوجها إلي جهاد الرافضة والفجار فلما بغى أميركم الغوري واتفق مع الرافضة واختار أن يمشي إلى مملكتي التي هي مورث أبائي وأجدادي مشيت إليه) علي محمد الصلابي، **الدولة العثمانية وعوامل النهوض وأسباب السقوط**، ط١، الإسكندرية، ٢٠٠١م، ص١٥-٤٩؛ عمر عبد العزيز عمر، **تاريخ المشرق العربي (١٥١٦- ١٩٢٢)**، بيروت، ١٩٨٥م، ص ٨٠، ٨١.

(١) **الإجازة:** لفظة عربية لغة و اصطلاحًا، وهي الشهادة التي كانت تُمنح لخريجي المدارس الشرعية، ويطلق على الخريج في هذه الحالة مُجاز. أما جواز الشيئ اصطلاحا يستعمل فيما لا إثم فيه، وهو ما وافق الشرع ويستعمل فيما لا يلزم من العقود، وهو ما يمكن للعاقد فسخه ومعنى جواز ما لا إثم فيه أنه ليس من الفعل

=

الذي يأثم فاعله، فيقال: يجوز للولى أن يقتص ممن قتل وليه أي قريبه، بمعنى أنه لا يأثم في ذلك إن فعله، ومعنى جواز ما لا يلزم من العقود كعقد المضاربة والشركة: أن لكل واحد من المتعاقدين حق الفسخ ويعرف الجائز أيضًا بأنه: ما لا ثواب فعله، ولا عقاب في تركه وعلى هذا فهو والمباح شيئ واحد. وهو سهيل صابان، ص، **المعجم الموسوعي للمصطلحات العثمانية التاريخية**، (الرياض، مكتبة الملك فهد الوطنية، ٢٠٠٠م)، ص ٢٦؛ **معجم مصطلحات أصول الفقه**، ط٢، (القاهرة، مجمع اللغة العربية، ١٤٣٣هـ- ٢٠١٢م)، ص ٥٥.

الفاسدة بمخالفة ذلك وحركروا طايفة من العلماء إلى الخلاف فلما بلغ الخبر للمقام المكرم الشريف السيد شهاب الدين أحمد أبن ابي عز صاحب مكة إذ ذاك حضر بنفسه من البر إلى مكة المشرفة وسيدنا ومولانا شيخ الاسلام شمس الملة والدين الشيخ محمد بن شيخ الاسلام أبي الحسن البكري[١] نفعنا الله ببركته وبركة أسلافه الكرام الطاهرة وجميع أكابر مكة وعظمائها وأشير الي سيدنا الشيخ محمد البكري أن يلقي درسا يتكلم فيه على قوله تعالى وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت الاية[٢] فتكلموا على جاري (...)[٣] بلسان فصيح طلق ولفظ منتظم بليغ مليح أبهر الحاضرين وأدهش الناظرين فأفاد وأجاد وقلد نفايس الدرر الجياد فلما أنقضى الدرس أخرج الناظر فتوى شيخ الاسلام أبي السعود فقرأها مولانا شيخ الاسلام محمد البكري وقال من يخالف في هذا من الناس فقد هوى عين الحق ومحض الصواب فأمر مولانا السيد أحمد القمال[٤] بالشروع في العمل وسكنة الفتنة وابدلت الأعواد بأعواد جيدة في غاية الإحكام والاستقامة واعيد السطح والسقف كما كان بغاية الاحكام وسطر ثواب ذلك في صحايف المرحوم السلطان سليمان تغمد[٥] الله بالرحمة والرضوان، وأيضا نرجوا من كرم الله سبحانه أن تكون هذه العمارة الحاصلة من مولانا السلطان مراد نصره الله مستمرة البقا[٦] مصانة عن التغيير الي انقضا[٧] الزمان..)

ثم يستعرض الشرنبلالي تاريخ اعمار الكعبة فيقول: (... فإن البيت المكرم عمر كما ذكره اهل التاريخ عشر مرات وسبب الثامنة منها أن أمراة بخرت الكعبة فطارت شرارة في ثياب الكعبة فأحترق أكثر اخشابها ودخلها سيل عظيم فصدع جدرانها بهد تهويتهاوكانت حية عظيمة تخرج من بير الكعبة التي يطرح فيها ما يهدي إليها فتشرف على جدار الكعبة لا

---

(١) وقد كان أول من لقب بشيخ الإسلام في عصر الدولة المملوكية هو الشيخ البكري جد أبي السرور البكري وكان يلقب بمفتي السلطنة الشريفة وهو أول من لقب بذلك أيضًا. محمد أبي السرور البكري، **التحفة البهية في تملك آل عثمان الديار المصرية**، تحقيق عبد الرحيم عبد الرحمن، (القاهرة، ٢٠٠٥م)، ص ٢٦-٢٧.

(٢) ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَـٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ ﴾، سورة البقرة.

(٣) كلمة غير واضحة بالمخطوط

(٤) لم نجد بهذا الاسم ترجمة لحكام مكة

(٥) تغمده

(٦) المقصود البقاء

(٧) انقضاء والمقصود انتهاء الزمان بيوم القيامة

يدنو منها احد إلا فتحت فاها لتلتقمه فكانوا بها (...) ويزعمون انها تحفظ الكعبة، وهدباها ورأسها كرأس الجدي وظهرها وبطنها أسود وأنها أقامة فيها خمسمائة عام فأبتهلوا إلي الله تعالى فبعث الله تعالى طائر اختطفها وذهب بها فقالت قريش نرجو ان يكون الله سبحانهوتعالى رضى لنا ما أردنا فعله فأجمع رأيهم على هدمها وبنائها فتقدم عايذ بن عمران بن مخزوم[1] وهو خال أبي النبي ﷺ فتناول حجرا من الكعبة فوثب من يده حتى رجع إلى مكانه فقال يا معشر قريش لا تدخلوا في بنايها من مالكم إلا حلالاً طيبا ليس فيه تهريقي ولا ربا ولا مظلمة، انتهى..)

وبعد ذلك يستعرض الشرنبلالي سبب كتابة هذا المخطوط اسعاد ال عثمان المكرم ببناء بيت الله المحرم وهو كيفية الصرف علي ترميم وبناء البيت الحرام ومن اي أموال تصرف عليه بناءا علي كتب المذهب الحنفي كما ذكر وقسم الأموال التى تصرف علي مصالح المسلمين مثل سد الثغور وبناء القناطر والجسور وكفاية[2] العلماء والقضاء والعمال ورزق المقاتلة وذرايتهم الي الجزية وهدية أهل الحرب وما أخذ منهم بلا حرب والخراج ومال (..) وعليه يصرف علي اعمار البيت الحرام من خزانة مال المسلمين وحث ولى الامر علي جعل بيت مال[3] لكل نوع خزانة ولا يخلط بعضه ببعض.

(فأول خزانة مال الجزية[4] والخراج وهدية

---

(١) عائذ بن عمران بن مخزوم والد عمرو أبو فاطمة جدة الرسول ﷺ وزوجة عبدالمطلب وأم عبدالله والد النبي الكريم صل الله عليه وسلم.

(٢) المقصود بها **الجراية** وهي القمح والشعير الذي يصرف كمرتبات شهرية لموظفي ولاية مصر، وكبار الأمراء، فالقمح يمنح طعامًا لهم، والشعير غذاء لخيولهم وجمالهم من الشون السلطانية- مخازن الغلال الأميرية -.عفاف مسعد العبد، **دور الحامية العثمانية في تاريخ مصر (١٥٦٤- ١٦٠٩ م)**، الهيئة العامة للكتاب (سلسلة تاريخ المصريين)، القاهرة، ٢٠٠٠م.، ص ٤٣،١١٠.

(٣) **بيت المال:** هو الخزانة العامة للمسلمين يوضع فيه الأموال ليصرف في مصالح الأمة العامة. وضع نواته في حياة النبي صلى الله عليه وسلم، ثم طوره عمر بن الخطاب و في عهد عمر بن عبد العزيز أصبح من أهم مؤسسات الدولة الإسلامية، وتكونت موارده من الخراج والجزية والفيء و الزكاة والغنيمة والمواريث. السيد سابق، **فقه السنة**، المجلد٣، القاهرة، ١٩٩٠م، ج٥٣٤/١٢؛ مصطفى عبد الكريم الخطيب، **معجم المصطلحات والألقاب التاريخية**، ط١، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٩٦، ص٩٣.

(٤) الجزية في اللغة مشتقة من مادة (ج ز ي)، تقول العرب: "جزى، يجزي، إذا كافأ عما أسدي =

أهل الحرب وما أخذ منهم بغير قتال وما يأخذه العاشر بحق من أهل الذمة[1] والحرب إذا مرو عليه وما لأهل نجران وما صولح عليه أهل الحرب لترك القتال قبل نزول العسكر بساحتهم كل ذلك يصرف إلى مصالح المسلمين كسد الثغور وبنا القناطر والجسور.....)

والثاني من الخزاين مال الزكاة والعشر ومصرفها من يجوز صرف الزكاة إليه.

والثالث من الخزائن خمس الغنايم[٢] والمعادن والركان ومصرفه ما ذكر في قوله تعالى واعلموا إنما غنتم من شيئ[٣] والرابع من الخزائن اللقطان[٤] والتركات التى لا وراث لها ودية مقتول.... ومصرفه اللقيط والفقير

=

إليه"، والجزية مشتق على وزن فِعلة من المجازاة، بمعنى "أعطوها جزاء ما منحوا من الأمن"، وقال ابن المطرز: بل هي من الإجزاء "لأنها تجزئ عن الذمي ."

(١) **الذمة في اللغة:** هي العهد والأمانة والكفالة، وأهل الذمة هم أهل الكتاب الذين أعطي لهم عهد يؤمنون به على أموالهم وعرضهم ودينهم.وإذا تم عقد الذمة ترتب عليه حرمة قتالهم والحفاظ على أموالهم وصيانة أعراضهم وكفالة حرياتهم والكف عن أذاهم؛ بشرط أن يلتزموا أحكام الإسلام في الجملة و أن يبذلوا الجزية حيث أن القاعدة العامة التي رآها الفقهاء " أن لهم ما لنا وعليهم ما علينا" ولما كان الإسلام ومازال يحترم العقل الإنساني ويقدر الفكر البشري ويجعل العقل والفكر وسيلتين من وسائل التفاهم والإقناع فهو لا يرغم أحدًا على عقيدة معينة ولا يكره إنسانًا على ترك دينه ويقرر أنه لا إكراه في الدين بقول الله تعالى: ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ ﴾ ويقول الله تعالى: ﴿ وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ لَأٓمَنَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ كُلُّهُمۡ جَمِيعًاۚ أَفَأَنتَ تُكۡرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ﴿٩٩﴾﴾، وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفۡسٍ أَن تُؤۡمِنَ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ وَيَجۡعَلُ ٱلرِّجۡسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعۡقِلُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ **المعجم الوجيز**، مجمع اللغة العربية، القاهرة، ١٩٩١م، ص ٢٤٦. السيد سابق، **فقه السنة**، ج٣/ ١٠١-١٦٩،١١١-١٧١.

---

(٢) الغنيمة هى المال المأخوذ من الكفار بعد الحرب بايجاف الخيل والركاب.

(٣) ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا يَوۡمَ ٱلۡفُرۡقَانِ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾﴾ سورة الأنفال.

(٤) المقصود اللقيط وهو وفقاً للمذهب الحنفي اسم لشيء موجود، فعيل بمعنى مفعول كالقتيل والجريح بمعنى المقتول والمجروح، وفي الشريعة: اسم لحي مولود طرحه أهله خوفا من العيلة أو فرارا من تهمة الريبة.وأيضا كل صبي ضائع لا كافل له ولا فرق بين المميز وغيره، وفي المميز احتمال للإمام، والمعتمد الأول لاحتياجه إلى التعهد، ويقال له: دعي ومنبوذ، فقولنا: كل صبي خرج به البالغ لأنه مستغن عن الحضانة والتعهد فلا معنى لأخذه وقولنا ضائع المراد به المنبوذ.

الـذين لا أوليـاء لهـم يعطـى نسـبة نفقـتهم وأدويتهم وكفنهم وعقل جنايتهم انتهى كذا ذكـره الزيلعـي فـي شـارح الكنـز ويوافقـه مـا ذكره في الظهيرية[1].

كما ذكـر انـواع خـزائن بيـت المـال الاربعـة فـي البزايـة الاولـى الصـدقات والثاني مـا أخـذ مـن بنـى تغلـب وتجـار أهـل الذمـة فمحلـه الربطات والجسور والقنـاطر والائمـة والقضـاة القـائمون بالحق والثالث خمس الغنايم والرابع ما أخذ من تركـة ميـت لا وارث لـه فيصـرف فـي كفـن الامـوات ونفقـة المرضـى واللقـيط والأدويـة المرضى وعلاجهم وما هو عاجز عن الكسب.

ثم ينتقل الشرنبلالي ويـذكر مـا قالـه عبـد البر بـن الشـحنة[2] فـي شـرح منظومـة بـن وهبـان ويؤكد مخالفته لما قاله بن الشحنة حيث قـال بن الشحنة:

بيوت المال أربعة لكل مصارف بينتها العالمون

فأولها الغنايم والكنوز الي كان وبعدها المتصدقون

وثالثها خراج مع عشور وجالية يليها العاملون

ورابعها الضوايع مثل مالا يكون له اناس وارثون

فمصرف الاولين اتى بنص وثالثها جواه مقاتلون

ورابعها فمصرفها جهات تساوي النفع فيها المسلمون

وعقب الشرنبلالي علـي ذلك بقولـه: (**وفيـه مخالفة لما تقدم لانه جعل مصرف التركات**

---

(1) الفتاوى الظهيرية: هى لامام ظهير الدين، ابي بكر محمد بن أحمد بن عمر البخاري الحنفـي المتوفي ٦١٩هـ ومـن الفتـاوى نسـخة خطيـة فـي مكتبـة دار اسـعاف النشاشـيبي بالقـدس الشريف.الهاشـمى، **المرجع السابق**، ص ٢١٦.

(2) عبد البر بـن الشـحنة كـان قاضـي قضـاة مصـر فـي اواخـر العصـر المملـوكى واشـتهر بفسـاده وهجـاه شاعر في عصره بقوله:

فشا الزور فـي مصـر وفـي جنباتهـا ولمـا لا وعبـد البر قاضي قضاتها

أيـذكر فـي الأحكـام زورا وبـاطلا وأحكامـه فيهـا مختلفاتها

إذا جـاءه الـدينار مـن وجـه رشـوة يـرى أنـه حـل =

= **على شبهاتها**

فإسـلام عبـد البـر لـيس سـوى عمامـة والكفـر في سنامتها

أجــاز أمــوزا لا تحــل لملــة يحــل ويــرم مظهــزا منكراتها

ألست ترى الأوقـاف كيف تبدلت وكانت علـى تقديرها وثباتها

ولو أمكنته كعبة الله باعها وأبطل فيها الحج مع عمراتها

وقــد خــان قاضــي خــان فتواتــه بتغييرهــا عــن مقتضى موجباتها ابن إياس، **بـدائع الزهـور فـي وقـائع الـدهور**، القاهرة، ١٩٨٤، ج٥ /٨٩٧-٩٠٣؛ أبـي العماد بن الفلاح، **شذرات الذهب**، ج١٥٠/١.

والضوايع الجهات العامة وفيما تقدم جعل العامة في نحو الخراج والجزية وجعل التركات للمرضى واللقيط والعاجز عن الكسب وأكفانهم وأدويتهم انتهى)

وأيضًا عقب على قول ابن الشحنة في استخدام الأموال في زينة الكعبة مستند الي فتاوى قاضي خان[1] و معترضا بقوله: (**...ولا شك أن قيامها ببناءها مقدم علي زينتها كالقناديل التى اهديت للكعبة وهذا المال أطيب من غيره فيعمر به الكعبة المشرفة خير من بقائه حتى تتطرق إليه الايدي العادية[2] والعياذ بالله كما صار في الزمن السابق انتهى)**

ثم ختم رسالته مؤكدا ان الاحجار التى تبنى بها الكعبة لابد ان تكون من جبل لم يستخدم في بناء غير الكعبة ولا الاخشاب وكذلك الاخشاب فذا بقي من الاحجار المنكسرة مالم يدخل في البناء متى كان مبنياً تحفظ الاحجار بوضعها في المسجد الحرام مع التراب مدفونًا لا يصل اليه أحد ومن أراد من المسلمين أخذ شيئ من التراب الباقي مما أسقط من بناء الكعبة المشرفة تبركاً مكن منه، ولكن يمنع اخذها من جوفخها بالحفر صيانة لها..ثم ختم بالدعاء للكعبة المشرفة قائلاً:

(**صانها الله وعمرها وأدام اسباغ الرحمة عليها وعمرها وعم جميع المسلمين وبلاد الاسلام بمددها ونساله سبحانه أن يمن علينا بالعود لنتمتع بمشاهدتها والطواف بها والتيمن بلث ترابها والصاق جباهنا بعتبة بابها والالتزام بالملتزم والشرب من ماء زمزم وتقبيل الحجر الاسود المعظم والصلاة خلف المقام المكرم ختاما ولنعم الختام، تمت تأليف الرسالة في سنة تسعة وثلاثين وألف**).

الخاتمة

تعد مخطوطة **إسعاد آل عثمان المكرم ببناء بيت الله المحرم** للشيخ حسن بن عمار الشرنبلالي الحنفي مصدر مهم من مصادر تاريخ القرن السابع عشر الميلادي حيث انها اوضحت كثير من الامور المهمة في بلاد الحجاو غير انها بينت مدى أهمية أقدس الاماكن مكة المكرمة والكعبة المشرفة عند الحكام على مر العصور.

ومن دراستها اكدت فكرة لماذا جعلها الشرنبلالي في بداية الرسايل الفقهية

---

(١) فتاوى قاضي خان: هى للحسين بن منصور المعروف بقاضي خان الفرغاني المتوفي سنة ٥٩٢هـ.

(٢) المقصود بها السرقات.

وسماها القبلة قبلة الرسائل الفقهية التى جمعها في التحقيقات القدسية والنفحات الرحمانية، وذلك لاهميتها واهمية موضوعها الخاص بالكعبة وترميمها.

علاوة على ان الشيخ الشرنبلالي بسهولة اسلوبه وشرحه المبسط قسم انواع الصرف علي البيت الحرام ولم يكتفى بذلك بل أوضح ما يصرف المال داخل الكعبة المشرفه نفسها بشرح مفصل ومبسط وانواع بيت المال والاموال التى به وكيفية الصرف منها وعلى من تصرف واستخدم بعض الامثلة من علماء المذهب الحنفي السابقين له كذلك استخدم الشعر في تبسيط معلوماته وتوضويحها بالادلة الشريعة من الكتاب والسنة الشريفة ومن كتب السلف الصالح والسابقين.

فهى بحق من الرسائل الفقهية المهمة وأتمنى من الله ان أكون وفقت في عرضها.

ولله الحمد من قبل ومن بعد.

المصادر والمراجع

أولاً المصادر:

- **المصادر المطبوعة:**

١- **القرآن الكريم**

٢- ابن أبي الشجاع: **متن كتب عبادات** - فقه شافعي - بيروت، بدون تاريخ

٣-ابن العماد أبي الفلاح الحنبلي: **شذرات الذهب في أخبار من ذهب**، بيروت، بدون تاريخ.مكتبة الاسكندرية.

٤- ابن إياس، **بدائع الزهور في وقائع الدهور**، القاهرة، ١٩٨٤، ج٥

٥- ابن حامد محمد بن محمد الغزالي: **أحياء علوم الدين**، تحقيق سيد إبراهيم، صادق عمران، الطبعة الأولى، القاهرة، ١٩٩٩م.

٦- أحمد بن حمدان الحراني الحنبلي: **صفة الفتوى والمفتي والمستفتي**، تحقيق. محمد ناصر الدين الألباني، بيروت، ١٩٨٤م.

٧- أبو عبدالله محمد ابن اسماعيل البخاري: **صحيح البخاري**، باب العلم، ١٣٩٠.

٨- أرسلان، الأمير شكيب، **الرحلة الحجازية المسماة الأرتسامات اللطاف في خاطر الحاج إلى أقدس مطاف**، تقديم وتعليق: السيد محمد رشيد رضا، حسن السماحي سويدان، ط١، (بيروت، دار النوادار، ١٤٢٨هـ -٢٠٠٧م).

٩- الأزرقي، أبي الوليد محمد بن عبدالله بن أحمد، **أخبار مكة وما جاء بها من الاثار**، تحقيق: رشدى الصالح ملحس، ط٣، (بيروت:دار الأندلس، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م) ج١

١٠- الزركلي، **الاعلام**، ط١٥، (بيروت، دار العلم

للملايين، ٢٠٠٢م)، ج٢

١١- الهيثمي، نور الدين علي بن أبي بكر، **مجمع الزوائد ومنبع الفوائد**، تجقيق: حسام الدين القدسي، (القاهرة، مكتبة القدسي، ١٤١٤هـ- ١٩٩٤م).

١٢-محمد أمين المحبي: **خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر**، القاهرة، بدون تاريخ.

١٣- محمد بن أبي السرور البكري: **التحفه البهية في تملك آل عثمان الديار المصرية**، تحقيق عبد الرحيم عبد الرحمن، القاهرة، ٢٠٠٥م

١٤-محيي الدين أبي زكريا يحيي بن شرف النووي الدمشقي: **رياض الصالحين من كلام سيد المرسلين**، تحقيق محمد عصام الدين آمين، مكتبة الإيمان، المنصورة، كتاب العلم، ١٣٨٦.

ثانيا المخطوطات:

حسن بن عمار بن يوسف الوفائي المصري الشرنبلالي:

١- **إسعاد آل عثمان المكرم ببناء بيت الله المكرم**، محفوظ بدار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، تحت رقم ٤٧٨ فقه حنفى، وأيضا برقم ٥٣ فقه حنفى م.

٢- **التحققيات القدسية والنفحات الرحمانية في مذهب السادة الحنفية**، محفوظة بدار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، تحت رقم ١٣٢ فقه الحسينى، وأيضًا رقم ٥٢، فقه حنفى م.

ثالثًا الرسائل العلمية:

١- سماح رجب عبد الصمد: **تاريخ الفتاوى والإفتاء في مصر العثمانية (١٥١٧-١٧٩٨م)**، رسالة ماجستير، كلية الآداب، جامعة الأسكندرية، ٢٠١٢م.

رابعًا: الموسوعات والقواميس اللغوية والجغرافية:

١- **المعجم الوجيز**،مجمع اللغة العربية

٢- محمد حسن رمزي، **القاموس الجغرافي للبلاد المصرية**، (القاهرة، الهيئة العامة للكتاب، ١٩٩٤م)، ج٢

٣- مسعود الخوند، **الموسوعة التاريخية الجغرافية**، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ٢٠٠٦م.

٤- **معجم مصطلحات أصول الفقه**، مجمع اللغة العربية، الطبعة الثانية، القاهرة، ١٤٣٣هـ- ٢٠١٢م.

خامسا: المراجع العربية:

1- أبي هاشم إبراهيم بن منصور الهاشمي الأمير، **رسائل علماء الاسلام في قتال من استباح مكة وقتل الانام**، ط1، (بيروت، دار البشائر الاسلامية، 1436هـ- 2015م)

2- أحمد تيمور باشا: **المذاهب الفقهية الأربعة وانتشارها عند الجمهور**، الطبعة الأولى، دار الآفاق العربية، القاهرة،2001م.

3- السيد سابق: **فقه السنة**، ثلاثة مجلدات، دار الريان للتراث، القاهرة،1990م.

4- الشيخ حسين الملاح: **الفتوى، نشأتها، تطورها**، جزءان، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، 2001م.

5- جرجي زيدان: **مصر العثمانية**، تحقيق محمد حرب، الطبعة الأولى، مكتبة مدبولي، القاهرة، 1999م

6- سهيل صابان: **المعجم الموسوعي للمصطلحات العثمانية التاريخية**، مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض، 2000م.

7- عبد الرحمن الجزيري: **الفقه على المذاهب الأربعة**، قسم الأحوال الشخصية، دار الإرشاد للطباعة، القاهرة،1999م.

8- عفاف مسعد العبد: **دور الحامية العثمانية في تاريخ مصر (1564-1609 م)**، الهيئة العامة للكتاب (سلسلة تاريخ المصريين)، القاهرة، 2000م.

9- علي محمد الصلابي: **الدولة العثمانية وعوامل النهوض وأسباب السقوط**، الطبعة الأولى، دار السلام، الإسكندرية، 2001 م.

10- عمر الاسكندري، سليم حسن: **تاريخ مصر من الفتح العثماني إلى قبيل الوقت الحاضر**، راجعه: أ.ج. سفدج، ط2، (القاهرة، مكتبة مدبولي، 1416هـ/1996م).

11- عمر عبد العزيز عمر: **تاريخ المشرق العربي (1516م- 1922م)**، دار النهضة العربية، بيروت، 1985م.

12- محمد حرب: **الحملات الحربية في عهد السليمان القانوني**، القاهرة، 2002م.

13- مصطفى بركات: **الألقاب والوظائف العثمانية منذ الفتح العثماني حتى إلغاء الخلافة**، القاهرة، 2000م.

١٤- مصطفى عبد الكريم الخطيب: **معجم المصطلحات والألقاب التاريخية**، الطبعة الأولى، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٩٦م.

١٥- يلماز أوزتانا: **تاريخ الدولة العثمانية**، ترجمة عدنان محمد سليمان، مراجعة محمد الأنصاري، الجزء الثاني، منشورات مؤسسة فيصل للتمويل، الطبعة الأولى، إستانبول، ١٩٩٠م.

سادسا: المواقع الالكترونية:

2 -http: //www.alazhr.org

3- http://www.al-eman.com

4- http://www.al-mostafa.com

5- http://www.al-waqfia.com

8- http://www.ebooks-center.net

9- http://www.Islamic-counciq-gov.eg

10- http://www.Islam-qa.com

11- http://www.Islamonline.com

12- http://www.Islamspirit.com

15-http://www.mwso3a.com


معهد الدراسات العثمانية


حصريا يوفر مركز التاريخ العربي
المجموعة الوثائقية الكاملة
لسجلات المحكمة الشرعية لدمشق
من الأرشيف العثماني
بسعر ٢٠٠٠ دولار
للتواصل 009054461 1 7942


حصريا يوفر مركز التاريخ العربي
المجموعة الوثائقية الكاملة
لسجلات المحكمة الشرعية لحلب
من الأرشيف العثماني
بسعر ٢٠٠ دولار
للتواصل 00905446117942


وثائق لقبائل
يمننا السعيد
باقة ضخمة من وثائق اليمن
من القرن العاشر حتى القرن الرابع
عشر الهجري
للتواصل: mmk1976mmk@gmail.com
00201555566139 | 00201027013326
السعر ٢٠٠٠ دولار


وثائق لقبائل
بلاد الحرمين
باقة نادرة
من وثائق إقليم نجد والقصيم
بالمملكة العربية السعودية
السعر ١٠٠ دولار
للتواصل: mmk1976mmk@gmail.com
00201555566139 | 00201027013326


باقة نادرة
من وثائق دولة الكويت
السعر ١٠٠ دولار
للتواصل: mmk1976mmk@gmail.com
00201555566139 | 00201027013326


وثائق لقبائل قطر
باقة نادرة
من وثائق دولة قطر
السعر ١٠٠٠ دولار
للتواصل: mmk1976mmk@gmail.com
00201555566139 | 00201027013326


«٤٠٠ ألف وثيقة»
السعر ٢٥٠٠ دولار
مجموعة وثائق عثمانية جديدة
عن الجزيرة العربية وقبائلها
بها الكثير من المراسلات والتقارير
وخرائط وصور باللغة العربية
للتواصل mmk1976mmk@gmail.com
00905446117942 | 00201555566139